

كتاب الشعب

تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خبيركم من علم القرآن وعلمه
وهدى شروحه

٤١

من الشعب
الطبعة الأولى ١٩٨٨

إذا كان « العربي » سيجلد في مجلد واحد فتتزع هذه الورقة

قوله تعالى : يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿١﴾

قرأ المفضل عن عاصم « نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ » والأصل سَتَرَلْ ، فالتعليل مستند إلى الملائكة .
 وقرأ الكاسي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعشى « نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ » غير مسمى
 الفاعل . وقرأ الخنفي عن أبي بكر عن عاصم « نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالنون مسمى الفاعل ،
 الباقون « يُنَزِّلُ » بالياء مسمى الفاعل ، والضمير فيه لأمر الله عز وجل . وروى عن قتادة
 « نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالنون والتخفيف . وقرأ الأعشى « نَزَّلَ » بفتح الناء وكسر الزاي ،
 من النزول . « الْمَلَائِكَةُ » رفعاً مثل « نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ » (بِالرُّوحِ) أي بالوحي وهو النبوة ؛
 قاله ابن عباس . نظيره « يُفِيئُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » . الربيع بن أنس :
 بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذي يجب اتباعه . وقيل أرواح الخلق ؛
 قاله مجاهد ، لا ينزل ملك إلا ومعه روح . وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق
 الله عز وجل كصور ابن آدم ، لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم . وقيل بالرحمة ،
 قاله الحسن وقتادة . وقيل بالمهداية ؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو
 معنى قول الزجاج . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياة بالإرشاد إلى أمره .
 وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . والباء في قوله : « بِالرُّوحِ » بمعنى مع ، كقولك :
 نخرج بشيأه ، أي مع نياحه . (مِنْ أَمْرِهِ) أي بأمره . (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) أي على
 الذين اختارهم الله للنبوة . وهذا رد لقولهم : « لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثِيِّينَ
 عَظِيمٍ » . (أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء
 الإنذار ؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه . ودل على ذلك قوله : « فَاتَّقُونِ » . و« أَنْ »
 في موضع نصب بترغ الخافض ، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، ف« أَنْ »
 في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه

قوله تعالى : **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿١﴾
قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ** ﴾ أى للزوال والبقاء . وقيل :
« **بالحق** » أى لللدلالة على قدرته ، عنوان له أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيى الخلق بعد الموت .
﴿ **تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شئ .

قوله تعالى : **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** ﴿٢﴾
قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾ لما ذكر الدليل على توجيده ذكر بعده الإنسان
ومنا كدته ونمى طوره . « **والإنسان** » اسم للجنس . وروى أنه المراد به أبى بن خلف
الجهنمى : جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أترى يحيى الله هذا بعد ما قدرتم .
وفى هذا أيضا قول : « **أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** » أى خلق
الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فخلق أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاضع
فى الأمور . فعنى الكلام التعجب من الإنسان « **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ** » وقوله :
﴿ **فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ** ﴾ أى يخاضع ، كالخصم بمعنى المناسب . أى يخاضع الله عز وجل فى قدرته .
﴿ **مُبِينٌ** ﴾ أى ظاهر الخصومة . وقيل : مبين عن نفسه الخصومة بالباطل . والمبين :
هو المنصوح عما فى ضميره بمطيقه .

قوله تعالى : **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴿٣﴾
فيه ثلاث مسائل

الأولى - قوله تعالى : ﴿ **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ** ﴾ لما ذكر الإنسان ذكر ما من به عليه .
والأنعام : الإبل والبقرة والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، وقال للجموع ولأبقال
للغنم مفردة . قال حسان :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَاِلْحَوَاءُ • إِلَى عَذْرَاءٍ مَقِيلًا ^(١) عِلَاءً
 دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسَنَاتِ قَفَرٌ • تُفْعِلُ الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ ^(٢)
 وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْفِسُ • خِلَالِ مَرْوَجِهَا تَمِّمْ وَشَاءُ

فالتَّمُّ هنا الإبل خاصة . وقال الجوهرى : والتَّمُّ واحد الأنعام وهى المال الراعية ، وأكثر ما يقع هذا الأسم على الإبل . قال القزّاء : هو ذكر لا يؤنث ، يقولون : ههنا تَمُّ واردة ، ويجمع على تَمَانٍ مثل حَمَلٍ وَحَمَلَانٍ . والأنعام تَذَكَّرُ وتؤنث ؛ قال الله تعالى : « يَمَّا فِي بَطُونِهِ » ^(٣) . وفى موضع « يَمَّا فِي بَطُونِهَا » . وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان ، أو بفعل مقدر ، وهو أوجه .
 الثانية — قوله تعالى : (دَفَّ) ^(٤) الدَّفَّ : السَّخَانَةُ ، وهو ما استَدْفَى به من أصواتها وأوبارها وأشعارها ، ملابَسٌ وَلُحْفٌ وَقُطْفٌ . وروى عن ابن عباس : دفَّها تسليها ، والله أعلم . قال الجوهرى فى الصحاح : الدَّفَّ : تساج الإبل وألبانها وما يتضع به منها ؛ قال الله تعالى : « لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ » . وفى الحديث « لَنَا مِنْ دَفِّهِمْ مَا سَلَمُوا بِالْمِثْقَالِ » . والدَّفَّ أيضا : السخونة ، تقول منه : دَفَّى الرجل دَفَاةً مَشْلُوكَةً كراهة . وكذلك دَفَّى دَفَاً مَشْلُوعاً ظمأ . والاسم الدَّفَّ (بالكسر) وهو الشيء الذى يدفك ، والجمع الأدفاء . تقول : ما عليه دف ، لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفَاةً ؛ لأنه مصدر . وتقول : اقتد فى دَفِّه هذا الحائط أى كنه . ورجل دَفَّى على فَعِلٍ إِذَا لَبَسَ مَا يَدْفِئُهُ . وكذلك رجل دَفَانٌ وامرأة دَفَائى . وقد أدفاه الثوب وتدفا هو بالثوب واستدفا به ، وأدفا به وهو اقتل ؛ أى ليس ما يدفئه . ودَفَّوْتْ لَيْلَتَا ، ويوم دَفَّى على فَعِلٍ ليلة دَفِيئة ، وكذلك الثوب والبيت . والدَّفِيئة الإبل الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفئ بعضها بأنفاسها ، وقد يستد . والمدفأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم ؛ عن الأصمى . وأُنفِدَ الشايح :

وَكَيْفَ يَضِيعُ صَاحِبُ مُدَفَّاتٍ • عَلَى أَنْبَاجِهِنِ مِنَ الصَّيْحِ ^(٥)

- (١) ذات الأصابع والجواء . موضحان بالشام . وغزاه : قرية بضمه دمشق . (٢) الروامس : اسم رجل . والروامس : الرياح التى تثير الغراب وتدفع الآثار . (٣) آية ٦٦ من هذه السورة .
 (٤) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٥) التفتت (جمع غليظة) : كماله تامل ؛ أى وبر .
 (٦) أنباج : جمع نبع ، وهو مظهرها . وقيل : ما بين كاهلها ظهرها .

قوله تعالى : (وَمَتَّاعٌ) قال ابن عباس : المتاع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والحمل والألبان والهوم والسمن . (وَمَتَّاعٌ تَأْكُلُونَ) أفرد مضعة الأكل بالد كرايتها معظم للمتاع . وقيل : المتع ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثة - دلت هذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة قبله كعيسى وغيره . وفي حديث المنيرة : فضل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين الحديث ، نرجه مسلم وغيره . قال ابن العربي : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصعابة والتأبين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس ليلاً وخشاً وجيذاً ومقارياً ووديثاً ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية ، لأنه لباسهم في الغالب ، فالإيه للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تساجر الناس في الصوفى واختلقوا • فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أتحمل هذا الأسم غير قى • صافى فصوفى حتى سُمى الصوفى

قوله تعالى : وَلَكُرِّ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢٠﴾

الجمال ما يتجمل به ويرتد . والجمال : الحسن . وقد جمل الرجل (بالضم) جمالاً فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجملاء أيضاً عن الكسائي . وأنشد :

هوى جملاء كبدٍ طالع • بدت الخلق جميعاً بالجمال

وقول أبي ذؤيب :

جمالك أيها القلب الفرع •

يريد : الزم تجملك وحياءك ولا تجزع جزعاً قبيحاً . قال علماؤنا : فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلق ، ويكون في الأخلاق الباطنة ، ويكون في الأفعال . فاما جمال الخلق فهو

(١) شئ مغارب (كسر الزا) : وسط بين الجيد والردى . (٢) هذا مصدر لبيت ، وعزوه كما في اللسان :

• سئل من يحب قيسنج •

أمر بترك البصر وإلقائه إلى القلب متلماً ، فتعلق به الغص من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبت لأحد من البشر ، وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعسل والعفة ، وكظم الفيط وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لحلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأفعال والنواب من جمال الخلقة ، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان ، قاله السدي . ولأنها إذا راحت وتوفر حسناتها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها ، لأنها إذا ذاك أعظم ما تكون أسمة وضروعا ، قاله قتادة . ولهذا المعنى قدم الزواج على السراح لتكامل ذرها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين ترحون » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والزواج رجوعها بالعتى من المرعى ، والسراح بالغداة ، يقول : سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروها إذا غدوت بها إلى المرعى فغيتها ، وسرحت هي . المتعدى واللازم واحد .

قوله تعالى : وَنَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَنَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ) الأثقال أفعال الناس من مناع وطعام وغيره ، وهو ما يتحمل الإنسان حمله . وقيل : المراد أبدانهم ، يدل على ذلك قوله تعالى : « وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالاً » . والبلد مكة ، في قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظاهر . وشق الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهري : والشق المشقة ، ومنه قوله تعالى : « لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوي : وكسر الشين وقصها في « شق » متقاربان ، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق في العصا ونحوها ؛ لأنه يقال منها كالمشقة من الإنسان . وقال التلمبي : وقرأ أبو جعفر « إِنْ شَقَّ الْأَفْئِسْ » وهما لغتان ، مثل رِقَ ورَقَ ويَجْصَ وَجَصَ ويرطل ويرطل . وينشد قول الشاعر بكسر الشين وقصها :

وذى إيل يَسْتَى ويَجِيها له • أَيْ نَصَبَ مِنْ شِقْهَا ودُوِبَ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شَقَّتْ عَلَيْهِ أَشَقُّ شَقًّا . والشَّقُّ أيضا بالكسر النصف ، يقال : أَخَذْتُ شِقَّ الشاةِ وشِقَّةَ الشاة . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى ؛ أى لم تكونوا بالغبية إلا بنقص من القوة وذهاب شِقِّ منها ، أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر . والشَّقُّ أيضا الناحية من الجبل . وفي حديث أُمِّ زَرْعَ : وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُبَيْمَةِ يَشُقُّ . قال أبو عبيد : هو اسم موضع . والشَّقُّ أيضا : الشقيق ، يقال : هو أُنْخِي وشَقِّ نفسي . وشَقِّ اسم كاهن من كهان العرب . والشَّقُّ أيضا : الجانب ؛ ومنه قول أعرى القيس :
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انصرفت له • يَشُقُّ وَنَحْيَ شِقْهَا لم يُجَوِّلَ
فهو مشترك .

الثانية - مَنْ أَفْهَ مَبْعَاهُ بِالْأَنْهَامِ عَمُومًا ، وَخَصَّ الْإِبِلَ هُنَا بِالذِّكْرِ فِي حَمْلِ الْأَنْهَالِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْهَامِ ؛ فَإِنَّ الْفَنَمَ لِلسَّرْحِ وَالذَّبْحِ ، وَالْبَقَرُ لِلْحَرْثِ ، وَالْإِبِلُ لِلْجَمَلِ . وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً لَهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا الْفَتَنُ إِلَى الْبَقَرَةِ فَقَالَتْ إِنِّي لَمْ أَخْلُقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي إِنَّمَا خَلَقْتُ لِلْحَرْثِ فَقَالَ النَّاسُ مَسِيحَانِ اللَّهُ تَجَبًا وَفَزَعًا أَبْقَرَةٌ تَكَلَّمُ " ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ " . فدل هذا الحديث على أن البقرة لا يحمل عليها ولا تركب ، وإنما هي للحَرْث والأكل والنسل والرسل .

الثالثة - في هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل مع الرفق في السير . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سافرت في الخشب فأعصوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرت في السنة فبادروا بها قريبا »^(١) رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن معدان . وروى ماوية بن قزعة قال : « كان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون ، فكانه يقول : يادمون ، لا تخاصمني عند ربك . فالدواب تخم لا تقدر أن تحتمل لنفسها ما تحتاج إليه ، ولا تقدر أن تفسح بجوارحها ، فمن ارتفق بمراقبتها ثم ضيعها من جوارحها فقد ضيع الشكر وتعرض للخصومة بين يدي الله تعالى . وروى مطر بن محمد قال : حدثنا أبو داود قال حدثنا ابن خالد قال حدثنا المسيب بن آدم قال . رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب جمالا وقال : تحمل على بعرك ما لا يطيق . »

قوله تعالى : **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٦﴾

فيه ثمان مسائل .

الأولى - قوله تعالى : **(وَالْخَيْلَ)** بالنصب معطوف ، أي وخلق الخيل . وقوله **أَبْنِ أَبِي عَيْلَةَ** « والخيل والبغال والحمير » بالرفع فيها كلها . وسميت الخيل خيلا لاختيالتها في المشية . وواحد الخيل خائل ، كضائن واحد ضين . وقيل لا واحد له . وقد تقدم هذا في « آل عمران »^(٢) ، وذكرنا الأحاديث هناك . ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

(١) قوله « في السنة » أي في القحط وانعدام نبات الأرض من يسيرا . والحق (بكسر الهمزة) يكون الخفاف هو الخنق . وسواء : أسرعوا السير : دليل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ، إذ ليس في الأرض ما يقويها على السير .

(٢) راجع = ٤ ص ٢٢ طبعه أملاو ثانية

حلب على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق .
بها من الركوب ؛ فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير .

الثانية - قال العلماء : ملكا الله تعالى الأنعام والدواب وذلها لنا ، وأباح لنا تسخيرها
والاستفاد بها رحمة منه تعالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجازله تسخير من الحيوان فكأنه
له جائز بإجماع أهل العلم ، لا اختلاف بينهم في ذلك : وحكم كراه الرواحل والدواب مذكور
في كتب الفقه .

الثالثة - لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل لحمل عليها والسفر بها ؛
بقوله تعالى : « وَتَحْمِلُ أَوْثَاقَكُمْ » الآية . وأجازوا أن يكرى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة
بها وإن لم يسم أين يزل منها ؛ وكمن من أهل^(١) يزل فيه ، وكيف صفة سيره ، وكمن يزل
في طريقه ، وأجترأ بالمتعارف بين الناس في ذلك . قال علماءنا : والكراء يجري مجرى البيع
فيا يحل منه ويحرم . قال ابن القاسم فيمن أكرى دابة إلى موضع كذا بشوب مروي - ولم
يصف رقبته وذرهه : لم يمز ؛ لأن مالك لا يميز هذا في البيع ، ولا يميز في ثمن الكراء
إلا ما يجوز في ثمن البيع .

قلت : ولا يختلف في هذا إن شاء الله ؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : واجمع كل
من يحفظ عنه من أهل العلم على أن من أكرى دابة لحمل عليها عشرة أفقزة فحمل
عليها ما أشرط فتلفت أن لا شيء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أفقزة شمير . واختلفوا
فيمن أكرى دابة لحمل عليها عشرة أفقزة فحمل عليها أحد عشر فقنزا ، فكان الشافعي
وأبو ثور يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء . وقال ابن أبي ليلى : عليه قيمتها
ولا أجر عليه . وفيه قول ثالث - وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة
الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول الثمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب
مالك : لا ضمان عليه في قول مالك إذا كان الفقير الزائد لا يقدر الدابة ، ويعلم أن مثله

(١) الخيل : المنزب ؛ ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السفار على الماء منازل .

لا تعطب فيه الدابة ، ولرب الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ، لأن عطيا ليس من أجل الزيادة . وذلك بخلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تعدّ كله فيضمن إذا هلك في قليله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذن وتعدّ ، لأنها كانت الزيادة لا تعطب في مثلها علم أن هلاكها مما أذن له فيه .

الرابعة - واختلف أهل العلم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمى ، فيتعذى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدى كراء ؛ هكذا قال الثوري . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمي ، ولا أجر له فيما لم يسم ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، وبه قال يعقوب . وقال الشافعي : عليه الكراء الذي سمي ، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطيت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخة أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سامت وإن هلكت ضمن . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضيان . قال ابن المنذر : وبه قول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ للمكتري الدابة التي اكتري إليها ثم زاد ميلا ونحوه أو أميلا أو زيادة كثيرة فعطيت الدابة ، فله كراؤه الأول والخيار في أخذه . كراء الزائد بلغا ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدى . ابن المَوَاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الليل ونحوه : وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن الساجشون وأصْبَغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذي تكارها إليه يسير ، ثم رجع بها سالمة إلى موضع تكارها إليه فانت ، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكارها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة ، كره لما تسلف من الودعة . ولو زاد كثيرا عما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغير في مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة ؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُبَيّن على قتلها فهلاكها بعد ردها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلف من الودعة بعد رده لا محالة . وإن كانت الزيادة كثيرة فذلك الزيادة قد أمانت على قتلها .

تلخيصاً - قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه . وقال في الأنعام : « ومنها تأكلون » مع ما امتن الله منها من الذرة والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهذه الآية أحتج ابن عباس والحكم بن عتيبة ، قال الحكم : لحوم الخيل حرام في كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال : هذه للأكل وهذه للركوب . وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب ، وقرأ الآية التي قبلها « والأنعام خلقها لكم فيها ذبءٌ ومنافع » ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وأخرجوا بما خرجه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المقدم ابن معديكرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكل ذي ناب من السباع أو يتخبط من الطير . لفظ الدارقطني . وعند النسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يملأ أكل لحوم الخيل والبغال والحمير » . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هي مباحة . وروى عن أبي حنيفة . وسَدَّت طائفة فقالوا بالتحريم ؛ منهم الحكم كما ذكرناه ، وروى عن أبي حنيفة ، حكى الثلاث روايات عنه الزُّبَاني في بحر المذهب على مذهب الشافعي .

قلت : الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة . أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل ، إذ لو دلَّت عليه لدلَّت على تحريم لحوم الجمل ، والسورة مكية ، وإمى حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الخيل بما خيّر وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي . وأيضاً لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحوت بها ولا غير ذلك مصراً به ، وقد تركب ويحوت بها ، قال الله تعالى : « الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا

منها تأكلون . . وقال في الخيل . . ليركبوها ويزينوها . . فذكر قبضا أطلب حاشيا
والمقصود منها، ولم يذكر حل الأقال عليها، وقد عمل كما هو مشاهد فذلك لم يذكر ألا كله
وقد بينه نيته عليه السلام الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي، ولا يلزم من كونها
خلقت للركوب والزينة ألا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كل شيء فقالت :
إنما خلقت للحرث . . فليزم من علل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألا تؤكل البقر
لأنها خلقت للحرث . . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسنة الثانية فيها .
وروى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر
الأنثوية وأذن في لحوم الخيل . وقال النسائي عن جابر : أطلعنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر . وفي رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم
الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر أنهم فكلوها
في خيبر حكاية حال وقضية في عين ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة ، ولا يخرج بقضائنا
الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال ، ولئن سلمنا فقمتنا حديث أسماء قالت : سمعنا رسولنا
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه ، رواه مسلم . وكل تأويل من غير
ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى ، لا يلتفت إليه ولا ينعج عليه . وقد روى النازفطني
زيادة حسنة ترفع كل تأويل في حديث أسماء ، قالت أسماء : كان لنا فرس على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناه . فذبحها إنما كان لخوف الموت
عليها لا لغیر ذلك من الأحوال . والله التوفيق . فإن قيل : حيوان من ذوات الحواقر فلا يؤكل
كالحمير ؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول في القول به ، ولئن سلمنا
فهو متقضى بالتحريم ، فإنه ذو ظلف وقد باين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان
في مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه . قال الطبري : وفي إجماعهم على جواز
ركوب ما ذكره لا لكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

السادسة - وأما الخيل إلتها تلحق بالحريم ، فإن قلنا إن الخيل لا تؤكل ، فإنها تكون متولدة من عيين لا يؤكلانه . وإن قلنا إن الخيل تؤكل ، فإنها عين متولدة من ما كول وغير ما كول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخري ليس من أهلها ، لا تكون ذكاة ولا تحل به الذبيحة . وقد مضى في «الأشام» الكلام في تحريم الجر فلا معنى للإمادة . وقد علل تحريم أكل الخمار بأنه أبدي جوهره الخليث حيث ترا على ذكر وتلوط ، فسمى رجسا .

السابعة - في الآية دليل على أن الخيل لا زكاة فيها ؛ لأن الله سبحانه من طيبا بما أباحتها منها وكرها به من مناسها ، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عمارك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة » . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في الخيل والرقى زكاة إلا زكاة للفطر في الرقي » . وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففى كل فرس دينار إذا كانت سائمة ، وإن شاء قومها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم . وأحتج بأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « في الخيل الساعة في كل فرس دينار » وبقوله صلى الله عليه وسلم : « الخيل ثلاثة ... » الخليث . وفيه : « ولم يفس حق الله في رقابها ولا ظهورها » . والجواب عن الأول أنه حديث لم يروه إلا غورك السعدى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر . قال البارقطبي : فتزد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا ، ومن دونه ضعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع الغير وتعين بها لقتال العدو إذا تعين ذلك عليه ، ويحمل المتعطين عليها إذا احتاجوا لذلك ، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك ، كما يتعين عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله في رقابها . فإن قيل : هذا هو

الحق الذي في ظهورها وبين الحق الذي في رقابها؟ قيل: «له روى» لا ينسحق الله فيها «ولا فرق بين قوله: «حق الله فيها» أو «في رقابها وظهورها» فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد؛ لأن الحق يتعلق بجملة من العلماء: إن الحق هنا حسن ملكها وتعهدها شيعها والإحسان إليها وذكورها غير مشقوق عليها؛ كما جاء في الحديث «لا تتخذوا ظهورها كراسي». وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ دَقَّةٍ مُؤْمِنَةٍ» وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرباع والأموال؛ ألا ترى قول كثير:
عَمِرَ الرِّدَاءُ إِذَا تَبَسَّ ضَاحِكًا • غَلَقَتْ لِيَصْحَكُهُ رِقَابُ الْمَالِ^١

وأياها فإن الحيوان الذي يجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها. وأياها فإنها مفردة دون الذكر تناقص منه وليس في الحديث فصل بينهما. ونقيس الإناث على الذكر في ضي الصدقة بأنه حيوان مَقْتَنٍ لنسله لاندزء، ولا تجب الزكاة في ذكره فلم تجب في إناثه كالغنل والحمير. وقد روى عنه أنه لا زكاة في إناثه وإن انفردت كذكورها مفردة، وهذا الذي عليه الجمهور. قال ابن عبد البر: إن خبر في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزهري وغيره. وقد روى من حديث مالك، رواه عنه جويرية عن الزهري أن السائب بن يزيد قال: لقد رأيت أبي يقوم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر. وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرها. تنزده جويرية عن مالك وهو ثقة.

ثم الثامنة — قوله تعالى: ﴿وَزِينَةٌ﴾ منصوب بإستمرار فعل، المعنى: وجعلها زينة. وميل: هو مفعول من أجله. والزينة: ما يُزَيَّنُ به، وهذا الجمال والبريق وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعاده فيه؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الإبل عن»

(١) الفهر: الماء الكثير. ورجل غمر الرداء: وغمر الخلق، أي واسع الخلق. كثير المعروف حتى.

لأهلها ولهم بركة والحل في توصيها الخير . خزيه البرقائي وابن ماجه في السنن . وقد تقدم في الأنتم . وإنما جمع النبي صلى الله عليه وسلم العز في الإبل ؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحل والفرز وإن نقصها الكر والقر . وجعل البركة في الفم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح وإن الجناح ؛ بخلاف القنادين أهل الوبر . وقرن النبي صلى الله عليه وسلم الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الفتيحة المستفادة للكسب والمعاش ، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع لشرارات والهوام في أسافل الأرض وألب والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : ويخلق ما لا تعلمون ، مما أمد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها ، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قتادة والسدي : هو خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش ؛ حكاه الماوردي . الثعلبي : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة ، يدخله جبريل كل سحر فيقتل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله ومظنا إلى عظمه ، ثم ينفض فيخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور ، وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس - وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء ، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يملكون أن الله تعالى يعصى في الأرض ، قالوا : يا رسول الله ، من ولد آدم ؟ قال : " لا يملكون أن الله خلق آدم " . قالوا : يا رسول الله ، فأين إبليس منهم ؟ قال : " لا يملكون أن الله خلق إبليس " - ثم تلا " ويخلق ما لا تعلمون " ذكره الماوردي .

(١) القنادين : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البق من الشجر قال : إن لله عبادة من وراء الأندلس كما بينا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق ، رَضْرَاضُهُمُ النَّارُ وَالْيَاقُوتُ وَجِلْمُ الذهبِ وَالْفَضَّةُ ، لا يَحْمُوتُونَ وَلَا يَزْرَعُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ عَمَلًا ، لهم شجر على أبوابهم لما ثمره من طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم ؛ ذكره في بدء الخلق من (كتاب الأسماء والصفات) . ونرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَذْنِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شِمَةِ أَذْنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مِائَةُ سَبْعِينَ أَلْفًا " .

قوله تعالى : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَّاكُمْ
الْجَمْعِينَ ﴿١﴾

قوله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أى على الله بيان قصد السبيل ، لحذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام ، أى على الله بيانه بالرسول والجمع والبراهين . وقصد السبيل : استقامة الطريق ؛ يقال : طريق قاصد أى يؤدى إلى المطلوب . (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أى ومن السبيل جائر ؛ أى عادل عن الحق فلا يهتدى به ؛ ومنه قول امرئ القيس ومن الطريقة جائر وهُدَى . قصد السبيل ومنه ذو دخل وقال طرفة :

عَدْوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِينَ * يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
الْعَدْوِيَّةُ سَفِينَةٌ مَسُوبَةٌ إِلَى عَدُوٍّ قَرِيْبَةٌ بِالْبَحْرَيْنِ . وَالْعَدْوِيَّةُ : الْمَلَّاحُ ؛ قَالَ فِي الصَّحَاحِ .
وَفِي التَّنْزِيلِ « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » وَقَدْ تَقَدَّمَ . وَقِيلَ :
الْمَعْنَى مِنْهُمْ جَائِرٌ عَنِ سَبِيلِ الْحَقِّ ، أَيْ عَادِلٌ عَنْهُ فَلَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ . وَفِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا
أَنَّهُمْ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ الْمُخْتَلَفَةِ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . الثَّانِي — مَلِكُ الْكُفْرِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ

والنصراية، وفي مصنف عبد الله بن مسعود جازر « وميم جازر » وكذا قرأ علي « وميمكم » بالكاف . وقيل : المعنى وجها جازر، أي من السيل . ف « حن » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أي من أراد الله أن يهديه سبيل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضلّه ثقل عليه الإيمان وفروجه . وقيل : معنى « قصد السبيل » مصيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع ، ولذلك أنت الكفاية فقال : « ومنها » والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَمَسَّاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بين أن المشيئة لله تعالى ، وهو يصح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية ، ويرد على القدرة ومن وافقها كما تقدم .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءٌ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ يُخْرِجُ فِيهِ شُجَيْرَاتٌ ﴿١٥﴾

الشراب ما يشرب ، والشجر معروف . أي ينبت من الأمطار أنجارا وعروشا ونباتا . و (شُجَيْرَاتٌ) ترعون إيلكم ؛ يقال : سامت الساعة تسوم سَومًا أي دعت ، فهي سائمة . والسَّوَام والسائم بمعنى ، وهو المال الراعى . وجمع السائم والسائمة سوائم . وأسماها أنا أي أخرجتها إلى الرعي ، فإنا مُسِم وهي مُسامة وسائمة . قال :
« أَوَّلُ لَكَ ابْنٌ مُسِيحَةُ الْأَجْمَالِ »^(١)

وأصل السَّوْم الإبعاد في المرعى . وقال الزجاج : أخذ من السومة وهي العلامة ؛ أي أنها تؤزق الأرض علامات برعيها ، أولائها تعلم للإرسال في المرعى .

قلت : والخليل المسومة تكون المرعى . وتكون المَعْلَمَة . وقوله : « مَسْؤِمِينَ » قال الأخفش تكون مَعْلَمِينَ وتكون مُرْسَلِينَ ؛ من قولك : سَوم فيها الخليل أي أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخليل سُوِّمَتْ وعليها ركبائها .

(١) هذا مجزئ ، وصدقه كما في تفسير الطبري : « مثل ابن يزة أو كثره »

قوله تعالى : **يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ**
وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (**يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ**)
 قرأ أبو بكر عن عاصم « **يُنْبِتُ** » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم
 يقال : **نَبَت** الأرض وأنبت بمعنى ، ونبت البقل وأنبت بمعنى . وأشد الفراء :
 رأيت دوى الجبابرة حول بيوتهم * قطيبت بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وأنبت الله فهو منبوت ، مل غير قياس . وأنبت النعام نبث طائته . ونبث الشجر
 هرمه ؛ يقال : **نَبَتَ** أجلك بين عينيك . ونبث الصبي ثبينا وبيته . والمنبث موضع النبات ؛
 يقال : ما أحسن نابتة بنى فلان ؛ أى ما ينبت عليه أموالهم وأولادهم . ونبثت لم نابتة إذا
 نشأ لم نشأ صغار . وإن بنى فلان لنباتة شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . والنبت
 حق من اليمن . والنبوت شجر ؛ كله عن الجوهري . (**وَالزَّيْتُونَ**) جمع زيتونة . ويقال
 للشجرة نفسها : زيتونة ، وللشجرة زيتونة . وقد مضى في سورة « الأنعام » حكم زكاة هذه
 الثمار فلا معنى للإعادة . (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا**) (**لَآيَةً**) أى دلالة . (**لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) .

قوله تعالى : **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ**
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**) أى للسكون والأعمال ؛ كما قال : « **وَمِنْ رَحْمَتِهِ**
جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » . (**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ**
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) أى مملكات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاحتذاء بالنجوم
 في الظلمات . وقرأ ابن عامر وأهل الشام « **والشمس والقمر والنجوم مسخرات** » بالرفع

على الابتداء والحمد . الباقون بالنصب عطفا على ما قبله . وقرأ حفص من حاصم رفع
« والنجوم » ، « مسخرات » خبره . وقرئ « والشمس والقمر والنجوم » بالنصب .
« مسخرات » بالرفع ، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات ، وهى فى قراءة من نصبها
حال مؤكدة ؛ كقوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أى
عن الله ما تبهم عليه ووقفهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَّا لَكُم فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَمَا ذَرَأَّا) أى وسخر ما ذرأ فى الأرض لكم . « ذَرَأَّا » أى
خلق ذرأ الله الخلق يذروهم ذَرَأَ خلقهم ، فهو ذارئ ؛ ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ،
إلا أن العرب تركت همزها ، والجمع الذرارى . يقال : أنى الله ذَرَأَكَ وَذَرَوَكَ ، أى ذريتك
وأصل الذرو والذرة التفريق عن جمع . وفى الحديث : ذره النار ، أى أنهم خلقوا لها .

الثانية - ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر منذل كالنواب والأنعام والأشجار وغيرها ،
ومنه غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأخبار قال : لولا كلمات أقولهن
لجئتنى يهود حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شئ
أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برؤا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلها
ما علمت منها وما لم أعلم ، من شر ما خلق وبرأ وذرا . وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال :
أُمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى غفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، الحديث .
وقيه : وشر ما ذرأ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

(١) زاجع ج ٢ ص ٢٩ طبة ثانية . (٢) أى فى حديث عمر رضى الله عنه كتب إلى حاه

وإلى لأعظم آل الميرة ذره النار .

الثالثة - قوله تعالى : (غَنَّاكَ آوَانُهُ) « غَنَّاكَ » نصب على الحال . و « آوَانُهُ » هياته ومناظره ، يعنى الدواب والشجر وغيرها . (إِنَّ فِي ذَلِكَ) أى فى اختلاف ألوانها . (لآيَةٍ) أى لعبة . (لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) أى يتعلمون ويعلمون أن فى تفسير هذه المكربات علامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَنُسَخِّرُجُوًا مِنْهُ حَلِيَّةً نَلْبِسُوهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِنَبْنِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ) « تسخير البحر » هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرشاء وغيره ، وهذه نعمة من نعم الله علينا ، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام فى البحر وقى صيده . وسماه هنا لحما والهوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس ، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات الماء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا ، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسماك متفاضلا ، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسماك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحم كلها أصناف مختلفة كأصولها ، فلحم البقر صنف ، ولحم الغنم صنف ، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السمك ، وهو أحد قولى الشافعى . والقول الآخر أن الكل من النعم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه . والقول الأول هو المشهور من منعه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ »

(١) راجع - ١ ص ٣٨٨ طبة ثانية أو ثالثة و ٦ ص ٣١٨ طعة أول أو ثانية .

(٢) آية ١٤٣ سورة الأنعام .

ثم قال : « ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » فلفا أن أم بالجمع إلى الغنم قال : « أحلت لكم بيضة الأعمام » فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال في موضع آخر : « وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَتِيمُونَ » وهذا جمع طائر الذي هو الواحد ، لقوله تعالى : « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » فجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « تَحْتاً طَيْرِيَّاءَ » فجمع أصناف السمك بذكر واحد ، فكان صفاره ككباره في الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش شيء واحد؟ فقال لا ؛ ولا يخالف له فصار كالإجماع ، والله أعلم . ولا حجة للخالف في نفيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مثلاً بثل ؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول الغنم ؛ ألا ترى أن القائل لما قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منه إلى أكل الغنم ، وأيضاً فإنه معارض بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنا اختلف الجنسان فيبيعوا كيف يشعرون » وهذان جنسان ، وأيضاً فقد اتفقتا على جواز بيع الغنم بلحم الطير متفاضلا لا لعله أنه يبيع طعام لا زكاة له يبيع بلحم ليس فيه الزكاة ، كذلك يبيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانية - وأما الجراد فالشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن محمد بن عيسى أنه يمنع من ذلك ، وإليه مال بعض المتأخرين ورأه مما يقتصر .

الثالثة - اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحماً فقال ابن القاسم : يحنت بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب في المجموعة . لا يحنت إلا بكل لحوم الأعمام دون الوحش وغيره ، مراعاة للعرف والعادة ، وتقديمها لما على إطلاق اللفظ اللغوي ، وهو أحسن .

الرابعة - قوله تعالى : (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) يعني به اللؤلؤ والمرجان ؛ لقوله تعالى : « يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ » . وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من الملح فقط . ويقال : إن في الزمرد بحريا . وقد خُطئ المثل في قوله في وصف النزة :

(١) في الأصول : « فلما أن أم بالجمع » . يري : فلما أن قصد بالجمع إلى الغنم
(٢) آية ٢١ سورة الواقعة . (٣) آية ٢٨ سورة الأعمام . (٤) آية ٢٢ سورة الرحمن .

بِحُجَّاءِهَا مِنْ دُرَّةٍ لَقِطِيَّةٍ • عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفِرَاتِ يَنْعَمُ^(١)

لِحُجَّاءِهَا مِنَ الْمَاءِ الْحَلَوِ . فَالْحِلَّةُ حَقٌّ وَهِيَ نَحْلَةٌ لِأَنَّهَا تَمَالَى لِأَدَمَ وَوَلَدِهِ • خَلَقَ آدَمَ وَنُوحًا وَكَأَنَّهُ
بِإِكْلِيلِ الْجَنَّةِ ، وَخَتَمَ بِالْخَاتَمِ الَّذِي وَرِثَهُ عَنْهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ يُقَالُ
لَهُ خَاتَمُ الْعَرْفِيَا رَوَى •

الخامسة - امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر
فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله تعالى على الرجال النخب والحرير • روى الصحيح
عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تلبسوا الحرير فإنه من
لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " • وسأيت في سورة الحج • الكلام فيه إن شاء الله •
وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل
فصه مما يلي باطن كفه ، ونقش فيه عهد رسول الله ، فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها
رمى به وقال : " لا ألبسه أبدا " ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتم الفضة •
قال ابن عمر : فلبس الخاتم بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من
عثمان في بئر أريس • قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده •
وأجمع العلماء على جواز التحتم بالورق على الجملة للرجال • قال الخطابي : وكره للنساء التحتم
بالفضة ، لأنه من زي الرجال ، فإن لم يجدن ذهبا فليصقرنه بزعفران أو بشبهه • وجمهور
العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ، إلا ما روى عن أبي بكر بن
عبد الرحمن وخباب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم ينفهما النبي والنسخ • والله أعلم •
وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتما من ورق
يوما واحدا ، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من ورق وليسوها ، فطرح رسول الله صلى الله عليه
وسلم خاتمه فطرح الناس خواتمهم - أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاري - فهو عند العلماء

(١) العليقة : الجمل التي تحمل العطر • وقيل : العليقة النيرة التي لعلت بالملك فتفتت به حتى نبتت وانمتها ،

وعلى العليقة • (٢) في قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٢٢ •

(٣) حذقة بالقرب من مسجد قبا •

فَمِنْ مِنْ هَبْ ، لِأَنَّ الْقِيَمَةَ صِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ خَاتَمُ النَّصَبِ . وَهُوَ
عبد العزيزُ صُوبَ وَتَبَتِ وَقَدَّعَتْهُ عَنْ أَنَسٍ ، وَهُوَ خِلَافُ مَا رَوَى ابْنُ شِهَابٍ عَنْ أَنَسٍ فَوَجِبَ
الْقَضَاءُ بِالْمَلْحَمَةِ عَلَى الْوَلَدَةِ إِذَا خَالَفَهَا ، مَعَ مَا يَشْهَدُ بِمِلَّةِ ابْنِ عُمَرَ .

السَّامِعَةُ - إِذَا تَبَتِ جَوَازُ التَّحْتِمِ لِلرِّجَالِ بِخَاتَمِ الْفَضَّةِ وَالتَّحْتِمِ بِهِ ، فَقَدْ كَرِهَ ابْنُ سِيرِينَ
وغيره من العلماء قَشَهُ وَأَن يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ . وَأَجَازَ قَشَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ . ثُمَّ إِذَا قُشِيَ
عَلَيْهِ لِسْمُ اللَّهِ أَوْ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ أَوْ كَلِمَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَجَمَلُهُ فِي شِمَالِهِ ، فَهَلْ يَدْخُلُ بِهِ الْخِلَاءُ
وَمُسْتَضَى بِنِيَاهِ ؟ خَفَّفَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمَالِكٌ . قِيلَ لِمَالِكٌ : إِنْ كَانَ فِي الْخَاتَمِ ذِكْرُ
لِلَّهِ وَيُطْبَعُ فِي الشِّمَالِ أَيْسَرُ تَجَنَّبِي بِهِ ؟ قَالَ : أَرْجُو أَن يَكُونَ خَفِيفًا . وَرَوَى عَنْهُ الْكَرَاهَةُ وَهُوَ
الْأَوَّلَى . وَعَلَى الْمَنَعِ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ . وَقَدْ رَوَى هَمَامٌ عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ
أَنَسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْخِلَاءَ وَضَعَ خَاتَمَهُ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ :
هَذَا حَدِيثٌ حَكْرٌ ، وَإِنَّمَا يَرَوِي عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ زِيَادِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ ثُمَّ أَقْنَاهُ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ : لَمْ يَحْدِثْ بِهِذَا إِلَّا هَمَامٌ .

السَّامِعَةُ - رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخَذَ خَاتَمًا
مِنْ فِضَّةٍ وَقَشَ فِيهِ « عَدِ رَسُولُ اللَّهِ » وَقَالَ : « إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ وَقَشْتُ فِيهِ عَدِ
رَسُولُ اللَّهِ فَلَا يَنْقُشُ أَحَدٌ عَلَى قَشِهِ » . قَالَ عَلَمَاؤُنَا : فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ نَقْشِ اسْمِ صَاحِبِ
الْخَاتَمِ عَلَى خَاتَمِهِ . قَالَ مَالِكٌ : وَمِنْ شَأْنِ الْخِلَافَةِ وَالْقَضَاءِ نَقْشُ أَسْمَائِهِمْ عَلَى خَوَاتِمِهِمْ ، وَنَبِيهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ عَلَى قَشِ خَاتَمِهِ ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ اسْمُهُ وَصَفَتُهُ بِرِسَالَةِ اللَّهِ لَهُ
إِلَى خَلْقِهِ . وَرَوَى أَهْلُ الشَّامِ أَنَّهُ لَا يَحُوزُ اتِّخَاذُ الْخَاتَمِ لِعَبْدِ سُلْطَانٍ . وَرَوَى فِي ذَلِكَ حَدِيثًا
عَنْ أَبِي وَبَّانَةَ ، وَهُوَ حَدِيثٌ لَا حُجَّةَ فِيهِ لَضَعْفِهِ . وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ عَلَى
قَشِهِ » يَرْدُّهُ ، وَيَدُلُّ عَلَى جَوَازِ اتِّخَاذِ الْخَاتَمِ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، إِذَا لَمْ يَنْقُشْ عَلَى قَشِ خَاتَمِهِ .
وَكَانَ قَشُ خَاتَمِ الزَّهْرِيِّ « عَدِ يَسْأَلُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ » . وَكَانَ قَشُ خَاتَمِ مَالِكٍ « حَسْبِيَ اللَّهُ
وَيَعِزُّ الْوَكِيلُ » . وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي (تَوَانِيرِ الْأَصُولِ) أَنَّ قَشَ خَاتَمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

« لكل أجل كتاب » وقد مضى في الرد^(١) . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتماً
 مائت درهم فكتب إليه : إنه بلغني أنك اشتريت خاتماً مائت درهم ، فبمئة وأطعم منه ألف
 جناح ، واشتر خاتماً من حديد بدرهم ، واكتب عليه « رحم الله أمراً صرف قنبر نفسه » .
 الثامنة - من حلف ألا يلبس حلياً فلبس ثلثاً لم يحنت ، وبه قال أبو حنيفة .
 قال ابن خزيمة^(٢) : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوي يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان
 يخص العرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنت ، وكذلك
 لا يستضيء بسراج فجلس في الشمس لا يحنت ، وإن كان الله تعالى قد سمى الأرض فراشاً
 والشمس سراجاً . وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حلياً فلبس الثلث
 فإنه يحنت ؛ لقوله تعالى : « وَتَسْخَرُ جُورَاهُ حَلِيَةً تَلْبَسُونَهَا » والذي يخرج منه : الثلث والمرجان .
 التاسعة - قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ » قد تقدم ذكر الفلك وركوب
 البحر في « البقرة » وغيرها . وقوله : « مَوَاحِرَ » قال ابن عباس : جَوَارِي ، من جَرَتْ تَجْرَى .
 سعيد بن جبير : معترضة . الحسن : موافر . قتادة والضحاك : أي تذهب ونجى ، مقابلة
 ومدة برح واحدة . وقيل : « موانح » ملجعة في داخل البحر ؛ وأصل المنح شق الماء
 عن يمين وشمال . تحمرت السفينة تتحمر وتحمر تحمراً ونحوراً إذا جرت تشق الماء مع صوت ؛
 ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ » يعني جَوَارِي . قال الجوهري : وتحر السائح
 إذا شق الماء بصدرة ، وتحر الأرض شقها للزراعة ، ونحورها بالماء إذا حبس الماء فيها حتى
 تصير أريضة ؛ أي خليقة بمجودة نبات الزرع . وقال الطبري : المنحرفي اللغة صوت هبوب
 الريح ، ولم يقيد كونه في ماء ، وقال : إن من ذلك قول وأصل مولى أبي عيسى : إذا أراد
 أحدهم البول فليتمخر الريح ؛ أي لينظر في صوتها في الأجسام من أين تهب ، فيتجنب استقبالها
 فلا تزد عليه بولاً . « وَلْيَتَّقُوا مِنَ فَضْلِهِ » أي ولتركوه للتجارة وطلب الربح . « وَلَمَّا
 تَشْكُرُونَ » تقدم جميع هذا في « البقرة » والمقدمة .

(١) راجع ١٩ ص ٢٢٩ طبة أمم أداتية . (٢) راجع ١٩ ص ٢٨٨ طبة تارة أو تارة ،

٢٧٠ هـ ١٩٤ طبة تارة . (٣) راجع ٢٧ ص ١٩٤ راجع .

قوله تعالى : **وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ** **وَأَنْهَرًا وَسَبَلاً**
لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ ①

قوله تعالى : **(وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى)** أى جبالاً ثابتة . رسوا إذا ثبت وأقام .
 قال :

فَصَبَّرْتُ عَارِفَةً لَتِلْكَ حُرَّة • رسوا إذا هُتِس الجبال تَطْلُعُ

(أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ) أى لئلا نَمِيد ، عند الكوفيين . وكراهية أن نَمِيد ، على قول البصريين .
 والنَمِيد : الاضطراب يمينا وشمالا ، ماد الشيء يَمِيد مَيْدًا إذا تحرك ، ومادت الأعصان
 تَمَلَّت ، وماد الرجل تَجَرَّ . قال وهب بن منبه : خلق الله الأرض فجعلت تَمِيد وتَجور ،
 فقالت الملائكة : إن هذه غير مفزة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أُرْسِيت بالجبال :
 ولم تدر الملائكة مِمَّ خلقت الجبال . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لما خلق الله
 الأرض قَصَصَتْ ومالت وقالت : **أَيُّ رَبِّ ! أَتَجْعَلُ عَلَى مَنْ يَعْمَلُ بِالْعَاصِي وَالْخَطَايَا ، وَيُلْقِي**
عَلَى الْخَيْفِ وَالْتِنِّ ! فأرسل الله تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون . وروى الترمذى
 فى آخر (كتاب التفسير) حديثا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام بن حَوَّشِب
 عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **"لما خلق الله**
الأرض جعلت تَمِيد تخفق الجبال فعاد بها عليها فاستعزت فعجبت الملائكة من شدة الجبال
قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك
شيء أشد من الحديد قال نعم النار فقالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم
الماء قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من
خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم تصدق بصدقة يميته ينفيها من شماله " . قال
 أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

(١) البيت لقطة العبيد . يقول : حيث حارة ، أى حارة . ووجه :

وطئت أن متيق أنت تأمننى • لا يخفى منها فخر لار الأسرع

قلت : وفي هذه الآية أدل دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادرا على سكوتها دون الجبال . وقد تقدم هذا المعنى . (وَأَنهَارًا) أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقي فيها أنهارا . (وَسَبِيلًا) أى طرقا ومسالك . (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أى إلى حيث تهتدون من البلاد فلا تضلون ولا تخبثون .

قوله تعالى : وَعَلَّمَتِ وَيَا لَنَجْمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٦﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَعَلَّمَتِ) قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أى جعل للطرق علامات يقع الاحتذاء بها . (وَيَا لَنَجْمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ) يبنى بالليل ، والنجم يراد به النجوم . وقرأ ابن وثاب : « وَيَا لَنَجْمٍ » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم ، فقصره ؛ كما قال الشاعر :

إِنَّ الْفَقِيرَ بَيْنَنَا قَاضٍ حَكَمٌ • أَنْ تَرِدَ الْمَسَاءَ إِذَا غَابَ النُّجُومُ
وكذلك القول لمن قرأ « النُّجُوم » إلا أنه سكن استخفا . ويموز أن يكون النُّجُوم جمع نَجْمٍ كَسُفٍّ وَسَفٍّ . واختلف في النجوم ؛ فقال القراء : الجندى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر

حتى إذا ما استقل النجم في غلس • وغودر البقل ملوئى ومحضود
أى منه ملوئى ومنه محضود ، وذلك عند طلوع الثريا يكون . وقال الكوفي : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتدى بها ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قتادة والنخعي . وقيل : تم الكلام عند قوله « وعلامات » ثم ابتداء وقال : « وَيَا لَنَجْمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ » . فعلى الأول : أى وجعل لكم علامات ونجومًا تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بها . وفى المراد بالاحتذاء قولان : أحدهما - فى الأسفار ، (١) البيت الذى الرمة . ومنى « استقل » طلع فى إسرائيل . وفى ديوانه : « أحمد » بك « غودر » .
وأحمد : كان حسانه .

وهذا قول الجمهور . الثاني - في القبلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ » قال : « هو الجَدْيُ يَا بْنَ عَبَّاسَ ، عليه قبلكم وبه تهتدون في برِّكم وبحركم » ذكره الماوردي .

الثانية - قال ابن العربي : أما جميع النجوم فلا يَهْتَدِي بها إلا العارف بمطالعها ونفاريها ، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها ، وذلك قليل في الآخرين . وأما الثََّرَيَا فلا يَهْتَدِي بها إلا مَنْ يَهْتَدِي بجميع النجوم . وإنما الهَدْيُ لكل أحد بالجَدْيِ والفرْقَدَيْنِ ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْتُ الثابتة في المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دورانا محصلا ، فهي أبدا هَدْيُ الخلق في البرِّ إذا عُميت الطرق ، وفي البحر عند مجرى السفن ، وفي القبلة إذا جهل السَّمْتُ ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكك الأيسر لما استقبلت فهو سَمْتُ الجهة .

قلت : وسأل ابن عباس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : « هو الجَدْيُ عليه قبلكم وبه تهتدون في برِّكم وبحركم » . وذلك أن آثر الجَدْيِ بنات نَعَشِ الصغرى والقطب الذي تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثة - قال علماؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما - أن يراها ويباينها فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصد جهتها بجميع بدنه . والآخر - أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاها بالذلائل ، وهي الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها ، ومن غابت عنه وصلى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلى مجتهدا مستديلا ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلى إلى غير القبلة أعاد إن كان في وقتها ، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدى فرضه على ما أمر به . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » ^(١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ) هو الله تعالى . (كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) يريد الأصنام . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يجبر عن عقل على ما تستعمله العرب في ذلك ؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « مَنْ » كقوله : « أَلَمْ أَرِجُلًا » . وقيل : لا إتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه على الراكب وجهه فلا أدري مَنْ ذا ومن ذاك ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المهدوي : ويسأل به « مَنْ » عن الباري تعالى ولا يسأل عنه « ما » ؛ لأن « ما » إنما يسأل بها عن الأجسام ، والله تعالى ليس بنوع جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « قَنْ رَبِّكَ يَا مُوسَى » ولم يجبه حين قال له : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » إلا بجواب « مَنْ » وأضرب عن جواب « ما » حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة إحق من هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلَقَ اللَّهُ قَارُونَ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا) تقدم في إبراهيم . (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفى .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

(١) آية ١٩ سورة طه . (٢) آية ١١ سورة لقان . (٣) آية ٤٠ سورة طاهر .

(٤) راجع ١٦ ص ٣٦٧ طية امل ارفانة

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) قراءة العامة « تدعون » بالياء لأن ما قبله خطاب . روى أبو بكر عن ماص وعبرة عن حفص « يدعون » بالياء ، وهي قراءة يعقوب . فاما قوله : « مَا تُسْرُونَ وَمَا تُنْتُونَ » فكلمهم بالياء على الخطاب ؛ إلا ما روى هبة عن حفص من ماص أنه قرأ بالياء . (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) أى لا يقدرُونَ على خلق شيء . (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) . (أَمْ أَوْتُوا فِرَاحِيَاءَ) أى هم أموات ، يعنى الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أى هى عبادات فكيف تعبدها وأتم أنضل منها بالحياة . (وَمَا يَسْعُرُونَ) يعنى الأصنام . (إِيَّانَ يَسْعُرُونَ) وقرأ السلمي « إِيَّانَ » بكسر المعزة ، وهما لفتان ، موضعه نصب بـ « يسعون » وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يسعون . وعبر عنها كما عبر عن الآدميين ؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى ، بقرى خطابهم على ذلك . وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولما أرواح فقبرا من عبادتهم ، وهى فى الدنيا جاد لا تعلم متى تبعث . قال ابن عباس ؛ تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينا فيتبرعون من عبثها ، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبثها يوم القيامة ؛ دليله « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » . وقيل : تم الكلام عند قوله : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » ثم ابتدا فوصف المشركين بأنهم أموات ، وهذا الموت موت كفر . « وما يشعرون إِيَّانَ يسعون » أى وما يدري الكفار متى يسعون ، أى وقت البعث ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة ، ولعلها تكون قريبا .

قوله تعالى : إِنْ هَكَذَا إِنَّهُ وَاحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (**إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ**) لما بين استعماله الإيماء بانه تعالى **وَإِنَّمَا** أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه . (**فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ**) أى لا تقبل الوعد ولا ينجح فيها الذكركه ، وهذا رد على القدرة . (**وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**) أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة » معنى الاستكبار . (**لَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُهُمْ مَا يُسِرُّونَ**) أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : « لا جرم » كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً ، يقال : فعلوا ذلك ، فيقال : لا جرم سيندمون . أى جفا أن لم النار . وقد مضى القول فى هذا فى « هود » . مستوفى . (**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**) أى لا يشيهم ولا يثي عليهم . ومن الحسين بن على أنه مر بمساكين قد قسّموا كسراً بينهم وهم يأكلون فقالوا : الفداء يا أبا عبد الله ، فزل وبلس معهم وقال « إنه لا يحب المستكبرين » فلما فرغ قال : قد أجبتكم فأجيئوني ، فقاموا معه إلى منزله فاطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء . وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر ، فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل المصيان كله . وفى الحديث الصحيح « إن التكبرين يحشرون أمثال النّزّ يوم القيامة يطوّم الناس أفتانهم لتكبرهم » . أو كما قال صلى الله عليه وسلم : « تصغر لهم أجسامهم فى المحشر حتى يضرهم يضرهم يضرهم وتعتلم لهم فى النار حتى يضرهم عظمها » .

قوله تعالى : (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ**) (٢٤)

قوله تعالى : (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ**) يعنى وإذا قيل لمن تخدم ذكره من لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكورة بالبعث « ما ذا أنزل ربكم » . قيل : القائل النضرين الحارث ، وأن الآية نزلت فيه ، وكان خرج إلى الحيرة فاشتري أحاديث (**كَلِيلَةٍ وَفِيْنَةٍ**) فكان يقرأ على قرينى ويقول : ما يقرأ عبد على أصحابه إلا أساطير الأولين ، أى ليس هو من تزيل

وبنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لم يختاروا فأجابوا بقولهم : « أساطير الأولين » فأتوا
بإنكاره . هو أساطير الأولين . والأساطير : الأباطيل والترعات . وقد تهم في الآثام .^(١)
والقول في « ماذا أنزل ربكم » كالقول في « ماذا ينفقون » وقوله : (أساطير الأولين) خبر
ابتداء محذوف ، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ^(٢)

قوله تعالى : (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ) قيل : هي لام كي ، وهي متعلقة بما قبلها . وقيل :
لام الساقية ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَكُمْ عَذَابٌ وَرَءَا » . أي قولهم في القرآن والتي أنزلهم إلى أن
حملوا أوزارهم ؛ أي ذنوبهم . (كَامِلَةً) لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابهم في الدنيا بكفرهم .
وقيل : هي لام الأمر ، والمعنى التهديد . (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال مجاهد :
يحملون وزر من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شيئا . وفي الخبر « أيما داع دعا إلى ضلالة
فأتبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيما داع دعا إلى
هدى فأتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء » خرجه مسلم بمعناه .
و « مِنْ » للجنس لا للتبويض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم . وقوله :
(بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا .
(أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ) أي بش الوزر الذي يحملونه . ونظير هذه الآية « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ »
وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ^(٣) وقد تقدم في آخر « الإنعام » بيان قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى » .

(١) راجع ج ٦ ص ٤٠٥ طبة أول أو ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٦ طبة أول أو ثانية .

(٣) آية ١٣ سورة النكوت . (٤) راجع ج ٧ ص ١٥٧ طبة أول أو ثانية .

قوله تعالى : قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بَيْنَهُمْ مِنْ
الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَلَلَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى سبقهم بالكفر أقوام مع الوحل للفتنة
فكانت العاقبة الجميلة للرسول . (فَأَتَى اللَّهَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)
قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه الثمرد بن كحان وقومه ، أرادوا صعود السماء
وقتل أهلها ، فبنوا الصرح ليصعدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخر . كما تقدم بيانه
في آخر سورة « إبراهيم » . ومعنى « فَأَتَى اللَّهَ بَيْنَهُمْ » أى أتى أمره البياض ، إنا زلزاله
أو ربما غرقته . قال ابن عباس ووهب : كانت طول الصرح في السماء بمسبة آلاف
ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين ، فهبت ريح فألقت
رأسه في البحر وخر عليهم الباقي . ولما سقط الصرح تبليط السن الناس من الفزع يومئذ
فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ، فذلك سمي بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السريانية .
وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . وقرأ ابن جرير وابن محيصن « السَّقْفُ » بضم السين
والقاف جميعا موضع مجاهد السين وأسكن القاف تحقيفا ، كما تقدم في « هود النجم » في الوجهين .
والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء ، وإذا انحلت القواعد سقط البناء .
وقوله : (مِنْ فَوْقِهِمْ) قال ابن الأعرابي : وكذا لعلكم أنهم كانوا حائلين تحته . والعرب
تهول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . بقاء بقوله :
« مِنْ فَوْقِهِمْ » ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال : « مِنْ فَوْقِهِمْ » أى عليهم وقع
وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ، أى إن العذاب أتاهم
من السماء التي هي فوقهم ، قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فَأَتَى اللَّهَ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ »

القوليد ، تمثيل ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه . وقيل : المعنى : أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه . وقيل : المعنى : أطل مكرهم وتدميرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه . وعلى هذا اختلف في الذين نزل عليهم السقف ؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدم . وقيل : إنه يختص بأصحابه ؛ قاله بعض المفسرين . وقيل : المراد المقسمون الذين ذكروا في سورة الحجر ؛ قاله الكلبي . وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل ، والله أعلم . (وَأَنَّهُمُ الْمَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ) أى من حيث ظنوا أنهم فى أمان . وقال ابن عباس : يعنى البعوضة التى أهلك الله بها عمرودا .

قوله تعالى : ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْشَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْأَسْوَى عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ) أى يفضحهم بالعباد واليدلم به ويذنبهم . (وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ) أى يزعمكم وفى دعواكم ، أى الآلهة التى عبدتم دوى ، وهو سؤال توبيخ . (الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْأَقُونَ فِيهِمْ) أى تادون أنيائى بسببهم ، فليدفعوا عنكم هذا العذاب . وقرا ابن كثير « شُرَكَائِيَ » بياء مفتوحة من غير همز ، والباقيون بالهمز . نافع « تُشْأَقُونَ » بكسر التون على الإضافة ، أى تادوننى فيهم . وقصها الباقيون . (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) قال ابن عباس : أى الملائكة . وقيل المؤمنون . (إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ) أى الهوان والنذل يوم القيامة . (وَالْأَسْوَى) أى العذاب . (عَلَى الْكَافِرِينَ) .

قوله تعالى : الَّذِينَ تَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَسْلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ صَوْءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَقَّعُ الْمَلَائِكَةُ ظَلْمِيَّتَهُمْ) ههنا من صفة الكافرين .
 و «ظَلْمِيَّتَهُمْ» نصب على الحال ؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الملاك .
 (فَالْقُوا السَّلَامَ) أى الاستسلام . أى أتوا الله بالربوبية واتقادوا عند الموت وقالوا : (مَا كُنَّا
 نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : (بَلَى) قد كنتم تعملون الأسواء .
 (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة
 ولم يهاجروا ، فانخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها ؛ فقال : (الَّذِينَ تَتَوَقَّعُ الْمَلَائِكَةُ)
 قبض أرواحهم . (ظَلْمِيَّتَهُمْ) في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة . (فَالْقُوا السَّلَامَ)
 يعنى في خروجهم معهم . وفيه ثلاثة أوجه : أحدها — أنه الصلح ؛ قاله الأخفش .
 الثانى — الاستسلام ؛ قاله قطرب . الثالث — الخضوع ؛ قاله مقاتل . (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ
 سُوءٍ) يعنى من كفر . (بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يعنى أن أعمالهم أعمال الكفار .
 وقيل : إن بعض المسامحين رأوا قلة المؤمنين رجسوا إلى المشركين ؛ فزلت فيهم . وعلى
 القول الأول فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى يتقاد ويستسلم ، ويخضع ويذل ؛
 ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان ؛ كما قال : « قَلَمَ يَكْفِيهِمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا » وقد
 تقدم هذا المعنى . وتقدم في « الأنفال » أن الكفار يتوقون بالضرب والمهوان ، وكذلك
 في « الأنعام » . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

قوله تعالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَشْوَى
 الْمُنْتَكِرِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) أى يقال لهم ذلك عند الموت . وقيل : هو
 بشارة لهم بمذاب القبر ؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل المركة
 الثانية إليها مثلا إلا بدخول المركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا . وقيل : لكل دركة

هـ مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . قاله أعلم . (خالدين فيها) أى ملائكتين فيها . (فَلَيْسَ مَثْوًى) أى مقام (الْمُتَكَبِّرِينَ) الذين تكبروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد بينهم بقوله الحق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » .

قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنَسِمَ دَارُ الْمُتَقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عِنْدَ يَدِ اللَّهِ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ آذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) أى قالوا : أنزل خيرا ، وتم الكلام . و « ماذا » على هذا اسم واحد . وكان يرد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل المؤمنون فيقولون : أنزل الله عليه أنجيل والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبي : فإن قيل : لم أرفع الجواب في قوله : « أساطير الأولين » وأنصب في قوله : « خيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتزويل ، فكانهم قالوا : الذى يقوله محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالتزويل فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) قيل : هو من كلام الله عز وجل . وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ، أى من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « للذين أحسنوا » اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة : (وَلَنَسِمَ دَارُ) (١) آية ٣٠ سورة المائدة .

الْآخِرَةِ خَيْرٌ) أى ما ينالون فى الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ؛ فلتأنيب
وبقاء الآخرة . (وَلَتَمَنَّيَنَّ دَارُ الْمُتَّقِينَ) فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولتم دار المتقين
الدنيا ؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولتم دار المتقين
الآخرة ؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون (جَنَّتْ عَدْنٌ) بدلا من البارفتك ارفع .
وقيل : ارفع على تقديره جنت ، فهى مبنية لقوله : « دَارُ الْمُتَّقِينَ » ، أو تكون مرفوعة
بالابتداء ، التقدير : جنت عدن نعم دار المتقين . (يَدْخُلُونَهَا) فى موضع الصفة ، أى
مدخولة . وقيل : « جنت » رفع بالابتداء ، وخبره « يدخلونها » وعليه يخرج قول الحسن .
والله أعلم . (تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) تقدم معناه فى البقرة . (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)^(١)
أى مما تمنوه وأرادوه . (كَذَلِكَ يَجْزَى اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ) أى مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين .
(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) قرأ الأعمش وحزه « يتوفاهم الملائكة » فى الموضعين بالياء ،
واخاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قرينا زعموا أن الملائكة إنأت
فذكرهم أتم . الباقر بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و(طَيِّبِينَ) فيه ستة
أقوال : الأول — « طَيِّبِينَ » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية
أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين لأنفس نفقا بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس —
طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيبة سهلة
لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما قبض به روح الكافر والمخطئ . والله أعلم . (يَقُولُونَ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) بحمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى —
أن يكون تيشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدثنى حيوة قال
أخبرنى أبو ضحرة عن محمد بن كعب القرظى قال : إذا استغقت نفس العبد المؤمن جاءه ملك^(٢)
الموت فقال : السلام عليك وبنى الله ؛ الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الذين

(١) راجع ١٦ ص ٢٣٩ طبع ثانية أرتالة . (٢) استغقت الماء : اجتمع وئبت . أى إذا اجتمعت

نفس المؤمن فى فيه تريد الخروج ، كما يستغنى الماء فى قراره ؛ وأراد بالنفس الروح .

توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم . . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت بقبض روح المؤمن قال : ربك يتركك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن لينثر بصلاح ولده من بعده لثقت به . وقد أتينا على هذا في (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة في هذا المعنى ، والمحمد . وقوله : (ادخلوا الجنة) يحتل وجهين : أحدهما - أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة . الثاني - أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة . (يَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) يعني في الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) هذا راجع إلى الكفار، أي ما ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرا الأعمش وابن وثاب وحزرة والكسائي وخلف «يأتيهم الملائكة» بآلاء . والباقون بالياء على ما تقدم . (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ) أي بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والتخسف في الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أي عاقبتهم العذاب . (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا . (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ) أي بتعديدهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير؛ التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَتَأْتِيهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و « من » صلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا في سورة « الأنعام » ميثاق معنى وإعرابا فلا معنى للإعادة . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسول فاهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ ، وأما الهداية فهي إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى بأن أعبدوا الله ووحده . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتروا كل معبود دونه الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

(وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) أى بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا ردة على القدونية، لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووقفهم للهدى، والله تعالى يقول : « وَفِيهِمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » وقد تقدم هذا فى عبر موضع . (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) أى فسبروا معتبرين فى الأرض . (فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والمهلك .

قوله تعالى : (إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) ٣٧

قوله تعالى : (إِنْ تَحْرِضْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ) أى إن تطلب يا محمد بجهلك هدام . (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده . وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة . « يَهْدِي » فعل مستقبل وماضيه هَدَى . و « مَنْ » فى موضع نصب بـ « يَهْدِي » ويجوز أن يكون هَدَى يَهْدِي بمعنى اهتدى يهتدى ، رواه أبو عبيد عن القراء قال : كما قرئ « أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي » بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هذا عبر القراء ، وليس بثم فبا يحكيه . النحاس : حكى لى عن محمد ابن يزيد كأن معنى « لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ » من علم ذلك منه وسبق ذلك له عنه . قال : ولا يكون يهتدى معنى يهتدى إلا أن يكون يَهْدِي أَوْ يَهْدِي . وعلى قول القراء « يَهْدِي » بمعنى يهتدى ، فيكون « مَنْ » فى موضع رفع ، والعائد إلى « مَنْ » الماه المحذوفة من الصلة ، والعائد إلى اسم « إِنْ » الضمير المستكن فى « يُضِلُّ » . وقرأ الباقر « لَا يَهْدِي » بضم الباء وفتح الدال ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، على معنى من أضله الله لم يهده هاد ، دليله قوله : « مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ » و « مَنْ » فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسَمَّ فاعله ، وهى بمعنى الذى ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، والعائد حل اسم إن من « فَإِنَّ اللَّهَ » الضمير المستكن فى « يُضِلُّ » . (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) ٣٨

قوله تعالى : **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)** هذا تعجب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالفوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين ففاضه ، وكان في بعض كلامه : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت ، فزلت الآية . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يا ابن عباس ، إن ناسا يزعمون أن علياً مبعوث بعد الموت قبل الساعة ، ويتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس ، لو كان علي مبعوثاً قبل القيامة ما تكفنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . **(بَلَى)** هذا رد عليهم ؛ أي بلى ليعتد بهم . **(وَعَداً عَلَيْهِ حَقًّا)** مصدر مؤكد ؛ لأن قوله « يبعثهم » يدل على الوعد ، أي وعد البعث وعدا حقاً . **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** أنهم مبعوثون . وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه إياي فقله لن يبدئي كما بداني وأما شتمه إياي فقله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ^(١) » . وقد تقدم ، ويأتي .

قوله تعالى : **لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : **(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ)** أي ليظهر لهم . **(الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ)** أي من أمر البعث . **(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا)** بالبعث وأقسموا عليه **(أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)** وقيل : المعنى

وقد بحثنا في كل أحده وتولايتين لم يلقى يخطفون فيه ، والذى اختلف فيه للمشركون
وللباسلون أمور : منها البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن عباد حق ولكن
منهم من اتباعه التقليد ، كأبي طالب .

قوله تعالى : **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴿١١﴾

أعلمهم مهولة الخلق عليه ، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا نعب طينا ولا نصب
في إحيائهم ، ولا في غير ذلك مما بعده ؛ لأننا إنما هول له كن فيكون . فراه ابن طاهر
والكسائي « فيكون » نصباً عطفاً على أن هول . وقال الزجاج : يجوز أن يكون نصباً
على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه في « البقرة »
مستوفى . وقال ابن الأثير : أرفع لفظ الشئ على المعلوم عند الله قبل الخلق لأنه بمقتضى
ما وجد وشوهد . وفي الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « كن »
مخلوقاً لاحتاج إلى قول ثان ، والثاني إلى ثالث وتسلسل وكان محالاً . وفيها دليل على أن الله
سبحانه يريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليل على ذلك أن من
يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريد للأحد شيئاً : إما لكونه جاهلاً لا يدري ، وإما لكونه
مفلوباً لا يطيق ، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لا اكتساب
العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشئ وهو غير مرید له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف
مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مریداً لما كانت تلك الأفعال تحصل من غير
قصد ؛ وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع الموحدون على خلافه ونسأله ..

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئُهُمْ**

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَابُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا) قد تقدم في « النساء » معنى الهجرة ، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله ، وترك السيئات .
 وقيل : « في » بمعنى اللام ، أي الله . (مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا) أي مُدْبِرُوا في الله . نزلت في مُسَيَّب وبلال وخباب وعمار ، عنهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما اردوا ، فلما ظلمهم هاجروا إلى المدينة ؛ قاله الكلبي . وقيل : نزلت في أبي جندل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجهم حتى لحق طائفة منهم بالحبيشة ، ثم يترأفهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تم الجمع . (لَنَبُوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) في الحسنة ستة أقوال : الأول — نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن والشَّعْبِيّ وقَتَادَةُ . الثاني — الرزق الحسن ؛ قاله مجاهد . الثالث — النصر على عدوهم ؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه لسان صدق ؛ حكاه ابن جريج . الخامس — ما استولوا عليه من فروع البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقى لهم في الدنيا من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله ، والحمد لله . (وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) أي ولأجر دار الآخرة أكبر ، أي أكبر من أن يملكه أحد قبل أن يشاهده ؛ « وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَبِيًّا وَمَلَكًا كَبِيرًا » . (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . وقيل : هو راجع إلى المؤمنين . أي لو رأوا ثواب الآخرة وعطينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما أقر لكم في الآخرة أكثر ؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعالى : (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

قيل : (الَّذِينَ) يدل من « الذين » الأول . وقيل : من الضمير في « لَنَبُوِّنَّهُمْ » وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) في كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر ، وإذا عجز عن أمر توكل ؛ قال الله تعالى : « الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (١٦) « وَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ
الَّذِينَ لَبِيتَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (١٧)

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) قراءة العامة « يُوحَى »
بالياء . وقرأ حفص عن طامم « نُوحِي إِلَيْهِمْ » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت
في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون
رسوله بشرا ، فهلا بعث إلينا ملكا ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ »
إلى الأمم الماضية يا محمد « إِلَّا رِجَالًا » آدميين . (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) قال سفيان : يعني
مؤمني أهل الكتاب . (إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل :
المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر . روى
معناه عن ابن عباس وبجاءه . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيل : أهل
العلم ، والمعنى متقارب . (وَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) قيل : « بالبينات ، متعلق بـ « أَرْسَلْنَا » .
وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ بالبينات والزُّبُرِ إِلَّا رِجَالًا — أي غير
رجال ، فـ « إِلَّا » بمعنى غير ، كقوله : لا إله إلا الله ، وهذا قول الكلبي — نوحى إليهم . وقيل :
في الكلام حذف دل عليه « أَرْسَلْنَا » أي أَرْسَلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ . ولا يتعلق « بِالْبَيِّنَاتِ »
بـ « أَرْسَلْنَا » الأثقل على هذا القول ؛ لأن ما قبل « إِلَّا » لا يعمل فيها بعدها ، وإنما يتعلق بأَرْسَلْنَا
المقدرة ، أي أَرْسَلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ . وقيل : مفعول بـ « نَحْمِلُونَ » والباء زائدة ، أو نصب
بإسمار أعني ؛ كما قال الأعشى :

وَلَيْسَ يُجِيرَا إِنْ أَتَى الْحَيَّ حَاتِفٌ • وَلَا قَائِلَا إِلَّا هُوَ الْمُتَعَيِّ

أى أعنى المتعيب . واليناث : الحجج والبراهين . والزبر : الكتب . وقته عظمى كل حين .
 ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ . يعنى القرآن . ﴿ لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . فى هذا الكتاب من
 الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبين عن الله عز وجل
 مراده مما أحمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة ، وغير ذلك مما لم يفصله . وقد تقدم
 هذا المعنى مستوفى فى مقدمة الكتاب ، والحمد لله . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . فيستظنون .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَّروا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ
 الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
 فِي تَقْلِيمٍ مَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
 لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَّروا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى بالسيئات ، وهذا وعيد للشركين الذين
 احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ قال ابن عباس : كما خسف
 بقارون ، يقال : خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا ذهب فى الأرض ؛ وخسف الله به الأرض
 خُسُوفًا أى غاب به فيها ؛ ومنه قوله : « نَحْسِفُنَا بِهِ وَيُدَارِيهِ الْأَرْضُ » . وخسف هو فى الأرض
 وخسف به . والاستفهام بمعنى الإنكار ؛ أى يجب ألا يأمِنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت
 المكذِبِينَ . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل يوم لوط وغيره . وقيل :
 يريد يوم بدر ؛ فإنهم أهلَكوا ذلك اليوم ، ولم يكن شئ منه فى حسابهم . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
 فِي تَقْلِيمٍ ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم ؛ قاله قتادة . ﴿ مَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى ساقطين الله
 ولا قاتنيه . وقيل : « فِي تَقْلِيمٍ » على قرائتهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار .
 ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ قال ابن عباس وبجاهد وغيرهما : أى على تنقص من أموالهم

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابي : أى على تنقص من الأموال والأفئس
والفرائس حتى لأهلكهم كلهم . وقال الضحاك : هو من الخوف ؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع
طائفة ، تخاف الباقية أن يزل بها ما نزل بصاحبها . وقال الحسن : « على تخوف » أن
يأخذ القوية تخافه القوية الأخرى ، وهذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان
إلى المعنى الأول ، وأن التخوف التنقص ، تخوفه تنقصه ، وتخوفه الدهر وتخوفه (بالفاء
والنون) بمعنى : يقال : تخوفنى فلان حتى إذا تنقصك . قال ذو الرمة :

لا ، بل هو الشوق من دار تخونها • مرأى مصاب ومرأى بارح تريب
وقال لبيد :

• تخونها تزولى وارحلتى •

أى تنقص لحما وشحمها . وقال الحيسم بن عدي : التخوف (بالفاء) التنقص ، لغة
لازدشومة . وأشد :

تخوف غدرهم مالى وأهدى • سلاسل فى الخلق لها صليل

وقال سعيد بن المسيب : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : يا أيها الناس ،
ما تقولون فى قول الله عز وجل : « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » فقال شيخ
من بنى هذيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان ،
ما فعل دينك ؟ قال : تخوفته ، أى تنقصته ، فرجع فآخبر عمر فقال عمر : أنصرف العرب ذلك
فى أشعاهوم ؟ قال نعم ، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بسد
تميك واكتنازه :

تخوف الرجل منها تايكا قريدا • كما تخوف حود النبعة السفن

(١) الباج : الرج الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير . (٢) هذا مجازية ، ومصدره كافى السان :

• عافرة تمحص بالرداق •

(٢) كذا فى جميع الأصول . والذى فى السان أنه لابن مقبل وقيل لى الرمة . (٤) التردد : معناه :

لنا : التراكم لجه يفضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يخذ منها القسي .

قَالَ عمر : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلَيْكُمْ بَدِيعَاتُكُمْ شِعْرُ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّ فِيهِ تَحْسِيرَ كِتَابِكُمْ وَمَعَانِي كَلَامِكُمْ .
تَمَكَّ السَّامُ بِتَكِّكَ تَمَكَّا ، أَيْ طَالَ وَارْتَفَعَ ، فَهُوَ تَامَكَ . وَالسَّقَنَ وَالْمُسْقَنَ مَا يُجَرَّبُ بِهِ انْتِشَابُهُ
وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : « عَلَى تَخَوُّفٍ » عَلَى عَجَلٍ . وَقِيلَ : عَلَى تَقْرِيعٍ بِمَا قَدَّمُوهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ،
وَهَذَا مَرُورٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا . وَقَالَ قَتَادَةُ : « عَلَى تَخَوُّفٍ » أَنْ يَهَاقِبَ أَوْ يَتَجَاوَزَ .
(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءَوْفٌ رَحِيمٌ) أَيْ لَا يَجَازِلُ بِلَّ يَهْلُ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهِمْ
عَنِ الْيَمِينِ وَالْأَشْمَالِ يُحِيطُ بِهِمْ دُنُورٌ ﴿٢٨﴾

قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَاءُ وَخَفَّ وَيَمِجِي وَالْأَنْعَمَشُ (تَرَوْا) بِالنَّاءِ ، عَلَى أَنْ الْخَطَّابُ بِجَمِيعِ
النَّاسِ . الْبَاقُونَ بِأَلَاءِ خَبْرٍ عَنِ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ، وَهُوَ الْإِخْتِيَارُ . (مِنْ شَيْءٍ) بِمَعْنَى مِنْ
جِسْمٍ قَائِمٍ لَهُ ظِلٌّ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ جَبَلٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَإِنْ كَانَتْ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا سَمِيعَةً مَطْبُوعَةً
لِلَّهِ تَعَالَى . (يَتَفَيَّؤُا ظِلَّاهُ) قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ وَغَيْرُهُمَا بِالنَّاءِ ثَانِيَةً لِلظَّلَالِ . الْبَاقُونَ
بِأَلَاءِ ، وَأَخْتَارَهُ أَبُو عُبَيْدٍ . أَيْ يَمِيلُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ ، وَيَكُونُ أَوَّلُ النَّهَارِ عَلَى حَالٍ
وَيَتَقَلَّبُ ثُمَّ يَسُودُ فِي آخِرِ النَّهَارِ عَلَى حَالَةٍ أُخْرَى ، فَدُورَاتُهَا وَمِيلَاتُهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ
يَجُودُهَا ، وَمَنْ قِيلَ لِلظِّلِّ بِالْعَشَى : قِيٌّ ، لِأَنَّهُ قَاءٌ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، أَيْ رَجَعَ . وَالْقِيٌّ
الرَّجُوعُ ، وَمَنْ « حَتَّى تَقِيَّ » إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ^(١) . رَوَى مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ عَنْ الضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا ،
وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي سُورَةِ «الرَّعد» . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : بِمَعْنَى يَجُودُ الْجِسْمُ ، وَبِجُودِهِ انْقِيَادُهُ
وَمَا يُرَى فِيهِ مِنْ أَثَرِ الصَّنْعَةِ ، وَهَذَا عَامٌ فِي كُلِّ جِسْمٍ . وَمَعْنَى (وَهُمْ دَانِرُونَ) أَيْ خَاضِعُونَ
صَاحِرُونَ . وَالِدُخُورُ : الصَّغَارُ وَالذَّلُّ . يُقَالُ : دَنَرَ الرَّجُلُ (بِالْفَتْحِ) فَهُوَ دَانِرٌ ، وَأَدْنَرَهُ اللَّهُ .
وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا دَاخِرٌ فِي مُحْبِسٍ ^(٢) وَمُنْجِرٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ فِي مُجَرٍّ ^(٣)

(١) آيَةُ ٩ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ - (٢) رَابِعٌ - ٩ ص ٣٠٢ طَبْعَةُ أَوَّلَى أَوْ ثَانِيَةٌ . (٣) كَمَا فِي كِتَابِ
الْفَتْحِ . يُقَالُ : انْجَحَرَ الْغُصْبُ إِذَا دَخَلَ الْجَبَلَ . وَالْقِيٌّ فِي الْأَصُولِ وَدِيَانُ ذِي الرِّمَّةِ : « مُنْجِرٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ
فِي جَبَرٍ » بِتَقْدِيمِ الْحَاءِ عَلَى الْجِيمِ فِي الْكَلِمَتَيْنِ .

كتاب التنبؤ في الزمان ونسب الجرمي القزويني قال : الخبيس اسم ميم كان بالمرأى أى موضع القتل . وقال :

لما نرأى كَيْبًا مَكْبًا • بَيَّتْ بِمَدَنٍ نَافِعٌ مَحْيَا

وَوَحْدَ الْيَمِينِ فِي قَوْلِهِ : « عَنِ الْيَمِينِ » وَجَمْعُ الشَّيْءِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْنَى الْيَمِينِ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا الْجَمْعُ . وَلَوْ قَالَ : عَنِ الْإِيمَانِ وَالشَّيْءِ ، وَالْيَمِينِ وَالشَّيْءِ ، أَوْ الْإِيمَانِ وَالشَّيْءِ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَالشَّيْءَ لِحَازِءٍ لِأَنَّ الْمَعْنَى الْكَثْرَةَ . وَإِذَا فَنَ شَأْنُ الْعَرَبِ إِذَا اجْتَمَعَتْ مَعْلَمَتَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ أَنْ تَجْمَعَ إِحْدَاهُمَا وَتَقْرَأَ الْأُخْرَى ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وَكَقَوْلِهِ : « وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » وَلَوْ قَالَ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ إِلَى الْأَنْوَارِ لِحَازِءٍ . وَيُحْزَنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْيَمِينُ عَلَى لَفْظِ « مَا » وَالشَّيْءِ عَلَى مَعْنَاهَا . وَمِثْلُ هَذَا فِي الْكَلَامِ كَثِيرٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :
الْوَارِدُونَ وَتَمَّ فِي ذُرًّا سَبِيلًا • قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ^(١)

وَلَمْ يَقُلْ جُلُودَ . وَقِيلَ : وَحْدَ الْيَمِينِ لِأَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ وَأَتَتْ مُتَوَجِّهَةً إِلَى الْقِبْلَةِ انْبَسَطَ الظِّلُّ عَنِ الْيَمِينِ ثُمَّ فِي حَالٍ يَمِيلُ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ ثُمَّ حَالَاتٌ ، فَمِثْلُهَا شَائِلٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٣٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ) أَيْ مِنْ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ . (وَالْمَلَائِكَةُ) سُمِّيَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا أُفْرِدَهُم بِالذِّكْرِ لِأَخْصَاصِهِمْ

- (١) الْقَائِلُ حُسَيْنًا عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ . وَتَأْنِيحٌ : مِمَّنْ بِالْكُوفَةِ كَانَ غَيْرَ مُسَوِّقٍ الْبَاءِ وَكَانَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَانَ الْمُخْبِرُونَ يَهْرَبُونَ مِنْهُ . وَقِيلَ : إِلَهُ قَبْ وَأُتَتْ مِنَ الْمُخْبِرِينَ ؛ فَهَذَا عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ وَبِئْسَ الْخَبِيرُ لِمَنْ مِنْ مَدَنٍ .
 - (٢) الْبَيْتُ لِلْجَزِيرَةِ . وَرَوَايَةٌ دِيوَانَهُ : تَدْعُونَكَ تَمَّ وَتَمَّ فِي قَرَى سَبِيلًا • الخ
 - (٣) حَكَاهُ وَرَدَّتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي الْأَصُولِ . وَلَمَّا مَوَازِي : لِأَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ وَأَتَتْ مُتَوَجِّهَةً إِلَى الْقِبْلَةِ انْبَسَطَ الظِّلُّ عَنِ الْيَمِينِ فِي حَالٍ ، ثُمَّ يَمِيلُ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ فِي حَالَاتٍ ؛ فَمِثْلُهَا شَائِلٌ .
- وَالْقَائِلُ فِي الْبَحْرِ لِأَنَّ حَيَانَ : « وَقِيلَ : وَحْدَ الْيَمِينِ وَجَمْعُ الشَّيْءِ لِأَنَّ الْإِبْدَاءَ . عَنْ الْيَمِينِ ، ثُمَّ يَقْبِضُ شَيْئًا فَنَيْشِئُ . حَالًا بِدَلَالَةِ حَالٍ ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ ، فَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَفْظُ الشَّيْءِ فَتَعَدَّدَ تَعَدُّدَ الْحَالَاتِ » .

قوله تعالى : (وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) الشَّيْنُ : الطاعة والإخلاص . و « وَاصِبًا » معناه دائماً ، قاله الفراء ، حكاه الجوهري . وَصَبَ الشيءَ : صببهُ ، وَصَبَ أَي دَامَ . وَوَصَبَ الرجلُ عَلَى الأمرِ إِذَا وَاظَبَ عَلَيْهِ . والمعنى : طاعة الله واجبة دائماً . ومن قال واصباً دائماً : الحسن وعجده وقادة والضحاك . ومنه قوله تعالى : « وَلَهُمْ حَقَابٌ وَاصِبٌ » (١) أَي دَائِمٌ . وقال النُّزْلِيُّ :

لا أبتنى الحمد للقليل بقاؤه • بدم يكون الدهر أجمع واصلها
أنشد التزوي والتملي وغيرهما :

ما أبتنى الحمد للقليل بقاؤه • يوما بدم الدهر أجمع واصلها
وقيل : الوَصَبُ الثَّوبُ والإِعْيَاءُ أَي تَجِبُ طَاعَةُ اللَّهِ وَإِنْ نَسَبَ الْعَبْدُ فِيهَا . ومنه قول الشاعر :
لَا يُسَكُّ السَّاقُ مِنْ أَيْنَ وَلَا وَصَبٌ • وَلَا يَعْصِي عَلَى شُرُوسِهِ الصَّغِيرُ (٢)
وقال ابن عباس : « وَاصِبًا » واجبًا . الفراء والكشي : خالما . (أَفْتَرِ اللَّهُ تَتَقُونَ) أَي لَا يُبْنِي أَنْ تَتَقُوا غَيْرَ اللَّهِ . « غَيْرٌ » نَصَبٌ : « تَتَقُونَ » .

قوله تعالى : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) قال الفراء : « ما » بمعنى الجزء . والباء في « بكم » متعلقة بفعل مضمر ، تقديره : وما يكن بكم . (مِنْ نِعْمَةٍ) أَي حصة جسم وسعة ورزق وولد فمن الله . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة . فـ « الله هـ » . (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ)

(١) آية من ثلاث آيات (٢) الشعر لأعني بأعنه . والشعر الأزل من بيت ، والثاني من بيت آخر . والبيان :

لا يتأذى لما في القدر رقيقه • ولا يحس على شرموه الصفر

لا يحس الساق من أين ولا نصب • ولا يزال أمام القوم يفتخر

تأذى بالكل : ألام به . والفرسوف : خسوف . كل حرم وحسن يركل - مصلح بكل خلق مثل خسوف الكسوف والصفر (الحريك) : داء في البطن يصفره الوجه . قليل : الصفر هنا الجوع . وانقرا الأثر : تبه .

أى السقم والبلاء والفتنة . (قَالَهُ تَجَارِدُونَ) أى تضجون بالدماء . يقال : جَارَ تَجَارَ جَوَارًا .
والجَوَارُ مثل الجَوَارِ ؛ يقال : جَارَ الثور بجَارًا ، أى صاح . وقرأ بعضهم «عَجَلًا جَسَدًا جَوَارًا»
حكاة الأخص . وجار الرجل إلى الله ، أى تضرع بالدعاء . وقال الأعشى يصف بقرة :
فطافت ثلاثين يوم ويلة • وكان التكبر أن تُضيف وتجارا^(١)

(ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ) أى البلاء والسقم . (إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) بعد إزالة
البلاء وبعد الجوار . فمضى الكلام التحجب من الإشراف بعد النجاة من الملاك ، وهذا للحنى
مكر فى القرآن ، وقد تقدم فى « الأنعام » ويونس^(٢) ، ويأتى فى « سبحان » وغيرها . وقال
الربيع : هذا خاص بمن كفر . (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم
من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كفى . وقيل لام الطلبة . وقيل :
« لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى ليجحدوا النعمة سببا للكفر ، وكل هذا فعل خيىء ، كما قال :
« والكفر عجة لنفس النعم »^(٣)

(فَتَمَتَّعُوا) أمر تهديد ، « وقرأ عبادة » قل تمتعوا . (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) أى عاقبة أمركم .

قوله تعالى : وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلَّه
لِنَسْلُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ^(٤)

قوله تعالى : (وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) ذكر قوما اتهموا
بجهالتهم ، وأنهم يعلمون لما لا يعلمون أنه يضرونهم . وهى الأصنام — شيطان من أموالهم
يتقربون به إليه ؛ قاله مجاهد وقادة وغيرها . « لا يعلمون » على هذا لشركين . وقيل هى

(١) كتاب الأصول . والحق فى اللسان مادة « جف » وكتاب سيوريه ج ٢ ص ١٧٤ أنه الثانية بالضم .
(٢) فى الأصول : « تليف » بالفاء . والتسوية من اللسان وكتاب سيوريه . وتضيف : تشقق وتخلو
والكفر : الإنكار . والجوار : الصباح . والمعنى : أن هذه البقرة قدفت ولها خلافت تطلب ثلاث لآلها بأسماء
ولا إنكار معها ولا انصار عما عدل على ولها إلا أن تشقق وتخلو وتصح . (٣) راجع ج ٧ ص ٨٨ ورجع
ص ٢١٧ طبعه أول وثانية . (٤) هذا عزير من معلقة عترة ومعه :
• نبت عرا غير شاكر نعتى •

الأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعلم
محذوف ، والتقدير : ويعمل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى
في « الأثام » تفسير هذا المعنى في قوله : « فقالوا هذا لله يزعمهم وهذا لشركائنا » ثم رجع
من الخبر إلى الخطاب فقال : « تالله تستلن » وهذا سؤال توبيخ . « عما كنتم تقترنون »
أي تخلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ » نزلت في ثروة وكثافة ، فإنهم زعموا أن اللاتكة
بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات . « سُبْحَانَهُ » ثره نفسه وعظمتها عما نسبوه
إليه من اتخاذ الأولاد . « وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » أي يعملون لأنفسهم البين ، يأفكون من البنات .
وموضع « ما » وقع بالابتداء ، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز
الفرأا كونها نصبا ، على تقدير : ويعملون لهم ما يشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل
في مثل هذا ويعملون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ » أي أخبر أحدهم بولادة بنت . « ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا » أي متغبرا ، وليس يرد السواد الذي هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غيبة
بالبنت . والعرب يقول لكل من لقي مكروها : قد اسود وجهه غما وحزا ، قاله الزجاج .
وحكى الماوردي أن المراد سواد اللون قال : وهو قول الجمهور . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أي مثلي .
من النهم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه فلا يظهره .
وقيل : إنه المضموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من النهم ؛ مأخوذ من الكظامة وهو شد في
القرية ؛ قاله علي بن عيسى . وقد تقدم هذا المعنى في سورة « يوسف » .

قوله تعالى : يَتَوَرَّئِ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرْتُمْ أَيُمْسِكُمْ عَلَى
هُنَّ أَمْ يَدُسُّهُمُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (يَتَوَرَّئِ مِنَ الْقَوْمِ) أى يخفى ويتعيب . (مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرْتُمْ)
أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب البنت . (أَيُمْسِكُمْ) ذكر الكتابة لأنه
مردود على « ما » . (عَلَى هُنَّ) أى هوان . وكذا قرأ عيسى التتقى « على هوان » والهُون
الهوان بفتحة قريش ؛ قاله الزبيدى وحكاه أبو عبيد عن الكسائى . وقال الفراء : هو القليل
بفتحة تيم . وقال الكسائى : هو البلاء والمشقة . وقالت الخنساء :

نَهْنِ النَّفُوسَ وَهُنَّ النَّفْسُ • من يوم للكرمة أتى لها

وقرأ الأعمش « أَيْمِسْكُمْ عَلَى سُوءِ » ذكره النحاس ، قال : وقرأ الجحدري « أَمْ يَدُسُّهَا فِي التُّرَابِ »
يرد على قوله : « بِالْأُنْثَى » ويلزمه أن يقرأ « أَيْمِسْكُمْ » . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛
أى أَيْمِسْكُمْ وهى مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أَيْمِسْكُمْ على رغم أنه أم يلدسه
في التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية . قال قتادة : كان مُضَرٌّ وَخُرَامة يدفنون
البنات أحياء ؛ وأشدهم في هذا تيم . زعموا خوف القهر طبعهم وطمع غير الأكفاء فبين
وكان صَمُصَمَةٌ بِنْتٌ نَاجِيَةٌ عَمَّ الْفَرَزْدَقُ إِذَا أَحْسَ بَنَى مِنْ فَلَكَ وَجْهَ إِلَى وَالِدِ الْبِنْتِ إِذَا
يَسْتَحْيِيهَا بِذَلِكَ . فقال الفرزدق يفتخر :

وَعَمَى الَّذِي مَنَعَ الْوَائِلَاتِ • وَأَحْيَا الْوَرَيْدَ قَلَمٌ يُرَادُ

وقيل : نَمَّهَا إِخْفَاؤُهَا عَنِ النَّاسِ حَتَّى لَا تُعْرِفَ ، كَالْمُسْمُوسِ فِي التُّرَابِ لِإِخْفَائِهِ عَنِ
الْأَبْصَارِ ؛ وهذا محتمل .

مسئلة - ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : جدتى امرأة وبها
أبثان لها ، فأتتني فلم تجد عندي غير تمر واحدة ، فأعطيتها إياها فأخفتها فقسمتها بين ابنتيها
ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتها ، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فحقتته .

سماها، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أبطل من البساتين فاحسن البساتين كن له سقيا من النار ». وفي هذا الحديث ما يدل على أن البساتين، ثم أخبر أن في العبرطين والإحسان البساتين ما بقي من النار . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتهما ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمره لتأكلها فاستطعنتها أبنتاهما فشلت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فاعجبني شأنها، فذكرت التي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعفها بها من النار ». وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه، فخرجهما أيضا مسلم رحمه الله ! وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له بنت فأذهبها فأحسن أدبها وطهها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له سقيا أو حجايا من النار ». وخطب إلى عقيل بن طرفة ابنه الجرياء فقال :

إني وإن يسبقني إلى القهر • ألتف وعبدان وخود مشر
• أحب أصهارى إلى الفجر •

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنت يراعى شؤنها • ثلاثة أعتار إذا حمد الصبر
قبل يراعها ويحذر يكفها • وقبر يوارى ويحرم القبر

(الآساء ما يحكوت) أي في إضافة البساتين إلى خلفهم وإضافة البنين إليهم . نظيره
« ألكم الذكركم له الأختى . تلك إذا قسمة ضيرتى » أي جارة، وسياق .

قوله تعالى : **لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ وَرَبُّ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : (**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**) أى هؤلاء الواحدين لله البتات (**مَثَلُ السَّوءِ**) أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وضعهم الله تعالى بالعاجلة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . (**وَرَبُّ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ**) أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد ؛ قاله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر وعجاز . وقال ابن عباس : « مثل السوء النار ، و المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله » . وقيل : ليس كذلك شئ . وقيل : « **وَرَبُّ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ** » كقوله : « **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ** » . فإن قيل : كيف أخاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : « **فَلَا تَضُرُّوهُ الْأَمْثَالُ** » فالجواب أن قوله : « **فَلَا تَضُرُّوهُ الْأَمْثَالُ** » أى الأمثال التى توجب الأشياء والتفاصيل ؛ أى لا تضرىوا الله مثلا يقتضى قهها وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبه له ولا نظير ، **جَلَّ وَعَالَىٰ** . يقول الظالمون والجاحدون ملأوا كبيرا . (**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) تهنأ معناه .

قوله تعالى : **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ مَسَاعَةً وَلَا يَسْتَقْصِمُونَ** ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ**) أى يكفرهم واقترانهم ، وجاهلهم : (**مَاتَرَكَ عَلَيْهَا**) أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : (**مِنْ دَابَّةٍ**) فإن الدابة لا تلأى إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كآفة ، فهو خاص . وقيل : للمنى أن تلأى أهلك الآباء يكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو أخذ الله الخلق بما كسبوا مترك على

ظهر هذه الأرض من دابة من نجي ولا غيره، وهذا قول الحسن . وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية :
 لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع انطلق حتى الجعلان (١) في جحرمها ،
 ولا مسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فسات الدواب ، ولكن الله يأخذ بالغو
 والفضل ، كما قال : « وَيَسْفُو عَنْ كَثِيرٍ » . (فَإِنَّا بَاءَ أَجْلِهِمْ) أى أجل موتهم ومنتهى
 أعمارهم . (لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْلِمُونَ) وقد تقدم . فإنه قيل : فكيف يم بالهلاك
 مع أن فيهم مؤمدا ليس بظالم ؟ قيل : يحصل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن
 معوضا بنواب الآخرة . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم يُبتوا على نياتهم » .
 وعن أم سلمة وسئل عن الجيش الذى يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير ، قالت
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يود بالبيت طائفة فيعث إليه بعت فإنما كانوا يبتداه
 من الأرض خُسف بهم » قلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارها ؟ قال : « يخسف
 به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نية » . وقد أتينا على هذا المعنى جُودا في (كتاب
 التذكرة) وتقدم في « المسألة » وآخر « الأنعام » ما فيه كفاية ، والحمد لله . وقيل : « فإنما
 بياء أجْلهم » أى فإنما جاء يوم القيامة . والله أعلم .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ
 أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) أى من البينات . (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)
 أى وتقول ألسنتهم الكذب . (أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) قال مجاهد : هو قولهم أن لهم البين وبه
 البينات . « الكذب » مفعول « تصف » و « أن » فى محل نصب بدل من الكذب ، لأنه

(١) الجعلان (بكر الجيم جمع جبل ، كهرم) : دابة سوداء من دراب الأرض . (٢) آية ٣٠
 صورة الثورى . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٠٢ طبة أول أو ثانية . (٤) فى صحيح مسلم .
 « على أعمالهم » . (٥) راجع ج ٦ ص ٣٤٢ و ج ٧ ص ١٥٤ طبة أول أو ثانية .

بيان له . وقيل : « الحسنی » الجزء الحسن به قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العالية
ومجاهد وابن محيص « الكُذِّب » بفتح الكاف والتال وباء فتا للألنة ؛ وكذا « ولا تخولوا
لِما يَصِفُ اليَسْتَكُمُ الكُذِّب » . والكُذِّب جمع كذوب ؛ مثل رَسُول ورُسُل وصُبُور وصَبُور وشُكُور
وشُكْر . (لَا) رد لفوهم ، وتم الكلام ، أى ليس كما تزعمون . (حَرَّمَ أَنْ لَّهُمُ النَّارُ) أى حقا
أن لهم النار . وقد تقدم مستوف . (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) مفرطون مفرطون فى النار ؛ قاله
أبن الأعرابي وأبو عبيدة والكسائي والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن
عباس وسعيد بن جبير أيضا ؛ مبعدون . قتادة والحسن : مبعجلون إلى النار مقدمون إليها .
والقارط : الذى يتقدم إلى الماء ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا فرطكم على
الحوض » أى متقدمكم . وقال القطاوى :

فاستمجلونا وكانوا من محابتنا . كما تجعل فُراط لوُزاد

والفراط : المتغتمون فى طلب الماء . والوزاد : المتأخرون . وقرأ نافع فى رواية ورش
« مُفْرَطُونَ » بكسر الراء وتخفيفها ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه
مسرفون فى الذنوب والمعصية ، أى أفرطوا فيها . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أربى
عليه ، وقال له أكثر مما قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارىء « مُفْرَطُونَ » بكسر الراء
وتشديدها ، أى مضطربون أمر الله ؛ فهو من التفريط فى الواجب .

قوله تعالى : تَأْتِيهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (تَأْتِيهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ) أى
أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن من تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم
قومهم . (فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ) أى ناصرهم فى الدنيا على زعمهم . (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

في الآخرة . وقيل : « فهو وليهم » أى قرينهم في النار . (اليوم) يعنى يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به ليحكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) أى القرآن (إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ) من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانه . وعطف « هُدًى وَرَحْمَةً » على موضع قوله : « لِّتُبَيِّنَ » لأن محله نصب . وبجاز الكلام : وما أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا تَيَانًا لِلنَّاسِ . (وَهُدًى) أى رشدًا ورحمةً للؤمنين .

قوله تعالى : وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ وَهَيْئِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) أى السحاب . (مَاءً فَأَنبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ وَهَيْئِهَا) ماد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أى دلالة على البعث وحسناته ، إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً ، فكان هذه الدلالة . (لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) عن الله تعالى بالقلوب لا بالأذان ، « فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتَسْمَعُوا بِمَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١٣﴾

هسته خبر سال :

الأولى — قوله تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَّةً) قد تقدم القول في الأنعام ،^(١)
وهي هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمز . (لعبية) أى دلالة على قدرة الله
ووحدايته وعظمته ، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقة من طريق المشاهدة ،
ومنه « فاعتبروا » . وقال أبو بكر الوراق : العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم ،
وتزكك على ربك وخلافك له في كل شيء . ومن أعظم العبر يرى يحمل منبها .

الثانية — قوله تعالى : (تُسْقِيكُم) قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم في رواية
أبي بكر (بفتح النون) من سقى يسقى . وقرأ الباقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من
أسقى يسقى ، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لتان . وقال ليد :
سقى قومي بنى حميد وأسقى . ثميراً والقبائل من هلال

وقيل : يقال لما كان من يدك إلى فيه سقىته ، فإذا جعلت له شرباً أو عرضته لأن يشرب
بفيه أو يزرعه قلت أسقيته ، قاله ابن عزيز ، وقد تقدم . وقرأت فرقة « تسقيكم » بالياء ،
وهي ضعيفة ، يبنى الأنعام . وقرأى بالياء ، أى يسقيكم الله عز وجل . والقرء على القراءتين
المتقدمتين ، ففتح النون لفه قريش وضمها لغة جدير .

الثالثة — قوله تعالى : (وَمَا فِي بُطُونِهِ) اختلف الناس في الضمير من قوله : « وما
في بطونه » على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث . قال سيويه :
العرب تحب عن الأنعام بغير الواحد . قال ابن العربي : وما أراه عول عليه إلا من هذه
الاية ، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل : لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس
بذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعام وهي الأنعام ، جاز عود الضمير بالتذكير ، وقاله الزجاج .

(٢) من آية ٢ سورة الحشر .

(١) راجع ج ٧ ص ١١١ طبة أول أو ثانية .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧ طبة ثانية أو ثالثة .

وقال الكسائي : مناه مما في بطون ما ذكرناه ، فهو عائد على المذكور ، وقد قال الله تعالى :
« إِنَّمَا تَذَكَّرُ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » وقال الشاعر :

• مثل الفِراخ تُفْتَحُ حواصله •

ومثله كثير . وقال الكسائي : « مما في بطونه » أى مما في بطون بعضه ؛ إذ المذكور
لا أبان لما ، وهو الذى عول عليه أبو عبيدة . وقال الفراء : الأقسام والنسم واحد ، والنسم
يذكر ، ولهذا قول العرب : هذا نسم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النسم الذى هو بمعنى الأقسام .
قال ابن العربى : إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ، فذكره هنا
باعتبار لفظ الجمع ، وأنه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال : « تُسَيِّمُكُمْ ^(١) مِمَّا فِي بَطُونِهَا »
وبهذا التأويل ينظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار
لفظ الجمع أكثر من رمل يبرين وتيهاء فلسطين ^(٢) .

الرابعة — استنبط بعض العلماء الحلة وهو الفاضل إسماعيل من عود هذا الضمير ،
أن لبن الفضل يفيد التحريم ، وقال : إنما جئ به مذكرا لأنه راجع إلى ذكر النسم ؛ لأن اللبن
للذكر محسوب ، ولذلك قضى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفضل يحرم حين أنكرته عائشة
في حديث أنفع أنى أبى القعيس « فامرأة السقي وللرجل اللقاح » بخرى الاشتراك فيه بينهما .
وقد مضى القول في تحريم لبن الفضل في « النساء » والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : « مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدِيمٍ لَبَنًا خَالِصًا » نبه سبحانه على عظم
قدرته بخروج اللبن خالصا بين القرن والدم . والقرن : الزبل الذى يتزل إلى الكرش ،
فإذا خرج لم يسم قرنا . يقال : أقرنت الكرش إذا أخرجت ما فيها . والمعنى : أن الطعام
يكون منه ما فى الكرش ويكون منه الدم ، ثم يخلص اللبن من الدم ، فأعلم الله سبحانه أن هذا
للبن يخرج من بين ذلك وبين الدم فى العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل الملف

(١) آية ١١ سورة ميس . (٢) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٣) رمل لا تحرك أطرافه
من بين حلق الشمس من جبالها . (٤) راجع به ص ١١١ طبعة أول أرتانية .

إذا استقر في كرشها طبعته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلىه دماً، والكبد مسلط على هذه الأصناف تنقسم الدم وتجزئه وتجريه في العروق، وتجري اللبن في الضرع ويبقى الفَرْث كما هو في الكرش، «حِكْمَةُ بَالِغَةٍ قَدْ تَتَنَبَّهُ النَّدْرُ» . (حَالِصاً) يريد من حمرة الدم وقنارة الفَرْث وقد جمعها وطاء واحد . وقال ابن بحر : خالصاً بياضه . قال النابغة :

بِمَخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خُضِرَ الْمَتَاكِبُ .

أى يبيض الأكام . وهذه قدرة لا تنبى إلا للقاء على كل شئ بالمصلحة .

السادسة - قال القشاش : في هذا دليل على أن المني ليس نجس . وقاله أيضاً غيره واحتج بأن قال : كما يخرج اللبن من بين الفَرْث والدم سائناً خالصاً كذلك يجوز أن يخرج المني على مخرج البول طاهراً . قال ابن العربي : إن هذا الجهل عظيم وأخذ شنيع . اللبن جاء الخبر عنه بجى النعمة والمنة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة ، فاقضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المني من هذه الحالة حتى يكون ملحقاً به أو مقيساً عليه .

قلت : قد يعارض هذا بأن يقال : وأى مية أعظم وأرفع من خروج المني الذى يكون عنه الإنسان المكرم ؟ وقد قال تعالى : «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ» ، وقال : «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْوَابِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً» وهذا غاية في الامتنان . فإن قيل : إنه ينتجس بخروجه في مجرى البول ، قلنا : هو ما أردناه ، فالتجاسة عارضة وأصله طاهر ، وقد قيل : إن تحرجه غير مخرج البول وخاصة المرأة ، فإن تدخل الذكر منها وتخرج الولد غير مخرج البول على ما قاله العلماء . وقد تقدم في البقرة . فإن قيل : أصله دم فهو نجس ، قلنا ينتقض بالمسك ، فإن أصله دم وهو طاهر . ومن قال بطهارته الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم ، لحديث عائشة رضی الله عنها قالت : كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابساً بظفري . قال الشافعي : فإن لم يترك فلا بأس به . وكان سعد

(١) آية ٥ سورة النمل . (٢) الأردان : جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم .

(٣) آية ٧ سورة الطارق . (٤) آية ٧٢ من هذه السورة .

ابن أبي وقاص يترك المني من ثوبه . وقال ابن عباس : هو كالنخامة أبطه عنك بإذنية
واسمه بخرقة . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المني من ثوب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر النسل
فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسله استغذارا كالأشياء التي تزال من الثوب كالنجاسة ، ويكون
هنا اجتماعين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأوزاعي : هو نجس . قال
مالك : غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا ، وهو قول الكوفيين .
ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف
فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابون .

السابعة - في هذه الآية دليل على جواز الاستماع بالألبان من الشرب وغيره ، فاما
لبن الميتة فلا يجوز الاستماع به ، لأنه مائع طاهر حصل في وعاء نجس ، وذلك أن ضريح
الميتة محس واللبن طاهر فإذا غلب صار مأخوفا من وعاء نجس . فاما لبن المرأة الميتة
فأختلف أصحابنا فيه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيا وميتا فهو طاهر . ومن قال :
ينجس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعا ثبت الحرمة ، لأن الصبي قد يتنذى به كما
يتنذى من الحية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم
وأنشز العظم " . ولم ينحس ، وقد مضى في " النساء " .

الثامنة - قوله تعالى : (مَا تَنَالُوا مِنَ الْفِتَنِ) أي لذيذنا هنا لا ينقص به من شره .
يقال : ماغ الشراب يسوغ سوغا أي سهل مدخله في الحلق ، وأساغه شارب ، وسقته أنا أسيفه
وأسوفه ، يتعدى ولا يتنذى ، والأجود أسفته إساعة . يقال : أسغ لي غصتي أي أهملني
ولا تعجلني ، وقال تعالى : « تَجَرَّعُوهُ وَلَا يَكَادُ عَلَيْه » . ^(١) والسواغ (بكسر السين) ما أسفت
به غصتك . يقال : للماء سواغ النقص ، ومنه قول الكعبية ،
« فكَاتِ سِوَانَا أَنْ جَوْرَتْ بُنْصَة » .

وروي أن اللبن لم يترق به أحد قط ، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع ص ١١١ طبع المطبعة الثانية (٢) آية ١٧ سورة لقاحم

التاسعة - في هذه الآية دليل على استعمال الخلاوة والأطعمة الذينة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سرف ولا إكثار . وقد تقدم هذا المعنى في « المائدة » وغيرها . وفي الصحيح عن أنس قال : لقد سقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدحى هذا الشراب كله : العسل والبنيد واللبن والماء . وقد كره بعض القراء أكل القالودج^(١) واللبن من الطعام ، وأباحه عامة العلماء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار ، فأتى بالقالودج فامتنع عن أكله ، فقال له الحسن : كل ! فإن عليك في الماء البارد أكثر من هذا .

العاشرة - روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن فشرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه . وإذا شرب لنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجرى عن الطعام والشراب إلا اللبن » . قال علماءنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أول ما ينتسب به الإنسان وتبني به الجثث والأبدان ، فهو قوت خلّ عن المفساد به قوام الأجسام ، وقد جملة الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خير الأمم أمة ، فقال في الصحيح : « يخافني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لي جبريل اخترت الفطرة أما إنك لو اخترت الخمر غوت أمتك » . ثم إن في الدعاء بالزيادة منه علامة الحسب وظهور الخيرات والبركات ، فهو مبارك كله .

قوله تعالى : وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ يَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ) قال الطبري : التفدير ومن ثمرات النخيل والأعقاب ما يتخذون ، خفف « ما » ودلّ على حذفه قوله : « منه » . وقيل :

(١) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وج ٧ ص ١٩١ طيبة أملى أو ثانية .

(٢) القالودج : خلوة تصل من الخفق والماء والعسل . (من الألفاظ الفارسية للمعري) .

المذوف نبي، والأمر قريب . وقيل : معنى « منه » أي من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : « ومن ثمرات » عطفا على « الأثمار »، أي ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عرة . ويجوز أن يكون معطوفا على « مما » أي وستفيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانية - قوله تعالى : (سَكْرًا) السَّكَرُ ما يُسَكِّرُ ؛ هذا هو المشهور في اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسَّكَرِ الخمر، وبالرَّزْقِ الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين . وقال بهذا القول ابن جبير والنخعي والشمسي وأبو ثور . وقد قيل : إن السَّكَرَ الخَلُّ بلفظ الحبشة، والرَّزْقِ الحسن الطعام . وقيل : السَّكَرُ العَصِيرُ الحلو الحلال، وسمى سَكْرًا لأنه قد يصير سكرًا إذا بقي ، فلما لم يخسأ حرم . قال ابن العربي : « أئدت هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أئمت الله عليكم ثمرات النخيل والأعناب تحفظون منه ما حرم الله عليكم اعتدائه منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو فصلا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون مسووعة، فإن هذه الآية مكبة باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني . »

قلت : فعل أن السَّكَرَ الخَلُّ أو العَصِيرُ الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمون الخَلَّ السَّكَرَ، إلا أن الجمهور على أن السَّكَرَ الخمر، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن وعماهد وابن أبي ليلى والكلبي وغيرهم من تقدم ذكرهم، كلهم قالوا : السَّكَرُ ما حرمه الله من ثمرتهما . وكذا قال أهل اللغة : السَّكَرُ الخمر وما يُسَكِّرُ، وأنشدوا :

نَسِ الصَّعَاةَ وَنَسِ الشَّرْبُ تَشْرِبُهُمْ • إذا حُرِيَ قَبِيهِمُ الْمَرْءُ وَالسَّكَرُ
وَالرَّزْقُ الْحَسَنُ : ما أحله الله من ثمرتهما . وقيل : إن قوله « تَحْتَمُونَ مِنْ سَكْرًا » خبرُ
صعته الاستفهام بمسئ الإيثار، أي اتحمون منه سكرًا وتقدمون رزقا حسنا الخَلُّ والزبيب

والتمتر؛ كقوله : « فهم الخالدون » أى أنهم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة :
السكر الطعم ، يقال : هذا سكر ك أى طعم . وأشد :

• جعلت عيب الأكرمين سكرًا •

أى جعلت ذقتهم طعما . وهذا اختيار الطبرى أن السكر ما يطعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد؛ مثل « إنما أشكركم^(١) بنى وحزنى إلى الله » وهذا حسن ولا نسخ ، إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التصير على خلافه ، ولا حجة له فى البيت الذى أئشه ؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تخمر بيبوب الناس . وقال الحفزيون : المراد بقوله : « سكرًا » ما لا يسكر من الأنبذة ؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بحلل لا بحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يميز ، وعصّدوا هذا من السنة بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حرم الله الخمر بيننا والسكر من غيرها » . وبما رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركن ، ودفع إليه القدح فرفضه إلى فيه فوجده شديدا فردّه إلى صاحبه ، فقال له حيثذ رجل من القوم : يا رسول الله ، أحرأ هو ؟ فقال : « على بالرجل » فأتى به فأخذ منه القدح ، ثم دعا بماء فصبه فيه ثم رفضه إلى فيه فقطب ، ثم دعا بماء أيضا فصبه فيه ثم قال : « إذا اغتسلت طيبكم هذه الأوعية فاكسروا مؤنّها بالماء » . وروى أنه عليه السلام كان يبيّذ له فيشره ذلك اليوم ، فإذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاء الخادم إذا تفرّج ، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عؤن التتقى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بيننا القليل منها والكثير والسكر من كل شراب ، نخرجه للمارقطى أيضا .

(١) آية ٨٦ سورة يوسف .

(٢) الانطام بجازة المجد ، أى إذا جاوزت حدها إلى يسر أو سدا إلى يسر .

قضى هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عنه كما حرمت الخمر مبيها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هذه الإبل وليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت التورى يشرب النبيذ في بيت حبر أهل زمانه مالك بن ينول . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آتى على عباده ولا يكون امتنائه إلا بما أهل فصحيح ، بيد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما يناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربي : إن قيل كيف يفسخ هذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هذا كلام من لم يتحقق الشريعة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقي أو عن إعطاء نواب فضلا من الله فهو الذي لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فلا أحكام تبدل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنما يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمت هذا خرجت عن الصف النبي الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله : « وَإِنَّا بَدَلْنَا آيَةَ مَكَانٍ آيَةً وَآلَهُ أَهْلُكُمْ بِمَا يَقُولُونَ أَنْتُمْ مُفْسِدُونَ » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بدله ما يشاء وينهت ما يشاء وعنده أم الكتاب .

قلت : هذا تنبيه شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهي أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف في ذلك ، والصحيح جواز هذه الآية وما كان بنقلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك للمشروع ، وذلك الطلب هو الحكم الشرعي الذي يستدل على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثاني ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قد روى عنه بالنقل التائب أنه قال : « كل شراب أسكر فهو حرام » وقال : « كل مسكر نجس وكل مسكر حرام » وقال : « ما أسكر كثيره فقلبه حرام » . قال النسائي : وهؤلاء أهل التبت والمذلة مشهورون

بصفة النقل، وعبد الملك لا يقوم مقام واحد منهم ولو غاضده من أشكاله جماعة، وبإضافة التوفيق. وأما الثالث وإن كان صحيحاً فإنه ما كان يسقيه لخدمته على أنه ميكو، وإنما كان يسقيه لأنه يتغير الرائحة. وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيل عليه أزواجه في صل زيب بأن قيل له: إنا نجد منك ريحاً مفاير، يبنى ريحاً منكراً، فلم يشربه بعد. وسيأتي في التحريم. وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس وباحد أنه قال: ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس ابن دينار. وكذلك ثبوت في المسكر، قاله الباقطوني. والحديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شداد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما ما روى عن عمر من قوله: ليس يقطعه في بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النسائي عن حبة بن فرقاد قال: كان النبيذ الذي شربه عمر بن الخطاب قد خُلل. قال النسائي: وما يدل على صحة هذا حديث السائب، قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم: حدثني مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكراً جلده، بخلافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحد تاماً. وقد قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما بعد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من القنب والعسل والتمر والحسنة والشعير. والخمر ما خسر العقل، وقد تقدم في «المائدة». فإن قيل: فقد أحل شربه إبراهيم النخعي وأبو جعفر الطحاوي وكان إمام أهل زمانه، وكان صفيان الثوري يشربه. قلنا: فذكر النسائي في كتابه أن أول من أحل المسكر من الأئمة إبراهيم النخعي، وهذه فلاة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حاجة في قول أحد مع السنة. وذكر الثماني أيضاً عن ابن المبارك قال: ما وجدت الرغبة في المسكر من أحد صحيحاً إلا عن إبراهيم. قال أبو أسامة: ما رأيت

رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الثقات ومصر واليمن والجزيرة . وأما الطحاوي^(١) وسفيان لومع ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاوي قد ذكر في كتابه الكثير في الاختلاف خلاف ذلك . قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاوي اخفت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغلى وقذف بالزبد فهو نمر ومستهل كافر . واختلفوا في قبيح التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدل على أن حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انخر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب » غير معمول به عندهم ؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستعمل قبيح التمر؛ فنبت أنه لم يدخل في التمر المحزومة غير عصير العنب الذي قد اشتد وبلغ أن يسكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحريم ملقاً بها فقط غير مقبس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعاً قد قاسوا عليها قبيح التمر إذا غلى وأسكر كثيره وكذلك قبيح الزبيب . قال : فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مسكر حرام » واستغنى عن مسنده لقبول الجميع له ، وإنما اختلف بينهم في تأويله ، فقال بعضهم : أراد به جنس ما يسكر . وقال بعضهم : أراد به ما يقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلاً إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوي لقوله ، فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . وقد روى الدارقطني في سننه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن الله لم يخمر الخمر لأسمها وإنما حرّمها لعاقبتها ، فكل شراب يكون عاقبته كماقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وما روى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يسكر كثيره فلقوم ذنوب يستغفرون

(١) في حاشية المسعى على سنن الترمذي : « قوله الثقات ، كأنه جمع على إرادة البلاد النائية » .

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما غطى خطأ في التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنباً لله أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والتي صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل في تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أى من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف إن كانت الخمر حلالاً أو حراماً ، فآخذ السكر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال تعالى : « قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَثِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) قد مضى القول في الوحي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام ، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَتَنفِيسٌ وَمِمَّا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير مآشها . وقد أخبر عن وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ هَآءَا » . قال إبراهيم الحارثي : يه عن وجل في الموات قدرة لم يدر ما هي ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرفها ذلك ، أى ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام . وقرا يحيى بن وثاب « إلى النحل » بفتح الحاء . وسمى نحلاً لأن الله عز وجل نحله السسل الذي يخرج منه ، قاله الزجاج . الجوهرى : والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يتسوب . والنحل يؤث في لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء . وروى من خطيب

(٢) آية ٧ سورة النحل .

(١) راجع ج ٤ ص ٨٥ طبة أدل أو ثاني .

(٢) آية ٤ سورة الزلزلة .

أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللذان كآها في النار يجعلها عذاباً لأهل النار إلا النخل » ذكره الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) . وروى عن ابن عباس قال : « نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النخلة والنخلة والمُهدَّد والصرد ، خرج به أبو داود أيضاً ، وسأى في « النخل » إن شاء الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : (أَنْ آتَخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ) هذا إذا لم يكن لها مالك . (وَمِمَّا يُعْرِشُونَ) جعل الله بيوت النخل في هذه الثلاثة الأنواع ، إما في الجبال وكواها ، وإما في متجوف الأشجار ، وإما فيما يرش ابن آدم من الأجاج والخلايا والحيطان وغيرها . وعرش معناه هنا بيتاً ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إيقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ، ومنه الرش الذي صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يعرش ويعرش (بكسر الراء وضمة) ، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف في ذلك عن عاصم

الثالثة - قال ابن العربي : « ومن عجيب ما خلق الله في النخل أن ألحمها لاحتذاء بيوتها مستمة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشكال من الثلث إلى المشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرج ، إلا الشكل السادس ، فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعالى : يَمْ كِي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

(١) الحديد (كرب) : « ما فرق السور وصيغها » . (٢) في قوله تعالى : « حتى إذا أنزل من الجبال » : « الأجاج » : جامع النخل والجبل منها متصل

قوله تعالى : (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) وذلك أنها إنما تأكل الثمار من الأشجار (فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا) أى طروق ربك . والسبل : الطرق ، وأضاعتها إليه لأنه خالفها . أى ادخل طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر . (ذُلَالًا) جمع ذلول وهو المتقاد ؛ أى مطيعة مسخرة . فـ « ذلالا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : المراد بقوله « ذُلَالًا » السبل . يقول : منذل طرقها سهلة للسلوك عليها ؛ واختاره الطبري ، و « ذلالا » حال من السبل . واليسوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) فيه تسع مسائل : الأولى . — قوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا) رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبية على العبرة فقال : « يخرج من بطونها شراب » يعنى العسل . وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أقواء النحل ؛ وورد عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة . فظاهر هذا أنه من غير الفم . وباجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بجى أقسامها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ؛ ذكره التزئوي . وقال : « من بطونها » لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في الصن .

الثانية . — قوله تعالى : (مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والحماد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة توعته بحسب تنوع الغذاء ، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبي صلى الله عليه وسلم : « جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْمَرْقُطُ^(١) » حين شبهت رائحته برائحة المرقاط .

(١) البرنس : الأكل . والمرقط (الفنم) : غير الطلع ، وله منع كربة الرائحة ، فإذا أكلته النحل حل في صلبها من رحيه . أى شربت صلبا أكلت نحلته من غير الطلع .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الصمير للسل ؛ قاله الجمهور . أى في السل شفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والقرءاء وابن كيسان : الصمير للقرآن ؛ أى في القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن ، أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : السل فيه شفاء ، وهذا القول بين أيضا ، لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بها أصلها من السل . قال القاضي أبو بكر بن العربي : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصح عنهم ، ولو صح قلنا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كله للسل ، ليس للقرآن فيه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم ، وأن الشراب القرآن والحكمة ، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر الباسني ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشربك مما يخرج من بطون بني هاشم ، فاحسك الحاضرين وبهت الآخر وظهرت مخافة قوله .

الرابعة - اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومية أم لا ؛ وقالت طائفة : هو على العموم في كل حال ولكل أحد ؛ فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا ، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا . وحكى النقاش عن أبي رَجْرَج أنه كان يكمل بالسل ويستمشی بالسل ويتداوى بالسل . وروى أن عوف بن مالك الأنصبي مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : استوفى بالماء ، فإن الله تعالى يقول : « وَتَزَلْنَا مِنَ السَّيَاءِ مَاءً مُبَارَكًا » ثم قال : استوفى بعسل ، فإن الله تعالى يقول : « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » واستوفى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » يفادوه بذلك كله غلطه جميعا ثم شره فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل وطبخ فأتى شربا ينفع به في كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم في كل صفة وفي كل إنسان ؛ إلى أنه خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من

الأدوية في بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخباره في أنه هذا لما كثر الشفاء ما
 وصار غليظاً ومُعِيناً للأدوية في الأثرية والمماجيز ؛ وليس هذا بأول لفظ خُصَّصَ
 فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتي فيها العام كثيراً بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام . وعلا
 يدل على أنه ليس على العموم أن هـ شفاء هـ نكرة في سياق الاتيات ؛ ولا عموم فيها اتفاقه
 أدخل اللسان ومحقق أهل العلم ومختلف أهل الأصول . لكن قد حلت طائفة من أهل الصدق
 والمزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالسل من كل الأوجاع والأمراض ؛ وكانوا يشفون
 من عليهم بركة القرآن وبصحة التصديق والإيقان ؛ كمن العربي ؛ ومن ضعفت نيته وغلبيته
 على الدين عاداته أخذته مفهوماً على قول الأطباء ؛ والكُلُّ من حكم القفال لما يشاء .

الخامسة - إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه السل ومن يضره ، فكيف يكون شفاء
 للناس ؟ قبل له : الماء حاة كل شيء ، وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذ على هـ يضره من
 علة في البدن ، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأثرية ؛ قال معاذ الزطاح . وقد اتفق
 الأطباء عن بركة أبيهم على مدح عموم منفعة السكجيين في كل مرض ؛ وأصله السل^(١)
 وكذلك سائر المعجونات ؛ على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حسم ماء الإشكال ويزلج حروبه
 الاحتمال حين أمر الذي يشكى بطنه بشرب العسل ، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزد إلا استطلاقاً
 أمره بعود الشراب له فبرئ ؛ وقال : " صدق الله وكذب بطن أخيك "

السادسة - اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال : قد أجمعت الأطباء
 على أن العسل يسهل فكيف بوصف لمن به الإسهال ؛ فالجواب أن ذلك القول حق في نفسه
 لمن حصل له التصديق بنية عليه السلام ، فيستعمله على الوجه الذي عينه وفي المحل الذي أمره
 به قد نية وحسن طوية ؛ فإنه يرى منفعة ويدرك بركته ، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره
 كما تقدم . وأما ما حكى من الإجماع فدل على جهله بالقل حيث لم يقيد وأطلق . قال الامام
 أبو عبد الله المازري : ينبغي أن يعلم أن الإسهال بعرض من ضروب كثرة ؛ منها الاسهال

(١) السكجيين : شراب سب ؛ أى خل وعسل . (عن الأقطاب للقاسم المتز)

الحادث عن الثَّغْمِ والمَيْضَاتِ؛ والأطباءُ مجمعون في مثل هذا على أن ملاحه بأن يترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال أعينت مادامت القوة باقية، فأما حسبها فضرر، فإذا وضع هذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وحيضة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده إلى أن فئت المادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذن ذلك مجهول المفترض بتلك الصناعة . قال : ولستأستظهر على قول نبيّنا بأن يصدقه الأطباء بل لو كذبوه لكنبناهم ولكنفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فتفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجريحه على ما يصح إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب .

السابعة - في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز العلاج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، وروى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله " . وروى أبو داود والترمذى عن أسامة بن شريك قال قالت الأعراب : ألا تتداوى يا رسول الله؟ قال : " نعم . يا عباد الله تداؤوا فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحدا " قالوا : يا رسول الله وما هو؟ قال : " الهرم " لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبي خزيمة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : يا رسول الله، أرايت رُقَى نستقيها ودواء تتداوى به وتُقاة تنقيها، هل ترُدُّ من قدر الله شيئا؟ قال : " هي من قدر الله " قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبي خزيمة غير هذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن كان في شيء من أدويتكم خير فقى شرطه محجّم أو شربة من عسل أو لَذعة بشار وما أحب أن أكنوى " أخرجه الصحيح . والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والامتعاق

بجمهور العلماء . وروى أن ابن عمر اكتبوا من القوة ورق من العنبر . وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسقى ولده الترياق . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أمة بقضها وقضضها فخلعت كانوا لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطبون وعلى ربهم يتوكلون " . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقة به واقطاعا إليه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا . قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » . وعن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما . دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه فقال له عثمان : ما تشكى ؟ قال ذنوبي . قال : فاستشى ؟ قال وحمة ربي . قال : ألا ادعوك طيبا ؟ قال : الطيب أَرْضِي ... وذكر الحديث . وسأني بكلمة في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى . وذكر وكيع قال : حدثنا أبو حلال عن معاوية بن قرة قال : مرض أبو الدرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعوك طيبا ؟ قال : الطيب أنجمني . وإلى هنا ذهب الريح بن خثيم . وكره سعيد بن جبيرة الرقي . وكان الحسن يكره شربه للأدوية كلها إلا اللبن والسهل . وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حاجة فيه ، لأنه يحصل أن يكون قصد إلى نوع من الكي مكره بدليل كي النبي صلى الله عليه وسلم أتيأ يوم الأحزاب على أكله لما روي . وقال : « الشفاء في ثلاثة » كما تقدم . ويحصل أن يكون قصد إلى الرقي بما ليس في كتاب الله ، وقد قال سبحانه وتعالى : « وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانَهُ . وَرَقَى أَصْحَابَهُ وَأَمْرَهُمُ بِالرُّقْيَةِ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانَهُ » .

(١) القوة (بالفتح) : مرض يمرض الوجه فيقبل إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لفتح السم من الأدوية والمساخين ، وهو مغرب . (٣) أي دخلوا مجتمعين ، يقض أجرم على أولم . وقال ابن الأعرابي : إن القرض المحض الكبار ، والقضض المحض الصغار ؛ أي دخلوا بالكبر والصغر . (٤) آية ٢٤ سورة الحديد . (٥) الأكل : عرق في وسط الفراخ . (٦) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الثامنة - ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة في العسل وإن كان مطعوماً مقتاناً . واختلف فيه قول الشافعي، والذي قطع به في قوله الجديدي : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة يوجب زكاة العسل في قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شيء فيه حتى يبلغ ثمانية أفرق^(١)، والفرق ستة وثلاثون رطلاً من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : في كل عشرة أزقاق زق؛ فتمسك بما رواه الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في العسل في كل عشرة أزقاق زق " قال أبو عيسى : في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم : ليس في العسل شيء .

التاسعة - قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أي يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بأنصاف النظر وإلطاف التفكير عجيب أمرها . فيشهد اليقين بأن ملهمها للصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باختيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم أنها تأكل الحامض والمز والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجمله الله تعالى عللاً حلواً وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ ٱلْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ) من معناه . (وَمِنكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ ٱلْعُمُرِ) يعني إرداءه وأوضعه . وقيل : الذي ينقص قوته وعقله ويصيره إلى الخرف ونحوه . وقال ابن عباس : يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له؛ والمعنى متقارب . وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بقول :

(١) فسخة من الأصل : « خمسة أفرق » .

” اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُسلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجبنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمُسْرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبخلِ “ . وفي حديث سعد بن أبي وقاص ” وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أُرْدَلِ الْعمر “ الحديث .
 خرجه البخارى . (لِكَيْلَا يَلْمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر . وقد قيل : هذا لا يكون للؤمن ، لأن المؤمن لا يرتع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فعبر عن العمل بالعلم لاعتقاره إليه ؛ لأن تأثير الكبر فى عمله أبلغ من تأثيره فى علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يبعثه ثم يحييه .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ قَالِ الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَتَشْكُمُ اللَّهُ يَجْحَدُونَ** (٦١)

قوله تعالى : (**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**) أى جعل منكم ثنيا وفقيرا وحرا وعبدًا . (**قَالِ الَّذِينَ فَضَّلُوا**) أى فى الرزق . (**بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**) أى لا يريد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوى المملوك والمالك فى المال . وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام ، أى إذا لم يكن عيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عيدى معى سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عيدهم فى أموالهم لم يميز لهم أن يشاركوا الله تعالى فى عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبُد كالملائكة والآلياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطبرى ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نصارى نجران حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم : **قَالِ الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** » أى لا يريد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والمعبود فى المال شرعا سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولما

من عيسى . وظهورها : ضَرَبَ لَكُمْ حَلًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ بِمَا طَعَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْ فُرْقَةٍ :
فَيَا رَزَقَكُمْ قَاتِمٌ فِيهِ سَوَاءٌ ١١١ على ما يأتي . ودل هذا على أن العدل لا يملك ، على
ما يأتي أخيراً .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحْصَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبِطَالِ يُؤْمِنُونَ
وَيَنْعِمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ** ١١٢

قوله تعالى : **(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)** جعل بمعنى خلق ، وقد تقدم .
(مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) بنى آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم ،
أي من جنسكم ونوعكم وحل خلقكم ، كما قال : **«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَ آي مِنْ
الْآدَمِينَ . وفي هذا رد على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها ، حتى
وردى أنه عمرو بن هند تزوج منهم فوَلًا وكان يحبها عن البرق لثلا تراه فتضر ، فلما كان
في بعض الليالي لمع البرق وماينه الصلاة فقالت : عمرو ! وفرت ، فلم يرها أبدا . وهذا
من أكاذيبها ، وإن كان جائزا في حكم الله وحكته فهو رد على الفلاسفة الذين ينكرون وجود
الجن ويعلمون طبايعهم . (أزواجًا) زوج الرجل هي ناتيته ، فإنه فرد فلذا انضافت إليه كاتا
فؤوسين ، وإنما جلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها في الوجود كما تقدم .**

(١) آية ٢٨ سورة الروم . (٢) يريد به قليل . و « آقا » أنا تتصل في الماضي القريب
لا في المستقبل القريب . (٣) كنا في نسخ الأصول وأحكام القرآن لأين العرب ، والصواب أنه عمرو بن
همرح بن حنظلة بن مالك بن مرة ، قال طيبر بن أظم :

يا فبح الله بن الصلاة • عمرو بن يروح غرادر طيات

وأصح شرح القوي على سقط الزيد في شرح بيت أبي العلاء المزمى :

إذا لاحت إياض سترت وجوها • كأن عمرو والمثل سمال

(٤) الصلاة : أشبهت الليل .

قوله تعالى : (وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحَدَّةٍ) فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ) ظاهره في تعديد النعمة في الأبناء ، ووجود الأبناء يكون منهما معا ؛ ولكنه لما كان خلق المولود فيها واقصاله عنها أضيف إليها ، ولذلك تبعها في الرق والحرية وصار مثلها في المالية . قال ابن العربي : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء حل بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المالية وصار يحكمها في الرق والحرية ؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلا جيل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الأكل فصارت نخلة فلها ملك صاحب الأرض دون الأكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانية - قوله تعالى : (وَحَدَّةٍ) روى ابن القاسم عن مالك قال وسأته عن قوله تعالى : « بَيْنَ وَحَدَّةٍ » قال : الحفدة الخدم والأعوان في رأي . وروى عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَحَدَّةٍ » قال هم الأعوان ، من أعانك فقد حَفَدَكَ . قيل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَدَ الْوَلائدُ حَوْلِي وَأَسْلَمْتُ • بَاكِفِيهِنَّ أَزْوَاجَ الْأَجْمَالِ

أي أسرعن الخدمة . والولائد ، الواحدة وليدة ؛ قال الأعشى :

كَلَفْتُ مَجْهُولًا نَوْقًا يَمَانِيَةَ • إِنَّا الْجُدَّةُ عَلَى أَكْسَانِهَا حَفَدُوا^١

أي أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمل عملا أطاع فيه وصارع فهو حافد ، قال : ومنه قولهم « إليك نسى ونحفد » ، والحفدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم ، وقاله مجاهد . وقال الأزهري : قبل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عباس . وقيل الأختان ؛ قاله ابن سعد وعقمة وأبو الضحا وسعيد بن جبير وإبراهيم ؛

(١) الأكسا : جمع كسى (بالضم) وهو مؤنث العجز .

ومنه قول الشاعر

فلو أن فسي طاوعتني لأصبحت • لما حقد ما يُعدُّ كثير
ولكنها نفس على آية • عيوف لإصهار اللثام قنور

وروى زر عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار ؛ وقاله إبراهيم ، والمعنى متقارب . قال الأصمعي :
الختن من كان من قبل المرأة ، مثل أبا وأخيا وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعا . يقال :
أصهر فلان إلى بني فلان وصاهر . وقول عبد الله « هم الأختان » يحتمل المنتين جميعا .
يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها ، ويحتمل أن يكون أراد وجعل لكم
من أزواجكم بنين وبنات تزوجنهن ، فيكون لكم بسببين أختان . وقال عكرمة : الحفدة من
نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حقد يحقد (يفتح الميم في الماضي وكسرهما في المستقبل)
إذا أسرع في سيئه ؛ كما قال كثير :

• حقد الولائد بينهن ... • البيت •

ويقال : حفدت وأحفدت ، لفتان إذا خدمت . ويقال : حافد وحفد ؛ مثل خادم وخدم
وحافد وحفدة مثل كافر وكفرة . قال المهدوي : ومن جعل الحفدة أخدم جملة متقطعا
مما قبله ينوي به التقديم ؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصه ؛
الآثرى أنه قال : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » فجعل الحفدة والبنين منهن .
وقال ابن العربي : أظهر عندي في قوله « بنين وحفدة » أن البنين أولاد الرجل للصلبة
والحفدة أولاد ولده ، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا . ويكون تقدير الآية على هذا :
وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة . وقال معناه الحسن .

الثالثة - إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعطاء الله في قولهم إن الحفدة
أخدم والأعوان ، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان ؛ قاله ابن العربي .
وروى البخاري وميمه عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي صلى الله عليه وسلم

لعرسه فكانت امرأته خادمتهم - الحديث ، وقد قدم في سورة « هود » . وفي الصحيح
من عائشة قالت : أنا قلت ثلاثه بُدِنَ النبي صلى الله عليه وسلم يدي . الحديث . ولهذا
قال علماءنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القدر وتقم الدار ، بحسب حالها وعادة مثلها ،
قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » فكانه جيم لنا فيها السكن والاستمتاع
وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعة - ويخدم الرجل زوجته فيما خف من الخدمة ويعينها . لما روت عائشة أن
النبي صلى الله عليه وسلم كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك :
وعينها . وفي أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يخصف النمل ويقم البيت ويحيط
التوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟
قالت : كان يشرا من البشرفي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

الخامسة - وينفق على خادمة واحدة ، وقيل على أكثر ، على قدر الثروة والمترقة ،
وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب وسكان
البادي يخدمن أزواجهن في استذاب الماء وسياسة الدواب ، ونساء الحواضر يخدم المقل
منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهن ويتفنن معهم إذا كان
لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليه الزوجة ذلك ، فشهد أنه قد عرف
أنها ممن لا تخدم نفسها فالترم إحداهما ، فينفذ ذلك وتقطع الدعوى فيه

قوله تعالى : (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) أي من الثمار والحبوب والحيوان . (أنيأباطل)
سنى الأصنام ؛ قاله ابن عباس . (يُؤْمِنُونَ) قراءة الجمهور بإياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بآتياء .
(وَبِئْسَ اللَّهُ) أي بالإسلام . (هُمْ يَكْفُرُونَ) .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ) يعني المطر . (وَالْأَرْضِ) يعني النبات . (شَيْئًا) قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفراء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ؛ أي يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئا . (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) أي لا يقدرون على شيء ، يعني الأصنام . (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) أي لا تشبهوا به هذه الجادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِن رَّزْقَتِهِ مِثْرًا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

فيه خمس مسائل :

الاولى - قوله تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) به تعالى على ضلالة المشركين ، وهو منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أي بين شيئا ثم ذكر ذلك فقال : (عَبْدًا مَمْلُوكًا) أي كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ، ورجل حر قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه ، وإنما هو مستغر بإرادة سيده . ولا يلزم من الآية أن السيد كلهم بهذه الصفة ؛ فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم ، وإنما قيد واحدا ، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيعي ، كقوله : أعق رجلا ولا تن

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة، فأى رجل اعتق فقد خرج من عبدة المملوك، ويصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هذا النمل للمؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لا يفتق في الآخرة بشيء من عبادته، وإل أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن . والأول عليه الجمهور من أهل التأويل . قال الأصم : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشد من مولاة أسرا وأضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ؛ فقال الله تعالى ضربا للنال . أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مواث شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانية — فهم المسلمون من هذه الآية وما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر في الملك، وأنه لا يملك شيئا وإن ملك . قال أهل العراق : الرق ينال الملك، فلا يملك شيئا ألبة بحال، وهو قول الشافعى في الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسيده أن يترعه منه أى وقت شاء، وهو قول مالك ومن أتبعه ، وبه قال الشافعى في القديم . وهو قول أهل الظاهر ؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده كالحج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملكه جارية جاز له أن يطلها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم خال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر . والعراق يقول : لا يجوز له أن يطل الجارية، والزكاة فى النصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسئلة للفرقيين فى كتب الخلاف . وأدل دليل لنا قوله تعالى : «الله الذى خلقكم ثم رزقكم» فسوى بين العبد والحر فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : «من أعتق عبدا له مال ...» فأضاف المال إليه . وكان ابن عمر يرى عبدا يتسرى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته فطلقت فامرء أن يرجعها بملك اليمين ؛ فهذا دليل على أنه يملك ما يبيده ويفعل فيه ما يفعل المالك فى ملكه ما لم يترعه سيده . وانه أعلم .

الثالثة - وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق الصديق سيده ، وعلى أن بيع الأمة طلاقها . معولا على قوله تعالى : « لا يقدر على شيء » . قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا ، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومته ، إلا أن يدل دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وأبي عمار ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

الرابعة - قال أبو منصور في عقيدته : الرزق ما وقع الاعتداء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص ، وكذلك قوله تعالى : « وَبِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُشْكِرُونَ » . و« أَنْقَضُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ »^(١) وغير ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « جعل رزقي تحت ظل رجلي » وقوله : « أرزاق أمتي في سنانك خيلها وأيسر رماحها » . فالنسيمة كلها رزق ، وكل ما صح به الانتفاع فهو رزق ، وهو مراتب : أعلاها ما يقدر . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفاع في قوله : « يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفقت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأمضيت » . وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفي السنة المحدثين : السماع رزق ، يصون سماع الحديث ، وهو صحيح .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَبًا ﴾ هو المؤمن ، يطعم الله في نفسه وماله . والكافر ما لم يقع في الطاعة صار كالعبد الذي لا يملك شيئا . ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ أي لا يستوون . ولم يقل يستويان لمكان « من » لأنه أعم منهم يصلح للواحد والآخرين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : « إن عبدا مملوكا » ، « ومن رزقناه » أريد بهما الشيوع في الجنس . ﴿ يَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه ، إذ لا نعمة للاصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمده عليه ، إنما الحمد الكامل لله ، لأنه المنعم الخالق . ﴿ يَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر المشركين ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الحمد لله ، وجميع النعمة مني . وذكر الأكثر وهو يريد الجميع ، فهو خاص بأريد به التعميم . وقيل : أي بل أكثر الخلق لا يعلمون ، وذلك أن أكثرهم المشركون .

(١) الحقيقة : اسم كتاب لأبي منصور المازندراني ، وهو محمد بن محمد بن محمود بن مسروق سنة ٥٢٣٣ . راجع كشف الظنون وتاج التراجم في طبقات الحنفية . (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٥٤ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَنْتَهِجُ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ) هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء ، هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، فإله قادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لثمان رضى الله عنه ، وكان يمرض عليه الإسلام فبأي ، ويأمر بالعدل عثمان . وعنه أيضا أنه مثل لأبي بكر الصديق ومولى له كافر . وقيل : الأبكم أبو جهل ، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسي ، وعنس (بالنون) حتى من مذبح ، وكان حليفاً لبني مخزوم رطط أبي جهل ، وكان أبو جهل يذب عليه على الإسلام ويذهب أمه سمية ، وكانت مولاة لأبي جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما أمنت بحمد لأنت تحببته لجمالها ، ثم طعنها بالرمح في قلبها فماتت . فهي أول شهيد مات في الإسلام ، رحما الله . من كتاب النقاش وغيره . وسيأتي هذا في آية الإكراه ميتاً إن شاء الله تعالى . وقال عطاء : الأبكم أبق بن خلف ، كان لا ينطق بخير . (وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) أى قومه لأنه كان يؤذيه ويؤذي عثمان بن مظعون . وقال مقاتل : نزلت في هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافراً قليل الخير يعادى النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافر ، والذي يأمر بالعدل المؤمن جملة بجملة ، روى عن ابن عباس وهو حسن لأنه يتم . والأبكم الذي لا نطق له . وقيل الذي لا يعقل . وقيل الذي لا يسمع ولا يبصر . وفي التفسير إن الأبكم ما هذا الوثن . بين أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقله ويخته فهو كَلٌّ عليه . وإله الأمر بالعدل ، الغالب على كل شيء . . وقيل : المعنى « وهو كَلٌّ على مولاه » أى يقل على وليه وقرباته ، ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أَكُولُ لَسَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ • إِنْ كَانَ عَظُمَ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدِ

والكل أيضا الذي لا ولد له ولا والد . والكل العيال ، والجمع الكؤل ؛ يقال منه : كل السكين بكل كلاً أى غلظت شفرته فلم يقطع . (أَيْتَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ) قرأ الجمهور « يُوجِّهُهُ » وهو خط المصحف ؛ أى أيتا يرسله صاحبه لا يأت بخير ، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه . وقرأ يحيى بن وثاب « أَيْتَا يُوجِّهُهُ » على الفعل المجهول . وروى عن ابن مسعود أيضا « تَوَجَّه » على الخطاب . (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) تقدم معناه . وهذا متصل بقوله « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى شرع التحليل والتحرير إنما يحسن من يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلم تحكروا . (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) ويجازون فيها بأعمالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة ؛ سُمِّيت ساعة لأنها تفتأ الناس فى ساعة فيموت الخلق بصيحة . واللمح : النظر بسرعة ؛ يقال : لمحه لمحا ومحانا . ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتية ولا بُدُ جملت من القرب كلمح البصر . وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ؛ أى يقول للشيء كنى فيكون . وقيل : إنما مثل يلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب ؛ كما يقول القائل : ما السنة إلا لحظة ، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله ذلك لا عند المخلوقين ؛ دليله قوله : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ قَرِيبًا » (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) ليس « أَوْ » للشك بل للتشديد ؛ كما أراد المثل . وقيل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : « أَوْ » بمثله بلى . (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تقدم .

قوله تعالى : **وَأَلَّهُ أَنْجَحَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (**وَأَلَّهُ أَنْجَحَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**) ذكر أن من نعمه أنه أنجحكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وفيه ثلاثة أفاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم . الثاني — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من ما نصكم ، وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : (**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ**) أي التي تصلون بها وتدركون ، لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أنجحهم ، أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل في ضمن قوله « وجعل لكم السمع » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإنما وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرا الأعمش وأبن وثاب وحزمة « إنهائكم » هنا وفي النور والزمزم والنجم ، بكسر المعزة والميم . وأما الكسائي فكسر المعزة وفتح الميم ، وإنما كان هذا الإجماع . الباقيون بضم المعزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أنثى ، فزيدت الماء ، فكينا كما زادوا ماء في أمهرت الماء وأصله أرقق . وقد تقدم هذا المعنى في « الفاحشة » . (**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثاني — يبنون تبصرون آثار صنعه ، لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر .

قوله تعالى : **الَّذِينَ يَرْوُوا إِلَى الْأَطْيَافِ يَسْخَرُونَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿٦٩﴾

(١) قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... آية ٦١ » (٢) قوله تعالى : « عظم من قس » واحدة ... آية ٦ (٣) قوله تعالى : « الذين يمينون كبار الآثم ... آية ٢٢ » (٤) راجع ص ١٤٨ طبع آية أرواكة .

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمِئِكُنَّ إِلَّا اللَّهُ) قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحزرة ويعقوب « تروا » بالناء على الخطاب ، واختاره أبو عبيد . الباقر بن بلاء على الخبر . (مُسَخَّرَاتٍ) مُذَلَّلَاتٍ لأمر الله تعالى ، قاله الكلبي . وقيل : « مسخرات » مُذَلَّلَاتٍ لمنافعكم . (فِي جَوْ السَّمَاءِ) الْجَوْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَأَصَافَ الْجَوْ إِلَى الْمَاءِ لارتفاعه عن الأرض . وفي قوله « مسخرات » دليل على مُسَخَّرَ سَخَرَهَا وَمُدَبَّرَ مَكَّنَهَا مِنَ التَّصَرُّفِ . (مَا يُمِئِكُنَّ إِلَّا اللَّهُ) فِي حَالِ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالِإِصْطِفَافِ . مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ يَتَّبِعُونَ بِهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أَيِ عِلَامَاتٍ وَعَرَا وَدَلَالَاتٍ . (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُمْ .

قوله تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ)^(١)
فيه عشر مسائل :

الأول - قوله تعالى : (جَعَلَ لَكُم) معناه صَيَّرَ . وَكُلُّ مَا عَلَكَ فَأُظْلِكَ فَهُوَ سَقْفٌ وَحِمَاءٌ ، وَكُلُّ مَا أَقْلَكَ فَهُوَ أَرْضٌ ، وَكُلُّ مَا شَرَكْتَ مِنْ جِهَاتِكَ الْأَرْضِ فَهُوَ جِدَارٌ ، فَإِذَا انْتَضَمَتْ وَأَتَصَلَّتْ فَهُوَ بَيْتٌ . وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت ، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة . وقوله : (سَكَنًا) أَيِ تَسْكُونُ فِيهَا وَتَهْدَأُ جَوَارِحُكُمْ مِنَ الْحَرَكَةِ ، وَقَدْ تَحَرَّكَ فِيهِ وَتَسْكُنُ فِي غَيْرِهِ ، إِلَّا أَنَّ الْقَوْلَ نَزَحَ عَلَى الْعَالِمِ . وَعَدَّ هَذَا فِي حِمْلَةِ النِّعَمِ فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ خَلَقَ الْعَبْدَ مُضْطَرِبًا أَبَدًا كَالْأَفْلَاحِ لَكَانَ ذَلِكَ كَمَا خَلَقَ وَأَرَادَ ، وَلَوْ خَلَقَهُ مَا كَانَا كَالْأَرْضِ لَكَانَ كَمَا خَلَقَ وَأَرَادَ ، وَلَكِنَّهُ أَوْجَدَهُ خَلْقًا يَتَصَرَّفُ بِالْوَحْيِ ، وَيَخْتَلِفُ حَالُهُ بَيْنَ الْحَالَيْنِ ، وَرَفَدَهُ كَيْفَ وَأَيْنَ . وَالسَّكَنُ مُصَدَّرٌ يُوَصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بَيْوتَ الثَّقَلَيْنِ وَالرَّحْلَةِ وَهِيَ :

(١) اضطربت الأصول في هذه المسائل

الثانية - فقال : (وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا) أى من الأنعام والأدم - (بُيُوتًا) ببنى الخيام والقباب يخفّ عليكم حمها فى الأسفار . (يَوْمَ طَعَنَكُمْ) الظن : سير البادية فى الاتّباع والتحول من موضع إلى موضع ، ومنه قول عترة :
ظنن الذين فراقهم أتوقع * وجرى بينهم الغراب الأبقع
والظنن المودج أيضا ، قال :

ألا هل هاجك الأطمأن إذ بانوا * وإذ جادت بوشك العين غربان
وقرى بإسكان العين وفحتها كالشعر والشعر . وقيل : يحتمل أن يعم بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ، لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها ، نحا إلى ذلك ابن سلام .
وهو احتمال حسن ، ويكون قوله « ومن أصوافها » ابتداء كلام . كأنه قال جعل أئانا : يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ، قال الشاعر :

أهاجك الظعان يوم بانوا * بذى الرى الجميل من الأثاث
ويحتمل أن يريد بقوله « من جلود الأنعام » بيوت الأدم فقط كما قدمناه أولا . ويكون قوله « ومن أصوافها » عطفًا على قوله « من جلود الأنعام » أى جعل بيوتا أيضا . قال ابن العربى : « وهذا أمر انشرف تلك الديار ، وعزيت عنه بلادنا ، فلا تضرب الأخيصة عندنا إلا من الكنان والصوف ، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم قبة من آدم ، وناهيك من آدم الطائف غلاء فى القيمة ، واعتلاء فى الصنعة ، وحسنا فى البشرة ، ولم يعد ذلك صلى الله عليه وسلم ترفا ولا راء سرفا ، لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعه فى الأكسنان والاستغلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زرت بعض المترهدين من النفاطين مع بعض المحدثين ، فدخلنا عليه فى خباء كان فعرض عليه صاحبى المحدث أن يحمله إلى منزله ضيفا ، وقال : إن هنا موضع يكثر فيه الحر والبيت أرقق بك وأطيب لنفسى بك ، فقال : هذا الخباء لك كثير ، وكان

في صنعا من الحفير؛ فقلت : ليس كما زعمت ! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد قبة من آدم طائفة يسافر معها ويستظل بها؛ فبُعث، ورأيت على منزلة من العتي فتركته مع صاحبي وخرجت عنه .

الثالثة - قوله تعالى : (وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارِهَا) أذن الله سبحانه بالاستفاح بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المزمز، كما أذن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والتكآن لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطين به، وإنما عُدَّ عليهم ما أنعم به عليهم، وخطبوا فيما عرفوا بما فهموا . وما قام مقام هذه وناب عنها في الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى : « وَيَبْقَى مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »؛ فخطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عنهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمتعة، وقد ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم معاً في التطهير فقال : « اللَّهُمَّ اغْسِلْ بِيَاءِ وَتَلْجِ وَبَرْدٍ » . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض يتزل من السماء وما رأيت قط . وقيل : إن ترك ذكر القطن والتكآن إنما كان إعراضاً عن الترف؛ إذ ليس عباد الله بالمصالحين إنما هو الصوف . وهذا فيه نظرية فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَمَوَاتِكُمْ » حسبما تقدم بيانه في «الأعراف» . وقال هنا : « وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشار إلى القطن والتكآن في لفظة « سراويل » والله أعلم . و (أَنَاثَا) قال الخليل متاعاً منضماً بعضه إلى بعض، من أنث إذا أكثر . قال .

وفسّر بزين الملقن أسود فاحم . أثبت كَقِنُوا النخلة المتعشكِل (٣)

ابن عباس : « أَنَاثَا » ثياب . وقد تقدم . ونصبت هذه الآية جواز الاستفاح بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز

(١) آية ٤٣ سورة النور (٢) راجع ٧ ص ١٨٢ طبعة أولاً ثانية . (٣) البيت من سقاية امرئ القيس . والقرع : الشعراحم . والمن والحة : ما من بين الذهب وشماله من الصب والحم . والحام : الشدة السوداء . والقنن (بالكسر والضم) : المسنن وهو الشعراحم . والمتشكِل : الذي قد دخل بعضه في بعض لكثرته .

الاستفاد به على كل حال ، ويسئل غافق أن يكون علق به وحي ، وكذلك روت مأمولة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا بأس بحمل الميتة إذا دُبغ وصوفها وشعرها إذا نُفِّل » لأنه مما لا يحل الموت ، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا ، كشمز ابن آدم والخنزير ، فإنه ظاهر كله ؛ وبه قال أبو حنيفة ، ولكنه زاد علينا فقال : القرن والسِّن والعظم مثل الشعر ؛ قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تجس بموت الحيوان . وقال الحسن البصري والليث بن سعد والأوزاعي : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تظهر بالنسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لا تجس بالموت . الثانية — تجس . الثالثة — الفرق بين شعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودلينا عموم قوله تعالى : « ومن أوصافها » الآية . فتن علينا بأن جعل لنا الاستفاد بها ، ولم يخص شعر الميتة من المذكاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضاً فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فنزعم أنه انتقل إلى نجاسة قبله الدليل . فإن قيل قوله : « حرمت عليكم الميتة » وذلك عبارة عن الجملة . قلنا : نخصه بما ذكرناه ؛ فإنه منصوب عليه في ذكر الصوق . وليس في آيتكم ذكره صريحاً ، فكان دللنا أولى . والله أعلم . وقد عول الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان حقيقة ، فهو يمتص نجاسته ويتجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النماء ليس بدليل على الحياة ؛ لأن النبات ينمو وليس بحي . وإذا عولوا على النماء المتصل لما على الحيوان عولنا نحن على الإمانته التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحياة . وأما ما ذكره الحنفيون في العظم والسِّن والقرن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كالجم . وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة . ولنا قول ثالث — هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشعرى من الريش حكاه حكم الشعر ، والمظلي — منه حكاه حكه . ودلينا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تتنعوا من الميتة بشيء » وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليله ؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : « قال من يحيي العظام وهي رميم »

وقال تعالى: «وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا» ، وقال : « فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا » ، وقال : « أَيْدَا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً » ^(٢١) فالأصل هي العظام ، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد . وفي حديث عبد الله بن عكيم : « لا تتغفوا من الميتة بإهاب ولا عصب » . فإن قيل : قد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شاة مميعة : « أَلَا أَسْتَفْتِم بِجِلْدِهَا » ؟ فقالوا : يا رسول الله ، إنها ميتة . فقال : « إِنَّمَا حَرَّمَ أَكْلَهَا » والعظم لا يؤكل . قلنا : العظم يؤكل ، وخاصة عظم الجمل الرضيع والجدى والطيور ، وعظم الكبير يشوى ويؤكل . وما ذكرناه قبل يدل على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذكاة نجس بالموت . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى: «مَنْ جُلِدَ الْعِقَامُ» عام في جلد الحي والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ ، وبه قال ابن شهاب الزهري والليث بن سعد . قال الطحاوي : لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث . قال أبو عمر : يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح ، وهو قول أباه جمهور أهل العلم . وقد روى عنها خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت : قد ذكر الدارقطني في مسنده حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهري ، وحديث بقية عن الزبيدي ، وحديث محمد بن كثير العبدى وأبي سلمة الملقبي عن سليمان بن كثير عن الزهري ، وقال في آخرها : هذه أسانيد صحيح .

السادسة - اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دبغ هل يطهر أم لا ؟ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك . وذكره ابن خزيمة متناد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا . قال ابن خزيمة متناد : وهو قول الزهري والليث . قال : والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم ، وهو أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة ، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة ، ولا يصلح عليه ولا يؤكل فيه . وفي المدونة لأبن القاسم ^(٢٢) آية ٤٠٩ سورة البقرة . ^(٢٣) آية ١٤ سورة المومنون . ^(٢٤) آية ١١ سورة النازعات .

(٢٥) لم يشر إلى الأصول في هذه المسألة .

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأثقله كأن عليه قيئه » وحكى أن ذلك قول مالك .
 وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لحل ميتة غير مدبوغ فلا شيء عليه .
 قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسى . وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز
 بيعه ، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فلدباغ أولى .
 قال أبو عمر : وكل جلد ذكئ بخائر استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء في إياه
 جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه ،
 وتركه الصلاة عليه وبيعته ، وتأبى على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المسلمين
 فعلى إباحة ذلك وإجازته ؛ تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما إهاب دبح فقد
 طهر » . وعلى هذا أكثر أهل الخبز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعة - ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى أنه لا يجوز الاستفراع
 بجلود الميتة في شيء ، وإن دبت ؛ لأنها كلهم الميتة ، والأخبار بالاستفراع بعد الدباغ ردة قوله .
 واحتج بحديث عبد الله بن عكيم - رواه أبو داود - قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يرض جبهة وأذا غلام شاب : « ألا تستمعوا من الميتة بإهاب ولا عصب »
 وفي رواية : « قبل موته بشهر » . رواه القاسم بن عيمرة عن عبد الله بن عكيم : قال : حدثنا
 مسيخة لما أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علي : سألت يحيى بن معين
 عن هذا الحديث فضعه وقال : ليس بشيء ، إنما يقول حدثني الأشياخ . قال أبو عمر :
 ولو كان تابسا لاحتمال أن يكون مخففا لأحد حديث المزوية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن
 النخعي وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم « ألا تستمعوا من الميتة بإهاب »
 قبل الدباغ ، وإذا احتمل ألا يكون مخففا فليس لنا أن نجعله مخففا ، وعلينا أن نستعمل
 الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم
 بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن يكون قصة ميمونة وسماع ابن عبدس منه « إنما إهاب دبح
 فقد طهر » قبل موته بجمعة أو دون جمعة ، والله أعلم .

الثامنة - المشهور عندنا أن جلد الخنزير لا يدخل في الحليث ولا يتأوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي. وعند الأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه. وروى معن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبح فذكره. قال ابن وضاح: وصحمت تخفوتها يقول لا بأس به؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن علي وأصحابه؛ لقوله عليه السلام: "إِنَّمَا مَسَّكَ دَبِغٌ قَدْ طَهَّرَ لَهُ". قال أبو عمر: يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الاستئفاع بها، فأما الخنزير فلم يدخل في المعنى لأنه غير معهود الاستئفاع بجلده، إذ لا تعمل فيه الذكاة. ودليل آخر وهو ما قاله النضر بن شميل: إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل، وما عداه فإِنَّمَا يُقَالُ لَهُ: جلد لا إهاب.

قلت: وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الاستئفاع به فلا يطهر؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أَكَلُ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ حَرَامٌ" فليست الذكاة فيها ذكاة؛ كما أنها ليست في الخنزير ذكاة. وروى النسائي عن المقدم بن معد يكرب قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب وميآثر النمر.

التاسعة - اختلف الفقهاء في الدباغ التي تطهر به جلود الميتة ما هو؟ قال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبه: كل شيء دبح الجلد من ملح أو قرظ أو شَبَّ أو غير ذلك فله جاز الاستئفاع به. وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود. وللشافعي في هذه المسئلة قولان: أحدهما - هذا، والآخر أنه لا يطهر إلا الشَبَّ والقرظ؛ لأنه الدباغ للمعهود على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه نخرج الخطائي - والله أعلم - ما رواه النسائي عن يمينونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من قريش يجرون شاة لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أخذتم إهابها" قالوا: إنها ميتة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يطهرها الماء والقرظ".

(١) الملك (الفتح وسكون السين) : الجلد. ونحو بعضهم به جلد السمكة، ثم كثر حتى صار لكل جلد سمكة، ويبيع منه وسوك. (٢) أي من أن تحرق جلدها على السرج والرجال يجلس عليها لما فيه من التكبر، ثم لأنه يفسدهم، أولان القدر يحس لا يخل الدباغ. (عن شرح سنن النسائي).

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه ابي بكر حتى لحقا بشار في جبل تور ،
فَكَتَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ بَيْتَ عِنْدَهُمَا فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌ تَقَفَ لَيْلَيْنِ فَيُدْخِلُ مِنْ
عِنْدَهُمَا بِسَحَرٍ فَيَصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُ أَمْرًا يَكَادِرَانِ بِهِ إِلَّا وَاعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا
بِخَبْرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ ، وَيُرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ قُهِيرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مُنْعَةً مِنْ غَمِّ فِرْيَحِهَا
عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْمَشَاءِ فَيَسْتَأْنِ فِي رِثْلِ ، وَهُوَ لَيْلِنِ مِلْحَتَهُمَا وَرَضِيفُهُمَا حَتَّى يَنْبِقَ
بِهِمَا عَامِرُ بْنُ قُهِيرَةَ بَقْلَسَ ، فَيَعْلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ ... وَذَكَرَ الْحَلِثُ .
انفرد بإخراجه البخاري .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ﴾ يعني القمص ، واحدها
سربال . (وسرابيل تقيكم بأنكم) يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب ؛ ومنه قول كعب
بن زهير :

شَسْمُ الْعَرَانِينِ أَبْطَالُ بُؤْسِهِمْ * مِنْ تَسْجِ دَاوُدَ فِي الْمِجْبَا سَرَابِيلُ

الرابعة - إن قال قائل : كيف قال « وجعل لكم من الجبال أكتافا » ولم يذكر السهل ،
وقال « تقيكم الحر » ولم يذكر البرد ؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب
سهل ، وكانوا أهل حرٍّ ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصهم بذكر
الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكتان ولا الثلج - كما تقدم - فإنه لم يكن يبلادهم ، قال معناه
عطاء الخراساني وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا أُدْرِى إِذَا تِمَّتْ أَرْضًا * أُرِيدَ الْخَيْرُ أَهْمًا يَلِينُ

الخير الذي أنا أبتغيه = أم الشر الذي هو يتغنى

الخامسة - قال العلماء : في قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بِأَنْكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ
العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبي صلى الله عليه وسلم تقاة

(١) أى حادق سرج القهم . (٢) من الكيد أى يطلب لها ما فيه المكره . (٣) أى شاة تحلب

إناء بالقدادة وإناء بالهش . (٤) الرضيف : اللبن المرفوف ، وهو الذى طرح فيه الحجارة لئلا يذهب ونحوه .

الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للمبد أن يطلبها بأن يستسلم للخوف والطمع بالستان والصر بالسيوف، ولكنه ليس لامة حرب لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقابل لتكون كلمة الله هي العليا، ويعمل الله بعد ما يشاء .

السادس - قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَمُنُّ بِمَعْنَةٍ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن عيَّص وحيد « تم » بناءين ، « معنة » ربطا على أنها الفاعل . الباقون « يتم » بضم الياء على أن الله هو يجمعها . و « تسلمون » قراءة ابن عباس وعكرمة « تسلمون » فتح التاء واللام ، أى تسلمون من الجراح ، وإسناده ضعيف ، رواه عبد بن العوام عن حطة عن شهر بن عباس . الباقون بضم التاء ، ومعناه تسلمون وتتفادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على معونه . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العاقبة ، لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعالى : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان . (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ) أى ليس عليك إلا التبليغ ، وأما الهداية فإني .

قوله تعالى : يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ قال السدي : يعي مجدا صلى الله عليه وسلم ، أى يعرفون نبوته ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ وينكدهونه . وقال مجاهد : يريد ما عند الله عليهم في هذه السورة من النعم ، أى يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورونا ذلك عن آبائهم . وبمثله قال قتادة . وقال عوف بن عبد الله ، هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا ، وهم يعرفون النعم والضر من عند الله . وقال الكلبي : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نعم ، هي كلها نعيم من الله ، ولكنها (ب) لامة للهداية ، ولأنهم يعرفون نعمة الله عليهم ثم ينكرونها .

بشفاعة أمتنا ، وقيل : يعرفون نعمة الله بتقديهم فيها ، ويتكرونها بترك الشكر عليها . ويحمل
مباديا - يعرفونها في الشبهة ويتكرونها في الرضاء . ويحمل مابيا - يعرفونها بأقوالهم
ويتكرونها بأفعالهم . ويحمل ثامنا - يعرفونها بقلوبهم ويحمدونها بالسبحم ، نظيره « وَحَمَدُوا
يَا وَاسْتَفْتَحُوا أَفْئِسْهُمْ » (وَأَكْثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ) يعني جميعهم ؛ حسبا قديما .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » وقد تقدم . (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى الاعتذار والكلام ، كقوله :
« وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . وذلك حين تطبق عليهم جهنم ، كما تقدم فى أول « الحجر »
ويأتى . (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) معنى يسترضون ، أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، لأن الآخرة
ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العتب وهى
الموجدة ؛ يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا فاضله ما عتب عليه فيه قيل طابته ،
فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبي وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى
للعاتب ؛ قاله المروى . وقال النابغة :

فإن كنت مظلوما فعينا ظلمته • وإن كنت ذا عتبي فثلك يعتب

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى أشركوا . (الْعَذَابَ) أى عذاب جهنم
بال دخول فيها . (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أى لا يهلون ، إذ لا توبة لهم ثم .

(١) آية ١٤ سورة النحل . (٢) آية ٤١ سورة النساء . راجع ج ٥ ص ١٩٧ طبع الأولى أو ثالثة .
(٣) آية ٣٦ سورة المراتل .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَتَوْهُمْ مُشْرِكِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
 مُشْرِكُونا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ
 لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَتَوْهُمْ مُشْرِكِينَ) أى اصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ؛
 وذلك أن الله يبعث معبودهم فيبعثونهم حتى يورثوهم النار . وفى صحيح مسلم : " من كان
 يعبد شيئاً فليتبَّعْهُ فَيَتَّبِعْهُ من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع
 من كان يعبد الطواغيت الطواغيت " الحديث ، خرجه من حديث أنس ، والترمذى من حديث
 أبى هريرة ، وبه : " فَيَمْتَلِكُ لَصَاحِبِ الصَّليبِ عَلَيْهِ وَلَصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ نَصَابِرُهُ وَلَصَاحِبِ
 النَّارِ نَارُهُ فَيَبْعُونُ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ " وذكر الحديث . (قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا
 نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) أى الذين جعلناهم لك شركاء . (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)
 أى ألقى إليهم الآلهة القول ، أى نطقت بتكذيب من عبدوا ما لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم
 بعبادتها . فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك
 الملائكة الذين عبدوهم . (وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ) أى استسلموا لعبادة
 وخضوعوا لعزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمة فيهم . (وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ) أى زال عنهم ما زين لهم الشيطان وما كانوا يؤفلون من شفاعته الممنوعة .

قوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
 فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

(١) روى هذا الحديث فى صحيح مسلم من أبى هريرة ، وأبو داود فى سننه من طريق الترمذى .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب وفاة الميت .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعتاق الإبل ، وأفاعى كأنها البعّات^(١) تضرهم ، فذاك الزيادة . وقيل : المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيلادرون من شدة برده إلى النار . وقيل : المعنى زدنا العقاة عذابا فوق السفلة ، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدمهم . ﴿ بَمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعصية .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَرْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتَذَكَّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء ، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد لبثوا الرسالة ودعواهم إلى الإيمان ، في كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا ، وفيهم قولان : أحدهما - أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثاني - لنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله ، كقس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو ابن نفيل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " يُعْتَبَرُ أُمَّةٌ وَحْدَهُ " ، وسيطخ ، وورقة^(٢) ابن نوفل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " رأيتُه ينفخ في أنفَار الجنة " . وهؤلاء ممن كان مثلهم حجة على أهل زمانهم وشهد عليهم . والله أعلم . وقوله « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » تقدم في البقرة والنساء .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَتَذَكَّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : « مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وقد تقدم ، فليُنظر هناك . وقال مجاهد : يتيانا للحلال والحرام .

(١) البعّات : جمال طوال الأعناق . (٢) هو كامن بن ذئب ، كان يتكهن في الجاهلية ، واسمه : هريج بن ربيعة . (راجع سورة ابن هشام ص ٩ طبع بيروت) . (٣) راجع ص ٢٥ طبع ثانية ١٤٠٥ هـ . (٤) طبع ص ١٠٩ طبع أول مرة ١٣٦٥ هـ .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) روى عن عثمان بن مظعون أنه قال : لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فحجب فقال : يا آل طالب ، اتبعوه فتلحقوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق . وفي حديث — إن أبا طالب لما قيل له : إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية . قال : اتبعوا ابن أخي ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » إلى آخرها ، فقال : يا بن أخي أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له خللاوة ، وإن عليه لطللاوة ، وإن أصله لمورق ، وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ! وذكر الفزاري أن عثمان بن مظعون هو الفارسي . قال عثمان : ما أسلمت ابتداء إلا حياة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي ، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يا بن أخي أعد ! فأعدت فقال : والله إن له خللاوة ، ... وذكر تمام الطبري ، وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن خير بمثل ، ولشر بمجنب . وحكى النقاش قال : يقال زكاة العدل الإحسان . وزكاة القدرة المفو ، وزكاة الفنى المعروف ، وزكاة الجاه كُتِبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانية — اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة . وقال مسفيان بن عيينة : العدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علي بن أبي طالب : العدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق . والإنسان هو فعل كل مندوب إليه؛ فن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حدَّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتكبير الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان . وأما قول ابن عباس فقيه نظر؛ لأن أداء القرائض هي الإسلام حسبما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل، وإنما الإحسان التكيلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل بقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . فإن صح هذا عن ابن عباس فإنه أراد القرائض مكملة . وقال ابن العربي: العدل بين العبد وبين ربه إشارته تعالى على حفظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتناع للاوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فتعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى: « وَتَتَّبِعْ الْهَوَىٰ » وعزوبُ الأطلاع عن الاتباع، ولزومُ القناعة في كل حال ومعنى . وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سر ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى .

قلت: هذا التفصيل في العدل حسنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يُحسن إحساناً . ويقال على معنيين: أحدهما متعد بنفسه؛ كقولك: أحسنت كذا، أي حسنته وكنته، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء . وثانيهما متعدي بحرف جر؛ كقولك: أحسنت إلى فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به .

قلت: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معاً؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر في سمكك والستور في دارك لا يبنين أن تقصر تعهده بإحسانك؛ وهو تعالى غني عن إحسانهم، ومنه الإحسان والتم والفضل والممن . وهو في حديث جبريل

بالمعنى الأول لا بالتانى؛ فإن المعنى الأول راجع إلى إتيان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكاملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمت وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَانْهَ يَرَاكَ". وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله: "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ". وثانيهما - لا تنهى إلى هذا، لكن يطلب عليه أَنْ الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: "الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقْلَبُ فِي السَّاجِدِينَ" وقوله: "إِلَّا تَأْكُلُ عَلَيْهِمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ".

الثالثة - قوله تعالى: (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) أى القرابة؛ يقول: يعطيهم المال كما قال "وَأَتَى ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ" يعنى صلته. وهذا من باب عطف المنسوب على الواجب. وبه استدلل الشافعى فى إعجاب إيتاء المكاتب؛ على ما يأتى بيانه. وإنما خص ذى القربى لأن حقوقهم أؤكد وصلتهم أوجب؛ لما كيد حق الرحم التى اشتق الله أسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال فى الصحيح: "أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ". ولا سيما إنا كانوا فقراء.

الرابعة - قوله تعالى: (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) الفحشاء: الفحشاء؛ وهو كل قبيح من قول أوفصل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالتهى عنه، وهو يجمع جميع المعاصى والزنا والفسادات على اختلاف أنواعها. وقيل هو الشرك. والبنى: هو الكبر والظلم والمغفد والتعدي؛ وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر؛ لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره. وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ذنب أسرع عقوبةً من بغي". وقال عليه السلام: "البغى مصروع". وقد وعد الله من بغي عليه بالنصر. وفى بعض الكتب المتأخرة: لويى جبل على جبل لجعل البغى منهما دكاً.

(١) آية ٢١٨ سورة النمل. (٢) آية ٦١ سورة يونس. (٣) آية ٢٦ سورة الإسراء.

(٤) راجع صحيح البخارى فى كتاب التفسير فى سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد. وصحيح مسلم فى تلخيص الأدب.

الخامسة - ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه فقال : (باب قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، وقوله : « إنما بئكم على أنفسكم » ، « ثم بئى عليه لعنصرته الله » ، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة في سحر يزيد ابن الأعصم النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطال : فتأول رضى الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر ، كما دل عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : « إنما الله قد شتاني وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا » . ووجه ذلك - والله أعلم - أنه تأول في قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » التنبؤ بالإحسان إلى المصطفى وترك تصاقبه على إسمائه . فإن قيل : كيف يصح هذا التأويل في آيات النبي . قيل : وجه ذلك - والله أعلم - أنه لما أعلم الله عباده بأن ضرر النبي ينصرف على الباغى بقوله : « إنما بئكم على أنفسكم » ومنه تعالى نصرة من بئى عليه ، كان الأول بمن بئى عليه شكر الله على ما ضمن من نصرة ومقاومة ذلك بالمفو عن بئى عليه ؛ وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم اليهودى التى سحره ، وقد كان له الانتقام منه بقوله : « وإن عاقبتهم فاعقبوا بمثل ما جوبتكم به » . ولكن أكر الصفيح أخنا بقوله : « ولئن صبرنا وغفرنا إن ذلك لمن عزم الأمور » .

السادسة - تضمنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تقدم القول فيهما . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي ، فحاجها العامل وغلبها ، بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور في شيء ؛ فقام قتي من القوم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

(١) الآية ١٢٦ سورة الحديد . (٢) الآية ١٢ سورة النور . (٣) واجع ٢٤ ص ١٧

قوله تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) لفظة عام لجميع ما يقفه بالسان وبقرنه الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة في أمر موافق للديانة . وهذه الآية معصن قوله : إن الله يأمُر بالعدل والإحسان ، لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، واتموا عن كذا ، فصطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت فيبيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت في الترام الحلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به ؛ فانه قيادة ومجاهد وآمن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بيناه . وروى الصحيح عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحلف في الإسلام وأيمأ حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة " يعني في نصرته الحق والقيام به والمواصلة . وهذا كحرف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه ونسبه ، فعاهدوا وتماهدوا على ألا يحدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُردَّ عليه مظلمته ؛ فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، أى حلف الفضائل . والفصول هنا جمع فضل للكثرة كقلس وفلوس . وروى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفا ما أحب أن لى به حر ألتئم لو أديعى به في الإسلام لأجبت " . وقال ابن إسحاق : تحامل الوليد بن عتبة على حسين بن علي في مال له ، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة ؛ فقال له حسين بن علي : أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لأخذت سبغى ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعون بحلف الفضول . قال عبد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دطانا لأخذن سبغى ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا . وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك . وبلغت

(١) في سورة ابن هشام : « لشرة ربه » . (٢) في سيرة ابن هشام : « لئن دمايه » .

عبد الرحمن بن عثمان بن حيد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شذبه الإسلام وخصه النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : " لا يحلف في الإسلام " . والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالاستصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم ، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عاماً على من قدر من المكلفين ، وجعل لهم السبل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَمْ يَذَاقُوا الْعَذَابَ » ^(١) . وفي الصحيح : " أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : " تأخذ على يديه " — في رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره " . وقد تقدم قوله عليه السلام : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بقاب من عذبه " .

الثانية — قوله تعالى : (وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بِدَّ تَوَكُّدِهَا) يقول بعد تسديدها وتقليظها ، يقال : توكيد وتأكيد ، وتؤكد وتؤكد ، وهما لفتان .

الثالثة — قوله تعالى : (وَقَدْ جِئْتُكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) يعني شعيباً . ويقال حافظاً ، ويقال ضامناً . وإنما قال « بعد توكيدها » فترقا بين اليمين المؤكدة باليمين وبين لقوا اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مراراً ، يرتد فيه الإيمان ثلاثاً أو أكثر من ذلك ، كقوله : والله لا أقصه من كذا ، والله لا أقصه من كذا ، والله لا أقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين . وقال يحيى بن سعيد : هي اليهود ، والمهديين ، ولكن الفرق بينهما أن اليهود لا يكفرون . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ آسَتِهِ بِقَدَرِ غَدْرَتِهِ " . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدم في المائة ^(٢) .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا
تَخْفُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْثَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا
يَسْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ^١ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾
قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) النفض والنكت

واحد، والاسم النكت والنفض، والجمع الأنكاث . فشئت هذه الآية الذي يخلص ويصاحد
ويُرْم عهده ثم ينفضه بالمرأة تغزل غزلها وتغله عَجَا ثم تخلصه . وروى أن امرأة حقاء كانت
بمكة نسى رِبْطَ بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة كانت تعمل ذلك، فيها وقع
التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسدسي ولم يسأ للمراة . وقال مجاهد وقادة :
وذلك ضَرْبٌ مثل، لا على امرأة معينة . وها أنكاثا نصب على الحال . والدخُل : النخل
والخديعة والنفس . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَلٌ . (أَنَّ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ
أَرْثَى مِنْ أُمَّةٍ) قال المفسرون : زلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذ خالفت
أخرى ، ثم جاءت إحداها قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها
ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل
أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا تنقضون أيمانكم إنا رأيت الكثرة والسعة
في الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النهي عن السوء إلى الكفر بسبب كثرة الكفار
وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تندروا بقوم لقلتم وكثرتكم أو لقلتم وكثرتهم ، وقد
عز زتمهم بالإيمان . (أَرْثَى) أى أكثر؛ من ربا الشيء يروى إذا كثر . والضمير في « به »
يحتمل أن يعود على الوفاء الذى أمر الله به . ويحتمل أن يعود على الربا ، أى أن الله تعالى
ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يعاهد
نفسه فيخالقها ممن يعيها ويعمل بمقتضى هواها، وهو معنى قوله : (إِنَّمَا يَسْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ
وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) من البعث وغيره .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) أى على ملة واحدة . (وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) بخلافه إياهم ، عدلاً منه فيهم ، (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) بتوفيقه إياهم ؛ فضلاً منه عليهم ، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أتم . والآية ترد على أهل القدر كما تقدم . واللام في «وليبين ولتسألن» مع التوابع المشددة يدلان على قسم مضمرة ، أى والله ليبين لكم ولتسألن .

قوله تعالى : وَلَا تَحِدُوا إِيمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَحِدُوا إِيمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ) كر ذلك تأكيداً . (فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) بمانعة في النهي عنه لعظم فوخته في الدين وتردده في معاشرات الناس ؛ أى لا تفقدوا الإيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، أى عن الإيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للتعقيم أحوال يقع في شر عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زلت فقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ؛ ومن هذا المعنى قول كثير :

• قلما توافينا ثبَّتَ وَزَلَّتْ •

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عاقية أو ساقط في ورطة : زَلَّتْ قَدَمُهُ ؛ كقول الشاعر :

سَمِعْتُ مِنْكَ السَّبْقَ إِنْ كُنْتَ سَابِقًا • وَتَقَسَّلَ إِنْ زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمَانِ

ويقال لمن أخطأ في شيء : زَلَّ فِيهِ . ثم توعده تعالى بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من طاعه ثم نقض عهده نزع عن الإيمان ، ولهذا قال : (وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أى بصدكم . وتذوقوا السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه .

قوله تعالى : وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِعْمًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِعْمًا قَلِيلًا) نهي عن الرشا وأخذ الأموال على قهض الم عهد ، أى لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا . وإنما كان قليلا وإن كثرا لأنه مما يزول ، فهو على التحقيق قليل ، وهو المراد بقوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » فيبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتزول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد وتبّت على المقد . ولقد أحسن من قال :

المالُ ينفدُ حِلُّهُ وحرامه * يوما وتبقى في غيدِ آثامه

ليس التقيُّ يمتنعُ لإلَّهِه ^(١) * حتى يطيب شرابه وطعامه

آخر .

هَبِ الدُّنْيَا تَسَاقِ إِلَيْكَ عَفْوًا * أليس مصير ذلك إلى انتقال

وما دنيائك إلا مثلُ فيءٍ * أظنك ثم آذف بالزوال

قوله تعالى : (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا) أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصي . (أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى من الطاعات ، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « وَلَنَجْزِيَنَّ » بالنون على التعظيم . الباقرن بالياء . وقيل : إن هذه الآية « وَلَا تَسْتُرُوا » إلى هنا نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي وخصمه ابن أسوع ، اختصما في أرض فأراد أمرؤ القيس أن يخلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرله بحقه ، والله أعلم .

(١) في نسخ الأصل : * ليس يمتنع من يبرأه *

والصواب عن أدباء الدنيا والعين ص ٢١٢ طبع بولاق . (٢) التي في كتب الصلوة في ترجمة امرئ القيس ابن عابس أنه ربيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإمامة في ترجمة عيدان بن أسوع : « ذكر مقاتل في خصمه أنه لقي حاصر كمرأ القيس بن عابس الكندي في أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية في

قوله تعالى : **مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِىْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (**مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِىْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً**) شرط وجوابه ، وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال : الأول — أنه الرزق الحلال ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعطاء والضحاك . الثاني — الفتاة ؛ قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه ، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول علي بن أبي طالب رضى الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله ؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن في فاقة وميسرة لحياته طيبة ، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشتة ضنك لا خير فيها . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هي الجنة ، وقاله الحسن ، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة . وقيل هي السعادة ، روى عن ابن عباس أيضا . وقال أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التستري : هي أن يتبع عن البعد تديبه ويرد تديبه إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هي المعرفة بالله ، وصدق المقام بين يدي الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . (**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم**) أى في الآخرة . (**بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) . وقال « فلنحيينه » ثم قال « ولنجزينهم » لأن « من » يصلح للواحد والجمع ، فأخذ مرة على اللفظ ومرة على المعنى ، وقد تقدم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ؛ فتركت .

قوله تعالى : **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴿٥٨﴾
فيه مسألة واحدة — وهي أن هذه الآية متعذلة بقوله : « وَرَبَّنَا عَلَيْكَ الْكَتَابُ بَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذت في قراءته فاستمد بالله من أن يمرض لك الشيطان فيصنك عن

تدبته والنمل بما فيه؛ وليس يريد استعانة بقراءة بل هو كقولك : إنا آكلت لعل
بسم الله أي إذا أردت أن تأكل، وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين انتزع الصلاة قال : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من مكره
وتفنه وقته » . وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوعد في صلاة
قبل القراءة . قال ليكا الطبري : وتُحل عن بعض السلف التوعد بعد القراءة مطلقا ، احتجا
بقوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ولا شك أن ظاهر
ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا » . إلا أنه غير محتمل ، مثل قوله تعالى : « وَإِذَا قُمْتُمْ فَاصْبِرُوا » . وإذا
سألتهم متاعا فاسألوهن من وراء حجاب » وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد
سؤال مقدم . ومثله قول القائل : إنا قلت فأصدق ، وإذا أحرمت فاعتسل ؛ يعني قبل
الإحرام . والمعنى في جميع ذلك : إذا أردت ذلك ؛ فكذلك الاستعاذة . وقد تقدم هذا المعنى ،
وتقدم القول في الاستعاذة مستوفى .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : (إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) أي بالإغواء والكفر ، أي ليس
لك قدرة على أن تجعلهم على ذنب لا يغفر ؛ قاله سفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على
ما يدعوهن إليه من المعاصي . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال ؛ لأن الله تعالى صرف

(١) المنز : النفس والعزم ، وكل شيء ، دفعه فقد هزته . والتعج : الكبر ؛ لأن الكبر يعظم ويجمع فيه
وقته فيحتاج أن يتعج . والفت : قال ابن الأثير : جاء تحسره في الحديث أنه التمر ؛ لأنه يفت من هم .
(٢) آية ١٠٢ سورة النساء . . (٣) آية ١٥٢ سورة الأنعام . . (٤) آية ٥٢ سورة الأحزاب .
(٥) راجع ١٦ ص ٨٦ طبة آية ٢٤ آتة ٢٤ .

سلطانه عليهم حين قل مدوّاه ايليس لعنه الله « ولا يغريهم اجمعين . إلا عبادك منهم
 للخاصين » قال الله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين . »
 قلت : قد بينا أن هذا علم يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام
 بسلطانه ، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربك ؟ حسبا تقدم في آخر
 الأعراف بيانه . ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أي يطيعونه . يقال : توليت أي أطلعت ،
 وتوليت عنه ، أي أعرضت عنه . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أي بالله ؛ قاله مجاهد
 والفضلك . وقيل : يرجع « به » إلى الشيطان ؛ قاله الربيع بن أنس والفتي . والمعنى :
 والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أي من أجلها . وصار فلان بك
 عالما ، أي من أجلك . أي والذي تولى الشيطان مشركون بالله .

قوله تعالى : وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ
 قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ
 الْفُتُورِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُنْشِئَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهْدًى وَبُشْرَى
 لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ ﴾ قيل : المعنى بدلنا شريعة
 متقدمة بشريعة مستأفة ؛ قاله ابن بحر . مجاهد : أي رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها .
 وقال الجمهور : نسخنا آية بآية أشد منها عليهم . والنسخ والتبديل رفع الشيء مع وضع غيره
 مكانه . وقد تقدم الكلام في النسخ في البقرة مستوفى . ﴿ قَالُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ إِنَّمَا
 أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ أي كاذب خفي ، وذلك لما رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض ببعض . وقوله . ﴿ قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ

(١) آية ٢٩ وما بعدها سورة الحجر . (٢) راجع به ٧ ص ٤٨ (٣) راجع به ٢ ص ٦١
 وما بعدها طيبة ثانية .

النَّحْلِ) يعني جبريل، نزل بالقرآن كله ناسخه ومفوضه . وروى بإسناد صحيح عن ماسر النخعي قال : وُكِّلَ إسماعيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . وفي صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بمورة « الحمد » ملك لم يزل إلى الأرض قط . كما تقدم في الفاتحة بيانه . (مِنْ وَبَّكَ بِالْحَقِّ) أى من كلام وبك . (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) أى بما فيه من الحجج والآيات . (وَلَهُدًى) أى وهو هدى . (وَبَشِّرِ السَّالِمِينَ) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) : اختلف في أسم هذا الذي قالوا إنما يعلمه؛ ف قيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أعمى لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى : (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) أى كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذى لا يستطيع الإنسان والجن أن يمارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلم جدا، فيقول : لا والله، بل هو يعلمنى ويهدينى . وقال ابن إسحاق : كان النبي صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - كثيرا ما يجلس عند المرأة إلى غلام نصراني يقال له جبر، عبد بنى الحضرمي، وكان يقرأ الكتب، فقال المشركون : والله ما يعلم عدا ما أتى به إلا جبر النصراني . وقال عكرمة : اسمه عبيش عبد بنى الحضرمي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئه القرآن؛ ذكره المساوردي . وذكر التلبي عن عكرمة وقصاده أنه غلام لبنى المغيرة اسمه عبيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنما يعلمه بشر، فقرئت، المهدي عن عكرمة :

هو غلام لبني طامر بن قزى ، واسمه عيش . وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان لنا
غلامان نصرانيان من أهل عين القرء اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كما ذكر الماوردي
والقشيري والثعلبي ؛ إلا أن الثعلبي قال : يقال لأحدهما بُت ويكنى أبا فُكَيْهَة ، والآخر جبر ،
وكانا صَيِّقِلَيْن ^(١) يملكان للسيوف ؛ وكانا يقرأان كتابا لم . الثعلبي : يقرأان التوراة والإنجيل .
الماوردي والمهلوي : التوراة . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمز بهما ويسم
قراتهما ، وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل :
حنوا سلمان الفارسي رضى الله عنه ، قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة اسمه بلعام ، وكان
غلاما يقرأ التوراة ؛ قاله ابن عباس . وكان المشركون يزعمون رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلم بلعام . وقال القتيبي : كان بمكة
رجل نصراني يقال له أبو مبصرة يتكلم بالرومية ، فرجا قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقال للكفار : إنما يتعلم محمد منه ، فزلت . وفي رواية أنه عناس غلام عبدة بن ربيعة .
وقيل : عابس غلام حويط بن عبد العزى ويسار أبو فكهة مولى ابن الحضرمي ، وكان
قد أسلم . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة
ليعلمهم بما علمه الله ، وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأنه
يحوز أن يكونوا أومئوا إلى هؤلاء جميعا ، وزعموا أنهم يعلمونه

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعد ؛ لأن سلمان إنما أتى النبي صلى
الله عليه وسلم بالمدينة ، وهذه الآية مكية . (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أُنْجِي) الإلحاد : الميل ؛
يقال : لحذ وألحد ، أى مال عن القصد . وقد تقدم في الأعراف . وقرأ حمزة « يُلْحِدُونَ »
بفتح الياء والحاء ؛ أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أنجى . والسجدة : الإخفاء وضد
البيان . ورجل أنجم وأمرأة عجماء ، أى لا يفصح ؛ ومنه نَجْم الذنب لأستاره . والعجماء :

(١) الصيقل : مخاض السيوف وجلاها . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٨ طبعه امل أرتانية .

البعوضة؛ لأنها لا توضع عن نفسها . وأعجت الخبث أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكتلامهم أعجميا . وقال القراء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمى أو العجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو جلى : الأعجمى الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً . وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب يقولون القصيدة والبيت : لسان؛ قال الشاعر :

لسانُ الشَّريهينِ إليَّ • ونَحْتُ وما حَسْبُكَ أنْ نَحْنُ

يعنى باللسان القصيدة . (وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) أى أنصح ما يكون من العربية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (١١)

قوله تعالى : (**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**) أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . (**لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) .

قوله تعالى : **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** (١٢)

قوله تعالى : (**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**) هذا جواب وصفهم النبى صلى الله عليه وسلم بالأقراء . (**وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**) هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب ؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم . ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب ؛ لأن الفعل قد يكون لازماً وقد لا يكون لازماً . فاما التعت فيكون لازماً ولهذا يقال : عصى آدمُ ربه فَنَوَى ، ولا يقال : إنه عاص غاير . فلما قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب ؛ قاله القشيري .

قوله تعالى : **مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٦)

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : **(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ)** هذا متصل بقوله تعالى : « ولا تَقْصُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا » فكان مبالغة في الوصف بالكذب ؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وأرتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ومقيس بن صُباية وعبد الله بن خَطَل ، ومقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : **(إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ)** : وقال الزجاج : « من كفر بالله من بعد إيمانه » بدل من يفتري الكذب ؛ أى إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ، لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَنْ » ابتداء . وخبره محذوف ، اكْتَفَى منه خبر « من » الثانية ؛ كقولك : مَنْ يَأْتَانِي مَنْ يَحْسَنُ نَكْرَمَهُ .

الثانية - قوله تعالى : **(إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ)** هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ، في قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما نذروه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سُتَيْمَةً وَصُفَيَا وَبِلَالًا وَخَبَابًا وَسَلَسًا فَعَذَّبُوهُمْ ، وَرُبِطَتْ سُمَيْمَةُ بَيْنَ بَيْرَيْنِ وَوُجِئَ قُبُلُهَا بِحِمْرَةٍ ، وَقِيلَ لَهَا إِنَّكَ أَسْلَمْتَ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ ، فَتَلَّتْ وَقَتَلَ زَوْجَهَا يَاسِرًا ، وَهِيَ أُولُ قَتِيلِينَ فِي الْإِسْلَامِ . وَأَمَّا عَمَارُ فَأَعْطَاهُمْ مَا أَرَادُوا بِلسَانِهِ مُكْرَمًا ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قَالَ : مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَإِنْ عَادُوا قَعُدْ » . وَرَوَى مُنْصَوِّرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : أَوَّلُ شَيْئَةٍ فِي الْإِسْلَامِ أَمَّ عَمَارًا ، قَتَلَهَا أَبُو جَهْلٍ . وَأَوَّلُ

(١) في الأصول : « عبد الله بن أمي بن خطل » وهو محريف .

شديد من الرجال مهتج مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعتاب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم ففنه أبو طالب ، وأما أبو بكر ففنه قومه ، واخذوا الآخرين فالبسوم أذراع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من المشي أنعم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يسبهم ويوبخهم ، وأتى سمية فجعل يسبها ويرث^(١) ، ثم طعن فرجها حتى نرجت الحربة من فيها فقتلها ، رضي الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سئلوا ؛ إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يذوبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أحد أحد حتى ملّوه ، ثم كتموه وجعلوا في عقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشي مكة^(٢) حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذي قالوا — لولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالا فأمته . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإننا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، فقتلهم فكفروا مكربين ، فقصم نزلت هذه الآية . ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيل بن إسماعيل . وروى الترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرواهما " هذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الجنة تستاق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان بن ربيعة " . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثة — لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يقرب

(١) لثفت : القمض من الثقل . (٢) الأعشبان : الجبلان المطبقان بمكة ، وما أبو تيس والأحر.

عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمته الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" الحديث. والخبر وإن لم يصح سنه فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء؛
 قاله القاضي أبو بكر بن العربي. وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح، قال: وقد
 ذكره أبو بكر الأصيل في الفوائد وابن المنذر في كتاب الإقناع.

الرابعة - أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل،
 أنه لا يتم عليه إن كفر وقبله مطمئن بالإيمان، ولا يبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛
 هذا قول مالك والكوفيين والشافعي؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان
 صرنا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه أمره أنه ولا يصل عليه
 إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلماً. وهذا قول يردده الكتاب والسنة، قال الله تعالى:
 «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» الآية. وقال: «إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مِنْهُمْ قُتْلًا» وقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ» الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ
 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» الآية. فعذر الله المستضعفين الذين يمتنون من ترك ما أمر
 الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفاً غير متمتع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاري.

الخامسة - ذهب طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول،
 وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لتفسير الله أو الصلاة لتغير القبلة،
 أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا؛ يروى هذا عن
 الحسن البصري، رضي الله عنه. وهو قول الأوزاعي ومحمّد بن سلمان. وقال محمد بن
 الحسن: إذا قيل للأسير: أجب لنا الصنم وإلا قتلوك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة
 فليسجد ويكون نية لله تعالى، وإن كان لتغير القبلة فلا يسجد وإن قتله. والصحيح أنه
 يسجد وإن كان لتغير القبلة، وما أحراه بالسجود حيث ذق الصنم عن ابن عمر قال:
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحته حيث كان

وجبه، قال : وفيه نزلة « فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا قَسَمَ وَجْهِ اللَّهِ » في رواية : ويؤثر عليها ، غير أنه لا يصل عليها المكتوبة . فإذا كان هذا مباحا في السفر في حالة الأمن لنسب القول من الدابة للتفعل فكيف بهذا . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكئا به . فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل في حكمة . وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول ، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق . روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان ، أن الإثم عنه مرفوع .

السادسة - أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمة يجلد أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن يقدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

واختلف في الزنى ، فقال مطرف وأصيص وابن عبد الحكم وابن الماجشون : لا يفعل أحد ذلك ، وإن قتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد ، وبه قال أبو ثور والحسن . قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حد عليه ، خلافا لمن ألزمه ذلك ؛ لأنه رأى أنها شهوة خلقية لا يتصور الإكراه عليها ، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلحاح إلى ذلك ، وهو الذي أسقط حكمة ، وإنما يجب الحد على شهوة بعث عليها سبب اختياري ، فقياس الشيء على ضده ، فلم يحل بصواب من عنده . وقال ابن خزيمة متناد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى ، فقال بعضهم : طبع الحد ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره . وقال بعضهم : لا حد عليه . قال ابن خزيمة متناد : وهو الصحيح . وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حد ، وإن أكرهه السلطان فاقياس أن يعقد ، ولكن استحسن ألا يحده . وخالفه أصحابه فقالوا : لا حد عليه في الوجهين ، ولم يراعوا الانقشار ،

وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حد عليه ، ولا فرق بين السلطان في ذلك وغير السلطان .

السابعة - اختلف العلماء في طلاق المكره وعتاقه ؛ فقال الشافعي وأصحابه : لا يلزمه شيء . وذكر ابن وهب عن عمر وعلي وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وخطاب وطائفة من أصحابنا وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشعبي والنخعي وأبي قلابة والزهرى وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالمأزول . وهذا قياس باطل ؛ فإن المأزول قاصد إلى إضاع الطلاق راض به ، والمكره غير راض ولا نية له في الطلاق ، وقد قال عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " . وفي البخاري : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق ؛ ليس بشيء ؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن . وقال الشعبي : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق ، وإن أكرهه السلطان فهو طلاق . وفسره ابن عينة فقال : إن اللص يُقَدِّم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنة - وأما بيع المكره والمضطوط فله حالتان . الأولى - أن يبيع ماله في حق وجب عليه ؛ فذلك مباح سائغ لا رجوع فيه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فله بيعه . وأما بيع المكره ظاهرا أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلائع ، ويتبع المشتري بالتبع ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه . قال مطرف : ومن كان من المشتري يعلم حال المكره فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وكلما أحدث المتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحييس فلا يلزم المكره ، وله أخذ متاعه . قال سُحَّون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجور لا يجوز . وقال الأثيري : إنه إجماع .

التاسعة - وأما نكاح المكره؛ فقال مَحْنُونٌ : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا : لا يجوز المقام عليه، لأنه لم يتعقد . قال محمد بن مَحْنُونٌ : وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصدق مثلها ألف درهم، أن النكاح جائز وتزيمه الألف ويطل الفضل . قال محمد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خنساء بنت خذلم الأنصارية، ولأمره صلى الله عليه وسلم بالاستتار في أوضاعهن، وقد تقدم، فلا معنى لقولهم .

العاشرة - فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح صدنا على المسمى من الصداق ودرى عنه الحد . وإن قال : وطئها على غير رضا منى بالنكاح فعليه الحد والصداق المسمى؛ لأنه مدع لإبطال الصداق المسمى، وتخذ المرأة إن أقنعت وهي عالة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهة على النكاح وعلى الوطء فلا حد عليها ولم الصداق، ويحد الواطئ؛ فأعلمه . قاله مَحْنُونٌ .

الحادية عشرة - إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حد عليها؛ لقوله « إلا من أكره » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولقول الله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَيْنِ إِكْرَاهَيْنَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ^(١) يريد الفتيات . وبهذا المعنى حكم عمر في الوليفة التي استكرهها العبد فلم يجدها . والعلماء متفقون على أنه لا حد على امرأة مستكرهة . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت استكرهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحد، إلا أن تكون لها بيعة أو جاءت بتدبي على أنها أوتيت، أو ما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمر بن الخطاب أنه قال : الرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البيعة، أو كانت الحبل أو الاعتراف . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقبول .

(١) آية ٢٣ سورة النور . (٢) عبارة الخط : « لو جاءت تدبي على أنها أوتيت » . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقبول .

الثانية عشرة - واحتفظوا في وجوب الصداق للحكمة ؛ فقال عطاء والزفرى : لما صدق مطلقا وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وقال الثوري : إذا أقيم الحجة على الذي زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبي ؛ وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأي . قال ابن المنذر : القول الأول صحيح .

الثالثة عشرة - إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لم يَحْمِلْ أسلحها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا أحتمل أذية في تخليصها . والأصل في ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جابر إبراهيم عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلى فأرسل بها قدام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي فقامت اللهم إني كنتُ آمنتُ بك وبرسوك فلا تسلط على هذا الكافر ففُطحت حتى ركنى برجله ^(١) " . ودل هذا الحديث أيضا على أن سارة لما لم يكن عليها ملامة ، فكذلك لا يكون على المستكرمة ملامة ، ولا حد فيها هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة - وأما بين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء . قال ابن الماجشون : وسواء حلف فيها هو طاعة لله أو فيها هو معصية إذا أكره على العيّن ؛ وقاله أصح . وقال مطرّف : إن أكره على العيّن فيها هو لله معصية أو ليس في فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على العيّن فيها هو طاعة مثل أن يأخذ الوالي رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرًا ، أو لا يفسق ولا يفتش في عمله ، أو الوالد يحلف ولده تأديبا له فإن العيّن تنزّم ؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيها يكلف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث ، قالوا : لأن المكره له أن يورث في يمينه كلها ، فلما لم يورث ولا ذهب نيته إلى خلاف ما أكره عليه فقد قصد إلى العيّن . احتج الأولون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيته مخالفة لقوله ؛ لأنه كاره لما حلف عليه .

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصرا ، فراجع في شرح التلخيص ، كتاب البيوع ، ص ٢٠٢ طبع في دار

الخامسة عشرة — قال ابن العربي : ومن غريب الأمر أن علماءنا احتلوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا ؛ وهذه مسألة عراقية مورت لنا منهم ، لا كانت هذه المسئلة ولا كانوا ! وأى فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على الحنث في أنها لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع ! فاتفقوا الله وراجعوا بصائرهم ، ولا تقتروا بهذه الرواية لأنها وصية في القولية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المنكس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء ؛ فقال مالك : لا تفتة له في ذلك ، وإنما يدرأ المنة يجنيه عن بدنه لا ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطزف ، ورواه عن مالك ، وقاله ابن عبد الحكم وأصعب .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح ؛ لأن المداينة عن المال كالمدانة عن النفس ؛ وهو قول الحسن وقتادة وسياق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقال : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " .

وروى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرايت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : " فلا تطعه مالك " . قال : أرايت إن قاتلني ؟ قال : " قتله " . قال : أرايت إن قتلني ؟ قال : " فانت شهيد " . قال : أرايت إن قتلته ؟ قال : " هو في النار " . أخرجه مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطزف وابن الماجشون : وإن بدر الخائف يجنيه للوالى الظالم قبل أن يسألما ليذنب بها عما خاف عليه من ماله وبدنه خلف له فإنها تنزله . وقاله ابن عبد الحكم وأصعب . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم خلف له بالطلاق ألبتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب ، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف ورجاء النجاة من ظلمه قد دخل في الإكراه ولا شيء عليه ، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حائث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن

يجريه على لسانه إلا بجري المعاريض ؛ فإن في المعاريض ^(١) المنعشة عن الكتب . ومتى لم يكن المعاريض ^(٢) والحدود التي هي من الدين ، وأعراض الظالم وسأله وسأله : كاذب شبهة بها في الحان

كذلك كان كافراً؛ لأن الممارض لا سلطان للإكراه عليه . مثاله - أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللهي ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبي فيقول هو كافر بالنبي ، مسنداً وهو المكان المرتفع من الأرض ^(١) . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة ، فيقصد أحدهما بقلبه ويرأ من الكفر ويرأ من إيمه . فإن قيل له : أكفر بالنبي (مهموزاً) فيقول هو كافر بالنبي يريد بالخبر ، أى خبر كان كطليحة وسيلية الكذاب . أو يريد به النبي الذي قال فيه الشاعر :

فأصبح رثاءً ذفاق الحصى • مكان النبي من الكتاب ^(٢)

لثمانية عشرة - أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختر القتل أنه أعظم أجراً عند الله من اختيار الرخصة . واختلفوا فيما أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدة في ذلك واختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة ، ذكره ابن حبيب ومُحمَّدون . وذكر ابن شحون عن أهل العراق أنه إذا تهتد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير ؛ فإن لم يفعل حتى قتل خفناً أن يكون آثماً لأنه كالمضطر . وروى حُباب بن الارت قال : شكوتنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة فقلت : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدّه ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " . فوصفه صلى الله عليه وسلم بهذا عن الأثم السالفة على جهة المصلحة والصبر على المكروه في ذات الله ، وأنهم لم يكفروا في الظاهر وتجنبوا الإيمان ليدفوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة من أثر الضرب

(١) روى الحديث : « لا تصلوا على النبي » أى على الأرض المرتفعة المحدودية . (٢) هو طليحة
أبو عبيد بن نوفل الأسدي ، أورد عبد النبي صلى الله عليه وسلم وأدعى النبوة ثم أسلم . (٣) الرثم (بالفتح) والثام (بالتاء) ،
اللفظ والكسر . ويريد بالنبي المكان المرتفع . والكتاب : الذئب والجمع . (٤) يريد بالاسلام .

والقتل والموان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتى لهذا مزيد بيان في سورة «الأعدود»^(١)
 إن شاء الله تعالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البغدادي قال : حدثنا شرح بن
 يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيوثا لمسيمة أخذوا رجلين
 من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلة ، فقال لأحدهما : أتشهد أن
 محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال نعم . نفخ عنه . وقال
 للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أني رسول الله ؟ قال : أنا أصم
 لا أسمع ، فقدمه وضرب عنقه . فجاء هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت !
 قال : «وما أهلكك» ؟ فذكر الحديث ، قال : «أما صاحبك فاخذ بالثقة^(٢) وأما أنت فاخذت
 بالرخصة . على ما أنت عليه الساعة» ؟ قال : أشهد أنك رسول الله . قال : «أنت على
 ما أنت عليه» . الرخصة فيمن حلقه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يذله على رجل أو مال
 ورجل ؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر بيته ؛ وهو قول قتادة إذا
 حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقدم ما للعلماء في هذا . وذكر موسى بن معاوية أن
 أبا سعيد بن أنس صاحب مالك استخلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله
 أنه ما آواه ، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : لحلف له ابن أنس ؛ وابن أنس يومئذ قد علم
 موضعه وآواه ، لحلفه بالطلاق ثلاثا ، لحلف له ابن أنس ، ثم قال لأمرأته : اعترى فاعترته ؛
 ثم ركب ابن أنس حتى قدم على البهلول بن راشد القيرواني ، فأخبره بالخبر ؛ فقال له البهلول :
 قال مالك إنك حانت . فقال ابن أنس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك ، وإنما أردت
 الرخصة ، أو كلام هذا معناه ؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصري إنه لا حنت
 عليك . قال : فرجع ابن أنس إلى زوجته وأخذ يقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب
 قال : حدثني معبد عن المسيب بن شريك عن أبي شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن
 الرجل يؤخذ بالرجل ، هل ترى أن يحلف ليقية يمينه ؟ فقال نعم ؛ ولأن أحلف سبعين مينا

وأحنت أحب إلى أن أذل على مسلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتيونه بالأخبار ، قال : جلس رجل منهم في حقة رجاء بن حيوة فسمع بعضهم يقع في الوليد ، فرغ ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أذكر بالسوء في مجلسك ولم تغير ! فقال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال له الوليد : قل : آله الذي لا إله إلا هو ، قال : آله الذي لا إله إلا هو ، فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطاً ، فكان يلقي رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستقي المطر ، وسبعون سوطاً في ظهري ! فيقول رجاء : سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

الثامنة عشرة - واختلف العلماء في حد الإكراه ، فروى عن عمر بن الخطاب رضي عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود : ما كلام يدرا عني سوطين إلا كنت متكسباً به . وقال الحسن : التبة جائزة للؤمن إلى يوم القيامة ؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل نية . وقال النخعي : القيد إكراه ، والسجن إكراه . وهذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إنفا تحقيق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لما يتوعد به ، وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت ، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكروه . وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه . وتنقض الكوفيون فلم يجعلوا الدجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر أو كل اللينة ؛ لأنه يخلف منهما التلف . وجعلوا إكراهاً في إقراره لفلان عندى ألف درهم . قال ابن سحنون : وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل على أن الإكراه يكون من غير تلف هس . وذهب مالك إلى أن من أكره على بين يوبعد أو سجن أو ضرب أنه يخلف ولا حنت عليه ، وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور ، وأكثر العلماء .

المؤبة عشرين - ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعارض لمندوحة عن الكذب . روى الأعمش عن إبراهيم النخعي أنه قال : لا بأس إنفا بلغ الرجل عنك شيء أن تقول :

والله، إن الله يعلم ما قلت فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذي قلت ، وهو في ظاهره انتفاء من القول ، ولا حث على من قال ذلك في بيته ولا كذب عليه في كلامه . وقال النخعي : كان لمم كلام من أنار الإيمان يدعون به من أنفسهم ، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحث . قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك الممارض من الكلام ، إذا كان ذلك في غير مكرو ولا خديعة في حق . وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعي إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس في مسجد بيته وقال لجاريته : قولي له هو والله في المسجد . وروى منيرة عن إبراهيم أنه كان يميز للرجل من لبثت إذا عمرضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أحدى إلا ما سئد لي غيري ، ولا أركب إلا ما حلت لي غيري ؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعني بقوله « غيري » الله تعالى ، هو مسئده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حثا في بيته ، ولا كذبا في كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم ومُحْدان حتى فمن اجتأ وفعل أثم في خديسته ولم يجب عليه كفارة في بيته .

الحادية وتشرنوب — قوله تعالى : (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا) أي وسَّعه لقبول الكفر ، ولا يقدر أحد على ذلك إلا الله ؛ فهو يرد على القدرية . و «صدرا» نصب على المفعول . (فَلَيْسَ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وهو عذاب جهنم

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٥٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ أَكْثَرُ ضَلَالٍ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: (ذَلِكَ) أى ذلك الغضب. (يَنْتَهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى اختاروها فى الآخرة. (وَأَنَّ اللَّهَ) «أنا» فى موضع خفض عطفا على «بأنهم». (لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) ثم وصفهم فقال: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) أى عن فهم المواقف. (وَسَمِعُوهُمْ) عن كلام الله تعالى. (وَأَبْصَارُهُمْ) عن النظر فى الآيات. (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) عما يراد بهم. (لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ) تقدم ١٠

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَيْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبُّوا ﴾^(٢)
هَذَا كله في عَمَار . والمعنى وصبروا على الجهاد ؛ ذكره النحاس . وقال قتادة : نزلت في قوم
خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم ، وقد تقدم ذكرهم في هذه
السورة . وقيل : نزلت في ابن أبي سرح ، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبي
صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة ، فاستجار عثمان فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره
السنائي عن عكرمة عن ابن عباس قال : في سورة التحل « من كفر بالله من بعد إيمانه
إلا من أكره — إلى قوله — ولم علم عذاب عظيم » فسبح واستغنى من ذلك فقال « ثم إن
وبك للذين هاجروا من بَيْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبُّوا إِنَّ رَبَّكَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وهو
عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان على مصر : كان يكتب لرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أَنْ يُقْتَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ ؛ فاستجار له عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ
فأجاره رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قوله تعالى : يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مَّجْدِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) أى إن الله قد وُعدكم في ذلك .
 أو ذُكرتم « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » أى تخاضع وتحتاج عن نفسها ، جاء في الخبر
 أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى عهد صلى الله
 عليه وسلم فإنه يسأل في أمته . وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خُوفنا هيجنا
 حديثنا نهبنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذي نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل
 عمل سبعين نبيا لأنت عليك تارات لا يُمك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب
 ولا نبي متخبر إلا وقع جاثيا على ركبته ، حتى إن إبراهيم الأنليل ليدلي بالخلة فيقول : يارب ،
 أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك في كتاب الله ؟
 قال : قوله تعالى : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ
 لَا يظلمون » . وقال ابن عباس في هذه الآية : ما تزال الخصومة بالثامن يوم القيامة حتى
 تخاضع الروح الجسد ، فتقول الروح : رب ، الروح منك أنت خلقت ، لم تكن لى يد أبطش بها ،
 ولا رجل أسمى بها ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت
 قد خلعت في هذا الجسد ، فضعب عليه أنواع العذاب ونجني ، فيقول الجسد : رب ، أنت
 خلقتنى بيدك فكنت كالخشب ، ليس لى يد أبطش بها ، ولا قدم أسمى به ، ولا بصر أبصر به ،
 ولا سمع أسمع به ، بخاء هذا كشماع النور ، فبه نطق لسانى ، وبه أبصرت عيني ، وبه مشيت
 رجلي ، وبه سمعت أذنى ، فضعب عليه أنواع العذاب ونجني منه . قال : فيضرب الله لها
 مثلا أعنى ومُقعدا دخلا بستانا فيه ثمار ، فالأعنى لا يبصر الثمرة والمُقعد لا يتألفها ، فنادى
 المقعد الأعنى إيتى فأحلتى آكل وأطعمك ، فدنا منه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعلى من
 يكون العذاب ؟ قال : عليكما جميعا العذاب ؛ ذكره التلوي .

قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا
 رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذْهَبَ اللَّهُ لِبَاسِ
 الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشرك قريش وقال : « اللَّهُمَّ أَشَدُّ مَظْلَكًا عَلَى مُضَرٍّ وَأَجَلًا عَلَيْهِمْ سَيِّئَ كَيْفِي يَوْمَئِذٍ » . فَأَبْتَلُوا بِالتَّحْطِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ ، وَجِئَهُ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا فَزَقَّ فِيهِمْ . (كَانَتْ آيَةً) لَا تَهَاجُ أَهْلَهَا . (يَا أَيُّهَا يَزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَظَهَرَ . وَيُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ . (فَكَفَرَتْ بِأَنْتُمْ اللَّهُ) الْأَنْتُمْ : جَمْعُ النَّمَةِ ؛ كَالْأَشْدُّ جَمْعُ الشَّدَةِ . وَقِيلَ : جَمْعُ نَمَى ؛ مِثْلُ بَرَى وَأُورِسَ . وَهَذَا الْكَفْرَانُ تَكْذِيبُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ) أَيْ أَذَاقَ أَهْلَهَا . (لِبَاسٍ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) سَمَاءٌ لِبَاسًا لِأَنَّهُ يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهَزَالِ وَفُجُوءِ اللَّوْنِ وَسُوءِ الْحَالِ مَا هُوَ كَالْبَاسِ . (يَمَّا كَانُوا يَصْنَتُونَ) أَيْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَاصِي . وَقَرَأَهُ خُصَمَاءُ ابْنِ غِيَاثٍ وَنَصْرَبِنْ مَاصِمٍ وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَالْحَسَنُ وَأَبُو عَمْرٍو فَإِذَا رَوَى عَنْهُ عَبْدُ الْوَارِثِ وَعَبِيدُ وَعَاسِمٌ « وَالْخَوْفُ » نَصَبًا بِإِزْقَاقِ أَذَاقِهَا عَلَيْهِ ، عَطَفَا عَلَى « لِبَاسِ الْجُوعِ » وَأَذَاقَهَا الْخَوْفُ . وَهُوَ بِمَثَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَايَاهُ الَّتِي كَانَتْ تُطْلِفُ بِهِمْ . وَأَصْلُ التَّنَوُّقِ بِالْقَمِ ثُمَّ يَسْتَمَارُ فَيُوضَعُ مَوْضِعُ الْإِبْتِلَاءِ . وَضَرَبَ مَكَّةَ مِثْلًا لِنَفِيرِهَا مِنَ الْبِلَادِ ؛ أَيْ أَنَّهَا مَعَ جَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَعِمَارَةِ مَسْجِدِهِ لَمَّا كَفَرَ أَهْلُهَا أَصَابَهُمُ التَّحْطُّ فَكَيْفَ بَنِيهَا مِنَ الْفَرَى . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهَا الْمَدِينَةُ ، آمَنَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ كَفَرَتْ بِأَنْتُمْ اللَّهُ لَقَتْلِ عُمَانَ ابْنِ عَفَانَ ، وَمَا حَدَّثَ بِهَا بِدْرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْفَتَنِ . وَهَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ وَخَفِصَةَ زَوْجَي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ مِثْلُ مَضْرُوبِ بَائِي - قَرْيَةٍ كَانَتْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ مَآثِرِ الْقُرَى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ يُبَاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للمشركين ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رقة عليهم ، وذلك أنهم لما آتوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم الميرة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرقة والحيفة والكلاب الميتة والجلود والعليل ، وهو الوبر يعالج بالتم . ثم إن رؤساء مكة كلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرحم والمغفر ، وإن قومك قد هلكوا ؛ فأدع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون .

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا إِهْلَ لِيُغَيِّرِ اللَّهُ بِهِ قَمِنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم في « البقرة » القول فيها مستوفى .

قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَنَعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

فيه مسائل

الأول - قوله تعالى : (لِمَا تَصِفُ) ماها مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجل ، أى لا تقول لأجل وصفكم « الكذب » بترج الخافض ، أى لما تصف أنسلكم من الكذب . وقرئ « الكَذْبُ » بضم الكاف والذال والباء ، نعتاً للألسنة ، وقد تقدم .^(١) وقرأ الحسن هنا خاصة « الكَذِب » بفتح الكاف وخفض الذال والياء ، نعتاً « لما » ، بالتقدير : ولا تقولوا لوصف أنسلكم الكذب . وقيل على البديل من ما ، أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه أنسلكم هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . الآية خطاب للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله « هذا حلال » إشارة إلى ميتة بطون الأنعام ، وكل ما أحلوه . وقوله « وهذا حرام » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرموه . (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ) أى ما هم فيه من نعم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانية - أسند الترمذى أبو محمد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعشى قال : ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من قُتبا الناس أن يقولوا بهذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إما كم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحریم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يغير بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إني أكره [كذا] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت على حرام إنها حرام ويكون ثلاثاً . فالجواب أن مالكاً سمع على بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

عند الميثاق فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة^(١) وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الربوية وفيما خالف المصالح ونخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

قوله تعالى : (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا) مِن أن الانتماء والحُرث حلال هذه الأمة ، فاما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء . (حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ) أى فى سورة الأنعام . (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) أى بتحريم ما حرمت عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمت عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم ، كما تقدم فى النساء .^(٢)

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ) أى الشرك؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم فى النساء .^(٣)

قوله تعالى : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٥)

قوله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) دعا عليه السلام مشركى العرب إلى دينه إبراهيم؛ إذ كان أباهم وباني البيت الذى به عزهم، والأمة : الرجل الجامع لقبه؛ وقد تقدم محامله .^(٤) وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغنى أن عبد الله بن مسعود

(١) من الذهب والفضة والبر والسكر والتمر والحب . (٢) راجع ج ٧ ص ١٢٤ طبعه أول مرة ثانية .

(٣) راجع ج ١ ص ١٢ طبعه أول مرة ثانية . (٤) راجع ج ٥ ص ٩٢ (٥) راجع ج ٢ ص ١٢٧ طبعه ثانية .

قال : يوم الله سبحانه كان آية الفلق : ^(١) فقل له : يا أبا عبد الرحمن ، إنما ذكر الله عن رجل
 بهذا إبراهيم عليه السلام ، فقال ابن مسعود : إن الآية التي يقرأ بها الناس الخور ، وإن الفاتحة
 هو المطيع . وقد تقدم الثبوت في البقرة ^(٢) و« حنيفة » في الأنعام ^(٣) .

قوله تعالى : **شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَبُهُ** ^(٤) **وَمَدَّ لَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ^(٥)
وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ^(٦) **وَأَتَتْهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ** ^(٧)

قوله تعالى : (**شَاكِرًا**) أى كان شاكرًا . (**لِّأَنْعَمِهِ**) الأنعم جمع نعمة ، وقد
 تقدم . (**أَجْتَبَاهُ**) أى اختاره . (**وَمَدَّ لَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) ^(٨) **وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**
 قيل : الولد الطيب . وقيل انتهاء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة
 على محمد عليه السلام في التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلا وهم يتولونه . وقيل : بقائه
 ضيافته وزيارته فيه . وكل ذلك أعطاه الله وزاده جيل الله عليه وسلم . (**وَأَتَتْهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ**
الصَّالِحِينَ) . « من » بمعنى مع ، أى مع الصالحين ، لأنه كان في الدنيا أيضا مع الصالحين ؛
 وقد تقدم هذا في البقرة ^(٩) .

قوله تعالى : **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ**
مِنَ الْمُفْرِكِينَ ^(١٠)

قال ابن عمر : أمر بتابعه في مناسك الحج كما علم إبراهيم جبريل عليهما السلام . وقال
 الطبري : أمر بتابعه في التبرؤ من الأوثان والثرن بالإسلام . وقيل : أمر بتابعه في جميع
 ملته إلا ما أمر بتركه ، قاله بعض أصحاب الشافعي على ما حكاه الماوردي . والصحيح
 الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع ، لقوله تعالى : **لِكُلِّ جَمَلَةٍ مِّنْكُمْ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا** ^(١١) **أُوحِيَ** .

(١) راجع المسألة الخامسة ج ٢ ص ٨٦ و ج ٣ ص ٢١٣ (٢) ذكر في الأصنام في موضعين ؛
 (ج ٧ ص ٢٨ و ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتغاله فيها ، وإنما تكلم عليه في سورة البقرة ج ٢ ص ١٢٩ فراجع .
 (٣) راجع ج ٢ ص ١٢٤ طيبة ثانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١١ طيبة أول أبو ثمانية

مسألة : في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للقبول - لما تقدم من الأصول -
والعمل به ، ولا تترك على الأفضل في ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء
عليهم السلام ، وقد أمر بالاعتناء بهم فقال : « قَبِّلْتَهُمْ أَقْبَدُ » . وقال هنا : « ثم أوجبت
إِلَيْكَ إِنْ أَتَيْتَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعالى : **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (١)

قوله تعالى : (**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**) أي لم يكن في شرع
إبراهيم ولا من دينه ، بل كان تحملا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود في رفض
الأعمال وترك البطش في المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم
الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون
عيدهم بعد عيدا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛
فقال طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعبته لهم ، وأخيرهم بفضيلته
على غيره ، فظاهره أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : « **دعهم وما اختاروا لأخسهم** » .
وقيل : إن الله تعالى لم يبينه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهدهم
في تمييزه ، فبقيت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى
يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق . فالزم كل منهم ما أداه إليه اجتهداه . وعين الله
لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يكلفهم إلى اجتهدهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خير
الأمم أمة . روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن
الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا
وأوتيتهم من بعدهم فاختفوا فيه فهذه أمة لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي

اِخْتَفَا فِيهِ فَبَلَغَ اللهُ - قال يوم الجمعة - قالوا لنا وغدا لليهود وبعد ضد النصراري .
 فقوله : " فهذا يومهم الذي اختفوا فيه " يقوى قول من قال : إنه لم يمين لهم ، فإنه لو
 مَنَّ لهم وعاندوا لما قيل : اختفوا . . وإنما كان ينبغي أن يقال تغالطوا فيه وعاندوا .
 وبما يقويه أيضا قوله عليه السلام : " أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا " . وهذا نص
 في المعنى . وقد جاء في بعض طرقه " فهذا يومهم الذي فرط الله عليهم اختفوا فيه " .
 وهو حجة لقول الأول . وقد روى : " إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاخفوا فيه
 وعادنا الله له قالنا لا فيه تبع " .

قوله تعالى : (عَلَى الَّذِينَ اخْتَفَوْا فِيهِ) يريد في يوم الجمعة كما بيناه ، اختفوا على نبيهم
 موسى وموسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذر
 الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود .

قوله تعالى : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
 وَجَلِّصْهُمْ بِالنُّبَيِّ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
 وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه مسألة واحدة - هذه الآية نزلت بحكمة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن
 يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطيف ولين دون غاشة وتعنيف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون
 إلى يوم القيامة . فهي بحكمة في جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالتقال في حق
 الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ودعى إغاثته بها دون
 قتال فهي فيه بحكمة . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
 لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأول - أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية؛ ولت في شأن التعليل بمن في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من الملك اتصالاً حسناً؛ لأنها تتلجج الرئي من الذي يدعى ويؤعط، إلى الذي يحادل، إلى الذي يحازي على فعله. ولكن ما روى الجمهور أثبت. وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: لما أنصرف المشركون عن قتل أحد أنصريه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءه، رأى حمزة قد شق بطنه. وأحطلم أنفه، وجذعت أذناه، فقال: "لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى تركته حتى يحسنه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً" ثم دعا يردة وغطى بها وجهه، ففرجت رجلاه فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجله من الإذخر ثم قتمه فكبّر عليه عشراً، ثم جعل يحاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه. حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتل سبعين؛ فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية: «أُدْخِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَأَصِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» فصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يمتثل بأحد. نرجه إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة، وحديث ابن عباس أكل. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامه ألا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يستعدها إلى غيره. وحكا الماوردي عن ابن سيرين ومجاهد.

الثانية - وأختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال ثم آثمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانتة في القدر الذي ظلمه؛ فقالت فرقة: له ذلك؛ منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعي وسفيان ومجاهد؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها. وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك؛ واحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أذا أمانة إلى من أئتمنك ولا تخن من خانك". ورواه الدارقطني وقد تقدم هذا في «البقرة» مستوفى.

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥٥ طبع ثانية.

ووقع في مستدأبن إصحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بأمرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر، فاستشار ذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر فقال له ؟ «آذ الأمانة إلى من آمنتك ولا تخن من خانك» . وعلى هذا يتقوى قول مالك في أمر المال؛ لأن ائليانة لاحقة في ذلك ، وهي رذيلة لا اضكاك عنها ، فينبغي أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مال لم يأتمنه عليه فيشبه أن ذلك جائز وكان الله حكم له ؛ كما لو تمكن الاخذ بالحكم من الحاكم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة ، فسختها « واصبر وما صبرك إلا بالله » .

الثالثة - في هذه الآية دليل على جواز التناول في القصاص؛ فمن قُتل بمجديدة قُتل بها . ومن قُتل ببحر قُتل به ، ولا يتعدى قدر الواجب ، وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » مستوفى^(١) ، والحمد لله .

الرابعة - سمي الله تعالى الإذيات في هذه الآية عقوبة ، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية ، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتناسب دجاجة القول ، وهذا يعكس قوله : «ومكروا ومكر الله» وقوله : «الله يستهزئ بهم» فإن الثاني هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية .

قوله تعالى : **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (١٢٧) **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** (١٢٨)

فيه مسألة واحدة - قال ابن زيد : هي منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أى اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المثلة . (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) أى على قتل أحد فلهم صاروا إلى رحمة الله . (وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ) ضَيْقٌ جمع ضيقة؛ قال الشاعر :

* كَشَفَ الضَّيْقَةَ عَنَّا وَفَسَحَ^(٢) *

(١) راجع - ٢ - ص ٣٥٥ طبة ثانية . (٢) هذا مجزيت لآل عيسى . وصدده كما في القرآن ودوياته .

* قلن ربك من رحمة *

وقراءة الجمهور بفتح الصاد . وقرأ ابن كثير بكسر الصاد، ورويت عن قانع، وهو ظلي
 من رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الصاد لثنتان في المصدر . قال الأخفش :
 الضيق والضيق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال القراء :
 الضيق ما ضاق عنه صدرك، والضيق ما يكون في الذي يتسع ويضيق ؛ مثل الدار والثوب .
 وقال ابن السكيت : هما سواء ؛ يقال : في صدره ضيق وضيق . الضيق : ضيق غفقه
 ضيق ؛ أى لا تمكن في أمر ضيق تخفف ؛ مثل حين وقين . وقال ابن عرفة : يقال ضاق
 الرجل إذا بخل، وأضاق إذا أنقر . وقوله ﴿ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الْإِنْسَانَ الْإِحْسَانُ ﴾
 أى الفواحش والبخار بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدم معنى الإحسان . وقيل
 لمريم بن حبان عند موته : أوصنا ؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ
 إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ إِلَى آخِرِهِ » .

تمت سورة النحل، والمحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل « وَإِنْ كَانُوا لَيْسَ بِتُؤْمِرُوكَ » ^(١) نزلت
 حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض
 الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » ^(٢)
 وقوله تعالى « إِنْ رَبُّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » ^(٣) الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل « إِنْ الْقَبْرَيْنِ
 أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ » ^(٤) الآية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه في بني إسرائيل والكهنة
 [ومريم] : إثنين من العتاق الأول، وهن من ثلاث ؛ يريد من قديم كسبه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُبْحَانَ الَّذِي أَمَرَ رَبِّي بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾
فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (سُبْحَانَ) « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير
تمكن؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل،
ولم ينصرف لأن في آخره زائدتين، تقول : سبحت تسبيحا وسُبْحانا، مثل كَفَرْتَ اليقين تكفيرا
وكفرا. ومعناه التزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح
لغيره؛ فأما قول الشاعر ،

أقول لما جاءني نَحْسُهُ * سبحان من عَقَمَةَ الْفَاحِشِ^(١)

فإنما ذكره عن طريق النادر . وقد روى طلحة بن عبيد الله القباصي أحد العشرة أنه قال
للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله؟ فقال : " تزيه الله من كل سوء " . والعامل
فيه على مذهب سيويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك
مثل قَدِ الْقُرْطُصَاءُ واشْتَمَلَ الصَّاهُ^(٢)، فالتقدير عنده : أَتَزَيَّهُ الله تزيها فوق «سبحان الله» مكان
قولك تزيها .

(١) كذا في جميع الأصول، ويلاحظ أن المسائل ست . . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعقمة بن
علاء البصري في مفاخره لعامر بن القليل، وكان الأعشى قد فضل عامرا وتبرا من عقمة ونظره على عامر (من التنصير) .
(٣) الصاه، ضرب من الاشتال . واشتال الصاه : أن يجال جسدك بشوك نحو شلة الإعراب يا كسبيهم ،
وهو أن يرذ الكساء من قبل يمه على يده اليسرى وعاقه الأيسر ثم يرذ الثانية من خلفه على يده اليمنى وعاقه الأيمن
فيطعها جبا .

الثانية - قوله تعالى : (أَسْرَى وَمَيْدَى) أسرى : فيه لفتان ، وسرى وأسرى :
كفى وأسرى ، كما عظم^(١) . قال :

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ مَادِيَّةٌ • تُرَى النِّهَالُ طِيْهَ جَامِدِ السَّيْرِ^(٢)

وقال آخر

حَقَّ الْبُضِيرَةِ رَبَّةُ الْحَسَدِ • أَسْرَتْ إِلَى وَلَمْ تَكُنْ تَسْرَى^(٣)
جمع بين اللتين في اليتين . والإسراء : سير الليل ، يقال : سَرَيْتُ مَسْرَى وَسُرَى ، وأسريت
إسراء ، قال الشاعر :

وَلَيْلَةُ ذَاتِ قَدَى سَرَيْتُ • وَلَمْ يَلْقَئْنِي مِنْ سُرَاهَا لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أقل الليل ، وسرى سار من آخره ، والأول أعرف .

الثالثة - قوله تعالى : (مَيْدَى) قال العلماء : لو كان النبي صلى الله عليه وسلم اسم
أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية . وفي معناه أشهدوا :

يَا قَوْمِ قُلِيْ عِنْدَ زُهْرَاءِ • يَسْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لَا تَنْعَجِيْ إِلَّا بِمَا عَجَدَا • فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَانِي

وقد تقدم . قال القشيري : لما رفعه الله تعالى إلى حضرة السنية ، وأرقاه فوق الكواكب
العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعا للأمة .

الرابعة - ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة في كل أنظار
الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش : ممن رواه عشرين صحابيا ، وروى الصحيح
من أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آتيت بالبراق وهو دابة أبيص
[طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه » قال - فركبته حتى آتيت
بيت المقدس - قال - فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء - قال - ثم دخلت المسجد

(١) راجع ج ١ ص ١١٧ طبع ثانية أو ثالثة . (٢) الآية الثانية البيان من تسمية النبي صلى الله عليه وسلم

بإدراية بالهيا . (٣) البيت لسلك بن ثابت . (٤) راجع ج ١ ص ١٢٢ طبع ثانية أو ثالثة .

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت بغافى جبريل عليه السلام يرأاه من نحو وإناه من لبن فاحترت
 اللين فقال جبريل اخترت الفطرة - قال - ثم عرج بنا إلى السماء - وذكر الحديث .
 وما ليس في الصحيحين ما ترجمه الآجري والسمرقندي ، قال الآجري عن أبي سعيد الخدري
 في قوله تعالى « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي
 باركنا حوله » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسري به ، قال
 النبي صلى الله عليه وسلم : « آتيت بداية هي أشبه الدواب بالغل له أذنان يضطريان وهو
 البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبل فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء
 من يميني يا محمد علي رسولك حتى أسألك فضيت ولم أعرج عليه ثم سمعت نداء من يساري
 يا محمد علي رسولك فضيت ولم أعرج عليه ثم استقبلني امرأة عليها من كل زينة الدنيا واطعة
 يديها تقول علي رسولك حتى أسألك فضيت ولم أعرج ثم آتيت بيت المقدس الأقصى فقلت
 من البداية فأوثقت في الحلقة التي كانت الأنبياء يوثق بها ثم دخلت المسجد وصليت فيه فقال
 لي جبريل عليه السلام ما سمعت يا محمد فقلت سمعت نداء من يميني يا محمد علي رسولك حتى
 أسألك فضيت ولم أعرج فقال ذلك داعي اليهود ولو وقتت تهودت أمك - قال -
 ثم سمعت نداء من يساري علي رسولك حتى أسألك فضيت ولم أعرج عليه فقال ذلك داعي
 النصارى أما إنك لو وقتت لتنصرت أمك - قال - ثم استقبلني امرأة عليها من كل زينة
 الدنيا واطعة يديها تقول علي رسولك فضيت ولم أعرج فقال تلك الدنيا لو وقتت لاحترت
 الدنيا على الآخرة - قال - ثم آتيت بانامين أحدهما فيه لبن والآخر فيه نحر قليل لي خذ
 فأحرب أحما شئت فأخلفت اللبن فشربته فقال لي جبريل أصبت الفطرة ولو أنك أخذت
 فشربت أمك ثم جله بالمزاج الذي عرج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيت
 لو لم تروا إلى البيت كيف يحمد بصره إليه فخرج بنا حتى آتينا باب السماء الدنيا فاستفتح
 جبريل قبل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال عبد قالوا وقد أرسل إليه ؟

قال نعم فتفتحوا لي وساموا عليّ وإذا ملك يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف - قال - وما يعلم جنود ربك إلا هو ... وذكر الحديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المحب في قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سترته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فلم عليّ ورحب بي - فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال - رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما ... " الحديث . وروى البرز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بفرس فحمل عليه ، كل خطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم في الجحراء إذا نبي أتني فركبني فرجله أتبعني الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وحفها خف حافر وذنبها ذنب ثور وعرفها عرف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفست عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بركة لا تنفري من محمد فوالله ما ركبك ملك مقرب ولا نبي مرسل أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحب أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى ... " الحديث . وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد التيسابوري عن أبي سعيد الخدري قال : لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح الذي وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأبوابها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبح أهلها سبعان من جمع بين الثلج والنار من قلوبهم واحدة مرة واحدة كان له مثل ثوابهم أفتح الباب جبريل عليه السلام ففتح له فإذا هو بكهل لم يرق قط كهل أبجل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريبا من مرتبه قد كاد أن تكون شَمَطَةٌ وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحِبُّ في قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحداث الإسراء خارجة عن الصحيحين ، ذكرها أبو الربيع سنبان ابن سبع بكلامها في كتاب (شفاء الصدور) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في حِلِّين للإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا في تاريخ الإسراء ، وهيئة الصلاة ، وهل كان إسراء بروحه أو جسده ، فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية ، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها ، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقوال العلماء واختلاف الفقهاء بعبور الله تعالى .

فأما المسألة الأولى ... وهي هل كان إسراء بروحه أو جسده ، اختلف في ذلك السلف والخلف ، فذهب طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، ولم يفارق شخصه مضجعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق ، ورؤيا الانبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة ، وحكى عن الحسن وابن إسحاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فإنه كان يكون أبلغ في المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد ، ولقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقدس ووصل فيه ثم أسرى بجسده . وعلى هذا تبدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية . وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، ولا تبدل عن الظاهر والحقيقة إلى التوويل إلا عند الاستحالة ، ولو كان متما لقابل بروح عبده ولم يقل بعبده . وقوله « مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى » يدل على ذلك . ولو كان متما لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما قالت له أم هاني : لا تتحدث بالناس

فَيَكْفُرُ بِهِ، وَلَا تَقُولُ لِبُيُوتِكُمُ بِالْمُصَدِّقِ، وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ قَرِينًا لِلنَّبِيِّ وَالْكَافِرِ، فَهَذَا كَذِبٌ
 قَرِيشٍ فَيَا أَجْرِبَهُ حَتَّى آتَدَّ أَقْوَامَ كَانُوا آمَنُوا، فَلَوْ كَانَتْ بِالرُّؤْيَا لَمْ يَسْتَكِرْ، وَقَدْ قَالَ لَهُ
 الْمَشْرُوكُونَ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا نَجِّبْنَا عَنْ عِيرَةِ ابْنِ لَيْثِيَا؟ قَالَ: «يُمْكِنُ كَمَا وَكَلَا مِهْرَتُ
 طَلِهَا فَفَزِعَ فَلَانَ قَعِيلَ لَهُ: مَا رَأَيْتَ يَافْلَانَ، قَالَ: مَا رَأَيْتَ شَيْئًا! غَيْرَ أَنَّ الْإِبِلَ قَدْ تَقَوَّتْ»
 قَالُوا: فَاجْهَرْنَا مَتَى نَأْتَا الْعِيرَ؟ قَالَ: «نَأْتِيكُمْ يَوْمَ كَمَا وَكَلَا» قَالُوا: «أَيَّةَ سَاعَةٍ؟» قَالَ: «
 مَا أَدْرَى، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ هَاهُنَا أَسْرَعُ أَمْ طُلُوعُ الْعِيرِ مِنْ هَاهُنَا» فَقَالَ رَجُلٌ: «
 خَلَّكَ الْيَوْمَ؟ هَذِهِ الشَّمْسُ قَدْ طَلَعَتْ» وَقَالَ رَجُلٌ: «هَذِهِ عِيرُكُمْ قَدْ طَلَعَتْ، وَاسْتَغْبِرُوا
 النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صِفَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ تَوْصِفُهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ» رَوَى
 الصَّحِيحُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْخَمْرِ
 وَقَرِيشَ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَئِي فَسَأَلَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَمْ أَتَيْهَا فَنُكِزْتُ كَرَامًا مَا كُرِّمْتُ
 مِثْلَهُ قَطُّ» قَالَ — فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَمَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتَهُمْ بِهِ» الْحَدِيثُ .
 وَقَدْ أُعْطِيَ قَوْلُ عَائِشَةَ وَمَعَاوِيَةَ: «إِنَّمَا أُسْرِيَ بِنَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» بِأَنَّهُمَا
 كَانَتَا صَغِيرَتَيْنِ لَمْ تَشَاهِدَا، وَلَا حَدَّثَتَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَمَّا مَعَاوِيَةُ فَكَانَ كَافِرًا
 فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ غَيْرَ مُشَاهِدٍ لِلْحَالِ، وَلَمْ يَحْدَثْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَنْ أَرَادَ الزِّيَادَةَ
 عَلَى مَا ذَكَرْنَا فَلْيَقِفْ عَلَى (كِتَابِ الشِّفَاءِ) لِلْقَاضِي عِيَاضٍ يَحْدِثُ مِنْ ذَلِكَ الشِّفَاءِ. وَقَدْ لَحِظَ
 لَعَنَاشَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» فَمَا هِيَ رُؤْيَا. وَهَذَا
 يَرْدُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «صِبْحَانَ الَّذِي أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ لَيْلًا» وَلَا يُقَالُ فِي الْيَوْمِ أُسْرِيَ. وَأَيْضًا فَقَدْ
 يُقَالُ لِرُؤْيَا الْعَيْنِ: رُؤْيَا، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ. وَفِي نصوص الأخبار النَّابِتَةِ
 دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ بِالْبَدَنِ، وَإِذَا وَرَدَ الْخَبَرُ بِشَيْءٍ هُوَ بِجُوزٍ فِي الْعَقْلِ فِي قَدَرِهِ
 اللَّهُ تَعَالَى فَلَا طَرِيقَ إِلَى الْإِنْكَارِ، لَا سِوَا فِي زَمَنِ حَرْقِ الْمُوَاتِدِ، وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ مَعَارِجٌ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْبَعْضُ بِالرُّؤْيَا، وَعَلَيْهِ يَحْمِلُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَّحِيحِ: «
 يَبْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّامِ وَالْقِطْآنِ» الْحَدِيثُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرُدَّ مِنَ الْإِسْرَاءِ إِلَى نَوْمٍ، وَاقْعُدْ عَلَى:

(١) أَيْ أَمْرُهَا حَتَّى الْمَعْرَةِ؛ يُقَالُ: أَتَيْتُ الشَّيْءَ رَتَابًا إِذَا عَرَفْتَهُ مَرَّةً. (٢) أَيَّةٌ مِنْ هَذِهِ الْقِسْمَةِ

المسألة الثانية - في تاريخ الإسراء ، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضا ، واختلف في ذلك على ابن شهاب ، فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرى به إلى بيت المقدس قبل ترويجه إلى المدينة بسنة . وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت : توفيت خديجة قبل أن تضر الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد بيعت النبي صلى الله عليه وسلم ببسطة أعرام . وروى عنه الواقعي قال : أسرى به بعد بيعته بخمس سنين . (قاله ابن شهاب : وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر ، وفرض الزكاة والنج بالمدينة ، وحرمت الخمر بعد أخذ . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلت خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم . وسبأني . قال أبو عمر : وهذا يدل على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ، لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق يخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدم . وقال الحرثي : أسرى به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علي بن القاسم الذهبي في تاريخه : أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، وعرج به إلى السماء بعد بيعته بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي ، ولم يسنده قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة - وأما فرض الصلاة وهيبتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء ، وذلك منصوص في الصحيح وغيره . وإنما اختلفوا في هيبتها حين فرضت ، فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضرة فأكثرت ، وأثرت صلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق . قال الشعبي : ولا المنسوب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فبهزله يعقبه في أحية

الوادي فأخرجت من ماء فتوحاً جميل وبعد ينظر عليها السلام فوحاً وجميه واستنشق
 وتضمضن ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ووضع فرجه، ثم قام يصلي ركعتين أربع
 سجعات، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب
 من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوحاً كما توحاً جبريل ثم ركب ركعتين
 وأربع سجعات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصلان سواء. وروى عن ابن عباس أنها
 فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جبير والحسين بن أبي الحسن
 البصري، وهو قول ابن جريح، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا
 في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فلم يلبس النبي صلى الله عليه وسلم
 الصلاة وموافقها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت سميون بن مهران
 يقول: كان أول الصلاة مني، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً فصارت ستة،
 وأقيمت الصلاة للسافر وهي تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يحتج بمثله، وقوله «فصارت
 ستة» قول منكرو، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر المصباح قولاً لا معنى له.
 وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والمصباح ولا يعرفون غير ذلك
 عملاً وتقليداً مستفيضاً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة - قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة» والحمد لله. ومضى في «آل عمران»
 أن أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين
 عاماً من حديث أبي ذر، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث
 عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك؛ فتأمل هناك فلا معنى للإعادة. وقد ذكرنا قوله
 صلى الله عليه وسلم: «لَا تُسَدُّ الرِّجَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَى مَسْجِدِي
 هَذَا وَإِلَى مَسْجِدِ إِبْرَاهِيمَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ». ترجمه مالك من حديث أبي هريرة. وفيه ما يدل
 على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد

لا يصل إليه إلا رحمة ورسالة فلا يفعل ، ووصل في مسجده ، إلا في الصلاة للساكنين
للذكورة فإنه من تكرر صلاة فيها تخرج إليها . وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر
ويطأ في شهر ربه : فإنه يتركه الوفاء حيث كان الرابط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد
أبو البختري في هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدم في مقدمة
الكتاب .

الحادية - قوله تعالى : (إلى المسجد الأقصى) . يسمى الأقصى بعد ما بينه وبين
المسجد الحرام ، وكان أحد مسجد من أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ، ثم قال : (الذي
باركنا حوله) قيل : بالثمار ويخارى الأثمار . وقيل : من دق حوله من الأنبياء والصالحين ،
وهذا جعله مقدسا ، وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله
تعالى يا عبادي أنت هم فوق من بلادى وأنا شائق إليك صفوق من عبادى . (لثريه من آياتنا)
هنا من باب تلوين الخطباء ، والآيات التي لآله الله من العجايب التي أخبر بها الناس ، وإسراؤه
من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر ، وعروجه إلى السماء وصفه الأنبياء
أواحدا واحدا ، محسبا ثبت في صحيح مسلم وغيره . (إنه هو السميع البصير) تقدم .

قوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل)

الآن نأخذوا من دوني وكلام

أي كرمنا بها صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة .
(وجعلناه) أي ذلك الكتاب . وقيل موسى . وقيل معنى الكلام : سبحانه الذي أسرى
بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب ، فخرج من النية إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل :
إن معنى سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا ، معناه أسرىنا ، يدل عليه ما بعده من قوله : « لثريه
من آياتنا » يدل . وآتينا موسى الكتاب ، على المعنى . (الآن نأخذوا) قرأ أبو عمرو « نأخذوا »

(أن) صحيح من ٢٠٥٤ حة لحد لرواية .

بالياء . الباقون بالياء . فيكون من باب طوين الخطاب - (ويكلاً) أى شريكاً ، عن مجاهد .
وقيل : كفيلاً بأمورهم ؛ حكمه القراء . وقيل : رباً يتوكلون عليه في أمورهم ؛ قاله الكلبي .
وقال القراء : كافياً ، والتقدير : عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً . وقيل :
التقدير لئلا تتخذوا . والوكيل : من يوكل إليه الأمر .

قوله تعالى : ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٤١﴾

أى يا ذرية من حملنا ، على النداء ؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبي نجيح . والمراد بالذرية
كل من احتج عليه بالقرآن ، وهم جميع من على الأرض ؛ ذكره المهدوي . وقال الماوردي :
يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل ، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحاً
ليذكرهم نعمة الإنجاء من الفرق على آبائهم . وروى سفيان عن حميد عن مجاهد أنه قرأ
« ذُرِّيَّةٌ » بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد
ابن ثابت . وروى عن زيد بن ثابت أيضاً « ذُرِّيَّةٌ » بكسر الذال وشذ الراء . ثم بين أن
نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه ولا يرى الخلق إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا ليس
نوحاً قال : بسم الله ، فإذا نزع قال : الحمد لله . كما روى عنه معمر . وروى معمر عن منصور
بن إبراهيم قال : شكروا إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله .
قال سلمان الفارسي : لأنه كان يحمد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمى نوحاً
عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى ، وإذا شرب
قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ، وإذا أكتس قال : الحمد لله الذى كسانى
ولو شاء لأعرانى ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى خدأنى ولو شاء لأخفأنى ، وإذا قضى
حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسني في . ومقصود الآية : إنكم
من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً فاتم أحق بالاعتناء به دون آبائكم الجهال . وقيل :
المعنى أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(١) كما في نسخ الأصل ، ولم تنزه في المكان .

« ذرية » مفعولاً ثانياً لـ « تتخذوا » ، ويكون قوله : « ويلا » يراد به الجمع يسوع ذلك في القراءتين جميعاً أمضى الياء والتاء في « تتخذوا » . ويموز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « ويلا » لأنه بمعنى الجمع ؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حلتا مع فوح . ويموز نصبها بإضمار أغنى وأمدح ، والعرب قد تنصب على المديح والذم . ويموز وضعها على البدل من المضمري في « تتخذوا » في قراءة من قرأ بالياء ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه التائب . ويموز جرهما على البدل من بني إسرائيل في الوجهين . فاما « أن » من قوله « ألا تتخذوا » فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لتلا تتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضممر كما تقدم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون « لا » للنهي فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ) وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « في الكتاب » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع ؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . ومعنى « قضينا » أعلمنا وأخبرنا ؛ قاله ابن عباس : وقال قتادة : حكنا ؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا ؛ ولذلك قال : « إلى بني إسرائيل » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على ؛ أي قضينا عليهم وحكنا . وقاله ابن عباس أيضاً . والمعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . (لَتُفْسِدُنَّ) وقرأ ابن عباس « لَتُفْسِدُنَّ » . صيغ التثنية . والمعنى في القراءتين قريب ؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . (فِي الْأَرْضِ) يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . (مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ) اللام في « لتفسدن وتعلن » لام قسم مضمرة كما تقدم . (عُلُوًّا كَبِيرًا) أراد التكبر والبني والطنيان والاستطالة والتبعية والعدوان .

قوله تعالى : فَإِنَّا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِهِمَا بِمَا نَعْتَمِدُ عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ
شَدِيدٍ لِّمَا نَسُوا حِظَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ①

قوله تعالى : (فَإِنَّا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِهِمَا) أى أولى المزيين من فسادهم . (بِمَا نَعْتَمِدُ عَلَيْكُمْ)
عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ) هم أهل بابل ، وكان عليهم يُختَصَرُّ في المرة الأولى حين كذبوا
لأربابهم وجرحوه وحسبوه ، قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أهلهم عليهم جالوت قتلهم ،
فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جادهم جند من فارس يقتبسون أخبارهم
ومعهم يختصر فوعى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال ، وهذا
في المرة الأولى ، فكان منهم جوسٌ خلال الديار لا قتل ؛ ذكره القشيري أبو نصر . وذكر
المهلوي عن مجاهد أنه جامع يختصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جامع ثانية قتلهم ودمرهم
تدميرًا . ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق في خبر فيه
طول : ^(١) إن المهزوم سنحاريب ملك بابل ، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف
فارس قتل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب ونحوه نفر من
تُكَّابِه ، وبعت ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة ، أحدهم
بختصر ، فطرح في رقابهم الجسور ^(٢) وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإلياه
ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم ، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل ، ثم مات
سنحاريب بعد سبع سنين ، واستخلف بختصر وعظمت الأحداث في بني إسرائيل ، واستحلوا
المحارم وقتلوا نبيهم شعيا ؛ فجاءهم بختصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل
حتى أنفاهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أول الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم
في المرة الأولى قتل شعيا نبي الله في الشجرة ؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم ^(٣) مرج أسرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء ، المسمى بالمراسم ص ٢٥٩ طبع بلاق وتاريخ الطبري ص ٢٦٨ ثم أنزل ص ٦٣٨

وما يبطط طبع أوربا . (٢) الجسور : الأغلال ، والواحد جاسعة . (٣) مرج الأمر : فسد

وأعطى والقبس المخرج فيه .

وَتَنَافَسُوا عَلَى الْمُلْكِ وَقَتْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَهُمْ لَا يُسْمِعُونَ مِنْ نَبِيٍّ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قُمْ بِقَوْلِكَ
أَوْجِ عَلَى لِسَانِكَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ عَدَّوْا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَهَرَبَ فَأَتَتْهُ لَهُ شَجَرَةٌ فَدَخَلَ
فِيهَا، وَأَدْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهِ فَأَرَاهُمْ إِيَّاهَا، فَوَضَعُوا الْمُنْشَارَ فِي مِصْطَلِهَا فَنَشَرُوهَا
حَتَّى قَطَعُوهَا وَقَطَعُوهُ فِي مِصْطَلِهَا . وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ أَخْبَرَهُ أَنَّ زَكَرِيَّا مَاتَ
مَوْتًا وَلَمْ يَقْتُلْ وَإِنَّمَا الْمَقْتُولُ شَيْئًا . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « ثُمَّ بَشَّنا عَلَيْكُمْ عِبَادًا
لَنَا أَوَّلِي بَاسٍ شَدِيدٍ بِغَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » هُوَ سَحَابٌ مِنْ أَهْلِ يَنْبُوتَ بِالْمَوْصِلِ مَلِكٌ بَابِلَ .
وَهَذَا خِلَافَ مَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ، فَاهُ أَهْلُ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ الْعَالِقَةُ وَكَانُوا كُفَرَاءَ، قَالَهُ الْحَسَنُ .
وَمَعْنَى جَاسُوا : عَاتُوا وَقَتَلُوا ؛ وَكَذَلِكَ جَاسُوا وَهَاسُوا وَدَاسُوا ؛ قَالَهُ ابْنُ عَرَبٍ ، وَهُوَ قَوْلُ
الْقُنَيْيَ . وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « حَاسُوا » بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ . قَالَ أَبُو زَيْدٍ : الْحَوْسُ وَالْحَوْسُ
وَالْحَوْسُ وَالْحَوْسُ : الطَّوْفُ بِاللَّيْلِ . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْحَوْسُ مَصْدَرُ قَوْلِكَ جَاسُوا خِلَالَ
الدِّيَارِ ، أَيْ تَحَلَّلُوا فَطَلَبُوا مَا فِيهَا كَمَا يَحْجِسُ الرَّجُلُ الْأَخْبَارَ أَيْ يَطْلُبُهَا ؛ وَكَذَلِكَ الْاجْتِاسُ .
وَالْجَوْسَانُ (بِالتَّحْرِيكِ) الطَّوْفَانُ بِاللَّيْلِ ؛ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : طَافُوا بَيْنَ
الدِّيَارِ يَطْلُبُونَهَا وَيَقْتُلُونَهَا زَاهِيَيْنَ وَجَائِلِينَ ؛ فَجَمَعَ بَيْنَ قَوْلِ أَهْلِ الْفَنَاءِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَشُوا
وَتَرَدَّدُوا بَيْنَ الدُّورِ وَالْمَسَاكِنِ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : قَتَلْتُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ ؛ وَأَنْشَدَ لِحَسَنِ :
وَمَنْ أَلَدَى لَاقَى بِسَيْفِ عَمْدٍ * بِغَاسٍ بِهِ الْأَعْدَاءُ عَرَضَ الْمَسَاكِرِ

وَقَالَ طَرَبُ ، تَزَلُّوا ؛ قَالَ :

بِغَاسٍ دِيَارَهُمْ مَنُوءَةً * وَأَبْنَاءَ بَسَادَتِهِمْ مَوْقِعَاتٍ

(وَكَانَ وَعَدًا مَقْضًى) أَيْ قَضَاءُ كَانَتْ لَا خُلْفَ فِيهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ①

قوله تعالى : (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ لَكُمْ الْكَوْثَةَ عَلِيمٌ) أى الدولة والرجعة ، وذلك لما يتيم وأطعمه .
ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهم . (وَأَنْدَدْنَاكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) حتى عاد أمركم كما كان . (وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) أى أكثر عددا ورجالا من
عدوكم . والنفير من نزع الرجل من عشيرته ، يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن
يكون النفير جمع نفر كالكلب والمعيز والعبيد ، قال الشاعر :

فَأَكْرَمَ قَحْطَانٌ مِنْ وَالِدٍ • وَخَيْرَ أَكْرَمَ بِقَوْمٍ نَفِيرًا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الواقعة الأولى أكثر أنضاما وأصلح أحوالا ، جزاء من الله تعالى
لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَسْئِرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) أى نفع إحسانكم عائد عليكم . (وَإِنْ أَسَأْتُمْ
فَلَهَا) أى فعلها ؛ نحو سلامك ، أى سلام عليك . قال :
• نغز صريحا للدين وللنعم •

أى على الدين وعلى النعم . وقال الطبرى : اللام بمعنى لى ، يعنى وإن أسأتم فلأياها ، أى فلأياها
ترجع الإساءة ؛ لقوله تعالى : « يَأْتِ رَبَّكَ آتُوهَا » أى إليها . وقيل : فلها الجزاء
والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها رب ينصر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا
(١) حقا مجزيت لبيعة بن مكرم . وصدده :

• وَهَلَتْ بِالرَّحِ الطُّوبَى لِعَابِهِ •

وقيل هذا البيت :

فصرفت راحلة نظيفة نحوه • عدا ليم بعض ما لم يعلم

ووصله •

وسمعت لمر بصدده بياضة • نجلده قاهرة كشدق الأضيح

وله الأيات ثلث من الطبعة . راجع أمال القائل ص ٢٠ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية :

خطابا لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي أسأتم لحل بكم القتل والسبي والتخريب ثم أحسنت
فباد إليكم الملك والمُلو وأنتظام الحال . ويحتمل أنه خطوب بهذا بنو إسرائيل في زمن
عهد صلي الله عليه وسلم؛ أي هزمت استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فأودعوا مثله .
أو يكون خطابا لمشرك قريش على هذا الوجه . (فَإِنَّا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) من إصداكم؛ وذلك
أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتل ملك من بني إسرائيل يقال له
لاخت؛ قاله القتيبي . وقال الطبري : اسمه هرودوس، ذكره في التاريخ؛ حمله على قتله امرأة
اسمها أزيل . وقال السدي : كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشير في الأمر،
فأستشاره الملك أن يتزوج بنت امرأة له فهاه منها وقال : إنها لا تحل لك؛ فخطبت أنها على
يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابتها ثيابا حمرارفاقا وطيبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرايه،
وأمرتها أن تعرض له، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى
برأس يحيى بن زكريا في طست من ذهب؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا
والرأس تنكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحل لك؛ لا تحل لك؛ فلما أصبح إذ منه
يَنبُي، فالتى عليه التراب فتلى فوقه، فلم يزل يلتقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك
يَنبُي؛ ذكره الطبري وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن علي قال : كان
ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وأبنته فوريث ملكة أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة
أخيه، فأستشار يحيى بن زكريا في ذلك، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء،
فقال له : لا تتزوجها فإنها يَنبُي؛ ففرت ذلك المرأة أنه قد ذكرها وصرفه عنها، فقالت :
من أين هذا! حتى بلغها أنه من قبل يحيى، فقالت : ليقتن يحيى أو ليخرجن من ملكه،
فصعدت إلى ابنتها وصمتها، ثم قالت : اذهبي إلى عمك عند الملك فإنه إن أراك سيدعوك
ويعطيك في حجره، ويقول سلني ما شئت، فإنك لن تسألني شيئا. إلا أعطيتك، فإذا قال لك
ذلك فتولي : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رءوس
الملوك لم يمتنع له شيء من ملكه؛ ففعلت ذلك . قال : بفعل يَنبُي للوث من قتله يحيى،

وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه ، فاختار ملكه فقتله . قال : فساخت بآتمها الأرض . قال ابن جُدعان : فحسنت بهذا الحديث ابن المسيب فقال أذا أخبرك كيف كان قتل زكريا ؟ قلت لا ، قال : إن زكريا حيث قُتل ابنه أنطلق هاربا منهم وآتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدبة تكفتم الرياح ، فأطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهُدبة فدعوا بالمنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقع في التاريخ الكبير للطبري فحدثني أبو السائب قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس ، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ ، قال : وكان للملكهم ابنة أخت تجمعه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بعث يحيى ابن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما يعلمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان للملكهم بنت أخت تجمعه ، وكان يريد أن يزوجها ، وكان لها كل يوم حاجة بقضيتها : فلما بلغ ذلك أمها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة فقولي : حاجتي أن تزني يحيى بن زكريا ، فقال : ملني سوى هذا ! قالت : ما أمالك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطست ودعاه فذبحه ، فنذرت فطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تقلى حتى بعث الله عليهم بختنصر فألقى في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفا ، في رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيب : هي دية كل نبي . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنني قتلت يحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وإنني قاتل بآبن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نيا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي على المحراب

عما إلى الشرق، فكانت البشارة والشعر على حاله لم يتغير. وعن قرة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي؛ وجرتها بكاءها. وعن مفيان بن عيينة قال : أوحش ما يكون بن آدم في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دارهم ، وليلة بيت مع الموق فيجاور جيرانا لم ير مثلهم ، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثله ؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » . كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة ؛ قيل : بختنصر ، وقاله القشيري أبو نصر ، لم يذكر غيره . قال السهلي : وهذا لا يصح ؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى ، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل ، وقبل الإسكندر ؛ وبين الإسكندر وعيسى نحو من ثلثمائة سنة ، ولكنه أريد بالمرّة الأخرى حين قتلوا شعبا ، فقد كان بختنصر إذاً حيا ، فهو الذي قتلهم وتخرب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار ؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعبا وفي عهد إرميا . قالوا : ومن عهد إرميا وتخرب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخرب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك^(١) سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانمائة وثمانين سنة ، ثم من بعد ملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاث وستين سنة .

قلت : ذكر جميع الطبرى في التاريخ رحمه الله . قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسماعيل قال : لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى - وبعض

(١) القاصد بفتح الطاء : « كوش » ، ولم يفرق القاصد . (٢) في الطبرى : « ثلثة وثلاثون » .

فلأش يقول : لما قتلوا زكريا - بحث الله إليهم ملكا من ملوك بابل قال له : خردوس .
 فصار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام ، ثم قال الرئيس جنوده : كنت سقت بياض التمر
 فظهرني الله على بيت المقدس لأقتلهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري ، وأمر أن يقتلهم
 حتى يبلغ ذلك منهم ، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء قتلى ، فسلم فقالوا له
 دم قرآن قريزناه فلم يقبل منا منذ ثمانين سنة . قال ما صدقتموني ، فذبح على ذلك الدم
 سبعائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ ، [فأتى بسجادة غلام من غلاتهم فذبحوا على الدم
 فلم يهدأ] ، فأمر بسبعة آلاف من سيوفهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فقال :
 يا بني إسرائيل ، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافع نار من شيء ولا من ذكر إلا قتلت . فلهذا
 وأوا الجهد قالوا : إن هذا دم نبي ما كان ينهانا عن أمور كثيرة من خط الله ففقطه ، فهذا
 دمه ، كان اسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله فطُرد عن ولاهم بمصيبة . فقال : الآن
 صدقتموني ، ونرساجدا ثم قال : لئلا هذا يقتل منكم ، وأمر بفتح الأبواب وقال : أنرجوا
 من كان هاهنا من جيش خردوس ، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبي الله ، يا يحيى بن زكريا
 قد علم ربى وربك ما قد أصاب قومك من أجلك ، فأهدأ بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحدا .
 فهذا دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل ، ورفع عنهم القتل وقال : رب ، إني أمت
 بما آمن به بنو إسرائيل وصدقت به ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس الأنبياء
 إن هذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عتوا الله خردوس أمرني إن أقتل منكم حتى
 تسيل دماؤكم وسط عسكركم ، وإني لا أعصيه ، فأمرهم بغفروا خنقا وأمرهم بمواثم من الإبل
 والخليل والبخال والحجير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر ، وأمر بالقتل التيم
 كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم ، ثم انصرف عنهم إلى بابل . وقد كان
 أن يقتل بني إسرائيل .

(١) في تاريخ الطبري ص ٧٢١ من تصانيفه

(٢) في تاريخ الطبري

قلت : قد ورد في هذا الباب حديث من فروع فيه قول من حديث حذيفة ، وقد كتبناه في (كتاب التذكرة) مقطعا في أبواب في أخبار المهدي ، قد ذكرنا هنا ما معنى الآية وغسروا حتى لا يحتاج معه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله ، لعمرك أن بيت المقدس عند الله عليا جسيم الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هو من أجل البيوت ابتاه الله سليمان بن داود طيعها السلام من ذهب وفضة وقر وياقوت وزهره " : وذلك أن سليمان بن داود لما بناء تختار الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من الممسان ، وأتوه بالجوهر والياقوت والزمرد ، وجر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفة : قلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختصر وهو من الجيوش وكان ملكه سبعمائة سنة ، وهو قوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ جَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَقْضًى » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحملوها على سبعين ألفا ومائة ألف بحملة حتى أودعوا أرض بابل ، فاقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالحزى والمقاب والكمال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل ومهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى الجيوش في أرض بابل ، وأن يستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل ، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي الجيوش واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من بيت المقدس وردة الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم : يا بني إسرائيل إن عدم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسبي والقتل ، وهو قوله : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ مُدَّتْمْ عُدَّتْكُمْ فَلَبِئْسَ بِجَبْتِ بْنِ إِسْرَائِيلَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَادُوا إِلَى الْمَعَاصِي فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » فلبس الروم قيصر ، وهو قوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسَبِّحُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبَعُهَا » فزاهم في البر والبحر نساهم وقتلهم وأخذ أموالهم إزناهم ، وأخذ كل جريح بيت المقدس واحمله على سبعين ألفا ومائة ألف بحملة على أرواحهم

في كعبة القعب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المولى فيرده إلى بيت المقدس ، وهو القعب
مفتحة وعجاجة مضممة يترى بها على ياقا حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يبع الله الأولين
والآخرين ... وفي ذكر الحديث .

قوله تعالى : (فَأَقَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) أى من الموتين ، وجواب « إنا » عذوف ،
تخديره بمشاهم ، على طبعه « بنتا » الأول . (لِيَسْمَعُوا وَجُوهَكُمْ) أى بالنبي واقتل فيظهر
أثر الخوف في وجوهكم ، فـ « ليسوعوا » متعلق بمخوف ، أى بنتا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء
وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ، أى لِيَذْلُومُوا . وقرأ الكسائي « لنسوة » بنون
وضح الممزة ، فلن خبر عن نفسه مطلق ، اعتبارا بقوله « وقبينا » ، وبنتا ورددة ، وبنوه
عن علي . وتصدقها قراءة أبي « لنسوة » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعشى
وابن وثاب وحسرة وابن عامر « ليسوء » بالياء على التوحيد وفتح الممزة ، ولها وجهان ،
أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثاني — ليسوء الوعد وجوهكم . وقرأ الباقون « ليسوعوا »
بالياء وضم الممزة على الجمع ، أى ليسوء العباد الذين هم أولوا بأس شديد وجوهكم .
(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَوَّأُوا) أى ليدمروا ويلكوا . وقال قطرب :
يهدموا ، قال الشاعر :

لما الناس إلا عاملان فامل • يَسْبِرُ مَا بَيْنِي وَأَخْرَافِي

(مَا عَلُوا) أى غلبوا عليه من بلادكم (تَقِيًّا) .

قوله تعالى : عَمِّي رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (١)

قوله تعالى : (عَمِّي رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ) وهذا مما أخبوا به في كلامهم . و« عَمِّي »
وعد من الله أن يكف عنهم . و« عَمِّي » من الله واجبة . (أَنْ يَرْحَمَكُمُ) بعد استقامه
منكم ، وكذلك كان ؛ فكفر عديم وجعل منهم الملوك . (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) لالة نصافة ؛

(١) في الأصول : « عَمِّي » على ياء ، « وعصيت » في المراسل .

فنادوا فبعت الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهم يطعون الجزية بالصغار ، وروى
عن ابن عباس . وهذا خلاف ما تقدم في الحديث وغيره . وقال القشيري : وقد حل
العقاب بنى إسرائيل مرتين على أيدي الكفار ، ومرة على أيدي المسلمين . وهذا حين
طادوا فنادوا الله عليهم . وعلى هذا يصح قول قتادة . (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)
أى نجيبًا ونجيبًا ، من الحصر وهو الحبس . قال الجوهري : يقال حصره يحصره حصرا
ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخل . والحصير : البارية . والحصير : الجنب ،
قال الأصمعي : هو ما بين العرق الذى يظهر في جنب البعير والفرس مقترضا فما فوقه إلى
مقطع الجنب . والحصير : الميت ؛ لأنه محبوب . قال ليذ :

وقايم قلب الرقاب كأنهم • جن لدى باب الحصير قيام

وروى : ومقامة قلب الرقاب • •

على أن يكون « قلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورب قلب الرقاب . وروى عن
أبي عبيدة • • لدى طرف الحصير قيام •

أى عند طرف البساط للتملأ بن المنذر . والحصير : النجس ؛ قال الله تعالى :
« وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » . قال القشيري : ويقال للذى يفتش حصير الحصر
بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا ؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ،
لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا . قال التلمبى : وهو وجه حسن •

قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) وَأَنَّ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)

قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) لما ذكر المراج ذكر ما فنى
الذين لم يزلوا وكان ذلك دلالا على نية محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين أن الكتاب الذى

أنزله الله عليه سبب اعتدائه . ومعنى (لَتَنِي فِي أَقْوَمٍ) أى الطريقة التى هى أسد وأعدل وأصوب ، و «التى» مت لموصوف محذوف ، أى الطريقة إلى هه أقوم . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات ، وهى توحيد الله والإيمان برسله . وقاله الكلبي والقراء .

قوله تعالى : (وَيُشَرِّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ) ^(١) غُذِمَ . (أَنْ لَهُمْ) أى بأن لهم . (أَجْرًا كَثِيرًا) أى الجنة . (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) أى ويشترهم بأن لأعدائهم العقاب . والقرآن معطمة وعد ووعيد . وفرا حسرة والكفائي . «ويشتر» مخففا بفتح الباء وضم الشين ، وقد ذكر ^(٢) .

قوله تعالى : (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِأَشَرِ دُعَاءِهِ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) ^(٣)

قوله تعالى : (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِأَشَرِ دُعَاءِهِ بِالْخَيْرِ) قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الصحر بما لا يحب أن يستجاب له : اللَّهُمَّ أَهْلِكَ ، ونحوه . (دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) أى كدعائه ربه أن يهب له العافية ، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشرك لكى يفضله لا يستجيب له في ذلك . نظيره : «وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَسْرَأَسْرَابَهُمْ بِالْخَيْرِ» وقد تقدم . وقيل : رلت في الصرير الحارث ، كان يدعو ويقول : «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بغضب أليم» . وقيل : هو أن يدعو في طلب المخطور كما يدعو في طلب المباح ، قال الشاعر وهو ابن حاتم :

أطوف بالبيت بمن بطوف • وأرفع من مقرى المسيل
وانجند بالليل حتى الصباح • واتلوا من المحكم المستل
على فارح المم عن يوسف • يسحر لى ربه الممئل

(١) راجع ١٥ ص ٢٣٨ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ٤ ص ٧٥ طبة أولى أو ثالثة .

(٣) راجع ٨ ص ٣١٤ . (٤) راجع ٧ ص ٢٩٨ راجع ٨ ص ٣١٥ طبة أولى أو ثالثة .

قال الجوهري: يقال ماعل فلان يحل مثال مجلس أى مستعد. والمحمل أيضا: واحد يحمل
الحاج. والمحمل مثال الميزل: علاقة السيف. وحذفت الواو من «ودع الإنسان» في اللفظ
والخط ولم تحذف في المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة؛ كقوله تعالى:
«سَدَّعُ الرَّابِّيَّةَ» ^(١) «وَيَمِشُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ» ^(٢) «وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ» ^(٣) «بَيْنَادِ الْمُنَادِ» ^(٤) «وَلَمَّا تَتُنَزَّلُ
النُّجُومُ» ^(٥) «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا» ^(٦) أى طبعه العجلة، فيجمل السؤال الشر كما يجمل بسؤال
الخير. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركب فيه الروح على الكلال،
قال سلمان: أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده، فلما كان
يحدث العصر بحيث رجلاه لم يتفخ فيهما الروح فقال: يا رب عجل قبل الليل، فذلك قوله:
«وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا». وقال ابن عباس: لما انتهت الضغنة إلى سرته نظر إلى جسده
فذهب لينهض فلم يقدر؛ فذلك قوله: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا». وقال ابن مسعود:
لما دخل الروح في عيذه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل
أن تبلغ الروح وجليه فجعل يركب إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: «خلق الإنسان من عجل»
ذكره البيهقي. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو
فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يملك» ^(٧) وقد تقدم. وقيل: سلم عليه السلام أسيرا
إلى سودة فأتت من فسأله فقال: أنتى لشفة الله والأسر؛ فأرخت من كانه فلما قامت
حرب؛ فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «قطع الله يديك» فلما أصبحت كانت
تتوقع الآفة؛ فقال عليه السلام: «إني سألت الله تعالى أن يعمل دعائي على من لا يستحق
من أهل رحمة إلا أني بشر أغضب كما يغضب البشر» وزلت الآية؛ ذكره القشيري أبو نصر
وجه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) سورة البقرة ٢٤٥ (٢) سورة البقرة ٢٤٦ (٣) سورة البقرة ٢٤٧ (٤) سورة البقرة ٢٤٨ (٥) سورة البقرة ٢٤٩

(٦) سورة البقرة ٢٥٠ (٧) سورة البقرة ٢٥١ (٨) سورة البقرة ٢٥٢ (٩) سورة البقرة ٢٥٣ (١٠) سورة البقرة ٢٥٤

«اللَّهُمَّ إِنَّا عَمِدُ بَرٍّ يَضْبُ كَمَا يَضْبُ الْبَشَرُ وَإِنِّي قَدْ أَخَفْتُ عَنْكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِي فَأَيُّا مُؤْمِنٍ أَكَيْتَ أَوْ سَيِّئَةٍ أَوْ جَلَدْتَهُ أَوْ جَاطَلَهَا كَفَارَةً وَفَرِيَةً تَحْزِيَةً بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .
 وفي الباب عن عائشة وجابر . وقيل : معنى «وكان الإنسان عموماً» أي يؤثر العاجل وإن قل ، على الآجل وإن جَلَّ .

قوله تعالى : «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةً أَلَيْلٍ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مَبْصُرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلاً ۝١٧»

قوله تعالى : («وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ») أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكأل علمنا وقدرتنا . والآية فيهما : إقبال كل واحد منهما من حيث لا يعلم ، وإدباره إلى حيث لا يعلم . وقصصان أحدهما زيادة الآخر وبالعكس آية أيضا . وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هذا . («فَمَحْوَنًا آيَةً أَلَيْلٍ ») ولم يقل : «محونا الليل » ، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لما لهما . و «محوونا » معناه طمسنا . وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور ، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعل الله الشمس سبعين جزاء والقمر سبعين جزاء ، فمما من نور القمر نسمة وستين جزاء يجعله مع نور الشمس ، فالشمس على «بائة» [وتسع] وثلاثين جزاء والقمر على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقتها إلى مغاربها ، وجعل القمر دون الشمس ، فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبنى نوره ، فالسواد القدر ترويه في القمر أثر المحو ، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار . ذكر

فيه الأول التعليل والثنائي للمهدي؛ وسباني مرفوعا . وقال علي رضي الله عنه وقادة :
يريد بالمر الطخنة السوداء التي في القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز
به الليل من النهار . (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) أي جعلنا شمس مضيئة لأبصار . قال
أبو عمرو بن العلاء : أي يُبصر بها . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا
أضاء ، وصار بجالة يُبصرها . وقيل : هو كقولهم خيبت بحيث إذا كان أصحابه خيباء .
ورجل مضيف إذا كانت دوابه ضاعفا ، فكذلك النهار مُبصر إذا كانت أهله بصراء .
(لَتَبْتَغُوا قَتْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) يريد التصرف في المأش . ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء
بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا » . (وَلَتَعْلَمُوا أَنَّ السَّيْنَ وَالْحِسَابَ) أي لو لم يفعل ذلك لما حُرِفَ الليل من النهار ،
ولا كان يُعرف الحساب والعدد . (وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلًا) أي من أحكام التكليف ؛
وهو كقوله : « نَبَأًا لِكُلِّ شَيْءٍ » « مَا قَرُئْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . وعن ابن عباس أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما أكرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمساً من
نور عرشه ولما قارنا جميعاً شمسين فاما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمساً تخلفها مثل
الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كانت في علم الله أن يخلفها قرا تخلفها دون الشمس
في العظم ولكن إنسا يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدهما من الأرض فلوترك الله
الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجبر يدرى إلى متى يصل ولا
الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تمتد ولا تُدري أوقات الصلوات والجم ولا تحمل الدينون
ولا حين يبدون ويذرعون ولا متى يسكون الراحة لأبائهم وكان الله نظر إلى عياده وهو
أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ
شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين » الآية .

(١) سورة النحل ١٢١

(١) راجع ٨ ص ٢٦٠ في تبارك القرآن

(٢) الآية ٢٨ سورة الأنعام راجع ١٦ ص ٥٥

قوله تعالى : وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ﴿١٧﴾ أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ) قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن
الزوم كلزوم القِلادة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قدر عليه من خير وشر ،
وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به .
وقال مجاهد : عمله وورقه ، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شئ
أو سعيد . وقال الحسن : « أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ » أي شقارته وسعادته وما كتب له من خير وشر
وما طار له من التقدير ، أي صار له عند القسمة في الأزل . وقيل : أراد به التكليف
أي قدرته إلزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به ويقدر عما زجره إسمه
ذلك . (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا) بنى كتاب طائره الذي في عنقه . وقرا
الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طبره » بنير ألف ؛ ومنه ما روى في الخبر « اللَّهُمَّ لَا تُخَيِّرْ
إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرُكَ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا رَبَّ غَيْرُكَ » . وقرا ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محبان
وأبو جعفر ويعقوب « وَيُخْرِجُ » بفتح الياء وضم الراء ، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ؛
ف« كتابا » منصوب على الحال . ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرا
يحيى بن قزّاب « وَيُخْرِجُ » بضم الياء وكسر الراء ، وروى عن مجاهد ، أي يخرج الله . وقرا شعبة
ومحمد بن السميع ، وروى أيضا عن أبي جعفر : « وَيُخْرِجُ » بضم الياء وفتح الراء على الفعل
المجهول ، ومعناه : ويخرج له الطائر كتابا . الباقون « ويخرج » بنون مضبومة وكسر الراء ؛
أي ونحن نخرج . احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله « أَلْزَمَتْهُ » . وقرا أبو جعفر والحسن
وابن عامر « يَلْقَاهُ » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ، بمعنى يؤتاه . الباقون بفتح الياء
خفيفة ، أي يراه منشورا . وقال « منشورا » تجيلا للشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة . وقال

أبو السوار العدوي وقرأ هذه الآية : وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، قال : هما شتران وطية ، أما ما حيت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأنت فيها ما شئت ، فإذا مت طويت حتى إذا بُعثت نُشرت . (اِقْرَأْ كِتَابَكَ) قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي . (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا) أي عاسبا . وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسألك قلبه ، ويريق مباده ، وأعضائك قرطاسه ، أنت كنت المُنْبِلُ على حَفَظِكَ ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومنى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ) أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره ، فمن اهتدى ثواب اهتدائه له ، ومن ضل فعقاب كفره عليه . (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) تقدم في الأنعام . وقال ابن عباس : نزلت في الوليد ابن المغيرة ، قال لأهل مكة : اتبعون وأكفروا بمحمد وعن أوزاركم ، فزلت هذه الآية ؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه . يغال : وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا وَوَزْرَةً ، أي إثم . والوزر : الثقل المتعبل والجمع أوزار ، ومنه : يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ . أي تحمل ذنوبهم . وقد وَزَرَ إذا حمل فهو وازر ، ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثقل دولته . والمساء في قوله كناية عن النفس ، أي لا تؤخذ نفس آتمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تلقي ولدها يوم القيامة فتقول : يا بني ! ألم يكن حجري لك وطاء ، ألم يكن ثديي لك سقاء ، ألم يكن بطني لك وطاء ، ! فيقول : بلى يا آتمة ! فتقول : يا بني ! فإن ذنوبي أثقلتني فأحمل عني منها ذنبا واحدا ! فيقول : إليك عني يا آتمة ! فإني بذني عنك اليوم مشغول .

مسألة — رُزعت عائشة رضى الله عنها بهذه الآية في الرد على ابن عمر حيث قال : إن الميث لم يعذب ببيكاه أهله . قال علماءنا : وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعها ، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها ، فإن الرواة لهذا المعنى كثير ، كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقيلة بنت خزيمة ، وهم جازمون بالرواية ، فلا وجه لتخطئهم . ولا معارضة بين الآية والحديث ؟ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصية الميث ومسته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طرفة :

إذا ميت فاعتنى بما أنا أهله • وشق على الجيب يافت متعب

وقال ،

إلى الحول ثم أقم السلام عليك • ومن يترك حولا كمالا فقد أعذر

وإلى هذا نحا البخارى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث ، وأنه إنما يعذب بنوحهم ؛ لأنه أهل نهيهم عنه قبل موته وتاديبهم بذلك ، فيعذب بتفريطه في ذلك ؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا » لا بذنب غيره ، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أى لم تترك الخلق سدى ، بل أرسلنا الرسل . وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تنبت إلا بالشرع ، خلافا للمثلة القائلين بأن العقل يقيع ويحسن ويبيع ويحظر . وقد تقدم في البقرة القول فيه . والجمهور على أن هذا في حكم لدنيا ؛ أى أن إبليس لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإيمان . وقالت فرقة : هذا عام في الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى : « كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجًا مَّالَهُمْ فَعَزَّوْهُم بِأَتَمِّكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا لَوْلَا قَدْ جَاءَنَا » . قال ابن عطية : والذي يعطيه النظر أن بعث آدم عليه السلام بالتوحيد وبث المعتقدات في بيته مع نصب الأنطة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد

(١) آية ٦ سورة الحجر . (٢) راجع ١ ص ٢٥١ طبع ثانية ١٤٢٥ . (٣) آية هـ سورة المائدة

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يظن احتمال إلحاقها نحو هذا في الذين لم تعلمهم رسالة ، وهم أهل القترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال لحديث لم يصح ، ولا يقتضي ما تطلبه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدوي : وروى عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأعمى ، فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا ، وتلا الآية ؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة ، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف ، وسيأتي مرفوعا في آخر سورة طه إن شاء الله تعالى ؛ ولا يصح . وقد استدلل قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى ؛ وهذا صحيح ، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

فيه ثلاث مسائل ،

الأولى - أخبر الله تعالى في الآية التي قبل أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل ، لأنه لا يقع منه ذلك إن فعل ، ولكنه وعد منه ، ولا خلف في وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها لحق عليها القول بالهدم . يهلك أن من هلك هلك بإرادته ، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانية - قوله تعالى : (أَمَرْنَا) قرأ أبو عثمان النهدي وأبو ربيعة وأبو العالية ، والربع وجماعة والحسن « أَمَرْنَا » بالشديد ، وهي قراءة على رضى الله عنه ، أى سلطنا شرارها ففصموا فيها ، فإذا قتلوا ذلك أهلكتهم . وقال أبو عثمان النهدي « أَمَرْنَا » بتقديد الميم ، جعلناهم

أمره مسلطين؛ وقاله ابن عزيز . وأمر عليهم تسقط عليهم . وقرأ الحسن أيضا وقادة
 وأبو حيوة الشامي ويعقوب وخارجة عن قانع وحماد بن مسلمة عن ابن كثير وعلي وابن عباس
 باختلاف عنهما «أمرنا» بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبارتها وأمرامها؛ قاله الكسائي .
 وقال أبو عبيدة : أمرته بالمد وأمرته ، لتنان بمعنى كثرة؛ ومنه الحديث «خير المال مهور^(١)
 مأثورة أو مسكة مأثورة» أي كثيرة التناج والنسل . وكذلك قال ابن عزيز : أمرنا وأمرنا
 بمعنى واحد ؛ أي أكثرنا . وعن الحسن أيضا ويحيى بن عمار «أمرنا» بالقصر وكسر الميم
 على فلتنا ، ورويت عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا ؛ وحكى نحوه أبو زيد
 وأبو عبيد ، وأتركه الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد؛ قال وأصلها «أمرنا»
 تخفف ، حكاه المهدوي . وفي الصحاح : وقال أبو الحسن أمر ماله (بالكسر) أي كثر .
 وأمر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر :

• أمرون لا يرثون سيم القصد •

وأمر الله ماله (بالمد) . التلميذ : ويقال للشيء الكثير أمر ، والفعل منه : أمر القوم يأمرن
 أمرا إذا كثروا . قال ابن مسعود : كما تقول في الجاهلية للشيء إذا كثروا : أمر أمر
 بن فلان ؛ قال لبيد :

كَلَّ بَنِي حُرَّةٍ مَصِيرُهُمْ • قُلْ وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنَ الْمَدَدِ
 إِنْ يَنْبُطُوا يَنْبُطُوا وَإِنْ أَمُرُوا • يَوْمًا يَصِيرُوا لِلْهَلَكِ وَالْكَدِّ^(٢)

(١) السكة : الطريقة المصطفة من التل . والمأثورة : المقتة ؛ يقال : أثرت التلعة وأثرتها ؛ فهي مأثورة
 ومؤثرة . وقيل : السكة سكة الحرب ، والمأثورة المصلحة له . أراد : خير المال تاج وزرع . (ابن الأثير) .
 (٢) هذا مجزئ لا عشى ومدوه ،

• لم يفرغ ولا دون كل مبارك •

الطرف والطريف : الكثير الآاء إلى الجدة الأكبر . والقيل الآاء إلى الجدة الأكبر . (٢) يقول :
 إن يَنْبُطُوا يَوْمًا فَانْهَمِ يَمُوتُونَ . ز «يَنْبُطُوا» ههنا يموتوا . ويرى : «إِنْ يَنْبُطُوا يَنْبُطُوا» يموتوا يموتوا
 كأنهم يموتون من غير مرض . (راجع الهيران) .

قلت : وفي حديث هرقل الحديث الصحيح : « لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، أنه ليظنه ملك بنى الأصفر » أى كثر . وكله غير متعد وذلك أنكره الكسائى ، والله أعلم . قال المهدي : ومن قرأ « أمر » فهى لغة ، ووجه تعدية « أمر » أنه شبه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شئ إلى العمار ، فعذى كما عذى عمر . الباقر « أمرنا » من الأمر ؛ أى أمرناهم بالطاعة وإنذارا ونحوها . (ففسقوا) أى تفرجوا عن الطاعة عاصين لنا . (فحق عليها القول) فوجب عليها الوعيد ؛ عن ابن عباس . وقيل : « أمرنا » حملناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمر غير مأمور ، أى غير مؤمر . وقيل : معناه بشنا مستكبريا . قال هارون : وهى قراءة أبى . بشنا أكابر مجرميها ففسقوا ذكره المازودى . وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أبى . « وإذا أردنا أن نهلك قرية بشنا فيها أكابر مجرميها فكروا فيها فحق عليها القول » . ويجوز أن يكون « أمرنا » بمعنى أكثرنا ؛ ومنه « خير المال مهوراً مأمورة » على ما تقدم . وقال قوم : مأمورة اتباع لما بورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : « أريحمن مأمورات غير مأجورات » . وعلى هذا لا يقال : أمرهم الله ، بمعنى كثرتهم ؛ بل يقال : أمرهم وأمرهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا « أمرنا » لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمنترف : المنهم ؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثة - قوله تعالى : (قد مرنا) أى أسأصلناها بالهلاك . (تديراً) ذكر المصدر للبالغة فى العذاب الواقع بهم . وفى الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فزعا ثمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هدم » وعلق بأصبعه الإبهام والى ثلجها . قالت : قلت يا رسول الله ، أنهلك وفيت

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون النبى صلى الله عليه وسلم « ابن أبي كبشة » فهو أبى كبشة ، وجعل من خرافة خالف قرشنا فى عبادة الأوثان . أو هى كنية وجب بن عبد مناف جدّه صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ؛ لأنه كان تبع إلى فى الشبه . أو كنية زوج طلبة المدية . (٢) كفا فى الأمثلة .

الخالكون ؟ قال : « نعم إذا كثرت الخيول » . وقد تقدم الكلام في هذا الباب ، وأن الملقى إذا ظهرت ولم تتغير كانت سببا لهلاك الجبل ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَكَرَّ أَهْلَكَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَكَرَّ أَهْلَكَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) أي كم من قوم كفروا حل بهم البوار . يخوف كفار مكة ، وقد تقدم القول في القرن في أول سورة الأنعام ، والحمد لله . (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) « خيرا » عليا بهم . « بصيرا » بصيرا أعمالهم ، وقد تقدم .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِنَمُنُّهُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ) يعني الدنيا ، والمراد النار العاجلة ، فعبّر بالنعت عن المنعوت . (عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِنَمُنُّهُ) أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم قاضاه بحمله ، وطافه دخول النار . (مَذْمُومًا مَدْحُورًا) أي مطرودا مبعدا من رحمة الله . وهذه صفة المنافقين الفاسقين ، والمرائين المنافين ، يلبسون الإسلام والطاعة ليلالوا عاجل الدنيا من النعيم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يطعون في الدنيا إلا ما قسم لهم . وقد تقدم في « هود » أن هذه الآية تنفي تلك الآيات المطلقة ، لقائله . (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) أي النار الآخرة . (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيًا) أي عمل لها عملها من الطاعات . (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . (فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) أي مقبولا غير

(١) راجع ج ٧ ص ٢٩١ طبة أول أو ثانية ، (٢) راجع ج ٦ ص ٢٩١ طبة أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ٢ ص ٢٥ طبة ثانية .

مرود . وقيل : مضاعفاً أى مضاعف لم الحسنات إلى عشر ، وإلى سبعين وإلى مائة ضعف ، وإلى أضعاف كثيرة ، كما روى عن أبي هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " ؟ فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة " .

قوله تعالى : **كَلَّا تُمَدِّدُونَ هُنُلَاءَ وَهُنُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** (١٦) **أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا** (١٧) **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَثُومًا مَحْدُولًا** (١٨)

قوله تعالى : **(كَلَّا تُمَدِّدُونَ هُنُلَاءَ وَهُنُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ)** أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . **(وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)** أى محبوباً مسموعاً ، من حظر يحظر حظراً وحظراً . ثم قال تعالى : **(أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ)** ، فن يُقَالُ ومكث . **(وَلَآ آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)** أى للؤمنين ، فالكافر وإن وسع عليه في الدنيا مرة ، وقدر على المؤمن مرة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ، فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها . وقوله **(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)** الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللرسل أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . **(فَتَقْعُدَ)** أى تنق . **(مَثُومًا مَحْدُولًا)** لا تأمر لك ولا تأمر .

قوله تعالى : **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنُوا إِنَّمَا يَلْفَنُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ لِحُدُومِهَا أَوْ كَلَامُهَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَقهرهما وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** (١٩) **وَاخْضَعْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** (٢٠)

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى - (قضى) أى أمر وأمر وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . وفي مصحف ابن مسعود « ووصى » وهى قراءة أصحابه . وقراءة ابن عباس أيضا وعلى وغيرهما ، وكذلك عند أبي بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وقضى ربك » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم « وصى بقضى » حين اختلطت الواو بالصاد وقت كُتِبَ المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك . وقال عن ميمون بن مهران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا ؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك . وقال : لو قلنا هذا لطمن الزنادقة فى مصحفنا ، ثم قال علمائنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل فى اللغة على وجوه : والقضاء بمعنى الأمر ؛ كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق ؛ كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَنَاتٍ ^(١) فِي يَوْمَيْنِ » يعنى خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم ؛ كقوله تعالى : « فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ^(٢) » يعنى احكم ما أنت تحكم ؛ والقضاء بمعنى الفراغ ؛ كقوله : « قَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ^(٣) » أى فرغ منه ؛ ومنه قوله تعالى « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ^(٤) » . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ^(٥) » . والقضاء بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعالى : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(٦) » . والقضاء بمعنى العهد ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ بِخَانٍ لِلْعَرْبِ إِذْ عَاهَدْتُمَا إِلَىٰ مَوْصًى الْأَمْرِ ^(٧) » .

فإذا كان القضاء يحمل هذه المعانى فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله ؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بها .

- | | | |
|----------------------------|---------------------------|--------------------------|
| (١) آية ١٤ سورة الشورى . | (٢) آية ١٤ سورة نعلت . | (٣) آية ١٢ سورة طه . |
| (٤) آية ٤١ سورة يوسف . | (٥) آية ٢٠٠ سورة البقرة . | (٦) آية ١٠ سورة البقرة . |
| (٧) آية ٤٧ سورة آل عمران . | (٨) آية ٤٤ سورة القصص . | |

فأنه لا يأمر بالفضيلة . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً . فقال : إنك قد عصيت ربك وبانت منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك علي ! فقال الحسن وكان قصيصاً : ما قضى الله ذلك ! أي ما أمر الله به ، وقرأ هذه الآية : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » .

الثانية - أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده ، وجعل برّ الوالدين مقروناً بذلك ، كما قرّن شكرهما بشكره فقال : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . وقال : « أِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِرَبِّكَ إِلَهًا لِّمَصِيرٍ » . وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قال : ثم أي ؟ قال : « ثم برّ الوالدين » قال ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام . وربّ ذلك به « نعم » التي تعطي الترتيب والمهلة .

الثالثة - من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسيئتهما ولا يفتنهما ؛ فإن ذلك من الكبرياء بلا خلاف ، وبذلك وردت السنة الثابتة ؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الكبرياء شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « نعم » . يسب الرجل أباه فيسب إياه ويسب أمه فيسب أمه » .

الرابعة - حقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائرة لما ؛ كما أن برّهما مواظبتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمر أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ، وإن لم يكن ذلك الأمر معصية ، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله ، وكذلك إذا كان من قبيل المنسوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح بصيـره في حق الولد مندوباً إليه وأمرهما بالمنسوب يزيد تأكيداً في نهيته .

الخامسة - روى الترمذى عن ابن عمر قال : كانت تحتى امرأة أحميا ، وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها فأبیت ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عبد الله ابن عمر طلقى امرأتك » . قال هذا حديث حسن صحيح .

السادسة - روى الصحيح عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ صَاحِبِي؟ قال : « أُمُّكَ » قال : ثم مَنْ؟ قال : « ثُمَّ أُمُّكَ » قال : ثم مَنْ؟ قال : « ثُمَّ أُمُّكَ » قال : ثم مَنْ؟ قال : « ثُمَّ أُمُّكَ » . فهذا الحديث يدل على أن حبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال حبة الأب ؛ لذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرأفة فقط . وإذا توصل هذا المعنى شهد له اليان . وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . ورؤى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبى في بلد السودان ، وقد كتب إلى أن أقدم عليه ، وأتى بمنعنى من ذلك ، فقال له : أطع أباك ، ولا تمس أمك . فدل قول مالك هذا أن رهما متساو عنده . وقد سئل النبي عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم ؛ وزعم أن لها ثلث البر . وحديث أبى هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر ، وهو الحق على من خالف . وقد زعم المحاسبي في (كتاب الرأفة) أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللاب الربع ؛ على مقتضى حديث أبى هريرة رضي الله عنه . والله أعلم .

السابعة - لا يخص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين برهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد ؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ » . وفي صحيح البخارى عن أسماء قالت : قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمَتَّعَهُمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ آبَائِهِ ، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ : « نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ » .

(١) هذا في الأصول . (٢) آية ٨ سورة النحۃ . (٣) غرما راغبة ؛ فهي طائفة في معنى وصلى ، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتني ربيعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فالتفت إلي
صلى الله عليه وسلم وأصلها ؟ قال : " نعم " . قال ابن عيينة : فارتد الله عز وجل فيها :
« لَا يَنْبَأُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأقل معلق والثاني مسند .

الثامنة - من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يحاهد إلا بإذنها .
روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه
في الجهاد فقال : " أحمي والذاك " ؟ قال نعم . قال : " فسيهما فجاهد " . لفظ مسلم . في غير
الصحيح قال : نعم ، وتركتهما يبيكان . قال : " اذهب فاصحهما كما أبكيتهما " . وفي خبر
آخر أنه قال : " نولك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلعبانك أفضل لك من الجهاد
معي " . ذكره ابن خزيمة . ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين : أخبرنا أبو نعم أخبرنا
سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله
عليه وسلم يسأله على الهجرة ، وترك أبويه يبيكان فقال : " ارجع إليهما فاصحهما كما أبكيتهما " .
قال ابن المنذر : في هذا الحديث النهي عن الخروج غير إذن الأبوين مالم يقع التغير ، فإذا
وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بين في حديث أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعث جيش الأمراء ... ، فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رواحة وأن
نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بجد ذلك : أن الصلاة جامعة ، فأجتمع الناس
فحمد الله وأتى عليه ثم قال : " أيها الناس ، أخرجوا فأميدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج
الناس مشاة وركبانا في حر شديد . فدل قوله : " أخرجوا فأميدوا إخوانكم " أن العذر
في التخلف عن الجهاد إنما هو مالم يقع التغير ، مع قوله عليه السلام : " فإذا استغترم فأقبروا " .
قلت : وفي هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدم الأهم
منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسني في كتاب الرعية .

التاسعة - واختلقوا في الوالدين للمشركين هل يخرج بإذنها إذا كان الجهاد من
فروض الكفاية ، فكان التورى يقول : لا يترز إلا بإذنها . وقال الشافعي : له أن يترز

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم ، ولا اعلم دلالة توجب ذلك لنعيم من الإخوة وسائر القربان . وكان طاووس يرى السي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله من أجل .

الساخرة - من تمام برهما صلة أهل ودّهما ؛ ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن من أبر البر صلة الرجل بأهل ودّ أبيه بعد أن يوفى" . وروى أبو أسيد وكان بديراً قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالساً بقاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بروالدي من بعد موتها شيء أبرهما به ؟ قال : "نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإفاد عهديما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذى بقى عليك" . وكان صلى الله عليه وسلم يهدى لصداق خديجة برأبها ووفاء لما وهى زوجته ، فما ظنك بالوالدين .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (إِمَّا يَلْتَمِسْ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) خصّ حالة الكبر لأبنا الحالة التي يحتاجان فيها إلى برّه لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر ، فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما أزمه من قبل ، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلّاً عليه ، فيحتاجان أن يلبى منهما في الكبر ما كان يحتاج في صفره أن يلبى منه ؛ فذلك خصّ هذه الحالة بالذكور . وأيضاً فطول المكث لله يوجب الاستغفار لله عادة ويحصل للملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبنويه ويتخفف لما أوداجه ، ويستطيل عليهما بدالة البؤة وقلة الديانة ، وأقلّ المكروه ما يظهره بنفسه المتردد من الضجر . وقد أمر أن يهابلها بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم عن كل عيب فقال : " فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُبْهِرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا " . وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رِغِمَ اللهُ وَرِغِمَ اللهُ رِغْمًا " . قيل : من يارسل الله ؟ قال : " من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم ينسل الجنة " . وقال البخارى في كتاب بر الوالدين : حدثنا مسدد حدثنا بشر بن الفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد اللخيري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قاله

وَرِغِمَ أَتَفَ رَجُلٌ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَى . وَرِغِمَ أَتَفَ رَجُلٌ أَدْرَكَ أَبُوهُ عِنْدَ الْكَبِيرِ
 أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ . وَرِغِمَ أَتَفَ رَجُلٌ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانٌ ثُمَّ أَسْلَخَ قَبْلَ أَنْ
 يُغْفَرَهُ . حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِلَالٍ عَنْ
 سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ عَجْرَةَ السَّامِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنْ كَسَبَ بِنَجْوَةٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَحْضَرُوا الْمَبْرَ " فَلَمَّا نَزَجَ رَقِيٌّ [إِلَى]
 الْمَبْرَ ، فَرَّقَ فِي أَوَّلِ دَرَجَةٍ مَنَ قَالَ آمِينَ ثُمَّ رَقِيٌّ فِي الثَّانِيَةِ فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ لَمَّا رَقِيٌّ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ
 آمِينَ ، فَلَمَّا فَرَّغَ وَتَزَلَّ مِنَ الْمَبْرَ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ
 مِنْكَ ؟ قَالَ : " وَمَعْتَمُوه " ؟ قُلْنَا نَعَمْ . قَالَ : " إِنْ جَبُرِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَرَضَ قَالَ :
 هَسَدٌ مِنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ قُلْتُ آمِينَ فَلَمَّا رَقِيْتُ فِي الثَّانِيَةِ قَالَ هَسَدٌ مِنْ ذُكِرَتْ
 عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ قُلْتُ آمِينَ فَلَمَّا رَقِيْتُ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ هَسَدٌ مِنْ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ
 أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ قُلْتُ آمِينَ " . حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَةُ بْنُ وَرْدَانَ سَمِعْتُ
 أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : ارْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَبْرَ دَرَجَةً فَقَالَ آمِينَ
 ثُمَّ ارْتَقَى دَرَجَةً فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ آمِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى وَجَلَسَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ :
 يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلَامَ أَتَمْتُمْ ؟ قَالَ : " أَتَانِي جَبُرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ وَرِغِمَ أَتَفَ مِنْ ذُكِرَتْ
 عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ قُلْتُ آمِينَ وَرِغِمَ أَتَفَ مِنْ أَدْرَكَ أَبُوهُ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ
 قُلْتُ آمِينَ " الْحَسْبُ . فَالسَّعِيدُ الَّذِي يَأْذُرُ اغْتِنَامَ فُرْصَةٍ يَرْتَمَا ثَلَاثَ قُوَّهِ بِمَوْتِهِمَا فَيَنْسَلِمَ
 أَمْلَ ذَلِكَ . وَالشَّقِيُّ مَنْ عَقَّبَهُمَا ، لَا سِيَّامَ مِنْ بَلَنَّهُ الْأَمْرَ يَرْتَمَاهَا .

الثانية عشرة - قوله تعالى : (فَلَا تَقُلْ لِمَنْ أَتَى) أَيْ لَا تَقُلْ لِمَنْ يَأْتِيهِ أَدْنَى
 تَجَرُّمٍ . وَمَنْ أَبِي رَجَاءَ الطَّيَّارِيُّ قَالَ : الْآتَى الْكَلَامَ الْقَدَّحَ الرَّدِيءَ الْخَفِيَّ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ :
 سَمَاءٌ إِذَا رَأَيْتَ مِنْهَا فِي حَالِ الشَّيْخِ الْفَنَاطَةِ وَالْبَوْلِ الَّذِي رَأَاهُ مِنْكَ فِي الصَّبْرِ فَلَا تَقْتَرِبْهَا
 وَتَقُولَ أَتَى . وَالْآيَةُ أَمْرٌ مِنْ هَذَا . وَالْآتَى وَالتَّفَّ وَخِجَ الْأَخْفَارِ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَا يُضْجِرُ
 وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ : أَتَى لَهُ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَالتَّفَّ أَيْضًا الشَّيْءُ الْخَفِيرُ . وَفَرَّقَ : أَتَى ، مَتَوْنٌ

مغفوس؛ كما تخفص الأصوات وتُتَوَّن، تقول : صِهْ بِهِ . وفيه عشر لغات : أَفْ، وَأَفْ، وَأُفْ، وَأُفَّا وَأُفَّ، وَأُفَّ، وَأُفَّهْ، وإف لك (بكر الممزة)، وأُف (ضم الممزة وتسكين القام)، وَأُفَّا (مخففة الفاء) . وفي الحديث : " فإني طرف ثوبه على أفه ثم قال أف أف " . قال أبو بكر : معناه استنذار لما سَمَ . وقال بعضهم : معنى أف الاحضار والاستقلال؛ أخذ من الأَفِّ وهو القليل . وقال القتيبي : أصله قهقك الشيء يسقط عليك من رمد وزراب وغير ذلك، ولكن ترد إماطة شيء لتعذ فيه؛ فقبلت هذه الكلمة لكل مستحل . وقال أبو عمرو ابن العلاء : الأَفِّ ومع بين الأظفار، والأَفِّ قلامتها . وقال الزجاج : معنى أف التثنية وقال الأصمعي : الأَفِّ ومع الأذن، والأَفِّ ومع الأظفار؛ فكبر استله حتى ذكر في كل ما يأتى به . وروى من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صل الله عليه وسلم : " لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من « أف » لذكره فليعمل البار ما شاء أن يعمل فليدخل النار . وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فليدخل الجنة " . قال طحاوفا : وإنما صارت قوله « أف » للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، ومحمد الترية ورد الوصية التي أوصاه في التبريل . و « أف » كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أَفْ لَكُمْ وَلِيًّا تَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ »^(١) أي رفض لكم ولغته الأصنام معكم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : (وَلَا تَهْرَبْنَاهَا) النهر : الزجر والنظرة . (وَقُلْ لِمَا قَوْلَا كَرِيمًا) أي لينا لطيفا، مثل : يا أبناء ويا أمهات، من غير أن يسميها ويكنيها؛ قاله عطاء . وقال ابن البناح الثيجي : قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وقُلْ لِمَا قَوْلَا كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيب : قول العبد المذنب لسيده القَطِّ التليظ .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : (وَأَخْفِضْ لِمَا جَاءَ النَّفْلُ مِنَ الرَّحْمَةِ) هذه استمارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لما تذلل الرعية للأمير والعبد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

(١) آية ٦٧ سورة الاحياء . (٢) كما في الأصول الواردة في ابن جرير والقرطبي والطبري للشيخ .

المسيب . وضرب خَفَصَ الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينصب بجانحه لولده .
والذل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلَّ يَذَلُّ ذُلًّا وَذِلَّةً وَذِلَّةً فهو ذَلَّالٌ وَذَلِيلٌ .
وقرأ سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير « الذَّل » بكسر الذال، ورُوي عن عاصم،
من قولهم : دابة ذَلُول بينة الذَّل . والذل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغي
بحكم هذه الآية أن يعمل الإنسان نفسه مع أبيه في خير ذلة ، في أقواله وسكاته ونظره ،
ولا يُعَيِّدَ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الناصب .

الخامسة عشرة - الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته،
إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذل في قوله تعالى : « وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و « مِنْ »
في قوله : « مِنْ الرِّحْمَةِ » لبيان الجنس ، أى إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة
في النفس ، لا بأن يكون ذلك استعلا . ويصح أن يكون لاتهاء الغاية ، ثم أمر تعالى عباده
بالترحم على آبائهم والأبناء لهم ، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفق بك ، إذ وَلَيْسَ
صغيرا جاهلا محتاجا فأترك على أنفسهما ، وأسيرا ليلهما ، وجاعا وأشبعاك ، ومتزيا وكسواك ،
فلا تمزجها إلا أن يلفا من الكبر الحقد الذى كنت فيه من الصغر، قتلى منهما ما وليا منك ،
ويكون لما حينئذ فضل التقدم . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْزَى ولد والدًا إلا أن يحده
مملوكا فيشتره فيعتقه » . وسأى في سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة - قول تعالى : (كَمَا رَبَّيَانِي) خص التربية بالذكر لتذكر العبد شفقة
الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيد ذلك إشفاقا لما وحنا عليهما ، وهذا كله في الأبوين
المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولى قُرْبَى ، كما تقدم .
وذكر عن ابن عباس وقادة أن هذا كله منسوخ بقوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ » - إلى قوله : « أَصْحَابُ الْمِحْمِ » فإذا كان والد المسلم ذميًّا استعمل

معهما ما امره الله به هاهنا؛ إلا الترحم لما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نسخ
 بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدينية للأبوين للمشركون
 ما داموا حيين، كما تقدم . أو يكون عموم هذه الآية خاص بتلك، لا رحمة الآخرة؛ لاسيما وقد
 قيل إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فالتفت
 أمه نفسها في الرّمضاء متجردة، فذكر ذلك لسعد فقال : تيمت، فزلت الآية . وقيل :
 الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرناه وقال ابن عباس
 قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أمسى مريضاً لوالديه وأصبح أمسى وأصبح له يابان
 مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا . ومن أمسى وأصبح مُخطئا لوالديه أمسى وأصبح
 وله يابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا » قال رجل : يا رسول الله، وإن ظلمناه ؟
 قال : « وإن ظلمناه وإن ظلمناه وإن ظلمناه » . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله
 رضى الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله،
 إن أبي أخذ مالي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل : « فأتني بأبيك » فقل جبريل
 عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول
 لك إذا جاءك الشيخ فأساله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذنه » فلما جاء الشيخ قال له
 النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال أبوك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ » قال : « والله
 يا رسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عمتاه أو خالاته أو على نفسي » فقال له رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « إيه، دعنا من هذا . أخبرني عن شيء قلت في نفسك ما سمعته أذنه ؟ »
 فقال الشيخ : والله يا رسول الله، ما زال الله عز وجل يزيدني بك يقينا، الله قلت في نفسي
 شيئا ما سمعته أذنى . قال : « قل وأنا أسمع » قال قلت :

(١) إيه (بكر الماه) : كلمة استزادة واستفاد . واذ قالت « إيه » بالصيغة وهو من « إيه » بالفتح .
 وقال ابن سيده : « إيه (بالكسر) كلمة زير يعني حيلة » وترون فيقال إيه . ومنه من الميت : « إيه »
 في الاستزادة والاستفاد . عليه من قولهم : « كثر لك » « إيه » « إيه » « إيه »

عَدُوَّتِكَ مَوْلُودًا وَمُتَّكِ يَافِضًا • تَمَلَّ بِمَا أَجَنِي عَلَيْكَ وَتَهْتَلُ
إِذَا لَيْلُهُ ضَاغَتْ بِالسَّعْمِ لَمْ يَأْتِ • لَسْتُ بِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالذِّى • طُرِقَتْ بِهِ دُونِي فَعَبَّيْتُ تَهْمَلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَضَى عَلَيْكَ وَإِنِّي • لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتُ مُؤَجَّلُ
فَمَا بَلَّتَ السَّنَّ وَالنَّايَةَ الَّتِي • إِلَيَّا مَدَى مَا كُنْتُ فَبِكَ أَؤْتَلُ
جَعَلْتُ جِرَافِي غِلْظَةً وَفِظَافَةً • كَأَنَّكَ أَنْتَ التَّنِيمُ التَّفَضُّلُ
فَلَيْتَ إِذْ لَمْ تَرَوْعَ حَقَّ أَيْوَى • فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُصَاقِبُ يَفْعَلُ
نَاوِلْتَنِي حَقَّ الْجَوَارِ وَلَمْ تَكُنْ • عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ بَالِكَ تَجْخَلُ

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيّب : هو الميّد يتوب ثم يذنب ثم يتوب
ثم يذنب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأواب : الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياء استغفر
منها . وقال عبيد بن عمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل .
وهذه الأقوال متقاربة . وقال عون القُطَيْب : الأوابون هم الذين يصلون صلاة الضحى .
وفي الصحيح : " صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ ^(١) الفصال " . وحقيقة اللفظ من لب وروب
إذا وجع .

قوله تعالى : وَآتَاكَ الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا ﴿٣١﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٣٢﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَآتَاكَ الْقُرْبَى حَقَّهُ) أى كما راعيت حق الوالدَيْنِ فيصل
الرحم ، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل . وقال علي بن الحسين في قوله تعالى : وَآتَاكَ
الْقُرْبَى حَقَّهُ : هم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم
حقوقهم من بيت المال ، أى من سهم ذوى القربى من الفزوة والفتية ، ويكون خطابا
للولاة أو من قام مقامهم . وألحق في هذه الآية ما يتبع من صلة الرحم ، وسد الخلق ،
والمواياة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا يَبْذُرْ) أى لا يُبْرِقْ في الإفاق في غير حق ، قال
الشافعى رضى الله عنه : واليَبْذِرُ إفاق المال في غير حقه ، ولا يَبْذِرُ في عمل الجور . وهذا
قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : اليَبْذِرُ هو أخذ المال من حقه ووضعهُ في غير حقه ،
وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وقوله

(١) هى أن تجمى الرضعة ، وهى الزبل ، فترك الفصال من شدّة حرها وإبرأتها أخفافها .

« إخوان » يعني أنهم في حكمهم ؛ إذ المبسّر ساج في إفساد كالأشياطين ، أو أنهم يفعلون ما تقول لهم أنفسهم ، أو أنهم يقرّون بهم غدا في النار ؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أي أحذروا متابعتة والتشبه به في الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك « إخوان الشيطان » على الأفراد ، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه .

الثالثة - من أتقى ماله في الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاق فهو مبتدّر . ومن أتقى ريح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبتدّر . ومن أتقى درهما في حرام فهو مبتدّر ، ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام ، ولا يحجر عليه إن يذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه الفاد .

قوله تعالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَبْسُورًا ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع ؛ أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الفتن والقدرة فتخزيمهم . وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند تعجز تعرض وعائق يوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير فتوصل به إلى مواساة السائل ؛ فإن قد بك الحال فقل لهم قولاً مبسوراً

الثانية - في مذهب تروها ؛ قال ابن زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يستلون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتي أن يطعمهم ؛ لأنه كان يعلم منهم ثقة المال في فيءه ؛

(كتاب الشعب - تفسير القرطبي)

فكان يُعرض عنهم رغبة في الأجر في منهم لئلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى « وَإِنَّا نَعْرِضُ عَنْهُمْ أَيْفَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا في ذكر الوالدين ، جاء ناس من مَرْيَتَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحْمِلُونَهُ ؛ فَقَالَ : " لَا أَجِدُ مَا أَحْكَمُ عَلَيْهِ " فَوَلَّوْا وَأَعْيَبْنَاهُمْ نَقِضَ مِنَ الْمَعَ حَرًّا ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِنَّا نَعْرِضُ عَنْهُمْ أَيْفَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . والرحمة التي .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَسْئُورٌ ۖ أَمْرُهُ بِالْدَّعَاءِ لَكُمْ ، أَيْ يَسَّرْ فَرَقْرَمَ عَلَيْهِمْ بِدَعَائِكُمْ لَكُمْ . وَقِيلَ : أَدْعُ لَكُمْ دَعَاءٌ يَتَضَمَّنُ الْفَتْحَ لَكُمْ وَالْإِصْلَاحَ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى "وَأِنَّا نَعْرِضُ" أَيْ إِنْ أَعْرَضْتُ بِأَمْرٍ عَنْ إِعْطَانِهِمْ لَضَبِيقِ يَدِ قُلُوبِ قَوْلَا مَسْئُورًا ؛ أَيْ أَحْسِنَ الْقَوْلَ وَأَبْسَطَ الْعِذْرَ . وَأَدْعُ لَكُمْ بِسَعَةِ الرِّزْقِ ، وَقُلْ إِذَا وَجَدْتُ فَعَلْتُ وَأَكْرَمْتُ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي مَسْرَةِ نَفْسِهِ عَمَلُ الْمَوَاسَاةِ . وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا سَأَلَ وَلَيْسَ عَنْده مَا يُعْطَى سَكَتَ اسْتَظَارًا لِلرِّزْقِ يَأْتِي مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَرَاهَةَ الرَّدِّ ، فَتَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةَ ، فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَأَلَ وَلَيْسَ عَنْده مَا يُعْطَى قَالَ : " يَرْزُقُنَا اللَّهُ وَإِنَّا كَمِنْ فَضْلِهِ " . فَالْرَّحْمَةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ الرِّزْقُ الْمُنْتَظَرُ . وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ . وَالضَّمِيرُ فِي «عَنْهُمْ» عَائِدٌ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْقُرْبَاةِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ . وَ« قَوْلَا مَسْئُورًا » أَيْ لَيْسَ لَطِيفًا طَيِّبًا ، مَفْعُولٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ ، مِنْ لَفْظِ الْبِسْرِ كَالْيَمُونِ ، أَيْ وَعَدًا جَمِيلًا ، عَلَى مَا بَيَّنَّا . وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ :

لَا تَكُنْ وَرَقًا يَوْمًا أَجُودُ بِهَا * لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّي لَيْنُ السُّودِ
لَا يَتَقَدَّمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خَلْقٍ * إِنَّا نَوَالِي وَإِنَّا حَسَنُ مَرْدُودِي
تقول : يَسَّرْتَ لَكَ كَذَا إِذَا أَعَدَدْتَهُ .

قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٣٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) هذا مجاز صوره عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله ؛ فضربه له مثل القل الذي يمنع من التصرف باليد . وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كتل رجلين عليهما الجبان من حديد قد أضطرت إليهما إلى تديهما وتراقبهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تنقش ^(١) أظفاره وتنفق أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حقة بمكاتها . قال أبو هريرة رضي الله عنه : فأتا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأصبعيه هكذا في جيبه فلو رأيت يوسعها ولا توسع ^(٢) .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا تَبْسُطْهُمَا كُلُّ الْبَسِطِ) ضرب بسط اليد مثلا لدهاب المال ، فإن قبض الكف يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها . وهذا كله خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء في القرآن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان سيدهم وأسطمهم إلى ربهم صبره عنهم على عادة العرب في ذلك . وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقر شيطاناً ، وكان يجمع حتى يشد الحجر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة يتفقون في سبيل الله جميع أموالهم ، فلم يمتنعهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة جيبهم وشدة بصائرهم . وإنا نهي الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإقتاق ، وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحسرة على ما يخرج من يده ، فاما من وثق بموجوده الله عز وجل وحزله ثوابه فيما آفقه فخير مراد بالآية ، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه ، عليه فيه كيفية الإقتاق ، وأمره بالاعتصام . قال جابر وأبو مسعود : جاء غلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي

(١) أي انخرت من الجبة . (٢) أي أترشبه ليرفعا . (٣) أي أضمت وارتحمت .

(٤) القرب يجعل القول جارة من جميع الأفعال ونقله على غير الكلام واللسان ؛ فقول : قال يده ، أي أخذه

وقال يده ، أي منى . وكل ذلك على المجرى والاصح . (٥) جواب لم عنفوت ، أي لصحت .

تَسْأَلُكَ كَذًا وَكَذَا . فقال : « ما عندنا اليوم شيء » . قال : « فقول لك اَكْتَفَيْتَ قَيْصَكَ ؟
نُفْلِعَ قَيْصَهُ فَنُدْخِلَهُ إِلَيْهِ وَجَلَسَ فِي الْبَيْتِ عُرْيَانًا . وفي رواية جابر : فَأَنْذَلَ بِلَالٌ لِلصَّلَاةِ وَاسْتَقْبَلَ
رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ ، وَاسْتَقْبَلَ الْقُلُوبُ ، فَدَخَلَ بَعْضُهُمْ لِقَاءَ هُوَارٍ ، فَزَلَّتْ
هَذِهِ الْآيَةُ . وكل هذا في إفتاق الخبير . وأما إفتاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدم .

الثالثة — نَهَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَنْ اسْتِفْرَاقِ الْوَجَدِ فَيَا بَطْرًا أَوَّلًا مِنْ سُرْأَلِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
لِتَلْبِيقِ مَنْ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ لَا شَيْءَ لَهُ ، أَوْ لِتَلْبِيقِ الْمُنْفِقِ عَالِهِ . ونَحْوُهُ مِنْ كَلَامِ الْحِكْمَةِ :
مَا رَأَيْتُ قَطُّ مَرَفًا إِلَّا وَمَعَهُ حَقٌّ مُضَيِّعٌ . وهذه من آيات فقه الحلال فلا يُبَيِّنُ حُكْمَهَا إِلَّا بِاعْتِبَارِ
شَخْصٍ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ تَقَعَّدَ مُلُومًا مَحْشُورًا ﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تنصرف
ولا تلتفت مالك فتبقى محسورا مقطعا عن النفقة والتصرف ؛ كما يكون البعير المحسور ، وهو الذي
ذهبت قوته فلا أنعباث به ؛ ومنه قوله تعالى : « يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِمًا » وهو حسير^(١٢)
أى كليل مقطوع . وقال قتادة : أى نادما على ما سلف منك ؛ بفعله من الحسرة ، وفيه بعد ؛
لأن الفاعل من الحسرة حسير وحسران ولا يقال محسور . والمعلوم : الذى يلام على إغلاف
ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

(١) الوجد (منه الواو) : اليسار والمنة . (٢) تبة : سورة الملك . (٣) هذه الآية لم يتكلم
عليها المؤلف ولم تذكر في النسخ التي بين أيدينا ولله تكلم عليها وحسن سقط من النسخ .
وعادة ابن جرير الطبري في كلامه على الآية كما وردت في تفسيره : « يقول تعالى ذكره ليه محمد صلى الله عليه
وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه . ويقدر على من يشاء ، يقول : ويقدر على من يشاء . منهم
يفضئ عليه . « إنه كان يباده خبيراً » يقول : إن ربك ذو خبرة بعباده ، ومن الذى فصله السعة في الرزق
وتخسه ، ومن الذى يصلحه الانتظار والشفق ويهلكه . « بصيرا » يقول : هو ذو بصيرة بهم وسياهم . يقول :
فإنه يأخذ إلى أمرنا في أمرناك ونهيكك من بسط يدك فيا تبسطها فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عن تكفها عنه
وتكفها فيه ، فمن أعلم بصالح العباد منك ومن جميع الخلق ما بصيرت بهم .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ تَرِزْقُهُمْ
وَلِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاكُمْ كَيْدًا ﴿٣٨﴾
فيه مغلطات .

الأولى - قد حُذف الكلام في هذه الآية في الأتمام ، والحمد لله - والإملاق : الفقر وعدم الملك .
لما قال الرجل أي لم يبق له إلا الملقات ، وهي المجارة النظام للنفس . قال المذنب يصف صائدا :
أَتَيْتُهَا أَقْبَلْتُهَا وَنَوَيْتُهَا . إِنْ سَأَلْتُ عَلَى الْمَلَقَاتِ سَأَلًا
الواحدة مَلَقَةٌ . وَالْأَقْبَلُ تصغير الأَقْبَرِ ، وهو الرجل القصير . وَالْحَشِيف من الثياب :
الخالق . وسألت مررت . وقال شاعر : لما نزلتُ ومعدتُ أمان إذا انقرو ، وأمان النهر .
حاشيته . قال أوسى :

• وَأَمَّا مَا حَصَى خُطُوبُ قَبِيلٍ •

الثانية - قوله تعالى : (خَطَا) « خطئا » قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء
وبالمعزة والقصر . وقرا ابن عامر « خَطَّأ » بفتح الخاء والطاء والمعزة مقصورة ، وهي قراءة
أبي جعفر يزيد . وهاتان قراءتان مأخوذتان من « خطي » إِنْ أَتَى النَّسَبَ عَلَى عَمْدٍ . قَالَ
ابن عرفة : يُقَالُ خَطِيٌّ فِي ذَنْبِهِ خَطَّأٌ إِذَا أَتَى فِيهِ ، وَأَخْطَأَ إِذَا سَلَكَ سَبِيلَ خَطَا عَامِلًا أَوْ غَيْرَ
عَامِلٍ . قَالَ : وَيُقَالُ خَطِيٌّ فِي مَعْنَى أَخْطَأَ . وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ : يُقَالُ خَطِيٌّ يَخْطِئُ خِطَاً إِذَا
تَعَمَّدَ الْخَطَا ، مِثْلُ أَتَى بِأَمْرٍ . وَأَخْطَأَ إِذَا لَمْ يَتَعَمَّدْ ، إِخْطَاءً وَخَطَاً . قَالَ الشَّاعِرُ :
دَعْنِي إِنَّمَا خَطِيٌّ وَصَوْنِي • عَلَيَّ وَإِنْ مَا أَهْلَكْتُ مَا لَ

(١) راجع ٧ ص ١٣٠ طبة أول أو ثانية . (٢) معراليت :

• لَمَّا رَأَيْتُ النَّدَمَ قَدْ آتَى •

(٣) في الأصول : « وَإِنْ مَا أَهْلَكْتُ مَا لَ » . والصواب من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء
لابن سلام في ترجمة أوس بن قضاء ، ولما قال العرب في مائة « موب » . وقيل هذا البيت :
أَلَا فَالْتِ لِمَا لَمْ يَمْ تَوَكَّلْ • فَطَلَعَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ
فَوَلَّ ، وَافْتَرَى أَهْلَكَ إِنَّمَا عَمَّالٌ • وَاللَّامُ بِمَعْنَى لَهَا فَتَوَكَّلْ مَرَّةً
وغيره : مَكَانَ كَانَ فِيهِ رَفْعٌ لِعَرَبٍ لِنَبِيٍّ عَلَى كَلَابٍ . (راجع ص ١٣٠)

والخطا الأكم يقوم مقام الإخطاء ، وهو ضد الصواب . وفيه تشبيه : **لقد صر وهو الجبد** والمذ وهو قليل . وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : **خطأه** بفتح الخاء وسكون الطاء وهو مزلة . وقرأ ابن كثير بكسر الهمزة وفتح الطاء معجمة المزمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً ، ولذلك جعلها أبو حاتم خطأ . قال أبو علي : هي مصدر من خطا يخطئ ، وإن كان لا نجد خطا ، ولكن وجدنا خطا ، وهو مطاوع خطا ، فدلنا عليه ؛ ومنه قول الشاعر :
تَخَاطَلَتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ • وَأَنْتَ يَسْرِي فُلْمُ أَنْجَلِ
وقول الآخر في وصف مَهَاة :

تخطاه القناص حتى وجدته • ونرطومه في متقع الماء راسب
الجوهري : تخطاه أي أخطاه ؛ وقال أوفى بن مطر المازني :

أَلَا أَيْلَسَا خُلَّتِي جَابِرًا • بَارَتْ خَلِيكَ لَمْ يُقْتَلِ
تخاطلات النبل أحشاه • وأنت يوسى فُلْمُ أَنْجَلِ

وقرأ الحسن «خطأ» بفتح الخاء والطاء والمد في المزمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز . وقال أبو الفتح : الخطا من أخطأت بمثلة المطاء من أعطيت ، هو اسم بمعنى المصدر ، وعن الحسن أيضا «خَلَّى» بفتح الخاء والطاء معجمة من غير همز .

قوله تعالى : **وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** (١٧)

فيه مسألة واحدة :

قال العلماء : قوله تعالى (**وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَ**) المبح من أن يقول : ولا تزنوا ؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى . والزنى يد ويقصر لقنان . قال الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما • كانت الزناء فريضة الزنج

و (**سَبِيلًا**) نصب على التمييز التقدير : ومثله سبيل . أي لأنه يؤدي إلى النار . والزنى من الكثرة ، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحيلة الجمار . وينشأ عنه استخدام ولد النحر

(١) أنحر : بمعنى يأنحر ، ويجوز «أنحر» .

والتخافه أكرنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفي الصحيح أن النبي
صل الله عليه وسلم أتى بأمرأة فجمع على باب فسطاط فقال : « لعله يريد أن يكلم بها »
فقالوا : نعم . فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : « لقد سمعت أن أئمة لئما يدخل منه
غيره كيف يؤدبه وهو لا يحل له كيف يستخلمه وهو لا يحل له » .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَبْسُفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ
مَنْصُورًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) قد مضى الكلام فيه في الأقسام .
قوله تعالى : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَبْسُفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ
مَنْصُورًا) . فيه ثلاث مسائل .

الأولى - قوله تعالى : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا) أى بغير سبب يوجب القتل . (فَقَدْ جَعَلْنَا
لَوْلِيَّهِ) أى لمستحق دمه . قال ابن خزيمة متناد : الولي يجب أن يكون ذكراً ؛ لأنه أفرد
بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى : « فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ » ما يدل
على خروج المرأة عن مطلق الولي ، فلا جرم ، ليس للنساء حق في القصاص لتلك ولا أثر

(١) قوله « أتى بأمرأة » أى مر عليها فى بعض أسفاره . و « الجمع » (بمعن مضومة وبمعن مكسورة وطاء مهملة)
مفعلة لامرأة ، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : « قال له ... » الخ فيه خلاف تقديره : « قال لها » فقال لها فقالوا أمة
قلان ؛ أى سبية . ومعنى « لم بها » : أى يلزمها ، وكانت حاملاً سبية ، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف
يؤدبه ... » الخ : « معناه : أنه قد تناهى ولادتها ستة أشهر بحيث يحصل كون الولد من هذا السابى ، ويحصل أنه كان
من قبله . قيل تقدير كونه من السابى يكون ولداً له ، ويتوارثان . وهل تقدير كونه من غير السابى لا يتوارثان فهو
ولا السابى لعدم القرابة ، بل له استثناء لأنه عوركة . فتقدير الحديث : أنه قد يسلطه ويجهله أبنا له ويؤدبه مع أنه
لا يحل له تربيته لكونه ليس منه ، ولا يحل تربيته ومزاجه لائق الورقة . وقد يستعمله استخدام السيد ويجهله مباد
يملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه إذا وضعت هذه محض كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الانتاع من
وطئها غشاً من هذا المظهر . (راجع شرح الترمذى على صحيح مسلم ، كتاب الفكاك باب محرر وطئ الحامل المبيحة) .

(٢) راجع ج ٧ ص ١٣٠ طبعه أملا أرفاقية .

لَعَنُوهَا، وليس لما الاستيفاء. وقال الخائف: إن المراد هاهنا بالولي الولد؛ وقد قال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»^(١)، وقال: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا بِالْمَالِكِ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ»^(٢)، وقال: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»^(٣)، فاقضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأما ما ذكره من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد؛ كأن ما كان معنى الجنس يستوي الذكر والمؤنث فيه، وتتم في كتب الخلاف: (سُطْرَانًا) أي تسليطًا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية؛ قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشباهه والشافعي. وقال ابن وهب قال مالك: السلطان أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجية. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصة. وقال أنسب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعي. وقد مضى في سورة البقرة^(٤) هذا المعنى.

الثانية - قوله تعالى: (فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله، قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني - لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث - لا يقتل بالقاتل؛ قاله طلق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهى عنه. وقد مضى في البقرة^(٥) القول في هذا مستوفى. وقرأ الجمهور «يُسْرِف» بآلاء يريد الولي، وقرأ ابن عامر وحمة والكسائي «تسرف» بالثاء من فوق، وهي قراءة حنيفة. وروى الصلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأول، والمعنى عندنا فلا تسرف أي القاتل. وقال الطبري: هو على معنى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده. أي لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أبي «فلا تسرفوا في القتل».

(١) آية ٧١ سورة البقرة. (٢) آية ٢٢ سورة الأنعام. (٣) آية ٢٢ سورة الأنعام. (٤) آية ٢٢ سورة البقرة.

(٥) آية ٢٢ سورة البقرة. (٦) آية ٢٢ سورة البقرة.

الثالثة - قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا) أى مُعَانًا ، بمعنى الولي . فإن قيل : ولم من وليّ مخذول لا يصل إلى حقه . قلنا : المعونة تكون بظهور المحبة نارة وباستيفائها أخرى ، ويعمومها ثالثة ، فأما كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى . وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه في قراءة أبيّ « فلا تبرأوا في القتل إن وليّ المقتول كان منصورا » . قال النحاس : الأبينّ بالياء ويكون للوليّ ، لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل ، فهذا للوليّ . وقد يجوز بالياء ويكون للوليّ أيضا ، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هذا أول ما نزل من القرآن في شأن القتل ، وهي مكة .

قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْغُولًا ﴿١٢٦﴾

فيه مسائل ثلاث .

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) قد مضى الكلام فيه في غير موضع .

الثانية - قوله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ) قد مضى الكلام فيه في غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد . (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْغُولًا) عنه ، تخفف ، كقوله : « وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » به وقيل : إن العهد يسأل تبكيّا لتأخذه فيقال : نقضت ، كما تسأل المؤمنة تبكيّا لو اتدها .

قوله تعالى : وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كُنْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١٢٧﴾

(١) راجع ج ٧ ص ١٢٠ طبة أول لارتانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢٢ طبة ثانية لارتانية .

فيه مسائل :

الأول - قوله تعالى : **(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ)** هم كلام له لفظاً للأنام ، وتنقضى هذه الآية أن الكيل على البع ، وقد مضى في سورة يوسف فلا معنى للإمامة .
والنفسطاس (بضم القاف وكسر هاء) : الميزان بصفة الروم ، قال ابن خنوز : وقال الزجاج : النفسطاس : الميزان صغيراً كان أو كبيراً . وقال مجاهد : النفسطاس العدل ، وكان يقول :
هي لغة رومية ، وكان الناس قيل لهم : **اقْرَأُوا بِمِثْلِهِ فِي وَزَنِكُمْ** . وقرا بن كثير يأمر عمرو بنان وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر : **النفسطاس** . بضم القاف وحذف الكسائي وحسن عن عاصم (بكسر القاف) وهما لغتان .

الثانية - قوله تعالى : **(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)** لله وقته الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك . **« وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا »** أي ماقبة . قال الحسن : **« ذَكَرْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا يَقْدِرُ وَجَلٌ عَلَى حَرَامٍ ثُمَّ يَدْعُو لَيْسَ لِي بِهِ إِلَّا عَاقِبَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا إِبْدَالَهُ اللَّهُ فِي جَاهِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرُهُ مِنْ ذَلِكَ »** .

قوله تعالى : **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** (٦٦)

فيه مسائل :

الأول - قوله تعالى : **(وَلَا تَقْفُ)** أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يتبينك . قال قتادة : لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعليت وأنت لم تعلم ، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما . قال مجاهد : لا تذهب بحدا بما ليس لك به علم ، وقوله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً . وقال محمد بن الحنفية : هي شهادة الزور . وقال القتيبي : للمعنى لا تتبع الحدس

والظنون؛ وكلها متطابقة . وأصل القَفْوُ الْبُتُّ والقَفْءُ بِالْبَاطِلِ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "نحن بنو النضرين كأنه لَقَفْوُنَا ولا ننفي من أين" أى لَأَسْتَأْمِنَا .
وقال الكُتَيْب : —

فلا أرى البريء يسير ذنب . ولا أَقْفُو المصواصن إن قُفِينَا

يُقال : قَفَوْتُ أَقْفُوهُ، وقَفَيْتُهُ أَقْفُوهُ، وقَفَيْتُهُ إِذَا أَتَيْتَ أَثَرَهُ . ومنه القافاة لتبهم الآثار وقافية كل شيء آخره ، ومنه قافية الشعر؛ لِأَنَّهَا تَقْفُو الْيَت . ومنه اسم النبي صلى الله عليه وسلم الْمُقَفَّى؛ لِأَنَّهُ جَاءَ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ . ومنه القائف، وهو الذى يتبع أثر الشَّيْءِ . يُقال : قَافَ الْقَائِفُ يَقُوفُ إِذَا فَصَلَ ذَلِكَ . وتَقُولُ : قَفَوْتُ الْأَثَرَ، بتقديم الفاء على القاف . ابن عطية : ويشبه أن يكون هذا من تَلَقَّبَ الْعَرَبُ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ ، كما قالوا : رَعَمِلِي فِي لَعَمْرِي . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : قفا وقاف، مثل عتات وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَبَذَ وَجَلَبَ . وبالجمل فلهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والردية . وقرأ بعض الناس فيا حكي الكسائي « قَفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والقَاد » بفتح الفاء، وهم لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وعيره .

الثانية — قال ابن خُوَيْرِ مَنْتَداد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافاة؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دَلَّ عَلَى جَوَازِ مَا لَنَا بِهِ عِلْمٌ ، فَكُلُّ مَا عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ أَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ جَازٍ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ ، وَهَذَا احْتِجَاجُنَا عَلَى إِثْبَاتِ الْقُرْعَةِ وَالْخَرَصِ؛ لِأَنَّهُ ضَرِبَ مِنْ غَلَبَةِ الظَّنِّ ، وَقَدْ يُسَمَّى عِلْمًا آتِسَاعًا . فالقائف يُلْحَقُ الْوَلَدَ بِأَبِيهِ مِنْ طَرِيقِ الشَّيْءِ بَيْنَهُمَا كَمَا يُلْحَقُ الْفَقِيهَ الْقَرَعُ بِالْأَصْلِ مِنْ طَرِيقِ الشَّيْءِ . وفي الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال : " أَلَمْ تَرَى أَنْ مُجَزَّزًا نَظَرَ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رِجْلَيْهِمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا فَقَالَ إِنْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَقْدَامِ لَأَنْ يَمْضَى " : وفي حديث يونس بن يزيد : " وَكَانَ مُجَزَّزًا قَاتِمًا " .

الثالثة - قال الإمام أبو عبد الله المازري : كانت الجاهلية تقصد في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد ؛ وكان زيد أبوه أبيض من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضي عياض : وقال غير أحمد كان زيد أزهر اللون ، وكان أسامة شديد الأدمة ؛ وزيد بن حارثة عربي صريح من كلب ، أصابه سبأ ، حسبما يأتي في سورة « الأحزاب » إن شاء الله تعالى .

الرابعة - استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد ، بسرور النبي صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف ؛ وما كان عليه السلام بالذي يسر بالباطل ولا ينجبه . ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم متمسكين بإلغاء النبي صلى الله عليه وسلم للشيء في حديث اللعان ؛ على ما يأتي في سورة « النور » إن شاء الله تعالى

الخامسة - واختلف الآخرون بأقوال القافة ، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء ؛ على قولين ؛ فالأول - قول الشافعي ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه ، ومشهور مذهبه قصره على ولد الأمة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعي رضي الله عنه ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر ؛ فإن أسامة وأباه حران فكيف يفتى بالسبب الذي خرج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه ، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء ، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لأبد من اثنين لأنها شهادة ؛ وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصه . وبالثاني قال مالك والشافعي رضي الله عنهما .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما أفكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " كلّم راج وكلّم منسول عن رعيته "

قال إنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مشغولاً ، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول ألغى في المحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزي ؛ كما قال : « الْيَوْمَ نَخَيُّمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشَدُّ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ، وقوله « شَدِيدَ طَعْنِهِمْ سَمِعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَجُلُودَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وعبر عن السمع والبصر والثؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مشغولة ، فهي حالة من عقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيويه رحمه الله في قوله تعالى « وَأَيُّهُمْ لِي مَاجِدِينَ » : إنما قال : « رأيتهم » في نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبد عنها بكناية من يعقل ؛ وقد تضمن . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأشد هو والطبري :

ذُمُّ المنازل بعد مثلة اللوى • والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأفوام » والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٦٧﴾ كُلِّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٦٨﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) هنا تنهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . والمرح : شدة الفرح . وقيل : التكبر في المشي . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء في المشي . وقيل : هو البطر والأثر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففى الحديث الصحيح « لله أفرح بنوبة العبد من رجل ... » الحديث . والكل

مذموم شرعا والنشاط ضئله . وقد يكون التكبر وما في معناه مجودة ، وذلك على إهداء الله والظلمة . أسند أبو حاتم محمد بن حبان من ابن جابر بن هبة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : **« من التيرة ما يفيض الله عز وجل ومنها ما يجب الله عز وجل ومن الخلاء ما يجب الله عز وجل ومنها ما يفيض الله فاما التيرة التي يحب الله التيرة في الدين والتيرة التي يفيض الله التيرة في غير دينه والخلاء التي يحب الله اختيار الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذي يفيض الله الخلاء في الباطل »** وأخرجه أبو داود في مصنفه وغيره . وأنشدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا • فكم تحمها قوم هو منك أرفع
وإن كنت في عزٍّ وحرزٍ ومنعة • فكم مات من قوم هو منك أضع

الثانية — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه رضاً دون حاجة إلى ذلك طاحل في هذه الآية ، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير مئى . وأما الرجل يستريح في اليوم التادر والساعة من يومه ، يقيم فيها نفسه في التطريح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر ، كقراءة علم أو صلاة ، فليس بداخل في هذه الآية .

قوله تعالى : **(مَرَحًا)** قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيا حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل . والأول أبلغ ، فإن قولك : جاء زيد ركضاً أبلغ من قولك : جاء زيد ركضاً ؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرَحًا .

الثالثة — قوله تعالى : **(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ)** يعنى لن تتوَجَّأ باطنها فتعلم ما فيها **(وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)** أى لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . ويقال : خرق التوب إلى شقه ، وخرق الأرض قطعها . والخرق : الواسع من الأرض . أى لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . **(وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)** بظلمتك ، أى بقدرتك لا تبلغ هنا اللبغ ، بل أنت جِد ذليل ، يحاط بك من تحتك ومن فوقك ، والحاط محصور ضعيف ، فلا يليق بك

(١) في بعض نسخ الأصل : « في اليوم البارد » .

التكبر . والمراد بخرق الأرض هنا قبحها لا قطعها بالمسافة ؛ والله أعلم . وقال الأزهري : معناه لن تخطئها . النحاس : وهذا آية ؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة . ويقال : فلان أنرق من فلان ، أى أكثر سفرا وعزّة وسنة . ويرى أن سبأ دقخ الأرض باجتهاد شرقا وغربا وسهلا وجبلا ، وقتل سادة وسبي - وبه سمي سبأ - ودان له الخلق ، فلما رأى ذلك افترق من أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إني لما نلت ما لم يتل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم ، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت ، فسجدوا لها ، وكان ذلك أقل عبادة الشمس ؛ فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمهرج ، تعود بالله من ذلك .

الرابعة - قوله تعالى : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) « ذلك » إشارة إلى جملة ما تقدم ذكره مما أمر به ونهى عنه . و « ذلك » يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر . وقرأ عاصم وآبن عامر وحزمة والكسائي ومبرق « سيئته » على إضافة سيئ إلى الضمير ، ولذلك قال : « مَكْرُوهًا » نصب على خبر كان . والسيئ : هو المكروه ، وهو الذى لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية من قوله : « وقضى ربك - إلى قوله - كان سيئته » مأمورات بها ومنهيات عنها ، فلا يخبر عن الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهى عنه . واختار هذه القراءة أبو عبيد . ولأن في قراءة أبي « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ » فهذه لا تكون إلا للإضافة . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « سيئة » بالتنوين ؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة . وعلى هذا اقطع الكلام عند قوله : « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » ثم قال : « وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ، « وَلَا تَمْشِ » ، ثم قال : « كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ » بالتنوين . وقيل : إن قوله « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ » إلى هذه الآية كان سيئة لا حسنة فيه ، بخلوا « كلا » عبطا بالمنهى عنه دون غيره . وقوله : « مَكْرُوهًا » ليس نعتا لسيئة ، بل هو بدل منه ؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروها . وقد قيل : إن « مكروها » خبر ثان لكان حمل على لفظة كل ، و « سيئة » محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل . وقال بعضهم : هو نعت لسيئة ؛ لأنه لما كان

تأنيها غير حقيقى جاز أن توصف بذكره . ونصف أبو على القاسمى رحمه الله : إن المذكر
إذا دُكر فلما يبنى أن يكون ما بعده مذكرا ، وإنما التماثل أن يتقدم الفعل للسند إلى المؤنث
وهو في صيغة ما يستند إلى المذكر ، ألا ترى قول الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها • ولا أرض أبقل إقلها

مستطع عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قيسا . قال أبو علي : ولكن يجوز
في قوله « مكروها » أن يكون بدلا من « سبعة » . ويجوز أن يكون خلا من الضمير الذى
في « عند ربك » ويكون « عند ربك » في موضع الصفة لبيئة .

الخامسة — استدلل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتماطيه . قال الإمام أبو الوفاء
ابن عقيل : قد نص القرآن على النهى من الرقص فقال : « ولا تمس في الأرض مَرَحًا »
وذم الختال . والرقص أشد المرح والبطر . أولنا الذين قسنا التبيذ على الخمر لا مخالفا
في الإطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس التفضيب وتلعين الشمر معه على الطيبور والمزمار
والطبل لأجتماعهما . فما أفتح من ذى لحية ، وكيف إذا كان شيعا ، يرقص ويصفق على
إيقاع الألحان والتضبان ، وخصوصا إن كانت أصوات لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن
بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الفئتين ، يَتَمَسَّسُ بالرقص
شمس البهائم ، ويصفق تصفيق النسوان ، ولقد رأيت مشايخ في عمري ما بأن لهم من من
التبسم فضلا عن الضحك مع إيمان غالطى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله :
وقد حدثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رضى الله عنه أنه قال : الرقص حماقة بين
الكافرين لا تزول إلا باللب . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان في « الكهف » وغيرها^(١)
إن شاء الله تعالى .

(١) غشت الهابة : شردت وجمعت • (٢) في المسألة الثانية من قوله تعالى : « وربطنا على
لؤلؤهم ... » آية ٤٠ (٣) في أول سورة لقمان •

قوله تعالى : ذَلِكَ بِمَا نَوَيْتُ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا فَتَقْلَقَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَنحُورًا ﴿٣٥﴾

الإشارة بهذا إلى هذا لأطوب والتقصير والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام ، أي هذه من الأعمال المحمّدة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحمّدة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله « وَلَا تَجْعَلْ » على ما تقدم من التواهي . والخطاب للنبي صل الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر . والمدحور : المهان المبهذ المقصى . وقد تقدم في هذه السورة . وغال في الدعاء : اللهم أذرحنا الشيطان ، أي أبده .

قوله تعالى : لِفَافِضْتُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا
إِنكُم تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٦﴾

هذا يراد على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضا مع البين ، ولكنه أراد : أفاضل لكم البين دونه وجعل البنات مشفكة بينكم وبينه . (إِنكُم تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) أي في الإنشيم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) أي بينا . وقيل كررنا . (فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ) قيل « في » زائدة ، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن ؛ مثل « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي » أي أصلح ذريتي . والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المفارقة ؛ أي غابرتنا بين المواعظ ليدركوا ويستنبهوا ويتعظوا . وقراءة العامة « صَرَّفْنَا »

بالتشديد على التكثير حيث وقع . وفرا الحسن بالتحفيف . وقوله « في هذا القرآن »
 بنى الأمثال والمعبر والحكم والمواظ والأحكام والإعلام . قال التلمي : سمعت أبا القاسم
 الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب : لقوله تعالى « صرفا » معيان ، أحدهما
 لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعدا ومُحْكًا ومتشابهًا ونبيًا وأمرًا وناسخًا ومنسوخًا وأخبارًا
 وأمثالا ؛ مثلُ ، تصرف الرياح من صَبٍّ وذُبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضي
 والمستقبل والأمر والنهي والفعل والتفاعل والمفعول ونحوها . والثاني أنه لم يزل مرة واحدة
 بل نجوما ؛ نحو قوله « وقرأنا فرقناه » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك .
 ﴿ لِيَذْكُرُوا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحزرة والكلباني « لِيَذْكُرُوا » غنفاً ، وكذلك في الفرقان
 « ولقد صرفناه بينهم لِيَذْكُرُوا » . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد ؛ لأن معناه لِيَذْكُرُوا
 وليستظفوا . قال المهدوي : من شدد « لِيَذْكُرُوا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُرُوا » .
 ونظير الأول « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » والثاني — « وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ » .
 ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أى التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى تباعداً عن الحق وغفلة عن
 النظر والاعتبار ؛ وذلك لأنهم آعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُشْعًا
 إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٧﴾
 قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ
 إِلَهًا آخَرَ » وهو رد على عبّاد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون »
 بالياء . الباقون « تقولون » بالياء على الخطاب . ﴿ إِذَا لَا بُشْعًا ﴾ معنى الآلهة . ﴿ إِلَى ذِي
 الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن العباس رضى الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما فعل
 ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه : المبنى إذا لطلوا

طريقا إلى الوصول إليه ليزيلوا مله ، لأنهم شركائه . وقال قتادة : المعنى إذا لا بُدَّتْ
الآلهة القُرْبى إلى ذى العرش ميلا ، والتست لثقلته عنده لأنهم دونه ، والقوم أعظموا أن
الأصنام تخزيهم إلى الله زكى ، فإذا أعظموا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد
بطل أنها آلهة . (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) تَبَّ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ وَقَلَسَهُ وَجَدَهُ
عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ . والتسبيح : التزني . وقد هُتِمَ .

قوله تعالى : تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ
مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) أعاد على السموات
والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ)
يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف في هذا الموم ، هل هو مخصص أم لا ، فقالت فرقة :
ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل عملت يشهد على نفسه بأن الله عز وجل
خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيء على الموم يسبح تسبيحا
لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أمر الصنعة والدلالة لكان أمرا
مفهوما ، والآية تطلق بأن هذا التسبيح لا يفقهه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لا تفقهون »
الكفار الذين يمرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء . وقالت
فرقة : قوله « مِنْ شَيْءٍ » عموم ، ومعناه الخصوص في كل شيء ونام ، وليس ذلك في الجمادات .
ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطودان لا يسبح . وقال يزيد الرقائشي : الحسن وهما
في طعام وقد قُتِمَ الحيوان : أيسبح هذا الحيوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة ؛
يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدلتها كانت تسبح ، وأما الآن فقد صار حيوانا مدهونا .

قلت : ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سار على قبرين فقال : « إِنِّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالْقِيَمَةِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يُسَبِّحُ مِنْ الْجَلِيلِ » قال : فعدا بسبب وطب نشقه أثنين ، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : « لَعَلَّهُ يَنْقُفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَنْسَا » . فقوله عليه الصلاة والسلام . « مَا لَمْ يَنْسَا » إشارة إلى أنهما ما داما رطوبتين يستحان ، فإذا يسا صارا جانا . والله أعلم . وفي مسند أبي داود الطيالسي : فوضع على أحدهما نصفنا وعلى الآخر نصفنا وقال : « لَعَلَّهُ أَنْ يَتَوَّعَ عَلَيْهِمَا الْعَذَابَ مَا دَامَ فِيهِمَا مِنْ بَلَوْتِهِمَا شَيْءٌ » . قال علماءنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ، وإذا خُفِّفَ عَنْهُمْ بِالْأَشْجَارِ فَكَيْفَ بِقِرَاءَةِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الْقُرْآنَ . وقد بينا هذا المعنى في (كتاب التذكرة) بياناً شافياً ، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك ؛ فإن كل شيء من الجناد وغيره يسبح .

قلت : ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : « وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذَا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مِنْهُ يُسَبِّحُ بِالنَّسِيِّ وَالْإِسْرَاقِ » ، وقوله : « وَإِنْ مِنْهَا لَمَنْ يَخِيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » — على قول مجاهد — ، وقوله : « وَيَخْرِجُ الْجِبَالَ هَذَا . أَنْ دَعَا الرَّحْمَنُ وَلَدًا » . وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا يسم عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إنه الجبل يقول للجبل : يا فلان ، هل مر بك اليوم ذاك كره عز وجل ؟ فإن قال نعم سر به . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا » الآية . قال : أفترأى يسمن الزرور ولا يسمن الخمر . وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى جاع الأرض بعضها بعضاً : يا جاره ، هل مر بك اليوم عبد فصلقه أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائله لا ، ومن قائله نعم ، فإذا قالت نعم رأيت لما بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

لله عليه وسلم : " لا يسمع صوت المؤذن حين ولا أنس ولا غير ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة " . رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطنه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وخرج البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبني إلى لأعرفه الآن " . قيل : إنه الحجر الأسود ، والله أعلم . والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وقد أتينا على جملة منها في اللع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للنادري رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور في هذا الباب نرجعه البخاري في مواضع من كتابه . وإنما ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات ، ولا استحالة في شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للمعوم . وكذا قال النخعي وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صير الباب . واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تلقى بفسيحة من حيث ما انصرفت • وتستقر حشا الرائي بترقاد

أي يقول من رآها : سبحان خالقها . فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك للتسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لناود ، وإنما ذلك تسبيح المقاتل بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أولى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمرو ويحقوق وحفص وحمة والكسائي وخلف « غفقهون » بالناء لتأنيث الفاعل . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد ، قال : لما نزل بين الفعل والتأنيث . (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا) عن ذنوب عباده في الدنيا . (غَفُورًا) للمؤمنين في الآخرة .

قوله تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مًسُورًا ﴿١٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » أقبلت الموراء أم جميل بنت حرب ولها ولوة وفي يدها فمروهي تقول : « مَذْمُومًا عَصِيًّا . وَأَمْرَهُ أَتَيْنَا . وَدِينَهُ قَلْبِنَا » .

والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه ؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ؛ لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما لن تراني » وقرأ قرآنًا فاعتصم به كما قال . وقرأ « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مًسُورًا » . فوقف على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر ؛ أخبرت أن صاحبك هاجي ! فقال : لا ورب هذا البيت ما هاجك . قال : فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها . وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : لما نزلت « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه ؛ فقال أبو بكر : لو تَخَيَّتَ عنها لثلاث سميتك ما يؤذيك ؛ فإنها امرأة يَذِيَّة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه سيحال بيني وبينها » فلم تره . فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ؛ هجانا صاحبك ! فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصطفاه ؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ أما رأيتك ؟ قال : « لا . ما زال ملك بيني وبينها يسترنني حتى ذهبت » . وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِي كِتَابِهِمْ » وقرأه ؛ والآية التي في النحل

(١) القهر (الكسر) ؛ الجرح . الكف . وقيل : هو الجرح مطلقا . (٢) هذا ما ورد في سورة ابن هشام .

والذي في نسخ الأصل : مَذْمُومًا عَصِيًّا . وَأَمْرَهُ أَتَيْنَا . وَدِينَهُ قَلْبِنَا (٣) آية ٥٧

«أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَبَصَرِهِمْ» ، والآية التي في الجاثية «أَفَرَأَيْتَ مَنْ
أَتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَسْلَى اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً» الآية .
فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ من يستمر من المشركين . قال كعب رضى الله تعالى عنه :
لخفت بين رجلا من أهل الشام ، فأتى أرض الروم فاقام بها زمنا ، ثم خرج حاربا فخرجوا
في طلبه فقرأ بين فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يصرونه . قال الثعلبي : وهذا الذي
يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الري فأسر بالدبلم ، فكثرت زمنا ثم خرج حاربا
فخرجوا في طلبه فقرأ بين حتى جعلت ثيابهن للئس ثيابه فما يصرونه

قلت : ويزاد إلى هذه الآية أول سورة يس إلى قوله «فهم لا يصرون» . فإن في السيرة
في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام على رضى الله عنه في فراشه قال : وخرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأخذ حَفَنَةً من تراب في يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا
يرَوْنَهُ . فجعل يترد ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : « يس . وَالْقُرْآنِ
الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَحْرِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . — إلى قوله —
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » . حتى فرغ رسول
الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ،
ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد آتقنى ببلادنا الأندلس بمحسن مشور من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك
أنى هربت أمام المدد وأنحزرت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبى فارسا وأنا
في فضاء من الأرض قاعد ليس يستدنى عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من
القرآن ؛ فعبأ على ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا ^(١)ديله ؛ يمتنون شيطانا .
وأعنى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيل : الحجاب

(١) آية ١٠٨ (٢) في الأصول : « في الثوري » وهو خطأ . (٣) آية ٢٢
(٤) في بعض الأصول : « الكلي » . (٥) كلا في الأصول . (٦) شيطانها بذلك لأنها
ينطق في الآسية « ديلى » (يكر الدال وقع الياء وسكون الباء الموحدة وضع اللام) .

المستور طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة . وقال الحسن زى أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتفاظهم عنك كن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والتضربن الحارث وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمزون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأتلى بيته، وهو الأظهر فى الآية، والله أعلم . وقوله : (مَسْتُورًا) فيه قولان : أحدهما — أن الحجاب مستور عنهم لا تزونه . والثانى — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿١٦﴾
قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) « أَكِنَّة » جمع كَان، وهو ماستر الشيء . وقد تقدم فى « الأنعام » . (أَنْ يَفْقَهُوهُ) أى لتلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني . وهذا رد على القدريه . (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) أى صمما وتغلا . وفى الكلام إضمار، أى أن يسموه . (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ) أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله : ليس شيء أطرد للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » . وقال على بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا فى الإسمله . (وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) قيل : بنى بذلك المشركين . وقيل الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقصود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال . ويموز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله « وَلَوَّا » بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا .

قوله تعالى : **لَمَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْبُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **(لَمَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ)** قيل : الباء زائدة في قوله « به » أي يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينصرفون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره . **(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى)** أي متاجرون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا حبة أشراف قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتاجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد ، وقال : **« قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِنُطِيعَكَ الرَّبَّ وَتَدِينُ لَكُمْ الْحَجْمُ »** فأبوا ، وكانوا يستمعون من النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متاجرين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فزلت الآية . وقال الزجاج : **النَّجْوَى** اسم للصدر ؛ أي وإذا هم ذو نجوى ، أي سرار . **(إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ)** أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما . **(إِنَّ تَعْبُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا)** أي مطبوعاً قد خبله السحر فاخبط عليه أمره ، يقولون ذلك ليغفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مسحورا » أي مغدوعا ؛ مثل قوله : **« فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »** أي من أين تغدعون . وقال أبو حنيفة : « مسحوراء » معناه أن له سمّاً ، أي رية ، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب ؛ فهو مظلّم وليس بمظلّم . ويقول العرب للبيان : قد انتفخ سمّه . ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحوراً ومسحوراً . قال زيد :

فإن تسألنا فيم نحن فإنا • عصاةٌ من هذا الأثم المسحور

وقال امرؤ القيس :

أَرَأَيْتَ مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ • وَتُسَحَّرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

أَيُّ مُتَسَدِّى وَتَطَلٍّ • وَفِي الْحَلِيتِ عَنْ ثَائِنَةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِنَّمَا قَالَتْ : مَنْ هَذِهِ إِلَى ثَمَامِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ تَوَقَّعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَجَرِي وَتَحْرِي •

قوله تعالى : أَتَنْظُرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٨

قوله تعالى : (أَتَنْظُرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) عَجَبُهُ مِنْ صَحْمِهِ كَيْفَ يَقُولُونَ تَارَةً سَاحِرًا وَتَارَةً مَجْنُونًا وَتَارَةً شَاعِرًا • (فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) أَيُّ حِيلَةٍ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْكَ • وَقِيلَ : ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَحْدُونَ سَبِيلًا ، أَيُّ إِلَى الْهَدْيِ • وَقِيلَ : مَخْرَجًا ، لِتَقَاضِي كَلَامِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : مَجْنُونٌ ، سَاحِرٌ ، شَاعِرٌ •

قوله تعالى : وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَآءًا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٤٩

قوله تعالى : (وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا) أَيُّ قَالُوا وَمِمَّ يَتَجَنَّوْنَ لِمَا سَمِعُوا أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُهُمْ • وَمِمَّ يَسْعَوْنَ لِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ • قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الرُّفَاتُ الْغُبَارُ • الْجَاهِدُ : التَّرَابُ • وَالرُّفَاتُ مَا تَكْتُمُ وَيَلِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، كَالْفَتَاتِ وَالْحَطَامِ وَالرُّضَاضِ ، هُنَّ أَيْ عِيسَى وَالْكَافِي وَالْقَزَاءُ وَالْأَخْفَشُ • يَقُولُ مِنْهُ : رُفَّتَ الشَّيْءُ رُفَاتًا ، أَيُّ حُطِمَ ، فَهُوَ مَرْفُوتٌ • (أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) هَؤُلَاءِ اسْتَفْهَامٌ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَمْعُ وَالْإِنْكَارُ • وَهُوَ خَلْقٌ • نَصَبَ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ ، أَيُّ بَنَّا جَدِيدًا • وَكَانَ هَذَا غَايَةَ الْإِنْكَارِ مِنْهُمْ •

(١) أَرْضُ الرِّجْلِ فِي السَّيْرِ إِذَا أَسْرَعَ • وَقَوْلُهُ دَلَّامٌ يَبِيدُ الْمَوْتَ ، وَآءٌ هَؤُلَاءِ وَهُوَ يَمْنَعُ نَفْسَهُ
(٢) تَرَدُّدُهُ حَتَّى يَحْمِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَوْحَهُ سَقَطَ إِلَى حُدُودِهِمَا بِمَعْنَى حَرِطَ (يَعْرِضُ) (بِالرَّحْمَةِ)

قوله تعالى : قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٥﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ
فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا) أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعميز
حجارة أو حديدًا في الشدة والقوة . قال الطبري : أى إن عجزتم من إنشاء الله لكم عظاما
ولما فكونوا أتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم . وقال علي بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة
أو حديدًا لم تخفوا الله عز وجل إذا أرادكم ؛ إلا أنه نخرج نخرج الأمر ؛ لأنه أبلغ في الإلزام .
وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعاذكم كما بدأكم ، ولأمانكم ثم أحياكم . وقال مجاهد :
المعنى كونوا ما شئتم فستعادون . النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا
حجارة ، وإنما المعنى أنهم قد أتوا بخالفهم وأنكروا البعث فقيل لهم استمعروا أن تكونوا
ما شئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدًا لبعثكم كما خلقتم أول مرة . (أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ)
قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس . وهو معنى قول قتادة .
يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يبعثكم ثم يبعثكم . وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو
ابن العاص وابن جبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضاحك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس
شيء أكبر في نفس ابن آدم منه ؛ قال أمية بن أبى الصلت :

• وَلَوُتْ خَلْقٌ فِي النُّفُوسِ فَطُغِ •

يقول : إنكم لو خلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأمنتكم ولأبشتمكم ؛ لأن
القدرة التي بها أنشأكم بها نبيكم . وهو معنى قوله : (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ) . وفي الحديث أنه " يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين
الجنة والنار " . وقيل : أراد به البعث ؛ لأنه كان أكبر في صدورهم ؛ قاله الكلبي . (فَطَرَكُمُ)
خلقكم وأنشأكم . (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ) أى يحزكون رؤوسهم استهزاء ؛ يقال :

تَنْضُ رَأْسَهُ يَنْضُ وَيَنْضُ نَضًّا وَتُوضَا؛ أَيْ تَحْرُكُ . وَاتْنَضَ رَأْسُهُ أَيْ حَرَكَهُ ، كَلْتَجِبَ
 مِنَ الشَّيْءِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَسَيَنْضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ » .

قال الراجز :

• أَنْضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَفْعَا •

وَيُقَالُ أَيْضًا : نَضَّ فُلَانٌ رَأْسَهُ أَيْ حَرَكَهُ ؛ يَتَعَدَّى وَلَا تَعَدَّى ، حَكَاهُ الْأَخْفَشُ .

وَيُقَالُ : تَنَضَّتْ سَيْتُهُ ؛ أَيْ تَحَرَّكَتْ وَانْقَضَتْ .

قال الراجز :

• وَنَضَّتْ مِنْ حَرَمِ أَسْنَانِهَا •

وقال آخر :

• لَمَّا رَأَيْتِي أَنْضَتَ لِي الرِّأْسَا •

وقال آخر :

لَا مَاءَ فِي الْمَقْرَأَةِ إِنْ لَمْ تَنْهَضْ • بِمَسَدٍ فَوْقَ الْحَالِ النَّضُّ

الْحَالُ وَالْحَالَةُ : الْبَكَّةُ الْمُظْمِئَةُ الَّتِي يَسْتَقِي بِهَا الْإِبِلُ . (وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ) أَيْ الْبَسْتُ
 وَالْإِعَادَةَ وَهَذَا الْوَقْتُ . (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) أَيْ هُوَ قَرِيبٌ ؛ لِأَنَّهُ عَسَى وَاجِبٌ ؛
 نَظِيرُهُ « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا » . وَ « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ
 فَهُوَ قَرِيبٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَقُولُونَ إِنَّ لَبِئْتُمْ

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٧﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) الدُّعَاءُ : الدُّعَاءُ إِلَى الْخَيْرِ بِكَلَامٍ تَسْمَعُهُ

الْخَلَائِقُ ، يَدْعُوهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِالْخُرُوجِ . وَقِيلَ : الْمَصِيبَةُ الَّتِي يَسْمَعُونَهَا ؛ فَتَكُونُ دَاعِيَةً لِمَنْ
 إِلَى الْاجْتِمَاعِ فِي أَرْضِ الْقِيَامَةِ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّكُمْ تَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ
 وَأَسْمَاءَ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ » . (فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) أَيْ بِاسْتِحْقَاقِهِ الْحَمْدَ عَلَى الْإِحْيَاءِ .

(١) اتَّعَ فُلَانٌ رَأْسَهُ : وَهُوَ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ وَدِيحَهُ إِلَى مَا حَالَتْ رَأْسُهُ مِنْ قَبْلِهِ . (٢) آيَةُ ٩٢

سورة الأنعام . (٢) آيَةُ ١٧ سورة التور .

وقال أبو سويل : أى والمحمد ؛ كما قال :

فأبى بحمد الله لا ثوب قابر • ليست ، ولا من قدرة أنفع

وقيل : حامدين لله تعالى بالستكم . قال سعيد بن جبير : تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك ؛ ولكن لا يفهموا اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمدك » بأمره ؛ أى تغزون بأنه خالقكم . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقيل : المعنى بقدرته ؛ وقيل : بدعائه إياكم . قال عطاءنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ فى الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور ؛ وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق ، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قال : فيوم القيامة يوم يُدعى بالحمد ويُحْمَدُ به ؛ قال الله تعالى « يوم يدعوكم تستجيبون بحمدك » وقال فى آثره « وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) « وَتَنْظُرُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » ينى بين الصفحتين ؛ وذلك أن العذاب يُكف عن المعدين بين الصفحتين ، وذلك أربعون مائة فيماتون ؛ فذلك قوله تعالى : « مَنْ بَسَّتْ مِنْ مَرْقِدًا » (٢) فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين جمعة قبل يوم القيامة يحدون فيها طم النوم ، فإذا أصبح بأهل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقت فى أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : « وَتَنْظُرُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » فى الدنيا لطلول ليشكم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا آلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا آلَتِي هِيَ أَحْسَنُ) هلم إعرابه . والآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهم يقتله ، فكانت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا آلَتِي هِيَ أَحْسَنُ » ذكره الطبري والساوري .

(١) آية ٧٥ سورة الزمر . (٢) آية ٥٢ سورة يس . (٣) تابع ٩٥ ص ٣٦٦ طبعه دار الحديث

وابن عطية والواحدى . وقيل : نزلت لما قال المساكين : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم فقد طال اينازهم ايانا ، فقال : « لم أؤمر بعد بالقتال » فآثر الله تعالى « وقل لِبِإِبنِى يقولوا آلِى هِىَ احسن » ؛ قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لِبِإِبنِى الذين اعترفوا بائى خالفهم وهم يبدلون الأسماء ، يقولوا آلِى هِىَ احسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى قل لِبِإِبنِى المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد ، أن يقولوا الكلمة التي هِىَ احسن .
 « كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحك الله ! وهذا قيل أن أمروا بالجهاد ؛ وقيل : المعنى قل لم يأمرنا بما أمر الله به وينها عما نهى الله عنه ؛ وعلى هذا تكون الآية جامعة في المؤمن والكافر ، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة ، بحسن الأدب والإتقان القول ، وخفض الجناح وأطراح نزغات الشيطان ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « وكونوا عباد الله إخوانا » . وهذا احسن ، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَفْغُرُ بَيْنَهُمْ) أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدم في آخر الأعراف ويوسف . يقال : فزع بيننا أى أفسد ؛ قاله الزبيدي . وقال غيره : التزع الإغراء . (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) أى شديد العداوة . وقد تقدم في البقرة^(١) . وفي الخبر^(٢) أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل بغاء الشيطان ليقطع مجلسهم فتمتعت الملائكة بغاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فخرش بينهم ففصموا وتواشوا فقال هؤلاء الذاكرون قوما بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك للشيطان^(٣) . فهذا من بعض عدوانه .

(١) آية ١٠٨ سورة الأنعام . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ و ج ٩ ص ٢٩٧ طبعه دار فائده .

(٣) راجع ج ٢ ص ٢٠٩ طبعه فائده .

قوله تعالى : رَبُّكَ أَعْلَمُ بِكَ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكَ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكَ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : (رَبُّكَ أَعْلَمُ بِكَ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكَ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكَ) هذا خطاب للشركين ؛
واللفظ : إِنْ يَشَأْ يُوَفِّقُكَ لِلْإِسْلَامِ فَيَرْحَمْكَ ، أَوْ يُمَيِّتُكَ عَلَى الشَّرْكِ فَيُعَذِّبُكَ ، قاله ابن جرير .
هو « أعلم » بمعنى علم ؛ نحو فَوْفَيْتُمْ ، الله أكبر ، بمعنى كبير . وقيل : الخطاب للؤمنين ؛ أي
إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكَ أَنْ يَعْظِمَكَ مِنْ كُفْرِكَ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبُكَ بِسُلْطَانِهِ عَلَيْكَ ، قاله الكلبي .
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) أي وما كنا نكافئهم في سمعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم .
وقيل : ما جعلنا لك كفيلا لم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر :

ذكرت أيا أروى نبت كذا • بهذه الأمور الماضيات وكل

أي كفيلا

قوله تعالى : وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا
بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)
أعاد بعد أن قال : « رَبُّكَ أَعْلَمُ بِكُمْ » ليبين أنه حائفهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم
وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » وكذا النبوة فضل بعضهم على بعض من
علم منه بمالهم . وقد مضى القول في هذا في « البقرة » . (وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) الزبور
كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتعبد وتمجيد .
أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو في حاجة اليهود .

قوله تعالى : قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا جَبْرًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ) لما ابتليت قريش بالقسط وشكروا إلى رسول الله صل الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أي ادعوا الذين تبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن : بنى الملائكة وعيسى وعزرا . ابن مسعود : بنى الجن . (فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ) أي القسط سبحانه ، على قول مقاتل . (وَلَا تَحْويَلَا) من الفقر إلى الفنى ومن السَّتم إلى الصمة .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْنَا رَهِمًا أَلْوَسِيلًا أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (أولئك الذين يدعون) « أولئك » مبتدا « الذين » صفة « أولئك » وصير الصلة محذوف ؛ أي يدعونهم . بنى أولئك المدعون . و (يبتغون) خبر ، أو يكون حالا ، و « الذين يدعون » خبر ؛ أي يدعون إليه عبادا إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالياء على الخطاب . الباقيون بالياء على الخبر . ولا خلاف في « يبتغون » أنه بالياء . وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون ، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلم نفر من الجن . في رواية قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفر من الجن فأسلم الجنيون و [الإنس] الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون ، فنزلت « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تصدعهم قبائل من العرب ؛ ذكره الماوردي . وقال ابن عباس وبجاهد : عزير وعيسى . و « يبتغون » يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة ، وهي الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والهاء والميم في « ربهم » تعود على المابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا . وأما « يدعون » فعل المابدين . و « يبتغون » على المعبودين . (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) استلذه وخبر . ويجوز أن يكون « أيهم أقرب »

يَهْلَا مِنَ الضَّمِيرِ فِي « يَتَّقُونَ » ، وَالْمَعْنَى يَتَّقِي أَيْمَ اقْرَبِ الْوَسِيلَةَ إِلَى اللَّهِ . (وَبَرَّجُونَ وَحَتَّةً وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) أَيِ عَوْفَالَا أَمَانٌ لِأَحَدٍ مِنْهُ ، فَيَذْنِي أَنْ يَحْذَرُ مِنْهُ وَيُخَافُ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ زَمَانَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَإِذَا اسْتَوَيَا اسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُ ، وَإِذَا تَوَرَّجَ أَحَدُهُمَا بَطَلَ الْآخَرُ .

قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا » أَيِ مَحْزُورًا . (قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا) قَالَ مَقَاتِلُ : أَمَّا الصَّالِحَةُ فَبِالْمَوْتِ ، وَأَمَّا الظَّالِمَةُ فَبِالْعَذَابِ . قَالَ ابْنُ سَعْدٍ : إِذَا ظَهَرَ الزُّلْمُ وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أَدْنَى اللَّهِ فِي هَلَاكِهِمْ . قَبِيلُ الْمَعْنَى وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ طَائِفَةٍ ، يَذْنِي ذَلِكَ قَوْلُهُ : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » . أَيِ قَلْبِ الْمُشْرِكِينَ ، قَوْمِ مَا مِنْ قَرْيَةٍ كَادَتْ إِلَّا سَجَلُ بِهَا الْعَذَابِ . (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ) أَيِ فِي الْوَحْيِ . (مَسْطُورًا) أَيِ مَكْتُوبًا . وَالسُّطْرُ : لِسَطْرُ وَالْكَتَبَةُ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ . وَالسُّطْرُ (بِالتَّحْرِيكِ) ، مَثَلُهُ . قَالَ جَرِيرٌ :

مَنْ شَاءَ بِأَمْرِهِ إِلَى وَحْلَتِهِ • مَا تَكْمِلُ التَّيْمَ فِي دِيَارِهِمْ سَطْرًا

الْخَمْسَةُ (عَصَمُ أَخَاهُ) : خِيَارُ الْمَالِ . وَالسُّطْرُ جَمْعُ أَسْطَارٍ ، مِثْلُ سَبَبٍ وَأَسَابٍ ، ثُمَّ يَجْمَعُ عَلَى أَسَاطِيرَ . وَجَمْعُ السُّطْرِ أَسْطُرٌ وَسُطُورٌ ، مِثْلُ أَنْفُسٍ وَفُلُوسٍ . وَالْكَتَابُ هُنَا يُرَادُ بِهِ الْوَحْيُ الْمَحْفُوظُ .

قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا النِّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا » ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما قيل بن كان قبلهم . قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما . فأنكر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلهم أنف فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً . وقد تقدم في « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصفا ذهباً وتنتحى الجبال عنهم ، فقل جبريل وقال : « إن شئت كان ما سألت قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يهلوا . وإن شئت لمأتيت بهم » . فقال : « لا ، بل استأن بهم » . و « أن » الأولى في محل نصب يوقع المنع عليهم ، و « أن » الثانية في محل رفع . والباء في « بالآيات » زائدة . وبجاء الكلام ، وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين ، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء ، فالمعنى للمبالغة في أنه لا يفعل ، فكانه قد منع عنه . ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً ﴾ أي آية دالة مضبوطة نيرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدم ذلك . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فأصابهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴾ فيه حصة أقوال : الأول - العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين . الثاني - أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . الثالث - أنها تغلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكمل ثم إلى منيب ، لتعبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ، وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه . الرابع - القرآن . الخامس - الموت الذريع ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ رَءِياً إِلَهِىَ أَرِيكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيراً ۝٦٠﴾

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٨ و ج ٩ ص ٦٠ طبعه أمه أو ثاقه

(٢) أي صريح القائل لا يكاد الناس يعاينونه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ، أى أن الله سهلهم . وذكره بلفظ الماضي لتحقيق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى « أحاط بالناس » أى أحاطت قدرته بهم ، فهم في قبضته لا يقدرّون على الخروج من مشيئته ، قاله مجاهد وابن أبي نجيح . وقال الكلبي : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه ، أى وما أرسلناك عليهم حفيظا ، بل عليك التبليغ ، فبلغ بمجذك فإنا نصممك منهم ونحفظك ، فلا تبهمهم ، وأمض لما أمرك به من تبليغ الرسالة . فقدرتنا محيطة بالكل ؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضم إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » قال : هى رؤيا تبين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرى به إلى بيت المقدس . قال : « وَالشَّجَرَةُ الْمُنْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ » هى شجرة الزقوم . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث صحيح . ويقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد ابن جبير والضحاك وابن أبي نجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أُسرى به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا الَّتِي فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ، فرَدَّ فاقتن المسلمون لذلك ، فزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » . وفى هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان يتزوّون

على منبره تَزُو القردة، فساء ذلك قليل : إنما هي الدنيا أعطوها، فُسِّرَى عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة . وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه . قال سهل : إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أمية يترون على منبره تزو القردة، فأغم لئلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فترت الآية تحية أن ذلك من تملكهم وصمودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا . وقرأ الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية : « وإن أدري لعله فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنَاعٌ إِلَى حِينٍ » . قال ابن عطية : وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) فيه تقديم وتأخير، أى ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس . وقتلها أنهم لما خَوْفُوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنار تأكل الشجر، وما تصرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه : ترقوا . وقد قيل : إن الفائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزبى حيث قال : كثر الله من الزقوم في داركم، فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذکر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليكفر من سبق عليه الكفر ويصدق من سبق له الإيمان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق . قيل له : أنصدقه قيل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أنصدقه بخبر السماء، فكيف لا أنصدقه بخبر بيت المقدس، والماء أبعد منها بكثير .

قلت : ذكر هذا العظيم ابن إسحاق ، ونصه : قال كان من الحديث فيما يلخني عن مسراه صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وطائفة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأما هاني بنت أبي طالب ، ما اجتمع في هذا الحديث ، كل يبحث عنه بعض ما ذكره من أمره حين أسرى به صلى الله عليه وسلم ، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدي ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعالى على يقين ، فأسرى به صلى الله عليه وسلم كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما يلخني عنه يقول : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها - فحمل عليها ، ثم نرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في قعر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ثم أتى بثلاثة آتية : إناء فيه لبن وإناء فيه نمر ، وإناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فسمعت قائلاً يقول حين عُرِضَتْ عليّ إناء أخذ الماء ففرق وغرقت أخته وإن أخذ النمر ففوى وغوت أخته وإن أخذ اللبن فهدي وهديت أخته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هديت وهديت أمتك يا محمد . "

قال ابن إسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا قائم في الحجر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه بخلست فلم أدر شيئاً ثم عدت لمضجبي بغافى الثانية فهمزني بقدمه بخلست فلم أدر شيئاً فعدت لمضجبي بغافى الثالثة فهمزني بقدمه بخلست فأخذ بعضدي فقامت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في نخذه جناحان يتخفزان بها رجله يضع حافره في منتهى طرفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته . "

قال ابن إسحاق : وحدثني جدي قال : سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما ذنوب من لأركبه تسمى فوضع جبريل يده على مفرقه ثم قال ألا تسبحي بأوراق مما تصنع فوافقه ما ريك عيده قيل عهد أكرم عليه من قال فأستجبا حتى أرفض عزمي قائم قر حتى ركبته »

قال الحسن في حديثه : مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [جبريل] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في قصور من الأنبياء ، فاتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلاً بهم ثم أتى بلقيس : في أخذها تمر وفي الآخرة : قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء اللبن فتشرب منه وتترك الله الخمر . قال : فقال له جبريل : هديت الفطرة وهديت نيتك وحرمت عليك الخمر . ثم تصبر ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غداً على قرين فآخبرهم الخبر ، فقال : أكثر الناس : هذا والله الأمر بين ! والله إن العير لتطرد شيئاً من مكة إلى الشام ، مذبذبة شبراً ومقبلة شبراً ، فيذهب ذلك عهد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ قال : قلدت كثير من ذلك لئلم ، فذهب للناس إلى أبي بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق لما يوجبكم من ذلك ! فوافقه إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأحطتكم فهذا أبعد مما تعتجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ! أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يا نبي الله ، فصقه في فاني قد جئت ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رفع لي حتى نظرت إليه » فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . كلما

وصف له منه شيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله عنه : « وأنت يا أبا بكر الصديق » فهو من سماه الصديق . قال الحسن : وأزل الله تعالى فيمن أرتد عن الإسلام لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التي أرىناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ^(١) وَخَوْفُهُمْ فَاسْتَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيه من حديث قتادة ، وذكر باقي الإسرائيليين عن تقدم في السيرة . وقال ابن عباس : هذه الشجرة بنو أمية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قى الحكم . وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ، إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقد قالت عائشة لمروان : لعن الله أبك وأنت في صلبه فانت بعض من لعنة الله . ثم قال : « والشجرة الملعونة في القرآن » ولم يجر في القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم أكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة في القرآن أكلوها . ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تنوى على الشجر فقتله ، يعنى الكُشوث . (وَخَوْفُهُمْ) أى بالزقوم . (فَمَا يَزِيدُهُمْ) للتخويف إلا الكفر .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٣٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ كَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لأُخَيِّنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) هتم ذكر كون الشيطان عدو الإنسان ، فأنتجز الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذ كبرتمادى هؤلاء المشركين وعوهم على ربههم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى :

(١) هذه عبارة القنر الرازي . رواه في الأصول : « فانت قتل من لعنة الله » . والقطط : التفسير الجند من الشعر ، وشعر الزنجي .

(مَسْجُودًا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَتَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) أى من طين . وهذا استنهام إنكار .
 وقد تقدم القول فى خلق آدم فى « البقرة » ، والأنعام » مستوفى . (قَالَ أَرَأَيْتَ) أى قال
 إبليس . والكاف توكيد للخاطبة . (هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَى) أى فضله على . ورأى جوهر
 النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متخالفة . وقد تقدم هذا فى الأعراف .
 و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نته . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام
 حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضله على ، لم فضله وقد خلقتى من نار وخلقته من
 طين ؟ غذف لعل السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى ترى هذا الذى كرمته
 على لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى (لَأَحْتَنِكَنَّ) فى قول ابن عباس : لأستولين عليهم . وقاله
 الفراء . مجاهد : لأحتويهم . ابن زيد : لأضلهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلن ذريته
 بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحتهم . وروى عن السرب : احتك الجراد الزرع إذا ذهب به
 كله . وقيل : معناه لأبوقتهم حيث شئت وأفودتهم حيث أردت . من قولهم : حنك
 الفرس أحنكه وأحنكه حنكا إذا جعلت فى فيه الزنس . وكذلك احتكه . والقول الأول
 قريب من هذا ؛ لأنه إنما يأتى على الزرع بالحنك . وقال الشاعر :

أشكو إليك سنة قد أجمفت * جهدا إلى جهيد بنا وأضعفت

« وأحتكت أموالنا واجتلفت »^(١)

(إِلَّا قَلِيلًا) يعنى المصومين ، وهم الذين ذكهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
 سُلْطَانٌ » وإنا قال إبليس ذلك طنا ؛ كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ »
 أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ
 فِيهَا » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد أنه عزما .^(٢)

قوله تعالى : قَالَ أَذْهَبَ مَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ
 جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴿١٣﴾

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ طبع ثانية أو ثالثة . وج ٧ ص ١٦٨ طبعه أدل أو ثانية .

(٢) أى أذهبت . (٣) آية ٢٠ سورة بآ . (٤) آية ٣٠ سورة البقرة .

قوله تعالى : (قَالَ أَتَعْب) هذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهدك فقد أنظرناك .
(لَمَنْ يَمَك) أى أطاعك من ذرية آدم . (فَإِنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا) أى وافرًا ؛
عن مجاهد وغيره . وهو نصب على المصدر ، يقال : وقرته أقره وقرًا ، وقر المسأل بنفسه
يقر وفورًا فهو وافر ، فهو لازم ومتعد .

قوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَفْزَزَ مِنْ آسَاطِنِ مَنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُجْلِبْ عَلَيْهِمْ
بِحَيْلِكَ وَرَجِلْكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ
الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١﴾

فيه ست مسائل ،

الأولى - قوله تعالى : (وَاسْتَفْزِزْ) أى استرل واستخف ؛ وأصله القطع ، ومنه تفزز
لثوب إذا انقطع .^(١) والمعنى استرله بقطعك إياه عن الحق . واستفزه الخوف أى استخفه .
وقد استفز أى غير مطمئن . « واستفز » أمر تعييز ، أى أنت لا تصدر على إضلال
أحد ، وليس لك على أحد سلطان فأفضل ما شئت .

الثانية - قوله تعالى : (بِصَوْتِكَ) وصوته كل دأع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛
عن ابن عباس . مجاهد : النناء والمزامير واللاهو . الضحاك : صوت الزمار . وكان آدم
عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعل الجبل ، وولد قابيل أسفله ، وفيهم بنات حسان ، فزمر
اللعين فلم يبالكو أن يأخذوا فزورًا ، ذكره الغزوي . وقيل : « بصوتك » بوسوتك .

الثالثة - قوله تعالى : (وَأُجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجِلْكَ) أصل الإجلاب السوق
بجيلة من السائق ؛ يقال : أجب إجلابًا . وأجلب وأجلبة : الأصوات ؛ تقول منه : جلّوا
بالتشديد . وجلب الشيء ويجله جلبًا وجليًا . وجلبت الشيء إلى نفسي واجلبته بمعنى .
وأجب على المدق إجلابًا ؛ أى جمع عليهم . فالعنى أجمع عليهم كلما تقدر عليه من مكائده .

(١) لم نجد في كتب اللغة « تفزز الثوب » زامين هذا المعنى ، وإنما هو « تفز » بزاي ثم واء . فلاحظ .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشي في معصية الله تعالى . وقال ابن عباس ومجاهد وقطادة : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشي يقال في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجلته . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مشى في معصية الله ، وكل مال أصيب من حرام ، وكل ولد يتيمة فهو للشيطان . والرجل جمع راجل ، مثل شحج وصاحب . وقرأ حفص « ورجلك » بكسر الجيم وهما لفتان ؛ يقال : رجل ورجل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقطادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعة - (وَتَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) أى اجعل لنفسك شركة في ذلك . فشركته في الأموال إغافها في معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيل : هي التي أصابوها من غير سألها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يعزّمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحسام . وقاله قطادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لأهلهم . والأولاد قيل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنه أيضاً هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا بهم من الجرائم . وعنه أيضاً : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد أنزى وعبد اللات وعبد الشمس ونحوه . وقيل : هو صيغة أولادهم في الكفر حتى هودوهم ونصروهم ، كصنع النصراني بأولادهم بالقس في الماء الذي لهم ؛ قاله قطادة . وقول خامس - روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يسم أنطوى الجن على إحليله بجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِئُنْ لَهُمْ قُبُورُهُمْ وَلَا جَنٌّ » وسيأتي . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إله فيكم مغرّين » قلت : يا رسول الله ، وما المغرّيون ؟ قال : « الذين يشرك فيهم الجن » . رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) . قال الهروي : سموا مغرّين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذي الحكيم : فليجن مسامة بآدم في الأمور والاختلاط ؛ فنهى من يترج فيهم ، وكانت يقيس ملكة سبأ أحد أبويها من الجن . وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخاصة - قوله تعالى : (وَعَنَّمُ) أى متهم الأمانى الكافية ، وأنه لا قيامه ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجته وثار قائم أول بالجنة من غيركم . يقويه قوله تعالى : « يَدْعُهُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ وَمَا يَدْعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » أى بإطلا . وقيل « وَعَنَّمُ » أى علمهم النصرة على من أرادهم بسوء . وهذا الأمر للشيطان تهديد ووعيد له . وقيل : استخفاف به وبمن أتبعه .

السادسة - فى الآية ما يدل على تحريم للزنا والزنا واللغو بالله ، لقوله : « وَاسْتَفِزُّ مَنِ اسْتَفْتَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التره عنه . وروى تابع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع أصبعه فى أذنيه ، وعند راحته عن الطريق وهو يقول : يا تابع ! أسمع ؟ فأقول نعم ، فضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [صوت] زمارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فضله فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف ببناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسأى لهذا مزيد بيان فى سورة « لقمان » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقدم الكلام فيه . (وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) أى عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعالى : رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ لَكَ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (رَبِّكَ الَّذِي يُرِيكَ لَكَ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ) الإزهاء : السوق ؛ ومنه قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرِي سحاباً) . وقال الشاعر :

يأبى الراكب المُرْجى مطيقه . سائل بن أمد ما هذه الصوت

وإزهاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع ، وقد تقدم . والبحر الماء الكثير مدباً كالن أو ملماً ، وقد غلب هذا الاسم على المفتح . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أنعم عليكم بكنا وكنا فلا تتركوا به شيئاً . (لَتَبْتَوا مِنْ فَضْلِهِ) أى فى التجارات . وقد تقدم . (إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) .

قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً)

قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ) والضَّرُّ لفظ يعم خوف الغرق والإسالة عن الجمرى . وأحوال حالته اضطرابه وتوجهه . (ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ) « ضل » معناه تلف وفقد ؛ وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلهاً من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يستقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلاً ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على منادته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظام ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . (فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ) أى عن الإخلاص . (وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً) الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفوراً للتم إلا من قصمه الله ، فالإنسان لفظ الجنس

قوله تعالى : (أَقَامْتُمْ أَنْ يَخْفَى بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْمِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً)

(١) آية ٤٣ سورة النور (٢) جودوين بن كثير الثاني ؛ كفى اللسان (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبة ثانية . (٤) راجع ج ٢ ص ١١٣ طبة ثانية .

قوله تعالى : ﴿لَأَنبِئَنَّكُمْ أَن تَبْلُغَ يَمُّكَ جَانِبُ الْيَرِّ﴾ بين أنه قادر على هلاكهم في البر وإن يبدؤا من البحر . والخسف : أن تهل الأرض بالشيء ، يقال : بر خسفته إذا تهدم أصلها . وعين خسف أى غارت حديقها في الرأس . وعين من الماء خاسفة أى غار ماؤها . وخسفت الشمس أى غابت عن الأرض . وقال أبو عمرو : والخسف البر التي تحفر في الحجارة فلا يقطع ماؤها كثرة . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض ، وسماه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبر جانب ، وقيل : إنهم كانوا على ساحل البحر ، وساحله جانب البر ، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر ، فهدم ما آمنوه من البر كما هدم ما خافوه من البحر . ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعنى ريحا شديدة ، وهى التي ترى بالحصباء ، وهى الحمى الصغار ، قاله أبو عبيدة والفتي . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تحصبهم ، كما فصل قوم لوط . ويقال للسحابة التي ترمى بالبرد : حاصب ، والريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب وحصبية أيضا . قال لبيد :

جزت عليها أن خوت من أهلها • أذيانها كل عصف حصبه

وقال الفرزدق :

مستحيلين شمال الشام يضربنا • بحاصب كتييف القطن متود

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَبِيلًا﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعالى : أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ يعنى في البحر . ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ القاصف : الريح الشديدة التي تكسر بشدة ، من قصف الشيء يقصفه ؛ أى كمره بشدة . والقصف : الكسر ، يقال : قصف الريح السفينة . وريح قاصف ،

شديدة . وردع قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَفَ الرعدُ وغيره قَصِيفًا . والقَصِيفُ :
 هشيم الشجر .^(١) والقَصَفُ التكرار . والقَصِيفُ أيضا : اللهو واللعب ، يقال : إنها مَوْقِفَةٌ .
 ﴿ فَيَقْرِئَكُمْ يَوْمَ تَكْفُرْتُمْ ﴾ أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نَحِيفَ بِكُمْ » « أو يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ »
 « أن يُعَذِّبَكُمْ » « فَتُرْسِلَ عَلَيْكُمْ » « فَتَقْرِئَكُمْ » بالنون في الخمسة على التعظيم ، ولقوله : « علينا »
 الباقون بإيالة ، لقوله في الآية قبل : « إياه » . وقرأ أبو جعفر وشيبة ورؤيس ومجاهد
 « فَتَقْرِئَكُمْ » البناء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة « فَيَقْرِئَكُمْ » بالياء مع التشديد في الراء .
 وقرأ أبو جعفر « الرياح » هنا وفي كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكة في البر ، والماصف
 المغرقة في البحر ؛ حكاه الساموردي . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عِلِيًّا بِهِ نَبِيًّا ﴾ قال مجاهد :
 ثارا . النحاس : وهو من الثار . وكذلك يقال لكل من طلب بثار أو غيره : تبع وتابع ؛
 ومنه « فاتباع بالمعروف »^(٢) أى مطالبة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ
 وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧﴾
 فيه ثلاث مسائل^(٣) :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الآية . لما ذكر من الترهيب ما ذكر
 بين النعمة عليهم أيضا . « كرما » تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كرما أى شرفا وفضلا . وهذا
 هو كرم نقي التقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد
 القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون
 يحمل بإرادته وقصده وتديره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ،
 وهذا لا يقع فيه حيوان أنساع بنى آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون
 الثياب ويأكلون المخبثات من الأطعمة . وغاية كل حيوان يأكل لما ينبت أو طعاما غير

(١) آية ١٧٨ سورة البقرة . (٢) يلاحظ أن المسائل أربع .

مرتب . وحكي الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالقم . وروى عن ابن عباس ؛ ذكره المهدوي والنحاس ؛ وهو قول الكلبي ومقاتل ؛ ذكره الماوردي . وقال الضحاك . كرمهم بالحق والتميز . عطاه . كرمهم بتعديل الغامة وأستادها . ين : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلى الله عليه وسلم منهم . وقيل أكرم الرجال بالحق والنساء بالذواب . وقيل محمد بن جرير الطبري : بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام وانخط . وقيل : بأنهم والتميز . والصحيح الذي يقول عليه أن التفضيل إنما كان بالنقل الذي هو عمدة التكليف ؛ وبه يعرف الله وبهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصدق رسالته ؛ إلا أنه لما لم يتمض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأزلت الكتب . فمثال الشرخ الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأيت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدم من الأقوال بعضها أقوى من بعض . وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالا يفضل بها ابن آدم أيضا ؛ بحرى الفرس وسمه وإبصاره ، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكريم والتفضيل بالنقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانية - قالت فرقة : هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستنون في قوله تعالى : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » . وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به من سائر الحيوان . والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، ولم تعرض الآية لذكرهم ؛ بل بمحتمل أن الملائكة أفضل ، وبمحتمل العكس ، وبمحتمل التساوى ، وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع . وقد تخشى قوم من الكلام في هذا كما تخشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ في الخبر " لا تخافوا بين الأنبياء ولا تعصموني على يونس بن متي " . وهذا ليس بشيء ؛ لوجود

النفس في التفرن في التفضيل بين الأنبياء . وقد ينه لي . البقرة . معنى لها الكلام
في تفضيل الملائكة والمؤمن^(١) .

الثالثة - قوله تعالى : (وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) يعني لذيذ الطعام والمشروب . قال
سقايل : السمن والسسل والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا ينفع عليهم من
التبن والمظام وغيرها . (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) أي على البهائم والدواب
والوحش والطير بالنفلة والاستيلاء ، والتواب والجزاء والحفظ والتميز وإصابة الفيراسة .

الرابعة - هذه الآية تروى ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " إَحْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ طَيِّبَ الطَّامِ فَإِنَّمَا قَوَى الشَّيْطَانُ أَنْ يَجْعَلَ فِي الْمَرْقَةِ
نَهًا " . وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات ، ولا أصل له ؛ لأن القرآن
يردّه ، والسنة الثابتة بخلافه ، على ما تحزق في غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطوسي^(٢) قال :
كان سهل يقاتل ورق التبن مدة ، وأكل دُقاق ورق التبن ثلاث سنين . وذكر إبراهيم بن
البنا قال : سمعت ذا النون من إنهم إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إنفطاره أخرجت
قرصا ومما كان ممي ، وقلت : هلم . فقال لي : ملكك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست
تفعل ! فنظرت إلى منزهه وإذا فيه قليل سويق شعير يسف منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت
شيئا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال ملائنا : وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه ؛
لأن الله تعالى أكرم الآدمي بالحنطة وجعل قشورها لهاثهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب
في أكل التبن ، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج^(٣) ، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير
والمالح الجريش فإنه يخرف مزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والمالح يابس قابض يضر
التماغ والبصر . وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فُتحت فقد قويت حكمة الباري سبحانه
برقمها ، ثم يؤثر ذلك في البدن ، فكان هذا الفعل عثافا للشرع والقول . ومعلوم أن البدن

(١) راجع ج ٢ ص ٢٦١ طبة أول أدوية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبة ثانية أدوية .

(٣) القولنج : مرض يعوى يؤلم بصره يخرج القمل والرج . مزب .

مطية الآدمي، متى لم يُتَّقَ بالمطية لم تُتَّقَ. وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخنزير حواري، فقتل في ذلك كله؟ قال: «إذا وجدنا أكلنا لكل الرجال، وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال». وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفاوذج ثم يقوم إلى الصلاة. ومن هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة والأعراف وغيرهما. والأول ظنُّ الذين يَنُصِّحُهم. ورواية ابتدعوها ما كتبناها عليهم.

قوله تعالى: «يَوْمَ تَدْعُوا كُلُّ أُنَاسٍ بِإِسمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَبِسمِيتِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (١)

قوله تعالى: «يَوْمَ تَدْعُوا كُلُّ أُنَاسٍ بِإِسمِهِمْ» روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: «يَوْمَ تَدْعُوا كُلُّ أُنَاسٍ بِإِسمِهِمْ» قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمتدله في جسمه ستون ذراعا، ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلأ فلا ينفق إلى أصحابه فيروته من بعد فيقولون اللهم اثنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أيسروا لكل منكم مثل هذا - قال - وأما الكافر فيسود وجهه ويمتدله في جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ولبس تاجا فبإياه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا؟ اللهم لا تأثنا بهذا. قال: فيأتيهم فيقولون اللهم أخره. فيقول أبعذك الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. ونظير هذا قوله: «وَنَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». والكتاب يسمى إماما؛ لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقادة والضحاك: «بإمامهم» أي بكتابهم، أي بكتاب كل إنسان منهم الذي فيه عمله؛ دليله «فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِبِسمِيتِهِ». وقال ابن زيد: بالكتاب المترل عليهم. أي يدعى كل إنسان

(١) الفالوذج: حلوا تدل من اللذيق والماء. والمسل: وفي لغات (عن الألفاظ الفارسية).

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ - (٣) راجع ج ٧ ص ١٩٥ طية أولى أو ثمانية.

(٤) آية ٢٧ سورة الحديد - (٥) آية ٢٨ سورة الباقية.

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : بأهل القرآن ، ماذا عملتم ، هل استمتم أوامرهم هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا . وقال مجاهد : « بإمامهم » بينهم ، والإمام من يؤتم به . فيقال : هاتوا متبى إبراهيم عليه السلام ، هاتوا متبى موسى عليه السلام ، هاتوا متبى الشيطان ، هاتوا متبى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بإيمانهم ، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشياهم . وقاله قتادة . وقال على رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » فقال : « كل يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم فيقول هاتوا متبى إبراهيم هاتوا متبى موسى هاتوا متبى عيسى هاتوا متبى عبدا - عليهم أفضل الصلوات والسلام - فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بإيمانهم ويقول هاتوا متبى الشيطان هاتوا متبى رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة » . وقال الحسن وأبو العالية : « بإمامهم » أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم ؛ فيدعون بمن كانوا يأتون به في الدنيا : ياحنفى ، ياشافى ، يامستلى ، ياقدرى ، ونحوه ؛ فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبي عبيدة . وقد تخدم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلى والصوم ، وعكسه الدفاف والغمام ^(١) . وقال محمد بن كعب : « بإمامهم » بأفعالهم . وإمام جمع آثم . قالت الحكاء : وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة ؛ أحدها - لأجل عيسى . والثانى - إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث - لئلا يقتضح أولاد الزنى .

قلت : وفي هذا القول نظر ؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرْفَعُ لكل غادر لواء فيقال هذه غدر فلان بن فلان » ترجمه مسلم والبخارى . فقوله : « هذه غدر فلان بن فلان »

(١) الدفاف : الضارب بالدف . وفي الأصول : « الزفاف » بقرى العجبة .

دليل على أن الناس يدعون في الآخرة بأسماء آبائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يرد على من قال : إنما يسمون بأسماء آلهتهم لأن في ذلك سقرا على آياتهم . والله أعلم .

قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ يَكْفَى حِينَهُ) هذا يعزى قول من قال : « يمامهم » بكافهم . ويعزى أيضا قوله : « وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » . (فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ بِكَلِمَتِهِمْ وَلَا يَظْلُمُونَ قَيْلًا) القليل الذي في شق النواة . وقد مضى في « النساء » .

قوله تعالى : وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى) أى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق . (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ) أى في أمر الآخرة (أَعْمَى) . وقال عكرمة : جاء ضر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله عن هذه الآية فقال : افرموا ما قبلها « رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْغُلُوكَ فِي الْبَحْرِ - إلى - تَضِيلا » . قال ابن عباس : من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يباين أعمى وأضل سبيلا . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان في الدنيا التي أمهل فيها وفُتِّحَ له ووُعدَ بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان في هذه الدنيا كافرا ضالا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان في الدنيا أعمى عن جميع الله بشه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » . (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكًّا وَحُمًا مَلُومًا) . (وَنَحْشُرُهُمْ) . وقيل : المعنى في قوله « فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى » في جميع الأحوال : أشد عمى ؛ لأنه من عمى القلب ، ولا يقال مثله في عمى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمثلة

(١) آية ١٢ سورة يونس (٢) راجع به ص ٢٤٨ طبعه أول مرة ثانية (٣) آية ١٦ سورة يونس

(٤) آية ١٢٤ سورة طه (٥) آية ٩٧ من هذه السورة .

البس والرجل ، فلم يقل ما اعماه كما لا يقل ما ايده . الأخص : لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف ، وأصله أعمى . وقد أجز بعض الحوَّرين ما اعماه وما أعشاه ، لأن فعله عَمِيَ وَعَشَى . وقال الفراء : حدثني بالشام شيخ بصرى أنه سمع العرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر • وفي المخازي لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأتت اليوم الأمهم • لئلا وأيضم ميرال طباح

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف الحرفين « أعمى » و « أعمى » وضع الباقون . وأمال أبو عمرو الأول وضع الثاني . (وَأَضْلَ سَبِيلًا) يعني أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَجِدُوكَ حَلِيلًا ﴿٧٦﴾

قال سعيد بن جبیر : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود في طوافه ، فتمته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى نعلم آلهتنا . فحلفت نفسه وقال : " ما علي أن أتم بها بعد أن يدعوني أسلم الحجر والله سلم أنى لها كاره " فأتى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا : متنا بالهنا سنة حتى نأخذ ما يهتدى لها ، فلما أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فترلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى حتى تجلس معك ونسمع منك ؛ فهم بذلك حتى نهي عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويخفونهم ، ويسودونه ويغارونه ، فقالوا : إنك أتى بني لا يأتى به أحد من الناس ، وأنت سيدنا يا سيدنا ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاتلهم في بعض ما يريدون ،

ثم عصمه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى هذه الآية . ومعنى (لَيَقْتُولَنَّكَ) أى يزولوك . يقال : قتلت الرجل عن رايه إذا أزلته عما كان عليه ؛ قاله المروى . وقيل يصرفونك ، والمعنى واحده . (عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ) أى حكم القرآن ؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن . (لَيَقْتَرِي عَلَيْكَ غَيْرُهُ) أى لختلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول تهيف : وحرم وادينا كما حرمت مكة ، شجرها وطيرها ووحشها ، فإن سألوك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرنى بذلك حتى يكون عنزرا لك . (وَإِنَّا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خيلا ، أى والوك وصافوك ؛ مأخوذ من الخلطة (بالضم) وهى الصداقة لمايلته لهم . وقيل : لاتخذوك خيلا ، أى فقيرا . مأخوذ من الخلطة (بفتح الخاء) وهى الفقر لماجته إليهم .

قوله تعالى ، وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَنَّاكَ لَکَدَّ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَنَّاكَ) أى مل الحق وعصمتك من موافقتهم . (لَکَدَّ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ) أى تمل . (شَيْئًا قَلِيلًا) أى ركونا قليلا . قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : " اللَّهُمَّ لَا تَكُنْ لِى غِشًى طَرَفَةً عَيْنٍ " . وقيل : ظاهر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وباطنه إخبار عن تهيف . والمعنى : وإن كادوا ليركونك ، أى كادوا يخبرونك بأنك ملت إلى قولهم ؛ فنسب فعلهم إليه مجازا وآساعا ؛ كما تحول لرجل : كدت تقتل نفسك ، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ؛ ذكره المهدوى . وقيل : ما كان منه هم بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم ، ولكن تم فضل الله عليك فلم فعل ؛ ذكره القشبرى . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شيء من أحكام الله تعالى وشروائيه .

وقوله : (إِنَّا لَأَنفَتَاكَ بِضَعْفِ الْحَيَاةِ وَضَعْفِ الْمَمَاتِ) أى لو ركت لأنفك مثل
 حنظل الخلية في الدنيا ومثل عذاب ثلاث في الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وهذا
 غاية العريضة . وكلما كانت الدرجة أجل كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِآيَاتٍ مِنَّا بَيِّنَاتٍ لِّتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَلِكُ الْمُنِيبُ ۚ ضَعُفُ الشَّيْءِ
 مثله مرتين ، وقد يكون الضعف التصيب ؛ كقوله عز وجل : وَلِكُلِّ ضَعْفٍ أَى نصيب .
 وقد تظم في الإعراف .

قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
 وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٦﴾

هذه الآية قبل إنها مدنية ؛ حسبما تظم في أول السورة . قال ابن عباس : حدثت
 اليهود مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام ؛ فإن كنت
 نبيا فأتنا ؛ فإنك إن خرجت إلينا صدقتك وأمانك ؛ فوقع ذلك في قلبه لما يجب من
 إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن قيس :
 غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل
 « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ » بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع . وقيل :
 إنهم مكة . قال مجاهد وقادة : نزلت في هم أهل مكة بإخراجهم ؛ ولو أخرجوه لما أمهلوا
 ولكن الله أمره بالمجزة فخرج ، وهذا أصح ؛ لأن السورة مكة ؛ ولأن ما قبلها خبر عن أهل
 مكة ، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : (مِنَ الْأَرْضِ) يريد أرض مكة . كقوله : « فَلَنُأَخْرِجَنَّكَ
 مِنَ الْأَرْضِ » أى أرض مصر ؛ دليله « وَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ
 مِنْهَا » . معناه : هم أهلها بإخراجهم ؛ فهذا أضاف إليها وقال « أَنُخْرِجُكَ » . وقيل :
 هم الكفار كلهم آن يستخفوه من أرض العرب بظواهرهم عليه فتنة الله ، ولو أخرجوه

(١) آية ٣ سورة الأعراف (٢) راجع ٧ ص ٢٠ طبقات أول أو ثانية . (٣) كبة مفسورة بوضعه .

(٤) آية ١٤ سورة محمد . (٥) في الأصول : « إليهم » وهو محرف .

من أرض العرب لم يمهّلوا، وهو معنى قوله : (وَإِنَّا لَا يَبْتَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) . وقرا عطاه
ابن أبي رباح « لا يَبْتَثُونَ » الباء مشددة . « خلقك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو،
ومعناه بسلك . وقرا ابن عامر وحفص وحزرة والكسائي « خلافاك » واختاره أبو حاتم ،
اعتبارا بقوله : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ » ومعناه أيضا بسلك ؛ قال الشاعر ،
عَفَّتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا • بسط الشواطئُ بينَ حَصِيصَا

بسط البواسط في الماوردي . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لعمل منه
الحصر . قال أبو عبيد : ثم تلقى الشاطبة إلى المتقى . وقيل : « خلقك » بمعنى بسلك .
« وخلافك » بمعنى مخالفتك ؛ ذكره ابن الأنباري . (إِلَّا قَلِيلًا) فيه وجهان : أحدهما —
أن المدة التي لبسها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر ؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش .
الثاني — ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير ؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعالى : سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا
تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا) أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا ؛
فهو نصب بإصهار يعذبون ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل ؛ قاله الفراء . وقيل : انتصب
على معنى مناسنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف ؛ التقدير
لا يبتسون خلقك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : « إلا قليلا »
ويوقف على الأول والثاني . « قبلك من رسلنا » وقف حسن . (وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)
أي لا تخلف في وعدنا ،

قوله تعالى : أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأول - قوله تعالى : (أُمِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ) لما ذكر مكابد للشركيين أمر فيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة ، وفيها طلب النصر على الأعداء . وشبه « وَلَقَدْ تَمَّمْتُمْ لَكَ يَتَّبِقُ مَسْرُوكَ يَمَّا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » .^(١)
وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء في الذلوك هل قولين : أحدهما - أنه زوال الشمس عن كبد السماء ؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من طلبة التابعين وغيرهم . الثاني - أن الذلوك هو الغروب ؛ قاله علي وابن مسعود وأبو بن كعبه وروى عن ابن عباس . قال الماوردي : من جعل الذلوك اسما لغروبها فلائن الإنسان بذلك عينه براحة لتيبها حالة الغيب ، ومن جعله اسما لزوالها فلائنه يهلك عينه لشدة شعاعها . وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها . ودلكت برآح بنى الشمس ؛ أى غابت .
وأشد قطرب :

هَذَا مُقَامٌ قَدَّمَ رِيَّاحٌ . ذَبَّيْ حَقِّي ذَلَكْتُ رِيَّاحٌ

رياح (فتح الباء) على وزن حَرَامٍ وقَطَامٍ ورقاس اسم من أسماء الشمس . ورواه القزواء (بكر الباء) وهو جمع راحة وهى الكف ؛ أى غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفّه على حاجبه . ومنه قول الصّجاج :

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَفْعًا . أَدْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَى تَرْتَحَقَا

قال ابن الأعرابي : الزحلوقة مكان منحدر أملس ، لأنهم يترحلون فيه . قال : والزحقة كالترحمة والدفع ؛ يقال : زحقت فترحت . ويقال : دلكت الشمس إذا غابت .
قال ذو الرمة :

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا . مَجُومٌ وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدَّوَاتِكِ

(١) آية ٩٧ سورة الحجر . (٢) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبع ثانية أوردته (٣) أى به الحرة .

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل - في اللغة - فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب مومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا ، لأنها في حالة ميل . فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده ؛ فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب ، ويصح أن تكون المغرب داخلة في غسق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتأدى وقتها من الزوال إلى الغروب ؛ لأن الله سبحانه علّق وجوبها على الدلوك ، وهذا دلوك كله ؛ قاله الأوزاعي وأبو حنيفة في تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعي في حالة الضرورة .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ إِنْ غَسَقَ اللَّيْلُ ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس مبها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الفسق سواد الليل . قال ابن قيس الرقيات :

إِنْ هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا . وَاسْتَكْبَتُ الْمَمَّ وَالْأَرْقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظَلَّتْ تَجْمُودُ يَدَاها وَهِيَ لَدَايَ . حَتَّى إِذَا جَنَحَ الْإِظْلَامُ وَالْفَسَقُ

يقال : غسق الليل غسقا . والغسق أسم بفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان ؛ يقال : غَسَقَتِ العين إذا سالت ، غَسَقَ . وغَسَقَ الجرح غَسَقَانَا ، أى سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذن ، أى أخرج المغرب إلى غسق الليل . وحكى الفراء : غَسَقَ الليل وأغسق ، وظلم وأظلم ، ودجا وأدجى ، وغَبَسَ وأغبس ، وغَبَشَ وأغبش . وكان الربيع بن خثيم يقول لمؤذنه في يوم غيم : أغسق أغسق . يقول : أخرج المغرب حتى يغسق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثة - اختلف العلماء في آخر وقت المغرب ؛ فقليل : وقتها وقت واحد لا وقت لما لا حين تعجب الشمس ، وذلك حين في إمامة جبريل ؛ فإنه صلاحا باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس ، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قولى الشافعي في المشهور عنه أيضا ، وبه قال الثوري . وقال مالك في الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجت من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

ابن حاتم واحد وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبي موسى عوفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فأنشأ حتى كان عند سقوط الشفق ؛ فخرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من قبله وأمره ؛ لأنه تابع لما قبله . وزعم ابن العربي أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك ، وقوله في موطنه الذي أفراه طول عمره وأمله في حياته .

والنكسة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها ؟ والأقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغواً فإننا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكل إلى الآخر .

قلت : القول بالتوسعة أرجح . وقد خرج الإمام المافظ أبو محمد عبد النبي بن سعيد عن حديث الأجلع بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريباً من غروب الشمس فلم يُصَلِّ المغرب حتى أتى سِرف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس بالبين وإن كان التاريخ معلوماً ؛ فإن الجمع ممكن . قال طحاña : يُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب ؛ ولذلك آخفت الأمة فيما عمل تسجيلها والمبادأة إليها في حين غروب الشمس . قال ابن خزيمة : ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التوسعة تبين وقت الجواز ، فيرفع التامض ويصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باخلاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الراية — قوله تعالى : (وَقرآن الفجر) انتصب « قرآن » من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة ؛ المعنى : وأتم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ، قاله الفراء . وقال أهل البصرة . انتصب على الإغراء ؛ أى فعلك بقرآن الفجر ؛ قاله الزجاج . وعبر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات ؛ لأن القرآن هو أعظمها ، إذ قراءتها طويـلة بمجهور بها حسبما هو مشهور مسطور ؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطوال المفصل ، ويلبث في ذلك الظهر والجمعة — (تخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء . وقد قيل في العصر : إنها تخفف كالغرب . وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيها استقر فيه التقصير ، أو من التقصير فيها استقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته في الفجر المودتين — كما رواه النسائي — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب ، فتدرك بالعمل . ولإنكاره على معاذ الطويل حين أتم قومه في العشاء فانتزع سورة البقرة . خرجه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : "أبها الناس إن منكم متفرين فأبكم أتم الناس" فيلخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذو الحاجة" . وقال : "فإذا صلى أحدكم وحده فليطول ما شاء" . كله مسطور في صحيح الحديث .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة ؛ لأنه تنمى الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والقائد في كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة في جُل الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب في ركعة واحدة ؛ قاله الميـتة ومحنون . وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة . وهو أشد الروايات عنه . وحكى عن مالك أيضا أنها تجب في نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعي . وعن الأوزاعي أيضا وأيوب أنها تجب على الإمام والقائد والمأموم على كل حال . وهو أحد قولي الشافعي . وقد مضى في (الفتاوى) مستوفى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : "تسبده

ملائكة الليل وملائكة النهار " هذا حديث حسن صحيح . ورواه علي بن مسير عن الأعشى . عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قُبلَ صلاةُ الجمعِ على صلاةِ الواحدِ خمسَ وعشرونَ درجةً وتجتمعُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الصبحِ " . يقول أبو هريرة : افرموا إن شئتم « وقرآنُ الفجرِ إن قرآنَ الفجرِ كان مشهوداً » . ولهذا المعنى يُكرِّهُ هذه الصلاة ، فمن لم يكره تشهدَ صلاته إلا إحدى التين من الملائكة . . ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والثايني : التَّغْلِيصُ بالصبح أفضل . وقال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التَّغْلِيصِ والإِسْفَارِ ، فإن قامَ ذلك بالإِسْفَارِ أَوَّلَى من التَّغْلِيصِ . وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعلُه من المداومة على التَّغْلِيصِ ، وأيضاً فإن فيه غُيُوبَ شهودِ ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعة — استدلى بعض العلماء بقوله صلى الله عليه وسلم : " تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار " على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار . قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ؟ فإن في الصحيح عن النبي القُصْبِ عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : " يتأقَّبونَ فيكم ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ فيجتمعونَ في صلاةِ العصرِ وصلاةِ الفجرِ " الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والإيمان ، وهذا واضح .

قوله تعالى : **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴿٦٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (**وَمِنَ اللَّيْلِ**) « من » تبيين . والفاء في قوله « فتَهَجَّدْ » تاسقة على مضمر ، أي قم تهجد . (**بِهِ**) أي بالقرآن . والتهجد من المجرد وهو من الأضداد . يقال : هجد نام ، وهجد سهر ؛ على الضد . قال الشاعر :

ألا زارت وأهل منى مجود . وليت خيالها بنى يسود
آخر :

ألا طرقتنا والرفاق مجود . فباتت بيلات النوال تجود^(١)

يعني نياما . ومجد وتهجد بمعنى . ومجده أي أعنته ، ومجده أي أيقظته . والتهجد التيقظ
بعد رُقدة ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينبغي لها . فاتتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال
معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من
حديث المجاج بن عمر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من
الليل كله أنه قد تهجد ! إنما التهجد الصلاة بعد رُقدة ثم الصلاة بعد رُقدة ثم الصلاة بعد
رُقدة . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : المجود النوم . يقال :
تهجد الرجل إذا سهر ، وألقى المجود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن
المتهجد هو الذي يلقى المجود الذي هو النوم عن نفسه . وهذا الفعل جار مجرى تحوُّب
ومحزج وتأم وتحت وتقدّر وتجنس ؛ إذا أتى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعالى : « فَظَلَمَ
تَمَكُّهَوْنَ »^(٢) معناه تنمَّهَوْنَ ؛ أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم ، وهي انبساط النفوس
وسرورها . يقال رجل فيكه إذا كان كثير السرور والضعك . والمعنى في الآية : ووقتا من
الليل أسهر به في صلاة وقراءة .

الثانية - قوله تعالى : (نَافِلَةٌ لَّكَ) أي كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء
في تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة
عليه لقوله : « نافلة لك » أي فريضة زائدة على الفريضة الموطقة على الأمة .

ثم قلت : وفي هذا التأويل بُدِّل لوجهين : أحدهما - تسمية القرض بالنفل ، وذلك مجاز
لا حقيقة . الثاني - قوله صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات فرضهن الله على العباد »
وقوله تعالى : « من خمس ومن خمسون لا يئذل القولُ لَدَيَّ » وهذا نص ، فكيف يقال
أقرض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ؛ وإن كان قد روى عنه عليه السلام :

(١) لَفْظُهُ (مَا) : مَا يَطْلَاهُ ، مِثْلُ الصَّبَةِ . (٢) آية ٦٥ سورة الواقعة .

« ثلاث على فريضة ولا تمى تطوع قيام الليل والوتر والسواك » . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعا منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتى مينا في سورة « المزمل » إن شاء الله تعالى .
وعلى هذا يكون الأمر بالتغفل على جهة التنبه ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مفقود له . فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات . وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : صلية ؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة .

الثالثة - قوله تعالى : (عَسَى أَنْ يَمَنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأول - وهو أحدها - الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حذيفة بن اليمان . وفي صحيح البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة ^(١) جثا كل أمة تتبع نبيا تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يعثه الله المقام المحمود . وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لنزيتك فيقول لست لها ولكن عليكم إبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم موسى لأنه كلم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم يعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم محمد صلى الله عليه وسلم فأقول لئالها » وذكر الحديث . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « عَسَى أَنْ يَمَنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » سئل عنها قال : « هي الشفاعة » قال : هذا حديث حسن صحيح .

(١) جثا (جمع جثوة بكسر الهمزة) أي جثات .

الرابعة - إن ثابت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأتقياء عليهم السلام، حتى يقبى الأمر إلى نبيّا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليحصل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". قال القاسم: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكآبر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إنجراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأتقياء بل يشفعون ويشفع العلماء. وقال القاضي أبو الفضل عياض: شفاعات نبيّا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة في قوم من موحدى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فوشفع فيهم نبيّا صلى الله عليه وسلم، ومن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هي التي أنكرها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فتمتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقل المبنى على التحسين والتقصيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبيّا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأتقياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترقيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول.

الخامسة - قال القاضي عياض: وعرف بالقتل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للذنين، فلها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل قائل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتد بعمله مشفق أن يكون من المالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعوا بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف. روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدرة الثامة والصلاة القائمة أت عبدا - صلى الله عليه وسلم - الوسيلة والفضيلة وأبته مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة".

القول الثاني — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .
روى الترمذى عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر وببدي لواء الحمد ولا نخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى »** الحديث .

القول الثالث — ما حكاه الطبرى عن فرقة ، منها مجاهد ، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسية ، وروت في ذلك حديثا . وعصّد الطبرى جواز ذلك بشطيط من القول ، وهو لا يخرج إلا على تلطف فى المعنى ، وفيه بُعد . ولا يتكرّم ذلك أن يروى ، والمسلم يتأوله . وذكر القشاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم ، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر ومجاهد : وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا والثانى فى تأويل قوله تعالى : **« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ . إِيَّ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »** قال : تنظر الثواب ؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا فى باب ابن شهاب فى حديث التنزيل . وروى عن مجاهد أيضا فى هذه الآية قال : يجلسه على العرش . وهذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلها والعرش قائما بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها ، بل إظهارا لقدرة وحكمته ، وليعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحمكة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان ؛ فلى هذا القول سواء فى الجواز أقدم على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الاستقلال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش ، بل هو مستقر على عرشه .

كما أخبر عن نفسه بلا كَيْف . وليس إقامته محمداً على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مُخرجا له عن صفة العبودية ، بل هو رفع لمحله وتثريف له على خلقه . وأما قوله في الإخبار : « معه » فهو بمنزلة قوله : « إِنْ الدِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ » ، و « رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » ، و « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الزينة والمثالة والحظوة والدرجة الرفيعة ، لا إلى المكان .

الرابع - إخراجهم من النار بشفاعته من يخرج ؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه في (كتاب النذرة) والله الموفق .

السادسة - اختلف العلماء في كون القيام بالليل سببا للقيام المحمود على قولين ، أحدهما - أن البارئ تعالى يعمل ما شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه ، أو بمعرفة وجه الحكمة . الثاني - أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ومناجاة في قيامه وهو المقام المحمود . ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلهم فيه درجة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يُعطى ما لا يُعطى أحد ويُسْفَع ما لا يُسْفَع أحد . ز « عسى » من الله عز وجل واجبة . و « مقاما » نصب على الظرف . أى في مقام إد إلى مقام . وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأنبي » . فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأموال الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك .

قوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ
وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ مُلْكًا نَصِيرًا ﴿٥٥﴾

قيل : التي أمّتي إمامة صدق ، وإبنتي يوم القيامة بيعت صدق ؛ لينצל بقوله : « عسى أن يَمُنَّكَ وَيُكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » . كأنه لما وعده ذلك لمسه أن يدعو ليُجْزله

الوعد . وقيل : أدخلني في المأمور وأخرجني من النبي : وقيل : علمه ما يدعوه في صلاته
 وغيرها من إخراجها من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن ؛ فأخبره من مكة وصية إلى
 المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة
 ثم أمر بالهجرة فقلت « وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي
 من لدنك سلطانا نصيرا » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه
 من مكة ودخوله مكة يوم الفتح أمنا . أبو سهل : حين رجع من تبوك وقد قال المناقبون :
 « لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » ^(١) بنى إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة . وقيل : للمعنى
 أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أُنْفِيتُ ؛
 قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج ؛ كقوله : « أنزلني
 منزلا مباركا » ^(٢) أى إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهى قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية
 ونصر بن عاصم « قدخل » و « مخرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج ؛ فالأول
 رباعى وهذا ثلاثى . وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني
 مخرج صدق عند البعث . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ؛ أى
 لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه ؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك . وقيل :
 الآية عامة في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويُنْتَظَرُ من تصرفه
 المقادير في الموت والحياة . فهى دعاء ، ومعناه : رب أصلح لي وزدني في كل الأمور وصدري .
 وقوله : (وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) قال الشعبي وعكرمة : أى حجة ثابتة . ونهجه
 الحسن إلى أنه المز والنصر وإظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله ليقترع ملك فارس
 والروم وغيرها فيجمله له .

قوله تعالى : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ

كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى البخاري والترمذي عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثائة وستون نَصْبًا ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخضرة في يده - وربما قال يعود - ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا في حديث مسلم « نَصْبًا » . وفي رواية صفاء . قال علماءنا : إنما كانت بهذا المدد لأنهم كانوا يظنّون في يوم صفاء ويخصّون أعظمها بيومين . وقوله : " فجعل يطعنها بعود في يده " يقال : إنما كانت مثبته بالرصاص وأنه كلما طعن منها صفاء في وجهه نثر لقفاه ، أو في قفاه نثر لوجهه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " حكاه أبو عمر والقاضي عياض . وقال القشيري : فما بقي منها صنم إلا نثر لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

الثانية - في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا قلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آية الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمصية الله كالطناير والبيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصُورُ المتخذة من المَدَر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذ الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه . ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غُيرت عما هي عليه وصارت تُقسر أو قطعاً فيجوز بيعها والشراء بها . قال المهلب : وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسر ما منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة ؛ لأن أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضي الله عنه . وقد تم النبي صلى الله عليه وسلم بحرق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة التي امتنها صاحبها :

”ذموا فإنها ملعونة“ فأزال ملكها عنها ناديا لصاحبها ، وعقوبة لها فيما دعت عليه
بما دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لثيب بماء على صاحبه .

الثالثة — ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : ” والله ليترن
عيسى بن مريم حكما عادلا فليكرم الصليب وليقتل الخنزير وليضعن الخنزيرة ولتتركن القلاص^(١)
فلا يسى عليها “ الحديث . نخرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هنك النبي صلى الله عليه وسلم
الستر الذى فيه الصور ، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملامى كما ذكرنا . وهذا
كله يحظر المنع من اتخاذهما ويوجب التنير على صاحبها . إن أصحاب هذه الصور يمدحون
يوم القيامة ويقال لهم : أحبوا ما خلقتم ، وحسبك ! وسيأتى هذا المعنى فى « النمل » إن
شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ) أى الإسلام . وقيل : القرآن ، قاله مجاهد . وقيل :
الجهاد . (وَزُحِقَ الْبَاطِلُ) قيل الشرك . وقيل الشيطان ، قاله مجاهد . والصواب تمام
اللفظ بالناية الممكنة ، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه . « وزهق الباطل » :
بطل الباطل . ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقال زهقت نفسه زهوفاً ،
وزاهقتها . (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوفاً) أى لا بقاء له ، والحق الذى يثبت .

قوله تعالى : وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾

أجبه مع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَنَزَّلَ) قرأ الجمهور بالتون . وقرأ مجاهد « وَنَزَّلَ » بالياء
خفيفة ، ورواهما للروى عن حفص . و « من » لابتداء الناية ، ويصح أن تكون ليأن
الجلس ، كأنه قال : ونزل ما فيه شفاء من القرآن . وفى الخبر ” من لم يستشِف بالقرآن

(١) القلاص (بكر التلاف مع القلاص) روى فى الثالثة .

فلا شفاء الله . وأنكر بعض التأولين أن تكون « من » للتبويض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن يعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون للتبويض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعض ، فكأنه قال : وتزل من القرآن شيئاً شفاء ؛ ما فيه كله شفاء .

الثانية - اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين : أحدهما - أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني - شفاء من الأمراض الظاهرة بالرّيق والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة - واللفظ للدارقطني - عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرة ثلاثين رجلاً قال : فقلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيغوا فأبوا ، قال : فليدع سيد الحي ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يري من المقرب ؟ في رواية ابن قتيبة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفضل حتى تعطونا . فقالوا : فإذا تعطيك ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ . في رواية سليمان بن قتيبة عن أبي سعيد : فأفاق وبرأ . فبعث إلينا بالثّل وبعث إلينا بالشاة ، فاكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبوأ أن يأكلوا من النعم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : « وما يدريك أنها رقية » قلت : يا رسول الله ، شيء ألقى في روعي . قال : « كلوا وأطعموا من النعم » خرجه في كتاب السنن . ونخرج في (كتاب المسدح) من حديث السري بن يحيى قال : حدثني المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينفع باذن الله تعالى من البرص والجذون والجذام والبطن والسّل والجُحى والنّفس أن تكتب بزعفران أو بمشق - يعني المّرة - أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلّها عامّة من شر السّامة والفسانة ومن شر العين اللّاحة ومن شر حامد إذا حسد ومن أذى قروّة وما ولد » . كذا قال ، ولم يقل من شر أبي قرة ، العين اللّاحة : التي تصيب بسمه . تقول : أعينه من كلّ هامة لامة . وأما قوله :

(١) في بعض الأصول : « الحج » ولم يرق تصويره .

(٢) أبو قرة (يكرهه الله ويكون له) : كنية لأبيس .

أصغره من حادثات الآلة فيقول : هو الدهر . ويقال الشدة . والسامة : الخاصة
يقال : كيف السامة والعامه . والسامة السم . ومن أبي فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون
من الملائكة أنوا ربهم عز وجل فقالوا : وَصَّبْ بَارِضًا . فقال : خذوا تربة من أرضكم
فأمسحوا نواصيكم . أو قال : نوصيكم رقية عبد صلى الله عليه وسلم لا أفزع من كسها أبدا
أو أخذ عليها صفعا^(١) . ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التي فيها
تصرف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم سورة البقرة من موضع « قه
ما في السموات وما في الأرض » إلى آخرها ، وعشرا من أول « آل عمران » وعشرا من
آخرها ، وأول آية من النساء ، وأول آية من المائدة ، وأول آية من الأنعام ، وأول آية من
الأعراف ، والآية التي في الأعراف « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » حتى
تتم الآية ، والآية التي في « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » ، والآية التي في طه « وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا
إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » ، وعشرا من أول الصافات ، و « قل هو
الله أحد » ، والمعوذتين . تكتب في إثناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحترق
منه الوجد ثلاث حنوت ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى
يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدرة وظهره ولا يستنجى به ثم يصل
ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل ؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب في كل يوم كتابا .
في رواية : ومن شر أبي قتره وما ولد . وقال : « فأمسحوا نواصيكم » ولم يشك . وروى
البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات
فيه بالمعوذات فلما تقل كنت أنفث عليه بين وأمسح بيده فيه لبركتها . فالت الزمري^(٢)
كيف كان ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه . وروى مالك عن
ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

(١) آية ٩٩

(٢) آية ٨١

(٣) آية ٥٤

(٤) الصدق : الطاهر .

(٥) السائل هو مرة بن الزبير وروى الحديث .

المؤذنين وتخل أو قَت . قال أبو بكر بن الأثير : قال اللغويون تفسير « قَت » فتح
 قعنا ليس معه ريق . ومعنى « تَحَل » فتح قعنا معه ريق . قال الشاعر :
 فان يرا فلم أنث عليه . وإن يُقَدَّ فحق له الفقد .
 وقال ذو الرمة :

ومن جوف ماء عَرَضَ الحولِ فوقه . متى يمس منه ما يحل القوم يتقل
 أراد ينفخ بريق . وسأى ما العلماء في الفت في سورة القلق إن شاء الله تعالى .

الثالثة - روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرقي
 إلا بالمعوذات . قال الطبري : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدين ، إذ في قلته
 من لا يعرف . ولو كان صحيحا لكان إما ظلما وإما منسوخا ، لقوله عليه السلام في القاعة
 « ما أدراك أنها رقية » . وإذا جاز الرقي بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر
 القرآن مثلها في الجواز إذ كل قرآن . وروى عنه عليه السلام أنه قال : « شفاه أمتي
 في ثلاث آية من كتاب الله أو لقمة من صل أو شرطة من عجم » . وقال رجاء الفزوي :
 ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاؤه .

الرابعة - واختلف العلماء في النشرة ، وهي أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن
 ثم يفسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يصفه ، فأجازها سعيد بن المسيب . قيل له : الرجل
 يؤخذ من أمراته أيحل عنه ويقتل ؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم يئنه عنه . ولم يرجع
 لأن يكتب البآيات من القرآن ثم تمل ثم يصفاه صاحب الفزع . وكانت طائفة تقرا بالمعوذتين
 في إناء ثم تأمر أن يصب على المريض . وقال المازني أبو عبد الله : النشرة أمر معروف
 عند أهل التعزيم ، وتسمى بذلك لأنها تشر من صاحبها أي تحل . ومنها الحسن وإبراهيم
 النخعي ، قال النخعي : أخط أن يصيبه بلاء ، وكأنه ذهب إلى أنه ما يمس . به القرآن فهو

(١٠) القوم : الذين يتكلمون بالقرآن . والحق والطلب . والماء (الماء) : الماء الذي فيه
 لا يضر . والماء (الماء) : الماء الذي فيه .

إلى أن يقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أنسًا فقال :
 ذكروا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر
 ابن عبد الله قال : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة فقال : " من عمل الشيطان " .
 قال ابن عبد البر . وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا
 كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وعن مداواة المعروفة . والنشرة
 من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل ، فهي كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وقال صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك ومن استطاع منك أن ينفع
 أخاه فليفعل " .

قلت : قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه .
 الخامسة — قال مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على
 أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يُرد ملحقها بتعليقها مداواة العين . وهذا معناه قبل
 أن يتزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندهم أن يعلق على
 الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من الملائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلق بعد نزول
 البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى ، فهو كالأرق المباح الذي
 وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد روى عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : " إذا فرج أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء
 عقابه ومن شر الشياطين وإن يحضرون " . وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم ، ومن
 لم يدرك كتبها وعلقها عليه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 " من علق شيئا وكل إليه " . ورأى ابن مسعود على أم ولده تيمعة مرسولة بقبسها جبنا
 شديدا فقطعها وقال : إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك ، ثم قال : إن الثمام والرقى والثروة
 من الشرك . قيل : ما الثروة ؟ قال : ما تحببت به لزوجها . وروى عن عتبة بن حاصم
 الجهمي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من علق تيمعة فلا تيمع له "

ومن خلق ودعة فلا ودع الله له قبا . قال الخليل بن أحمد : القيمة قلادة فيها عود ، والودعة
 نمرز . وقال أبو عمر : القيمة في كلام العرب القلادة ، ومعناه عند أهل العلم ما علق في الأضلاع
 من القلادة خشية العين أو غيرها أن تزل أو لا تزل قبل أن تزل . فلا أتم الله عليه سمته
 وطائفة ، ومن تلقى ودعة - وهي مثلها في المعنى - فلا ودع الله له ، أي فلا بارك الله له
 ما هو فيه من آفاته . والله أعلم . وهذا كله تحذير بما كان أهل الحماوية يصنعونه من تعليق
 التاتم والقلادة ، ويقولون أنها تقيم وتصرف عنهم البلاء ، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل ،
 وهو الملقى بالليل ، لا شريك له . فهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون
 من ذلك في جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما علق بعد زول البلاء فليس من التاتم .
 وقد كرم بعض أهل العلم تعليق القيمة على كل حال قبل زول البلاء بعده . والقول الأول
 أصح في الإثراء والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعلقه
 غير القرآن ، ليس يفسد من الساقين والكهانة ، إذ الاستشفاء بالقرآن معقول وغير معقول لا يكون
 شركا ، وقوله عليه السلام : " من علق شيئا وكل إليه " فمن علق القرآن يفتنى أن يتولاه الله
 ولا ينكله الله غيره ، لأنه تعالى هو الغروب إليه والمتوكل عليه في الاستشفاء بالقرآن .
 يحتل لمن السبب عن التوحيد أصلا ؟ قال : إنما كان في قصبة أو رقعة يبرز فلا بأس به .
 وحقا على الله المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلق الرجل الشيء
 من كتاب الله إذا وضعه على الجراح . وخص أبو جعفر محمد بن علي في التوحيد
 بخاصة حمل الصبيان . وكان يهين مبرين لا يرى بأسا بالشيء من القرآن بقلعه الإنسان .

السادسة - قوله تعالى : (وَيُوحِيهِ لِلَّذِينَ) تخرج الكروب وتظهر العيوب
 وتكفي للنخب مع ما فضل به تعالى من التواب في تلاوته ، كما روى الترمذي عن عبد الله
 ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة
 والحسنة بمئة ألف حسنة لا أقول لكم حرف بل أئب حرف ولا هم حرف ولا هم حرف " قال هذا
 صلب حسن صحيح غريب . وقد عظم . (وَلَا يَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خسارا) لتكديهم . قال

قناة : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه زيادة لو قصان ، ثم قرأ : وَتَرَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ
بِقَاءُ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَنُفَاةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا هَدَىٰ وَشَفَاءٌ
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آثَانِهِمْ وَقَسْرٌ وَهُوَ طَائِفٌ عَمَى . . . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام
لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا) أي هؤلاء الذين يزيدهم
القرآن خساراً صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت في الوليد
ابن المغيرة . ومعنى « ناسى بِنِعْمَتِنَا » أي تكبر وتباعد . وناه مغلوب منه ، والمعنى : بعد من القيام
بحقوق الله عز وجل ، يقال : ناسى الشيء أي بعد . وناسيته وناسيت عنه بمعنى ، أي نسيت .
وَأَناسيته فَأَناسَى : أي أبعدته فبعد . وتساءلوا تساءلوا . والمتأني : الموضع للبعد .
قال النابغة .

فإنك كالبلبل الذي هو مُنْذِرُكَ . . . وإن غلَّتْ أَنْ تَتَأَنَّى عَنْكَ وَاسِعٌ
وقرأ ابن عاصم في رواية ابن ذكوان : ناه . مثل باع ، الميزة مؤنثة ، وهو على طريقة
القلب من ناسى ، كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من التواء وهو التهوؤ والقيام . وقد يقال
أيضاً للوقوع والجلوس نواه وهو من الأضداد . وقرئ : وتنى « بفتح التاء وكسر الهمزة »
والعامة « ناسى » في وزن رأى . (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) أي إذا ناله شدة من قهر
أو سقم أو يؤس يئس وقسط ، لأنه لا يبقى بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ
هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ) قال ابن عباس : فاجتبه . وقاله الضحاك : مجاهد : طبيعته . وعنه : حديثه . ابن زيد : على دينه . الحسن وقادة : نيته . مقاتل : يحيله . القراء : على طريقته ومذهبه الذي جُبِلَ عليه . وقيل : قل كل يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب في اعتقاده . وقيل : هو ما خوذ من الشكل ؛ يقال : لست على شَكْلِي ولا شاكِئِي . قال الشاعر :

كل أمرئ يشبه فعله • ما يفعل المرء فهو اهله

فالشكل هو المثل والنظير والضرب . كقوله تعالى : « وَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجٍ » . والشكل (بكسر الشين) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . وهذه الأقوال كلها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على ما يشاء كل أصله وأخلاقه التي انفها ، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن . والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة ، ذكره المهدوي . (قَرَّبَكُمْ أَلَمْ يَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) أي بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « اهْدَى سَبِيلًا » أي أسرع قبولًا . وقيل : أحسن دينًا . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تناكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ » فإنه لا يشاء كل العبد إلا العصيان ولا يشاء كل بالرب إلا النفران . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أرفه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » . حم . تَبْرِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . ظَاغِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الْعُلُولِ » قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفي هذا إشارة للمؤمنين . وقال عثمان ابن عفان رضي الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أرا آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « تَبَّحُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرى من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَنفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَبْرَقُونَ » .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧٠﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حثرت وهو متكئ على صيْبٍ إذ خسر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح . فقال له : ما رأيكم إليه ؟ وقال بعضهم : لا يستبلكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسلوه عن الروح فامسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً فقلت أنه يوشى إليه ، فقصت معانيه فلما نزل الوحي قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظه البخاري . وفي مسلم : فاسكت النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتيا . وقد اختلف الناس في الروح المستول عنه ، أي الروح هو ؟ فقل : هو جبريل عليه السلام . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو ميس . وقيل القرآن ، على ما يأتي بيانه في آخر الشورى . وقال علي بن أبي طالب : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، في كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تبارك بكل تلك اللغات فيخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبري . قال ابن عطية : وما أظن القول بصح عن علي رضي الله عنه .

قلت : أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطراقي حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (١) آية ٥٢ سورة الزمر . (٢) آية ٨٧ سورة الأنعام . (٣) نعم ما دعاكم الله حوله فغشون ما فيه بأن يستبلكم بشيء تكرهونه .

عباس في قوله : « ويسألونك عن الروح » يقول : الروح ملك . وبإسناده عن معاوية بن صالح حدثني أبو هريرة (بكسر الهاء) يزيد بن سُمرة عن حمزة عن علي بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه . الحديث بلفظه ومعناه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لم يمد أيد وأرجل بأكون الطعام ؛ ذكره الترمذي . وقال الخطابي : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلق . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان ، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق تكسب بني آدم وليسوا ببني آدم ، لم يمد أيد وأرجل . والصحيح الإجماع لقوله : « قِيلَ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » ... أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، مُبَيَّنًا له وتواركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإنا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تمييز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلائل على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : (وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا قَلِيلًا) اختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بمجملتهم . وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العالم كله . وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتهم » . وقد قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف لم تُوت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ؟ فأوضحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعم الله فتيلوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث : « كَلَّا » يعني أن المراد به « ما أوتيتهم » جميع . (١) مكان هذه الأسفار في جميع نسخ الأصل : « دليل على خلق الروح » . ولم زلفها بلغة في سياق الكلام حتى .

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عبيت أم قومك . فقال : «سُكَّلا» . وفي هذا المعنى
 نزلت « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » . حكى ذلك الطبري رحمه الله ! وقد قيل :
 إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن
 ذى القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن آسفين وأمسك عن واحدة فهو نبي ؛ فأخبرهم خبر
 أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين على ما أتى . وقال في الروح : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »
 أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس .
 قوله تعالى : وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِأَلَدِي أَوْحِينَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا نَجِدُ
 لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ
 كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : (وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِأَلَدِي أَوْحِينَا إِلَيْكَ) يعني القرآن . أي كما قد مرنا على
 إزاله تقدير على إذهابه حتى يسهاء الخلق . ويتصل هذا بقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »
 أي ولو شئنا أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . (ثُمَّ لَا نَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا)
 أي ناصرا يرده عليك . (إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛
 فهو استثناء ليس من الأول . وقيل : إلا أن يرحمك ربك فلا يذهب به . (إِنَّ فَضْلَهُ
 كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) إذ جعلك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا للكتاب العزيز .
 وقال عبد الله بن مسعود : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخرها تفقدون الصلاة ،
 وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شيء . فقال رجل : كيف
 يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعمناه أبناءنا ويعلمه
 أبناؤنا ابتاعهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب ،
 فتصبح للناس كالبهايم . ثم قرأ عبد الله « وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِأَلَدِي أَوْحِينَا إِلَيْكَ » الآية .
 أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأخوص عن عبد العزيز بن ربيع عن

شداد بن معقل قال قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يُترج منكم . قال : قلت كيف يترج منا وقد آتته الله في قلوبنا وتبيناه في مصاحفنا ! قال : يسرى عليه في ليلة واحدة فيترج ما في القلوب وينهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ : ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ، وهذا إسناد صحيح . ومن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل ، له دوى - كدوى النحل ، فيقول الله ما بالك . فيقول : يا رب منك نريحت وإليك أعود ، أتلى فلا يعمل بي ، أتلى ولا يعمل بي . قلت : قد جاء معنى هذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يدرس الإسلام كما يدرس وثني التوب حتى لا يندري ما صيام ولا صلاة ولا نكاح ولا صدقة فيسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركما آباءة حل هذه الكلمة لا إله إلا الله . وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نكاح ولا صدقة " . قال له صلاة : ما فتى عنهم لا إله إلا الله ! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نكاح ولا صدقة ، فأعرض عنه حذيفة ، ثم ردها ثلاثا ، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صلاة ! تحميم من النار ، ثلاثا . نرحمه ابن ماجه في السنن . وقال عبد الله بن عمر : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ما هذه الكتب التي تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن ينضب الله لكتابيه فلا بدع ورقا ولا قلبا إلا أخذ منه " قالوا : يا رسول الله ، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : " من أراد الله به خيرا أبق في قلبه لا إله إلا الله " ذكره الثعلبي والقرطبي وغيرهما في التفسير .

قوله تعالى : قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(١) حصة بن زفر البجلي ، أحد رجال مئة الحديث .

أى هويتا ونصيبا، مثل ما يتناول الشراء على بيت شعر فيقيمونه . نزلت حين قال الكفار :
 لو نشاء لئننا مثل هذا ، فأكذبهم الله تعالى . وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أول الكتاب
 والمحمدية . و (لَا يَأْتُونَ) جواب القسم في وثق ، وقد يجزم على إرادة الشرط . قال الشاعر :
 لئن كان ما حُدِّثَ به اليوم صادقا • أقيم في نهار القبط الشمس ياديا

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
 فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) أى وجهها القول
 فيه بكل مثل يجب به الاعتبار ، من الآيات والمبر والتزجيب ، والأوامر والنواهي
 وأقاصيص الأولين ، والجنة والنار والقيامة . (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) يريد أهل
 مكة ، بين لهم الحق وفتح لهم وأهلهم حتى تبين لهم أنه الحق ، فأبوا إلا الكفر وقت تبين
 الحق . قال المهدي : ولا حجة للقدرى في قولهم : لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر
 عليه ، لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على
 قلبه ، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَجْعُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
 يَنْبُوعًا ﴿١٩﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا
 تَفْجِيرًا ﴿٢٠﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٢١﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ
 وَلَنْ نُؤْمِنَ لِإِزْقِكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي
 هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٢٢﴾

(٢) رواية قوله الأدب في القاموس والراجح

(١) راجع ١٧ من ٦٩ طبة ثانية أو ٢٢٠
 بعد السجدة : « أسمى في نهار القبط ... » الخ .

قوله تعالى : (وَقَالُوا لَنْ يُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَخْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءَا) الآية نزلت في رؤساء قريش مثل حبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف وأبي البختري، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا - فيما ذكر ابن إسحاق وغيره - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فكلوه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلوك فأتهم، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن أن قد بدأ لهم فيما كلمهم فيه بئس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحب رشدهم ويميز عليه عنهم، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلتك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شقت الآباء وعبت الدين وشقت الآلهة وسفقت الأحلام وفتقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيًّا نراه قد قلب عليك - وكانوا يستنون التابع من الجن ربيًّا - فربما كان ذلك بذنا أموالنا في طلب الطب لك حتى بُرئت منه أو نُذِفِك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بي ما تقولون ما جئتُ بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله يشئني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبأنتمكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فإن قبلوا مني ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر وأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " أو كما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإليك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بها ولا أقل ماء ولا أشدّ ميئانا، فلن لنا وبك الذي جئتكم بما بعثك به، فليسر

ما هذه الجبال التي قد ضيقت عليك، وليسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام،
 وليبعث لنا من مضيحي الكائنات، ولكن فيمن صنعت لنا قضي بن كلاب، فإنه كان شيخا صديق
 قسالم عما تقول علمق هو لهم رطل، فإن صدقوك وصنت ما سألتك صدقناك، وعرفنا به متزلك
 من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: "ما بهنا
 بعث إليكم إنما جعلكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بعثكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه
 فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم". قالوا:
 فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ نفسك سل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا
 هناك، وأسأله فليجعل لك جناحا وقصورا وكنوزا من ذهب وقضة ينيك بها عما نراك تبتغي،
 فإنك تقوم بالأسواق وتلمس الماش كما نلمسه، حتى نعرف فضلك ومتزلك من ربك
 إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بفاعل وما أنا
 بالذي يسأل ربه هذا وما بعث بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا - أو كما قال -
 فإن قبلوا مني ما جعلكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى
 يحكم الله بيني وبينكم" قالوا: فأسيط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فصل،
 فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك إلى الله
 عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فصل" قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس مصك
 ونسألك عما سألتك منه ونطلب منك ما نطلب، فينتقم إليك فيعلمك بما تراجعت به،
 ويحرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم قبل منك ما جئتنا به. إنه قد بعثنا أنك إما تعلمك هذا
 رسل من الإمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرتنا إليك يا محمد،
 وإنا والله لا نتركك وما بلغت ما حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة
 وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي ثمية بن النخعي بن عبد الله
 ابن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، هو للملكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد! عر ضيفك

قومك ما عرضوا فلم تحله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم وميزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ! — أو كما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترق فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصك معه أرسى من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وأتم الله لوفيت ذلك ما ظننت أني أصدقك ! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا أسفا لما فاتهم مما كان يطعم به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مبايعتهم إياه كله لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَجْعَلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » . (يَنْبُوعًا) يعنى العيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعل ، من نبع ينبع . وقرا عاصم وحمزة والكسائي « تَجْعَلْ لَنَا » مخففة ؛ وأختره أبو حاتم لأن ينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تَجْعَلْ الأنهار أنه مشدد . قال أبو عبيد : والأولى مثلها . قال أبو حاتم . ليست مثلها ؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد ، والثانية بعدها الأنهار وهى جمع ، والتشديد يدل على التكثير . أجب بأن « ينبوعا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . ينبوع صين الماء ، والجمع ينباع . وقرا قتادة « أو يكون لك جنة » . (خِلَالَهَا) أى وسطها . (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ) قراءة العامة . وقرا مجاهد « أَوْ يُسْقِطَ السَّمَاءَ » على إسناد الفعل إلى السماء . (كَسَفًا) قطعا ؛ عن ابن عباس وغيره . والكسف (فتح السين) جمع كسفة ، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقيون « كَسَفًا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كَسَفًا من السماء جملة واحدا ، ومن قرأ كَسَفًا جعله جمعا . قال المهدوى : ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كسفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشيء إذا غطيته . فكانهم قالوا : أسقطها طبقا عليا . وقال الجوهري : الكسفة القطعة من الشيء ؛ يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع كسف وكسف . ويقال : الكسف والكسفة واحد .

(اَوْ تَأْتِيْ بِاَهْلٍ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا) اى معاينة؛ عن قتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كقبلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهد : هو جمع القليلة ؛ اى باصناف الملائكة قبيلة قليلة . وقيل : ضنءا يضمنون لنا اتيانك به . (اَوْ يَكُوْنُ لَكَ يَتٌ مِّنْ زُرْعَةٍ) اى من ذهب ؛ عن ابن عباس وغيره . وأصله الزينة . والمزترع الزرع . وزخارف الماء طرائقه . وقال مجاهد : كنت لا أدرى ما الزرْع حتى رأيتُه في قراءة ابن مسعود « يَتٌ مِّنْ ذَهَبٍ » اى نحن لانتقادك مع هذا الفقر الذى نرى . (اَوْ تَرْقِ فِي السَّمَاءِ) اى تصعد؛ يقال : رَقَيْتَ في السَّمِ ارقى رَقِيًّا وِرْقِيًّا اِذَا صَعِدْتَ . وَارْتَقَيْتَ مِنْهُ . (وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ) اى من أجل رُقِيَّكَ ، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضى مُضِيًّا ، وهوى يهوى هَوِيًّا ، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا . (حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مَّعْرُوءٌ) اى كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ اَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُّنشَرَةً » . (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ) وقرا أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم؛ اى قال ذلك تترجاه لله عز وجل عن أن يعجز عن شئ، وعن أن يعترض عليه في فعل . وقيل : هذا كله تصجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون « قل » على الأمر؛ اى قل لهم يا محمد (هَلْ كُنْتُ) اى ما أنا (اِلَّا بَشَرًا مِّثْلُكُمْ) اُتبع ما يوحى إلى من ربى ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التى ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحدا من البشر اتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملعدين : ليس هذا جوابا مقنعا، وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شئ مما سألتوني، وليس لى أن أتخير على ربى ، ولم تكن الرسل قبل يأتون أمهم بكل ما يريدونه ويغفونه ، وسبيلى سبيلهم ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته البالغة على صحة نبوتهم ، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها ، ولو وجب على الله أن يأتهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتهم بمن يختارونه من الرسل ، ولو وجب لكل إنسان أن يقول : لا أؤمن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيرى . وهذا يسول إلى أن يكون التدمير إلى الناس .

وإنما التدمير إلى الله تعالى

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ) يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . (إِلَّا أَنْ قَالُوا) جهلا منهم . (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فين الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثنا فلا يلزمنا الاقياد ، وغفلوا عن المعجزة . فدأّن « الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و « أَنْ » الثانية في محل رفع بـ « منع » أى وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشِّحُونَ مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٤٠﴾

أعلم الله تعالى أن الملك إنما يرسل إلى الملائكة ؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميين لم يقدرُوا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها ، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرُون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدم في « الأنعام » نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَطَعْنَاهُ رِجْلًا » وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤١﴾

يروي أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله « هل كنت إلا بشرا رسولا » : فن يشهد لك أنك رسول الله . فقل « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ)
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ . وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عِمًّا وَبُكْمًا
 وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) أى لو هداهم الله لاحتدوا . (وَمَنْ يُضِلِّ)
 فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) أى لا يهديهم أحد . (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ)
 فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب :
 قَدِمَ القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى
 جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتمذيه . وهذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس
 أن رجلا قال : يا رسول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أ يحشر للكافرين وجوهه ؟
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يمشيه على
 وجهه يوم القيامة " : قال قتادة حين بلغه : بلى وعزرة ربنا . أخرجه البخارى ومسلم
 وحسبك . (عِمًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا) قال ابن عباس والحسن : أى عُمَّى عَمَّا يُسْرَمُ ، بكم عن
 التكلم بجملة ، صُمٌّ عَمَّا يَفْهَمُ ، وعلى هذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه . وقيل :
 أنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة في عذابهم ، ثم يخاف ذلك
 لهم في النار ، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : « وَرَأَى الْمُخْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَتَكَلَّوْا »
 لقوله تعالى : « دَعَوْا هَٰذَا بُرُورًا » ، وسموا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » .
 وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم « اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلُّوا » صلوا عَمَّا لَا يسمعون صمًّا
 لا يسمعون بكمًا لا يفقهون . وقيل : عموما حين دخلوا النار لشدة حواشيها ، واقطع كلامهم
 حين قيل لهم : اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلُّوا . وذهب الزبير والشعبي بسمعهم فلم يسموا شيئا .
 (مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) أى مستقرهم ومقامهم . (كُلَّمَا خَبَتْ) أى سكنت ؛ عن الضحاك
 (١) آية ٥٢ سورة الكهنة . (٢) آية ٥٢ سورة هود . (٣) آية ٥٢ سورة هود .
 (٤) آية ١٠٨ سورة المؤمنون

وغيره . مجاهد طفت . يقال : خبت النار تحبو خبوا أى طفت ، وأخيتها أنا . (زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) أى نارا نطلب . وسكون التهايا من غير نقصان فى الآلهم ولا تخفيف عنهم من صلتهم . وقيل : إذا أرادت أن تحبو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ » .

قوله تعالى : ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا) أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا) أى ترابا . (أَأَنَّا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) فانكروا البعث فاجابهم الله تعالى فقال : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ) قبل : فى الكلام تقديم وتأخير ، أى أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ . والأجل : مدة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم ، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِذًّا » . وقيل : هو يوم القيامة . (فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا) أى المشركون إلا مجودا بذلك الأجل وبآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث ، ولا ينبغي أن يُنكَ فيه .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ غَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أى خزائن الأرزاق . وقيل : خزائن النعم ، وهذا أهم . ﴿ إِنَّا لَأَسْكُنُكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ من البخل ، وهو جواب قولهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » حتى تنوع في المعيشة . أى لو توسع لينتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخالفين خزائن الله لما جاد بها بحمد الله تعالى ، لأمرين : أحدهما - أنه لا بد أن يمسك منها لنفسه وما يعود بمنفعته . الثانى - أنه يخاف الفقر ويخشى المدم . والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالين . والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر ، قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أغنى وأصرم وأعدم وأقر إذا قل ماله . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أى بجلا مضيقا . يقال : قتر على عبلة يقر ويقر قترا وقُتورا إذا ضيق عليهم في النفقة ، وكذلك التقدير والإنفاق ، ثلاث لغات . وأختلف في هذه الآية على قولين : أحدهما - أنها نزلت في المشركين خاصة ، قاله الحسن . والثانى - أنها عامة ، وهو قول الجمهور ، وذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ قَسَلٌ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ اختلف في هذه الآيات ، قيل : بمعنى آيات الكتاب ، كما روى الترمذى والنسائى عن صفوان بن عسال المرادى أن يهودى قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله ، فقال : لا قل له نبي فإنه إن سمع كان له أربعة أعين ، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تشركوا بالله شيئا ولا تزورا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحرُوا ولا تمشوا بصرى إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تغدوا محصنة ولا تفتزوا من الزحف - شك شعبة - وطيم [يا معشر] اليهود خاصة ألا تمدوا في السبت » قبل يديه ورجليه وقال : تنهد لك نبي . قال :

«فما يُمَكِّمُكَ أَنْ تُسَلِّمَ» قالا : إن داود دعا الله ألا يزل في غريته نبي وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى في البقرة . وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ؛ آيات مفطلات . وقال الحسن والشعبي : الخمس المذكورة في «الأعراف» ؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه ؛ واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات . وروى نحوه عن الحسن ؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة ؛ وجعل التسعة تقف العصا ما يافكونه . وعن مالك كذلك ؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجليل . وقال محمد بن كعب : هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والجراد والطمس على أموالهم . وقد تقدم شرح هذه الآيات مستوفى والحمد لله . (فَأَسْأَلُ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ) أي سلمهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، حسبما تقدم بيانه في يونس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم . (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) أي ساحرا بترائب أنصاك ؛ قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضع الفاعل ؛ كما تقول : هذا مكشوم وميمون ، أي شاتم ويامن . وقيل مخدوعا . وقيل مغلوبا ؛ قاله مقاتل . وقيل غير هذا ؛ وقد تقدم . وعن ابن عباس وابن تيمية أنهما قرأا : «فَأَسْأَلُ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ» على الخبر ؛ أي سألت موسى فرعون أن يخل نبي إسرائيل ويطلق حبلهم ويرسلهم معه .

قوله تعالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَاتٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنَ مُشْبُورًا (١٦٦)

قوله تعالى : (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ) يعني الآيات التسع . و «أزل» بمعنى أوجد . (إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَاتٍ) أي دلالات يستدل بها على كبره وقوته .

ورأت قضاة في الآيا • من رأى مثبور وثابر

أى منصور وخامر ، يعنى فى انتمائها الى اليمن . وقيل : ملعونا . رواه المنهال عن سعيد .
 ابن جبير عن ابن عباس . وقاله أبان بن تميم . وأشد :

يَا قَوْمَنَا لَا تَرْوُمُوا حَرْبَنَا سَفَهًا • إِنَّ السُّفَاهَ وَإِنَّ الْبَنَى مُنْبَرِدٌ

آى ملعون . وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس : « شبوراء ناقص العقل » وتظهر المأمون رجلا فقال له : يا ميمون ؛ فسل عنه قال : قال الرشيد قال المتصور لرجل : شبوراء ؛ فسأله فقال : حدثني ميمون بن مهران ... فذكره . وقال قلعة هالكا . ومع أيضا والحسن وعلماء : مهلكا . والشبور : الهلاك ؛ يقال : شُبرَ العيون شبوراً لمهلكة . وقيل : ممنوعاً

من الخلد . حكى أهل اللغة : ما ترك عن كذا أى ما منعت منه . وثمة الله يثبته تبار . قال
أَبْنُ الزَّيْنَرِ :

إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ اللَّهِ • يَ وَمِنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَبُورٌ

الضماك : « مَبُورًا » مسحورًا . رد عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ . وقال ابن زيد :

« مَبُورًا » مَبُولًا لَا عَقْلَ لَهُ

قوله تعالى : فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ

جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج موسى
وفى إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾

أى من بعد إغراقه ﴿ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الشام ومصر . ﴿ فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من فبوركم مغلطين من كل موضع ،
قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا يميز أحدكم إلى قبضته وحيه . وقال ابن عباس
وقادة : جئنا بكم جميعاً من جهات شتى . والمعنى واحد . قال الجوهري : واللفيف

ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال : جاء القوم بلفيفهم ولفينهم ، أى وأخلاطهم .

وقوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى مجتمعين مغلطين . وطعام لَيفٍ إذا كان مخلوطاً من

جسين فصاعداً . وقلان لَيفٍ فلان أى صديقه . قال الأصمى : اللَيفُ جمعٌ وليس له

واحد ، وهو مثل الجمع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ،

مغلطين لا يتعارفون . وقال الكلبي : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ » يعنى يحى عيسى عليه السلام

من السماء .

قوله تعالى : **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : **(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ)** هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكلية ترجع الى القرآن . ووجه التكرار في قوله « وبالحق نزل » يجوز أن يكون معنى الأول : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثاني : ونزل وفيه الحق ؛ كقوله نخرج بثيابه ، أى وعليه ثيابه . وقيل الباء في « وبالحق » الأول بمعنى مع ، أى مع الحق ؛ كقولك ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . « وبالحق نزل » أى بحمد صلي الله عليه وسلم ، أى نزل عليه ، كما تقول نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل ، وكذلك نزل .

قوله تعالى : **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حَكْمٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَفْزِيلًا** ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : **(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حَكْمٍ)** مذهب سيويه أن « قرآنًا » منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرا جمهور الناس « قرآنه » تخفيف الزاء ، ومعناه يثناه وأوصناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل ؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصلناه . وقرا ابن عباس وعلي وابن مسعود وأبو بن كعب وقناة وأبو رجاء والشعمي « فرقناه » بالتشديد أى أنزلناه شيئا بعد شيء لا جملة واحدة ؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبو « فرقناه عليك » . واختلف في كم نزل القرآن من المدة ؛ ف قيل : في خمس وعشرين سنة . ابن عباس : في ثلاث وعشرين . أس : في عشرين . وهذا بحسب الخلاف في من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا في « البقرة » . **(عَلَى حَكْمٍ)** أى تلاؤل في المدة شيئا بعد شيء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود أى أنزلناه آية آية وسورة سورة . وأما على القول الأول فيكون « عَلَى حَكْمٍ » أى على ترتيب في التلاوة وترتيب ؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جرير . فوعلى التفسيرين القراءة حقها من

تزيئها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع القراء على ضم الميم من « مَكْتُ » إلا ابن محيَّص فإنه قرأ « مَكْتُ » بفتح الميم . ويقال . مَكْتُ ومَكْتُ ومَكْتُ ثلاث لغات . قال مالك : « على مَكْتُ » على تَتَبْتُ وترسِلُ .

قوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا لَهُ تَزْيِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيده بالمصدر للني المتقدم ، أى أنزلناه تَجَمًّا بعد تَجَمٍّ^(٢١) ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لفروا .

قوله تعالى : قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا) يبنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخدير . (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل نزول القرآن وخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ؛ في قول ابن جريج وغيره . قال ابن جريج : معنى « إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ » كتابهم . وقيل القرآن . (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن يث الله تعالى النبي عليه السلام ، منهم زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نوفل . وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أنهم ناس من اليهود ؛ وهو أظهر لقوله « مِنْ قَبْلِهِ » . (إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ) يبنى القرآن في قول مجاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : « سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » . وقيل : كانوا إذا تلاوا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا . وسبحوا ، وقالوا : هذا هو المذكور في التوراة ، وهذه صفته ، ووعد الله به واقع لا محالة ، وجنحوا إلى الإسلام ؛ فتركت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبسه

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالضَّمِيرُ فِي « قَبْلَهُ » عَائِدٌ إِلَى الْفَرَاغِ حَسْبِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ « قُلْ لَّامَنُوا بِهِ » . وَقِيلَ : الضَّمِيرَانِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَسْتَأْذِنُكَ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ : « إِذَا بَيَّلَ عَلَيْهِمْ » .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٥﴾

« دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْبِيحِ فِي السُّجُودِ » . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عَائِشَةَ وَضَعِيَ اللَّهُ عَلَيْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ فِي سُجُودِهِ : « بِرَبِّكَ » « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي » .

قوله تعالى : وَيَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٥٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَيَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ يَسْكُونُونَ) هَذِهِ مَبَالِغَةٌ فِي صِفَتِهِمْ وَتَوْضِيحُهَا بِحَقِّ لِكُلِّ مَنْ تَوَسَّعَ بِالْعِلْمِ وَحَصَلَ مِنْهُ شَيْئَانِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ : فَيُخْشَعُ هَذَا الْمَسْمُوعُ بِالْقُرْآنِ وَيَتَوَاضَعُ وَيَنْزِلُ . وَفِي مُسْنَدِ الْأَذَارِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ : « مَنْ قَوِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَبْكِهِ خَلْقُهُ أَلَا يَكُونُ أَوْقَى عِلْمًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَعَتْ الْعُلَمَاءَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ . فَالْعِلْمُ الطَّاهِرُ أَيْضًا . وَالْآذْقَانِ جَمْعُ ذَنْقٍ ، وَهُوَ جَمْعُ الْخَيْنِ . وَقَالَ طَلَسْمَنٌ : لِلْآذْقَانِ مِثْلُهَا مِنَ الْحَقِّ ، أَيْ يَضَعُونَهَا عَلَى الْأَرْضِ فِي حَالِ السُّجُودِ ، وَهُوَ غَايَةُ التَّوَضُّعِ . وَاللَّامُ الْمُعْلَى عَلَى قَوْلِهِمْ مَقْطُوفٌ فِيهِ أَيْ عَلَى قَبْلِهِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « وَيَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ سَجْدًا » ، أَيْ لِلْوُجُوهِ وَهِيَ خُصُصَ الْأَذْقَانُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الذِّقْنَ أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنْ وَجْهِ الْإِنْسَانِ . قَالَ ابْنُ خَرِّزَمَةَ : وَلَا يَحُوزُ السُّجُودُ عَلَى الذِّقْنِ ؛ لِأَنَّ الذِّقْنَ هَاهُنَا عَارَةٌ عَنِ الْوُجْهِ ، وَقَدْ سَبَّرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَيُعْضِضُ عَنْ بَعْضِهِ ؛ فَيَقَالُ : خَرُّوْهُمْ سَاجِدًا وَإِنَّ كَانَ لِي سَعْدٌ عَلَى عُنُقِهِ وَلَا مَبْعَ .

لَا يَخْرُجُونَ إِلَى قَوْلِهِ :

• تَخْرُجُونَ إِلَى قَوْلِهِ :

لَا يَخْرُجُونَ إِلَى قَوْلِهِ :

من المشركين ، وكان يعبد معه رجل يسمى الرحمن ، قال ذلك كالمسح ، ما جاء به من
وحان يعبد . فقلت الآية ميتة أيها الملك لمسي واحد ، فقلت دعوه بوجه الله فهو ذلك
ولان دعوه بوجه الرحمن فهو ذلك . وقيل : كانوا يكتبون في صدر الكتب : يا حي يا قيوم
قلت : إنه من ملبان وأنه يسب الله الرحمن الرحيم . فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بسم الله الرحمن الرحيم . قال للمشركون : هذا الرحمن نمره فما الرحمن ؟ فقلت الآية .
وقيل : إن الله تعالى قال : ما لا تسبح في القرآن إلا ما هو في التوراة كثير . يعنون الرحمن ؛
فقلت الآية . وقيل : كلمة من معرف ، أي من معرفة الاسم الذي ليس في أي التي تقتضي
الفضل لا يضاف والمعرفة للمال . ومن الاسم الذي يترجمه بمعين الشرع ، لإطلاقها
والعنى عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تسمى على حصة معرفة ، وهي يتوقف لا يصح
وضع لم لا يظهر لا يتوقف من المعرفة لم الخبير لم لا يتوقف . حسب ما يتلوه في الكتاب
لأن في من اسم الله المنسب .

قوله تعالى : (ولا تجهر بقرآنك ولا تخافت بها) فيه مستان .

الأول - استقروا إلى صعب وروا من صفة أقوال .

الأول - ما روى ابن عباس في قوله تعالى : (ولا تجهر بقرآنك ولا تخافت بها)
قال : قلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته
بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن من أذله ومن جاء به ، فقالوا له تعالى :
(ولا تجهر بقرآنك) فسمع المشركون قوله : (ولا تخافت بها) من أصحابه .
اسمهم القرآن ولا تجهر بذلك الجهر . (وأبشع بين ذلك مبدل) قال : يقول بين الجهر
والخافت : أنزله البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم . واللفظ لسم ، والخافت : خفض الصوت
والسكون ، يقال لبث إذا برد : خفت . قال الشاعر :

لم يسكن إلا قس خافت . وثقة لها بها

رأى لها خافت ما بها . يوقع من قوله الخفت

الثاني - ما رواه مسلم أيضا عن عائشة في قوله عز وجل : « ولا تجهروا أصواتكم ولا تخافتن بها » قالت : أتزل هذا في الصلاة .

الثالث - قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فزلت الآية في ذلك . قلت : وهل هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود : من السنة أن تخفي التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابع - ما روى عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسر قراءته ، وكان عمر يحجر بها ، فقبل لها في ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنما أنا ربي ، وهو يصلح حاجتي إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقف الوساوس ؛ فلما زلت هذه الآية قبل لأبي بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبري وغيره .

الخامس - ما روى عن ابن عباس أيضا أن مماها ولا تجهروا صلاة النهار ، ولا تخافت صلاة الليل ؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوي . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في التواقل والفرائض ، فاما التواقل فالمصل غير في الجهر والسرف في الليل والنهار ، وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكها في القراءة معلوم بلا ونهارا . وقول سادس - قال الحسن : يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسبها في العلانية ولا تنسبها في السر . وقال ابن عباس : لا تصل مرأتيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

السادس - عبر تعالى بالصلاة ها عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود وهي من حلة أجزائها ؛ فسر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز وهو كثير ؛ ومنه الحديث الصحيح : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَيْ قِرَاءَةَ الْقَائِمَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

قوله تعالى : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا ۝١١١١

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَقَدْ ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذلنا : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ، تعالى الله عن أقوالهم ؛ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الثَّلَاثِ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابنتى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يحبره من الثلث فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولي من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الثَّلَاثِ » بنى لم يذل فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لعزيمته وكبريائه . ﴿ وَكَبُرَتْ تَكْوِينًا ﴾ أى عظمه عظمة تامة . ويقال : ألغى لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شيء . قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء . عاولة وأكثرهم جنونا

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة قال : « الله أكبر » وقد تقدم أول الكتاب . وقال عمر بن الخطاب . قول المبدع الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هي خاتمة التوراة . روى مطرف عن عبد الله بن كعب قال : انتسحت التوراة بخاتمة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفي الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ . جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الفلام من بنى عبد المطلب عليه « وقال الحمد لله الذي » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ وقال الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولما تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق الأرض ويختر الجبال ههنا » . وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكيا إليه بالدين بأن يقرأ قل أذعوا الله أو ادعوا الرحمن ، - إلى آخر السورة ثم يقول - توكلت على الله لا يموت ، ثلاث مرات .

تمت سورة الإسراء ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

تفسير سورة الكهف

وهي مكية في قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله
 « جُرُزًا » ، والأول أصح . وروى في فضلها من حديث أنس أنه قال : « من قرأ بها أعطى نورا
 بين السماء والأرض ووفى بها فنة القبر » . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : « إن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملائكة عظمها ما بين
 السماء والأرض لتاليا مثل ذلك » . قالوا : بل يا رسول الله ؟ قال : « سورة أصحاب الكهف
 من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووفى
 فنة الدجال » ذكره التلطي . والمهدي أيضا بمائة . وفي مستدركنا من أبي سعيد الخدري
 قال : « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيها سنة عشرين البيت النقي » .
 وفي صحيح مسلم عن أبي القزواء أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات
 من أول سورة الكهف عُصم من الدجال » . وفي رواية « من أتمر الكهف » . وفي مسلم
 أيضا من حديث النحاس بن سيمان « من أدركه - يعني الدجال - فليقرأ عليه نواحي سورة
 الكهف » . وذكره التلطي . قال : « ثمة بن جندب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من
 قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم يضره فنة الدجال » . ومن قرأ السورة كلها
 دخل الجنة .

قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ
 لَهُ عِوَجًا ① قِيمًا لِّنُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ الْفَاضِلَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ③
 قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا) ذكر
 ابن إسحاق أن قرئنا بهذا النص من الحارث ومثبه بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لها :

سَلامٍ عن عِدٍّ وَصِفًا لِمِ صِفَتِهِ وَأَخْبَرَاهُمْ قَوْلَهُ ؛ فَظَنَّهُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَوَّلَ ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ
لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ نَحْنُ جَاءَ قَدَمَا الْمَدِينَةَ ، فَسَالَا أَجْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَوَصَفَا لِمِ أَمْرِهِ ، وَأَخْبَرَاهُمْ بِبَعْضِ قَوْلِهِ ، وَقَالَا لِمِ : إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَقَدْ
جِئْتُمْ لِنَتَخَبَرُوكُمْ عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا . فَقَالَتْ لَهَا أَجْبَارُ يَهُودَ : سَأَلُوهُ عَنْ ثَلَاثِ أَمْرٍ مِنْكُمْ ،
فَإِنْ أَخْبَرْتُمْ بَيْنَ فَهُوَ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالْجَبَلُ مَقْبُولٌ ، فَرَوَّاهُ فِيهِ وَأَيُّكُمْ ؛ وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ
فَتِيَّةٌ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، مَا كَانَ أَمْرُهُمْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِمِ حَدِيثٌ عَجَبٌ . وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ
طَوَافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، مَا كَانَ نَبِيُّهُ . وَسَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ ، مَا هِيَ ؛ فَإِذَا أَخْبَرْتُمْ
بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مَقْبُولٌ فَأَصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَلَا لَكُمْ . فَأَقْبَلَ
النَّصْرَبِيُّنَ الْحَارِثُ وَعَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدَمَا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! قَدْ
جِئْنَاكُمْ بِقَصَصٍ مَا يَنْتَكُمُ وَيُنِيبُكُمْ عَنِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ أَمَرْنَا أَجْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ
عَنْ أَشْيَاءَ أَسْرَوْنَا بِهَا ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالْجَبَلُ مَقْبُولٌ ، فَرَوَّاهُ فِيهِ وَأَيُّكُمْ .
بَلَغَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَا : يَا عِدُّ ، أَخْبِرْنَا عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ،
قَدْ كَانَتْ لِمِ قِصَّةٌ عَجَبٌ ، وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَافًا قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأَخْبِرْنَا
عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ ؟ قَالَ قَالَ لِمِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "أَخْبِرْكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا"
وَلَمْ يَسْتَنْ . فَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْعَوْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ
لَيْلَةً ، لَا يُخْبِتُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْيًا وَلَا يَأْتِيهِ جَبْرِيْلٌ ، حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلَ مَكَّةَ وَقَالُوا :
وَعَدَنَا عِدُّ غَدًا ، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يَخْبِرُنَا بَشِيْرٌ بِمَا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ ؛
وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُكَّتُ الْوَحْيِ عَنْهُ ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَنْتَكُمُ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ ،
ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيْلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَدَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِيهَا مَاجِدَةٌ إِلَهُ
عَلَى حَزَنَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَخَبَّرَهُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْفِتْيَةِ ، وَالرَّجُلِ الطَّوَافِ وَالرُّوحِ ، قَالَ
ابْنُ إِسْحَاقَ : فَذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَجَبْرِيْلَ : "لَقَدْ أَحْبَبْتُمْ عَنِّي

(١) أَوْ لَمْ يَدُلَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِإِدْعَاؤِهِ . (٢) أَرْضُ الْهَوَى ، خُذْرَاءُ فِي الْأَمِيرِ
الْبَيْتِ وَذَكَرَ الْهَوَى .

يا جبريل حتى سَوَّيْتُ ظَنًّا^(١) فقال له جبريل : « وما تتركُ إلا بئسَ رَبٌّ لهُ ما بينَ أيدينا وما خلفنا وما بينَ ذلك وما كانَ رَبُّكَ نَبِيًّا^(٢) » . فافتتح السورة بتبارك وتعالى بحمده ، وذكّر نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب » . يعنى عبدا ، إنيك رسول مَنى ، أى تحقيق لما سألوا عنه من نبوتك . « ولم يحصل له عوجا قبيها » أى معتدلا لا اختلاف فيه . « لئلا يفتنّا شديدا من لدنه » أى عاجل عقوبته في الدنيا ، وعذابا آتيا في الآخرة ، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا . « ويُبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنِينَ فِيهِ أَهْدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبت به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « ويُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » يعنى قريشا في قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله . « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » الذين أعظموا فرأهم وعيبت دينهم . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى لقولهم إنا الملائكة بنات الله . « إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » فقللنا باخع نفسك على آتائهم إِنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم ، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « باخع نفسك » مهلك نفسك ، فيما حدثنى أبو عبيدة . قال ذو الرقة :

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه • بنى تحتَه عن يديه المقاديرُ^(٣)

وجدها باخعون وبجعة . وهذا البيت في قصيدة له . وقول العرب : قد تحتت له نصيبى ونفسى ، أى جهدت له . « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » قال ابن إسحاق : أى أيهم أتبع لأمرى وأعمل طاعنى . « وإنا لبالغون ما عليها صبيدا جرزا » أى الأرض ، وإن ما عليها لقان وزائل ، وإن المرجع إلى فجزى كلا بماله . فلا تأس ولا يجزئك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصميد وجه الأرض ، وجمعه صمد . قال ذو الرقة يصف ظميا جنبيا :

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) طه ٨٠

لما أخلد منهم حمار • طه الرواية والواحد

وهذا البيت في قصيدة له . ^(١) قال ابن إسحاق : « هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » . قال ابن إسحاق : أي بحجة بالغة . « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذُوا
اللَّهَ كَذِبًا » . وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَابْعُدُونِ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْقًا » . وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي بَحْوَةٍ مَيْتَةٍ » . قال ابن هشام : تراور تيل؛ وهو
من الزور . وقال أبو الزحف الكلبي يصف بلها :

جَذَبَ الْمُنْدَى عَنْ حَوَا أَزُورُ • يَنْضِي الْمَطَايَا نَحْمَهُ الْعَشِيرُ ^(٢)

وهذان البيتان في أرجوزة له . « وَتَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ » تجاوزهم وتزكهم عن شمالها .
قال ذو الرمة :

لِي ظَنُّنْ يَقْرِضُنْ أَقْوَاظَ مُشْرِفٍ • شِمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْقَوَارِيسُ ^(٣)

وهذا البيت في قصيدة له . « وَالْفَحْوَةُ : السَّعَةُ ، وَجَمْعُهَا الْفَجَاءُ » . قال الشاعر :

أَلَسْتَ قَوْمَكَ غَزَاةً وَمَقَصَّةً • حَتَّى أَتَيْسُوا وَحَلُّوا بِحَوَّةِ الدَّارِ

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ » أي في الجملة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكلب من
أمر هؤلاء بمسئلتك منهم في صلح نبؤتك بتحقيق الخبر عنهم . « مَنْ يَدَّ اللَّهُ فَهُوَ لِلَّهِ يَدِي
وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِلًا » . وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَانًا وَهُمْ رُغُودٌ وَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَقَاتِ

(١) معلقا : « وقّع مرة إذ الركب مرّ بعل » . وعمل تلقى ودعا أي الرجل

(٢) في اللسان مادة « سهد » أي أبو الزحف الكلبي . وسعدك عليه صلح اللسان بقره : « قومه الكلبين
كُتِبَ لِكَلْبَيْنِ كَأَمْرٍ بِهَذِهِ الْبَرَى » . وما يقوى أنه الكلبي (بالله) ما ذكره ابن خنيس في كتابه الشعر والقصيدة أنه
أبو الزحف بن حله بن النخعي ابن ميمون الشاعر . ومن الذين أنجروا من بني كلب . (٣) معلقا :

« دعوت لي بد سهد » .

« بد سهد » ببد مفعلة واسم : والحلى : حيث يرفع ساعة من القار . والأنداد : الطريق المروج . وأتسى الجيرة
عنه بكثرة السير . والخلس (بكسر السين) من الغطاء . الإبل : أن ترى ثلاثة أيام زرد اليوم الرابع . ولشعره : الشعر .
(٤) يعني باليمن هنا شطرى الرية .

(٥) القوز (بالفتح) : القابل من القمل كآه جبل . وهواروس : يقال باللهمة . (٦) معلقا :

أَلَمْ تَسْلُكِ الْيَوْمَ الرُّيُوسَ الْهَوَارُوسَ • يَمْزِي وَيُحِلُّ تَعْدِي الْفَقَارَ قَبَائِيسُ

التَّيْلَ وَكَلْبَهُمْ بِأَسْطٍ ذَرَّاعَهُ بِالْوَصِيدِ « قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال المصنف وأسمه
هيد بن وهب »^(١)

بَارِضٌ فَلَاةٌ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا . على ومعروف بها غير منكّر

وهذا البيت في آيات له . والوصيد أيضا الفيلة ، وجمعه وصائد ووُصِدَ ووُصِدَان .
« لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا — إِلَى قَوْلِهِ — الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان
والملك منهم . « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا » يقولون « يعنى أجبار اليهود الذين أمروهم
بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةٌ رَأْسَهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَانِيَهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَابِلٌ فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ » أى لا تكابروهم .
« إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَنْصِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولْ لَنْ يَكُونَ
لِىَ فَايَلٌ ذَلِكَ فَعْدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرْ بِكَ إِنْ نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى
لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أى لا تقول لشيء سألوكم عنه كما قلت في هذا إلى غيركم فداء
واستثنى مشيئة الله ، وأذكركم إن نسيته وقول حتى أن يهدينى وبى خبر ما سألتونى عنه
وشدأ ، فإنك لا تحصى ما أنا صانع فى ذلك . « وَلَيُثْبِتَنَّ ثَلَاثَةَ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا نِسَاءً »
أى يقولون ذلك . « قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرُهُ وَيُنْفِخُ
بِمَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ دُونِى وَلَا يُشِيرُكَ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » أى لم يخف عليه شيء مما سألوكم عنه .
قلت : هذا ما وقع فى البيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نسقه^(٢) . وياتى خير

هذا القرنين ، ثم تعود إلى أول السورة فنقول :

قد تقدم معنى احمد لله . وزعم الأخفش والكاسى والقرطبي وأبو عبيد وجمهور المنازلة
أن فى أول هذه السورة تقديمًا وتأخيرًا ، وأن المعنى : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قديمًا
ولم يجعل له عوجًا . و « قديمًا » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سباقه من غير تقديم
ولا تأخير ، ومما به . ولم يجعل له عوجًا ولكن جعلناه قديمًا . وقول الضمك فيه حسن ، وأن

(١) فى سيرة ابن هشام ، « هيد بن وهب » .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوروبا ، ج ٢ ص ٢٢١ طبع مطبعة الحلبي .

المنى : مستقيم ، أى مستقيم المسكة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : • فيها • على الكتب الساجدة يصنعها . وقيل : • فيها • بالجمع أبداً • • عربياً • • مفرداً • • والبرج (بكسر العين) فى الدين والزأى والأمر والطريق . وفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد قلّم^(١) . وليس فى القرآن عوج ، أى عيب ، أى ليس متناقضاً مخففاً ؛ كما قال تعالى : • وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا •^(٢) وقيل : • أى لم يجعله غلوفاً ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ »^(٣) قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : • عربياً • اختلافاً . قال الشاعر :

أدوم يودى للصدق تكراً • ولا خير فيما كان فى الود أوثماً

(لِيُنْزِلَ بَأْسًا شَدِيدًا) أى لينزل عذاب أو القرآن . وفيه إسماعيل ، أى لينزل الكافرين حساب الله . وهذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . (مِنْ لَدُنْهِ) أى من عنده . وقرا أبو بكر عن حاتم • من لدنه • باسكان اللام وإشباعها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بباء . الباقون • لدنّه • بضم اللام وإسكان النون وضم الهاء . قل الجوهري فى وفى • لدن • ثلاث لغات : لدنّ ، ولدى ، ولدّ . وقاله :

• مِنْ لَدُنْهِ إِلَى مُنْعَوَرِهِ •^(٤)

الْمُنْعَوَرُ لُغَةٌ فِي الْمُنْعَرِ .

قوله تعالى : (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ) أى بأن لهم • (أَجْرًا حَسَنًا) وهى الجنة . (مَا يَكُونُ) دائماً • (فِيهِ أَبَدًا) لا إلى غاية . ولأن حلت التشديد على البيان لم يمتنع إلى الباء فى • بأن • . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدى إلى الجنة .

(١) أى سقى قوله « فيها » . (٢) راجع ج ٤ ص ١٥ طبعه أول مرة . (٣) آية ٨٢ سورة القدر راجع ج ٥ ص ٢٨٨ (٤) آية ٢٨ سورة الزمر . (٥) هذا مجزئ ليلان بن حمرث وروى عنه كافي السان • يستوجب البعير من جوره •

والمنعور (بالهاء المهملة وضم الميم) لغة فى النحر ، وهو الصدق . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصاح الجوهري والسان مادة • نحر • ولحن • بالهاء المهملة ، وهو الألف . وقد استعمله طه ابن برى فقال • وصواب إنشاده كما أنشد سيده • ال منعوره • بالهاء . وصف الشاعر بعبارة أخرى بطول الفتى • يلهيه يستمره من حبه • حتى يوتى به مقدار ما بين فمائه عليه ونحوه . والبرج • الحاج • والمخرج • الخليل •

قوله تعالى : وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ﴿١﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٢﴾

قوله تعالى : (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) وهم اليهود لما قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة تام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ) « من » صلة ، أى ما لهم بذلك القول علم ، لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . (وَلَا لِآبَائِهِمْ) أى أسلافهم . (كَبُرَتْ كَلِمَةً) « كلمة » نصب على اليان ، أى كبرت تلك الكلمة كسمة . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن عتبة وابن أبى عمير « كلمة » بالرفع ، أى عظمت كلمة ؛ معنى قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشيء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أسن . (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) فى موضع الصفة . (إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) أى ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ۚ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ) « باخع » أى مهلك وقاتل ؛ وقد تقدم . « آثَارِهِمْ » جمع أثر ، ويقال إثر . والمعنى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك . (إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ) أى القرآن . (أَسَفًا) أى حزنا وغضبا على كفرهم ، واشتغالهم على التفسير .

قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) فيه مسائلان

الأنبياء - قوله تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) وما . ومزينة ،
 مضمونان . والزينة كل ما على وجه الأرض ، فهو عموم لأنه على كل شيء . وقال ابن جرير
 عن ابن عباس : أولاد بقرية الرجال ، قال مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الشرايع
 الخلق والأمرأه . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : إنا جعلنا
 ما على الأرض زينة لها ، قال : الطلاء زينة الأرض . وقالت فرقة : أولاد القم والمحبس
 والثمار والخضرة والمياه ، ونحو هذا مما فيه زينة ، ولم يستدل فيه لجلال القم وكل ما لا يقرن فيه
 كالحيات والعقارب . والقول بالمعوم أولى ، وأن كل ما على الأرض فيه قرينة من جهة خلقه
 وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التفسير ، أي لا تنهم يا عدو الدنيا وأهلها فإننا جعلنا ذلك
 آتعا واختارا لأهلها ، فمنهم من يتدبرون ، ومنهم من يكفر ، ثم يوم القيامة من لم ينجس ،
 فلا يظنك عليك كفرهم فإنما يجازيهم .

الأنبياء - معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيا
 خضرة حلوة والله يستغفركم فيها فينظر كيف تعملون " . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن
 أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا " قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال :
 " بركات الأرض " خرجها مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري . والنعى : أن
 الدنيا مستطابة في ذوقها مسجة في مظهرها كالمستحل للمحب للرأي ، فأقبل الله بها
 جهاده لينظر لهم أحسن عملا . أي من أزعج فيها وأترك لها ، ولا سبيل للعباد إلى مصيبة
 ما زينه الله إلا [أن] يبينه على ذلك . ولما كانت عمر يقول فيها ذكر البخاري :
 اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينه لنا ، اللهم إني أسألك أن أعفه في حقه . فدا
 الله أن يبينه على إفاقته في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " فن أئنه بطلب قس
 بورك فيه ومن أئنه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع " . ومكانا هو المكتر
 من الدنيا لا يقع بها يحصل له منها بل غشه جمعا ، وذلك لعدم الفهم من الله تعالى
 وصوره ، فإن الفتنه معها حاصلة وعدم السلامة ظلية ، وقد أطلع من أسلم وورق كفاها ونفسه

الله بما آتاه . وقال ابن حطية : كان أبي رضى الله عنه يقول في قوله « أحسن عملا » :
بأحسن العمل أخذ بحق وإحاطة في حق مع الإيمان ، وأداء الفرائض واجتناب المحارم والإكثار
من المنسوب إليه .

قلت : هذا قول حسن ، وجيز في ألفاظه يلج في معناه ، وتهد به جمع النبي صلى الله
عليه وسلم في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثقفي لما قال : يا رسول الله ، قل لي
في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك — في رواية : غيرك . قال : « قل أنت بالله
ثم استقم » ترجمه مسلم . وقال سفيان الثوري : « أحسن عملاً » أزهدهم فيها . وكذلك
قال أبو عصام السقلاني : « أحسن عملاً » أترك لها . وقد اختلفت عبارات العلماء
في الزهد ؛ فقال قوم : قصر الأمل وليس بأكل الخشن وليس العباء ؛ قاله سفيان الثوري .
قل عابثاً : وصديق رضى الله عنه ! فإن من قصر أملاً لم يتأق في المطعومات ولا يتغن
في اللبوسات ، وأخذ من الدنيا ما يتيسر ، واجترأ منها بما يبلغ . وقال قوم : ينقص المحمدة
وحب التناء . وهو قول الأوزاعي ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد ؛
أحب تركها أم تركه . وهو قول فضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حب الدنيا حب لقاء
الناس ، والزهد في الدنيا الزهد في لقاء الناس . وعن الفضيل أيضاً : علامة الزهد في الدنيا
الزهد في الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهداً حتى يكون ترك الدنيا أحب إليه من
أخذها ؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تهمل في الدنيا بقلبك ؛ قاله ابن المبارك .
وقالت فرقة : الزهد حب الموت . والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٥﴾

نقدم بيانه . وقال أبو سهل : تراباً لانيات به ؛ كأنه قطع ثباته . والجرز : القطع ؛
ومنه ستة جرز . قال الرازي :

• قد جَرَفَتْهُنَّ السَّوْنُ الْأَجْرَازُ •

والأرض الجُرُزُ التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ، كأنه قطع وأزيل . بمعنى يوم القيامة ، فإن الأرض تكون مستوية لا مستَرَفِيها . الضامس : والجُرُزُ في اللغة الأرض التي لا نبات بها . قال الكسائي : يقال جُرِزَتِ الأرضُ تجرُزاً ، وجرزها القوم يجرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجرُوزة وجرُز .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ

آيَاتِنَا عَجَبًا ①

مذهب سبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدما ألف استفهام أنها بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهي المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام في لطفك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبري : وهو تقرير للنبي صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجباً ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشجع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وآبن إسحاق . وانخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فِتْنَةِ قُتُلُوا ، وعن ذِي الْقَرْنَيْنِ وعن الروح ، وأجاب الوحي على ما تسألتم . فلما نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا عبد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ؛ أي ليسوا بسجج من آياتنا ، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم . الكلبي : خَلَقَ السموات والأرض أعجب من خبرهم . الضحاك : ما أطلعك عليه من النيب أعجب . الجنيدي : شأئك في الإسراء أعجب . المسوردي : معنى الكلام الثاني ؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : القُبَّ المتسع في الجبل ؛ وما لم يتبع فهو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير مشهور في اللغة .

واختلف الناس في الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء في القرآن أعلمه إلا أربعة : عِيسَى وَحَنَانُ وَالْأَزْوَاجُ وَالرَّقِيمُ . وسئل مرة عن الرقيم فقال : زعم كعب أنها قرية نجران

(١) في الكلمة أربع لغات : جُرُزٌ ، جَرَزٌ ، جَرَزٌ ، جَرَزٌ .

منها . وقال مجاهد ، الرقيم وايد . وقال السدي : الرقيم الصخرة التي كانت على الكهف .
 وقال ابن زيد : الرقيم كُتبَ غم الله علينا أسره ، ولم يشرح لنا قصته . وقالت رفقة : الرقيم
 كتاب في لوح من نحاس . وقال ابن عباس : في لوح من رصاص كُتب فيه القوم الكفار
 الذين نزلت فيهم قصصهم وجعلوا تابوتاً لهم ، ذكروا وقت قدومهم ، ولم كانوا ، وبين من
 كانوا . وكذا قال القراء ، قال : الرقيم لوح من رصاص كُتب فيه أسماءهم وأنسابهم ودينهم
 وعمن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث ،
 وذلك من نبل الملكة ، وهو أمر مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرقيم ، ومنه كتاب
 مرقوم . ومنه الأرقم لخطيطه . ومنه رقعة الوادي ، أي مكان يجري الماء وأنطافه .
 وما روى عن ابن عباس ليس بمتناقص ، لأن القول الأول إنما سمعه من كُتب . والقول الثاني
 يجوز أن يكون حرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب
 الكهف فقال : إن القصة يُفقدوا أهلهم فلم يحدوهم فرمى ذلك إلى الملك فقال :
 لبيكون لم نبأ ، وأحضر لوحاً من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعلته في خزائنه ، فذلك اللوح
 هو الرقيم . وقيل : إنه مؤسستين كما في بيت الملك فكتبا شأن القصة وأسماءهم وأنسابهم في لوح
 من رصاص ثم جعلاه في تابوت من نحاس وجعلاه في البقيان ، فأنه أعلم . وعن ابن عباس أيضاً
 الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام .
 وقال النقاش عن قتادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشعبي : الرقيم كلبهم .
 وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذي أقامه الخضر
 وقيل : الرقيم أصحاب النار الذي انطبق عليهم ، فذكر كل واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفي هذا خبر معروف أخرجه الصنعيجان^(١) ، وإليه نحا البخاري . وقال قوم :
 أخبرنا عن أصحاب الكهف ، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشئ . وقال الضمالي : الرقيم بلدة
 بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفساً كانوا نيام على هيئة أصحاب الكهف . فهل هذا هم

(١) جامع صحيح مسلم ج ٨ ص ٨٩ طبع الإسكندرية - ونسخ المخطوطات من جامع ترمذي ج ٢ ص ٢١٧ ،

فَتَبَّهَ آخِرُهَا جَرَى لَمْ يَجْرَى لِأَصْحَابِ الْكَهْفِ . وَاتَّهَ أَعْلَمَ . وَقَبِلَ : الرَّقِيمَ وَادِ دَوْحَ تَقَطَّبَ
 فِيهِ الْكَهْفُ ؛ مَاخُذَ مِنْ رُقَّةِ الْوَادِي وَهُوَ مَوْضِعُ الْمَاءِ ؛ يُقَالُ : عَلَيْكَ بِالرُّقَّةِ وَدَعِ الضَّمَّةَ ؛
 فَذَكَرَهُ الْفَرَزَنْدِيُّ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَبِالنَّشَامِ عَلَى مَا سَمِعْتُ بِهِ مِنْ ثَمَسٍ كَثِيرٍ [كَهْفٌ] فِيهِ مَوْتٌ ؛
 وَيَزعمُ جَاوِيهِ أَنْبَسَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ وَعَلَيْهِمْ مَسْجِدٌ وَبُنِيَاءُ يُسَمَّى الرَّقِيمَ وَمَعَهُمْ كَلْبٌ رَقِيتٌ .
 وَبِالْأَنْدَلُسِ فِي جِهَةِ غَرْنَاطَةِ بِقَرْبِ قَرْيَةٍ تَسْمَى لَوْثَةَ كَهْفٍ فِيهِ مَوْتٌ وَمَعَهُمْ كَلْبٌ رَقِيتٌ ؛
 وَأَكْثَرُهُمْ قَدْ تَجَزَّوْا لِحْمَهُ وَبَعْضُهُمْ مَتَّاسِكٌ ، وَقَدْ مَضَتْ الْقُرُونُ السَّالِفَةُ وَلَمْ تَجِدْ مِنْ هَلُمِّ شَأْنِهِمْ
 أَثَارَةً . وَيَزعمُ ثَمَسٌ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكَهْفِ ، دَخَلَتْ إِلَيْهِمْ وَرَأَتْهُمْ سِتَّةُ أَرْبَعٍ وَخَمْسَانَةٍ وَهُمْ فِي هَذِهِ
 الْحَالَةِ ، وَعَلَيْهِمْ مَسْجِدٌ ، وَقَرْيَبٌ مِنْهُمْ بِنَاءٌ رُويَ يُسَمَّى الرَّقِيمَ ، كَأَنَّهُ فَهْرٌ مُخْلَقٌ قَدْ بَقِيَ بَعْضُ
 جِدْرَانِهِ ، وَهُوَ فِي فَلَائِمٍ مِنَ الْأَرْضِ تَحْرِيَةً ، وَبِأَعْلَى غَرْنَاطَةِ ثَمَائِلِ الْقَبْلَةِ آثَارُ مَدِينَةٍ قَدِيمَةٍ رُومِيَّةٍ
 يُقَالُ لَهَا مَدِينَةُ دَقْيُونُسَ . وَجِدَتْ فِي آثَارِهَا غُرَابٌ مِنْ قُبُورٍ وَنَحْوِهَا .

قُلْتُ : مَاذَا كَرِهَ مِنْ رُؤْيَيْهِ لَمْ يَلْأَنْدَلُسَ فَإِنَّمَا هُمْ غَيْرُهُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي - ق -
 أَصْحَابِ الْكَهْفِ : « أَوَّيَّ أَطْلَقْتَ عَلَيْهِمْ نَوَائِيَتْهُمْ فَرَارًا وَلَمَّيْتُ مِنْهُمْ رُجْبًا » . وَقَالَ
 ابْنُ عَبَّاسٍ لِمَا وَجَدْنَا أَرَادَ رُؤْيَيْهِمْ : قَدْ مَنَعَ اللَّهُ مِنْ هُوَ خَيْرُكَ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ
 الْقِسْطِ . وَقَالَ بِجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ « كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا نَحْنًا » قَالَ : هُمْ تَحْتٌ . كَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ
 عَنْهُ ؛ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِإِسْكَارٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ لَهُمْ حُجْبٌ .
 وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْهُ قَوْلُ : يَقُولُونَ لَيْسَ بِأَعْجَبَ آيَاتِنَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ
 لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٧﴾

فِيهِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْأَوَّلَى - قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ) رُويَ أَنَّهُمْ قَدِمُوا مِنْ آبَائِهِمْ أَشْرَافِهِ
 مَدِينَةَ دَقْيُونُسَ الْمَلِكِ الْكَافِرِ ، وَيُقَالُ فِيهِ دَقْيُونُسَ . وَرُويَ أَنَّهُمْ كَانُوا مَطْلُوبِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ
 (١) الْآيَةُ : الْفِتْيَةُ .

والذهب ثوبى ذواتهم، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى . وقيل : كانوا قبل عيسى
والمعظم أعلم . وقال ابن عباس ، إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدن
الروم يقال لها أنطوس . وقيل هي طرسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فامر بعبادة
الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرا ، فرُفع خبرهم
إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا ، وسروا براع معه كلب فتبعهم فأووا إلى الكهف فتبعهم الملك
إلى فم الغار ، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم ، فدخلوا فاعى الله أبصارهم فلم يروا شيئا ،
فقال الملك : سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا . وروى مجاهد عن ابن عباس
أيضا أن هؤلاء الفتيه كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويدبح لها ويكفر بالله ، وقد تابعه على
ذلك أهل المدينة ، فرفع الفتيه علم من بعض المطواريين - حسبما ذكر النفاش أو من مؤمنى
الأمم قبلهم - فأمسوا بالله ورأوا يبصائرهم قبيح فعل الناس ، فأخذوا قوسهم بالنزاع الذين وعبادة
الله ، فرُفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفوا آمنتك وكفروا بها ،
فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته ، وتوعدهم على فراق ذلك
بالتقتل ، فقالوا له فيما روى : « رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - إلى قوله - وإذ أعتزلقوم » .
وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به ، فقال لهم الملك : إنكم شيان أغمار لا عقول لكم ،
وأنا لا أعجل بكم بل أستاذي فأذهبوا إلى منازلكم وادبروا رأيكم وأرجعوا إلى أمري ، وضرب
لهم في ذلك أجلا ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتيه في المروء بأديانهم ، فقال لهم
أحدهم : إني أعرف كهفا في جبل كذا ، كان أبى يدخل فيه غنمه فلنذهب فلنخف فيه
حتى يفتح الله لنا ، فخرجوا فيما روى يلبسون بالصُّلحان والكُرة ، وهم يدرجونها إلى نحو
طريقهم تنالا يشعر الناس بهم . وروى أنهم كانوا متفقين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا
في جملة الناس ، ثم أخذوا بالقلب بالصُّلحان حتى خلصوا بذلك . وروى وهب بن منبه أن
أول أمرهم إنما كان حوارى ليعسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها ،
فأبر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة ،

فأتى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجل فيان من المدينة فعرضهم الله تعالى فأمنوا به وأتبعوه على دينه، واشتهرت خطبتهم به؛ فأتى يوما إلى ذلك الحمام فله الملك بأمره أراد الخلق بها، فنهاه ذلك الخوازيق فأتى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشمته، وأضى عزمه في دخول الحمام مع النبي، فدخل فانا فيه جميعا؛ فأتهم ذلك الخوازيق وأصحابه بقتلها، ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف . وقيل في خروجهم غير هذا .

وأما الكلب فروى أنه كان كلب صيد لهم، وروى أنهم وجدوا في طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعي على رأسهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس . واسم الكلب حران وقيل قطمير .

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند في معرفتها واه . والذي ذكره الطبري هي هذه : مكسليتا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومجسليتا ويمليغا، وهو الذي مضى بالوفاق إلى المدينة عند بنهم من رقدتهم، وصرطوس وكشوطوش وديغوس ويطونس ويرونس . قال مقاتل : وكان الكلب لمكسليتا، وكان أسنهم وصاحب غنم .

الثانية - هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبيت والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم نارا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في النار حسبا تقدم في سورة النحل . وقد نص الله تعالى على ذلك في « برائة » وقد تقدم . وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقربائهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين . فسكنى الجبال ودخول النيران، والعزلة عن الخلق والافتراق بالحقائق، وجواز الفرار من الظلم هي سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء . وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وقضها جماعة العلماء لاسيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال : « فَأَوْرَءُوا إِلَى الْكَهْفِ »

قال العلماء : لا اعتزال من الناس يكون مرة في الجبال والشطب ، ومرة في السواحل والرباط ، ومرة في البيوت ، وقد جلد في الحبس ، **«إِذَا كَانَتْ الْجَنَّةُ فَخَفَ مَكَانَكَ وَكُفَّ لِسَانَكَ»** . ولم يخصص موضعا من موضع . وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله قبلك وعملك ، إن كنت بين أظهرهم . وقال ابن المبارك في تفسير العزلة : أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله غفص معهم ، وإن خاضوا في غير ذلك فأسكت . وروى الباقوي^(١) عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **«الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَخَالُطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى إِذَاهِمُ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَخَالُطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى إِذَاهِمُ»** . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **«نَمِ صَوَامِعَ الْمُؤْمِنِينَ بِيَوْمِهِمْ»** من مراسل الحسن وعمره . وقال عفة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : **«مَا النَّجَاةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»** فقال : **«بِإِعْصَاةِ أَسْكَ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلِتَسْكُتَ بِكَ وَأَبْكَ عَلَى خُطْبَتِكَ»** . وقال صلى الله عليه وسلم : **«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ خَيْرُ مَالِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ الْفَنَمُ يُشَبِّعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِزُ بِيَدَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ»** . خرجه البخاري . وذكر علي بن سعد عن الحسن ابن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«إِذَا كَانَتْ سِتَّةُ ثَمَانِينَ وَمِائَةً فَقَدْ حَلَّتْ لَأُمِّي الْعَزَبَةُ وَالْعَزَلَةُ وَالتَّهَبُّ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ»** . وذكر أيضا علي بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرصه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لَدَى دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ قَرَّبَ يَدَيْهِ مِنْ شَاقِ إِلَى شَاقٍ أَوْ حَجَرٍ إِلَى حَجَرٍ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَلِ الْمَعِيشَةَ إِلَّا بِمَحْصِيَةِ اللَّهِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ حَلَّتْ الْعَزَبَةُ»** . قالوا : يا رسول الله ، كيف تجل العزبة وأنت تأمرنا بالترويح ؟ قال : **«إِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ فَسَادُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيِ أَبِيهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيِ زَوْجَتِهِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيِ وَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيِ اقْرَابَاتِ وَالْجِيرَانِ»** . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : **«يُعِيرُونَهُ بِضِيقِ الْمَعِيشَةِ وَيَكْثُرُونَهُ مَا لَا يُطِيقُ فَعِنْدَ ذَلِكَ يورد نفسه الموارد التي هلك فيها»**

قلت : أحوال الناس في هذا الباب تختلف ، فربّ رجل تكون له قوة على سكنى الكهوف والقبور في الجبال ، وهي أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبية صلى الله عليه وسلم في بداية أمره ، ونص عليها في كتابه عمرا عن الغيبة ، قال : « وإذا أعتزلتموه وما يبعدون إلا الله فأووا إلى الكهف » . وربّ رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل ، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . وربّ رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن . وذكر ابن المبارك حديثا وهيب بن الورد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حثت نفسي ألا أخاطبهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بد لك من الناس ، ولا بد لهم منك ، ولك إليهم حوايج ، ولهم إليك حوايج ، ولكن كن فيهم أصمّ سميا ، أعمى بصيرا ، سكوتا ظوفا . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معنى الجبال والشعاب ؛ مثل الاعتكاف في المساجد ، ولزوم السواحل للزباط والذكر ، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإنا جامع الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغم - والله أعلم - لأن ذلك هو الأغلب في المواضع التي يعتزل فيها ؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل في معناه ؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ^(١)يُحِبُّ رَبُّكَ مَنْ رَامَى غَمًّا فِي رَأْسِ شَيْطَانِ الْجَبَلِ يُؤَدِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيَصِلُ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ انظُرُوا إِلَى عَبْدِي يُؤَدِّنُ وَيَقِمُ الصَّلَاةَ يَخَافُ مِنِْي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدَخَلْتُهُ الْجَنَّةَ » . نرجه الثاني .

الثالثة - قوله تعالى : (وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) لما قرأوا عن بطليم اشتغلوا بالدعاء ولبثوا إلى الله تعالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أي مغفرة ورزقا . « وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » توفيقا للرشد . وقال ابن عباس : غمرا من النار في ملامة . وقيل صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر ^(٢)فزع إلى الصلاة .

(١) يحب : كسب ، أي يرضى به ويثبه . (٢) الشطية (فتح الشين وكسر الطاء) : قطة مرصعة لدا من الجبل (٣) أي إذا نزله بهم أرواحهم . وفي الأصول : « إذا حزبه » والمصوب عن كتب الحديث .

قوله تعالى : فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾

جارية عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أي منعاهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أي سدنا آذانهم عن قوِّد الأصوات إليها . وقيل : للمعنى « فضربنا على آذانهم » أي فاستجبنا دعاءهم ، وصرنا عنهم شر قومهم ، وأنعام . والمعنى كله متقارب . وقال قطرب : هذا كقول العرب ضرب الأعمى على يد الرعية إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده الماذون له في التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يassar وكان خيرا :

ومن لموادت لا أبالك أني • ضربت على الأرض بالأسدادي

ولما تخصمى الأذان بالذكر فلانها الجوارحة التي منها عظم فساد النوم ، وقيل ما ينقطع نوم قائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحکم نوم إلا من تغط السمع . ومن ذكر الأذن في النوم قوله صلى الله عليه وسلم : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » ترجمه الصحيح . أشار عليه السلام إلى وصل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عددا » نعت للسنين ؛ أي معددة ، وانقصه به العبارة عن الكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرف . ولعلنا للمصدر ، والمصدر اسم المدود كالتقص والخبط . وقال أبو عبيدة : « عددا » نصب على المصدر . ثم قال قوم : بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعد فقال : « وَلْيَسِّرْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ سِنِينَ وَآزِدْهُمْ فِي نِسْمَا » .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) أي من بعد نومهم . ويقال لمن أشي أو أقي من نومه جثوث ؛ لأنه كان محروما من الأكل والشرب .

(١٢) والله أعلم • هذه رواية أخرى : « بَعَثْنَا عَلَى الْخَرِيقِ ، أَي عَمِلَ لِمَا » .

قوله تعالى : (لَنَلْمَ أَى الْحَزْبَيْنِ أَحْسَى) « لنلم » عبارة عن خروجك الشئ إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنلم ذلك موجودا ، وإلا لقد كان الله تعالى علم أى الحزبين أحصى الأمد . وقرا الزمخشرى « ليلم » بالياء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفئة إذ ظنوا لبثهم قليلا . والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعثَ الفِئَةُ على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفئة . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، اختلفا في مدة أصحاب الكهف . وقيل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بالفاظ الآية . و« أحصى » فعل ماضى . و« أمدأ » نصب على المفعول به ؛ قاله أبو على . وقال الفراء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أى الحزبين أحصى لبثهم في الأمد ، والأمد الناية . وقال مجاهد : « أمدأ » معناه مددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقریب . وقال الطبري : « أمدأ » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير متجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أصل لا يكون من فعل رباعى إلا في الشاذ ، و« أحصى » فعل رباعى . وقد يتجمل له بأن يقال : إن أصل في الرباعى قد كثرت كقولك : ما أعطاه لئلا وآتاه لخير . وقال في صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : « ماؤه أبيض من اللبن » . وقال عمر بن الخطاب : فهو لما سوا ما أضع .

قوله تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) ما اقصى قوله تعالى « لنلم أى الحزبين أحصى » اختلافا وقع في أمد الفِئَةِ ، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ » أى شيت وأحداث حكم لهم بالفتنة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتنة الإيمان . وقال الجنييد : الفتنة بقل التدى وكف الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفتنة اجتناب المحارم واستعمال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعم بالمعنى جميع ما قيل في الفتنة .

قوله تعالى : (وَذَنَّبُوا هُدًى) أى يَسْرِتَ لهم العمل الصالح ، من الاعتصام إلى الله تعالى ، ومباعدة الناس ، والزهد في الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السُّدِّي : زادهم هُدًى يكذب الراعى حين طرده ورجوه مخافة أن يَبْحَ عليهم ويُبَيِّنَ بهم ؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالإنسان فأطلقه الله ، فقال : يا قوم ! لم تطردوني ، لم ترجعوني ! لم تضربوني ! فوافاه لقد عرفته الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ؛ فزادهم الله بذلك هُدًى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝

قوله تعالى : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) عبارة عن شدة عزيم وقوة صبر ، أعطاهم الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » . ولما كان الفزع وخَوَرُ النفس يُبَيِّنُ بالناسب الانحلال حَسَنَ في شدة النفس وقوة التمسك أن يُبَيِّنَ الربط ؛ ومنه يقال : فلان رابط الجمل ، إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الربط على قلب أم موسى . وقوله تعالى : « وَلَيَرْبِطَنَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَنَّ بِهِنَّ الْأَقْدَامَ » وقد تقدم .

قوله تعالى : (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا) فيه مسائلان ،

الأولى - قوله تعالى : (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا) يحتمل ثلاثة معان : أحدها - أن يكون هذا وصفاً لمقامهم بين يدي الملك الكافر - كما تقدم ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خافوا دينه ، ورفضوا في ذات الله هيته . والثاني الثاني فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير مياد ؛ فقال أسفهم : إني أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض ، فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا . فقالوا جميعاً : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَفَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » .

أى لمن دعونا لما غيره فقد قلنا إذا جوراً وعلا . والمعنى الثالث - أن يبرأ القيام من اتباعهم بالعزم إلى المروب إلى الله تعالى ومناينة الناس كما يقول : قام فلان إلى أمر كذا : إذا عزم عليه بقاية الحق .

الثانية - قال ابن عطية : تملت الصوفية في القيام والقول بقوله : إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض .

قلت : وهذا تعلق غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم سقطعين إلى ربهم خائعين من قومهم ؛ وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكام ! وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنساء ؛ هيات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء ، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقدم في « سبلح » عند قوله : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » ما فيه كفاية . وقال الامام أبو بكر الطرسي : وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأقول من أحدثه أصحاب السامري ؛ لما اتضد لم عجلًا جسدًا له خوار قاموا يرتصون حوالبه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعباد العجل ، على ما يأتي .

قوله تعالى : هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ مُسْلِمِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ قَوْمٌ أَكْثَرُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ۚ

قوله تعالى : (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومتنا ، أى أهل دمرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليدًا من غير حجة . (لَوْلَا) أى هلا . (يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ مُسْلِمِينَ) أن يحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : « عليهم » راجع إلى الآلهة ؛ أى هلا أقدموا بينة على الأصنام في كونها آلهة ، قولهم « لولا » تحضيض بمعنى التجميع ، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يحب أن يثبت إلى دعوهم

قوله تعالى : وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ) قيل : هو من قول الله لم . أى وإذ أَعْرَضْتُمْ فَأَوْفُوا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم عليا ؛ فيما ذكر ابن عطية ، وقال الفريزى : رئيسهم مكشبتا ، قال لم ذلك ؛ أى إِذْ أَعْرَضْتُمْ وَأَعْرَضْتُمْ مَا يَعْبُدُونَ . ثم استثنى وقال (إِلَّا اللَّهَ) أى أنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهذا على تقدير أن الذين فرأى الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ وإنما يستغفرون الأصنام في ألوهيتهم فقط . وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فلا استثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله . وفي مصحف عبد الله بن مسعود « وما يعبدون من دون الله » . قال قتادة هذا تفسيرها . قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نعيم الحافظ عن عطاء الخراساني في قوله تعالى « وإذ أَعْرَضْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ » قال : كان فئة من قوم يعبدون الله ويعبدون معه الهة فاعترلت الفئة عبادة تلك الهة ولم تعزل عبادة الله .

ابن عطية : فعل ما قال قتادة تكون « إلا » بمنزلة غير ، و « ما » من قوله « وما يعبدون إِلَّا اللَّهَ » في موضع نصب ، عطفا على الضمير في قوله « اعترلتم » . ومضمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقتا الكفار وأفرغنا بالله تعالى فلنعمل الكهف مأوى وتكفل على الله ؛ فانه سيسط لنا رحمته ، وينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقا . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقة ، وأسم الكهف حيوم . (مرفقا) قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يرفق به . وكذلك يرفق الإنسان ومرفقه ، ومنهم من يحمل « المرفق » بفتح الميم الموضع كالسجد ، وهما لسان .

قوله تعالى : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ
وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿٧﴾ وَخَسِبُكُمْ إِيقَانًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ
مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتٌ مِنْهُمْ رِعْبًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ) أى ترى أيما
المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهم رأيتهم كذا ؛
لا أن المخاطب رآهم على التحقيق . و « تزاور » تفتح وتبيل ؛ من الأزوار . والزور الميل .
والأزور في العين المسائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل في غير العين ؛ كما قال ابن أبي ربيعة .
• وَجَنِّى خِيْفَةَ الْقَوْمِ أَزْوَراً •

ومن اللفظة قول عشرة :

• فَأَزْوَراً مَنْ وَقَعَ الْقَتْلُ بِلَهَائِهِ •

وقى حليث غزوة مؤنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في سرير عبد الله بن رواحة
أزواراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « تزاور » بأدغام
الراء في الزاى ، والأصل « تزاور » . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي « تزاور » بفتح الزاى .

(١) واليت جماعه كاف في دياره •

ونقص عن الصوت أملت يشية ه • حباب ونحس خشية الى ازود
والحباب (الضم) : الحبة - وقيل هذا البيت :

فلما قتلت الصوت منهم راجعت • صايح وثبت بالشد وأنزور

وناب قسم كنت أهوى فويه • ودوح دويات يفقه يحسر

(٢) وقناه • وشكا إلى يسيرة ونحس ه •

والبيان (بالفتح) : الهجو . والحسم : صوت قطع ليس بالصليل •

وقرأ ابن عامر « تَرَوُزَ » مثل تمر . وحكى القراء « تَرَوَازَ » مثل تمار ، كلها بمعنى واحد .
 (وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ) قرأ الجمهور بالتاء على معنى تركهم ، قاله مجاهد . وقال قتادة :
 تدعهم . النحاس : وهذا معروف في اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : فرضه يقرضه
 إذا تركه ، والمعنى : أنهم كانوا لا يصيبهم شمس البينة كرامة لهم ، وهو قول ابن عباس . معنى
 أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى عين الكهف ، وإذا غربت تزجهم
 ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا يصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار . وكان كهفهم
 مستطيل بنات نقش في أرض الروم ، فكانت الشمس تعيل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم
 لتؤذيهم بحرها ، وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة
 الجنوب ، وحاجب من جهة القبور وهم في زاويته . وذهب الزجاج إلى أن قمل الشمس
 كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة
 « يقرضهم » بإيالة من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظله من ضوء الشمس .
 وقيل : « وإذا غربت تقرضهم » أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قرضاة الذهب والفضة ،
 أى تعطيم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان في منها لم باليسير إصلاح لأجسادهم .
 وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفة لا إلى كهف آخر
 يتأذون فيه بانسباط الشمس عليهم في معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف
 الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن نطق البلاء وتبلي
 الأبدان والألوان إليهم ، والتأذى بحر أو برد . (وَهُمْ فِي جَفْوَةٍ مِنْهُ) أى من الكهف . والفجوة
 المنع ، وجمعها فجوات وفجاء ، مثل ركوة وركاء وركوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كل واد وجفوة • رجالا وخيلا غير ميل ولا عزرا

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) لطف بهم ، وهذا يلوى قول
 الزجاج . وقال أهل الضمير : كانت أعينهم مفتوحة وهم آمنون ، فكذلك كان الرائي يحسب
 أيقاظا . وقيل : تحسبهم أيقاظا لكثرة تقلبهم كالسليق في مضجعه . و (أَيْقَظَا)

جمع يقظ ويقظان، وهو المنتبه . (وَمِمَّنْ رَقُودٌ) كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر . (وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام تقلبتان . وقبل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما تقلبوا في التسع الأواخر ، وأما في الثلاثة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقلب كان من فعل الله . ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله . فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعالى : (وَكَلِّمُهمْ بِاسْطِ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَكَلِّمُهمْ) قال عمرو بن دينار : إن مما أخذ على المقرب ألا ينظر أحدا [قَالَ] في ليله أو في نهاره : صَلَّى الله على نوح . وإن مما أخذ على الكلب ألا يصر من حبل عليه [إذا قال] : وكلمهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حفيظة ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه ، على ما قال معاذ . واختلف في لونه اختلافًا كبيرًا ، ذكره التلمبي . تحصله : أي لون ذكرت أصبته ؛ حتى قيل لون الحمري وقيل لون النساء . واختلف أيضا في اسمه ، من علي : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوراعي : مشير . عند الله بن سلام : بسط . كعب : صبيا . وهب : قيا . وقبل قطمير ، ذكره التلمبي . وكان اقتناء الكلب جائزا في وقتهم ، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا . وقال ابن عباس : هموا ببلا ، وكانوا سبعة فتزوا برأع معه كلب فأتبعهم على دينهم . وقال كعب : صروا بكمب فتبع لهم مطردوه فماد فطرده مرارا ، فقام الكلب على رجله ورمع يديه إلى السماء كهشة النداء ، فطلق فقال : لا تحاموا مني ! أنا أحب أحب الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانية - ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أقتنى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم فخرائطان " . وروى الصحيح أيضا عن

أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع أتقص من أجره كل يوم قيراط " . قال الزهري : وذكر لأبن عمر قول أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحب زرع . فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل القص في أجر من آتسها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لزروع الكلب المسلمين وتوشيه عليهم بفساحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لحاسته ، على ما رواه الشامي ، أو لأقتحام النهر عن اتخاذ مالا منفعة فيه ، والله أعلم . وقال في إحدى الروايتين "قيراطان" وفي الأخرى "قيراط" . وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشد أدنى من الآخر ، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله ، ولم يدخله في الاستثناء حين تمى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر ، أخرجه الصحيح . وقال : "عليكم بالأسود البهم ذي الثقلين فإنه شيطان" . ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون مسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهزة . والله أعلم .

الثالثة - وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذى يسرح معها ، لا الذى يحفظها في الدار من السراق . وكلب الزرع هو الذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع . وقد تقدم في «المائنة» من أحكام الكلاب ما فيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة - قال ابن عطية : وحدثني أبي رضى الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من يركبهم ؛ كلب أحب أهل فضل ومهمهم فذكره الله في محكم ترتيبه .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومعالجته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما طيب بالمؤمنين الموحدين المخاطبين

المحسين للأولياء والصالحين ! بل في هذا تسلية وأثر للؤمنين المقصرين عن درجات الكمال ،
 المحيين للنبي صلى الله عليه وسلم وآله خير آل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بنا
 أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجلا عند سدة المسجد فقال :
 يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددت لها " قال :
 فكان الرجل آتكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام
 ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله . قال : " فانت مع من أحببت " . في رواية قال
 أنس بن مالك : فافرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فانت
 مع من أحببت " . قال أنس : فانا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون
 معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فذلك تنقلت
 أطاعنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين ، كلب أحب
 قوما فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعدنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحب النبي صلى الله
 عليه وسلم ، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على
 كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وقالت فرقة : لم يكن كلبا حقيقة ، وإنما كان أحدهم ، وكان قد قعد عند باب الفارطلية
 لهم ؛ ... كما سمي النجم التابع للجزء كلبا ؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان ؛ ويقال له : كلب الجبار .^(١)
 قال ابن عطية : فسئ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أما إن هذا القول يصفه ذكر
 بسط القرائين فإنها في العرف من صفة الكلب حقيقة ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :
 " ولا يسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر المطرز في كتاب اليواقيت

(١) في بعض نسخ الأصل بدل قوله « كلب لم » : « قال ابن عطية : فسئ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع » .
 وقرأنا غير لازمة . والذي في حياة الحيوان ليس في اسم الكلب : « وقال فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب
 الفارطلية لم ، فسئ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمي النجم الجبار ، كلبا لأنه منها كالكلب من
 الإنسان » وهذا القول يصفه ... الخ . (٢) الجبار : اسم الجزلة .

أنه قرئ « وكالهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين والوصوق بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هي هيئة الريسة المستخفي بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادق « وكالهم » يعني صاحب الكلب .

قوله تعالى : (بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ) عمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضيء ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدة . وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفناء ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جرير ، أى فناء الكهف ، واجمع وصائد ووُصِد . وقيل الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأُتشد :

بأرض فضاء لا يُسَدُّ وصيدها . على - ومعروف بها غير منك

وقد تقدّم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وأصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : (لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلِيمٌ) قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعشى ويحيى بن وثاب يضمها . (لَوَيْتَ مِنْهُمْ فَرَارًا) أى لو أشرفت عليهم لمربت منهم . (وَلَمَلِثْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا) أى لما حَفهم الله تعالى من الرُغْب واكتشفهم من المية . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكانهم آواهم الله إلى هذا المكان ^(١) الوَحِش في الظاهر ليغفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب ، لا يَسْمُرُ أحد منهم على الدق إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم ؛ ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والفسري . وهذا بعيد ؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت يحالها ؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والمصحح في أسره أن الله من وجل حيفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولنيرهم نعيم

آية ، فلم يُنَلِّ لهم ثوب ولم تغيّر صفة ، ولم يترك الناهض إلى المدينة إلا معلّم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة يتكرها لكانت عليه أم . وقرأ تافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة « لَمَلَّتْ مِنْهُمْ » بتشديد اللام على تضعيف المبالغة ، أى ملكت ثم ملكت . وقرأ الباقون « لَمَلَّتْ » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر في اللغة . وقد جاء التحيل في قول الخبيل السعدي :

وَإِذْ فَتَكَ الثُّمَانُ بِالنَّاسِ مُحَرِّمًا • فُلِّيَ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ مَسْلَسُهُ
وَقَرَأَ الْجَهْوَرُ « رُجَا » بِإِسْكَانِ الْعَيْنِ • وَقَرَأَ بِضَمِّهَا أَبُو جَعْفَرٍ • قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : هُمَا لَفْظَانِ •
و « فَرَارًا » نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ وَ « رَجَا » مَفْعُولٌ ثَانٍ أَوْ تَمِيزٌ •

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَنَاتِهِمْ نِسَاءً • قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ
كَرِهْتُمْ قَالَوْا لِبَنَاتِنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا لِبَنَاتِكُمْ
فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرْقِكُمْ هُنَازٍ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهُنَّ أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقُ مَتْنَةٍ وَلْيَلْطَفْ وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١١٠ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدُوْكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ١١١

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَنَاتِهِمْ) البعث : التحريك عن سكون •
والمتن : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبانم بستانم أيضا ؛ أى اعطناهم من نومهم
على ما كانوا عليه من هيتهم في ثيابهم وأحوالهم • قال الشاعر :

وَقَيْنَانِ صَدَقَ قَدْ بَعَثَ بِسُحْرَةٍ • قَامُوا جَمِيعًا مِنْ عَاتٍ وَتَوَانِهِ ١١١

أى أيقظت • واللام في قوله « لبساتلوا » لام الصيرورة وهى لام الماقبة ؛ كقوله « لِيَكُونَ
لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا » فبعضهم لم يكن لأجل تساؤلهم

(١) البعث لأمرى القيس . والبشر : بالفتح ، البسر . وقيل أصل البسر . وقيل : هو من قت البسر الآخر
ال بصر البسر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهم دخلوه غُدوةً وبغتهم الله في آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تخليصاً أو مكسلياً : الله أعلم بالمدة

قوله تعالى : ﴿ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ يَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى - قال ابن عباس : كانت ورقهم كأخفاف الرِّيح ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم « يورِقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم « يورِقكم » بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لتقلها ، وهما لفتان . وقرأ الزجاج « يورِقكم » بكسر الواو وسكون الراء . ويروى أنهم انتبهوا جيعاً ، وأن المبعوث هو تخليص ، كان أصغرهم ؛ فيما ذكر الفزري . والمدنية : أفسوس ويقال هي طرسوس ، وكان اسمها في الجاهلية أفسوس ؛ فلما جاء الإسلام سموها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أهل ذبيحة ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على أسم الصنم ، وكان فيهم قوم يُحقنون إيمانهم . ابن عباس : كان عاقبتهم مجوسا . وقيل « أزكى طعاما » أى أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشتري ما يُضن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لتلا يُطلع عليهم ، ثم إذا طُبخ كفى جماعة ؛ ولهذا قيل ذلك تضاعف الأرز . وقيل : كان زيبا . وقيل تمرا ؛ فالله أعلم . وقيل : « أزكى » أطيب . وقيل أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ أى بقوت . ﴿ وَلْيَسْأَلْكُمْ ﴾ أى فى دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يَسْمُرَنَّ بَيْنَكُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا يخبركم . وقيل : إن شهر عليه فلا يؤمن إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالجماعة ، وهو أحبب القتلى . وقيل : يرموكم بالسلب والشتم ؛ والأقول أصح ؛ لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدم في قصصهم . والرجم فيما سلف هى كانت على ما ذكر قبله [عقوبة] مخالفة دين الناس إذ هى أشنى لجملة أهل ذلك الدين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(١) الرج (كفر) ؛ التمهيل يخرج في الرية . (٢) زيادة بتضيها السابق .

الثالثة - في هذه البعثة بالورق دليل على الوكالة وصحتها . وقد وكل على بن أبي طالب أخاه عقيلاً عند عثمان رضى الله عنه ؛ ولا خلاف فيها في الجملة . والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام ؛ ألا ترى إلى عبد الرحمن بن عوف كيف وكل أمية بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والترم عبد الرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك مجازةً لصنعه . روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : كتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظنى فى صاغيتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ؛ فلما ذكرت الرحمن ؛ قال : كتاباً لا أعرف الرحمن ! كاشفى تأمك الذى كان فى الجاهلية ، فكأنه عبد عمرو . وذكر الحديث ، قال الأصمى : صاغية الرجل الذين يملون إليه ويأتونه ؛ وهو مأخوذ من صاغ يَصْنُو وَيَصْنَى إذا مال ، وكل مائل إلى الشيء ، أو معه فقد صاغ إليه وأصغى ؛ من كتاب الأصول - .

الرابعة - الوكالة عقد نيابة ، أذن الله سبحانه فيه للأمة فى قيام المصلحة فى ذلك ؛ إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترقه فيستفيد من يريعه . وقد استدلل علماءنا على صحتها بأيات من الكتاب ، منها هذه الآية ، وقوله تعالى « **وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ** » وقوله « **أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا** » . وأما من السنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عمرو البارقى ، وقد تقدم فى آخر الأمام . روى جابر بن عبد الله قال أوردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إني أوردت الخروج إلى خيبر ؛ فقال : « **إِنَّا آتَيْنَاكَ نَحْمَةً عَشْرًا وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْكَ آيَةٌ فَضَع يَدَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ** »^(١) ترجمه أبو داود . والأحاديث كثيرة فى هذه المعنى ، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامسة - الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيابة فيه ، فلو وكل الناصب لم يجرى ؛ وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادسة - فى هذه الآية بُكِّتْ بديسة ، وهى أن الوكالة إنما كانت مع الثقة خوف أن يشعروهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العذر متفق

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٦ طبعه أول مرة ثانية (٢) القزوينى : النظر الذى بين ثمة النمر والناس .

عليه ؛ فأما من لا مله الجمهور على جوازها ، وقال أبو حنيفة ومحنون ، لا يجوز . قال ابن العربي : وكان محنون تنقذ من أسد بن القُرأت لحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجوروت ؛ إنصافاً منهم وإذلالاً لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هذا حسن ؛ فأما أهل الدين والفضل فلم أن يؤكلوا وإن كانوا حاضرين أمحاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما أخرجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبي صلى الله عليه وسلم سن من الإبل بغاء يتقاضاه فقال : " أعطوه " فطلبوا له سنه فلم يجدوا إلا سناً فوقها ؛ فقال : " أعطوه " فقال : " أوفيتني أدنى الله لك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن خيركم أحسنكم قضاء " . لفظ البخاري . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يعطوا عنه السن التي كانت عليه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مريضاً ولا مسافراً . وهذا يرد قول أبي حنيفة ومحنون في قولها ؛ أنه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه ؛ وهذا الحديث خلاف قولها .

السابعة - قال ابن خُوَيزِ مَنَاد : تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجمعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بستوا من وكّله بالشراء . وتضمنت جواز أكل الرقاع وخططهم طعامهم مما ، وإن كان بعضهم أكثر أكلًا من الآخر ؛ ومثله قوله تعالى : " وإن تحالطوهم فإخوانكم " حجاباً تقدم بيانه في « البقرة » . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُصنق عليه فيخطه بطعام لئلا يتم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارب يخطط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من اشترى له أمحية . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك ؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفرداً فلا يكون فيه اشتراك . ولا مؤول في هذه المسئلة

إلا على حنينين : أحدهما - أن ابن عمر رضي الله عنهما يقولون : قال : سبحي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقران إلا أن يستأذن الرجل لهما . الثاني - حبيب أبي حنيفة في جيش الخياط . وهذا دون الأول في الظهور ، لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يطعمهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : وما يدل على خلاف هذا من الكتاب قوله تعالى : « وإن تخالطوهم فاخوانكم » وقوله : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلِبُوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتَنَا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ) أى أطلعت عليهم وأظهرتهم . و « أغتر » تعدية غتر بالمعزة ، وأصل الغتر في القدم . (لِيُغْلِبُوا) أى وعد الله حق (بِنَى) الأئمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون ومليك أهل تلك الدار رجل صالح ، فأختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنما نحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا ؛ فكبر ذلك على الملك وبنى حيران لا يدري كيف يبين أمره لهم ، حتى لبس المسوح وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى في حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ؛ فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم يورثهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكرت شخصه واستنكرت دراهمه بعد العهد ، فحمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه ، فلما

(١) سمرا جيش الخياط لاتهم نحرهم في بيرة إلى أرض حمية فأصابهم جوع فأكلوا الخياط ، ص ١٠٥ .

(٢) آية ٦١ سورة النور .

نظر إليه قال : لعل هذا من الفتيّة القتين ترجوا على عهد ديقانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يرّبعهم ، وسأل القتي فاجبه ؛ فسرّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلتسير إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنوا إلى الكهف قال تملّحوا : أنا أدخل عليهم لسلا برّبعوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أهنة إسلام ، فرؤى أنهم سرّوا بذلك ونرجوا إلى الملك وعظموه وعظمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تملّحوا ميتة الحق ، على ما يأتي . ورجع من كان شكّ في بعث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى « أضرنا عليهم » . « ليعلموا أن وعد الله حق » أى يعلم الملك ورعيته بأن القيامة حق والبعث حق . « إذ يتنازعون بينهم أمرهم » : وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهاجوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنسوا عليهم بنيانا ، فقال الذين هم على دين الفتيّة : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبئ ببيعة أو مضيفا ، فانهم المسلمون وقالوا لتخذنّ عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّين . وروى عن عبد الله بن عمر أن الله تعالى أعمى على الناس حيث ذكّرهم وأزهم وحجهم عنهم ، فلذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون ممّلا لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفعهم في صندوق من ذهب فأناه آت منهم في المنام فقال : أردت أن تجعلنا في صندوق من ذهب فلا تفعل ، فإنا من التراب خلقتا وإليه نعود ، فدعنا .

وتنشأ هنا مسائل متنوعة وجائرة ، فأتخذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها ، إلى غير ذلك مما تضمّنته السة من النهى عنه ممنوع لا يجوز ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زقارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج . قال الترمذى : وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرا كنيمة رأيتها بالحبيشة فيها تصاور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^{٢٩} « إن أولئك إذا كان فيهم

(١) في بعض الأصول : « عن عيين عمير »

الرجل الصالح فات بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم يُقيم الساعة . لفظ مسلم . قال طلائطا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مسجداً . وروى الآخرة عن أبي هريرة القنوي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " لفظ مسلم . أى لا تتخذوها قبلة فصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام . لحذر النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسدّ الدرائع المؤدية إلى ذلك قال : " اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم ومجالسهم مساجد " . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طُفِقَ بطرح تحية له على وجهه فإذا أقم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذا : " لئلا يفتن على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُخصّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وخرجه أبو داود والترمذي أيضا عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُخصّص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن توطأ . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبي الهيثم الأسدي قال قال لى بن أبي طالب : ألا أبشرك على ما بنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا شرفا إلا أسويته . فى رواية — ولا صورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذي . قال طلائطا : ظاهره منع تسنن القبور ورفعها وأن تكون لاطنة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنن ، ويبقى القبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبر صاحبه رضى الله عنهما — على ما ذكر مالك فى الموطأ — وقبر آدنا آدم صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الدارقطني .

- (١) قوله « إذا أقم » أى تسنن بالحجارة وأخذ بقصه من شدة الحر (٢) أى حالة الطرح والكشف (٣) أى يحذر أنه أن يصنوا غيره مثل صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم (٤) قوله « إلا » يشهد بالامتناع عن غيره . وقيل بفتحها فتية .

من حديث ابن عباس . وأما تلمية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله فخفيا وتظليا فذلك يهيم ويزال ؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة ، وتشبها بمن كان يهيم القبور ويعبدها . وباعتبار هذه المعاني وظواهر النهي يفتى أن يقال : هو حرام . والتسليم في القبر : ارتفاعه قدر شبر ؛ مأخوذ من سنام البعير . ويرش عليه بالماء ثلاثا ينثر بالريح . وقال الشافعي لا بأس أن يطعن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يخصص القبر ولا يطعن ولا يرفع عليه بناء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال : حدثنا مسدد حدثنا فوج بن ذؤاج عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلمته بصخرة ؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن في التابوت ؛ وهو جائز لا سيما في الأرض الرخوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر ، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى في ركة^(١) مخافة أن يُعبَد ، وبقي كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم اجمعين ؛ فدأته عليه عجوز فرفعه ووضعته في حظيرة إسماعيل عليه السلام . وفي الصحيح عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي هلك فيه : اتخذوا لي لحداً وأنصبوا عليّ اللين نصبا ؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم . المهد : هو أن يسقى في الأرض ثم يحفر قبره في جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صلبة يُدخَل فيه الميت ويسد عليه بالطين . وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذي اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة المهد . وقال الشافعي : الشق . ويكره الأجر في المهد . وقال الشافعي : لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الأجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه لئلا ، فلا يليق به الإحكام . وعلى هذا يسوّى بين الحجر والأجر . وقيل : إن الأجر أثر النار فيكره تنازلا ؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والأجر . قالوا : ويستحب اللين والقصب لما روى أنه وضع على قبر النبي صلى الله عليه وسلم حُرمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام (١) الركة : البئر .

أبي بكر محمد بن الفضل الخنزي رحمه الله أنه جوز اتخاذ تابوت في بلادهم لراحة الأرض .
وقال : لو اتخذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطين
الطبقة العليا مما يلي الميت ، ويُعمل اللين الخفيف على عيين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .
قلت : ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سيخة^(١) ،
قال شقران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر . قال
أبو عيسى الترمذي : حديث شقران حديث حسن غريب .

قوله تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَنُورًا
وَلَا تَسْتَفِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) الضمير في « سيقولون » يراد به أهل
التوراة ومعاصري عهد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا
الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبي صلى الله
عليه وسلم من تجران بحري ذكر أصحاب الكهف فقالت اليهودية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم .
وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم .
وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب
الكهف . والواو في قوله « وثامنهم كلبهم » طريق التحويلين أنها واو عطف دخلت في آخر
إخبار عن عددهم ؛ لفصل أمرهم ، وتدل على أن هذا غاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام .
وقالت فرقة منها ابن خالويه : هي واو التثنية . وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشا
كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فدخل الواو في الثمانية . وحكى نحوه القفال ، فقال ؛
(١) أرض سيخة : ذات طعم وريح .

إِنْ قِيَمَا قَالُوا الْعِدُّ يَتَّبِعُنِي عِنْدَ الْعَرَبِ إِلَى سَبْعَةِ ، فَإِذَا أُجِيجَ إِلَى الزَّيَادَةِ عَلَيْهَا اسْتَوْفَتْ خَيْرَ آخِرٍ
يَدْخُلُ الْوَاوُ ، كَقَوْلِهِ « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ - ثُمَّ قَالَ - وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ » .
وَبَدَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ « حَتَّى إِذَا جَاءَهُمَا فَتُحِثُّ أَبْوَابُهَا » بِلَاوٍ ، وَلَمَّا ذَكَرَ
الْجَنَّةَ قَالَ : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » بِالْوَاوِ . وَقَالَ « خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمَاتٌ » ثُمَّ قَالَ « وَأَبْكَارًا »
فَالسَّبْعَةُ نِهَآيَةُ الْعِدِّ عِنْدَهُمْ كَالشَّعْرَةِ الْآنَ عِنْدَنَا . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ أَبُو نَصْرٍ : وَمِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ
تَحْكُمُ ، وَمَنْ إِنْ السَّبْعَةُ نِهَآيَةُ عِنْدَهُمْ ! ثُمَّ هُوَ مَقْضُوفٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ » وَلَمْ يَذْكُرِ الْأَسْمَ الثَّامِنَ بِالْوَاوِ .
وَقَالَ قَوْمٌ مِنْ صَارَ إِلَى أَنْ عُدَّ سَبْعَةً : إِنَّمَا ذَكَرَ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ « سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ » لِنَبِيِّهِ
عَلَى أَنَّ هَذَا الْعِدُّ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ مَبَايِنٌ لِلْأَعْدَادِ الْأُتْرَاقِ قَالَ فِيهَا أَهْلُ الْكِتَابِ ؛ وَلِهَذَا
قَالَ تَعَالَى فِي الْجُلُثَيْنِ الْمُتَقَدِّمَتَيْنِ « رَجَعَا بِالْقَيْبِ » وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّالِثَةِ وَلَمْ يَقْدَحْ فِيهَا
بَنِيءٌ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لِنَبِيِّهِ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ كُلُّهُمْ . وَالرَّجَمُ : الْقَوْلُ بِالظَّنِّ ؛ يُقَالُ لِكُلِّ مَا يُخْرِصُ ،
وَجَمَّ فِيهِ وَمَرَجُومٌ وَمُرْجَمٌ ؛ كَمَا قَالَ :

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتَ وَذُقْتُ * وَمَا هُوَ عِنْدَ الْحَدِيثِ الْمُرْجَمُ

قُلْتُ : قَدْ ذَكَرَ الْمَاوَرِدِيُّ وَالْفَرَزْدَقِيُّ : وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ كَانُوا ثَمَانِيَةً ،
وَجَعَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى « وَثَمَانِيَةٌ كُلُّهُمْ » أَيْ صَاحِبَ كُلِّهِمْ . وَهَذَا مِمَّا يَقْوَى طَرِيقَ التَّحْوِينِ
فِي الْوَاوِ ، وَأَنَّهُمَا كَمَا قَالُوا . وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ : لَمْ يَذْكُرِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَبَرَّأْتُهُمْ سَادِسَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ
بِالْمَكْسِ لَكَانَ جَائِزًا ، فَطَلَبَ الْحِكْمَةَ وَالسَّلَاطَةَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْوَاوِ تَكَلُّفٌ بَعِيدٌ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ
فِي مَوْضِعٍ آخَرَ « وَمَا أَهْلَكَكَ مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا يَكَلِّبُ مَعْلُومٌ » . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « إِلَّا لَمَّا
مُنْذِرُونَ . ذِكْرِي » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ
أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ عَدَّتِهِمْ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَالَمَ ذَلِكَ مِنَ الْبَشَرِ قَلِيلٌ . وَالْمُرَادُ بِهِ قَوْمٌ مِنْ

أهل الكتاب ، في قول عطاء . وكان ابن عباس يقول : **أنا من ذلك القليل** ، كانوا سبعة وثمانين كلهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم ، والكلب اسمه **طعمر** كلب آدمي فوق القليل ^(١) ودون الكردى . وقال محمد بن سعيد بن المسيب : هو كلب صيني . والصحيح أنه زيرى . وقال : ما بقي بنيسابور عثت إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الجبيري عنى .

قوله تعالى : **(فَلَا تُصَارِفُهُمْ إِلَّا مَرَّةً ظَاهِرًا)** أى لا تجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحيناك إليك ، وهو رد علم عنهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هذا ، ولا تحتاج على أمر مقترن فى ذلك . وفى هذا دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عدتهم فلهذا قال **«إلا مرة ظاهرا»** أى ذاهبا ، كما قال : **«وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ حَكَّ عَارَهَا»** ^(٢) .

ولم يبح له فى هذه الآية أن يبارى ، ولكن قوله **«إلا مرة»** استارة من حيث يباريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مرة ثم قيد بأنه ظاهر ، فعارض المراء الحقيقى المذموم . والضمر فى قوله **«فيهم»** عائد على أهل الكهف . وفى قوله **«منهم»** عائد على أهل الكتاب للمعارضين . وقوله **«فلا تار فيه»** يعنى فى عنتهم ، وحذفت الفتحة لدلالة ظاهر القول عليها . قوله تعالى : **(وَلَا تَمَسُّهُمْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)** روى أنه عليه السلام سأل نصارى تخران عنهم فنهى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شئ من العلم .

قوله تعالى : **«وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَىٰ إِيْنِي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ عَدُوٌّ ۖ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ وَأَذْكُرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۖ»** ^(٣)

(١) القليل (كثري) : انصر من الناس والستير والكلاب . قال الجبيري : «والقليل : كلب صيني» .

(٢) هذا مجزئ لأن ذوقه . ومصدره :

«وغيرها الراشون أن أحبا» .

له تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُدْعَى إِلَى اللَّهِ شَيْئًا . إِلَّا أَنْ يَدْعَكَ الْقَدْرَ) فيه سائلان :

الأول - قال السلف : طالب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه من الروح والفتية وذى القرنين ، فذا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن في ذلك . فأجيب الوحي عنه بحجة عشر يوما حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فزلزلت عليه هذه السورة مغرقة . وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يملأ ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققا للخبر عنه . واللام في قوله « لنشيء » بمنزلة في ، أو كأنه قال لأجل شيء .

الثانية - قال ابن عطية : وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين ، والآية ليست في الإيمان وإيماني في سنة الاستثناء في غير اليمين . وقوله « إلا أن يشاء الله » في الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحتمس الإيجاز ، تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ؛ فليس « إلا أن يشاء الله » من القول الذي ينهى عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطية وأرضاه هو قول الكسائي والفسراء والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة « إلا أن يشاء الله » استثناء من قوله « ولا تقولن » . قال : وهذا قول حكمة الصبري ورد عليه ، وهو من القصاد بحيث كان الواجب ألا يحكى . وقد تقدم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في « المائدة » .

قوله تعالى : (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان - واختلف في الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله « وقل عسى أن ينسيني ربي لأقرب من هذا رشدا » . قال محمد الكوفي المنصور : إنها بالقاطها مما أمر أن يتوكلها كل

من لم يشك ، وإيا كفارة لسبب الاستثناء . وقال الجمهور : هو صفة حميدة . وهذا
التخصيص . وقيل : هو قوله « إن شاء الله » الذي كان فيه معية . حكى عن ابن عباس
أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حائطا . وهو قول مجاهد . وحكى
إسماعيل بن إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى « وأذكركم إن أنسيت » قال :
يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام في مجلس الذكر . ابن عباس : ستين ؛ ذكره الغزوي
قال : فيحمل على تدارك التبرك بالاستثناء للتخصيص عن الإثم . فاما الاستثناء المفيد حكما
فلا يصح إلا متصلا . اللدى : أى كل صلاة نسبها إذا ذكرها . وقيل : استثنى باسمه لئلا
تنسى . وقيل : أذكره متى ما نسيت . وقيل : إذا نسيت شيئا فذكره يذكركه . وقيل :
أذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك ؛ فذلك حقيقة الذكر . وهذه الآية عطية النبي
صلى الله عليه وسلم ، وهى افتتاح كلام على الأصح ، وليست من الاستثناء في اليمين بشئ ،
وهى بعد تمام جميع أمته ؛ لأنه حكم يتردد في الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعالى : وَلِكَيْتَوا فِي كَهَنِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿١٠٠﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم . وفي قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال
الطبري : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار عليهم إلى مدة التي صلى الله
عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين ، فأخبر الله تعالى فيه أن هذه
للمدة في كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أنه يرد علم ذلك إليه .
قال ابن عطية : فقوله على هذا « لبثوا » الأول يريد في يوم الكهف ، و « لبثوا » الثاني
يريد بعد الإغثار إلى مدة عهد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت علمهم بالبلاء . مجاهد :
إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لما قال « وازدادوا
تسعا » لم يدرك الناس أى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل
بحسب ذلك ، فأمر الله تعالى يرد العلم إليه في التسع ، فهى على هذا مبهمة . وظاهر كلام
العرب المفهوم منه أنها أعوام ، وظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى

يسجد وقد بحث من الخوارج بنية . وقيل غير هذا على ما يأتي . قال القشيري : لا ينهم
من القسح نبع إلى وقع طلعت لسي ذكر السجود كما تحول . وحدث مائة درهم ونعمة
والمفهوم من مائة درهم . وقال أبو علي : ولقد ادعى تسعة . فغذف .
وقال الضحاك : لما قلت . ولبنوا في كهفهم ثمانية . قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام ؟
فأزل الله عن وييل . سنين . . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب
الأيام ؛ فلما كان الإخبار ما انتهى للمعنى ذكرت التسعة ؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ،
وهذه الزيادة هي ما يجي للمساير . ونحوه ذكر الفيزوي . أي باختلاف سني الشمس
والقمر ؛ لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلاث سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين .
وقرأ الجمهور . ثمانية سبع . بخون مائة ونصب سنين ، على التقديم والتأخير ؛ أي سنين
ثلاثة تقدم الصفة على الموصولة فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل ،
على القصص والتخييل . و « سنين » في موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى
سبعين ، وترك التثنية ؛ كأنهم جعلوا سنين بمرلة سنة إذ المعنى بهما واحد . قال أبو علي : هذه
الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الأحاديح ثمانية رجل وثوب قد تضاف إلى الجوع .
وفي مصحف عبد الله « ثمانية سنة » . وقرأ الضحاك « ثمانية سنون » بأنوا . وقرأ
أبو عمرو بخلاف « تسعة » ففتح الشاء . وقرأ الجمهور بكسرهما . وقال الثعلبي ؛
وأبو عبيدة ؛ التثنية ولبنوا في كهفهم سنين ثمانية .

قوله تعالى : قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرُ
بِهِ وَاسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول الملائكة فيهم ، على
قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا ؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تقيعهم بالليالي ؛ على ما تقدم .
وقيل : بما لبثوا في الكهف ، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وغيرهم ذكرها
في زيادة ونقصاء . أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك « له غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

قوله تعالى : **(أَبْصِرْ وَاتَّخِذْ)** أى ما أبصره واتَّخِذْ . قل قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أجمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى بوجه وإرشاده عندك وحججك والحق من الأمور ، واتَّخِذْ به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأجمعهم ما قال الله فيهم : **(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)** أى لم يكن لأصحاب الكهف ولّى يتولى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير في « لهم » على معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما هؤلاء المختفين في مدة بُشيم ولّى دون الله يتولى تدبير أمرهم ، فكيف يكونون أعلم منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلانه إياهم .

قوله تعالى : **(وَلَا يُنْزِلُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)** قرئ بالياء ورفع الكاف ، على معنى الخبر من الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رباح وقتادة والجدري : **(وَلَا تُنْزِلُ)** بالثاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النفي صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله **(وَلَا تُنْزِلُ)** عطفا على قوله « أبصر به واتَّخِذْ » . وقرأ بجند « يُنْزِلُ » بالياء من تحت والجزم قال يعقوب : لا لعرف وجهه .

مسئلة - اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وقبوا ، لو هم نيام وأبصروا محفوظه ، فرى عن ابن عباس أنه مر بالشم في بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما قاتوا ، هذه عظم أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم قُتِلُوا وقُتِلُوا منذ مدة طويلة ، فسمعه راحب قال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هنا ، قبل له ، هذا ابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم . وروى فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(لِيَحْتَجَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَمَعَهُ أَصْحَابُ الْكَهْفِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْتَجُّوا بِدُ)** . ذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب في التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، وأنه يمر بالزواجر حاجبا أو مستترا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حلولية أصحاب الكهف والرفيق ، فيمرون حجاجا فاتهم لم يعجبوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بجماله في كتاب « التنوكة » .
فعل هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، على ما عرفت قبل الساعة .

قوله تعالى : **وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا** (٣٧)

قوله تعالى : (**وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**) قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا يبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبري : لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه . (**وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ**) أنت (**مِنْ دُونِهِ**) إن لم تتبع القرآن وخلفته . (**مُلْتَحَدًا**) أى ملجأ . وقيل موثلا . وأصله الميل ؛ ومن جلات إليه فقد يئلت إليه . قال الفشيري أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فأتته إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : « لو أطلعت عليهم لوليت منهم فرارا » فقال : لا أتتهى حتى أعلم عنهم ، وبعت قوما لذلك ؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم رجلا فأخرجهم ؛ ذكره التلمي أيضا . وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه إياهم ، فقال إنك لن تراه في دار الدنيا ولكن أبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك لينفهم رسالتك ويدعومهم إلى الإيمان ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : أبسط كمامك واجلس على طرف من أطرافه أيا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علي ابن أبي طالب ، ثم أَدْعِ الرِّيحَ الرُّخَاءَ المسخرة لبيان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الرِّيحَ إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فغسل الكلب عليهم فلما رأهم حرك رأسه ويهصب بطنه وأومأ إليهم برأسه أن أدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فرد الله على القية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ فقالوا لهم : معشر القية ، إن النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما أبلغتم ، وقبلوا

دينه واسلموا، ثم قالوا : أفرتوا بهذا رسول الله من السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي . يقال : إن المهدي يسلّم عليهم فيحسب الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، ثم ردتهم الريح فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كيف وجدتموهم؟" فأخبروه الخبر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصحابي وأعزّلني أحبي وأحب أهل بيتي وخاصتي وأصحابي" . وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ، فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بعثوا في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة ، ولهذا سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ، فافقه أعلم أي ذلك كان .

قوله تعالى : **وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطْغِ مَنْ أَغْلَغَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ۝٢٨**

قوله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ هذا مثل قوله : «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» في سورة «الأنعام» وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبيدة بن جحش والأفرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم - يبنون سلمان وأبذروا وقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها - جلنا إليك وحادثناك وأخذنا منك ، فترك الله تعالى «وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلًا ۝ وَأَصْبِرْ

فَسَكَتَ مع الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْفَدَاءِ وَالْمُنَى يَرِيدُونَ وَجْهَهُ - حتى يُلْمَ - إنا أعداء للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » . يَهْدِيهِم بِالنَّارِ . فقام النبي صلى الله عليه وسلم ينسبهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله قال : « الحمد لله الذي لم يُتْنِى حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحبَّاء ومعكم المقات » . (يَرِيدُونَ وَجْهَهُ) أى طاعته . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْفَدَاةِ وَالْمُنَى » وجمعتُ أنها في السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكنهم الحياة والصلاة بالواو ، ولا تكاد العرب تقول الفدوة لأنها معروفة . وروى عن الحسن « وَلَا تَعُدُّ عَيْنَكَ عَنْهُمْ » أى لا تجاوز عينك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزيارتها ؛ حكاه اليزيدي . وقيل : لا تحقرهم عينك ؛ كما يقال فلان تَبُو عنه العين ؛ أى مستحقرا .

(تَرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى تَرَبَّنَ بِمَالِهَا هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك ؛ ولم يُرِدِ النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، ولكن الله نهاه عن أن يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك » . وإن كان الله أعاده من الشرك . و« تريد » فعل مضارع في موضع الحال ؛ أى لا تعد عينك مریدا ؛ كقول امرئ القيس :
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا . نَحَاوُلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَتَعُدُّوا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينك عنهم ؛ لأن « تعدُّ » متعد بنفسه . قيل له : والذي وردت به التلاوة من رفع العين ينول إلى معنى النصب فيها ، إذ كان لا تعد عينك عنهم بمنزلة لا تنصرف عينك عنهم ، ومعنى لا تنصرف عينك عنهم لا تنصرف عينك عنهم ؛ فالقول مستند إلى اللعين وهو في الحقيقة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى ،

(١) . لَكَ كَابُ صَاحِبِ الْمَالِ « وقرأ الحسن (وَلَا تَعُدُّ عَيْنُكَ) بضم الفاء وسكون العين وكره المال المتفقه ؛ من فعله ؛ نصب العينين . وجه وجن جسي والأعشى أنهم قرأوا (وَلَا تَعُدُّ عَيْنُكَ) بضم الفاء وفتح العين وتشدق المال المتكبر ؛ من فعله ؛ نصب العينين أيضا .

« تَلَّا تَجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ » فاستدعى الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تمجك يا عبد أموالهم .
 « وَرَيْدُكَ وَضَوْحًا قَوْلَ الرَّجَاحِ » إن اللغى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزيمة .
 قوله تعالى : (وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) « دوى جوير من الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى « وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » قال : نزلت فى آية بن خلف الجهمي ، وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقرب صناديد أهل مكة ، فانزل الله تعالى : « وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » يعنى من خشنا على قلبه عن التوحيد . (وَأَتَّبِعْ هَوَاهُ) يعنى الشرك . (وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا) قيل هو من التفريط الذى هو التفسير وتقديم العجز بترك الإيمان . وقيل : من الإفراط وبجاوزة الحدة ، وكان القوم قالوا : نحن أشرف مضر إن أسلمنا أسلم الناس ، وكان هذا من التكلم والإفراط فى القول . وقيل : « قُرْطًا » أى قدما فى الشر ، من قولهم : قُرط منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ » وجدناه غافلا ، كما نقول : لقيت فلانا فاحمدته ، أى وجدته محمدا . وقال عمرو بن معديكرب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سالناكم فما أجبتناكم ، وقائلناكم فما أجبتناكم ، وما جئناكم فما أغمناكم ، أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مفتحمين . وقيل : نزلت « وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » فى مينة بن حصن الفزاري ، ذكره عبد الرزاق ، وحكاها النحاس عن سفیان الثوري . والله أعلم .

قوله تعالى : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا
 قوله تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) « حلقى » وضع على خبر الابتداء المضمر ، أى قل هو الحق . وقيل : هو وضع على الابتداء ، وهو فى قوله

« مِنْ رَبِّكُمْ » . ومعنى الآية : قل يا عبد هؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس !
 من ربكم الحق فإنه التوفيق والغفلان ، ويبدء المحدث والضلال ، يهدي من يشاء فيؤمن ،
 ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلى من ذلك شيء ، فإنه يوق الحق من يشاء وإن كان
 ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويا غنيا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم
 فأتوا ، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو
 وعيد وتهديد . أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : (إِنَّا أَعْتَدْنَا) أي أعددنا . (لِلظَّالِمِينَ) أي للكافرين الجاحدين .
 (نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) قال الجوهري : السُرَادِق واحد السُرَادِقَات التي تمتد فوق حصن
 الدار . وكل بيت من كُؤُف فهو سُرَادِق . قال رؤبة :

يَا حَكْمُ بْنُ الْمُنْذِرِينَ الْجَارُودُ • سُرَادِقُ الْمَجْدِ طَلِقَ تَمْدُودُ
 يقال : بيت مُسَرَّدَق . وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت
 أربل الفيلة :

هو المَدِخِلُ النِّعْمَانُ بَيْتًا مَسْمُورًا • صُدُورُ التَّيُولِ بَدَّ بَيْتَ مُسَرَّدَقِ
 وقال ابن الأعرابي : « سُرَادِقُهَا » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبي :
 حتى تخرج من النار فحيط بالكفار كالخطيرة . القتيبي : السُرَادِقُ المَجْمُوعَةُ التي تكون حول
 القسطة . وقاله ابن عَرَبٍ . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الذي ذكره
 الله تعالى في سورة « والمرسلات » حيث يقول : « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » وقوله :
 « وَظِلٌّ مِنْ يَمُومٍ » قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يعلى بن أمية قال قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البحر هو جهنم » — ثم تلا — نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا —

(١) الكرم : القطن . (٢) كذا في الأصل والسان ، واستدرك عليه صاحب السان بأنه الكتاب
 الجرماني ، وتابيه على هذا سويو والأصل التتمري . مدح الرازي أحد بني المنذر بن الجارود الهذلي ، وسكن هذا أحد
 ولادة ليرة لمنا من جدك الجارود لأنه أغار على قوم فاكتمح أموالهم ، فقتله بالسيل التي يعرفها مارب .
 (٣) فتح الرواد كسرهما ، ملك من ملوك القرس . (٤) آية ٣٠ . (٥) آية ٥٥ سورة الواقعة .

ثم قال - والله لا أدخلها أبدا مادمت حيا ولا يصيبني منها قطرة - ذكره الساوردي . وخرج
 ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لمرادق
 النار أربع جُمر كُنُفٌ ^(١) كل جدار سيرة أربعين سنة » . وخرجه أبو عيسى الترمذي ، وقال
 فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن المرادق ما يملو الكفار من دخان أو نار ، وجُمره ما وُصف .
 قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَيْسِرُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس :
 المهل ماء غليظ مثل دُرْدَي الزيت . مجاهد : القبيح والتم . الضحاك : ماء أسود ، وإن
 جهنم سوداء ، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب
 من جواهر الأرض من حديد ورمصاص ونحاس وقزدير ، فتسوج بالنيران ، فذلك المهل .
 ونحوه عن ابن مسعود . قال سعيد بن جبير : هو الذي قد انتهى حره . وقال : المهل ضرب
 من القِطران ؛ يقال : مهلت البحر فهو مُمهل . وقيل : هو السم . والمعنى في هذه الأقوال
 متقارب . وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « كالْمُهْلِ » قال : « كَمَكَرَ الزَّيْتِ
 فَإِذَا قَرَّبَهُ إِلَى وَجْهِهِ سَقَطَتْ قَرَوَةٌ وَجْهِهِ » قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث
 رِشْدِينَ بن سعد ورِشْدِينَ قد تَكَلَّمَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ حَفْظِهِ . وخرج عن أبي أمامة عن النبي
 صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَجْعَرُهُ » قال : « يَقْرَبُ إِلَى فِيهِ فَيَكْرَهُهُ
 فَإِذَا أَذْنِي مِنْهُ شَوِيَ وَوَقَعَتْ قَرَوَةٌ رَأْسَهُ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دَرِهِ .
 يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى « وَسُقُوا مَاءً حَمِيًّا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » يَقُولُ « وَإِنْ يَسْتَيْسِرُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
 يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا » قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال ، وأنها مرادة ، والله أعلم . وكذلك نص عليها
 أهل اللغة . في الصحاح « المهل » النحاس المذاب . ابن الأعرابي : المهل المذاب من

(١) الكنف : جمع كنيف ، وهو الشئ المنقذ . (٢) الخدري (بالضم) : ما يقع في الأسفل .

(٣) آية ١٥ سورة محمد .

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دردي الزيت . والمهل أيضا القبح والصيد . وفي حديث
أبي بكر : أدفوني في ثوبي هذين فإني لاهل والتراب . و (مُرْتَقًا) قال مجاهد : معناه
مجتمعا ، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ابن عباس : مترا . عطاء : مقرا . وقيل مهانا .
وقال الفتي : مجلسا . والمعنى متقارب ؛ وأصله من المتكأ ، يقال منه : أرتقت أي أنكأت
على المرفق . قال الشاعر :

قلت له وأرتقت آلا فتي • يسوق بالقوم غزالات الضما^(١)

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مرقفه لا يأتيه نوم . قال أبو ذؤيب الهذلي :
نام الخليلي^(٢) وبت الليل مُرْتَقًا • كأن عتي فيها الصاب مذبوح^(٣)
الصاب : عصاة شجر مر .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ
مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٥٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ
سُدُسٍ وَإِنتَبِرَقَ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَاكِ نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ
مُرْتَقًا ﴿٥١﴾

لما ذكر ما أعد للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما يؤمنين من الثواب . وفي الكلام
إضمارة أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا ، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فصله
مُحْط . و « عملا » نصب على التمييز ، وإن شئت بإيقاع « أحسن » عليه . وقيل :

(١) غزاة الفجاءة وغزالاته : بعد ما تبسط الشمس وتضيئ . وقيل : هو أول الضمالة التي تهاجر الأجر حتى
يضم من النهار نحو من حسه . (٢) رواية الديوان : « مُتَبَرِّقًا » والمبتبر : الذي قد شجره وضع
عنه تحت شجره على حنك أو على فم . والشجر : ما بين العين . ومذبوح : مشقوق .

« إنا لا نضع أبر من أحسن عملا » كلام مترض ، والخبر قوله « أولئك لم جات مدن » و (جئت مدن) سُرَّة الجنة ، أى وسطها وسائر الجئات مُخَيَّدة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسمعتها ؛ لأن كل بقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيل : السَّدَن الإقامة ، يقال : سَدَن بالمكان إذا أقام به . وعدَّت البلد توطئته . وعدَّت الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنه « جئات عَدَن » أى جئات إقامة . ومنه سُمِّي المَعْدِن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كل شيء مَعْدِنه . والعادن : الناقة المقيصة في المرعى . وعدَن بلد ؛ قاله الجوهرى . (تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) تقدم في غير موضع ^(١١) . (يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) وهو جمع سوار . قل سعيد بن جبير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، واحد من ورق ، واحد من لؤلؤ .

قلت : هذا منصوص في القرآن ، قال هنا « من ذهب » وقال في الحج وقاطر ^(١٢) من ذهب ولؤلؤا ^(١٣) وفي الإنسان « من فضة » . وقال أبو هريرة : سمعت خليل صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلغ الحليَّة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » نرجسه سلم . وحكى الفراء : « يحلُّون » بفتح الياء وسكون الحاء وضع اللام خفيفة ؛ يقال : حَلَيْت المرأة تَحَلَّى فهي حالية إذا لبست الحلل . وحلَّى الشيء يعينى يحلَّى ؛ ذكره النحاس . والأسوار سوار المرأة ، والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساور . وقرئ « فلولا اتقى عليه أسورة من ذهب » وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى « يحلُّون فيها من أساور من ذهب » قاله الجوهرى . وقال ابن عَرَبٍ : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سوار وسُوار ، وهو الذى يلبس في الدراع من ذهب ، فإن كان من فضة فهو قَلْب وجعه قَلْبِيَّة ؛ فإن كان من قرن أو عاج فهي مَسَكَة وجعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قُطْرُب في واحد الأساور أسوار ، ويُطْرِب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٩ طبة ثمانية وثلاثة .

(٢) آية ٢٢

(٣) آية ٢٤

(٤) آية ٢١

(٥) آية ٥٢ سورة الزنن

قلت : قد جاء في الصحيح وقال أبو محمد بن العلاء : واحده أساور . وقال المفسرون :
لما كانت للوك خمس في الدنيا الأساور والحيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) السُّندُس : الرقيق النعيف .
واحده سندسة ؛ قاله الكسائي . والإسْتَبْرَق : ما نُحْن منه - عن الحَكَمَة - وهو الحرير .
قال الشاعر :

ترانق يلبس الشاعر مَرَّة • وإسْتَبْرَقُ الديباج طَوْرًا لباسًا

قال إسْتَبْرَقُ الديباج . ابن بحر : للنسوج بالذهب . الثَّقِي : فارسي معرب . الجوهري :
وتصديره أُتْبِرَق . وقيل : استعمل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللتين ؛ إذ ليس
في القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما قدَّم ، والله أعلم .

وخصي الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن الياض يند النظر ويؤلم ، والسواد
يؤلم ، والغضرة بين الياض والسواد ، وذلك يجمع الشاع . والله أعلم . روى النسائي عن
جده لله بن عمرو بن العاص قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه
رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أخلق يُخلق أم نسج ينسج ؟ فضحك
بعض القوم . فقال لهم : "م" تضحكون من جاهل يسأل طالباً " فجلس يسيرا أو قليلا
هال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة ؟" فقال : ها هو ذا يا رسول
الله ؛ قال " لا بل تستفق منها فامر الجنة " قالما ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن دارة
بمؤفة في وسطها شجرة تنبت الحُلل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حلة منتظمة بالدر
والمرجان . ذكره يحيى بن سلام في تفسيره وابن المبارك في رقايقه . وقد ذكرنا إسناده
في كتاب اللذكرة . وذكر في الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل
وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسهما ، يقول أحد الوجهين للاتي : أنا أكرم من وليي
الله منك ، أما لي جسد وأنت لا تلي . ويقول الآتي : أنا أكرم على ولي الله منك ، أنا أبصر
وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعالى : (**مُتَكِينِينَ** فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) « الأرائك » جمع أريكة ، وهي المقعد في الجبال . وقيل القرش في الجبال ؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هي الأسرة من ذهب وهي مكللة بالثمر والياقوت عليها الجبال ، الأريكة ما بين صنها إلى أيلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصل متكئين **مُتَوَكِّئِينَ** ، وكذلك انكأ أصله ارتكأ ، وأصل انكأه وكأه ؛ ومنه التوكأ للتحامل على الشيء ، فقلت الواو تاء وأدغمت . ورجل وكأه كثير الإنكاه . (**يَقِمْ** الثَّوَابَ وَحَسِّنْ مَرْتَقًا) يعني الجنات ، عكس « وسأت مرتقا » . وقد تقدم . ولو كان « **فَقَسَمْتُ** » لجاز لأنه أسم الجنة . وعلى هذا « وحسنت مرتقا » . وروى البراء ابن عازب أن أعرابياً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف برفات على ناقته الغضياء فقال : إني رجل مسلم فأخبرني عن هذه الآية « **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** » الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنت منهم ببئيد ولا هم يبعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ فأعلم قولك أن هذه الآية نزلت فيهم » ذكره الماوردي ، وأسند النحاس في كتاب معاني القرآن ، قال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن علي بن سهل قال حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا يحيى بن الضريس عن زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال : قام أعرابي - ؛ فذكره . وأسند الشبلي في كتاب الاعلام . وقد رويّا جميع ذلك بالإجازة ، والحمد لله .

قوله تعالى : **وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُتْرُبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِبَخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۖ ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا ابْتِغَيْنِيَا أَكَلْنَاهَا وَلَمْ نَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَقَجَرْنَا خِلْلَهُمَا نَهْرًا ۖ ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَكُم مَعْرَقٌ قَالِ لِمَصْحَبِهِ ۖ وَهُوَ يُخَاوِرُ ۖ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ ﴿٣٤﴾**

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِمَ مَثَلًا لِّرَجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستكف عن
 جمالة المؤمنين ، وهو متصل بقوله « واصبر نفسك » . واختلف في اسم هذين الرجلين
 وتعيينهما ؛ فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزومين ، أحدهما مؤمن وهو
 أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوج أم سلمة قبل
 النبي صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران
 في سورة « الصافات » في قوله « قال قائل منهم إني كان لي قَرِينٌ » ، وورث كل واحد منهما
 أربعة آلاف دينار ، فنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال ... ؛
 ذكره الثعلبي والفشيري . وقيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل :
 هو مثل لجبع من آمن بالله وجميع من كفر . وقيل : هو مثل لعنينة بن حصن وأصحابه
 مع سلمان وصهيب وأصحابه ؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن
 واسمه يهوذا ، في قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تلميخا . والآخر كافر واسمه قرطوش .
 وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قل :
 اسم الخسيرة منهما تلميخا ، والآخر قرطوش ، وأنها كانا شريكتين ثم اختلفا المال فصار لكل
 واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فاشتري المؤمن منهما عبيدا بألف واعتقهم ، وبالألف الثانية
 ثيابا فكبسا العراة ، وبالألف الثالثة طعاما فطعم الخمر ، وبني أيضا مساجد ، وفعل خيرا .
 وأما الآخر ففكح بماله ثناء ذوات يسار ، واشترى دواب وبقرا فاستعجبها فتمت له ثناء
 مقرطا ، وأتجر بياقها فرجح حتى فات أكل زمانه غنى ؛ وأدركت الأول الحاجة ، فأراد أن
 يستخدم نفسه في جنة يخدما فقال : لو ذهبت لشريكي وصاحبي فإني أن استخدمني
 في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصح بي ، فغضب فلم يكذب بصل إليه من غلظ
 الحجاب ؛ فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ؟
 فما صنعت بما لك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . يقال : أُنك

لن المصدقين، ما أنظر الساعة قاعة ! وما أراك إلا سفيا، وما جزائك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعت أنا بحال حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كتبت وسفحت أنت، اخرج عني . ثم كان من قصة هذا النبي ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بغمرة وذعابها أصلا بما أرسل عليها من السماء من الحسبان . وقد ذكر النبي هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لما ثمانية آلاف دينار . وقيل : وزياد من أبيهما وكانا أخوين فأقتسماها، فأشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار وإني اشتريت منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار وإني أشتري منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار . ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار، وإني أشتري منك خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار . ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لعل صاحبي يتألمي معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالك ؟ فأخبره قصته فقال : وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئا ! ثم قال له : أنت تعبد الله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما، فقال صاحبه : والله لأعظنه، فوعظه وذكره وخوفه . فقال : سرتنا نسطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق، فقال له : يا أحمق ! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوبا لحسن أو عقابا للكافر . قال : فأكرمه على الخروج معه، فأقبلهما الله، فجعل الكافر يرى شبكته ويسمى بأسم صنمه، فقطع متدقة سمكا . وجعل المؤمن يرى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلع له فيها شيء، فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك في الدنيا نصيبا ومتزلة وقرءا، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تحول برحمتك حقا . قال : فصنع الملك المسوكل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيلبس به إلى الجنة فيريه منازل المؤمنين فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزتك لا يضرهم ما أتاه من

الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا ؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال : وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا . ثم إن الله تعالى تَوَقَّى الْمُؤْمِنَ وَأَهْلَكَ الْكَافِرَ بعذاب من عنده ، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساملون ، فقال : « إني كان لي قَرِينٌ » يقول أَنتَ لِي الْمَصْدُوقُ الآية ؛ فنادى مناد : يا أهل الجنة ! هل أنتم مطلعون فأطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم ؛ فزلت « واضرب لم مثلاً » .

يُنِى الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة ، وبين حالهما في الآخرة في سورة « الصافات » في قوله « إني كان لي قَرِينٌ » يقول أَنتَ لِي الْمَصْدُوقُ - إلى قوله - لمثل هذا فليعمل العاملون » . قال ابن عطية : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تَبَسَّس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فافق في طاعة الله حتى عبره الآخر ، وجرت بينهما المحاورة ففرقها الله تعالى في ليلة ، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مثل ضرب به الله تعالى لهذه الأمة ، وليس ينجر عن حال متقدمة ، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً ؛ ذكره الماوردي . وسياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَخَفَفْنَا هُمَا بِخَلٍّ) أى أطفئناهما من جواربهما بخلل . والخلّاف الجلباب ، وجمعه أخفّة ؛ ويقال : خَفَّ القوم بفلان يَخْفُونُ خَفًّا ، أى طافوا به ؛ ومنه « حاقين من حوله العرش » . (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا) أى جعلنا حول الأعاب النخل ، ووسط الأعاب الزرع . (كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ) أى كل واحدة من الجنتين (أَتَتْ أَكْلَهُمَا) تأتتا ، ولذلك لم يقل آتتا . واختلفت في لفظ « كَلَّمَا وَكَلَّا » هل هو مفرد أو متنى ؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد ؛ لأن كلا وكلتا في تأكيد الاثنين نظير « كُلُّ » في المجموع ، وهو اسم مفرد غير متنى ، فإذا وليّ اسماً ظاهراً كان في الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة ، تقول : رأيت كلا الرجلين وجاء في كلا الرجلين ومردت بكلا الرجلين ؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب ، تقول :

(١) آية ٥١ وما بعدها . (٢) سورة الزمر . (٣) كما في الأصول والصحاح لجرمهم

وهذا هو صاحب اللسان . وكان الأول أن يقال : « فأفاد الله لهم ظاهراً » .

رَأَيْتَ كَلِمَاتِهِمَا وَمَرَدَّتْ بِكَلِمَاتِهِمَا . وَقَالَ الثَّوَالِي : هُوَ مَعْنَى ، وَهُوَ مَاخُذٌ مِنْ كُلِّ
تَقَفَّتِ الْإِثَامَ وَزِيدَتْ الْأَلْفُ لِلثَّنِيَّةِ . وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ الْوَيْثُ ، وَلَا يَكُونَانِ إِلَّا مَضَافَيْنِ وَلَا يَتَكَلَّمُ
بِوَاحِدَةٍ ، وَلَوْ تَكَلَّمَ بِهِ لَقِيلَ : كُلٌّ وَكُلَّتْ وَكَلَانٌ وَكَلَّتَانِ . وَاجْتَنِبْ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ
فِي : كَلِمَتِ رَجُلَيْهَا سَلَامِي وَاحِدَةً . كَلِمَاتُهَا مَقْسُومَةٌ بِزَائِدَةٍ

أَرَادَ فِي إِحْدَى رَجُلَيْهَا فَأَفْرَدَ . وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعْنَى
لَوْ جَبَّ أَنْ تَكُونَ الْفَتْحُ فِي النِّصْبِ وَالْجُرْيَاءِ مَعَ الْأَسْمَاءِ الظَّاهِرَةِ ؛ وَلَازِمٌ مَعْنَى «كَلَا» مُخَالَفٌ
لِمَعْنَى «كَلَّ» لِأَنَّ «كَلَا» لِلْإِحْاطَةِ وَ«كَلَّا» يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مُخْصَّصٍ ، وَأَنَا هَذَا الشَّاعِرُ فَإِنَّمَا
حَذَفَ الْأَلْفَ لِلضَّرُورَةِ وَقَدَّرَ أَنَّهَا زَائِدَةٌ ، وَمَا يَكُونُ ضَرُورَةٌ لَا يَحْزَنُ أَنْ يَحْزَنَ أَنْ يَحْزَنَ حِجَّةً ، فَتَبَيَّنَ
أَنَّهُ اسْمٌ مَقْسُومٌ كَقِيٍّ ، إِلَّا أَنَّهُ وَضَعَ لِيَدُلَّ عَلَى الثَّنِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ «نَحْنُ» اسْمٌ مَفْرُودٌ يَدُلُّ
عَلَى اثْنَيْنِ فَمَا فَوْقَهُمَا ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرٍ :

كَلَّا بَوَيَّ أُمَامَةً يَوْمُ صَدِّ^(١) . وَإِنْ لَمْ تَأْتِهَا إِلَّا لِمَا

فَأَخْبَرَ عَنْ «كَلَا» بِيَوْمٍ مَفْرُودٍ ، كَمَا أَفْرَدَ الْخَبَرُ بِقَوْلِهِ «آتَتْ» وَلَوْ كَانَ مَعْنَى لِقَالِ آتَا ، وَيَوْمًا .
وَاخْتَلَفَ أَيْضًا فِي أَلْفٍ «كَلَّا» ؛ فَقَالَ سَيِّدِي : أَلْفٌ «كَلَّا» لِلتَّائِيثِ وَالتَّاءُ يَدُلُّ عَلَى لَامٍ
الْفِعْلِ وَهِيَ لَوُا وَالْأَصْلُ كَلَّوْا ، وَإِنَّمَا أَبْدَلَتْ تَاءً لِأَنَّ فِي التَّاءِ عِلْمَ التَّائِيثِ ، وَالْأَلْفُ «فِي كَلَّا»
قَدْ تَصِيرُ بِمَعْنَى مَعْنَى انْضِمَامٍ فَتُخْرِجُ عَنْ عِلْمِ التَّائِيثِ ، فَصَارَ فِي إِبْدَالِ الْوَاوِ تَاءً تَأْكِيْدُ لِلتَّائِيثِ .
وَقَالَ أَبُو عَمْرِو الْجَرْمِيُّ : التَّاءُ مُلْحَقَةٌ بِالْأَلْفِ لِأَنَّ لَامَ الْفِعْلِ ، وَقَدْ دَرَجَتْ عِنْدَهُ : فَيَنْتَلِ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ
عَلَى مَا زَعَمَ لِقَالُوا فِي النِّسْبَةِ إِلَيْهَا كَلِّيَّ ، فَلَمَّا قَالُوا كَلِّيَّ - وَأَسْقَطُوا التَّاءَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَجْرَوْهَا
بِجَرْمِي التَّاءِ فِي أَخْتِ إِذَا نَسَبْتَ إِلَيْهَا قُلْتَ أَخَوِي ؛ ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّطَّاسُ :
وَأَجَازَ النُّحَايُونَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْحَمْلَ عَلَى الْمَعْنَى ، وَأَنْ يَقُولَ : كَلَّا الْجَمْعَيْنِ آتَا أَكَلَهُمَا ؛ لِأَنَّ
الْمَعْنَى الْمُخْتَارَ كَلَامَهُمَا آتَا . وَأَجَازَ الْقُرَّاءُ : كَلَّا الْجَمْعَيْنِ آتَى أَكَلَهُ ، قَالَ : لِأَنَّ الْمَعْنَى كُلَّ

(١) الْفَتْحُ (كَلَامًا) ، مَعْنَى الْأَسْمَاءِ لِيَوْمٍ وَهِيَ . (٢) كَلَّا لِلْأَسْمَاءِ لِيَوْمٍ وَهِيَ . كَلَّا
لِيَوْمٍ وَهِيَ . كَلَّا لِلْأَسْمَاءِ لِيَوْمٍ وَهِيَ . كَلَّا لِلْأَسْمَاءِ لِيَوْمٍ وَهِيَ . كَلَّا لِلْأَسْمَاءِ لِيَوْمٍ وَهِيَ .

البحتين . قال : وفي قراءة عبد الله « كلّ البحتين آتى أكله » . والمعنى على هذا عند الفراء : كل شيء من البحتين آتى أكله . والأكل (بضم الميمزة) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أكل ، ومنه قوله تعالى : « أَكُلْهَا دَائِمٌ » وقد تقدم . (١) « وَلَمْ تَقْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا » أى لم تنقص . قوله تعالى : (وَبَحْرًا خَلَّامًا نَهْرًا) أى أبحرينا وشققنا وسط البحتين بنهر . (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) قرأ أبو جعفر وشيبة وعاصم ويقوب وابن أبي إسحاق « ثمر » بفتح التاء والميم ، وكذلك قوله « وأحبط ثمره » جمع ثمرة . قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر والثرات ، وجمع الثمر ثماره مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار ثمرًا مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثماره مثل أعتاق وعقب . والتمر أيضا المال المشتر ، يخفف ويثقل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثمر » بضم التاء وإسكان الميم ، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمها في الحرفين . قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال . وقد مضى في « الأنعام » نحو هذا ميثاقاً . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثني أبان عن ثعلب عن الأعمش أن المجاج قال : لو سمعت أحداً يقرأ « وكان له ثمر » لقطعت لسانه ، فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك ؟ فقال : لا ! ولا نعمة عين . (٢) فكان يقرأ « ثمر » ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار ، ثم جمع ثمار على ثمر ، وهو حسن في العربية إلا أن القول الأول أشبه واقع أعلم ، لأن قوله « كلنا البحتين آتت أكلها » يدل على أن له ثمرًا .

قوله تعالى : (فَقَالَ لِيَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) أى يراجعه في الكلام ويحاو به . والمحاورة المحاوراة ، والمحاورة المجاورة . ويقال : كلمته فاحار إلى جوابا ، وما رجع إلى حوياً ولا حويرة ولا محورة ولا حوارة ، أى مارد جوابا . (أَنَا أَكْثَرُ نِكَاحًا وَأَعَزُّ قَرَارًا) النفر : الزمط وهو مادون العشرة . وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد ، حسبما تقدم بيانه .

(١) تابع - ٢٢٤ ص ٧٧ (٢) تابع - ٧٧ ص ٢٢ (٣) في هذه الكلمة انكاسة في لغة ، ثم بين وثمة بفتح وليم (بضم) وثمرتين وثمة وثمة (بضم) وثمة بفتح (بضم) . وتنصب لكل اسم مفعول ، أى أضاع ذلك إيماناً به . واقرأ .

قوله تعالى : **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦**

قوله تعالى : (**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ**) قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن بطيف به فيها ويريه إياها . (**وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**) أى بكفره ، وهو جملة في موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . (**قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا**) أنكر فناء الدار . (**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**) أى لا أحسب البعث كائنا . (**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي**) أى وإن كان بعثت فمما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه ؛ وهو معنى قوله : (**لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا**) وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالخير والنشر . وفي مصاحف مكة والمدينة والشام « منها » . وفي مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » مل التوحيد والثنية أولى ؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعالى : **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٧**

قوله تعالى : (**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ**) يهوذا أو تلميذا ؛ على الخلاف في اسمه . (**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا**) وعظه وبين له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « **سَوَّاهُ رَجُلًا** » أى جعلك معتدل القامة والخلق ، صحيح الأعضاء ذكرا . (**لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي**) كذا قرأه أبو عبد الرحمن الشافعي وأبو العالية . وروى عن الكاشي « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله وهى « فاضم اسمها فيها » . وقرأ الياقوت « لكنا » بإثبات الألف . قال الكاشي : فيه عديم والمغيرة

تقديمه: لكن الله هو ربى أنا، حذف الميمزة من «أنا» طلباً لتفخه لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى التونين في الأخرى وحذفت ألف «أنا» في الوصل وأثبتت في الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائي والقزواء والمأزني أن الأصل لكن أنا فألغيت حركة الميمزة على نون لكن وحذفت الميمزة وأدغمت النون في النون فألوقف عليها لكأ وهى ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، حذف الألف فألغيت نوناً بقاءً بالتشديد لذلك، وأثبتنا الكسائي:

لَمَنْكَ مِنْ عَيْنِيَّةٍ لَوْ سَمِئْتُ * عَلَى هَوَاتٍ كَاذِبٍ مِنْ يَقُولُهَا

أراد: لله إنك، فأسقط إحدى اللامين من «له» وحذف الألف من إنك. وقال آخر يلهيه به هل الأصل:

وَرَبِيقِي بِالْظَرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذَنْبٌ * وَتَقْسِلِينِي لَكِنْ إِيَّاكَ لَا أَقْسِلُ

أى لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووا عن حاتم «لكأ هو الله ربى» وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف في الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف في «لكأ هو الله ربى» في الإدراج جيد؛ لأنه قد حذف الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً. قال: وفي قراءة أبي: «لكن أنا هو الله ربى». وقرأ ابن عامر والمسيلى^(١) عن نافع ورؤيس عن يعقوب «لكأ» في حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أَنَا سَيْفٌ الْمُتَبَرِّجَةُ فَأَعْرِفُونِي * حُبِّينَا قَسِدَ تَلْزَيْتِ السَّنَامَا

وقال الأعشى:

فَكَيْفَ أَنَا وَأَحْتِمَالُ الْقَوَالِي * بَعْدَ الْمَشِيبِ كُنَى فَالْكَ حَارَا

ولا خلاف في إثباتها في الوقف. (هو الله ربى) «هو» ضمير القصة والثاني والأمر؛ كقوله «فلذا هي شايخة أبحار الذين كفروا» وقوله «قل هو الله أحد». (ولا أشركك

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد - وهذه القصة إلى سبب (كسبية) بهذه بالقرب.

(٢) أبا عبد الله سورة الأنعام.

رَبِّي أَحَدًا) دل مفهوما على أن الأخ الاخر كان مشركا بالله تعالى يبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى النفي والفقر إلا منه ، وأعلم أنه لو أراد أن يسلب صاحب الدنيا دينه قدر عليه ، وهو الذي آتاني الفقر . ويحتمل أنه أراد بحجودك البحث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه ، وهو تمييز الرب سبحانه وتعالى ، ومن عجزه سبحانه وتعالى شبهة بخلقه ، فهو إشراك .

قوله تعالى : وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿١٥﴾ فَسَعَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿١٦﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهَا طَلَبًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) فيه مسائلان ؟
الأول - قوله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)
أى بالقلب ، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافروذ عليه ، إذ قال « مَا أَظُنُّ أَنْ يُجِدَ هَذِهِ أَبَدًا » و « مَا » في موضع رفع ، تقديره : هذه الجنة هي ما شاء الله . وقال الزجاج والفراء : الأمر ما شاء الله ، أو هو ما شاء الله ، أى الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر ، أى ما شاء الله كان ، ومالا يشاء لا يكون . (لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) أى ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوه لا بقدرتك وقوتك ، ولو شاء لرفع البركة منه فلم يجتمع .

الثانية - قال أشهب قال مالك : ينبغي لكل من دخل مقبره أن يقول هيللا . وقال ابن وهب قال لي حفص بن غيرة : رأيت علي بابيهوب بن منبه مكتوبا « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي هريرة : « لا إله إلا الله » على كلمة من كنوز الجنة - أو قال أكثر من كنوز الجنة » قلت : بل يا رسول الله ، قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قلنا العبد قال الله عز وجل أسلم عبيد واستسلم » انتهى مسلم

في صحيحه من حديث أبي موسى - وفيه : قال " يا أبا موسى أو ياعد الله بن قيس إلا أدلك على كلمة من كثرة الجنة - في رواية على كثرة من كنوز الجنة - " قلت : ما هي يا رسول الله ، قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله " . وعنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كثرة من كنوز الجنة " قلت : بلى ، فقال " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " . وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تافتت عنه الشياطين من بين يديه وأثرل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال بسم الله قال الملك هب ، وإذا قال ما شاء الله قال الملك كفي ، وإذا قال لا قوة إلا بالله قال الملك وقيت . نرجه لأرمذى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال - يعني إذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كفي وقيت وتجي عنه الشيطان " هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . نرجه أبو داود أيضا وزاد فيه - فقال له : " هب وكفي وقيت " . وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملكان موكلان به فإذا قال بسم الله فلا هديت وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله فلا وقيت وإذا قال توكلت على الله فلا كفيته قال فيقاء قبيصة فيقولان ما قاتريدان من وجل قنعدى ووقي وكفي " . وقال الحاكم أبو عبد الله في علوم الحديث : سئل محمد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " حاجبت الجنة والنار فقالت هذه - يعني الجنة - يدخلني الضعفاء " من الضعيف ؟ قال : الذي يرى نفسه من الحول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فاعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره من " . وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فاعجبه شيء إلا رضى به . وروى أن من قال للرب أبت من أروع : من قال هذه آية من آيات ، ومن قال حسبت الله ونعم الوكيل لم يضره شيء الشيطان ، ومن قال وأعرض أمرى إلى الله لم يضره شيء ، ومن قال لا اله إلا أنت سبحانك أنت كنت من العالمين آمن من الفهم .

قوله تعالى : (إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَبَ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا) « إِنْ » شرط « تَرَىٰ » مجزوم به ،
والجواب « فَمَنْ رَأَىٰ » و « أَنَا » فاصلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون
في موضع نصب توكيدا للتون والياء . وقرأ عيسى بن عمر « إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَبَ مِنْكَ » بالرفع ،
يعمل « أَنَا » مبتدأ و « أَقْلَبَ » خبره ، والجملة في موضع المفعول الثاني ، والمفعول الأول التون
والياء ، إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها ، وإثباتها جيد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم
على الحقيقة . و (فَمَنْ رَأَىٰ) بمعنى لعل ، أى فاعل رآى . (أَنْ يُؤَيِّنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) أى
في الآخرة . وقيل في الدنيا . (وَرُسِلَ عَلَيْهَا) أى على جنتك . (حُسْبَانًا) أى مرأى من
السما ، واحدها حُسْبَانَةٌ ، قاله الأخفش والفَّحَّيْ وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابي : والحسبان
السحابة ، والحسبانة الوسادة ، والحسبانة الصاعقة . وقال الجوهري : والحسبان (بالضم) ،
العذاب . وقال أبو زياد الكلابي : أصاب الأرض حسان أى جراد . والحسان أيضا
الحساب ، قال الله تعالى : « النَّعْمُ وَالْقَمْصُ حُسْبَانٌ » . وقد فُسر الحُسبان هنا بهذا . قال
الزجاج : الحسبان من الحساب ، أى يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما اكتسبت
يداك ، فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا : سهام قصار يرى بها في طلق واحد ،
وكان من رمى الأكامرة . والمرأى من السماء مذاب . (فَتَصْبِحُ صَيْدًا زَلَقًا) ببنى أرضا
بيضاء لا يثبت فيها نبات ولا يثبت عليها قدم ، وهى أَرْضُ أَرْضٍ بعد أن كانت جنة أُنْعِمَ
أَرْضُهَا ، و « زَلَقًا » تأكيد لوصف الصيد ، أى تَرَلَّ عنها الأقدام لملاحتها . يقال : مكان
زَلَقٍ (بالتحريك) أى دَحْضُ ، وهو فى الأصل مصدر فَوَكَ : زَيْهَتْ رِجْلُهُ تَزَلِقُ زَلَقًا ،
وَأَزَلَقَهَا فِيرَ . والزلق أيضا محز الهابة . قال رؤبة ،
• كَانَهَا حَقِيَاءَ بَقَاءِ الزَّلَقِ •

والمزقة والمزقة : الموضع الذى لا يثبت عليه قدم . وكذلك الزلالة . والزلق الخلق ، زَلَقَ
وَأَسَ يَزَلِقُ زَلَقًا حَقًّا ، قاله الجوهري . والزلق الخلق ، كالتقص والتقص . طمس الله

أنها تصير منقعة ، بل للمراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلِقَ لا يبقى عليه شعر ،
 قاله القشيري . (أَوْ يَصْبِحُ مَأْثَمًا غَوْرًا) أى غارًا ذالبا ، فتكون أديم أرض الماء بعد
 أن كانت أوجداً أرض الماء . والقور مصدر وضع موضع الأسم ، كما يقال : رجلٌ صَوَّمُ
 وفطر وعَدَلُ وريثاً وقَضَلُ وزَوْرٌ ونساءٌ نَوَّجٌ ، ويستوى فيه للذكر والمؤنث والثنية والجمع .
 قال عمرو بن كلثوم :

تَقَلَّ جِيَادُهُ نَوَّجًا عَلَيْهِ • مَقْلَّةً اعْتَبَا مُصْفُوًا

آخر :

هريق من دموعها سحاما • ضبايح وجلوبى نوحا قياما
 أى ناعحات . وقيل : أو يصبح مأثما ذا غورٍ ، تخفف المضاعف ، مثل « وأسأل القرية »
 ذكره النحاس . وقال الكسائي : ماءٌ غَوْرٌ . وقد غار الماء يَغُورُ غَوْرًا وَغُورًا ، أى سَقَلُ
 فى الأرض ، ويموز المزمز لأضمام الواو . وغارت عنه تَوَّورٌ غَوْرًا وَغُورًا ، دخلت فى الرأس .
 وغارت تَنَارُفَةٌ فيه . وقال :

• أَغَارَتْ عَنْهُ أُمٌّ لَمْ تَقَارَا •

وغارت الشمس تَوَّورَ غِيَارٍ ، أى غربت . قال أبو ذؤيب :

حل النحر إلالية ونهارها • وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

(فَتَنْ تَسْتَطِيعُ لَهُ طَلَبًا) أى أن تستطیع ردَّ الماء الغار ، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فتن
 تستطیع طلب غيره بدلا منه . وإل هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : وَأَحْبَطَ عَمَّرَهُ فَأَصْبَحَ بِقَلْبٍ غَنِيٍّ عَلَى مَا أَتَقَفَ فِيهَا
 وَهِيَ خَازِنَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَنَاتِنِي لَرَأَيْتُنَّ رِجْزَ رَبِّي أَهْدَأَ ۖ (٢٢)

قوله تعالى : (وَأَحْبَطَ عَمَّرَهُ) كَسَمَ مَا لَمْ يَسْمُ قَامَهُ مضمر ، وهو المصدر . ويموز أن
 يكون المقنن فى موضع بلع . معنى • ألبط بجم • له لعين ماله ك • وهذا اللفظ
 مأخوذ من قوله تعالى : (فَتَنْ تَسْتَطِيعُ لَهُ طَلَبًا) أى تستطیع طلب غيره بدلا منه .

بديه على الأخرى تما؛ لأن هذا يصدر من الندم . وقيل : يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق ؛ وهذا لأن الملك قد يبرعه باليد ، من قولهم : في يده مال ، أى في ملكه مال ؛ ودل قوله « فاصبح » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله « طَلَّاتِ عَلَيَّا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَاصْبَحْتَ كَالصَّيرِمِ » ويقال : انقضت في هذه الدار كما وانقضت عليها . (وَيَعْنِي خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا) أى خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خوت النجوم تخوي خياً انحلت ، وذلك إذا سقطت ولم تنطرق قوتها . وأخوت مثله . وخوت الدار خواء أفوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا » ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أى ساقطة على سفوفها ؛ فجمع عليه بين هلاك العمر والأصل ، وهذا من أعظم الجوامع ، مقابلة على بغيره . (وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) أى يا ليتني عرفت نعم الله عليّ ، وعرفت أنها كانت بقدره الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا يشغله الندم .

قوله تعالى : وَلَوْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) « فِئَةٌ » اسم « تكن » و « له » الخبر . « يَنْصُرُونَهُ » في موضع الصفة ، أى فئة ناصرة . ويجوز أن يكون « يَنْصُرُونَهُ » الخبر . والوجه الأول عند سيويه أول لأنه قد تقدم « له » . وأبو العباس يخالفه ، ويحتاج بقول الله عز وجل « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سيويه الآخر . و « يَنْصُرُونَهُ » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أى فرقة وجماعة يتبعون إليهم . (وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) أى محتسباً ؛ قاله قتادة . وقيل : مستترفاً يدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة في « آل عمران » . والماله عوض من إياه التي تنقصت

من وسطه، أصله في مثل فيج؛ لأنه من فاء، ويجمع على فيون وفئات، مثل شيلت وليأت ومئات. أى لم تكن له عشيرة يمتعونه من عذاب الله، وضل عنه من اغتربهم من الخدم والولد.

قوله تعالى: هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف في العامل في قوله «هنالك» وهو ظرف؛ قيل: العامل فيه «ولم تكن له فئة» ولا كان هنالك؛ أى ما صر ولا انتصر هنالك، أى لما أصابه من المذاب. وقيل: تم الكلام عند قوله «متحصرا». والعامل في قوله «هنالك»: «الولاية»، وتقديره على التقديم والتأخير: الولاية لله الحق هنالك، أى في القيامة. وقرأ أبو عمرو والكاسي «الحق» بالرفع نعتا للولاية. وقرأ أهل المدينة وحزرة «الحق» بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير: لله ذى الحق. قال الزجاج: ويجوز «الحق» بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول: هذا لك حق. وقرأ الأعمش وحزرة والكاسي «الولاية» بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرضاة والرضا. وقيل: «الولاية» بالفتح من الموالات؛ كقوله «الله ولي الذين آمنوا»^(١). «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا»^(٢). وبالكسر معنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله «والأمر يومئذ لله»^(٣) أى له الملك والحكم يومئذ، أى لا يرد أمره إلى أحد؛ والملك في كل وقت لله ولكن تزول السلاوى والتوهمات يوم القيامة. وقال أبو عبيد: إنها جنتح الواو للفتاق، وبكسرهما للخلق. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أى الله خير ثوابا في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثم خير يربى منه، ولكنه أراد في ظن الجهال، أى هو خير من يربى. ﴿وَسَيَرْجِي﴾ قرأ عاصم والأعمش وحزرة ويحيى «عقبا» ساكنة للفتاق، الباقون بضمها، وهما بمعنى واحد؛ أى هو خير عاقبة لمن رجاها وآمن به. يقال: عاقبة أمر فلان وصيام وعقبه، أى آخره.

قوله تعالى : **وَاصْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَخْلَفَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَبِيبًا ثَدْرُهُ الرِّيحُ** **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا** ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: (وَاصْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى صف هؤلاء التكبريين الذين سألوك طرد قسراء المؤمنين مِثْلَ الحياة الدنيا، أى شبهها . (كَمَا أَتْرَكْتَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَخْلَفَ بِهِ) أى بالنبات . (نَبَاتُ الْأَرْضِ) حتى استوى . وقيل : إن النبات اختلط بفضه ببعض حين نزل عليه الماء، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالطر . وقد تقدم هذا المعنى فى « يونس » ميثاقاً . وقالت الحكماء : إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى وينضب كذلك الدنيا غنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يخرج كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من تحتها وأتتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان ناقصاً شيئاً ، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر . وفى حديث النبي صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يا رسول الله، إني أريد أن أكون من الفائزين ، قال : « نَدِرَ الدُّنْيَا وَخُذْ مِنْهَا كَالْمَاءِ الرَّاحِدِ فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنْهَا يَكْفِي وَالكَثِيرُ مِنْهَا يُطْنَى » . وفى صحيح مسلم من النبي صلى الله عليه وسلم : « قد أفلع من أسلم ورزق كفافاً وقصه الله بما آتاه » . (فَاصْبَحَ) أى النبات (هَبِيبًا) أى متكرراً من اليبس متفتتاً ، يعنى باعطاع الماء عنه ، غفف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه . والمهتم : كسر التاء اليابس . والمهتم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء . ومنه قولهم : ما فلان إلا هبباً تمزج ، إذا كان سمماً . ورجل هبب : ضعيف البدن . وتهتم عليه فلان إذا تطلف . واهتمت

ما في صرع الناقة إذا احتله . ويقال : هَمَّ التَّيْرِدُ ، ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو ، وفيه يقول عبد الله بن الزُّمَيْرِ :

عَمَّرُوا الْمَلَأَ هَمَّ التَّيْرِدَ لِقَوْمِهِ • وَرَحَالَ مَكَّةَ سُبُتُونَ عِجَافُ

وكان سبب ذلك أن فريشا أصابهم سِنُونُ ذهبن بالأموال فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبر كثير فخرله ، فحمله في الفرائل على الإبل حتى وافى مكة ، وهشم فلك الخبر ، يئس كسره وتوَّده ، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطُّهَاءَ فطبخوا ، ثم كما القدور على الحفان فاشبع أهل مكة ؛ فكان ذلك أول الحياء بعد السنة التي أصابهم ؛ فسَمَّى بذلك هاشما . (تَدْرُوءُ الرَّيَاحُ) أي تفرقه ، قاله أبو عبيدة . ابن قتيبة : تسفه . ابن كيسان : تذهب به ويحي . ابن عباس : تديره ؛ والمعنى متقارب . وقرا طامعة بن مُصَرِّف • تديره الريح • . قال الكسائي : وفي قسرة عبد الله « تديره » . يقال : ذَرَّتْهُ الرِّيحُ تَدْرُوءُ ذَرَّوْا [تَدْرِيهِ] ذَرَّيَا وأذرت تَدْرِيهِ إِذْرَاءً إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته . وأشد سيويه والفراء : فقلت له صَوَّبٌ وَلَا تَجْهَدَنَّ • فَيَذَرُكَ مِنْ أُخْرَى الْقَطَاةِ قَتَرَقِي

قوله تعالى : (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) من الإنشاء والإفناء والإحياء ، سبحانه !

قوله تعالى : الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ

الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ويموز « زينا » وهو خبر الابتداء

في التنبيه والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالا وضما ، وفي البنين قسوة وضما ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن منه فريسة الصفة للمال

(١) في كتاب سيويه : « فينك » وهي رواية أخرى في البيت . وقد فح سيويه إلى عمرو بن محمَّد الطائي . ومعنى صوب : خذ النص في السير واربط بالقرص ولا تجهد . وأخرى القطاة : أكرها ؛ والقطاة : مقعد الدف . (أي مؤثر الظهور حيث يكون داف الزاكن) . يقول هذا فلاح . وقد حله على فرسه ليصده له . (راجع التنوير على كتاب سيويه) .

والبين ؛ لأن النسي : المال والبنون زينة هذه الحياة الفعرة فلا تُبجوها قومكم . وهو
 مد على مينة بن حصن وأمثله لما انتفخوا بالنفي والشرف ، فأخبر تعالى أن ما كان من
 زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، كالشمس حين تذهب الريح ، إنما يبقى ما كان من
 زاد القبر ومُدد الآخرة . وكلف يقال : لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيَّ تذهب ، ولا مع
 النساء لأنها اليوم معك وغداً مع غيرك ، ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغداً لتغيرك .
 ويكنى في هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال تعالى : « إِنَّ مِنْ
 أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » .

قوله تعالى : (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) أى ما تبقى به سلمان وصليب وبقراء المسلمين
 من الطاعات (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) أى أفضل (وَخَيْرٌ أَمْلًا) أى أفضل أملاً من ذى المال
 والبين دون عمل صالح ، وليس في زينة الدنيا خير ، ولكنه نخرج نخرج قوله « فَتَحَابُّ الْبَقِيَّةُ
 بِمَنْزِلَةِ خَيْرٍ سَفَرًا » . وقيل : خبرني التحقيق بما يظنه الجهال أنه خير في ظنهم .

واختلف العلماء في « الباقيات الصالحات » ؛ فقال ابن عباس وابن جرير وأبو ميسرة وعمر
 ابن شراحيل : هي الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضاً : أنها كل عمل صالح من قول
 أو فعل يبقى للأخرة . وقاله ابن زيد وربيعة الطبري . وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل
 ما يبقى ثوابه جاز أن يقال له هذا . وقال علي رضي الله عنه : الحرت حرتان لحرت الدنيا المال
 والبنون ؛ وحرت الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعون الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور
 هي الكلمات المأثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول
 ولا قوة إلا بالله المل العظيم . خرجه مالك في موطنه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب
 أنه سمعه يقول في الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله
 إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله

صل الله عليه وسلم قال : " استكثروا من الباقيات الصالحات " قيل : وما هي يا رسول الله ؟
 قال : " التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله " . صححه أبو محمد
 عبد الحق رحمه الله . وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصَةً غَرَطَهُ حَتَّى سَقَطَ
 ورقه وقال : " إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحمَّات
 خطاياهم كما تحمَّات هذا خنزير إلِك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن فإِنَّهن من كنوز الجنة
 وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات " . ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث
 أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك سبحان الله والحمد لله ولا إله
 إلا الله والله أكبر فإِنَّهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " . وأخرجه الترمذى
 من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بِشَجَرَةٍ بِاسْمَةِ
 الورقة فضرَّ بها بمصاة فتناثر الورق فقال : " إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر
 لتساقط من ذنوب البعد كما تساقط ورق هذه الشجرة " . قال : هذا حديث غريب ولا يعرف
 للأعمش سماعاً من أنس ، إلا أنه قد رآه ونظر إليه . وخرج الترمذى أيضاً عن ابن مسعود قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قَبِيتُ إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بِي فقال يا محمد أفرأيت
 أُنْتُك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله
 والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " قال : حديث حسن غريب ، خرَّجه المساوردي بمعناه .
 وفيه - قلت : وما غراس الجنة ؟ قال : " لا حول ولا قوة إلا بالله " . وخرج ابن ماجه عن
 أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ به وهو يُغْرَس غَرْماً فقال : " يا أبا هريرة
 ما الذى تقرأ " قلت غراساً . قال " ألا أدُلُّكَ على غراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله
 ولا إله إلا الله والله أكبر يُغْرَس لك بكل واحدة شجرة في الجنة " . وقد قيل : إن الباقيات
 الصالحات هي النيات والهمَّات ؛ لأن بها تخيل الأعمال وتزنع ؛ قاله الحسن . وقال عبيد
 ابن عمير : هن النيات ؛ يدل عليه أوائل الآية ؛ قال الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة
 الدُّنيا » ثم قال « والباقيات الصالحات » يعنى النيات الصالحات من عند الله لا يتَّهَن خيرونابا ،

وخبر أملا في الآخرة لمن أحسن اليقين . يقل عليه ما رويته عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على امرأة مسكية ... الخبيث ، وقد ذكرناه في سورة النمل في قوله « يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ » الآية ^(١) . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد رأيت رجلا من أمتي أسره إلى النار فتملق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن رب إنه كان يحسن إلينا في الدنيا فرحه الله بهن » . وقال قتادة في قوله تعالى : « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا » قال : أبدلهم به ابنة فتزوجها نجي فقلت له اني عشر غلاما كلهم أنبياء .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ^(١٧)

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) قال بعض المحققين : التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال . قال الطاسي : وهذا غلط من أجل الواو . وقيل : المعنى وأذكريوم نسير الجبال ، أي تزيلها من أماكنها من على وجه الأرض ، ونسيرها كما نسير السحاب ؛ كما قال في آية أخرى « وَيَوْمَ نَحْمِلُهُمْ بِالسَّحَابِ » . ثم تكسر فتعود إلى الأرض ؛ كما قال « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا » . وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ » بناء مضمومة وفتح الياء . و « الجبال » وضا على الفعل المجهول . وقرأ ابن عبيد بن جراح « وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ » بفتح التاء مخففا من سار . « الجبال » وضا . دليل قراءة أبي عمرو « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » . ودليل قراءة ابن عبيد « وَنَسِيرُ الْجِبَالِ سَيْرًا » . واختار أبو عبيد القراءة الأولى « نسير » بالنون لقوله « وحشرناهم » . ومعنى « بارزة » ظاهرة ، وليس عليها ما يسرها من جبل ولا شجر ولا بنيان ؛ أي قد أجتثت آثارها وقلعت جبلاتها ، وهدم بنياتها ؛ فهي بارزة ظاهرة . وعلى هذا القول أهل التفسير . وقيل : « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » أي برز ما فيها من الكنوز والأموال ؛ كما قال « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا »

وَتَحَلَّتْ^(١) . وَقَالَ : وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْلًا^(٢) . وهذا قول عطاء . (وَحَرَّثْنَاهُمْ) أى إلى الموقف . (فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) أى لم يترك؛ يقال : غادرث كذا أى تركه . قال حنزة : غادرثته متفصرا أوصاله . والتسوم بين جمرج ومجمل
أى تركته . والمناذرة الترك؛ ومنه التذرة؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمي التذير من الماء ذيرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غدار المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حنثرا يزعم وفاجرهم وجنهم وإنهم .
قوله تعالى : وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَكُمْ^(٣)
أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا^(٤)

قوله تعالى : (وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا) صفاً . نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة ، كل أمة وزمرة صفاً ، لا أنهم صف واحد . وقيل جيباً ، كقوله : ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا^(٥) . أى جيباً . وقيل قياماً . وخريج الحفاظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
" إِنْ أَفَاقَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْدَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَوْتٌ رَفِيعٌ غَيْرُ فَطِيجٍ بِإِعَادَى إِذَا أَفَاقَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَسْرَعُ الْحَاسِمِينَ بِإِعَادَى لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَهْزُونَ أَحْضِرُوا حِجَّتَكُمْ وَيَسْرُوا جَوَابًا فَانْكُمُ مَسْئُولُونَ حَاسِبُونَ . بِأَمَلَانِكِي أَقِيمُوا عِبَادِي صَفُوفًا عَلَى اطِّرَافٍ أَتَمِّلُ أَقْدَامَهُمْ لِحُصَابٍ " .

قلت : هذا الحديث غاية في البيان في تيسير الآية ، ولم يذكره كثير من المفسرين ؛ وقد كُتِبَ في طلب التذكرة ، ومنه قلناه والحمد لله .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى يقال لهم : لقد جئتمونا صفواً مرة ، لا مال معكم ولا ملأ . وقيل فرادى ؛ دليله قوله : ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة^(٦) .
وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بشاكم كما خلقناكم . (بَلْ زَعَمْتُمْ) صفداً خطاب للمكركه

(١) آية ١ سورة الانشقاق (٢) آية ٢ سورة الزلزلة (٣) آية ٦٤ سورة طه

(٤) آية ٩٤ سورة الأنعام - راجع ج ٧ ص ٤٤ طبعه امل اوتانية

البعث، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وإن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم من مائسة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يُحْتَرَمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقَّةَ حُرَّةٍ مُرَّةٍ مُرَّةً " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . " غُرُلاً " . أى غير عثوتين . وقد تقدم فى « الأعلام » بيانه .

قوله تعالى : **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِيهِ وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّيْنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (**وَوُضِعَ الْكِتَابُ**) « الكتاب » اسم جنس ، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أبدي العباد ، قاله مقاتل . الثانى — أنه وضع الحساب ، قاله الكلبي ، فبهر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر ، ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شك نعم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكتب : وَيَكُ يَا كُتُب ! حُشْنَا مِنْ حَبِيبِ الْآخِرَةِ ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفِعَ اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتشر حول العرش ، وذلك قوله تعالى : **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِيهِ** ويقولون **يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** — قال الأسدي : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك ، إلا أحصاها — قل كتب : ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بينه فينظر فيه فإذا حسنته بإياتى الناس وهو يقرأ سيفاته ليحلا يقول كانت لى حسنت فلم تذكر فأحب الله أن يره عمله كله حتى إذا استقصى ما فى الكتاب وجد فى آخر

ذلك كله أنه مغفور وأنت من أهل الجنة ؛ فندفك يُقِيل إلى أصحابه ثم يقول « ماؤم
أقرعوا بكايه . إني ظننت أني ملأيت حسايه » ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بناله ثم يُقَف
فيجمل من وراء ظهره ويلوى عنقه ؛ فذلك قوله « وأما من أوتي كتابه وراء ظهره » فينظر
في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أنا ظالم على السيئات . وكان
القُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلته ! جنبوا إلى الله تعالى من الصفات
قبل الكافر . قال ابن عباس : الصغيرة التسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعني ما كان من ذلك
في مصيبة الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في مصيبة ، فإن الضحك من المصيبة وضأها
والرضا بالمصيبة مصيبة ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم . أو يُجمل
للضحك فيما ذكر الماوردي على التسم ، وقد قال تعالى : « قَبَسَ صَاحِبًا مِنْ قَوْلَاهُ » . وقال
سعيد بن جبير : إن الصفات التي كالتيس والقيل ، والكبيرة الواقعة والزنى . وقد مضى
في « النساء » بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظلهما ، فإياكم
ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى « أحصاها »
عدّها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعاً . (وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) أي
وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَدًا) أي لا يأخذ أحداً يُجرّم أحداً ، ولا يأخذ بهما لم يعمل به ؛ قاله الضحاك . وقيل :
لا يتقص طالما من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْإِثْمِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْإِنسَانِ اعْبُدُوا لَدُنِّي فَقَسَّدَا إِلَّا الْإِنْسَانَ كَانَ مِنَ الْبَشَرِ فَقَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) فسلم في « البقرة » هنا مستوفى . قال أبو جعفر النحاس : وفي هذه الآية سؤال ، يقال : ما معنى « قَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ؟ ففى هذا قولان : أحدهما - وهو منسوب إلى الخليل وسيبويه أن المعنى إياه القسق لما أمر فقصى ، فكان سبب القسق أمرُ ربه ، كما تقول : أطمعته عن جوع . والقول الآخر - وهو مذهب محمد بن قُطُوب أن المعنى : قسق عن رد أمر ربه . (اتَّخَذُونَهُ وَذَرْيَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى) وقف عز وجل الكفرة على جهة التوبيخ بقوله اتَّخَذُونَهُ يابن آدم وذريته أولياء وهم لكم مدوؤ ، أى أعداء ، فهو اسم جنس . (يَأْتِى السَّاطِنِينَ بَدَلًا) أى ينس عبادة الشيطان بدلا عن عبادة الله . أو ينس الإنسان بدلا من الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ، فقال الشعبي - سألنى رجل فقال هل لإبليس زوجة ؟ قلت : إن ذلك مَرُوس لم أشهده ، ثم ذكرت قوله « اتَّخَذُونَهُ وَذَرْيَتَهُ أَوْلِيَاءَ » . فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة قلت نعم . وقل مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه في فرج قسه فباس نمس بيضات ، فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له في لحذه اليمنى ذكرا وفى اليسرى فرجا ، فهو يتكح هذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة ، فهو يخرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم فى بنى آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية ، وذريته أعوانه من الشياطين . قال القشيري أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرية ، وأنهم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعدائهم ، ولا يثبت عبدا كيفية فى كيفية التوالد منهم وحدث الذرية عن إبليس ، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت فى هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبى بكر البرقاني أنه خرج فى كتابه مستندا عن أبى محمد عبد الله بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبى عثمان قال سلمان قال قال رسول الله صل الله عليه وسلم : « لا تكن

لَقَدْ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِأَسْرِ الشَّيْطَانِ وَفَرَحٍ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّيْطَانِ لَمُرَّةٍ مِنْ عَلَيْهِ وَفَهُ أَعْلَمُ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَقَوْلُهُ «وَفَرَحٌ» ظَاهِرُ الْفَقْدِ يَمْتَنِي لِلْمُوسِمِينَ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، الَّذِينَ يَأْتُونَ بِالْمُتَكَرِّهِ وَيَحْلُونَ عَلَى الْبَاطِلِ . وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ وَفِيهِ أَنْ يَجَاهِدًا قَالَ : نَدِيَةُ إِبْلِيسَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَأَنَّ يَسْتَعْمِ : زَلَّيْنِوُورُ صَاحِبُ الْأَسْوَاقِ ، يَضَعُ رَأْيَهُ فِي كُلِّ سَوْقٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، يَعْمَلُ تِلْكَ الرِّايَةَ عَلَى حَاوَتِ أَوَّلِ مَنْ يَفْخُحُ وَآخِرَ مَنْ يَفْخُحُ . وَبِمُصَاحِبِ الْمَصَائِبِ ، يَأْسِرُ بِضَرْبِ الْوُجُوهِ وَنَشَقِ الْجُيُوبِ ، وَاللِّدَاءِ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ . وَالْأَعْوَدُ صَاحِبُ أَبْوَابِ الرِّزْقِ . وَسَوْطُ صَاحِبِ الْأَخْبَارِ ، بَاتِيَ بِهَا بَقِيَّةً فِي أَنْوَاءِ النَّاسِ فَلَا يَحْدُونَ لَهَا أَصْلًا . وَدَلِمَ الَّذِي إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ يَحْضَهُ فَلَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَذْكُرْ أَسْمَ اللَّهِ بَقَرَهُ مِنَ النَّسَاعِ مَا لَمْ يُرَفِّعْ وَمَا لَمْ يُحَسِّنْ مَوْضِعَهُ ، وَإِذَا أَكَلَ وَلَمْ يَذْكُرْ أَسْمَ اللَّهِ أَكَلَ مَعَهُ . قَالَ الْأَعْمَشُ : وَإِنِّي رَجَا دَخَلْتُ الْبَيْتَ فَلَمْ أَذْكُرْ اللَّهَ وَلَمْ أَسْلَمْ ، فَرَأَيْتُ ظَهْرَهُ قُلْتُ : ارْفُضُوا هَذَا وَخَاصِمَتِهِمْ ، ثُمَّ أَذْكُرْ فَأَقُولُ : دَلِمَ دَلِمَ ! أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ ! زَادَ التَّحْلِي وَفِيهِ عَنْ يَجَاهِدِ ، وَالْأَبْيَضُ ، وَهُوَ الَّذِي يُوسُوسُ لِلْأَنْيَاءِ . وَصَحْرٌ وَهُوَ الَّذِي أَخْطَسَ خَاتَمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَالرُّولَانُ وَهُوَ صَاحِبُ الطَّهَارَةِ يُوسُوسُ فِيهَا . وَالْأَقْبَسُ وَهُوَ صَاحِبُ الصَّلَاةِ يُوسُوسُ فِيهَا . وَنَمْرَةٌ وَهُوَ صَاحِبُ الزَّامِرِ بِهِ يُكْتَمَى . وَالْمُفَافُ يَكُونُ بِالصَّحَارَى يُضِلُّ النَّاسَ وَيَتِيهِمْ . وَفِيهِمُ الْبَيْلَانُ . وَحَكِي أَبُو مَطْلِحٍ مَكْحُولُ بْنُ الْفَضْلِ النَّسَبِيُّ فِي كِتَابِ التَّوَلُّيَاتِ عَنْ يَجَاهِدِ أَنَّ الْمُفَافَ هُوَ صَاحِبُ الشَّرَابِ ، وَلَقُوسُ صَاحِبُ التَّحْرِيشِ ، وَالْأَعْوَدُ صَاحِبُ أَبْوَابِ السُّلْطَانِ . قَالَ وَقَالَ الْقَارِئِيُّ : إِنَّ إِبْلِيسَ شَيْطَانًا يَقَالُ لَهُ الْمُتَقَاضِي ، يَقْتَضِي أَبْنَ آدَمَ فَيَجْبِرُ بِعَمَلِ كَانِ عَمَلُهُ فِي السَّرِّ مِثْلَ عَشْرِينَ سَنَةً ، فَيَحْلُتُ بِهِ فِي الْعِلَاقَةِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَهَذَا وَمَا جَانَسَهُ مِمَّا لَمْ يَأْتِ بِهِ سَنَدٌ صَحِيحٌ ، وَقَدْ طَوَّلَ الْقَاسِي فِي هَذَا الْمُنَى وَجَلَبَ حِكَايَاتِ تَبَعِدَ عَنِ الصَّحَّةِ ، وَلَمْ يَمْزِجْ فِي هَذَا صَحِيحٌ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ مِنْ أَنَّ الصَّلَاةَ شَيْطَانًا يُسَمَّى خُتْرَبَ . وَذَكَرَ التَّرْمِذِيُّ أَنَّ الْوَضُوءَ شَيْطَانًا يُسَمَّى الرُّولَانُ .

قلت : أما ما ذكر من التمين في الاسم فصحيح ؛ ولما أنبأ له أنبأوا وأعرافا وجنودا لقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح في أن له أولادا من صلبه ؛ كما قال مجاهد وفيه .
وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليحتل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحتشم بالحديث من الكذب فيفتزقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث . وفي مسند البزار عن سلمان الفارسي قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصيب رايته " . وفي مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى الأشعري قال : إذا أصبح إليس بن جندوه يقول من أضل مسلما ألبسته التاج قال فيقول له القتال لم أزل بخلان حتى طلق زوجته ، قال : يوشك أن يزوج . ويقول آخر : لم أزل بخلان حتى حق ؛ قال : يوشك أن يبر . قال ويقول القتال : لم أزل بخلان حتى شرب ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بخلان حتى زنى ؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بخلان حتى قتل ؛ قال : أنت أنت ! وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إليس يضع حرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يمي . أحدهم فيقول فلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يمي . أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيؤديه أو قال فيقرمه ويقول نعم أنت " . وقد تقدم . وصحت شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بنتر الإسكندرية يقول : إن شيطانا يقال له الياضوى يحتل للفقراء المواصلين في الصيام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمتهم يكشف لهم عن ضياه ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنون أنهم قد وصلوا وإن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

قوله تعالى : مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ
 أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتَ مُتَّخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴿٥٦﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا
 شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٧﴾
 وَرَءَا الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ قيل :
 الضمير عائد على إبليس وذريته ؛ أى لم أشاورهم في خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ،
 بل خلقتهم على ما أردت . وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض
 « ولا خلق أنفسهم » أى أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني ؟ . وقيل : الكناية
 في قوله : « مَا أَشْهَدُهُمْ » ترجع إلى المشركين ، وإلى الناس بالجملة ، فتضمن الآية الرد على
 طوائف من المتجيمين وأهل الطباع والمتحكين من الأطباء وسواهم من كل من يخفط في هذه
 الأشياء . وقال ابن عطية : وسمعت أبي رضى الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله
 محمد بن معاذ المهدى بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلي يقول هذا القول ، ويتأول
 هذا التأويل في هذه الآية ، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين .
 قال ابن عطية وأقول : إن الفرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته ؛ وبهذا الوجه
 يجبه الرد على الطوائف المذكورة ، وعلى الكهان والعرب والمعتبين لجن ؛ حين يقولون : أعوذ
 بجزر هذا الوادى ؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع ، فهم
 المراد الأول للمضلين ؛ وتتدرج هذه الطوائف في مناهم . قال التعلي : وقال بعض أهل
 العلم « مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » رد على المتجيمين أن قالوا : إنه الأفلاك تحدث
 في الأرض وفي بعضها في بعض ، وقوله : « والأرض » رد على أصحاب الهندسة حيث قالوا :

إن الأرض كربة والأفلاك تجري تحتها، والناس ملصقون عليها، وقوله : « ولا خلق أنفسهم » رد على الطبايعين حيث زعموا أن الطبايع هي الفاعلة في النفوس . وقرأ أبو جعفر « ما أشهدناهم » بالنون والألف على التعظيم . الباقر بالتاء يدلل قوله : « وما كنت متخذة » بمعنى ما استعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم . (وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) يعنى الشياطين . وقيل : الكفار . (عَصْدًا) أى أعوانا . يقال : اعتصدتُ بفلان إذا استعنت به وقويت . والأصل فيه عضد اليد ، ثم يوضع موضع العين ؛ لأن اليد قوامها العضد . يقال : عضده وعاضده على كذا إذا أعانه وأعززه . ومنه قوله : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنعينك بأخيك . ولفظ العضد على جهة المثل ، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد . وخص المضلين بالذكور لزيادة الذم والتوبيخ . وقرأ أبو جعفر الجحدري « وَمَا كُنْتُ » بفتح التاء ، أى وما كنت باعد متخذ المضلين عضدا . وفي عضد ثمانية أوجه : « عَصْدًا » بفتح العين وضم الضاد وهي قراءة الجمهور ، وهي أنصحبها . و « عَصْدًا » بفتح العين وإسكان الضاد ، وهي لغة بني تميم . و « عَصْدًا » بضم العين والضاد ، وهي قراءة أبي عمرو والحسن . و « عَصْدًا » بضم العين وإسكان الضاد ، وهي قراءة عكرمة . و « عَصْدًا » بكسر العين وفتح الضاد ، وهي قراءة الضحاك . و « عَصْدًا » بفتح العين والضاد وهي قراءة عيسى بن عمر . وحكى هرون الفارسي « عَصْدًا » . واللفظة الثامنة « عِصْدًا » على لغة من قال : كُتِفَ وَفُتِدَ . قوله تعالى : (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أى أذكروا يوم يقول الله : أين شركائي ؟ أى أدعوا الذين أشركتموهم بى فليمتنعوا من عقابي . وإنما يقول ذلك لبيعة الأوثان . وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر « تقول » بنون . الباقر بإيالة ، لقوله : « شركائي » ولم يقل : شركائنا . (قَدَعَوْهُمْ) أى فسلوا ذلك . (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) أى لم يجيبوهم إلى نصرهم ، ولم يكفوا عنهم شيئا . (وَجِئْنَا بِهِمْ مَوْبِقًا) قال أنس ابن مالك : هو وادى في جهنم من فيح ودم . وقال ابن عباس : لى وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا . وقيل : بين الأوثان وعبدتها ، نحو قوله : « قُزِلَتْ بِهِمْ » .

قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجر بين شيئين فهو مَوْقٍ . وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : « مَوْقًا » قال وإد في جهنم يقال له مَوْقٍ . وكذلك قال تَوْفَ الْيَكْلَى إلا أنه قال : يمحز بينهم وبين المؤمنين . عكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا ، على حافته حيات مثل البغال النعم ، فإذا ثارت إليهم ليأخذهم استنابوا منها بالإقتحام في النار . وروى زيد بن درهم عن أنس بن مالك قال : « مَوْقًا » وإد من فيج ودم في جهنم . وقال عطاء والضحاك : مَهْلِكًا في جهنم ، ومنه يقال : أوقته ذنوبه إياها . وقال أبو عبيدة : موعدا للهلاك . الجوهرى : وَيَقِي وَيُقِ وَيُوقَا هَكَ ، والمَوْقِي مثل الموعد مفعِل من وعد يبد ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا بينهم مَوْقًا » . وفيه لغة أخرى : وَيَقِي وَيُقِ وَيُوقَا . وفيه لغة ثالثة : وَيَقِي وَيُقِ بالكسر فعيما ، وأوقه أى أهلكه . وقال زهير :

ومن يشتري حُسْنَ النَّيِّ بِمَالِهِ • يَصْنُ عِرْضَهُ مِنْ كُلِّ شَعْنَةٍ مَوْقِي

قال الفراء : جعل تواصلهم في الدنيا مَهْلِكًا لهم في الآخرة .

قوله تعالى : (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ) « رأى » أصله رأى ، قلبت الياء ألما لافتحها وأفتح ما قبلها ، ولهذا زعم الكوفيون أن « رأى » يكتب بالياء ، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين . فاما البصريون المذاق ، منهم محمد بن يزيد فأنهم يكتبونه بالآلف . قال النحاس : سمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالآلف ، ولا فرق بين ذوات الياء وبين [ذوات] الواو في الخط ، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو ، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رى بالياء ورماء بالآلف ، فإن كانت الالة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماء بالياء ، ثم يكتبون مَحْمًا جمع محموة ، وكما جمع كسوة ، وهما من ذوات الواو بالياء ، وهذا ما لا يحصل ولا ينبت على أصل . (قَطَّنُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهَا) « قَطَّنُوا » هنا بمعنى اليقين والعلم ، كما قال :

قَطَّنْتُ لَمْ طُنُّوا بِالْقِي مَدْمَح •

(١) في الأصل يزيد وهو تحريف وهو صريح في القلب . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٣) هو زيد بن الحصة ، وقام له : • سرائر في القاموس المرد •

أَيُّ أَهْلِيهَا، وَقَدْ هَمُّوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَهْلُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِفُهَا. وَقِيلَ: وَلَوْهَا مِنْ مَكَانٍ
مِيدَ تَوَهُّوا أَنَّهُمْ مَوَاقِفُهَا، وَظَنُّوا أَنَّهَا تَأْخُذُهُمْ فِي الْحَالِ. وَفِي الْخَبَرِ: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى
جَهَنَّمَ وَيُظَنُّ أَنَّهَا مَوَاقِفُهُ مِنْ سَبِيلَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً». وَالْمَوَاقِفُ مَلَابِصَةُ النَّاسِ بِشَيْءٍ. [وَمِنْ
طَقْمَةٍ أَنَّهُ قَرَأَ] «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَلَأَتْهُمَا» أَيُّ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، وَالْقَفِّ الْجَمْعُ. (وَلَمْ يَحْسُدُوا
عَنْهَا مَصِيرًا) أَيُّ مَهْرًا لِإِحْاطَتِهَا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. وَقَالَ الْقَتَنِيُّ: تَمِيلًا يَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِ.
وَقِيلَ: مُلْجَا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَالْمُنَى وَاحِدٌ. وَقِيلَ: وَلَمْ تَجِدِ الْأَسْطِمَ مَصِيرًا فَتَارَ عَنْ
الْمُشْرِكِينَ.

قوله تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَتَتْ تَأْتِيهِمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ۝ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
وَيَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَيِّنَاتِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاسْتَحْلُوا هَٰبِطِي
وَمَا أَتَدْرُوا هُمْرًا ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِيْ أَعَانِهِمْ وَقُرْآءًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝
وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ
بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ۝ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ
لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يستعمل وجهين: أحدهما - ما ذكره لهم من البر والقرون الخالية - الثاني - ما أوضح لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في «صحات»؛ فهو على الوجه الأول زجراً، وعلى الثاني بيان. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أى جدالاً ومجادلة، والمراد به الصرب الحرت وحداله في القرآن. وقيل: الآية في أبي بن خلف. وقال الزحاج: أى الكافر أكثر شياً جدلاً، والدليل على أنه أراد الكافر قوله: «وَيَحْيَايِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا» . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يؤنى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعت فيما أرسلت إليك فيقول رب آنت بك وصنعت برسلك وعملت بكلك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شىء من ذلك فيقول يارب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندى ولا من جهى فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أم الكتاب قد شهد بذلك يارب ألم تُجرى من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل الإشهادا على من نفسى فيقول الله تعالى الآن نبعت عليك شاهدا من تمسك فيتفكر من ذا الذى يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُحْلَى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإن بعضه ليلبس بعضاً بقول لأعضائه لعنك الله فعنك كنت أناصل فتقول أعضائه لعنك الله أعلم أن الله تعالى يُكَيِّمُ حديثاً فذلك قوله تعالى «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا» أخرجه مسلم بمناه من حديث أنس أيضاً . وروى صحيح مسلم عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه فقاطمة فقال: «ألا تصلون» فقلت: يا رسول الله إنما أضمت بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بشتا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب غنمه ويقول: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا» .

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْمَدْيُ﴾ أى القرآن والإسلام ومعد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى مستغفري إهلاكهم،

أى ما منعهم عن الإيمان إلا حكى عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا . وسنة
الأولين عادة الأولين فى عذاب الاستئصال . وقيل : المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب
أن تأتهم سنة الأولين لحذف . وسنة الأولين معاناة العذاب ، فطلب المشركون ذلك ،
وقالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)
نصب على الحال ، ومعناه عيانا ، قاله ابن عباس . وقال الكلبي : هو السيف يوم بدر .
وقال مقاتل : بقاة . وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمرزة ويحيى والكلبي « قُبُلًا »
بضمين أرادوا به أصناف العذاب كله ؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسَبِيل . النحاس : ومذهب
الفراء أن « قُبُلًا » جمع قَبِيل أى متفرقا يتلو بعضه بعضا . ويجوز عنده أن يكون المعنى
عيانا . وقال الأعرج : وكانت قراءته « قُبُلًا » معناه جميعا . وقال أبو عمرو : وكانت قراءته
« قُبُلًا » ومعناه عيانا .

قوله تعالى : (وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ) أى بالجنة لمن آمن . (وَمُنذِرِينَ)
أى مخوفين بالعذاب من كفر . وقد تقدم . (وَيُعَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُحْضَوْا بِهِ)
الحق (قيل : نزلت فى المفسمين ، كانوا يجادلون فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون :
ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدم . ومعنى « يُلْحِضُوا » يزلوا ويطلوا . وأصل اللُحْضُ
الزَّلَق . يقال : دَحَضْتُ رَجُلَهُ أى زَلَقْتُ ، تَلَحَّضُ دَحَضًا ، ودَحَضَتِ الشَّمْسُ عن كبد
الماء زالت ، ودَحَضَتْ مُجْتَمَعَهُ دُحُوضًا بَطَلَتْ ، وأدحضها الله . والإدحاض الإزلاق .
وفى وصف الصراط : « وَيُضْرَبُ الْمَسْرُوعُ عَلَى جَهَنَّمَ وَيُجِلُّ الشَّقَاعَةُ » فيقولون اللهم سلم سلم
فيل : يا رسول الله وما المسرعة ؟ قال : « دَحَضُ مَرْتَلِقَةٌ » أى ترتلي فيه التهم . قال طرفة
أبا مسيزير رُمْتُ الوفاة فهِبَتْهُ . وحذت كما حاد البعير عن اللُحْضِ .

(١) حذت فواته « جمع » أى كان يقرأ بها المصحف لله تعالى .

(٢) جامع ج ١٠ ص ٥٨ طبعه أوله بفتح .

(٣) محل : تقع روضة نيا ، وهو (سكر الحام) دابة (بفتح) .

(وَأَعْتَدُوا آيَاتِي) يعنى القرآن (وَمَا أَنْذَرُوا) من الوعيد (هَزُوا) . و «ما» بمعنى المصدر أى والإنذار . وقيل : بمعنى الذى ؛ أى اتخذوا القرآن الذى أنذروا به من الوعيد هزوا أى لعبا وباطلا ؛ وقد تقدم فى « البقرة » بيانه . وقيل : هو قول أبى جهل فى الزيد والفر هذا هو الزقوم . وقيل : هو قولهم فى القرآن هو حجر وأضغاث أحلام وأساطير الأولين ، وقالوا للرسول : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ، « وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرَسَيْنِ عَظِيمٍ » و « مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا » .

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه ، قهاون بها وأعرض عن قبولها . (وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أى ترك كفره ومعاصيه فلم ينب منها ؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : المنى نسى ما قدم لنفسه وحصل من العذاب ؛ والمعنى متقارب . (إِنَّا جَاءْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) بسبب كفرهم ؛ أى نحن معنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وإسماعهم . (وَأَنْ تَعْمَهُمْ إِلَى الْهُدَى) أى إلى الإيمان (فَلَنْ يَسْمَعُوا إِذَا أَتَاهَا) نزل فى قوم معينين ، وهو يرد على القدرية قولهم ؛ وقد تقدم معنى هذه الآية فى « سبحان » وغيرها .

قوله تعالى : (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) أى الذنوب . وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليل قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ الْيَتْرَاقَ يُشْرَكَ بِهِ » . « ذو الرحمة » فيه أربع تأويلات : أحدها - ذو العفو . الثانى - ذو الثواب ؛ وهو على هذين الوجهين يختص بأهل الإيمان دون الكفر . الثالث - ذو النعمة . الرابع - ذو الهدى ؛ وهو على هذين الوجهين يتم أهل الإيمان والكفر ، لأنه ينمى فى الدنيا على الكفر كما تنامه على المؤمن . وقد أوضح هداه للكفر كما أوضحه للؤمن وإن أهتدى به المؤمن دون الكفر . ومعنى قوله : (لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى من الكفر والمعاصى (لَتَجَلَّيْكُمْ الْعَذَابُ) ولكنه يهل . (بَلْ لَكُمْ مَوْعِدٌ) أى أجل مفتر يؤخرون إليه . نظيره « لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ » ، « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

أى إذا حل لم يتأخر عنهم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . (لَنْ يَجْعَلُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا) أى ملأه قاله ابن عباس وابن زيد، وحكاها الجوهري فى الصحاح . وقد وآل يَبُلُّ وآلَا وَوَمَرَلَا على فُؤول أى بلأ، وآل من مل فاعل أى طلب النجاة . وقال عاصم . تحمزا . فتادة . ولياً . وأبو عبيدة : مَتَجَى . وقيل : تحمصاً والمعنى واحد . والعرب تقول : لا وآلت نفسه أى لا آتت ، ومنه قول الشاعر :

لَا وآلَتْ نَفْسُكَ خَلِيَّتَهَا • لِمَا يَمِينِ وَلَمْ تُعْصِدْ

وقال الأضنى

وقد آتَالِسُ رَبِّ الْبَيْتِ غَفْلَتُهُ • وقد يحاذرُ متى ثم ما يَحِلُّ

أى ما يجوز .

قوله تعالى : (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتُمُ) « تلك » فى موضع رفع بالابتداء . « القرى » نعت أو بدل . و « أهلكتم » فى موضع الخبر محمول على المنى ، لأن المنى أهل القرى . ويجوز أن تكون « تلك » فى موضع نصب على [قول] من قال : زيدا ضربته ، أى وتلك القرى التى قصصنا عليك نبأهم ، نحو قرى عاد وثمود ومدائن وقوم لوط أهلكتم لما ظلموا وكفروا . (وَجَعَلْنَا لِهَيْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) أى وقتا معلوما لم تأتد . و « مهلك » من أهلكوا . وقرأ طاسم « مهلكهم » بفتح الميم واللام وهو مصدر هلك . وأجاز الكاسى والقرء « لمهليكهم » بكسر اللام وفتح الميم . النحاس : [قال الكاسى] وهو أحب إلى لأنه من هلك . الزجاج : اسم للزمان والتقدير : لوقت مهلكهم ، كما يقال : أنت الناقة على مضربها .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا آخِرُ حَقِّ أُنْبِغَ يَجْمَعُ
الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُبًّا ﴿٤٠﴾

- (١) الزيادة من « إعراب القرآن » النحاس . (٢) طه قراءة اليهود كآلى البحر وغيره .
(٣) الزيادة من « إعراب القرآن » النحاس . (٤) ضرب الجمل ثابة مضرباً إذا كاد طاباً .
وآلت الناقة على مضربها ، أى على الزمن والوقت الذى مضى مضرباً فيه ؛ بسنوا الزمان كالكلاب .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَاتِهِ لَا أُبْرِحُ) الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره . وقالت فرقة منها نوف البكالى : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نيا قبل موسى ابن عمران . وقد رد هذا القول ابن عباس في صحيح البخارى وغيره . وفاته : هو يوشع بن نون . وقد مضى ذكره في « المسائنة » وآخر « يوسف » . ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون . « لَا أُبْرِحُ » أى لا أزال أسير ؛ قال الشاعر :^(١)

وَأُبْرِحُ مَا أَدَامَ اللَّهُ قَوْمِي • بحمد الله مُتَطَقًا حَيًّا

وقيل : « لَا أُبْرِحُ » لا أفارقك . (حَتَّى أَبْلُغَ بَجْعَ الْبَحْرَيْنِ) أى ملتقاهما . قال قتادة : وهو بحر فارس والروم ؛ وقاله مجاهد . قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان ، فالركن الذى لأجتماع البحرين مما على بر الشام هو بجمع البحرين على هذا القول . وقيل : هما بحر الأرندة وبحر القلزم . وقيل : بجمع البحرين عند طنجة ؛ قاله محمد بن كعب . وروى عن أبى بن كعب أنه بأفريقية . وقال السدى « الكر والرس » بأرمينية . وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط ؛ حكاه القاسم ؛ وهذا مما يذكر كثيرا . وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر ؛ وهذا قول ضعيف ؛ وحكى عن ابن عباس ، ولا يصح ؛ فإن الأمرين من الأحاديث أنه إنما وُسم له بحر ماء . وسبب هذه القصة ما نخرجه الصحيحان عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن موسى عليه السلام قام خطيبا

(١) راجع ج ٦ ص ٥٤٠ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٠ وما بعدها

طبعه أول مرة ثانية . (ج) هو حذاف بن زهير ؛ يقول : لا أزال أجنب فرسى جراحا ؛ وظل . وقيل

لما دنا من بيتي في الله على نبي . (ج) (السان) ، « مل للأحد » ، « مل » بـ « جلد » .

(د) الكمال ، « سلب » .

في بني إسرائيل فسل أي الناس أعلم فقال أنا فتنب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبدا يجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله في ميكن خفيتا فتبدت الحوت فهو ثم " وذكر الحديث ، واللفظ للبخاري .

وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر ، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكرهم بأيام الله ، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة .

إذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم . واستخلفهم في الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما ، واصطفاه لنفسه ، وألقى على حجة منه ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، فجعلكم أفضل أهل الأرض ، وورثكم الميراث بعد النبل ، والفتى بعد الفقر ، والثروة بعد أن كنتم جهالا ؛ فقال له رجل من بني إسرائيل : عرفنا الذي تقول . فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟

قال : لا ؛ فتنب الله عليه حين لم يرد العلم إليه ، فبعث الله جبريل : أن يأمري وما يدريك أين [أضع] علي ؟ بل ! إن لي عبدا يجمع البحرين أعلم منك ؛ وذكر الحديث . قال علماؤنا :

قوله في الحديث " هو أعلم منك " أي بإحكام وقائع مفصلة ، وحكم نوازل معينة ، لا مطلقا ؛

بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علمك الله لا أعلمه أنا ، وأنا على علم علمني لا أعلمه أنت ، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر ، فلما سمع موسى هذا تسوقت نفسه الفاضلة ، وحمته العالية ، لتحصيل علم ما لم يعلم . ولقاه من قيل فيه : إنه أعلم منك ؛ فعزم فقال سؤال القليل بكيف السبيل ، فأمر بالارتحال على كل حال . وقيل له أحمل معك حوتا ملحا في ميكن - وهو الزنبل - فحيت يمينا وتفقدته فتم السبيل ، فانطلق مع فناء لما واثاه ، مجتهدا طلبا قائلا : ولا أريج حتى أبلغ بجمع البحرين . (أو أضعي حبيبا) بضم الحاء والقاف وهو الدرهم ، والجمع أحقاب . وقد تسكن فائه فيقال : حطب . وهو محاثون سنة . وقال : أكثر من ذلك . وللمحسب حطب . والمخبة بكسر الحاء واحدة الحطب وهي القشور .

الثانية - في هذا من التفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخدام والمصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بدت أقطارهم، وذلك كذا في دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السر الناجح، فرمخت لهم في العلوم أقدام، ومع لم من الذكر والأجر (الفضل أفضل الأقسام). قال البخاري : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث .

الثالثة - قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَاءَهُ » العلماء فيه ثلاثة أقوال : أحدها - أنه كان معه يخدمه، والفتى في كلام العرب الشاب، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فيها قيل لخدام فتى على جهة حسن الأدب، ونبتت الشريعة إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتأى وفتأى » فهذا تدبُّ إلى التواضع وقد تقدم هذا في « يوسف » . والفتى في الآية هو الخدام وهو يوشع بن نون بن إبراهيم لمن يوسف عليه السلام . ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام . وقيل : إنحاسي فتى موسى لأنه لم يزل يتعلم منه وإن كان حراً، وهذا معنى الأول . وقيل : إنما سماه فتى لأنه غلام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى : « وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا رِضَاعَتَهُمْ فِي رِجَائِهِمْ » وقال : « تَرَاوَدُّ فَأَمَّا عَنْ نَفْسِهِ » قال ابن العربي : فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد، وفي الحديث : أنه كان يوشع بن نون . وفي « التفسير » أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم .

الرابعة - قوله تعالى : « أَوْ أَمْنِي حَبًّا » قال عبد الله بن عمر : والحُبُّ تَمَرُونَ سَمَةٌ . مجاهد : مجون خرفاً . قتادة : زمان . النحاس : الذي يرفه أهل الكفة إن الحُبُّ والحلبة زمان من البحر ميسم غير محدود كما أن رطلًا ولوما ميسم غير محدود : وجمعه الحُطَب .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
 فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي نَادَاكُمَا لَقِينَا
 مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي
 نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
 فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٨﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْسَلْنَا عَنْ عَائِلِهِمَا
 قَصَصًا ﴿١٩﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ
 مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) الضمير
 في قوله : « بينهما » البحرين ؛ قاله مجاهد . والسَّرب المسلك ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة :
 جحد الماء فصار كالسَّرب . وجهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سلوكه فارغا ، وأن
 موسى مشى عليه متبعا للحوت ، حتى أنفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر ، وفيها وجد الخضر .
 وظاهر الروايات والكتابات أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر . وقوله : « نسيا حوتهما »
 وإنما كان النسيان من التقي وحده ثقيل : المعنى ؛ نسي أن يُسَلِّم موسى بما رأى من حاله
 فنسب النسيان إليهما للصعبة ، كقوله تعالى : « يخرج بينهما الزُّلْزُل والمِرجان » وإنما يخرج
 من الملح ، وقوله : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » وإنما الرسل من الإنس
 لا من الجن . وفي البخاري ؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ،
 قال : ما كُفِّت كثيرا ؛ فذلك قوله عز وجل : « وإذ قال موسى لفتاه : يوشع بن نون —
 ليست عن سعيد — قال فيينا هو في ظل صحرة في مكان تريان ^(١) إذ تضرب الحوت وموسى قائم ^(٢)

(١) أى قال ابن جريج — هو أحد رواة الحديث — ليست تسمية التقي من سيد بن جبير - (عسقلاني) .

(٢) تريان : يقال مكان تريان وأرض تريا إذا كان في زواجها طل ودى . (٣) تضرب : اضطرب

وتحرك إذ حير في المكل .

فقال قناه : لا أوقفه ؛ حتى إذا استيقظ نسي أن يغيره ، وتضرَّب الحوت حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه حرمة البحر حتى كان أثره في حجر ؛ قال لي عمرو : ^(١) هكذا كان أثره في حجر وحلق بين إيهاميه والتين تليانيهما . وفي رواية : وأمسك الله عن الحوت حرمة المياه فصار مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يغيره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لقناه . « آتَيْنَا غَدَامَةً لِّتَذْكُرِينَ مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذي أمر الله به ، فقال له قناه : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَّنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » . وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : « نسيًا » فنسب النسيان إليهما ؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذي أمر به ، فلما مضيا كان قناه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة تلاً ؛ (فَلَمَّا جَاوَزَا) يعني الحوت هناك منسياً - أي متروكاً - فلما سأل موسى اللثاء نسب القتي النسيان إلى قسه عند المخاطبة ، وإنما ذكر الله نسيانها عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة ، فقد كان موسى شريكاً في النسيان ؛ لأن النسيان التأخير ؛ من ذلك قولهم في الدعاء : أنسا الله في أجلك . فلما مضيا من الصخرة أتوا حوتيهما عن حملهما فلم يحمله واحد منهما ، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركوا الحوت .

قوله تعالى : (آتَيْنَا غَدَامَةً) فيه مسألة واحدة ، وهو اتخاذه الزاد في الأسفار ، وهو رد على الصوفية الجاهلة الأغمار ، الذين يقتحمون المهامه والقفار ، زعمًا منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار ؛ هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذه الزاد مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد . وفي صحيح البخاري : إن ناساً من أهل اليمن كانوا يمججون ولا يترددون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألو الناس ، فأنزل الله تعالى « وَتَرَدُّوا » . وقد مضى هذا في « البقرة » . واختلف في زاد موسى ما كان ؛ فقال ابن عباس : كان حوتاً ملوحاً في زئيل ، وكانا يصيدان منه غداء وعشاء ، فلما أتيا إلى

(١) أي قال ابن جرير قال لي عمرو... الخ. (٢) الطاق : ضد البياض. (٣) الأغمار جمع غمر (بالهم) : وهو الجاهل التراقي لم يجرب الأمور. (٤) راجع ٢٠ ص ٤١١ وما بعدها طبعاً ثانية .

الصخرة على ساحل البحر، وضع قناه للكل، فأصاب الحوت جرى البحر فتحرك الحوت في المكمل، فقلب المكمل وانسرب الحوت، ونسى الله أن يذكر قصة الحوت لموسى .
 وقيل : إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله في الحديث : أحمل مك حوتا في مكمل حيث قدلت الحوت فهو تم، على هذا فيكون نزولنا شيئا آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس وأخبره . وقال ابن عطية : قال أبو رضى الله عنه، سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه : منى موسى إلى اللجأة فبقى أربعين يوما لم يخرج إلى طعام، ولما منى إلى بئر لحقه الجوع في بعض يوم . وقوله : « نَسِيتُ » أى نسيته، والنصب التعب والمشقة . وقيل : عني به هنا الجوع، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يحده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن خبر ولا مخط . وفي قوله : « وَمَا أَنَسَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في « أَنَسَيْنَاهُ » وهو بدل الظاهر من المضمرة، أى وما أنساني ذكره إلا الشيطان؛ وفي مصحف عبد الله « وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان ». وهذا إنما ذكره يوشع في معرض الاعتذار لقول موسى : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت؛ فقال : مَا كَلَّفْتُ كَثِيرًا؛ فاعتذر بذلك القول .

قوله تعالى : (وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى : أى اتخذ الحوت سبيله عجبا للناس . ويحتمل أن يكون قوله : « واتخذ سبيله في البحر » تمام الخبر، ثم استأنف التعجب فقال من نفسه : « عجبا » لهذا الأمر . وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقه الأيسر ثم حيا بعد ذلك . قال أبو شجاع في كتاب « الطبري » : رأيت - أبيت به - فلما هو شق حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء . قال ابن عطية : وأنا رأيت والشق الذى ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة . ويحتمل أن يكون قوله : « وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » إخبارا من الله تعالى، وذلك على وجهين : إما أن يخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أى تعجب منه . وإما أن يخبر

من الحوت أنه أخصه إليه عجبا للناس . ومن غريب ما روى في البخاري عن ابن عباس من قصص هذه الآية : أن الحوت إنما حي لأنه مـ ماء بين هناك تدعى بين الحياة ، ما مست قط شيئا إلا حي . وفي « التفسير » : إن العلامة كانت أن يميا الحوت ؛ قليل ؛ لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على سفرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك للماء غي . وقال الترمذي في حديثه قال مفيان : يزم الناس أن تلك الصخرة صنعتها عين الحياة ، ولا يصيب ماؤها شيئا إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما فطر عليه للماء عاش . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام تواض من عين الحياة فقطرت من لحينه على الحوت قطرة غي ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (فَكَانَ مَا كَانَتْ)^(١) أي قال موسى لفتاه أمر الحوت وقصد هو الذي كنا نطلب ، فإن الرجل الذي جثا له ثم ؛ فرجما يقصان آثارهما فلا يخططان طريقهما . وفي البخاري : فوجدنا خضرا على طيفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه ، قد جعل طرفة تحت وجهه ، وطرفه تحت رأسه ، فلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام ؟ أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بن إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شئت ؟ قال جثت لتعابني مما علمت رشدا ؛ الحديث . وقال التعلبي في كتاب « الرانس » : إن موسى وقتاه وجدنا الأخضر وهو قائم على طيفسة خضراء على وجه الماء وهو متبشع بثوب أخضر فلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأنى بأرضنا السلام ؟ ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبي بن إسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بي ؟ ومن أخبرك أني نبي بن إسرائيل ؟ قال : الذي أدراك بي وفلك حل ؛^(٢) ثم قال : يا موسى لقد كان لك في بن إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتيك وأعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدثان ، فقامت خطافة وحملت بمقارها من الماء ، وذكر الحديث على ما يأتي .

(١) في الأصل : « نبي » بإياء وهي قراءة « نافع » . (٢) الذي في كتاب « الرانس » « تعلبي » « قال أنا موسى » قال : موسى بن إسرائيل ؟ قال نعم ؛ قال : يا موسى لقد كان لك في بن إسرائيل شغل . « الخ » ولعل ما عاز زيادة في بعض النسخ .

قوله تعالى : (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ بَنَاتِنَا) العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور .
وعن بعض الأحاديث الثابتة . وخالف من لا يستد بقره ، فقال : ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر . وحكى أيضا هذا القول القشيري ، قال : وقال قوم هو عبد صالح ، والصحيح أنه كان الخضر ؛ بذلك ورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : سمي الخضر لأنه كان إذا صلى أخضر ماحوله . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهرت تحته خضره " هذا حديث صحيح غريب . الفروة هنا وجه الأرض ؛ قاله الخطابي وغيره . والخضر نبي عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته ؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه ، وليس يجوز أن يكون فوقه النبي من ليس بنبي . وقيل : كان ملكا أمر الله موسى أن يأخذه معه مما حمله من علم الباطن . والأوّل الصحيح ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (آيَاتُهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) الرحمة في هذه الآية للنبوة . وقيل : النعمة . (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) أى علم النبى . ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه ، لا تعلمى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالم .

قوله تعالى : قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلِمتَ رُشدًا ﴿١٧﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٨﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٩﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٢٠﴾ قَالَ فَإِنَّ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ وَحَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُبَلِّغَنِي بِمَا عَلَّمْتُكَ رُشْدًا) فيه مستطان :
 الأولى - قوله تعالى : « قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ » هنا سؤال الملائكة ، والمخاطب
 للمستقل البالغ في حسن الأدب ، المعنى : هل يتفق لك ويخف عليك ؟ وهذا كما في الحديث :
 هل تستطيع أن ترضي كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ وعلى بعض التأويلات
 يحى . كذلك قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » حسب
 ما تقدم بيانه في « المائدة » .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع العالم وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن
 أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل
 ما يعلمه المفضل ، والفصل لمن فضله الله ، فالخضر إن كان وليا فوسى أفضل منه ، لأنه نبي
 واللي أفضل من الولي ، وإن كان نيا فوسى فضله بالرسالة . والله أعلم . « ورشدنا »
 مفعول ثان بـ « علمني » . (قال) الخضر : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) أي إنك يا موسى
 لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه ، وكيف تصبر
 على ما تراه خطأ ولم تجرب بوجه الحكمة فيه ، ولا طريق الصواب ؛ وهو معنى قوله : (وَكَيْفَ
 تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) والآية لا يُقَرَّبُونَ على منكرو ، ولا يجوز لهم التقرير . أي لا يسمع
 السكوت جريا على عادتك وحكمك . وأنتصب « خُبْرًا » على التمييز المنقول عن الفاعل .
 وقيل : على المصدر الملاق في المعنى ، لأن قوله : « لَمْ تُحِطْ » معناه لم تجربهُ ، فكأنه قال :
 لم تجربهُ خُبْرًا ، وإليه أشار مجاهد . والخبر بالأمور هو العالم بمخفاياها وبما يختبر منها .

قوله تعالى : (قَالَ سَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا) أي ساصبر بمشيئة الله . (وَلَا أَعْصِي
 لَكَ أَمْرًا) أي قد أزممت نفسي طاعتك . وقد اختلفت في الاستثناء ، هل هو يشمل قوله :
 « وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » أم لا ؟ قيل : يشمله كقوله : « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » .
 وقيل : استثنى في الصبر فصبر ، وما استثنى في قوله : « وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » فاقترض

وسأل . قال علمائنا : إنما كان ذلك منه ، لأن الصبر أمر مستحيل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه ، ونفى المصيبة مزموم عليه حاصل في الحال ، فالاستثناء فيه بنافي الزم عليه . ويمكن أن يفرض بينهما بأن الصبر ليس مكتسباً لنا بخلاف فعل المصيبة وتركه ، فإن ذلك كله مكتسب لنا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾^(١) أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك ، وهذا من الخضر تاديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر من الاعتراض ، نعمين الفراق والإعراض .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ اقْرَقْنَا لَنُنْغَرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا^(٢) ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^(٣) ﴾ قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا^(٤) ﴾ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ فيه مستلذان :

الأول - في صحيح مسلم والبخاري : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فزوت سفينة فكلبهم أن يحملهم ، ففرقوا الخضر فخلعوه بشير نول ، فلما ركبوا في السفينة لم ينجحوا [موسى] إلا والخضر قد قلع منها لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بشير نول عمدت إلى سفيتهم فخرقتها لتغرق أهلها « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وكانت الأولى من موسى نسيانا " قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فقرق قرة في البحر ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا المصفور من هذا البحر . قال علمائنا : حرف السفينة طرفها وحرف كل شيء طرفه . [ومنه حرف الجبل] وهو أعلاه للمحدد . والعلم هنا بمعنى المعلوم ، كما خال :

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » أى من مملوئاته ، وهذا من الخضر تمثيل ؛ أى معلومات ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله ، كما أن ما أخذ هذا المصغور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر ، وإنما مثل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا ، وإطلاق لفظ النقص هنا يجوز قصد به التمثيل والفهم ، إذ لا نقص في علم الله ، ولا نهاية لمعلوماته . وقد أوضح هذا المعنى البخاري فقال : والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمناره من البحر . وفي « التفسير » عن أبي العالية : لم ير الخضر حين نرق السفينة غير موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه ، ولو رآه القوم لمعنوه من نرق السفينة . وقيل : خرج أهل السفينة إلى جزيرة ، وتختلف الخضر تفرق السفينة . وقال ابن عباس : لما نرق الخضر السفينة تعي موسى ناحية ، وقال في نفسه : ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل ! كنت في بني إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية فيطمعون ! قال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك ؟ قال : نعم . قال : كذا وكذا . قال : صدقت ؛ ذكره التلمي في كتاب « الراس » .

الثانية - في نرق السفينة دليل على أن الولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا ، مثل أن يخاف على ربه ظالما فيخزب بفضله . وقال أبو يوسف : يجوز للولي أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض . وقرا حزة والكسائي « لِيَفْرَقَ » بالياء « أهلها » بالرفع فاعل يفرق ، فاللام على قراءة الجماعة في « لِيَفْرَقَ » لام المآل مثل « لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا » . وعلى قراءة حزة لام كي ، ولم يقل تفرقتي ؛ لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم . و « إِسْرًا » معناه عجبا ؛ قاله الفتي . وقيل : منكرا ؛ قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : الإسر الداهية العظيمة ؛ وأنشد :

قَدْ لَبَّى الْأَفْرَانُ مَتَى نَكْرًا • دَاهِيَةً دَهِيَاءَ إِذَا إِسْرًا

وقال الأخفش : يقال إِسْرَ أَمْرُهُ بِأَمْرٍ [أَمْرًا] إِذَا آتَشَدَّ ، والأمر الإسر .

قوله تعالى : (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) في معناه قولان : إلهاماً - بمعنى من ابن عباس ، قال : هذا من معارض الكلام . والآخر - أنه نسي ما علمه ، فنهى ما به من عل أن النسيان لا يقتضي للمزاخعة ، وما لا يدخل تحت التكليف ، ولا يعلق به حكم طائفة ولا غيره ، وقد تقدم . ولو نسي في الثانية لا حذر .

قوله تعالى : فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي فَنَارَكَ زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَسْطِيعُ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْلَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي فَدَ بَلَّغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) في البخارى قال بطل قال سعيد : وجد غلاما يلعبون فاخذ غلاما كالرا فاصحبه ثم ذبحه بالبكين ، قال أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لم تعمل بالحنث . وفي الصحيحين وصحح الترمذى : ثم حربا من السفينة فيينا هما يشبان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فاخذ الخضر رأسه بيده فأقتله بيده فقتله ، قال له موسى : « أَقْتَلْتَ زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنْ كُنْتُ نَسْطِيعُ مَعِيَ صَبْرًا » قال : وهذه أشد من الأولى . « قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي فَدَ بَلَّغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا » . لفظ البخارى . وفي « التفسير » : إن الخضر مرّ بغلمان يلعبون فاخذ بيده غلاما ليس فيهم أضرا منه ، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمه ، فقتله . قال أبو العالبة : لم يره إلا موسى ، ولو راوه لحالوا بينه وبين الغلام .

(١) لأنها لم تبلغ الحلم ، وهو تصبر لقوله : « زَكِيَّة » أى أقتلت زكيا زكية لم تعمل الحث بغير نفس . ولأبى ذر : لم تعمل الحث (بجاء معجبة وموحدة مفتوحة) . فسطاطى . (٢) حروفيان بن عتبة ، كافي السطاطى . وقيل : كانت هذه أشد من الأولى لما فيها من زيادة « لك » .

قلت : ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة ، فإنه يحتمل أن يكون سمته أؤلا بالبحر ، ثم انجسه فذهب ، ثم أقطع رأسه ، وأنه أعلم بما كان من ذلك ، وحسبك بما جاء في الصحيح .
وقرأ الجمهور : زَاكِيَةً بالالف . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو : زَكِيَّةً بنير ألف وتشدید الياء ، قيل : المعنى واحد ، قاله الكسائي . وقال ثعلب : الزكية أبلغ . قال أبو عمرو : الزاكية التي لم تغيب قط ، والزاكية التي أذنت ثم تابت .

قوله تعالى : « غلاما » أختلف العلماء في الغلام هل كان بالنا أم لا ؟ قال الكلبي : كان بالنا يقطع الطريق بين قريتين ، وأبوه من عذله أهل إحدى القريتين ، وأمه من عذله القرية الأخرى ، فأخذ الخضر فصصره ، وترع رأسه من جسده . قال الكلبي : وأسم الغلام شعون . وقال الضحاك : جيسون . وقال وهب : أسم أبيه سلاسل وأسم أمه رُحَى . وحكى السبيل أن اسم أبيه كازير وأسم أمه سهوى . وقال الجمهور : لم يكن بالنا ، ولذلك قال موسى زَاكِيَةً لم تغيب . وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام ، فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ ، وتقاله الجارية في النساء . وكان الخضر قتله لما علم من سره ، وأنه طبع كافرا كما في صحيح الحديث ، وأنه لو أدرك لأرهم أبويه كفرا . وقتل الصغير غير مستحل إذا أذن الله في ذلك ، فإن الله تعالى الضال لما يريد ، القادر على ما يشاء . وفي كتاب « المرائس » إن موسى لما قال للخضر : « أَقْنَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً » - الآية - غضب الخضر وأقطع كنف الصبي الأيسر ، وقشر اللحم عنه ، وإذا في عظم كنفه مكتوب : كافرا لا يؤمن بالله أبدا . وقد أحتج أهل القول الأول بأن العرب تنق على الشاب أسم الغلام ، ومنه قول لبيد الأحملي :
شَفَاها من الباء الضال الذي بها • غُلام إذا هَرَّ القَفَّةَ سَفَاها
وقال صفوان الحساني .

تَنَقَّى دُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فُلَانِي • غُلامٌ إِنْما هُوَ جِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ

(١) البيت من قصيدة مدحت بها الجاحظ بن يوسف ، وقوله :

إِذا زَلَّ الجاحظ أرضا مريضه • تبسج أقصى دأبها شفاها

(٢) قد كان حسان رضي الله عنه قال شعرا يمرض فيه صفوان بن الحلال وبين أسلم من العرب من مضر ، فاقترنت بين الحلال ومضره بالسيف وقال البيت . (راجع القصة في سيرة ابن هشام) .

وفي الخبر : إن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ، ويحسم لأبويه أنه ما فعل ، فيسبان على قسمه ، ويحيانه من يطلبه ، قالوا وقوله : « يَتَّبِعُ قَتِيلٌ » يقتضى أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس ، وهذا يدل على كبر الغلام ، وإلا فلو كان لم يحتمل لم يجب قتله بنفس ، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا . قال ابن عباس : كان شابا يقطع الطريق . وذهب ابن جرير إلى أنه بلغ سن التكليف لقراءة أبي وأبى عباس . وأما الغلام فكان كافرا وكان أبوه مؤمنا ، والكفر والإيمان من صفات المكلفين ، ولا يطلق على غير مكلف إلا بحكم التبعية لأبويه ، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنس فلا يصدق عليه اسم الكافر إلا بالبلوغ ، تبين أن يصار إليه . والغلام من الأغلام وهو شدة الشُّبُّ .

قوله تعالى : (نَكَرًا) أختلف الناس أيما ألغ « إمرا » أو قوله « نَكَرًا » قالت فرقة : هذا قتلٌ بينٌ ، وهناك مُتَرَقِّبٌ ؛ « نَكَرًا » ألغ . وقالت فرقة : هذا قتلٌ واحدٌ وذلك قتلٌ جماعة ؛ « إمرا » ألغ . قال ابن عطية : وعندى أنهما لمعنيين وقوله : « إِمْرًا » أظنع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و « نَكَرًا » بينٌ في الفساد لأن مكروهه قد وقع ، وهذا بين . قوله : (إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي) شرط وهو لازم ، والمسلمون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يُوقَّ به ما التزمه الأنبياء ، والتزم لأتبياء . وقوله : (قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) يدل على قيام الاعتذار بالمرّة الواحدة مطلقا ، وقيام المجبة من المرّة الثانية بالقطع ؛ قاله ابن العربي . ابن عطية : ويشبه أن تكون هذه القصة أيضا أصلا للأجال في الأحكام التي هي ثلاثة ، وأيام المأثور ثلاثة ؛ فأنمله .

قوله تعالى : « فَلَا تُصَاحِبْنِي » كذا قرأ الجمهور ، أي تنابني . وقرأ الأعرج « تُصَحِّبْنِي » بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرأ « تُصَحِّبْنِي » أي تنبني . وقرأ يعقوب « تُصَحِّبْنِي » بضم التاء وكسر الحاء ، ورواها سهل عن أبي عمرو ؛ قال الكاسي : معناه فلا تتركني أصحبك . « قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » أي بلغت مبلغا تُسخر به في ترك مصاحبتني . وقرأ الجمهور : « مِنْ لَدُنِّي » بضم الدال ، إلا أن ناسا وعاصما خفقا النون ، فهي « لَدَنْ » اتصلت بها ياء

فَلْتَكُنْ لِّي فِي غُلَامِي وَلِرَبِي ، وَكُسر ما قبل الياء كما كُسر في هذه . وقرأ أبو بكر عن ماصم « لَدُنِي » بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون . وروى عن ماصم « لَدُنِي » بضم اللام وسكون الدال ، قال ابن جاعد : وهي غلطه ؛ قال أبو علي : هذا التخليط يشبه أن يكون من جهة الرواية ؛ فأما على قياس العربية فهي صحيحة . وقرأ الجمهور « عُدْرًا » . وقرأ عيسى « عُدْرًا » بضم الدال . وحكى الهادي أن أبا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « عُدْرِي » بكسر الراء وفتح الهمزة .

مسألة - أسد الطبري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه ، فقال يوما : « رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لراى السجب ولكنه قال « فَلَا تُصَلِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » . والذي في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَلَ لراى السجب ولكنه أخذته من صاحبه فقامه ولو صبر لراى السجب » قال : وكان إذا ذَكَرَ أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه : رحمة الله علينا وعلى أحمى كذا . وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يرحم الله موسى لو بدنا أنه صبر حتى قصص علينا من أمرهما » . الدُّمَامَةُ بالنال المعجمة المفتوحة ، وهو بمعنى المذمة بفتح الدال وكسرهما ، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة : يقال أخذتني منك مذمة ومذمة ودُمَامَةٌ . وكأنه أسحبا من تكرار مخالفته ، وما صدر عنه من تظليط الإنكار .

قوله تعالى : فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا أَتَيْتَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِشَأْنِ الْمَآلِ تَسْتَطِعُ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأول - قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَمَلٌ لِّقَوْمٍ) في صحيح مسلم عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لَمَّا ، فطافا في الجبال ذ) (اسْتَطَمَا أَعْلَاهَا فَأَبَوَا أَنْ يَضِيقُوهُمَا قَرَجَدًا فَبَيَّا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَقَطَّعَ) يقول : مائل قال : (فَتَقَامَهُ) الخضر يسهه قال له موسى : قوم أيناهم فلم يضيفونا ، ولم يطمسونا (لَوِثْتُ لَا تَحْتَفَتُ عَلَيْهِ أَجْرًا - قَالَ هَلَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا نَبْتَكَ تَبَاوُلَ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله موسى لو بدئت أنه كان صبر حتى يقص علينا من إظهارها " .

الثانية - واختلف العلماء في القرية ؛ فقيل : هي أبله ؛ قاله قتادة ، وكذلك قال محمد ابن سيرين ، وهي أبل قرية وأبعدنا من المياه . وقيل : أظاكية . وقيل : بحزرة الأندلس ؛ روى ذلك عن أبي هريرة وضعه ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء . وقالت فرقة : هي بآبروان وهي بناحية أذربيجان . وحكى السجستاني : إنها برقة . الثعلبي : هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها تقب النصارى ؛ وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

الثالثة - كان موسى عليه السلام حين سقى لبني شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر ، ولم يسأل قوتا بل سقى آبدهاء ، وفي القرية سالا القوت ؛ وفي ذلك للعلاء انفصالات كثيرة ؛ منها أن موسى كان في حليت مدين منفردا وفي قصة الخضر تبعا لغيره . قلت : وعلى هذا المعنى يخشى قوله في أول الآية لفناء : آتَىٰ غَدَامًا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرًا هَذَا تَعَبًا ، فأصابه الجوع مرعاة لصاحبه يوشع ؛ والله أعلم .

وقيل : لما كان هذا سفر تاديب وكل إلى تكلف المشقة ، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والتصرة بالقوت .

الرابعة - في هذه الآية دليل على سؤال القوت ، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافا لجهل المصوفة . والاستطعام سؤال الطعام ، والمراد به هنا سؤال الضيافة ،

بدليل قوله : « فَأَبْرَأَ أَنْ يَضَيَّقُوهُمَا » فاستحق أهل القرية لذلك أن يموتوا ، ويسبوا إلى القرم والبخل ، كما وصفهم بذلك نينا عليه الصلاة والسلام . قال قتادة في هذه الآية : شر القري التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبل حقه . ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سالا ما وجب لهما من الضيافة ، وهذا هو الائق بهال الأعياء ، ومنصب الفضلاء والأولياء . وقد تقدم القول في الضيافة في «هود» والمجدد . ويقول الله عن الحريري^(١) حيث استخف في هذه الآية وتعجب ، وأتى بخط من القول وزل ، فاستل بها على الكذبة والإلحاح فيها ، وأنك ذلك ليس بمحبب على فاعله ، ولا منقصة عليه ، فقال :

وإِنْ رُدِّدْتَ لَهَا فِي الرَّدِّ مَنَعَةٌ . عَلَيْكَ قَدْرُ دُومِي قَبْلُ وَالْخَيْضَرُ

قلت : وهذا لعب بالدين ، وأنسلل عن احترام التبيين ، وهي شنيئة أدبية ، وهفوة سخائية ، ويرحم الله السلف الصالح ، فلقد بالنوا في وصية كل ذي عقل راجح ، فقالوا : مهما كنت لاحبا بشئ ، فإياك أن تلعب بدينك .

الخامسة - قوله تعالى : « جِدَارًا » الجدار والجدر بمعنى ؛ وفي الخبر : « حتى يبلغ الماء الجدر »^(٢) . ومكان جدير بجى حواليه جدار ، وأصله الرفح . وأجدرت الشجرة طلعت ؛ ومنه الجدرى

السادسة - قوله تعالى : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ » أى قرب أن يسقط ، وهذا مجاز وتوسع وقد فسر في الحديث بقوله : « مائل » فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن ، وهو مذهب الجمهور . وجميع الأفعال التي حجبها أن تكون لشيء الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استمارة ، أى لو كان مكانهما إنسان لكان ممثلا لذلك الفعل ، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير ؛ فمن ذلك قول الأعشى :

(١) راجع ج ٩ ص ٦٤ وما بعدها طية أول أو ثمانية .
(٢) صاحب المقامات المشهورة .
والبيت الذى انتهى له فيه إلى الآية من مقامات « الصمدية » .
(٣) الكعبة : تكلف الناس .
(٤) الحديث في غصنة اوزيريل من الأنصار في سبيل شرح الحجة فقال صلى الله عليه وسلم : « أسقى يا زبير ثم أحبس للماء حتى يريح إلى الجدر » أولاد ما دفع حول الخروسة كالجدر .

أَتَّبِعُونَ وَلَا يَتَّبِعُوهُ شَطَطٌ^(١) . كَالطَّنِّ يَنْعَبُ فِيهِ الرِّثُ وَالْقَتْلُ

فأضاف التهن إلى الطن . ومن ذلك قول الآخر :

يُرِيدُ الرُّحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ . وَيُرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ

وقال آخر :

إِنِّ دَمْرًا يُلْقَى شَمْلًا يُجْمَلُ . زَيْنًا يُسَمُّ بِالْإِحْسَانِ

وقال آخر :

فِي مَهْمَةٍ فُتِّتَ بِهِ هَامَاتُهَا . فَاقَ الْقُنُوسَ إِذَا أُرْدُنُ نُصُولًا

أى ثبوتاً في الأرض ؛ من قولهم : نَقَلَ السِّيفُ إِذَا ثَبَتَ فِي الرِّيمَةِ ؛ فَتَبَّهَ وَقَعَ السِّيفُ

على رموسهم بوقع القنوس في الأرض ، فإن الفاس يقع فيها ويثبت لا يكاد يخرج . وقال

حسان بن ثابت :

لَوْ أَنَّ الْقَوْمَ يُسَبُّ كَانَ عَبْدًا . فَيَحِ الوَجْهَ أَعْوَرَ مِنْ تَقِيْفٍ

وقال عنترة :

فَازَرَوْا مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلَابِهِ . وَشَكَا إِلَى بَصِيرَةٍ وَتَحَمُّمٍ

وقد فسر هذا المعنى بقوله :

• لو كان يتدوى ما المتأوارة أشتكى •

وهذا في هذا المعنى كثير جداً . ومنه قول الناس : إِنِّ دَارِي تَنْظُرُ إِلَى دَارِ فُلَانٍ .

وفي الحديث : " أَشْتَكْتُ النَّارَ إِلَى رَبِّهَا " . ونذهب قوم إلى منع المجاز في القرآن ، منهم

أبو إسحق الإسفراني وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني وغيرهما ، فإن كلام الله عز وجل

وكلام رسوله محمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين ؛ لأنه يقص الحق كما أخبر الله

تعالى في كتابه . ومما احتجوا به أن قالوا : لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجاوز

(١) الشطط : الجور والظلم ؛ يقول : لا يهتدي الظالم عن ظله إلا الطن الجانف الذي يئيب فيه القتل

(٢) أى عترة ، ونظام البيت :

• وَلَكِنَّ لَوْ لَمْ يَكَلِّمْ نَكَلَى •

أيضا ، فإن السدول من الحقيقة إلى المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة ، وهو على الله تعالى محال ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال تعالى : « وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » وقال تعالى : « إِنْ رَأَيْتُمْ مِنْ تَكْبَرٍ فَعَسَى أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْذَلِينَ » وقال تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى » و« أَشْكَبَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا » واحتجبت النار والجنة « وما كان مثلها حقيقة ، وأن خالقها الذي أطلق كل شيء أطلقها . وفي صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم « فَيُحْتَمَّى عَلَى فِيهِ وَيَقَالُ لِقَدْ خَذَهُ أَنْطَقُ فَتَنْطَلِقُ نَفْثُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ لِيُعْزَرَ مِنْ فَسْهِ وَذَلِكَ الْمُنَاقِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ » . هذا في الآخرة . وأما في الدنيا ؛ ففي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكْلِمَ السَّبَاعُ الْإِنْسَ وَحَتَّى تَكْلِمَ الرِّجُلَ صَنْبَةً سَوَطُهُ وَشَرَاكُ نَمَلُهُ وَتُخْبِرَهُ نَفْثُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَيْدِهِ » [قال أبو عيسى] : وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حديث حسن غريب .

السابعة - قوله تعالى : « فَأَقَامَهُ » قيل : هدمه ثم قعد بيديه ، فقال موسى تخضر : « لَوْ شِئْتُ لَأَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا » لأنه فعل يستحق أجرا . وذكر أبو بكر الأنباري عن ابن عباس عن أبي بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « فوجدنا فيها جندارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد بيديه » قال أبو بكر : وهذا الحديث إن صح سنده فهو جار من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن ، وأن بعض الناقلين أدخل [تفسير] قرآن في موضع فسرى أن ذلك قرآن قص من مصحف عثمان ؛ على ما قاله بعض الطاعنين . وقال سعيد بن جبير : مسح بيده وأقامه فقام ، وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء . وفي بعض الأخبار : إن سُكِنَ ذَلِكَ الْحَاظُ كَانَ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ ذَلِكَ الْقَرْنِ ، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعًا ، فأقامه الخضر

(١) ليندر : بالياء للفاعل من الإظهار ، والمعنى : ليزيل الله طوره من قبل نفسه .

(٢) الزيادة من صحيح الترمذي - (٣) زيادة يقتضها السياق - وفي الأصل : « أدخل قرآنًا - الخ »

عليه السلام أى سواء بيده فاستقام، قاله الضحلي فى كتاب «المرائس» . قَالَ موسى هُضِرَ
«لَوْ شِئْتَ لَأَكْمَحْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا» أى طعاما تأكله، قى هذا دليل على كرامات الأولياء،
وكذلك ما وصف من أحوال الحضرة عليه السلام فى هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة، هذا
إنما نزلنا على أنه أولى للاحق.

وقوله تعالى: «وَمَا أَفْعَلُ عَنْ أَمْرِي» يدل على نبوته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام،
كما أوحى للأحياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول، والله أعلم .

الثامنة - واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه،
بل يسرع فى المشى إذا كان مارا عليه؛ لأن فى حديث النبي عليه الصلاة والسلام «إذا مرَّ
أحدكم بطريق مائل فليُسِرِعِ المشى» . قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كان أبو عبيدة يقول: «
الطَّرِيبُ شَيْءٌ بِالْمَنْظَرَةِ مِنْ مَنَاطِرِ الْجَمِّ كَهَيْئَةِ الصُّومَةِ؛ وَالْبَيْتُ الْمَرْتَضِعُ؛ قَالَ جَرِيرٌ:

أَلْوَى بِهَا شَذَبُ الرُّوقِ مُشْدَبٌ^(١) . فَكَأَنَّمَا وَصَّكَتَ عَلَى طَرِيبٍ^(٢)

يقال منه: وَكَئِنْ يَكُنْ إِذَا جَلَسَ . وفى الصحاح: الطَّرِيبُ القِطْعَةُ الْعَالِيَةُ مِنَ الْجِدَارِ،
وَالصَّخْرَةُ الْعَظِيمَةُ الْمَشْرِقَةُ مِنَ الْجَبَلِ، وَطَرَايِلُ الشَّامِ صَوَامِعُهَا . ويقال: طَرِبِلَ بَوْلُهُ إِذَا
مَتَّهَ إِلَى فَوْقَ .

التاسعة - كرامات الأولياء ثابتة، على ما دلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة،
ولا يتكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الخائذ؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم
من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء - على ما تقدم - وما ظهر
على يدها حيث أمرت النحلة وكانت يابسة فأتمرت، وهى ليست بنبية؛ على اختلاف .
ويدل عليها ما ظهر على يد الحضرة عليه السلام من نرق السفينة، وقتل الثيلام، وإقامة
الجدار . قال بعض العلماء: ولا يجوز أن يقال كان نيا؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار

(١) ألوى: ذهب بها حيث أراد .

(٢) فكلب المرقع: ظاهرا المرقعة تعلق بهم، من قولهم مرقع مثل أى عفيف قليل العلم .

للأحد عاصيا وقد روى من طريق التواتر - من غير أن يحتل تأويلا - بإجماع الأمة قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نبي بعدى» وقال تعالى: «وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ» والخضر و[إلياس] جميعا باقيان مع هذه الكلمة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبي، إلا ما قامت الدلالة في حديث عيسى أنه يقتل بعده .

قلت : الخضر كان نيا - على ما تقدم - وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبي، أى يدعى النبوة بعده أبدا، والله أعلم .

المباشرة - اختطف الناس هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي أم لا؟ على قولين : أحدهما - أنه لا يجوز؛ وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكرًا واستدراجا له؛ وقد حكى عن السري أنه كان يقول : لو أن رجلا دخل بيتنا فكله من رأس كل شجرة طير لسان فصيح : السلام عليك يا ولي الله؛ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرًا لكان ممكورا به؛ ولأنه لو علم أنه ولي لزال عنه الخوف، وحصل له الأمن . ومن شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تنتزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل : «تَنْتَزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا» ولأن الولي من كان محتوما له بالسعادة، والمواقب مستورة ولا يدرى أحد ما يحتم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : «إنما الأعمال بالخطوات» .

القول الثاني - أنه يجوز للولي أن يعلم أنه ولي؛ ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولي، ولا خلاف أنه يجوز لقبه أن يعلم أنه ولي الله تعالى، بخلافه أن يعلم ذلك . وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام من حال العشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن في ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما له سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وحيية؛ فلذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم . وكان الشليل يقول : أنا أمان هذا الجانب؛ فلما مات ودفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، وأستولوا على بغداد، ويقول الناس : مصيبتان موت الشليل وجسر الديلم . ولا يقال : إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجا لأنه

لوجاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبي وولي الله، لجواز أن يكون ذلك استدراجاً، فلما لم يجر ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجر هذا، لأن فيه إبطال الكرامات . وما روى من ظهور الكرامات على يدي بلعام وأتسلخه عن الدين بملها لقوله : « فأنسلخ منها » فليس في الآية أنه كان ولياً ثم أنسلخت عنه الولاية . وما قل أنه ظهر على يديه ما يجري مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم ؛ والله أعلم . والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار . وقيل : الكرامة ما تظهر من غير دعوى ، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك . وقد تقدم في مقدمة الكتاب شرائط المعجزة ، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له . وأما الأحاديث الواردة في الدلالة على ثبوت الكرامات ، فمن ذلك ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عتياً وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري وهو جند عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأنطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهي بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فغفروا إليهم قريبا من مائتي راجل كلهم رام، فاقصصوا آثارهم حتى وجدوا ما كلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا : هذا تمر يرب ، فأقصصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه جلسوا إلى فدفد، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم : أنزلوا فاعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا تقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية : أما فؤاد لا أنزل اليوم في ذمة الكافر، اللهم أخبر عاتيك، فرموا بالنبل فقتلوا عاصم في سبعة، فقتل إليهم ثلاثة رهط بالمهد والميثاق، وهم خبيب الأنصاري وآبن الدثنة ورجل آخر، فلما أسمعوا منهم أطلقوا أوتار قسمهم فأوتقوهم، فقال الرجل الثالث : هذا أول القدر ! والله لا أصحبكم - إن لي في هؤلاء لأشوة - يريد القتل - بجزوه وطبلوه على أنف يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ؛ فأنطلقوا بخبيب وآبن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فباع خبيبا بنو الحرث بن عاصم بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذي قتل الحرث بن

(١) وقيل : أمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الثقفي . (٢) قال القسطلاني : هنا وهم ؛ وإنما مرخا عاصم ، لأن أم عاصم جيلة بنت ثابت . (٣) فدفد : راية مشقة . (٤) الرجل الأكرم عهد الله بين يديه .

عاصم يوم بدر، قُتِلَ خَيْبٌ عَنْهُمْ أَسِيرًا؛ فَأَخْبَرَ عِيْسَى ابْنُ مِيَاضٍ أَنَّ بِنْتَ الْحَرِثِ أَخْبَرَتْهُمْ أَنَّهُمْ حِينَ أَجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَعِيذُ بِهَا فَأَمَارَتُهُ، فَأَخَذَ ابْنُ لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، قَالَتْ: فَوَجَدْتُهُ جُلِسَ عَلَى عِثْرَةِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، فَفَزَعْتُ فَرَسَهُ مِنْهَا خَيْبٌ فِي وَجْهِهِ؛ فَكَلَّمَ: أَتَشْكِنِينَ أَنْ أَتِلَّكَ؟ مَا كُنْتُ لِأَقْضِلَ ذَلِكَ. قَالَتْ: وَأَنَّهُ مَارَايْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خَيْبٍ؛ وَأَنَّهُ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفَ عِنَبٍ فِي يَدِهِ، وَأَنَّهُ لَمُوتِي بِالْمَسِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ؛ وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرَزَقَ رِزْقَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرِيَا؛ فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي اللَّحْلِ قَالَتْ لَمْ خَيْبٌ: دَعَوْنِي أَرْكَبُ رَكْبَتَيْنِ؛ فَدَرَكُوهُ فَرَمَحَ رَكْبَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَقْنُوا لَأَنَا بِإِجْرَاجٍ مِنَ الْمَوْتِ لَوَدِدْتُ؛ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِيْهُمْ عِدْدًا، وَأَقْتُلْهُمْ بَدَأًا، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا؛ ثُمَّ قَالَ:

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أَقْتُلُ سُلَيْمًا • عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَهْ مَضَرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَسَأُ • يَبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ سِلْوِي مُمَزَّجٌ

قَتَلَهُ بَنُو الْحَرِثِ، وَكَانَ خَيْبٌ هُوَ الَّذِي سَنَّ الرُّكْبَتَيْنِ لِكُلِّ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٌ قُتِلَ صَبْرًا؛ فَأَسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِ يَوْمٍ أَصِيبَ؛ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَصْحَابَهُ خَبْرَهُمْ وَمَا أَصَابُوا. وَبِئْسَ نَاسٌ مَنْ كَفَلُوا قُرَيْشَ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حَدَّثُوا أَنَّهُ قَتَلَ لِيُوتُوا بَنِيَّ عَنْهُ يَرْفَعُونَهُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عَظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبِئْسَ اللَّهُ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الذُّبْرِ خَمْتُهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعُوا مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ حِينَ قُتِلَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَرَادُوا رَأْسَهُ لِيُبْعُوهُ مِنْ سُلَاقَةِ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ شَيْبَةَ، وَقَدْ كَانَتْ نَزَلَتْ حِينَ أَصَابَ أَبْنِيَا بَأْهَدَ ثَلَاثَ قَدَرَاتٍ عَلَى رَأْسِهِ لَتَشْرَبَنَّ فِي خَيْفَةِ الْخَمْرِ فَتَمْتَهُمُ الذُّبُرُ، فَلَمَّا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قَالُوا: دَعُوهُ حَتَّى يُعْمِيَ فَتَذْهَبَ عَنْهُ فَأَخَذَهُ، فَبِئْسَ اللَّهُ تَعَالَى الْوَادِي فَاحْتَمَلَ صَاحِبًا فَتَذْهَبَ، وَقَدْ كَانَ عَاصِمٌ أَعْطَى اللَّهُ تَعَالَى عَهْدًا أَلَّا يَمَسَّ مُشْرِكًا وَلَا يَمَسَّ مُشْرِكَةً أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ، فَتَمَّ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ وَفَائِهِ مَا آمَنَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ. وَعَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمَرِيُّ:

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم به عينا وحده قال : جئت إلى خشبة خيب فرقيت فيها وأنا أتنوف العيون فأطلقته ، فوقع في الأرض ، ثم أقعصت فأتيت قليلا ، ثم ألفت فكأنما ابتلعت الأرض . وفي رواية أخرى زيادة : فلم تذكر غيب وثمة حتى الساعة ، ذكره الشيخ . الحادية عشرة — ولا ينكر أن يكون الولي مال وضيعة يصون بها ماله وبهاله ، وحسبه بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم ، وهم المجهة على خيرهم . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل بسلامة من الأرض فسمع صوة في صحابة أسنى حديقة فلان فتعنى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فلانا شجرة من تلك الشراج قد استوجبت ذلك الماء كله فتعج الماء فلانا رجل قائم في حديثه يقول الماء بمسماة قال يا عبد الله ما أسمك قال فلان الاسم الذي سمعته في الصحابة فقال له يا عبد الله لم سألني من أسنى قال إني سمعت صوة في السحاب الذي هنا مأثوه يقول أسنى حديقة فلان لاسمك لما نصنع فيها قال أنا إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأصدق بكته وأكل أنا وعبادتنا وأرد فيها ثمنه " وفي رواية " وأجعل ثمنه في المساكين والساكنين وآبن السبل " .

قلت : وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تقضوا الضيعة فتركوا إلى الدنيا " ترجمه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن ؛ فإنه يحمل على من اتخذها مستكبرا أو متعيا ومتمتعا بزهرتها ، وأما من اتخذها مائتا يصون بها دينه وبهاله فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهي من أفضل الأموال ؛ قال عليه الصلاة والسلام : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " . وقد أكثر الناس في كرامات الأولياء وما ذكرناه فيه كفاية ؛ والله الموفق للهداية .

الثانية عشرة — قوله تعالى : " لَا تَحْمِلْ عَلَيْهِ أَثِمًا " فيه دليل على صحة جواز الإجارة ، وهي سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانه في سورة " القصص " ^(١) إن شاء الله تعالى . وقرأ الجمهور " لَا تَحْمِلْ " وأبو عمرو " تَحْمِلْ " وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقائدة ، وهما

(١) حرة : أرض ذات حجارة سود . والشجرة : طريق الماء وسيله . (٢) المساة : الهجرة من المهد .

(٣) في تفسيره تعالى : " قلت لعلها ما أثبت أسطره ... الخ " كذا .

لَتَنَانٍ بِمَعْنَى وَاحِدٍ مِنَ الْأَخْذِ، مِثْلُ قَوْلِكَ : تَجْعَلُ وَأَتَجْعَلُ، وَتَقِي وَأَتَقِي. وَأَدْعِمُ بَعْضَ الْقِرَاءَةِ النَّالِ فِي النَّاءِ، وَلَمْ يَدْعِمَهَا بَعْضُهُمْ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ : لَوْ شِئْتُ لَأَوْتَيْتُ أَجْرًا. وَهَذِهِ صَدَرَتْ مِنْ مُوسَى سُؤَالًا عَلَى جِهَةِ الْعَرَضِ لَا الْإِعْزَاضِ، فَصَدَّكَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ : « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » بِحُكْمِ مَا شَرَطْتَ عَلَى نَفْسِكَ. وَتَكَرَّرَ « بَيْنِي وَبَيْنَكَ » وَعُدُولُهُ عَنْ بَيْنِنَا لِمَعْنَى التَّكِيدِ. قَالَ صَيُوبٌ : « كَمَا يَقَالُ أُخْرَى اللَّهُ الْكَاذِبُ مِنِّي وَمِنْكَ لِي أَيْ مَنَّا ». وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَكَانَ قَوْلُ مُوسَى فِي السَّفِينَةِ وَالْفُلَامِ اللَّهُ، وَكَانَ قَوْلُهُ فِي الْجِدَارِ لِنَفْسِهِ لَطَبٌ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، فَكَانَ سَبَبَ الْفِرَاقِ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهٍ : كَانَ ذَلِكَ الْجِدَارُ جِدَارًا طَوِيلَهُ فِي الْمَسَافَةِ ذِرَاعًا.

الثالثة عشرة - قوله تعالى : « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » تَأْوِيلُ الشَّيْءِ مَالُهُ ، أَيْ قَالَ لَهُ : إِنْ أَخْبَرْتُكَ لَمْ فَطْتُ مَا فَطْتُ . وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ لِمُوسَى مَعَ الْخَضِرِ : إِنَّمَا تَجَسَّأَ عَلَى مُوسَى ، وَغَيَّيَا لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَنْكَرَ أَمْرَ نَرَقِ السَّفِينَةِ نَوْدَى : يَا مُوسَى أَيْنَ كَانَ تَدِيرُكَ هَذَا وَأَنْتَ فِي التَّابُوتِ مَطْرُوحًا فِي الْيَمِّ ! فَلَمَّا أَنْكَرَ أَمْرَ الْفُلَامِ قِيلَ لَهُ : أَيْنَ إِنْكَارُكَ هَذَا مِنْ وَكْرِكَ الْقَبْطِيِّ وَقَضَائِكَ عَلَيْهِ ! فَلَمَّا أَنْكَرَ إِقَامَةَ الْجِدَارِ نَوْدَى : أَيْنَ هَذَا مِنْ رَفْعِكَ حِجْرِ الْبَرِّيَّاتِ شَعِيبَ دُونَ أَجْرٍ !

قوله تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » ٧٨ وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٧٩ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨٠ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٨١

قوله تعالى : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) استدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالا من الفقير ، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة « برأءة » .
وقد قيل : إنهم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قلة في لجة بحر ، وبجمل ضعف عن مداغة خطب عبرتهم بمساكين ؛ إذ هم في حالة يُسَقِّق عليهم بسببها ، وهذا كما تقول لرجل غنى وقع في وهلة أو غطب : مسكين . وقال كعب وغيره : كانت لعشرة إخوة من المساكين وروثها من أبيهم ؛ خمسة زنتى ، وخمسة يعملون في البحر . وقيل : كانوا سبعة لكل واحد منهم زمانة ليست بالانحر . وقد ذكر النقاش أسماهم ؛ فاما المال منهم فأحدهم كان مجنونا ، والثاني أعور ، والثالث أصرج ، والرابع أقر ، والخامس مجنونا لا يتقطع عنه الحى الدهر كله وهو أصفرهم ، والخمسة الذين لا يطبقون العمل : أعمى وأصم وأخرس ومقعده وجنون ، وكان البحر الذى يعملون فيه ما بين فارس والروم ؛ ذكره التلميذ . وقرأت فرقة : « لِمَسَاكِينَ » بتشديد السين ، وأخطف في ذلك قيل : هم ملاحو السفينة ، وذلك أن المساك هو الذى يمسك رجل السفينة ، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مساكين . وقالت فرقة : أراد بالمساكين دبة المسوك وهى الجلود واحدها مسك . والأظهر قراءة « مساكين » بالتخفيف جمع مسكين ، وإن منها : إن السفينة لقوم ضعفاء يبنى أن يسقى عليهم . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَرَادَتْ أَنْ أُعْيَا) أى أجلها ذات عيب ، يقال : عيت الشيء فخاب إذا صار ذا عيب ، فهو ميب وعائب . وقوله ، (وَكَانَ وَرَاعَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ غَضَبًا) قرأ ابن عباس وابن جرير « صحيفة » وقرأ أيضا ابن عباس وعثمان بن عفان « صالحة » . و « وراه » أصلها بمعنى خلف ؛ قال بعض المفسرين : إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه . والأكثر على أن معنى « وراه » هنا أمام ؛ يصدده قراءة ابن عباس وابن جرير « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ صَحِيفَةٍ غَضَبًا » . قال ابن عطية : « وراعه » هو عندى على بابي ؛ وذلك

أن هذه الأقطار إنما تحيى مراعى بها الزمان ، وذلك أن الحديث المتقدم الموجود هو الإمام ،
والذى يأتى بعده هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بآدى الرأى ، وتأمل هذه
الأقطار فى مواضعها حيث وردت تجملها تطرد ، فهذه الآية معناها : إن هؤلاء وعلمهم
وسمعهم يأتى بعده فى الزمان غصب هذا الملك ؛ ومن قرأ « أمامهم » أراد فى المكان ، أى كأنهم
يسيرون^(١) لى بده ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الصلاة إمامك^(٢) » يريد فى المكان ،
وإلا فكونهم فى ذلك الوقت كان أمام الصلاة فى الزمان ؛ وتأمل هذه المقالة فلنأى مريحة من
شخب هذه الأقطار ؛ ووقع لقادة فى كتاب الطبرى « وكان وراعهام ملك » قال قتادة : أمامهم
الآتراء يقول : « من « ورائهم جهنم » وهى بين أيديهم ؛ وهذا القول غير مستقيم ، وهذه هى
المعجزة التى كان الحسن بن أبى الحسن يضح منها ؛ قاله الزجاج .

قلت : وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه فى ذلك آبن عرفة ؛ قال المروى قال آبن
عرفة : يقول القائل كيف قال « من ورائه » وهى أمامه ؟ فزعم أبو عبيد وأبو على قُطْرُب
أن هذا من الأضداد ، وأن وراء فى معنى قدام ، وهذا غير محصل ؛ لأن أمام ضد وراء ،
وإنما يصلح هذا فى الأوقات ، كقولك للرجل إذا وعد وعدا فى رجب لرمضان ثم قال :
ومن ورائك شعبان لحاز وإن كان أمامه ، لأنه يخلفه إلى وقت وعده ؛ وأشار إلى هذا القول
أيضا القشبرى وقال : إنما يقال هذا فى الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراعه ؛ قال
الفراء : وجوزة غيره ؛ والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عيب
السفينة ؛ وذكره الزجاج . وقال الماوردى : أختلف أهل العربية فى استعمال وراء موضع
أمام على ثلاثة أقوال : أحدها — يجوز استعمالها بكل حال وفى كل مكان وهو من الأضداد
قال الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ » أى من أمامهم ؛ وقال الشاعر^(٣) :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ تَسْمِي وَطَاعَتِي • وَقَوْمِي تَسْمِي وَالصَّلَاةُ وَرَائِيَا

(١) الحديث فى الجمع بين المغرب والعشاء بالزققة .

(٢) هو سوار بن المضرب .

يعنى أمانى . والشافى - أن وراءه تستعمل فى موضع إمام فى المواقيت والأزمان لأن
 الإنسان يحسورها فتصير وراءه ولا يجوز فى غيرها . الثالث - أنه يحسوز فى الأجسام التى
 لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيرها ؛ وهذا قول على بن
 عيسى . واختلف فى اسم هذا الملك فقيل : هُدَد بن بُدَد . وقيل : الجَلْدَى ؛ وقاله
 السهيلي . وذكر البخارى اسم الملك الآخذ لكل سفينة غصبا فقال : هو [هُدَد بن بُدَد والغلام
 المقتول] اسمه جيسور ، وهكذا قيدناه فى « الجامع » من رواية يزيد المروزي ، وفى غير هذه
 الرواية جيسور بالجاء ، وعندى فى حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهى حيسون . وكان يأخذ كل
 سفينة جيدة غصبا فذلك عابها الخضر وخرقها ؛ ففى هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق
 وجهها ، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه ، وقد تقدم . وفى صحيح مسلم وجه الحكمة
 بخرق السفينة وذلك قوله : فإذا جاء الذى يسخرها وجدها متخرقة فجاوزها ، فأصلحها
 بخشبة ؛ الحديث . وتحصل من هذا الحصى على الصبر فى الشدائد ، فكأن فى ضمن ذلك المكروه
 من الفوائد ، وهذا معنى قوله : « وَصَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »

قوله تعالى : (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) جاء فى صحيح الحديث : " أنه طُبع
 يوم طُبع كافرًا " وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً ؛
 وقد تقدم .

قوله تعالى : (تَخَشَّيْنَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا) قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام ، وهو الذى
 يشهد له سياق الكلام ، وهو قول كثير من المفسرين ؛ أى خفا أن يرهبهما طغياناً وكفراً ،
 وكان الله قد أباح له الاجتهاد فى قتل العوس على هذه الجهة . وقيل : هو من كلام الله تعالى
 وعنه عبر الخضر ؛ قال الطبري : معناه ضلنا ؛ وكذا قال ابن عباس أى ضلنا ، وهذا كما كنى
 عن العلم بالخوف فى قوله : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقَيِّمَا حَدُودَ اللَّهِ » . وحكى أن أياً قرأ « فَسَلِمَ
 رِبْكَ » . وقيل : الخشية بمعنى الكراهة ؛ يقال : فرقت بينهما خشية أن يقتلأ ؛ أى كراهة

فذلك . قال ابن عطية : والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها استعارة ، أى على طن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرحمن للأبوين . وقرأ ابن مسعود « تخلف ربك » وهذا بين فى الاستعارة ، وهذا نظير ما وقع فى القرآن فى جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما فى هذا كله من ترج وتوقع وخوف وخشية إنما هو بصحكم أيها المخاطبون . و « يرفعهما » يحشهما ويكفهما ، والمعنى أن يلقيهما حبه فى أتباعه فيضلاً ويتبعها بدنه .

قوله تعالى : (فَارَدَّ أَنْ يُبَدِّلَهَا رَبُّهَا) قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال . وقرأ عاصم بسكون الباء وتحفيف الدال ، أى أن يرزقهما الله ولنا . (خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً) أى ديناً وصلاًحاً ، يقال : يذل وأيدل مثل مهل وأمهل وتزل وأتزل . (وَأَقْرَبَ رَحْمًا) قرأ ابن عباس « رَحْمًا » بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جارية • ومنها القين والرحم

الباقون بسكونها ، ومه قول رؤبة بن العجاج :

يا مَنَزَّلَ الرَّحْمِ عَلَى إِدْرِيسَ • وَمَنَزَّلَ الثَّمَنِ عَلَى إِبِلَسَ

وآختلف عن أبى عمرو . و « رحماً » معطوف على « زكاة » أى رحمة ، يقال : رحمه رحمة ورحماً ، وألفه للتانيث ، ومذكره رَحْمٌ . وقيل : الرَّحْمُ هنا بمعنى الرَّحِم ، قرأها ابن عباس « وَأَوَّصَلَ رَحْمًا » أى رَحِمًا ، وقرأ أيضاً « أَزَكِي مَنَّهُ » . وعن ابن جبر وأبن جريح أنها بدلًا جارية ، قال الكلبي مَرَّوَجُهَا نَحْيٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَوَلَدَتْ لَهُ نَبِيًّا فَهَدَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ أُمَّةً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . قتادة : ولدت آخى عشر نيا . وعن ابن جريح أيضاً أن أم الفلام يوم قل كانت حاملاً بخلام مسلم وكان المقتول كافراً . وعن ابن عباس : فولدت جارية ولدت نيا ، وفى رواية : أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نيا ، وقاله جعفر بن محمد عن أبيه ، قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تصرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل ، وهذه المرأة لم تكن فيهم ، ويستغاد من هذه الآية تهوين المصائب بقصد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكلد ، ومن سلم للقضاء

أسفرت عاقبته من اليد البيضاء . قال قتادة : لقد فرح به أبوه حين ولد وحزننا عليه حين قُتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فالواجب على كل أمرئ الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله للؤمن نيا يكره خيره له من قضائه له فيما يجب .

قوله تعالى : (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِثُلَاثَيْنِ) هذان الثلثان صخران بقرينة وصفهما باليتم ، واسمهما أصرم وصريم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : " لا يتم بعد بلوغ " هذا هو الظاهر . وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتيم بعد البلوغ إن كانا يتيمين ، على معنى الشفقة عليهما . وقد تقدم أن اليتيم في الناس من قبل فقد الأب ؛ وفي غيرهم من الحيوان من قبل فقد الأم . ودل قوله : « في المدينة » على أن القرية تسمى مدينة ؛ ومنه الحديث " أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ " وفي حديث الهجرة " لمن أنت " قال الرجل : من أهل المدينة ؛ يعني مكة .

قوله تعالى : (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) اختلف الناس في الكنز ؛ فقال عكرمة وقتادة : كان مالا جسيما وهو الظاهر من اسم الكنز إذ هو في اللغة المال المجموع ؛ وقد مضى القول فيه . وقال ابن عباس : كان عليهما في صحف مدفونة . وعنه أيضا قال : كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يضل ، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتهلها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وروى نحوه عن عكرمة وعمر مولى عُقْرَةَ ، ورواه عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دينية . وقيل : هو الأب الساج ؛ قاله جعفر بن محمد . وقيل : الماشر حفظا فيه وإن لم يذكر بصلاح ؛ وكان يسمى كاشعا ؛ قاله مقاتل . وأسم أمهما دنيا ؛ ذكره القشاش . فقيه ما يدل على أن الله تعالى

(١) راجع ج ٢ ص ١٤ طبة ثانية . (٢) القرية هي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسمى أكلها القرى ما يفتح على أي أهلها من المدن ، ويصيون من عائلها . (٣) راجع ج ٨ ص ١٢٢ طبة أول أو ثانية . (٤) دنية : لها ، وهو الأب الأقرب . (٥) في روح المعاني : دنها .

يَحْفَظُ الصَّالِحُ فِي نَفْسِهِ وَلِي وَلَهُ وَإِنْ بَدَلُوا عَنْهُ . وَقَدْ رَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ الصَّالِحَ فِي سَبْعَةٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ؛ وَعَلَى هَذَا يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : (وَمَا فَتَنَّا عَنْ أَهْلِ) يَفْتَنِي أَهْلَ الْخَضِرَى ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ فِي ذَلِكَ . (ذَلِكَ تَأْوِيلُ) أَيْ تَخْصِيرُ . (مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) قِيَلَتْ فِرْقَةٌ « تَسْطِيعُ » . وَقَرَأَ الْجَاهِلُونَ « تَسْطِيعُ » قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : كَذَا قَرَأَ كَمَا فِي خَطِّ الْمَصْحُفِ . وَهَذَا خَمْسُ مَسَائِلَ :
الْأُولَى - إِنْ قَالَ قَائِلٌ لَمْ يَسْمَعْ لِقَى مُوسَى ذَكَرَ فِي أَوَّلِ آيَةِ وَلَا فِي آخِرِهَا ، قِيلَ لَهُ : أَخْطَفَ فِي ذَلِكَ ؛ فَظَالٌ عَمْرُؤُا لِابْنِ عَبَّاسٍ ؛ لَمْ يَسْمَعْ لِقَى مُوسَى بِذِكْرٍ وَقَدْ كَانَ مَعَهُ ؟ فَقَالَ : شَرِبَ الْبَقِيَّةَ مِنَ الْمَاءِ نَحْنُ ، وَأَخَذَهُ الْعَالَمُ فَطَبَّقَ عَلَيْهِ سَفِينَةً ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَإِنَّمَا تَسْجُجُ بِهِ فِيهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَشْرِبَ مِنْهُ فَشَرِبَ مِنْهُ . قَالَ الْقَشِيرِيُّ : وَهَذَا إِنْ ثَبَتَ فَلَيْسَ الْبَقِيَّةُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ ؛ فَإِنْ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ قَدْ عَمَّرَ بَعْدَ مُوسَى وَكَانَ خَلِيفَتَهُ ؛ وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مُوسَى صَرَفَ قَاهُ لِمَا لَقِيَ الْخَضِرَ . وَقَالَ شَيْخُنَا الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ بِذِكْرِ التَّجْوِيعِ عَنِ النَّجَاحِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الثَّانِيَّةُ - إِنْ قَالَ قَائِلٌ : كَيْفَ أَضَافَ الْخَضِرَ قِصَّةَ اسْتِخْرَاجِ كَثَرِ الْغُلَامِينَ لَهُ تَعَالَى ، وَقَالَ فِي خَرَقِ السَّفِينَةِ : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » فَأَضَافَ الْعِيبَ إِلَى نَفْسِهِ ؟ قِيلَ لَهُ : إِنَّمَا اسْتَدَّ الْإِرَادَةَ فِي الْحَدِيثِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهَا فِي أَسْرَ مَسَائِفٍ فِي زَمَنِ طَوِيلٍ غِيبٍ مِنَ الْغُيُوبِ ، فَحَسَنَ إِفْرَادُ هَذَا الْمَوْضِعِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ الْخَضِرُ قَدْ أَرَادَ ذَلِكَ فَالَّذِي أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرِيدَهُ . وَقِيلَ : لِمَا كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا كُلَّهُ أَضَافَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَضَافَ عِيبَ السَّفِينَةِ إِلَى نَفْسِهِ رِعَايَةً لِلْأَدَبِ ، لِأَنَّهَا لَفْظَةٌ عِيبٌ ، فَتَادَبَ بِأَنْ لَمْ يَسْتَدِ الْإِرَادَةَ فِيهَا إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ ، كَمَا تَادَبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ : « وَإِنَّا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » فَاسْتَدَّ الْفِعْلَ قَبْلَ وَبَعْدَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَاسْتَدَّ إِلَى نَفْسِهِ الْمَرَضَ ، إِذْ هُوَ مَعْنَى قَصَصٍ وَمَعْصِيَةٍ ، فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ سِجَّاتُهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأَفْظَانِ إِلَّا مَا يَسْتَحْسِنُ مِنْهَا دُونَ مَا يَسْتَجِيعُ ، وَهَذَا كَمَا

قل تالله هبلك لتسير بواضع عليه فلم يعب الشرايع لم يكن يفتخر بهم فليعلموا قدر الله
والضعف، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خير . ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام
عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم مرحتك لم تكن تكلمت بك لم تكن
تطعنني وأنت صديقتك لم تقضي » فإن ذلك تزلزل في الخطاب، وتطلف في التائب، مقصده
التعريف بفضل نبي الجلال، وبمقاصير ثواب هذه الأعمال . وقد تقدم هذا للمضي . والله
تعالى أعلم . وقد تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا تطلق نحن إلا ما أذن لنا به من
الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة . جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا . وقال
في التلام : « فاردنا » فكانه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى . والأشد كمال
الخلق والمقل . وقد مضى الكلام فيه في « الأنعام » والحمد لله .

الثالثة — قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك
طريق يلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها
على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل
إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يطلب عليهم من خواطرم . وقالوا :
وذلك لصفاة قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق
الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستفنون بها عن أحكام
الشرائع الكليات، كما اتفق فخره، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى
من تلك القهوم . وقد جاء فيما يقولون : استفت قلبك وإن أتاك المفتون . قال شيخنا
رضي الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من
الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأتخذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله
السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه، الميئون شرائعه وأحكامه؛ آخرهم
لذلك، وخصمهم بما هناك؛ كما قال تعالى : « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس »

إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ صَبْرًا . وقال تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَحْمِلُ رِسَالَهُ » وقال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري ، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي واجبة إلى أمره وسببه ، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر ، يُقتل ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ، ثم هو قول يؤثمت أنبياء بهد نبينا عليه الصلاة والسلام ، الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبى بعده ولا رسول . وبين ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وإن ما يقع فيه حكم الله تعالى ، وأنه يعمل بمقتضاه ، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام : « إِنْ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْحِي » الحديث .

الرابعة - ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : حتى لأنه شرب من عين الحياة ، وأنه باق في الأرض ، وأنه يحج البيت . قال ابن عطية : وقد أظنبت النقاش في هذا المعنى ، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره ، وكلها لا تقوم على ساق . ولو كان الخضر عليه السلام حيا يصح لكان له في ملة الإسلام ظهور ؛ والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ريب فيه . ومما يقضى بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام : « أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مِنْهُ يَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ » .

قلت : إلى هذا ذهب البخاري وأخذه القاضى أبو بكر بن العربي ، والصحيح القول الثانى وهو أنه حتى على ما ذكره . والحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلم قام فقال : « أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِمَّا لَا يَبْقَى مِنْهُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ »

(١) في الأصل : « رسالته » ومعنى قراءة ما نفع إلى كان يقرأ بها الصبر .

قال ابن عمر: ^(١) قول للناس في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة؛ وإنما قال عليه الصلاة والسلام: "لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد" يريد بذلك أن يتغير ذلك القرن. ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر: "تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس متفوسة ^(٢) تأتي طيبا مائة سنة" وفي أخرى قال سالم: تذاكرنا أنها "هي مخلوقة يومئذ". وفي أخرى: "ما من نفس متفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ". وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال: تقص العمر. وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث. قال علياؤنا: وحاصل ما تضمنته هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بني آدم موجودا في ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: "ما من نفس متفوسة" وهذا اللفظ لا يتناول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: "من هو على ظهر الأرض أحد" وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل، فنعين أن المراد بنو آدم. وقد بين ابن عمر هذا المعنى؛ فقال: يريد بذلك أن يتغير ذلك القرن. ولا حجة لمن استدلل به على بطلان قول من يقول: إن الخضر حي لموم قوله: "ما من نفس متفوسة" لأن العموم وإن كان مؤكدا للاستفراق فليس نصا فيه، بل هو قابل للتخصيص، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حي. بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه حي بذليل حديث الجساسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وإيس مشاهدا للناس، ولا ممن يخاطبهم حتى ينظر بهم حالة غاطلة بعضهم بعضا، فقتل هذا العموم لا يتناوله. وقد قيل: إن أصحاب الكهف أحياء

(١) وهل إلى التي كسب؛ أي غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب، والمعنى أن الصعابة رضى الله عنهم فظفروا وذهب بهمهم إلى خلاف الصواب في تأويل مقالة النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول: تقوم الساعة عند أفضاء مائة سنة؛ فيبين ابن عمر مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: يريد بذلك أن. ثم ذلك القرن. ويجوز وهل كسب. (٢) متفوسة: مولودة. (٣) الجساسة: دابة الأرض التي تخرج أكثر الزمان، وصيحت جسامتها لتجسسها الأغيار للدجال.

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما تقدم . وكذلك قى موسى في قول ابن عباس
 كما ذكرنا . وقد ذكر أبو إسحق الثعلبي في كتاب « المراس » له : والصحيح أن الخضر نبيٌّ مُعَمَّرٌ
 محبوب عن الأبصار ؛ وروى محمد بن المتوكل عن [ضمرة بن ربيعة] من عبد الله بن
 [شاذان] قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس ، وإلياس من بنى إسرائيل يلتقيانه كل
 عام في الموسم . وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر وإلياس لا يزالان حين في الأرض
 ما دام القرآن على الأرض ، فإذا رفع ماتا . وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعلى بن
 محمود بن عبد المعلى القمي في شرح الرسالة له للتشيرى حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين
 والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه ، فيد مجموعها غاية الظن بمجابهة مع ما ذكره
 النقاش والثعلبي وغيرهما . وقد جاء في صحيح مسلم : ^(١) « أن الدجال يتهى إلى بعض السباخ
 التي تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو - من خير الناس » الحديث ؛
 وفي آخره قال أبو إسحق : يبنى أن هذا الرجل هو الخضر . وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب
 « المواقف » بسند يوقفه إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه لقي الخضر وعلمه
 هذا الدعاء ، وذكر أن فيه توابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله في أثر كل صلاة ، وهو : يا من
 لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلظه المسائل ، ويا من لا يتهم من إلحاح الملحين ، أذقي
 برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الدعاء
 بعينه نحو مما ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في سماعه من الخضر . وذكر
 أيضا اجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام . وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي
 صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر ، وقد ذكر أنهم يجتمعان عند البيت في كل حول ،
 وأنهما يقولان عند اقترافهما : ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله
 ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ، ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله ، حسبنا الله
 ونعم الوكيل . وأما خبر إلياس قياتي في « الصافات » إن شاء الله تعالى . وذكر أبو عمر
 (١) الزيادة والصواب من « عند الجماع » لعيسى قلا عن الثعلبي . وفي الأصل : « روى عن محمد بن المتوكل
 من عبد الله بن سوار » (٢) في تفسيره قوله تعالى : « وإن إلياس من المرسلين » آية ١٢٢

أَبْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَلْبٍ ، التَّهْمِيدِيُّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا تَزِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُحْيِي بِثَوْبٍ حَافٍ مِنْ نَجِيَةِ الْيَتِّ يَسْمَعُونَ صَوْتَهُ وَلَا يَرَوْنَ شَخْصَهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْيَتِّ ، كُلُّ قَيْسٍ ثَابِتَةٌ لِقَوِيَّتِهِ » .
 — الْآيَةُ — إِنَّ فِي اللَّهِ خُفَاً مِنْ كُلِّ هَالِكٍ ، وَمَوْضَاً مِنْ كُلِّ ثَالِفٍ ، وَعِزَّةً مِنْ كُلِّ مُعِيَّةٍ ، لِبَاقَةِ فَتْوَاهُ ، وَإِيَادَةِ فَارِجِيهِ ، فَإِنَّ الْمَصْلَبَ مِنْ حُرْمِ الثَّوَابِ ، فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يُطْغِرُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ . بِعَنِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَالْأَنْفُ وَالْأَلَامُ فِي قَوْلِهِ : « عَلَى الْأَرْضِ » لِلْمَهْدِ لَا لِلْجَنَسِ وَهِيَ أَرْضُ الْعَرَبِ ، بِدَلِيلِ تَصَرُّفِهِمْ فِيهَا وَإِلَيْهَا قَالُوا دُونَ أَرْضِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ ، وَأَقَامِي بِجَزْرِ الْمَسْدِ وَالسَّدِّ عَمَّا لَا يَخْرُجُ السَّمْعُ اسْمُهُ ، وَلَا يُعْلَمُ طَعْمُهُ .
 وَلَا جَوَابَ عَنِ الدِّجَالِ .

قال السجلى : واختلف في اسم الخضر اختلافاً متبايناً ، فمن ابن منبه أنه قال : « أَبِلْيَا بْنُ مَلَكَانَ بْنِ قَالِغِ بْنِ شَاخِ بْنِ أَرْغَشَذَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ » . وقيل : هو ابن عاميل بن سماعيل بن آدم بن أديان بن طهما بن عيص بن إسحق ، وأن أباه كان ملكاً ، وأن أمه كانت بنت فارس وأسمها أُمِّي ، وأنها ولدت في مغارة ، وأنه وجد هناك وشاة ترضعه في كل يوم من غنم رجل من القرية ، فاخذه الرجل فرباه ، فلما شبَّ وطلب الملك — أبوه — كتبوا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي أنزلت على إبراهيم وشيث ، كان ممن أقدم عليه من الكتاب ابنه الخضر وهو لا يعرفه ، فلما استحسن خطه ومعرفته ، وبحت عن جلية أمره عرف أنه ابنه ، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ، ثم إن الخضر فر من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها ، فهو حي إلى أن يخرج الدجال ، وأنه الرجل الذي يقتله الدجال ويغطمه ثم يحياه الله تعالى . وقيل : لم يدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يصح . وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : إنه مات قبل إقضاء المائة ، من قوله عليه الصلاة والسلام : « إلى رأس مائة عام لا يبق على هذه الأرض ممن هو عليها أحد » . يعني من كان حياً حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه ، ويتأ حية النضر إلى الآن ، والله أعلم .
 الخاسية - قيل : إن النضر لما ذهب فارق موسى قال له موسى : أوصني ، قال :
 كن بشاماً ولا تكن سخاكاً ، ودع الحاجة ، ولا تمس في غير حاجة ، ولا تصب على الخطأين
 خطأيهم ، وأبك على خطيئتك يا ابن عمران .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ
 ذِكْرًا ﴿٨٦﴾ إِنَّا مَكَّاءُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٧﴾
 فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٨﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ
 حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَلِّبَ
 وَإِمَّا أَنْ نَخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٩﴾ قَالَ آتَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ
 إِلَيْكَ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ
 جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾
 حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ
 مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٣﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) قال ابن إسحق :
 وكان من خبر ذي القرنين أنه أتى ما لم يؤت غيره ، فلدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد
 إلى مشارق الأرض ومزارعها ، لا بطلا أرضاً إلا سُلط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق
 والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . قال ابن إسحق : حدثني من يسوق الأحاديث
 عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان
 ابن مردية الليثاني من ولد يوتان بن يافث بن نوح . قال ابن هشام : واسمه الإسكندرية

وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه . قال ابن إسحق : وقد حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلابي - وكان خالد رجلا قد أدرك الناس - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذي القرنين فقال : « ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب » . وقال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا أما رضيتم أن تُسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميت بأسماء الملائكة ! قال ابن إسحق : فلهذا لم أي ذلك كان ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا ؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلا يدعو آثريا ذا القرنين ، فقال علي : أما يكفيكم أن تسميت بأسماء الأنبياء حتى تسميت بأسماء الملائكة ! وعنه أنه عبد ملك (بكسر اللام) صالح^(١) نصح الله فأبده . وقيل : هو نوح مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض . وذكر الباقطني في كتاب الأخبار أن ملكا يقال له رباقيل كان يزل على ذي القرنين ، وذلك الملك هو الذي يطوى الأرض يوم القيامة ، ويتقاضها فتقع أقدام الملائكة عليهم بالساهرة^(٢)؛ فها ذكر بعض أهل العلم . وقال السبيل : وهنا مشاكل بتوكيله بذى القرنين الذي قطع الأرض مشارفها ومنازلها ؛ كما أن قصة خالد ابن سنان في تسخير النار له مشاكلة بحال الملك الموكل بها ، وهو مالك عليه السلام وعلي جميع الملائكة أجمعين . ذكر ابن أبي خيثمة في كتاب البده له خالد بن سنان العبسي وذكر نبوته ، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوته أن نارا يقال لها نار الحدائن ، كانت تخرج من الناس من مائة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردها ، فردعا خالد ابن سنان فلم تخرج بعد . واختلف في اسم ذي القرنين وفي السبب الذي سمي به بذلك اختلافا كثيرا ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليوناني المقدوني ، وقد تشدد قائله فيقال : للمقدوني . وقيل : اسمه هرمس . ويقال : اسمه هرديس . وقال ابن هشام : هو الصمص

(١) كما في الأصل ، وفي بعض النسخ : علي . وقيل : في المر الشجر « زرافيل » .

(٢) الساهرة : أرض يجهد فيها الله يوم القيامة .

لهم في ذن الجبري من ولد وائل بن حير؛ وقد تقدم قول ابن إسحق. وقال وهب بن منبه :
هو رومي . وذكر الطبري حديثا عن النبي عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم .
وهو حديث ولحي السند قال ابن عطية . قال السبيل : والظاهر من علم الأخبار أنهما
أثنان ؛ أحدهما - كان على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال : إنه الذي قضى لإبراهيم عليه
السلام حين دعا كوا إليه في بر السبع بالشام . والآخر - أنه كان قريبا من عهد عيسى
عليه السلام . وقيل : إنه أفريدون الذي قتل بيرواسب بن أرونداسب الملك الطاغى على عهد
إبراهيم عليه السلام ، أو قبله بزمان . وأما الاختلاف في السبب الذي سبى به ، فقيل : إنه
كان ذا ظفرين من شعريهما ؛ ذكره الثعلبي وغيره . والصفائر قرون الرأس ؛ ومنه
قول الشاعر :

قُتِمْتُ قَامَا أَخَذَا يُسْرُونِيَا • شُرِبَ الْقَرْيَفُ بِرَدِّ مَاءِ الْخَشْرَجِ

وقيل : إنه رأى في أوّل ملكه كأنه قابض على قرني الشمس ، فقص ذلك ، ففسر أنه سيظلم
ما ذوت عليه الشمس ، فسمى بذلك ذا القرنين . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه بلغ المغرب
وللمشرق فكانه حاز قرني الدنيا . وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية
قرونها فسمى بذلك ذا القرنين ؛ أو قرني الشيطان بها . وقال وهب بن منبه : كان له قرنان
تحت عمامته . وسأل ابن الكوازه عليا رضي الله تعالى عنه عن ذي القرنين أنيا كان أم ملكا ؟
فقال : لا ذنا ولا ذنا ، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجّوه على قرنيه ، ثم دعاهم
فشجّوه على قرنيه الآخر ، فسمى ذا القرنين . وأخطفوا أيضا في وقت زمانه ، فقال قوم :
كان بعد موسى . وقال قوم : كان في الفترة بعد عيسى . وقيل : كان في وقت إبراهيم
واسماعيل . وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم ؛ وقد ذكرناه في « البقرة » .
وبالحسنة فإن الله تعالى مكّنه وملكه ودانت له الملوك ، فروى أن جميع ملوك الدنيا كلها

(١) هو عمر بن أبي ربيعة ؛ والقريف : المحرم الذي منع من الماء ، والخرج : الفترة في الجليل
يبتع فيها الماء فيمنعوا ، والكوز الصخر الطيف أيضا . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٨٩ طبعه أول مرة ثانية .

أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالأولان سليمان بن داود وإسكندر ، والكافران عروود وبختنصر ، وسجلتهما من هذه الأمة على قلوبهم تعالى : « ليظهره على الدين كله » وهو المهدي .
 وقد قيل : إنما سمي ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه أقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل يديه وركابه جميعا . وقيل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل الغلظة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال علي رضي الله عنه : سمعته السحاب ، ومكنت له الأسباب ، وبسط له في النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . وفي حديث طيبة ابن طاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أهل الكتاب سأله عن ذي القرنين فقال : « إن أول أمره كان غلاما من الروم فأعطى ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ أتاه ملك فرج به فقال له أنظر ما تحتك قال أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذي تراه محيطا بها هو البحر وإنما أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فيسرق الأرض فلم الجاهل وثبت العالم » الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَيِّئًا ﴾ قال ابن عباس : من كل شيء عسا يتسبب به إلى ما يريد . وقال الحسن : بلغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شيء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدن وقهر الأعداء . وأصل السبب الجبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء . ﴿ فَأَتْبَعَ سَبِيلًا ﴾ قرأ ابن طاهر وطاهر وحمزة والكاظمي « فَأَتْبَعَ سَبِيلًا » مقطوعة الألف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « فَأَتْبَعَ سَبِيلًا » بوصلها ؛ أي أتبع سببا من الأسباب التي أوتيتها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى ؛ مثل ريدته وأردعته ، ومنه قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَلِيفَةُ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَقِيبٌ » ومنه الإتياع في الكلام مثل حسن بن وقيع شقيق . قال النحاس : وأختار أبو عبيد قراءة

أهل الكوفة قال : لأنها من النيرة، وحكى هو والأصمعي أنه يقال : تبعه وأتبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد : ومثله « فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَّبِعِينَ » . قال النحاس : وهذا التفریق وإن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بـ « ل » أو دليل . وقوله عز وجل : « فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَّبِعِينَ » ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث : لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه أنطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تبع وأتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، ومى بمعنى النيرة، فقد يجوز أن يكون معه لحاق وألا يكون . (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَضْيَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُو فِي عَيْنٍ حَئِشَةٍ) قرأ ابن عاصم وطاهر وحزمة والكسائي « حامية » أى حارة . الباقون « حينة » أى كثيرة الحماة وهى الطينة السوداء، قول : حَمَاتُ الْبَرْحَاءِ (بالتسكين) إذا زعت حَمَاتُهَا . وَحِثَّ الْبَرْحَاءُ (بالتحريك) كثرت حَمَاتُهَا . ويجوز أن تكون « حامية » من الحماة تخففت الهمزة وقلت ياء . وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حَمَاءَ . وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال : " فإِنَّ اللَّهَ الْحَامِيَةَ لَوْلَا مَا زَعَمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَأَحْرَقَتْ مَا عَلَى الْأَرْضِ " . وقال ابن عباس : أقرأنيها أبى كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم « فِي عَيْنِ حَيْشَةٍ » ؛ وقال معاوية : هى « حامية » فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فافاع أمير المؤمنين ؛ فعملوا كعبا بينهم حَكَا وقالوا : ياكعب كيف تجد هذا في التوراة ؟ فقال : أجدها تقرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس . وقال الشاعر وهو تبع اليماني :
قد كان ذو القرنين قبل مُنَلِّسًا . مَلِكًا تَدِيرُ لَهُ الْمُلُوكُ وَتَسْجُدُ
بَلْعَ الْمَسَارِبِ وَالْمَشَارِقِ يَنْبِي . أسبابُ أَمْرِ مِنْ حَكِيمٍ مُرِيدِ
فَرَأَى مِثْبَابَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا . فِي عَيْنِ ذِي حُلَيْبٍ وَتَأْطِ حَرَمِيدِ
التَّحْلُبُ : الطين . والتأط : الحماة . والحريميد : الأسود . وقال الفحل قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسها ؛ لأنها تدور

مع السماء حول الأرض من غير أن تنصق بالأرض ، وهي أعظم من أن تدخل في عين من
 عيون الأرض ، بل هي أكبر من الأرض أضعاضا مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العبرة
 من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدنا في رأى العين تقرب في عين حصة ، كما أنشأها
 في الأرض المساء كأنها تدخل في الأرض ، ولهذا قال : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ
 مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تخاسمهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أهل من تطلع
 عليهم . وقال القتيبي : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تيب
 ورامها أو معها أو عندها ، فيقام حرف للصفة مقام صاحبه ، والله أعلم . (وَوَجَدَ عِنْدَهَا
 قَوْمًا) أى عند العين ، أو عند نهاية العين ، وهم أهل جَارِس ، ويقال لها بالسريانية :
 جرجيسا ، يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح ، ذكره السبيل . وقال وهب
 ابن منبه : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه
 الإسكندر ، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى : إذا القرنين ! إني باعتك إلى أم الأرض
 وهم أم غطفة السهم ، وهم أم جبع الأرض ، وهم أصناف : أمان بينهما طول الأرض
 كله ، وأمان بينهما عرض الأرض كله ، وأم في وسط الأرض منهم الجن والإنس وأجاج
 وأجاج ، فأما الثالث بينهما طول الأرض فامة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ،
 وأما الأخرى فند مطلعها ويقال لها منسك . وأما اللتان بينهما عرض الأرض فامة في قطر
 الأرض الأيمن يقال لها هاول ، وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل .
 فقال ذو القرنين : إلهي ! قد ندبقتي لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ، فأخبرني عن هذه
 الأمم بأى قوة أكاثرم ؟ وبأى صبر أناسهم ؟ وبأى لسان أناطقمهم ؟ فكيف لي بأن أقفه
 لثمتهم وليس عندي قوة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حلتك ، أشرح لك صدرك قسم
 كل شيء ، وأثبت لك فهمك ففقه كل شيء ، وأبسط لك الحية فلا يروحك شيء ، وأحمر لك
 النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من
 ورائك ، فلما قيل له ذلك سار بمن أتبعه ، فَأَتْلَقَ إِلَى الْأَمَةِ الَّتِي عِنْدَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ ، لِأَنَّهَا

كانت أقرب الأئم منه وهي ناسك، فوجد جموعا لا يحصوا إلا الله تعالى وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله، والسنة مخلفة، وأهواء مُشْتَقَّة، فكأثرهم بالظلمة؛ فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعهم في مكان واحد، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصد عنه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فقتلهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأتوفهم وأعينهم وبوتهم وغشيتهم من كل مكان، فحبروا وماجرو وأشفقوا أن يهلكوا، فنجوا إلى الله تعالى بصوت واحد: إنا آمنّا، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، ودخلوا في دعوته، فغند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جندا واحدا، ثم أنطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتخرسه من خلفه، والنور أمامهم يقوده ويبدله، وهو سير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا، فإذا أتوا غاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فظلمها في ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأئم، فإذا قطع البحار والأنهار فتّحها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكثر بحمله، فأتى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فأمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشهم وأنطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى أتتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، ففعل فيها وجند منها جنودا كفعله في الأولى، ثم كرّ مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمة التي تقابل هاويل بينهما عرض الأرض، ففعل فيها كفعله فيها قبلها، ثم عطف إلى الأئم التي في وسط الأرض من الجن والإنس وماجوج، فلما كانت في بعض الطريق مما على منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب، ويفترمون الدواب والوحش كما يفترسها السباع، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والمقارب والوزغ وكل ذي روح مما خلق الله تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خلق يخونهم في العام الواحد، فإن طالت للسدة

فيسئلون الأرض، ويعلمون أهلها، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟
 وذكر الحديث، وسيأتى من صفه بأجوج وأجاج والترك لآدم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : (قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ) قال القشيري أبو نصر : إن كان نيسا فهو وحى ،
 وإن لم يكن نيسا فهو إلهام من الله تعالى . (إِمَّا أَنْ تَتَلَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ يَمِينُ حَسَنًا)
 قال إبراہیم بن السري : خيعة بين هذين كما خیرهما صلى الله عليه وسلم قال : « فإن جاعوك
 فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ونحوه . وقال أبو إسحق الزمجا : للمنى أن الله تعالى خيره
 بين هذين الحكيمين ، قال النحاس : ورث على بن سليمان عليه قوله ، لأنه لم يصح أن ذا القرنين
 نبي فيطلب بهذا ، فكيف يقول له من جبل : « ثم ردة إلى ربه » ؟ وكيف يقول : « سوف
 نضدبه » فيطلب بالنون ؟ قال : القدير : قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين . قال أبو جعفر
 النحاس : هذا الذى قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء . أما قوله : « قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ »
 فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته ، ويجوز أن يكون قال له هذا
 كما قال لنيه : « يَا مَعْشَرَ بَنِي إِدْرِيسَ » ، وأما إشكال « سوف نضدبه ثم ردة إلى ربه »
 فإن تقديره أن الله تعالى لما خيره بين القتل في قوله تعالى : « إِمَّا أَنْ تُكَفِّرَ » وبين الاستبقاء
 في قوله جل وعز : « وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ يَمِينُ حَسَنًا » قال لأولئك القوم : (لَمَّا مَنْ ظَلَمَ) أى أقام
 على الكفر منك : (فَسَوْفَ نَضِدُّهُ) أى بالقتل : (ثُمَّ يَرْدُّهُ إِلَى رَبِّهِ) أى يوم القيامة :
 (نَحْمِلُهُ مَتَابًا نَكْرًا) أى شهدا في جهنم : (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ) أى تاب من الكفر : (وَتَعَمَلَ
 سَالِحًا) قال أحمد بن يحيى : « أن » فى موضع نصب فى « إِمَّا أَنْ تَتَلَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ
 يَمِينُ حَسَنًا » قال : ولو رقت كان صوابا بمعنى فلتا هو ، كما قال :

فسيما فلما حاجة تحضياتها . وإما قيل صالح وصدى

(قُلْ جَزَاءُ الْحَسَنَى) قراءة أهل المدينة وأبو عمرو وطعم « قُلْ جَزَاءُ الْحَسَنَى » بالرفع على
 الابتداء أو بالاستقرار وهو « الحسنى » فى موضع خفض بالإضافة ويختلف التورين بالإضافة
 لهما لهما جزاء الحسنى عند الله تعالى فى الآخرة وهى الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة كقولهم :

«حقّ البقيّة» ، «ولندأُ الأخيرة» ؛ قاله القراء . ويحتمل أن يريد بـ «الحسنى» الأعمال الصالحة . ويمكن أن يكون الجزء من ذى القرنين ؛ أى أعطيه وأفضل عليه . ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون «الحسنى» فى موضع رفع على البدل عند البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبى إسحق «فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى» إلا أنك لم تحذف التنوين ، وهو أجود . وقرأ سائر الكوفيين «فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى» منصوبا منونا ؛ أى فله الحسنى جزاء . قال القراء : «جزاء» منصوب على التمييز . وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحال ؛ أى يجزيها بها جزاء . وقرأ ابن عباس وسرور «فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى» منصوبا غير منون . وهى عند أبى حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل «فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى» فى أحد الوجهين . النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، ويكون تقديره : فله الثواب جزاء الحسنى .

قوله تعالى : (ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا) تقدم معناه أن اتبع وأتبع بمعنى ، أى سلك طريقا ومنازل . (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) وقرأ مجاهد وابن محيص بفتح الميم واللام ؛ يقال : طلعت الشمس والكواكب طلوعا ومطلعا . والمطلع والمطلوع أيضا موضع طلوعها ؛ قاله الجوهري . المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة ؛ فهذا معنى قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ) . وقد اختلف فيهم ؛ من ذهب بن منه ما تقدم ، وأنها أمة يقال لها منسك وهى مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل . وقال قتادة : يقال لها الزنج . وقال الكلبي : هم تارس وهاديل ومنسك ؛ حفاة عراة عماء عن الحق ، يساعدون مثل الكلاب ، ويتهاجون تهاج الحمير . وقيل : هم أهل جابلق ، وهم من نسل مؤمن عاد الذين آمنوا يهود ، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا . والذين عند مغرب الشمس هم أهل جابرقس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، بين كل بابين فرسخ . ووراء جابلق أمم ، وهم تافيل وتارس ، وهم يحاورون ياجوج وماجوج . وأهل جابرقس وجابلق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ، صرهم ليلة الإسراء فدعهم فأجابوه ،

ودما الأمم الآخريين فلم يحيوه؛ ذكره السجيل وقال : أخضرت هذا لك من حيث طوي
رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله **فلطمحوا**
مستندا إلى مقاتل يرضه؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (**لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا**) أى حجابا يستترون منها عند طلوعها . قال
قنادة : لم يكن بينهم وبين الشمس سترة؛ كانوا في مكان لا يستتر عليه بشيء وهم يكونون
في أسراب لم ، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى مساكنهم وحروثهم ؛ حتى لا يمتحنوا
منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها . وقال أمية : وجدت رجالا يسمرقوت يملكون
الناس ، فقال بعضهم : خرجت حتى جلوزت الصين ، قيل لى : إن يئسك ويهم مسيرة
يوم وليلة ، فاستأجرت رجلا يريهم حتى صبحتهم ، فوجدت أحدهم يقرش أذنه ويخف
بالأخرى ، وكان صاحبي يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فم جثم ؟ قلنا : جثنا تنظر
كيف تطلع الشمس ؛ فينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فنشئ على ، ثم أنفت وهم
يسمعون بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت ، وإذا
طرف السماء كهيئة القسطاط ، فلما أرتفعت أدخلوني سرايا لم ، فلما أرتفع النهار وزالت
الشمس عن رؤوسهم خرجوا بصطادون السمك ، فيطرحونه في الشمس فينضج . وقال
ابن جريج : جاءهم جيش مرة ، فقال لهم أهلها : لا تطلع الشمس وأتم بها ، فقالوا : ما نبيع
حتى تطلع الشمس . ثم قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم
الشمس ها هنا فاتوا . قال : قولوا هاربين في الأرض . وقال الحسن : كانت أرضهم لا جبل
فيها ولا شجرة ، وكانت لا تحمل البناء ، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء ، فإذا أرتفعت
عنهم خرجوا ، فيتراعون كما تراعى البهائم .

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك . والله أعلم . وربما يكون منهم من
يسهل في النهر ، ومنهم من يسهل في السرب فلا تنقض بين قول الحسن وقنادة .

قوله تعالى : ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٣٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ
 مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٣٧﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ
 إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ
 أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٣٨﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي
 بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٣٩﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا
 سَاوَيْنَا بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي
 أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٤٠﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَصْلَوْهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٤١﴾
 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ
 وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) وهما جبلان من قبل أرمينية
 وأذربيجان. روى عطاء الخراساني عن ابن عباس : « بين السدين » الجبلين أرمينية وأذربيجان .
 (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا) أي من ورائهما : (قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) . وقرا حمزة والكسائي
 « يَفْقَهُونَ » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا بان أي لا يفقهون غيرهم كلاما .
 الباقون بفتح الياء والقاف ، أي يسمون . والقراءتان صحيحتان ، فلا هم يفقهون من غيرهم
 ولا يفقهون غيرهم

قوله تعالى : (قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ) أي قالت له أمة من الإنس صالحة : (إِنْ يَأْجُوجُ
 وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) . قال الأخفش : من همز « ياجوج » بفعل الأثنين من
 الأصل يقول : ياجوج يفعل وماجوج مفعول كأنه من أحيج النار. قال : ومن لا يهزم ويحبل
 الأثنين زائدتين يقول : « ياجوج » من تيجت وماجوج من تيجت وهما غير مصرفين ، قال رؤية :
 لو أن ياجوج وماجوج تمسا . وعاد عاد واستعاضوا ثبما

ذكره الجوهري . وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما آسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت
غير مشقين ؛ فلما حاق في منع الصرف السجدة والتعريف والتأنيث . وقالت فرقة : هو معرب
من آج وآج عتاه في منع الصرف التعريف والتأنيث . وقال أبو علي : يجوز أن يكونا
عربين ، فن هـز « ياجوج » فهو على وزن يفعول مثل يروع ، من فوكت أُنِيت للنار أي
ضويت ، ومنه الأجيح ، ومنه ملح أجاج ، ومن لم يهزم أمكن أن يكون خفف الهزمة فقلها
ألفا مثل راس ، وأما « ماجوج » فهو مفعول من آج ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق
ومن لم يهزم فيجوز أن يكون خفف الهزمة ، ويجوز أن يكون فاعولا من آج ، وترك الصرف
فيهما للتأنيث والتعريف كأنه أسم للقبيلة . وأختلف في إفسادهم ؛ سعيد بن عبد العزيز :
إفسادهم أكل بن آدم . وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان متوقفا ، أى سيفسدون ، فطلبوا
وجه التحرز منهم . وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والنقم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم
من البشر ، والله أعلم . وقد وردت أخبار بصفتهم ونروجهم وأنهم ولد يافث . روى أبو هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس
والروم والخبر فيهم وولد يافث ياجوج وماجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط
والبربر والسودان " . وقال كعب الأحبار : أحتمل آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب
فأصيف فخلقوا من ذلك الماء ، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم . وهنا
فيه نظر ؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يمتلئون ، وإنما هم من ولد يافث ، وكذلك قال
مقاتل وغيره . وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يموت
رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل " . يبنى ياجوج وماجوج . وقال أبو سعيد : هم
خمسة وعشرون قبيلة من وراء ياجوج وماجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن ياجوج
وماجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل ، ذكره القشيري . وقال عبد الله بن مسعود :
سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ياجوج وماجوج ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ياجوج
وماجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف [أمة^(١)] كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل

منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح^(١) قيل : يا رسول الله صفهم لنا . قال : " لم تَلَمَّ أصناف صف منهم أمثال الأرز^(٢) - شجرا بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع - وصف عرضه وطوله سواء نحواً من القراع وصف يفتش أذنه ويتخف بالأخرى لا يبرون بغيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وصلتهم بخراسان يسريون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمضونهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس^(٣) . وقال علي رضي الله تعالى عنه : وصف منهم في طول شبر، لم غالب وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتصادف البهائم، وهواء القباب، وشعور تقيم الحز والبرد، وأذن عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السد حتى كادوا يتقبون فيعيد الله كما كان، فيقولون : نقبه غدا إن شاء الله تعالى فيقبونه ويخرجون ، ويحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فبرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكهم الله تعالى بالتف في رقابهم . ذكره الفزوي . وقال علي بن النبی صلى الله عليه وسلم : " يا جوج أمة لها أربعمائة أمير وكلها ماجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده " . قلت : وقد جاء معروفنا من حديث أبي هريرة ، خرجة ابن ماجه في السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يا جوج ويا جوج يخفون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفره غدا فيعيد الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس خفوا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال أرجعوا فستحفره غدا إن شاء الله تعالى فاستنوا فيموتون إليه وهو كهيمته حين تركوه فيحفره ويخرجون على الناس فينشقون الماء^(٤) ويحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم^(٥) - الذي أحفظ^(٦) - فيقولون قهراً أهل الأرض وطونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نفاقاً فيقتلهم بها^(٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إن أبواب الأرض لتسمن وتسكر شكراً من لحوهم " قال الجوهرى وسلم : (١) الأرز: شجر السنور . (٢) التف (بالترك) : عدد يكون في أوتوف الإبل والتم واحدتها تمة . (٣) يشمون الماء : أي يزعمونه . (٤) طفا من كلام الرازي . (٥) طاعن ابن ماجه .

شَكَرَتْ النَّاقَةُ تَشْكُرُ شَكَرًا نَهَى شِكْرًا ، وَاشْكُرْ الضَّرْعَ أَمْتًا لَبًا . وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مِنْه : وَلَقَدْ
 ذُو الْقَرْنَيْنِ ، وَطُولُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مِثْلُ نِصْفِ الرَّجُلِ الْمُرْبُوعِ مَتَا ، لَمْ يَخَالِيفْ فِي مَوَاضِعِ
 الْأَطْفَارِ وَأَعْرَاسِ وَأَنْسِلَابِ كَالسَّابِغِ ، وَأَحَاكَ كَأَحَاكَ الْإِبِلِ ، وَهُمْ حُلُبٌ طَلِيمٌ مِنَ الشَّعْرِ
 مَا يُوَارِيهِمْ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَذْنَانُ عَظِيمَتَانِ ، يَصْغَفُ إِحْدَاهُمَا وَيَقْرُشُ الْأُخْرَى ، وَكُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ عَرَفَ أَجَلَهُ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَخْرُجَ لَهُ مِنْ صِلْبِهِ أَلْفُ رَجُلٍ إِنْ كَانَ ذَكَرًا ، وَمِنْ
 رَحْمَتِ أَلْفِ أَنْثَى إِنْ كَانَتْ أَنْثَى . وَقَالَ السُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ : الْفَرَكُ شَرْعَةٌ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
 نَحَرِجَتْ تَغِيرَ ، بَقَاءُ ذُو الْقَرْنَيْنِ فَضْرَبَ السَّيْفُ بَقِيَّتَ فِي هَذَا الْجَانِبِ . قَالَ السُّدِّيُّ : بَنَى قَسْدٌ
 عَلَى إِحْدَى وَعِشْرِينَ قَبِيلَةً ، وَبَقِيَ مِنْهُمْ قَبِيلَةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ السَّيْفِ نَهَمَ الْفَرَكُ . وَقَالَ قَتَادَةُ .
 قُلْتُ : وَإِذَا كَانَ هَذَا ، قَدْ نَمَتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَرَكُ كَمَا نَمَتِ يَأْجُوجَ
 وَمَأْجُوجَ ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " لَا تَحْرُمُ السَّاعَةَ حَتَّى يَخَالَتِ الْمُسْلِمُونَ الْفَرَكَ قَوْمًا
 وَجُوهُهُمْ كَالْجَانِّ الْمُنْطَرِقَةِ يَلْبَسُونَ الشَّعْرَ وَيَمِشُونَ فِي الشَّعْرِ " فِي رِوَايَةٍ " يَلْبَسُونَ الشَّعْرَ " نَحَرِجُهُ
 سَلَمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا . وَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْدَمَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ وَحِدَّةَ شَوْكِهِمْ
 قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " أَتَزَكُّوْا الْفَرَكَ مَا تَزَكُّوْكُمْ " . وَقَدْ خَرَجَ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ أُمٌّ
 لَا يَحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، حَتَّى كَانَتْهُمْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
 أَوْ مَقْدَمَتَهُمْ . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَزَلُّ
 نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي بِنَاقِطٍ يَسْمُوْنَ الْبَصْرَةَ عِنْدَ نَهْرِ يَزَلُّ لَهُ دَجَلَةٌ يَكُونُ عَلَيْهِ جَسْرٌ يَكْثُرُ أَهْلُهَا
 وَتَكُونُ مِنْ أَمْصَارِ الْمَاهِجَرِينَ — قَالَ ابْنُ أَبِي قَالٍ أَبُو مَعْمَرٍ — وَتَكُونُ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ
 فَإِذَا كَانَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ جَاءَ بَنُو قَطْلَوَاءَ عَرَّاضَ لِلْجُودِ صُنَّارَ الْأَمِينِ حَتَّى يَزَلُّوا عَلَى شَاطِئِ
 النَّهْرِ فَيَفْتَرِقُ أَهْلُهَا ثَلَاثَ فُرُقٍ فَرَقَةٌ يَأْخُذُونَ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَهَلَكُوا وَفَرَقَةٌ يَأْخُذُونَ
 لِأَنْفُسِهِمْ وَكَثَرُوا وَفَرَقَةٌ يَحْمِلُونَ ذُرَارِيَهُمْ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ وَيَقَاتِلُونَهُمْ وَهُمْ الشَّهْدَاءُ " . النَّاقِطُ
 الْمَطْمُنُ مِنَ الْأَرْضِ . وَالْبَصْرَةُ الْمَجَارَةُ الرِّخْوَةُ وَبِهَا سَمِيَتْ الْبَصْرَةُ . وَبَنُو قَطْلَوَاءَ هُمُ الْفَرَكُ .
 يُقَالُ : إِنْ قَطْلَوَاءَ أَسْمَ جَارِيَةٌ كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَقَدْ لَهُ أَوْلَادَانِ
 جَاءَ مِنْ ظُهُورِ الْفَرَكِ ۚ

قوله تعالى : (قُلْ يَحْمِلْ لَكَ خُرْجًا عَلَىٰ أَنْ يَحْمِلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) فيه مستثنان :
 الأولى - قوله تعالى : (قُلْ يَحْمِلْ لَكَ خُرْجًا) لاستفهام على جهة حسن الأدب .
 « خُرْجًا » أى جصلا . وقرئ « خراجا » والخراج أخص من الخراج . يقال : أَدَّ خُرْجَ
 رأسك وَخُرْجَ مدينتك . وقال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة ، ويقع على مال التى ،
 ويقع على الجزية ، وعلى الغلة . والخراج اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال . والخرج ،
 المصدر . وقوله تعالى : (عَلَىٰ أَنْ يَحْمِلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) أى ردما ، والردم ما جعل بفضه
 على بعض حتى يتصل . وثوب مردم أى مرقع ، قاله الهروى . يقال : ردمت الثلمة أَرَدِمَهَا
 بالكسر ردما أى سدتها . والردم أيضا الاسم وهو السد . وقيل : الردم المبع من السد
 إذ السد كل ما يصد به ، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم
 من ذلك حجاب منيع . ومنه ردم ثوبه إذا رقع برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض . ومنه
 قول حق : هل تادر الشعراء من سَدِّهِمْ .

أى من قول يُرْكَبُ بفضه على بعض . وقرئ « سَدًّا » بالفتح فى السين ؛ فقال الخليل
 وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح للمصدر . وقال الكاسى : الفتح والضم لتان بمعنى واحد .
 وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ما كان من خلقه الله لم يشارك فيه أحد بعمل
 فهو بالضم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح . ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا « سَدًّا »
 بالفتح ، وقبله « بين السدَّين » بالضم ، وهى قراءة حمزة والكاسى . وقال أبو حاتم عن
 ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة . وقال ابن أبى إسحق : ما رأته عيناك فهو سَدٌّ
 بالضم ، وما لا ترى فهو سَدٌّ بالفتح .

الثانية - فى هذه الآية دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم
 من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكفلون
 ويطلقون كما فعل عمر رضى الله عنه .

قوله تعالى : (قَالَ مَآ كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) فيه مستلzan :

الأولى - قوله تعالى : (قَالَ مَآ كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) المعنى قال لهم ذو القرنين : ما بطله الله تعالى لي من القسرة والملك خير من تخرجكم وأموالكم ولكن أعينوني بقسوة الأبدان ؛ أى برحال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التي أبى بها الزم وهو السد . وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين في هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خربا لم يمت أحد ولو كلوه إلى البنيان ، ومعوته بأغصم أجل به وأسرع في آقضاء هذا العمل ، وربما أرى ما ذكره له على المنرج . وقرأ ابن كثير وسعد « مَآ كُنْتُمْ » بنون . وقرأ الباقون « مَآ كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي » .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم ، وسد فرجهم ، وإصلاح نفوسهم ، من أموالهم التي تحي عليهم ، وحقوقهم التي تجمعها خزائهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأهدتها المؤمنين ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بشلاطة شروط : الأولى - ألا يستأثر عليهم بشئ . الثاني - أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم . الثالث - أن يسوى في العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فئت بعد هذا وبقيت صفرا فاطلعت الحوادث أسرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يبق ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تحدير ، وتُصرف بتقدير ؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية بأجوج وأجوج ؛ قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم « فَأَعِينُونِي بِقُسْوَةٍ » أى اخدموا بأخسكم معي ، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تنفى عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان الطلوع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحمل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، ويتفق بالعدل لا بالاستئثار ، ويرأى الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب .

قوله تعالى : (أَنْتَوْنِي زُبْرَ الْحَدِيدِ) أى أعطوني زبرا الحديد وتولونيها . أمرهم بتقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التي غير سنى الحبة ، وإنما هو استدعاء للثروة

لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج ، فلم يبق إلا استدعاء المناولة ، وأعمال الأبدان . « وَزَبَرَ الْحَدِيدَ » قطع الحديد . وأصل الكلمة الاجتماع ، ومنه زُبْرَةُ الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . وزبرت الكلاب أى كتبت وجمعت حروفه . وقرأ أبو بكر والمفضل « ودما آيتوني » من الإتيان الذى هو الجيء ، أى جيتونى بزر الحديد ، فلما سقط الخلفاض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر :^(١)

• أَمَرْتُكَ الْحَسِيرَ ... •

حنف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور « زَبَرَ » بفتح الباء . وقرأ الحسن بضمها ، وكل ذلك جمع زُبْرَةٌ وهى القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِنَّا سَاوَيْنَا) يعنى الباء لحذف لقوة الكلام عليه . (بَيْنَ الصَّدَقَيْنِ) قال أبو عبيدة : هما جانبى الجبل ، وسببا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما . وقاله الزهرى وابن عباس ، كأنه يعرض عن الآخر ، من الصدوف ، قال الشاعر :

كَلَّا الصَّدَقَيْنِ يَنْفَعُهُ سَنَاهَا • تَوَقَّدُ مِثْلَ مِصْبَاحِ الظَّلَامِ

ويقال للبناء المرتفع صدف تشبيه بجانب الجبل . وفى الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشى . قال أبو عبيد : الصدف والمصدف كل بناء عظيم مرتفع . ابن عطية : الصدفان الجبلان المتناوحيان ولا يقال للواحد صدف ، وإنما يقال صدفان للثنين ، لأن أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع وحزمة والكشاف « الصَّدَقَيْنِ » بفتح الصاد وشدحا وفتح الدال ، وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز ، وهى اختيار أبى عبيدة لأنها أشهر اللغات . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « الصَّدَقَيْنِ » بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « الصَّدَقَيْنِ » بضم الصاد وسكون الدال ، نحو الجُرْفِ والجُرُوفِ . فهو تخفيف . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « بَيْنَ الصَّدَقَيْنِ » بفتح الصاد وسكون الدال ، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوحيان .

(١) هو عمر بن عبد كزب الزيدى . وألقت بكاه :

أمرتك النصب فافصل ما أمرت به • فبعد تصحكتك فاما مال وما تشب

(٢) فطر : فطر .

قوله تعالى : (قَالَ أَتَقْنَعُوا) إلى آخر الآية أى على زبر الحديد بالأكل ، وذلك أنه كان بأمر بوضع طاقة من الزبر والمجارية ، ثم يوقد عليها الحطب والقنم بالمناع حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ، فذلك قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِنَّا جَعَلْنَاهُ آثَارًا) ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو الرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطر ، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة ، فإذا التام واشتد ولصق البعض ببعض استأنف وضع طاقة أخرى ، إلى أن استوى العمل فصار حبلًا صلبًا . قال قتادة : هو كالبرد المحبب ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعله رجل فقال : يا رسول الله ! إني رأيت سداً يأجوج ومأجوج ، قال : " كيف رأيته " قال : رأيته كالبرد المحبب ، طريقة صفراء ، وطريقة حمراء ، وطريقة سوداء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد رأيته " . ومعنى « حَتَّىٰ إِنَّا جَعَلْنَاهُ آثَارًا » أى كالنار . ومعنى (أَتَوْنِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا) أى أعطوني قطرا أفرغ عليه ، على التقديم والتأخير . ومن قرأ « أَتَوْنِي » فالمنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا . والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب ، وأصله من القَطَر ؛ لأنه إذا أذيب فطر كما يقطر الماء . وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب . وقالت فرقة منهم آبن الأنيابى : الرصاص المذاب . وهو مشتق من قَطَر يَقْطُرُ قَطْرًا . ومنه « وَاسْتَأْذَنُ لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ » .

قوله تعالى : (قَالَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) أى ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يظهروا ويصعدوا فيه ؛ لأنه أعلس مستوي الجبل والجبل على لا يرام . وأرتفاع السد ما تسا ذراع وخمسون ذراعا . وروى : فى طوله ما بين طريقى الجبلين مائة فرسخ ، وفى عرضه خمسون فرسخا ؛ قاله وهب بن منبه . (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) لبعد عرصه وقوته . وروى فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " نُحِ اليَوْم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه " وعقد وهب بن منبه بيده تسمين - وفى رواية - وحلق بإصبعه الإبهام واتى تليها ؛ وذكر الحفيت ، وذكر يحيى بن سلام عن سعد بن أبى عروة عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ

يخرقون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم أرجعوا فستخرقونه
فدا فيعبد الله كأنه ما كان حتى إذا بلغت مقتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس خسروا
حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم أرجعوا فستخرقونه إن شاء الله
فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحسب
وقد تقدم .

قوله تعالى : « فَاَسْطَاعُوا » بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور . وقيل : هي لغة بمعنى
استطاعوا . وقيل : بل استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء
فقالوا : استطاعوا . وحذف بعضهم منه الطاء فقال : أستاع يستع بمعنى استطاع يستطيع ،
وهي لغة مشهورة . وقرا حمزة وحده « فَاَسْطَاعُوا » بتشديد الطاء كأنه أراد استطاعوا ،
ثم أدمغ التاء في الطاء فتدحها ، وهي قراءة ضعيفة الوجه ، قال أبو علي : هي غير جائزة .
وقرا الأعشى « فَاَسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوا وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ قَبًا » بالتاء في الموضعين .

قوله تعالى : (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) القائل ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم ،
والقوة عليه ، والاستعاق به في دفع ضرر ياجوج وماجوج . وقرا ابن أبي عملة « هَذِهِ رَحْمَةٌ
مِنْ رَبِّي » .

قوله تعالى : (فَإِنَّا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) أي يوم القيامة . وقيل : وقت خروجهم .
(جَعَلَهُ دَكًّا) أي مستويا بالأرض ، ومنه قوله تعالى : « إِذَا دَكَّتِ الْأَرْضُ » قال ابن خرفة :
أي جعلت مستوية لا أكمة فيها ، ومنه قوله تعالى : « جَعَلَهُ دَكًّا » قال اليزيدي : أي مستويا ،
يقال : ناقة دكاه إذا فصب سنامها . وقال الفراء : أي جعله مذكوكا ملصقا بالأرض .
وقال الكلبي : قطعنا مكسرا ، قال :

« هَلْ فُيِّرَ فَكَّرُكَ فَأَرَا قَاتِلَهُمْ » .

(١) وقال النحاس : لا يفسد أحد أن ينفق بها ، لأن السين ساكنة والهاء المدغمة ساكنة ، والسين يمد :

وقال الأزهري : يقال ذلك أي دقته . ومن قرأ « دكاه » لواد جعل الجبل أرضا دكاه ، وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلا وجعلها دكوات . قرأ حمزة وطامم والكسائي « دكاه » بالمد على التشبيه بالناقة الدكاه ، وهي التي لا سنام لها ، وفي الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكاه ، ولا بد من تقدير هذا الحذف . لأن السد مذكرا فلا يوصف بدكاه . ومن قرأ « دكاه » فهو مصدر ذلك يدك إذا هدم ورش ، ويحتمل أن يكون « جعل » بمعنى خلق . وينصب « دكاه » على الحال . وكذلك النصب أيضا في قراءة من مد يحتمل الوجهين .

قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي يَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لِمُحَمَّدِهِمْ جَمْعًا ﴿١٩﴾ وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٢١﴾ الْحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٢٢﴾ قُلْ هَلْ تَنْبِتُكُمْ بِالْأَخْسِرِ الْأَعْمَلِ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ قُلْ سَمِعْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَطَمَحُوا أَعْمَلَهُمْ فَلَا نَقِيمَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَأَى ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءَهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا عَابَتِي ورُسُلِي هُرُورًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٢٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَسْغَنُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٢٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿٢٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (وَتَرَكَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) الضمير في « تركا » لله تعالى ، أى تركا الجلس والانس يوم القيامة يوج بعضهم في بعض . وقيل : تركا ياجوج وماجوج « يومئذ » أى وقت كمال السد يوج بعضهم في بعض . وأستارة الموج لهم حجارة عن الحيرة وترقد بعضهم في بعض ، كاللؤلئين من هم وخوف ؛ فشبهم يوج البحر الذى يضطرب بعضه في بعض . وقيل : تركا ياجوج وماجوج يوم أفتاح السد يوجون في الدنيا غنطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال ، أظهرها أوسطها ، وأجدها آخرها ، وحسن الأول ؛ لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى : « فَإِنَّا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) تقدم في « الأنعام » . (بِمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) بنى الجن والإنس في عرصات القيامة . (وَعَرْضًا جَهَنَّمَ) أى أبرزناها لهم . (يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ) . (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ) في موضع خفض نعت « للكافرين » . (فِي غِيْطٍ عَنْ ذِكْرِى) أى هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى . (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أى لا يطيعون أن يسموا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صم .

قوله تعالى : (أَغْشَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى ظن . وقرأ على وعركة ومجاهد وابن مجاص « أَغْشَبُ » بإسكان السين وضم الياء ، أى كغمام . (أَنْ يَتَّخِذُوا عِيَادِي) بنى عيسى والملائكة وعزيرا . (مِنْ كُوْنِي أَوْلِيَاءَ) ولا أعاقبهم ، قى الكلام حذف . وقال الزجاج : للمنى ؛ اغشوا أن ينفعهم ذلك . (إِنَّا أَهْنَأَ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) .

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ تُنْشِكُمُ بِالْآخِرِينَ أَعْمَالًا) إلى قوله : (وَزَنًا) فيه مستطان : الأول — قوله تعالى : « قُلْ هَلْ تُنْشِكُمُ بِالْآخِرِينَ أَعْمَالًا » — الآية — فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه عمن وقد جبط سببه ، والذي يوجب إحباط السعى إما فساد الاعتقاد أو المرادة ، والمراد هنا الكفر . روى البخارى عن مصعب قال :

سالت أبى « قل هل نتبعكم بالأخسرين أعمالاً » أم الحسورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذبوا بما صل الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحسورية الذين يتقصون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان سعد يسميهم الفاسقين . والآية معناها التوبيخ ، أى قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيرى : ينبغي سعيهم وأعمالهم غدا ، فهم الأخسرون أعمالاً ، وهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى عبادة من سواى . قال ابن عباس : يريد كفار أهل مكة . وقال على : هم الخوارج أهل حروراء . وقال حمزة : هم الرهبان أصحاب الصوامع . وروى أن أبى الكواء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له : أنت وأصحابك . قال ابن عطية : و يضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبث والنشور ، وإنما هذه صفة مشرك مكة عبدة الأوثان ، وعلى سعد رضى الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية . و « أعمالاً » نصب على التمييز . و « حبطت » قراءة الجمهور بكسر الياء . وقرأ ابن عباس « حبطت » بفتحها .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ قراءة الجمهور « قيم » بنون المنظمة . وقرأ مجاهد بياء الغائب ، يريد فلا يقيم الله عز وجل . وقرأ عبيد بن عمير « فلا يقوم » ويلزمه أن يقرأ « وزن » وكذلك قرأ مجاهد « فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنٌ » . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكل للشراب فلا وزن عند الله جناح بعوضة .

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة رأى ، وقد ثبت معناه مرغوعاً فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه لياقنى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا وزن عند الله جناح بعوضة أقرىوا إن شئتم » . « فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » . والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حصة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حصة له فهو فى النار . وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال

بجبال تامة فلا رن شيئا . وقيل : يحتمل أن يريد الجواز والاستمارة؛ كأنه قال : فلا قدر لم
 عندنا يومئذ؛ والله أعلم . وفي هذا الحديث من الفقه ذم السن لمن تكلفه، لما في ذلك من
 تكلف المطامع والأشتغال بها عن المكلام، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية
 المبتغى به التزفة والسن . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى
 ألحبر السمين " . ومن حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم
 قرني ثم الذين يلونهم — قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنيه قرنين أو ثلاثة — ثم إن من
 بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم
 السن " وهذا ذم . وسبب ذلك أن السن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشربة،
 والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبده، ومن
 كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لم تولد عن محبت قالنا أولى به؛ وقد ذم الله
 تعالى للكفار بكثرة الأكل قال : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ
 مَثْوًى لَّهُمْ » فلما كان المؤمن يشبه بهم، ويتمتع بتمتعهم في كل أحواله وأزمائه، فإن
 حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف الإسلام؟! ومن كثرة أكله وشربه كفرهم وحرصه، وزاد
 بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هانئا، وليله نائما . وقد مضى في « الأعراف » هذا المعنى؛
 وقدم فيها ذكر الميزان، وإن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة . وقال
 عليه الصلاة والسلام حين منحكوا من حش ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة: " تضحكون
 من ساق توزن بعمل أهل الأرض " فدل هذا على أن الاختصاص توزن؛ ذكره المنزوي .
 قوله تعالى : (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ) « ذلك » إشارة إلى ترك الوزن، وهو في موضع رفع
 بالابتداء « جزاؤهم » خبره و (جَهَنَّمَ) بدل من المبتدأ الذي هو « ذلك » و « ما » في قوله :
 (يَمَّا كَفَرُوا) مصدرية، والهمزة الاستخفاف والسخرية؛ وقد تقدم .

(١) راجع ج ٧ ص ١٩١ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعه

أول مرة ثانية . (٣) حتى لسان : دققها .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) قال قتادة : الفردوس روية الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرضها . وقال أبو أسامة الباهلي : الفردوس سرّة الجنة . وقال كعب : ليس في الجنان جنة أعل من جنة الفردوس ؛ فيها الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : " إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للباهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألهم الله تعالى فأسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تفرج أنهار الجنة " وقال جاهد : والفردوس البستان بالروية . الفراء : هو عري . والفردوس حديقة في الجنة . وفردوس اسم روضة دون الحمامة . والجمع فراديس ، قال أمية بن أبي الصلت التقي :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة • فيها الفردائس والقومئذ والبصل

والفراديس موضع بالثام . وكرم مفردس أى مُعرّش . (خَالِدِينَ فِيهَا) أى دامين . (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) أى لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها . والحول بمعنى التحويل ؛ قاله أبو علي . وقال الزجاج : حال من مكانه حوَلًا كما يقال : عظم عظاما . قال : ويموز أن يكون من الحيلة ، أى لا يمتثلون منزلا غيرها . قال الجوهرى : التحول التحيل من موضع إلى موضع ، والاسم الحول ، ومنه قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

قوله تعالى : (قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) ضد الشيء إذا تم وفرغ ؛ وقد تقدم . (وَلَوْ جِئْتَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) أى زيادة على البحر عدا أو وزنا . وفي مصحف أبي « مِدَادًا » وكذلك قرأها جاهد وابن عبيد وحيد . وأنتصب « مددا » على التمييز أو الحال . وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قل لم النبي صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْغَنِيِّ إِلَّا قَلِيلًا » قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن

أَوَى التَّوْرَةَ قَدْ أَوَى خَيْرًا كَثِيرًا ؟ قَرَأْتُ « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ » الآية . وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة ، ومن أَوَى الحكمة فقد أَوَى خيرا كثيرا ، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيت التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة . قال ابن عباس : « كَلِمَاتُ رَبِّي » أى مواضع ربي . وقيل : معنى بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات ، ولأنه ينوب منها ، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تضيحا ، وقال الأضنى :

ووجه نَقْيُ الْقَوْنِ صَائِفُ يَرْبُئُهُ . مع الْجَيْدِ بَلَّاتُ لَهَا وَمَعَامُ

فَصِرَ الْبَلَّاتُ مِنَ الْبَلَةِ . وفي الترتيل « نَحْنُ أَوَّلُكُمْ » و « إِنَّا نَحْنُ زَكَاةُ الذِّكْرِ » و « إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » وكذلك « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » لأنه ناب مثاب أمة . وقيل : أى ما هدت العبارات والدلالات التى تدل على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى . وقال السدى : أى إن كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التى هى دار الثواب . وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله . وظاهر هذه الآية « وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَيْنِهِ سِيبَةً لَجُودَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » . وقرأ حمزة والكسائي « قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ » بإيالة لتقدم الفعل .

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) أى لا أعلم إلا ما يلقى الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يمحى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله . (قُلْ كَانَ رِجْوَاءُ رَبِّهِ) أى رجاء ربه وثوابه ويغني عنه (فَلَيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكَ رِعَاءَ رَبِّهِ أَحَدًا) قال ابن عباس : نزلت في جُنْدَبِ بْنِ زُهَيْرِ الْعَمَرِيِّ ، قال : يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى ، وأريد وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا أطلىح عليه سرني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهَ طِيبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبُ وَلَا يَقْبَلُ مَا تُؤْرِكُ فِيهِ » قَرَأْتُ الْآيَةَ . وقال طائوس قال رجل : يا رسول الله إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكاني قرات

هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إني أتصدق وأصل الرِّبم ولا أصح ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك مني وأحمد عليه بفسري ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، فأتى الله تعالى . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .

قلت : والكل مراد ، والآية تضم ذلك كله وغيره من الأعمال . وقد تقدم في سورة « هود » حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين بقضى عليهم أول الناس . وقد تقدم في سورة « النساء » الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار ما فيه كفاية . وقال الماوردي وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : « وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » إنه لا يرأى بعمله أحدا . وروى الترمذي الحكم رحمه الله تعالى في « نوادر الأصول » قال : حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : حدثنا مكي بن إبراهيم قال : حدثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نسي قال : أتيت شداد بن أوس في مصلاه وهو يبكي ، فقلت : ما الذي أمكك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، إذ رأيت بوجهه أمرا ساميا فقلت : يا أبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك ؟ قال : « أمرا أتخوفه على أمتي من بعدى » قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : « الشرك والشهوة الخفية » قلت : يا رسول الله ! وتترك أمك من حدك ؟ قال : « يا شداد أما إنهم لا يبدون شيا ولا قسرا ولا تحمرا ولا وثنا ولكنهم يرايون بأعمالهم » قلت : والرياء شرك هو ؟ قال : « نعم » . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : « أصبح أحدهم صاعا فغرض له شهوات الدنيا فيفطر » قال عبد الواحد : فظيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرني عن الرياء أشرك هو ؟ قال : نعم ، أما غمرا « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . وروى إسماعيل بن إسحق قال حدثنا محمد بن أبي بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد

ابن اوس جالس، قال: انا تتعرف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فاما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقال: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى صلاة يرى بها فقد أشرك ومن صام صياما يرى به فقد أشرك " ثم تلاه : **فَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَعَادَةَ رَبِّهِ أَحَدًا** .

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في « النساء » . وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسانك ولا تحب أن تُكتم سبائك، فإن أظهر الله عليك حسانك تقول هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعل ولا من صنعي، وتذكر قوله تعالى : **فَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكْ يَعَادَةَ رَبِّهِ أَحَدًا** . « **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا** » الآية، يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم، وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا، قبل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب عمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماءنا رضي الله تعالى عنهم : وقد يفتي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به، كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي : منذ كم صرت إلى المراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم، فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبنا عن مستطين . وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فاطال وإلى جانبه قوم، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! فقال : وأنا مع ذلك صائم . أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى تخفف، فقيل له إنك خفت، فقال: إنه لم يخالفها رياء، فخلص من تقصصهم بنى الرياء عن نفسه، والتصنع من صلاته، وقد تقدم في « النساء » دواء الرياء من قول لقمان : **وَأَنَّهُ كَيْفَ أُنْعَمَ .** وروى الترمذي الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الحُمَاقِيُّ قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شبيب عن سفيان قال قال أبو بكر ونسبه به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : **فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم للترك** ، قال : " هو فيكم أخفى من ديب النمل " (١) راجع ج ٥ ص ١٨٣ طبة أول أداتية . (٢) راجع ج ٥ ص ١٨١ وما بعدها طبة أول أداتية .

وسأذك على شيء إذا فعلته أنذهب عنك صفار الشرك ويكفر حول اللهم إني أعوذ بك أن
أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لأعلم هؤلاء ثلاث مرات^١ . وقال عمر بن قيس الكندي
سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ » قال : إنها لآخرة
نزلت من السماء . وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوصى إلى أنه من قرأ « فمن كان
يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً » رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حبشه الملائكة يصلون
عليه ويستغفرون له » . وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ أول
سورة الكهف وآثرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من
الأرض إلى السماء » وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل
فيطلبني النوم ، فقال : إذا أردت أن تهوم أي ساعة شئت من الليل فاقرا إذا أخذت
مضجك « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك
متى شئت من الليل ، ذكر هذه الفضائل العظيمة رضى الله تعالى عنه . وفي مسند الدرامي
أبي عبد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن عبدة عن زاذ بن حيش قال : من قرأ آخر
سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ، قال عبدة بغيرناه فوجدناه كذلك .
قال ابن العربي : كان شيخنا الطرطوشي الأكبر يقول : لا تنهض بكم الأفران في مصالوة
الأفران ، ومواصلة الإخوان ، وقد ختم سبحانه وتعالى اليان بقوله : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ
رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية بإجماع . وهي تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صنوديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ناركم
بأرض الحبشة ، فاهدموا إلى النبلش ، وأبعثوا إليه رجلين من نوى رأيكم لهم يعطيك من
عنده من قريش ، فقتلواهم بن قتل منكم يملو ، فيمت كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله

ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشيها، فبست رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين بجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم «كهيعص» وقاموا فريض أعينهم من النعم، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم «وَلَيَحْذَرُنَّ آفْرِهِمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيْنَ وَرُحَبَاءَ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» - وقرأ إلى قوله : «الشاهدين» - ذكره أبو داود - وفي السيرة : فقال النجاشي : هل ملك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر : نعم؛ فقال له النجاشي : اقرأه عليّ - قال : فقرأ «كهيعص» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحينه، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحسام حين سموا مايتل عليهم؛ فقال النجاشي : هذا والذي جاء به موسى ليخرج من يشكاة واحدة؛ أنطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا؛ وذكر تمام الخبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : كَهَيْعَصَ ① ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَدَأْكَنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنِّي وَإِلَيْ يَعْقُبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يَتَزَكَّرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَدُكَ شَيْبًا ⑨

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سُرُوياً ﴿١٦﴾ نَفَخَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴿١٧﴾ يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُرَّةٍ وَأَنبَتَهُ الْحَكْرَ صَبِيّاً ﴿١٨﴾ وَحَنَاناً مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً ﴿١٩﴾ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴿٢٠﴾ وَسَلِّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَهَمَصَ ﴾ تقدم الكلام في أوائل السور . وقال ابن عباس في « كهمص » : إن الكاف من كاف ، والماء من هاء ، والياء من حيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق ؛ ذكره ابن عزيز القشيري عن ابن عباس ؛ معناه كاف خلقه ، هاد لمبادءه ، يده فوق أيديهم ، عالم بهم ، صادق في وعده ؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدي ومجاهد والضحاك . وقال الكلبي أيضا : الكاف من كريم وكبير وكاف ، والماء من هاء ، والياء من رحيم ، والعين من عليم وعظيم ، والصاد من صادق ؛ والمعنى واحد . وعن ابن عباس أيضا : هو اسم من أسماء الله تعالى ؛ وعن علي رضي الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهمص أغفر لي ؛ ذكره الفريزوني . السدي : هو اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب . قتادة : هو اسم من أسماء القرآن ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عنه . وقيل : هو اسم للسورة ؛ وهو اختيار القشيري في أوائل الحروف ؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : « كهمص » كأنه إعلام باسم السورة ، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع في المقصود . وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة ، ووصلها الباقون ، وأمال أبو عمرو الماء وقح الياء ، وأبن عامر وحمة بالعكس ، وأمالها جميعا الكافي وأبو بكر وخلف . وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره . وقصهما الباقون . وعن خازن أن الحسن كان يضم كاف ، وحكى غيره أنه كان يضم ها ، وحكى إسماعيل بن إسحق أنه كان يضم يا . قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف والماء والياء ؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة (١) رابع ١٧ ص ١٥٤ وما بعدها طيبة الآية أو ثلاثة .

من أحسن ملق هذا والإمامة جائزة في ما ويا . وأما قراءة الحسن فاشكلت على جملة حتى قالوا : لا تجوز؛ منهم أبو حاتم . والقول فيها ما بينه هرون القاري؛ قال : كان الحسن يسم الرقع؛ فمضى هذا أنه كان يومئذ؛ كما حكى سيويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومئذ إلى الواو؛ ولهذا كتبها في المصحف بالواو . وأظهر الدال من عجماء « ص » نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب؛ وهو اختيار أبي عبيد؛ وأدغمها الباقون .

قوله تعالى : (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِيًّا . إِذْ نَادَى رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ) في رفع « ذكر » ثلاثة أقوال؛ قال القراء : هو مرفوع بـ « كهمص » ؛ قال الزجاج : هذا حال؛ لأن « كهمص » ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا ؛ وقد خبر الله تعالى عنه وعن ما بشر به ، وليس « كهمص » من قصته . وقال الأخفش : التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك . والقول الثالث : أن المعنى هذا الذي يتلو عليكم ذكر رحمة ربك . وقيل : « ذكر رحمة ربك » رفع بإضمار مبتدأ؛ لئى هذا ذكر رحمة ربك ؛ وقرأ الحسن « ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » أى هذا المتلون من القرآن ذكر رحمة ربك . وقرئ « ذِكْرٌ » على الأمر . « ورحمة » تكتب ويوقف عليها بالهاء ، وكذلك كل ما كان مثلاً ، لا اختلاف فيها بين النحويين ، واعتلوا في ذلك أن هذه الهاء ثابته الأسماء فارقاً بينها وبين الأفعال .

الثانية - قوله تعالى : (عَبْدَهُ) قال الأخفش : هو منصوب بـ « ورحمة » . « زكريا » بدل منه ؛ كما قول : هذا ذكر ضرب زيد عمراً ؛ فعمر منصوب بالضرب ؛ كما أن « عبده » منصوب بالرحمة . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ معناه : ذكر ربك عبده زكريا برحمة ؛ فـ « عبده » منصوب بالذكر؛ ذكره الزجاج والقراء . وقرأ بعضهم « عَبْدَهُ زَكِيًّا » بالرفع ؛ وهى قراءة أبي العباس . وقرأ يحيى بن عيسى « ذِكْرٌ » بالنصب على معنى هذا القرآن ذكر رحمة عبده زكريا . وقد سمت اللغات والقراءة في « زكريا » في « آل عمران » .

(١) جامع ٤ ص ١٠ طبع لأول مرة

الثالثة - قوله تعالى: (إِذْ تَأْتَى رَبُّهُ بِمَلَأَةِ خَبَاءٍ) مثل قوله: «كُنُوزًا وَبِجَمِّ تَقَرُّمًا وَخَفِيَّةٍ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكِبِينَ» وقد تقدم. والتناء البذاء والرجسة؛ أى تاجى وبه بذلك فى محرابه. دليله قوله: «فَنَادَتْ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ» فينبى أنه استجاب له فى صلاته، كما نادى فى الصلاة. وأختلف فى إخفائه هذا التناء؛ فقيل: أخفاه من قومه لتلايلام على مسئلة الولد عند كبر السن؛ ولأنه أسر دنيوى؛ فإن أجيب فيه ثال بنيه؛ وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد. وقيل: غلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى. وقيل: لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه. وقيل: «خَفِيًّا» سرا من قومه فى جوف الليل؛ والكل عتمل والأثول أظهر؛ والله أعلم. وقد تقدم أن المستحب من البذاء الإخفاء فى سورة «الأعراف» وهذه الآية نص فى ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا. وروى إسماعيل قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو ابن أبى كبشة عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى» وهذا عام. قال يونس بن حديد: كان الحسن يرى أن يدعو الإمام فى الفتوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت، وتلا يونس «إِذْ تَأْتَى رَبُّهُ بِدَاءٍ خَفِيًّا». قال ابن العربى: وقد أسر مالك الفتوت وجهه به الشافعى، والجهر به أفضل؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهرا.

قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) فيه مستثنان:

الأولى - قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ» قرئ «وَهَنَ» بالحركات الثلاث أى ضعف. يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا إذا ضعف فهو واهنٌ. وقال أبو زيد يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا وَهْنًا. وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد نفايه وأصلبه، فإذا وهن كان ملورا له ألوهن

(١) طبع ٧٤ ص ٤٤٤٣ بمطبعة أدل لمراتبة .

(٢) طبع ٧٤ ص ٤٤٤٣ بمطبعة أدل لمراتبة .

منه - ووجهه لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر، وهو أنه لم يبن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانية - قوله تعالى : (وَأَشْتَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا) ادغم السين في الشيب أبو عمرو . وهذا من أحسن الاستعارة في كلام العرب . والاشتغال انقشاع الشعاع الناري شبه به انتشار الشيب في الرأس ؛ يقول : شخت وضعت ؛ وأضاف الاشتغال إلى مكان الشعر ومبته وهو الرأس - ولم يصف الرأس اكفاء، يعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام . « وشيا » في نصبه وجهان : أحدهما - أنه مصدر لأن معنى أشتل شاب ؛ وهذا قول الأخفش . وقال الزجاج : وهو منصوب على التمييز . النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به . والشيب غالبة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثة - قال العلماء : يستحب للراهب أن يذكر في دعائه نعم الله تعالى عليه وما يليق بالخشوع ؛ لأن قوله تعالى : « وَمَنْ أَكْثَرُ نِعَمًا عَلَيَّ » إظهار لضعفه . وقوله : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » إظهار لماديات فضلته في إجابته أدعيته ؛ أي لم أكن بدعائي إياك شقيًّا ؛ أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك ؛ أي إلك عودتي الإجابة فيما مضى . قال : شقي بكذا أي تب فيه ولم يحصل مقصوده . وعن بعضهم أن عنابا سأله وقال : أنا الذي أحسنت إليه في وقت كذا ؛ فقال : مرحبا بمن توصل بنا إليك ؛ وقضى حاجته .

قوله تعالى : (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ » قرأ عثمان بن عفان وعمر بن عبد الرحمن وعمر بن الخطاب والحسين رضي الله تعالى عنهم ويحيى بن عمر « خَفَيْتُ » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من « الموالى » لأنه في موضع رفع « بخفت » ومعناه انقلعت بالموت . وقرأ الباقون « خِفْتُ » بكسر الخاء وسكون الفاء وضم التاء ونصب الياء من « الْمَوَالِيَ » لأنه

في موضع نصب يدهغت . و « الموالى » هنا الأقارب وبنو الم والمصبة الذين يلونه في النسب . والعرب تسمى بنى الم الموالى؛ قال الشاعر^(١) :

مَهْلًا بَنِي عَمَّا مَهْلًا مَوَالِيًا . لَا تَتَّبِعُونَا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَتَفَرًّا

قال ابن عباس ومجاهد وقاعدة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فاشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين تخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب ولدا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القول الزجاج؛ وعليه فلم يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تورث . وهذا هو الصحيح من القولين في تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال؛ لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا مشر الأنبياء لا نورث ما تركا صدقة » وفي كتاب أبي داود : « إنا العلماء وورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم » . وسيأتى في هذا مزيد بيان عند قوله : « يرثى » .

الثانية — هذا الحديث يدخل في التفسير المستند لقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ وعبارة عن قول زكريا : « قَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » وتخصيص المصوم في ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالا خلقه داود بعده؛ وإنما ورث منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب؛ هكنا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلا ما روى عن الحسن أنه قال : « يرثى » مالا « ويرث من آل يعقوب » النبوة والحكمة؛ وكل قول يخالف قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مهجور؛ قاله أبو عمر . قال ابن عطية : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال؛ ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا مشر الأنبياء لا نورث » ألا يريد به المصوم، بل على أنه غالب أمرهم؛ فأملة . والأظهر الأليق بذكرها عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستمرة . ألا ترى أنه لما طلب ولدا ولم يخص ولدا بلفظه الله تعالى أسلمه على أكل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله « من آل يعقوب » يريد العلم والنبوة .

(٢) هو الفضل بن عباس بن حبة بن أبي سب، وهو من شعراء بني هاشم في عهد بني أمية .

الثالثة - قوله تعالى : (مِنْ وَرَائِي) قرأ ابن كثير بالمد والمهمز وفتح الياء ، وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصا . الباقر بالمهمز والمد وسكون الياء . والقراء على قراءة « خفت » مثل نيت إلا ما ذكرنا عن عثمان . وهي قراءة شاذة بعيدة جدا ؛ حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز . قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالى مِنْ بَعْدِي أى من بعد موتى وهو حى ؟ ! ! النحاس : والتأويل لما ألبسني بقوله : « من ورائي » أى من بعد موتى ، ولكن من ورائي في ذلك الوقت ، وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفوا في ذلك الوقت وقتلوا ، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : « أيمهم يكفل مريم » . ابن عطية : « من ورائي » من بعدى في الزمن ، فهو وراءه على ما تقدم في « الكهف »^(١) .

الرابعة - قوله تعالى : (وَكَانَتْ أُمُّرَأَتِي عَاقِرًا) أمرأته هي إيشاع بنت فاقوزا ابن قيل ، وهي أخت حنة بنت فاقوزا ، قاله الطبري . وحنة هي أم مريم حسب ما تقدم في « آل عمران »^(٢) بيانه . وقال الفتي : أمراة زكريا هي إيشاع بنت عمران ، فعل هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة . وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه . وفي حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : « فلقيت أجن الخالة يحيى وعيسى »^(٣) شاهدا للقول الأول . والله أعلم . والمافر التي لا تلد لكبر سنها ؛ وقد مضى بيانه في « آل عمران » . والمافر من النساء أيضا التي لا تلد من غير كبر . ومنه قوله تعالى : « وَيَحْمِلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيًّا » . وكذلك المافر من الرجال ؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبس الفتى إن كنتُ أعرورَ عاقراً • جيانا فاعزى لدى كلِّ محضَرٍ

الخامسة - قوله تعالى : (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) سؤال ودعاء . ولم يصرح بولده لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة . قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة . مقاتل : خمس وتسعين سنة ؛ وهو أشبه ؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره ؛ ولذلك قال : « وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا » . وقالت طائفة : بل طلب الولد ،

(١) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٤ ص ٦٥ طبعة أدل أو ثانية .

(٣) المراد بالقول الأول هنا قول الفتي . (٤) راجع ج ٤ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أدل أو ثانية .

ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفظاً من أن تقع الإجابة في الولد ولكن يُحْتَرَم، ولا يحصل منه النرض.

السادسة — قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام في الولد إنما كان لإظهار دينه، وإحياء نبؤته، ومضاغة لأجره لا الدنيا، وكان ربه قد عوده الإجابة، ولذلك قال : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أي بدعائي إليك . وهذه وسيلة حسنة، أن يَشْفَعُ إليه بنعمه، يستدرفضه بفضلها، روى أن حام الجلود لقبه رجل فضله، فقال له حام : من أنت؟ قال : أنا الذي أحسنت إليه عام أول، قال : مرحبا بمن تشفع إلي بنا . فلان قيل : كيف أقدم زكريا على مسألة ما يخرق العادة دون إذن؟ فالجواب أن ذلك جائز في زمان الأنبياء . وفي القرآن ما يكشف عن هذا المعنى، فإنه تعالى قال : « كُنَّا دَخَلْنا عَلَيْهِ زَكْرِيَّا الْمِغْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلما رأى خارق العادة استحکم طمعه في إجابة دعوته، قال تعالى : « هَئِلِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » الآية .

السابعة — إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك، فقال : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدم في « آل عمران » بيانه . ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقال : « وَأَجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا » . والولد إذا كان بهذه الصفة فزع أجزائه في الدنيا والآخرة، وخرج من حدة العداوة والفتنة إلى حدة المودة والصلة . وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأبي خزيمة خادمه فقال : « اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالِهِ وَوَلَدُهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهَا أَعْطَيْتَهُ » فلما له بالبركة تحرز بما يؤدى إليه الإكثار من الملكة . وهكذا فليضرع العبد إلى مولاه في هداية ولده، ونجاة في أولاده وأخراة اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء، وعند تقدم في « آل عمران » بيانه .

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها طيبة أول أرثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٧٢ طيبة أول أرثانية .

قوله تعالى : (يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَتُوبٍ وَكَجَلَّةٍ رَبِّ رِضًا) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « يَرْثِي » قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحسنه « يَرْثِي وَيَرِثُ » بالرفع فهما . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعشى والكسائي بالجزم فهما ، وليس هما جواب « هب » على مذهب سيوطي ، إنما تقديره إن تبه يرثي ويرث ، والأقول أصوب في المعنى لأنه طلب وارثا موصوفاً ، أي هب لي من تلك الولي الذي هذه حاله وصفته ، لأن الأولياء منهم من لا يرث ، فقال : هب لي الذي يكون وارثاً ، قاله أبو عبيد ، ورد قراءة الجزم ، قال : لأن سماء إن وهبت ورث ، وكيف ينجر الله عز وجل بهذا وهو أعلم به منه ؟ ! النحاس : وهذه حجة متقدمة ، لأن جواب الأمر عند القوييح فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطلع الله يدنك الجنة ، أي إن نطمه يدنك الجنة .

الثانية - قال النحاس : فاما معنى « يرثي ويرث من آل يَتُوبٍ » فاعلماء فيه ثلاثة أجوبة ، قيل : هي وراثة نبوة . وقيل : هي وراثة حكمة . وقيل : هي وراثة مال . فاما قولهم وراثة نبوة فعال ، لأن النبوة لا تورث ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس يشيرون إلى نوح عليه السلام وهو نبي مرسل . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن ، وفي الحديث « العلماء ورثة الأنبياء » . وأما وراثة المال فلا يمتنع ، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي صل الله عليه وسلم : « لا تورث ما تركا صدقة » فهذا لا حجة فيه ، لأن الواحد ينجر عن نفسه بإخبار الجمع . وقد يؤول هذا بمعنى : لا تورث الذي تركاه صدقة ، لأن النبي صل الله عليه وسلم لم يخلف شيئا يورث عنه ، وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته بقوله تبارك اسمه : « وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُ لَكُمْ وَرَثَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ » لأن معنى « لله » لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول صل الله عليه وسلم ما دام حيا ، فإن قيل : فبي بعض الروايات « إنا سألنا الأنبياء لا تورث ما تركا صدقة » فيه تناو يلان جميعا ، أن يكون « ما » بمعنى الذي . والآخر لا يورث من كانت هذه حاله . وقال أبو عمر : وأختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : « لا تورث ما تركا صدقة » على قولين : أحدهما - وهو

الأكثر عليه الجهور - أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة - والآخر - أن نبياً عليه الصلاة والسلام لم يورث؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة في فضيلته، كما خص في الكناح بأبناء إباحها له وحرما على غيره؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عتبة، وسائر علماء المسلمين على القول الأول .

الثالثة - قوله تعالى : « مِنْ آلِ يَسْقُوبَ » قيل : هو يعقوب إسرائيل، وكان زكريا متزوجاً باخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلى يعقوب؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هرون أنى موسى، وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب، وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحق . وقيل : المعنى يعقوب هاشميا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم أخوان من نسل سليمان بن داود طبعهما السلام؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل؛ قاله مقاتل وغيره . وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله ، وهو يعقوب بن ماثان ، وكان فهم الملك ، وكان زكريا من ولد هرون بن عمران أنى موسى . وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله - تعالى - زكريا ما كان عليه من ورثته" . ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمي . الرابعة - قوله تعالى : « وَأَجَلُهُ رَبِّ رِضًا » أى مرضيا في أخلاقه وأفعاله . وقيل : راضيا بقضائك وقدرتك . وقيل : رجلا صالحا ترضى عنه . وقال أبو صالح : نيا كما جعلت أباه نيا .

قوله تعالى : (يَا زَكَرِيَّا) في الكلام حذف؛ أى فاستجاب الله دعاءه فقال : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) فخصت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها - إجابة دعائه ومي كرامته . الثانى - إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث - أن يفرد بتسميته ؛ وقد هتمنى معنى تسميته في آل عمران . وقال مقاتل : سمى يحيى لأنه حي بين أب شيخ وأم عجز . وهذا فيه نظير لما تقدم من أن امرأته كانت عقيم لا تلد . والله أعلم .

قوله تعالى : (لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) أي لم نسم أحدا قبل يحيى بهذا الاسم ، قاله ابن عباس وقفاة وابن أسلم والحداد . ومن طبعه تعالى بأن لم يجعل تسميته إلى الأبوين . وقال مجاهد وغيره : « سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا ، وهو مثل قوله تعالى : « هَلْ تَسْمَعُ لَهُ سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا كأنه من المسامة والسمو ، وهذا فيه بعد ، لأنه لا يفضل على إبراهيم وحسب ، اللهم إلا أن يفضل في خاص كالسودد والحصر حسب ما تقدم بيانه « في آل عمران » . وقال ابن عباس أيضا : معناه لم تله المواقف مثله ولنا . وقيل : إن الله تعالى اشترط القبل ، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسماء السخ ^(١) جدية بالآخرة ، وإياها كانت العرب تنحى في التسمية لكونها أنبه وأزهر من البز حتى قال قائل :

سَخُّ الْأَسْمَى مُسْبِلُ أَزْرٍ • خَيْرُ تَمَسُّ الْأَرْضَ بِالْهَدْبِ

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سألته عن نبيه : أنا ابن السباج ، فقال : قَصَرَتْ وَهَرَفَتْ .

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ أُنْزِلْ لِي قُلَامًا) ليس على معنى الإنكار كما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التحجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة قافر وشيخ كبير . وقيل : غير هذا مما تقدم في « آل عمران » بيانه . (وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا) يعني النهاية في الكبر واليبس والجفاف ، ومثله العتي ، قال الأصمعي : عَتَا الشيءُ يَسُو عُسْوًا وَعَسَاءً مَمْدُودٌ أَيْ يَبْسُ وَهَلْهُ ، وقد عَتَا الشيخُ يَسُو عِتْيًا وَلَّى وَكَبِرَ مِثْلَ عَتَا ، يَخَالُ : عَتَا الشَّيْخُ يَتَوَفَّى عِتْيًا كَبِرَ وَوَلَّى ، وعوت يا فلان تنو عتوا وعيتا . والأصل عتو لأنه من ذوات الواو ، فأقبلوا من الواو ياء ، لأنها أختها وهي أخف منها ، والآيات على الباءات ، ومن قال :

« عِتْيًا » كره الضمة مع الكسرة والياء ، وقال الشاعر :

إِنَّمَا يُسَفِّرُ الْوَلِيدُ وَلَا يُبْرِ • حُرٌّ مِنْ كَانَ فِي الزَّمَانِ عِتْيًا

(١) البهية .

(٢) جامع ٤٩ ص ٧٩ مطبعة المدبر لثانية

وقرا ابن عباس «عِيسَى» وهو كذلك في مصحف أبي - وقرا يحيى بن وثاب وحزرة والكسائي وحنس «حِيا» بكسر الهمزة وكذا «حِيا» و «حِيا» حيث كن - وضم حنص «يُحْيَا» خاصة، وكذلك الباقر في الجميع، وهما لثان - وقيل : «حِيا» قِيَا، يقال : ملك عليت إذا كان قاضي القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ أي قال له الملك « كذلك قال ربك » والكاف في موضع رفع؛ أي الأمر كذلك؛ أي كما قيل لك : « هو على هين » . قال الفراء : خلفه على هين . ﴿ وَقَدْ خَقَّقْتُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل يحيى . وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وناحم . وقرا سائر الكوفيين « وَقَدْ خَقَّقْنَاكَ » بنون وألف بالجمع على المتظيم . والقراءة الأولى أشبه بالسواد . ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أي كما خفك الله تعالى بعد العدم ولم تكن شيئا موجودا، فهو القادر على خلق يحيى وإيماحه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه، وبعد قوله تعالى : « وَقَدْ خَقَّقْتُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » زيادة طمأنينة؛ أي تم النعمة بأن يجعل لي آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . وقيل : طلب آية تدله على أن البشري منه يحيى لا من الشيطان، لأن إبليس أوهمه ذلك . قاله الضحاك وهو معنى قول السدي؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ما تقدم في « آل عمران » . ﴿ قَالَ آتَاكَ الْأُنْكَمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ تقدم في « آل عمران » بيانه فلا معنى للإعادة . قوله تعالى : ﴿ نَفَخَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْغَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعِشَاءً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « نَفَخَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْغَرَابِ » أي أشرف عليهم من المصل . والحراب أرفع المواضع، وأشرف المجالس، وكانوا يخفون الحارِبِ فيها أرفع من الأرض؛ دليله حراب داود عليه السلام على ما يأتي . واختلف الناس في اشتقاقه؛ فقالت فرقة :

(١) راجع ج ٤ ص ٨٠ وما بعدها طبعه أهل أوتانية .

هو ماخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات . وقالت فرقة : هو ماخوذ من الحرب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقي منه حرباً وتعباً ونصباً .

الثانية - هذه الآية تدل على أن ارتفاع إمامهم على للمؤمنين كان مشروعا عندهم في صلاتهم . وقد اختلف في هذه المسئلة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد ورضيه منسكا بقصة المنبر . ومنع مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير ، وعَلَّل أصحابه المنع بخوف الكبر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظري ، وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أم الناس بالمدين على دكان ، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجذبه ، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هذا - أو - يُنهى عن ذلك ! قال : بلى ؛ قد ذكرت حين مددتى . وروى أيضا عن عدي بن ثابت الأضاري قال : حدثني رجل أنه كان مع عمار بن ياسر بالمدين ، فاقبعت الصلاة فتقدم عمار بن ياسر ، وقام على دكان يصل والناس أسفل منه ، فقذم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة ، فلما فرغ عمار من صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أمَّ الرجلُ القوم فلا يَمُ في مكان أرفعَ من مقامهم " أو نحو ذلك ؛ فقال عمار : لتلك اتبعت حين أخذت على يدي .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهي عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ . ومما يدل على نسخه أن فيه عملا زائدا في الصلاة ، وهو التزول والصعود ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما اعتز به أصحابنا من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مصصوما من الكبر ؛ لأن كثيرا من الأئمة يوجد لا يكبر عندهم . ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : « قَاوَسَ الْإِثْمَ أَنْ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » قال الكلبي وقطادة وابن منه : أوحى إليهم أنوار . القتيبي : أوما . مجاهد : كتب على الأرض . عكرمة : كتب في كتاب . والبرص في كلام العرب الكتابة ؛ ومنه قول ذي الرمة :

سوى الأربع الغنم الواقي كأنها • يَبْقَى وَخِي فِي بَطُونِ الْمَسَاتِفِ

وقال عسرة :

كوفي صحائف من عهد كسرى • فأهداها لأعجم طيطي

وذكره وعشيا • طرفان • وزعم الفراء أن العشي يؤث ويحوز تذكره إذا أجمعت • قال :
وقد يكون العشي جمع عشة •

الرابعة — قد تقدم الحكم في الإشارة في « آل عمران » • واختلف علماء فيمن حلف
ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا ، أو أرسل إليه رسولا ، قال مالك : إنه يحث إلا أن ينوي
مشافهته ، ثم رجع فقال : لا ينوي في الكتاب ويحث إلا أن يرجع الكتاب قبل وصوله •
قال ابن القاسم : إذا قرأ كتابه حث ، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليه • وقال
أشهب : لا يحث إذا قرأه الحالف ، وهذا بين ، لأنه لم يكلمه ولا ابتدأه بكلام ، إلا أن يريد
ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحث وعليه يخرج قول ابن القاسم • فإن حلف ليكلمته لم ير إلا
بمشافهته ، وقال ابن الماجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليعلمته أو ليخبرته فكتب إليه
أو أرسل إليه رسولا برّا ، ولو علماه جميعا لم ير ، حتى يعلمه لأن عليهما مختلف •

الخامسة — وأتفق مالك والشافعي والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده
لزمه ، قال الكوفيون : إلا أن يكون رجل أصمّ أيما فكتب لم يميز من ذلك شيء • قال
الطحاوي : الأخرس مخالف للصمت المارض ، كما أن العجز عن الجماع المارض لمرض ونحوه
يوما أو نحوه مخالف للمعجز المايوس منه الجماع ، نحو الجنون في باب خيار المرأة في الفرقة •
قوله تعالى : (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) في الكلام حنف ، المعنى قوله له ولد وقال الله
تعالى للولود : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » • وهذا اختصار يدل الكلام عليه • وذكره للكتاب •
التوراة بلا خلاف • « بقوة » أي يجهد وأجتهاد ، قاله مجاهد • وقيل : العلم به ، والحفظ له
والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكف عن نواهيه ، قاله زيد بن أسلم ، وقد تقدم

في « البقرة » . (وأَيُّهُ الْحَكَمُ صَيًّا) قيل : الأحكام والمعرفة بها . وروى سَعْدُ بْنُ أَبِي عَدْنَانَ الصَّيَّانُ قَالُوا لِيحْيَى : أَكْذَبَ بِنَا نَعْبُ ؟ قَالَ : مَا لِي بِكَ خَلَقْتُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « وَأَيُّهُ الْحَكَمُ صَيًّا » . وقال قتادة : كَانَ أَبْنُ سَلَمَةَ أَوْ ثَلَاثَ سِنِينَ . وَقَالَ مَقَاتِلُ : كَانَ أَبْنُ ثَلَاثَ سِنِينَ . وَ« صَيًّا » نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلِمَ فَهُوَ مِنْ أَوْلَى الْحَكَمِ صَيًّا . وَرَوَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ يَمِينِي بَنِي زَكَرِيَّا » . وَقَالَ قَتَادَةُ : إِنْ يَمِينِي عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَعْصِ اللَّهَ قَطُّ بِصَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ وَلَا هَمٍّ بِأَمْرَاءَ . وَقَالَ بِجَاهِدٍ : وَكَانَ طَعْمُ يَمِينِي عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعُشْبَ ، وَكَانَ لِلْعَمِّ فِي خَنْبِهِ بِجَارٍ ثَابِتَةً . وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « وَسَيِّئًا وَخَصُورًا » فِي « آلِ عِمْرَانَ » .

قوله تعالى : « وَحَنَاتٌ مِنْ لَدُنَّا » « حَنَاتٌ » عَطْفٌ عَلَى « الْحَكَمِ » . وَرَوَى عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : وَانْتَهَى مَا أُعْذِرُ مَا « الْحَنَانُ » ؟ . وَقَالَ جَمَاهُورُ الْمُفَسِّرِينَ : الْحَنَانُ الشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْحُبَّةُ ؛ وَهَوَّاسٌ مِنَ أَفْئَالِ النَّفْسِ . النَّفَاسُ : وَفِي مَعْنَى الْحَنَانِ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا — قَالَ : تَعَطَّفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ . وَالْقَوْلُ الْآخَرُ مَا أُعْطِيَهِ مِنْ رَحْمَةِ النَّاسِ حَتَّى يَحْتَلِمَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ . وَأَصْلُهُ مِنْ حَنَنَ النَّاقَةَ عَلَى وَلَدِهَا . وَيُقَالُ : حَنَانُكَ وَحَنَانِيكَ ؛ قِيلَ : هُمَا تَتْلُو بَعْضُ وَاحِدٍ . وَقِيلَ : حَنَانِيكَ تَتْلُو الْحَنَانُ . وَقَالَ أَبُو هَيْدَةَ : وَالْعَرَبُ يَقُولُ : حَنَانُكَ يَا رَبَّ وَحَنَانِيكَ يَا رَبَّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ؛ تَرِيدُ رَحْمَتَكَ . وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَيْبَى بْنِ جَرْمٍ • مَيِّزَهُمْ حَنَانُكَ ذَا الْحَنَانِ (١٣)

وقال طرفة :

إِنَّا مُنْذِرُ أَفْيَيتٍ فَاسْتَبِي بَطْنًا • حَنَانِيكَ بَعْضُ الشُّرَاهُونَ مِنْ بَيْضِ

وقال الرُّمَيْسِيُّ : « حَنَانٌ » رَحْمَةٌ لِأَبَوَيْهِ وَغَيْرِهَا وَتَطْفَأُ وَشَفَقَةٌ ؛ وَأَنْشَدَ سَيُودَةُ :

فَقَالَتْ حَنَانٌ مَا أَكَلِي بِكَ هَاهُنَا • أَذُو قَسِبٍ لَمْ أَتِ بِالْحَيِّ مَارِقٌ

(١) رابع ١٧ ص ٢٧ طبعه أملا أرادتة . (٢) رابع ٧ ص ٤٦ طبعه أملا أرادتة .

(٣) (سورة النحل) - سورة النحل -

قال ابن الأعرابي : الحنان من صفة الله تعالى مشددا للرحم . والحنان عطف . للطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . ابن عطية : والحنان في كلام العرب أيضا ما علم من الأمور ذات الله تعالى ، ومنه قول زبدين عمرو بن قنيل في حديث بلال : والله اني قطع هذا العيد لأتخذن قبره حننا ، وذكر هذا الخبر المروى ، فقال : وفي حديث بلال ومروطيه ورقة بن نوفل وهو يئس قال : والله اني قطعوه لأتخذنه حننا ، أى لأتسحق به . وقال الأزهري : معناه لأتعطفن عليه ولأرحمن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف ، وكذا قال مجاهد . و « حننا » أى تعطفنا عليه أو مع كل الخلق ، قال الخطيب :

فَمَنْ عَلَى هَذَاكَ الْمَلِكِ . فَإِنْ لَكَ مَقَامَ مَقَالَا

عكرمة : حبة . وحن الرجل أمراته لنواذلهما ، قال الشاعر :

فَقَالَتْ حَنَانُ مَا أَتَى بَكَ هَاعَا . أَذْوَئِبِ أُمِّ أَنْتَ بِالْحَى عَارِفُ

قوله تعالى : (وَزَكَاةً) « الزكاة » التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر ، أى جعله مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكياه بحسن الثناء عليه كما تركى الشهود إنسانا . وقيل : « زكاة » صدقة به على أوبىه ، قاله ابن قتيبة . (وَكَانَ تَقِيًّا) أى مطيعا لله تعالى ، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يلم بها .

قوله تعالى : (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) البر بمعنى البار وهو الكثير البر . و (جَبَّارًا) متكبرا . وهذا وصف ليحيى عليه السلام بين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعالى : (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ) قال الطبري وغيره : معناه أمان . ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية للمناورة فهى أشرف وأنبه من الأمان ، لأن الأمان معصّل له يحيى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه ، وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة وانقر إلى الله تعالى عظم الخزل .

قلت : وهذا قول حسن ، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عينة في سورة « سبحان »^(١)
 عند قتل يحيى . وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا — وهما أبنا الخالدة — فقال
 يحيى لعيسى : أَدْعِ الله لي فانت خير مني ؛ فقال له عيسى : بل أنت ادع الله لي فانت خير مني ؛
 سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي ؛ فأتى بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى ؛
 بأن قال : إدلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي أفضت ذلك حين قرر وحكي
 في حكم التزويل أعظم في الميزة من أن يسلم عليه . قال ابن عطية : ولكل وجه .

قوله تعالى : **وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا** ^(١٧) **فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ^(١٨) **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا** ^(١٩)
قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ^(٢٠) **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** ^(٢١) **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا** ^(٢٢)
فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَعَتْهُ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ^(٢٣) **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا** ^(٢٤) **فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** ^(٢٥) **وَهَرَى إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَةُ سَقِطَةً عَلَيْكَ رَبُّكَ جَنِيًّا** ^(٢٦) **فَكَلَّمَهَا وَقَالَ اقْنِصِي صَبْرًا فَقَبْلًا فَلَمَّا تَرَى مِنْ آيَاتِنَا أَنْشَاءً فَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْغَائِبِينَ** ^(٢٧)
أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِسِيًّا ^(٢٨)

قوله تعالى : (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ) القصص إلى آخرها . هذا ابتداء قصة ليست من الأولى . والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتها . (إِذِ اتَّخَذَتْ) أي تحت وتباعدت . والبذ الطرح والرمى ؛ قال الله تعالى : « فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » . (مِنْ أَهْلِهَا) أي من كان معها . و « إِذ » بدل من « مريم » بدل اشتمال ؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها . والاتباع الاعتزال والانفراد . وأختلف الناس لم اتَّخَذَتْ ؛ فقال السدي : اتَّخَذَتْ لتظهر من حيض أو غاس . وقال غيره : تعبد الله ؛ وهذا حسن . وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سداة المعبود وخدمته والعبادة فيه ؛ فتحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقه لتخلو للعبادة ؛ فدخل عليها جبريل عليه السلام . قوله : (مَكَانًا شَرْقِيًّا) أي مكانا من جانب الشرق . والشرق يسكن وراء المكان الذي تشرق فيه الشمس . والشرق بفتح الراء الشمس . وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها ؛ حكاه الطبري . وحكى عن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله عز وجل : « إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؛ وقالوا : لو كان شيء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه . وأختلف الناس في نيوة مريم ؛ فقيل : كانت نيوة بهذا الإرسال والمجاورة لذلك . وقيل : لم تكن نيوة وإنما كلها مثال بشر ، ورؤيتها لذلك كما رؤى جبريل في صفة دحية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام . والأول أظهر . وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفى في « آل عمران » والحمد لله .

قوله تعالى : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) قيل : هو روح عيسى عليه السلام ؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد ، فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها .
وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصاً وكرامة . والظاهر أنه جبريل عليه

السلام، لقوله : (قَتَلْتُمْ لَهَا) أى تمثل الملك لها . (بَرًّا) تفسير أو حال . (سَوَاءً)
 أى مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لطريق أو تنظر جبريل في صورته . ولما رأت رجلاً حسن
 الصورة في صورة البشر قد حرق عليها الجباب ظنت أنه يريد بها بسوء فـ (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ
 بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ قَيِّبًا) أى ممن يتقى الله . الْيَكَّالُ : فكص جبريل عليه السلام
 فرعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى . التلطي : كان رجلاً صالحاً فتوفت به تعجبا . وقيل :
 تقى فعل بمعنى مفعول أى كنت ممن يتقى منه . فى البخارى قال أبو وائل : علمت مريم
 أن التقي ذونحية حين قالت : « إن كنت قيباً » . وقيل : تقى اسم فاجر معروف فى ذلك
 الوقت ؛ قاله وهب بن منبه ؛ حكاه مكي وغيره . ابن عطية : وهو ضعيف فذهب مع
 الصخرى . فقال لما جبريل عليه السلام : (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) جل
 الية من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ ورش عن نافع « لِيَهَبَ لَكِ » على معنى
 أرسلنى الله ليهب لك . وقيل : معنى « لأهب » بالمعز محمول على المعنى ؛ أى قال :
 أرسلته لأهب لك . ويحتمل « ليهب » بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خفت الهمزة .
 فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه فـ (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
 يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) أى بشكاح . (وَلَمْ أَكُ يَتِيمًا) أى زانية . وذكرنا هنا تأكيذاً لأن قولها
 لم يمسسنى بشر يشمل الحلال والحرام . وقيل : ما استعملت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن
 أرادت كيف يكون هذا الولد ؟ من قبل الزوج فى المستقبل أم يحفظه الله ابتداء ؟ وروى أن
 جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة ففزع فى جيب ودعها وكها ؛ قاله ابن جرير .
 ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُذْناً قبصها بإصبعه ففزع فيه فحملت من ساحتها ببيسى .
 قال الطبرى : وزعت النصارى أن مريم حملت ببيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وأن عيسى طاش
 إلى أن رفع اثنين وثلاثين سنة وأياما ، وأن مريم بقيت بعد رضعه ست سنين ، فكان جميع عمرها
 نيفا وخمسين سنة . وقوله : (وَلَنَجْهَنَّه) متعلق بمحذوف ؛ أى ونحلقه ليصله : (آيَةً)
 دلالة على قدرتنا عجيب (وَرَحْمَةً) لمن آمن به . (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) مقدرا فى اللوح مسطورا .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبَعْتُهُ بِمَكَانٍ قَصِيًّا ﴾ أى تحت بالحمل إلى مكان بعيد؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال ، وإنما جعلت فرارا من تمييز قومها إياها بالولادة من غير زوج . قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحلال وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى ذكر الألبان عقب الحمل . وقيل : غير ذلك على ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ «أجاءها» أضطرها ، وهو تعذيبه جاء بالمعز . يقال : جاء به وأجاءه إلى موضع كذا ، كما يقال : ذهب به وأذعبه . وقرأ شيل ورويت عن عاصم « فأجأها » من المفاجأة . وفى مصحف أبى « فلما أجاءها المخاض » . وقال زهير :

وَجَارٍ سَارَ سَتَمَدًا إِلَيْنَا . أَجَاءَهُ الْمَضَاةُ وَالرَّجَاءُ

وقرأ الجمهور « المخاض » بفتح الميم . وابن كثير فيها روى عنه بكسرهما وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها . تخضت المرأة تخض تخاضا وتخاضا . وثاقه ماخض أى دنا ولادها . « إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ » كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتعلق به ، كما تعلق الحامد لشدة وجع الطلق . والجذع ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سقف عليه ولا غصن ؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ تمت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين : أحدهما — أنها خافت أن يظن بها الشرف دينها وتبرير فيفتنها ذلك . الثانى — لتلايق قوم بسببها فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . وعلى هذا الحديث يكون معنى الموت جائزا ، وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « يوسف » عليه السلام ، والمقدمة .

قلت : وقد سمعت أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : أخرج يا من يُبَيِّد من دون الله فخرزت لذلك ، و﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسَاءً مَنِيًّا ﴾ . النسي فى كلام العرب الشيء الحفري الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لتفقدته كالوتد والحبل للسافر ونحوه .

وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرجل عن منزل قالوا : أحفظوا أنساءكم ؛ الأنساء جمع نسي وهو الشيء الحقيق يغفل فينسى . ومنه قول الكيت رضى الله تعالى عنه :

أجعلها جسراً لكب قُبْصَاعُهُ . ولست بِنُسي في مَعْدٍ ولا دَل

وقال القراء : النسي ما تلقى المرأة من تحرق أعلاها ؛ فعول مريم : « نسيا نسيا » أى حيلة ملقاة . وقرئ « نَسِيًا » بفتح النون وهما لفتان مثل البحر والجزر والوتر والوتر . وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز « نَسِيًا » بكسر النون . وقرأ نوف اليكالي « نَسِيًا » بفتح النون من نسا الله تعالى في أجله أى أخره . وحكاها أبو الفتح والداني عن محمد بن كعب . وقرأ بكر بن حبيب « نَسَا » بتشديد السين وفتح النون دون همز . وقد حكى الطبري في قصصها أنها لما حملت ببسبى عليه السلام حملت أيضاً أختها يحيى ، بغامتها أختها زارة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ؛ فذلك أنه روى أنها أحست بيمينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدى فذلك قوله : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ » . وذكر أيضاً من قصصها أنها خرجت فآزة مع رجل من بنى إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها فى المسجد وطول فى ذلك . قال الكلبي : قيل ليوسف - وكانت سميت له أنها حملت من الرزى - فالآن يغتلبها الملك ، فهرب بها ، فهم فى الطريق يقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس ؛ قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف . وهذه القصة تقتضى أنها حملت ، وأستمرت حاملاً على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدت ثمانية أشهر . قاله عكرمة ؛ ولذلك قيل : لا يبشئ ابن ثمانية أشهر حفظاً لخلاصة عيسى . وقيل : ولدت تسعة . وقيل : لسنة . وما ذكرناه من ابن عباس أصح وأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : (فَتَدَاوَا مِنْ تَحْتِهَا) قرئ بفتح الميم وكسر ها . قال ابن عباس : المراد - « من » جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به فومها ؛ وقاله عظمة والضماك وقادة ؛ ففى هذا لما آية وأمارة أن هذا من الأمور المخارفة العادة التى لله فيها مراد عظيم . وقوله :

(الْأَعْرَبَى) تيسر النداء ، « وَأَنْتَ » مفسرة بمعنى أى ، المعنى : فلا تحزنى بولادتك .
 (قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سِرًّا) بنى عيسى . والسرى من الرجال العظيم الخصال السيد . قال
 الحسن : كان واقه سرياً من الرجال . ويقال : سرى فلان على فلان أى تكرم . وفلان
 سرى من قوم سرة . وقال الجمهور : أشار لما إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة .
 قال ابن عباس : كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم . والنهر يسمى سرياً
 لأن الماء يسرى فيه ، قال الشاعر :

سَلَّمَ تَرَى الْعَالِي مِنْهُ أَرْوَرًا • إِنْ يَبُّ فِي السَّرَى مَرَمَرًا

وقال ليبي :

فَوَسَطًا مَرَضَ السَّرَى وَضِدًا • مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قَلَامَهَا

وقيل : ناداه عيسى ، وكان ذلك معجزة وآية وتسكيناً لقلبيها ، والأول أظهر . وقرأ ابن عباس
 « فناداه ملك من نحبها » قالوا : وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من
 البقعة التى كانت هى عليها .

قوله تعالى : (وَهَزَى إِلَيْكَ يَمِذَجِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا خَبِيثًا • فَكُلْ وَاشْرَبْ)
 وقرئ خَبِيثًا) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَهَزَى » أمرها بيز الجذع الباس لتري آية أخرى في إحياء
 موات الجذع . والباء في قوله : « يَمِذَجِ » زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزمام ، وأعط بيدك ،
 قال الله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ » أى فليمدد سبباً . وقيل : المعنى ، وهزى إليك
 رطباً على جذع النخلة . « وَتَسَاقُطُ » أى تساقط فأدغم التاء في السين . وقرأ حزة « تَسَاقُطُ »
 مخففاً مخففاً الذى أدغمها غيره . وقرأ عاصم في رواية حفص « تَسَاقُطُ » بضم التاء مخففاً
 وكسر التاء . وقرئ « تَسَاقُطُ » بإظهار التامين و « تَسَاقُطُ » بالياء وإدغام التاء . وتُسَقِطُ »

(١) السلم : المثل إلى ما مرقة واحدة ككلو السقاين . والمثل : المستن بالفلو . والمهرمة : صوت الماء
 إذا جرى . (٢) أى شق البر والآن البت الذى على الماء . وسجورة : عين ملونة . والمتجاوز المقابوب
 والقلام : بخت ، وقيل : هو القصب . واليت من لفته .

و « يَنْقُط » و « تَسْقُط » و « يَسْقُط » بالثاء للنخلة وبالياء للبدع؛ فهذه تسع قراءات
 ذكرها الرعمشري رحمه الله تعالى عليه. « رطباً » نصب بالهز؛ أي إذا هزرت البدع هزنت
 هزته. « رطباً جناً » . وعلى الجملة فـ « رطباً » يختلف نصبه بحسب معاني القراءات؛ فرة
 يستند الفعل إلى البدع، و مرة إلى الهز، و مرة إلى النخلة . « وجناً » معناه قد طابت
 و صلت للاجتماع، وهي من جيت الثمرة . و يروى عن ابن مسعود - ولا يصح - أنه
 قرأ « تساقط عليك رطباً جنناً بريئاً » . وقال مجاهد : « رطباً جنياً » قال : كانت عجوة .
 وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : « رطباً جنياً » فقال : لم يذو .
 قال وغضبه : لم يغف ولم يمس ولم يبعد عن يدي مجتبه؛ وهذا هو الصحيح . قال
 القراء : الجنى والنجى واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القليل والمقتول والجريح والمجروح .
 وقال غير القراء : الجنى المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته؛ وأنشدوا :
 وطيب ثمار في رياض أريضة . وأغصان أشجار جناتها على قُرب
 يريد بالجنى ما معنى منها أي قطع ويؤخذ . قال ابن عباس : كان جذعاً نخراً فلما هزت
 نظرت إلى أعلى البدع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف،
 ثم اخضر فصار بلماً ثم أحمر فصار زهواً، ثم رطباً؛ كل ذلك في طرفة عين، بفعل الرطب يقع
 بين يديها لا يشتدخ منه شيء .

الثانية - استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً؛ فإن
 الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت
 الآية تكون بالانهز .

الثالثة - الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك
 لا يقدح في التوكل، خلافاً لما تقول بهال المترمة؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه .
 وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : « كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۚ الآية . فلما ولدت أسرت بهزّ المدع . قال علمائنا : لما كان قلبها فارغا فرغ الله جوارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها به ، واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وكلها إلى كسبها ، وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده . وحكى الطبري عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزني ؛ فقالت له وكيف لا أحزن وأنت ممي ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أي تبي عندي عند الناس ؟ ! يا ليتني ميت قبل هذا وكنت نبياً نبياً ، فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعة — قال الربيع بن خثيم : ما للنساء عندي خير من الرطب لهذه الآية ، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : النسر عادة للنساء من ذلك الوقت ، وكذلك التحنك . وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ، ولا للريض خير من العسل ؛ ذكره الزمخشري . قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « رطباً جيناً » الجنى من التمر ما طلب من غير قش ولا إفساد . والنقش أن يُغش من أسفل البصرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ بنى مالك أن هذا تحجيل للشيء قبل وقته ، فلا ينبغي لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجزواً ليه ؛ ولا حُكماً عليه . وقد مضى هذا القول في الأنعام . والحمد لله . عن طلحة بن سليمان « جيناً » بكسر الجيم للإتباع ؛ أي جعلنا لك في السرى والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، الثانية ملوّة الصدر ؛ لكونهما منجزتين ؛ وهو [معنى] قوله تعالى : (فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرَّ عَيْنًا) أي فكل من الجنى ، واشرب من السرى ، وقَرَّ عينا برؤية الولد النبي . وقَرَّ بفتح القاف وهي قراءة الجمهور . وحكى الطبري قراءة « وَقَرَّ » بكسر القاف وهي لغة نجد . يقال : قرَّ عينا يُقرّ ويُقرِّبضم القاف وكسرهما ؛ وأقرأه عنه فقزت . وهو مأخوذ من القز والقزّة وهما البرد . ودسة السرور باردة ، ودسة الحزن حارة . وضفّ فرقة هنا وقالت : البسك كله حار ، فبني أقرأه عنه أي سكن الله عنه بالنظر إلى من يحبه حتى تهز وتسكن ؛ وفلان قرّة عيني ؛ أي

(١) راجع ج ٧ ص ٥٠ وما بعدها طبعه أملا أو ثانية . (٢) الزيادة من الكتاب الزمخشري .

حتى تسكن قبره . وقال الشيباني : « وتقرأ عينا » معناه نأى ؛ حضبا على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أثر الله عينه أى أنام عينه ، وأنهب سهره . و « عينا » نصب على التمييز كقولك : طب نسا . والقيل في الحقيقة إنما هو للعين فقل ذلك إلى ذى العين ؛ وينصب الذى كان فاعلا في الحقيقة على التفسير . ومثله طب نسا ، ونفقات نهما ، ونصبته عرقا ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحْقًا قَسْوِي إِلَىٰ أَنْ تَنْتَرُتَ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « فَلَمَّا تَرَيْنَ » الأصل في ترين ^(١) ترأين لحذفت المعزة كما حذفت من ترى وقلت فتحتها إلى الراء فصار « ترين » ، ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف المغلبة عن الياء وياء التانيث ، لحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار ^(٢) ترين ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فيقى ترى ، ثم دخله نون التوكيد وهي مقلدة ، فكسر ياء التانيث لالتقاء الساكنين ؛ لأن النون المتخلفة بمنزلة نون الأولى ساكنة فصار ^(٣) ترين وعلى هذا النحو قول ابن جريد :

• إما ترى رأيتي ^(١) حاكى لونه .

وقول الأقبوه : • إما ترى رأيتي ^(٢) أزرى به .

وإنما دخلت النون هنا بطوطة « ما » كما يوطن لدخولها أيضا لام القسم . وقرأ طلعة وأبو جعفر وشيبة « ترين » بسكون الياء وضع النون خفيفة ؛ قال أبو الفتح : وهو شاذة .

الثانية - قوله تعالى : « قَسْوِي إِلَىٰ أَنْ تَنْتَرُتَ » هذا جواب الشرط وفيه إضمار ؛ أى فسالك عن ذلك « قَسْوِي إِلَىٰ أَنْ تَنْتَرُتَ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا » أى صمتا ؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفي قراءة أبي بن كعب « إِنْ تَنْتَرُتَ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا صَمْتًا » . وروى عن أنس .

(١) أى قبل التوكيد ودخوله الجازم ، وهي يوزن فتمين .

(٢) معناه : • طرقة صبح تحت أذيال الهوى .

(٣) معناه : • ما من زمان في التشكس منوس .

وعنه أيضا « وصحنا » يولو، واختلاف القطين يدل على أن الحرف ذكر ضميرا لا قرانا؛
 فإذا أنت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذي تنابعت به الأخبار عن أهل الحديث
 ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت ؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام .
 وقيل : هو الصوم المعروف ، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا
 تخرج قراءة أس « وصحنا » يواو ، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزما بالنذر ، كما أن
 من نذر من المني إلى الميت انتضى ذلك الإحرام بالجم أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله
 تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام - أو ابنها على الخلاف المتقدم - بأن تمسك عن
 عاطبة البشر ، وتحمل على ابنها في ذلك ليرفع عنها نجسها ، وتعين الآية فيقوم صحتها . وظاهر
 الآية أنها أتيح لها أن تحول هذه الألفاظ التي في الآية ، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة :
 معنى « قولي » بالإشارة لا بالكلام . الرغشري : وفيه أن السكوت عن السفيه واجب .
 ومن أدل الناس سفيه لم يجد مسافها .

الثالثة - من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قربة
 فلزم بالنذر ، ويحتمل أن يقال : ذلك لا يجوز في شرعا لما فيه من التضيق وتعذيب النفس ؛
 كقدر القيام في الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا ؛
 وقد تقدم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام . وهذا هو الصحيح لحديث
 أبي إسرائيل ، نحره البخاري عن ابن عباس^(١) . وقال ابن زيد والسدي : كانت سنة الصيام
 عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام الفحيح ؛ قال عليه الصلاة والسلام :
 « إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فإن أمرؤ قاتله أو شاته فليقل إلى صائمه » . وقال عليه
 الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

(١) الحديث كما في البخاري عن ابن عباس قال : بينا نبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو بربيل قائم ، قال
 عنه فقالوا : أبا إسرائيل قد أن جرم ولا يقعد ، ولا يستل ولا يتكلم ويصوم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « مره فليتكلم وليقعد وليصوم » .

قوله تعالى : فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيحاً (٧) يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمراً سَوَوْ وَمَا كُنْتَ أُمّاً بَغِيّاً (٨) قوله تعالى : (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) روى أن مريم لما أطمأت بما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله تعالى سيدين مضرها ، أتت به تحمله من المكان القطبي الذي كانت اتبذنت فيه . قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، فقامتهم عند الظهر ومعهما صبي تحمله ، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات من النهار . وقال الكلبي : ولدت حيث لم يشعر بها قومها ، ومكنت أربعين يوماً للنفس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلما رأوها ومعهما الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين ، فقالوا منكربن : (لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيحاً) أي جئت بأمر عظيم كالأق بالشيء ، يفتريه . قال مجاهد : « فرياً » عظيماً . وقال سعيد بن مسعدة : أي خلقاً مفقلاً ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد . والولد من الزنى كالشيء المفترى . قال الله تعالى : « وَلَا يَأْتِيَنَّ يَهُودِيٍّ يَفْقِرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْنِ وَأُذُنَيْهِ » أي بولد بقصد إلحاقه بالزواج وليس منه . يقال : فلان يفري الفري أي يعمل العمل البالغ ، وقال أبو عبيدة : الفري الحبيب النادر ، وقوله الأخفش . قال : فرياً عجباً . والفري القطع كأنه مما يفرق العدة ، أو يقطع القول بكونه عجباً نادراً . وقال قطرب : الفري الحديد من الأسقية ، أي جئت بأمر جديد بدع لم تسبق إليه . وقرأ أبو حيوة : « شَيْئاً فَرِيّاً » بسكون الراء . وقال السدي ووهب بن منبه : لما أتت به قومها تحمله تبايع بك بك بنو إسرائيل ، فاجتمع رجالهم ونسائهم ، ففدت امرأة ينها إليها لتضرها فأجف الله شطرها لحملت كذلك . وقال آخر : ما لراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى ، فصاح الناس من أن يضرروها ، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون ، فقالوا : « يا مريم لقد جئت شئاً فرياً » أي عظيماً ، قال الرازي :

(١) هو زوارة بن صعب بن دهر يحاطب الباغرية ، وكان قد خرج معها في سفر يمارون من الزيادة فلما امتلأوا وصعدوا جعل زوارة بن صعب يأخذ به ، فكان يخلف خلف القوم فقالت الباغرية : لقد رأيت رجلاً دهرياً . يعني دهره القسوم سنيا .

• كأنه مخطئ صيلاً •

تريد أنه استلأ به ، فأجابها نظيرة بالآيات . و « جرياً » منسوب إلى جر الزيادة وهو نصيبها .

قَدْ أُلْمَسْنِي فَقُلْ هَبْ لِي ذُرِّيَّتًا نَجِيَّةً ۖ

ۖ قَدْ كُنْتُ خَافِيَةً ۚ

أَي [تطلبته] .

قوله تعالى : (يَا أُخْتُ هَارُونَ) اختلف الناس في معنى هذه الأختوة ومن هارون قيل : هو هارون أخو موسى ، والمراد من كان قتلها مثل هارون في العبادة فلي يمتثل هنا . وقيل : على هذا كانت مريم من ولد هارون أمي موسى فنسبت إليه بالأخت لأنها من ولده كما يقال للتبني : يا أختي ، وللعربي يا أختا العزب . وقيل : كان لها أخ من لبن اسمه هارون ؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا في بني إسرائيل تبركا باسم هارون أمي موسى ، وكانت له رجل في بني إسرائيل ، قاله الكلبي . وقيل : هارون هذا رجل صالح في ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هارون . وقال قتادة : كانت في ذلك زمان رجل في بني إسرائيل عابد مطلق إلى الله عز وجل يسمى هارون فنسبوا إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبل ، إذ كانت موقوفة على خدمة البيع ، أي ياعنه المرأة الصالحة ما كنت أهلا لذلك . وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : إن مريم ليست بأخت هارون أمي موسى ، فقالت له عائشة : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر ، وإلا فلا أجد بينهما من المدة ستمائة سنة . قال : فسكت . وفي صحيح مسلم عن المنيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألتني فقال إنكم تخبرون « يا أخت هارون » وموسى قبل عيسى بكنا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله عن ذلك ، فقال : « إنهم كانوا يستمون بأبائهم والصالحين قبلهم » . وقد جاء في بعض طرقه في غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون وبينهما في المدة ستمائة سنة ؟ قال المنيرة : ثم أدر ما أقول ؛ وذكر الحديث . والمعنى أنه اسم واقفي اسما . ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء ، والله أعلم .

(١) في الأصل : « تطلبته » وهو محرف .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد .
الزمخشري : كان بينهما وبينه ألف سنة أو أكثر فلا يقبل أن مريم كانت أخت موسى
وهرون ؛ وإن صح فمما قال السدي لأنها كانت من نسله ؛ وهذا كما يقول للرجل من قبيلة :
يا أخا فلان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " **إِنْ أَخَا صَدَاةٍ قَدْ أَذَّنَ فَمَنْ أَذَّنَ فَهُوَ يُحِمُّ** "
وهذا هو القول الأول . ابن عطية : وقالت مرفة بل كان في ذلك الزمان رجل فاجر اسمه
هرون فنسبوا إليه على جهة التعمير والتوبيخ ؛ ذكره الطبري ولم يسم قائله .

قلت : ذكره القرطبي عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مثالا في الفجور فنسبت إليه .
والمعنى : ما كان أبوك ولا أمك أحلا لهذه الصلة فكيف حنت أنت بها ؛ وهذا من التعريض
الذي يفهم مقام التصريح . وذلك يوجب عندنا الحد وسيأتي في سورة « النور » القول فيه
إن شاء الله تعالى . وهذا القول الأخير يرده الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام
لأحد منه ، ولا غبار عليه . والحد فقه . وفرا عمرس لما التيمي « مَا كَانَ أَبَاكَ أَمْرًا سَوِيًّا » .

قوله تعالى : **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴿٥٥﴾ قَالَ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ إِنِّي أَلْكَتُ الْكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴿٥٦﴾
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٥٧﴾ **وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَرَبِّ جَعَلَنِي جَبَّارًا شَفِيًّا** ﴿٥٨﴾ **وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴿٥٩﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)**

القرمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد في هذه الآية أنها ظففت

(١) هرز يادن المرت الصدائي ، كان قد أمره صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الصبح فأذن فأراد يادل
أن يحم صلى الله عليه وسلم : " **إِنْ أَخَا صَدَاةٍ قَدْ أَذَّنَ ...** " الحديث . (٢) قال في « البحر » :
يجعل الخير المحرم واللام الزكوة ، وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الأبداء بالزكوة وهو الإضافة .

به إلى نفرت للرحمن صوما • وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال : إن
أمرها به • بقول • إنما أريد به الإشارة • ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا :
أستخفانها بنا أشد علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير : • كيف تكلم من كان
في المهد صيا • • « كان » هنا ليس يراد بها الماضي ؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صيا ،
وإنما هي في معنى هو [الآن] • وقال أبو عبيدة : • « كان » هنا لنوع كما قال :

• • • • • وجيران لنا كانوا كرام • • • • •

وقيل : هي بمعنى الوجود والحدوث كقوله : • وَإِنْ كَانَ ثَوْصُورَةً • وقد هتمم •
وقال ابن الأثير : لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت « صيا » ، ولا أن يقال « كان »
بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر ، تقول : كان
الحرف وتكنى به • والصحيح أن « من » في معنى الجزاء و « كان » بمعنى يكن ، التصدير :
من يكن في المهد صيا فكيف نكله ! كما تقول : كيف أعطى من كان لا يقبل عطية ،
أى من يكن لا يقبل • والماضي قد يذكّر معنى المستقبل في الجزاء ، كقوله تعالى : • تَبَارَكَ
الَّذِي إِذَا شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ • أى إن شأ يعمل •
وتقول : من كان إلى منه إحسان كان إليه منى مثله ، أى من يكن منه إلى إحسان يكن
إليه منى مثله • • والمهد • قيل : كان سريرا كالمهد • وقيل : • المهد • هاهنا حجر الأدم •
وقيل : المعنى كيف تكلم من كان سيده أن ينوم في المهد لصغره ، فلما سمع عيسى عليه السلام
كلامهم قال لهم من مرقد (إِنْى عَبْدُ اللَّهِ) • وهى :

الثانية — قيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل
عليهم بوجهه ، وأتكأ على يساره ، وأشار إليهم بسبابته اليمنى ، و « قَالَ إِنْى عَبْدُ اللَّهِ » فكان أول
ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وروبو يته ، وما عل من غلام من بعده في شأه •
والكتاب الإنجيل ، قيل : آناه في تلك الحالة الكتاب ، وفهمه وعلمه ، وآناه النبوة كما علم آدم •

(١) الزيادة من كتب النصير • (٢) هو هرقزدق ؛ ومدرائيت :

• فكيف إذا رأيت ديار قوم • • • • •

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصل . وهذا في غاية الضعف على ما نفيه في المسئلة بخد هذا .
وقيل : أي حكم لي بإتياء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب متزلا في الحال،
وهذا أصح . (وَجَعَلَنِي مِمَّا رَكَا) أي ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعاملاته .
الْتَسْتَرَى : وحصلني أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأصرر المظلوم،
وأغيت الملهوف . (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) أي لأؤدبهما إذا أدركني التكليف، وأسكنني
أدائهما، على القول الأخير الصحيح . (مَا دُمْتُ حَيًّا) في موضع نصب على الظرف أي دوام
حياتي . (وَبَرًّا بِوَالِدَيْ) قال ابن عباس : لما قال « وَبَرًّا بِوَالِدَيْ » ولم يقل بوالدي
علم أنه شيء من جهة الله تعالى . (وَلَمْ يَحْطِلْ جَبَّارًا) أي متعظا متكبرا يقتل ويضرب على
الغضب . وقيل : الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقا قط . (شَقِيًّا) أي خائبا من الخير .
ابن عباس : عاقا . وقيل : عاصيا لربه . وقيل : لم يحطل تاركا لأمره فاشق كما شق إبليس
لما ترك أمره .

الثالثة - قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية : ما أشد ما على أهل القدر!
أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت . وقد روى
في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا
لأمر عظيم . وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة
الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهار براءة أمه
لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة . ولم ينقل
أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يديم نطقه ونسيجه
ووعظه وصلاحه في صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على
فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله . ويدل أيضا على أنه تكلم في المهد خلافا لليهود
والنصارى . والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تكلم . وإنما صح برأستها من الزنى
بكلامه في المهد . ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأمم

الساقطة، والقرون الخالية للمخفية، فهو مما ينبت حكه، ولم يفسح في شربة إسمه . وكان
عسى عليه السلام في غاية التواضع؛ يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويعلى على القراب .
ويأوى حيث جتته الليل، لا سكن له، صلى الله عليه وسلم .

الرابعة - الإشارة بجزلة الكلام، وتفهيم ما يفهم القول . كيف لا وقد أخبر الله تعالى
عن مريم فقال: « فإشارت إليه » وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: « كيف نكلم »
وقد مضى هذا في « آل عمران » مستوفى .

الخامسة - قال الكوفيون: لا يصح قذف الأخرس ولا لعنه . وروى مثله عن
الشعبي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصرح الزنى دون
معهه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفاً؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء
الحلال والشبهة . قالوا: واللمان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع . قال
ابن القصار: قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصریح فهو باطل بسائر الألسنة ماعدا العربية،
فكذلك إشارة الأخرس . وما ذكروه من الإجماع في شهادة الأخرس فغلط . وقد نص مالك
أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة
باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ . قال ابن المنذر: والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق واليؤوع
وسائر الأحكام، فينبى أنى يكون القذف مثل ذلك . قال المهلب: وقد تكون الإشارة
في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: « بمثت أنا
والساعة كهاتين » نعرف قرب ما بينهما بقصدار زيادة الوسطى على السبابة . وفي إجماع
العقول على أن البيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى
من الكلام . (« وَالسَّلَامُ عَلَى ») أى السلامة على من الله تعالى . قال الزجاج: ذكر السلام
قبل هذا بشير ألف ولام لحسن في الثانية ذكر الإكثف واللام . وقوله: (« يَوْمَ وُلِدْتُ ») يعنى
في الدنيا . وقيل: من همز الشيطان كما تقدم في « آل عمران » . (« وَيَوْمَ أَمُوتُ ») يعنى

في الخبر . (وَيَوْمَ آتَتْ حَيًّا) بنى في الآخرة ، لأن له أحوالا ثلاثة : في الدنيا حيا ، وفي القبر ميتا ، وفي الآخرة معروفا ، فلم في أحواله كلها ، وهو معنى قول الكلبي . ثم اتمطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ اللذان . وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رآه امرأة يُعْجِي الموتى ، ويُرى الآكة والأبرص في سائر آياته فقالت : طوبى للبطن الذي حلك ، والذي الذي أَرْضَكَ ، فقال لما عيسى عليه السلام : طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى وأتبع ما فيه وعمل به .

قوله تعالى : ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٧٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ مَبْجُحَةً ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧٦﴾ فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّا نَحْنُ زَرْتُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ) أى ذلك الذى ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك اعتقدوه ، لا كما يقول اليهود إنه لغير رسلته ، وأنه ابن يوسف النجار ، ولا كما قالت النصارى : إنه الإله أو ابن الإله . (قَوْلَ الْحَقِّ) قال الكسائي : « قَوْلَ الْحَقِّ » تع ليعسى ، أى ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق] . وسمى قول الحق كما سمي كلمة الله ، والحق هو الله عز وجل . وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل : التقدير هذا الكلام قول الحق . قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل ، وأضيف القول إلى الحق كما قال : « وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى الوعد الصديق . وقال :

« وَاتْلُوا الْآيَةَ خَيْرَ أَى وَلَا تَقْرَأُوا الْآيَةَ » . وقرا مريم وعبد الله بن مريم . قَوْلُ الْحَقِّ .
 بالنصب على الحال ، أَى أَقُولُ قَوْلًا حَقًّا . والليل معنى الإلهية في ذلك . . التبرج .
 هو مصدر أَى أَقُولُ قَوْلُ الْحَقِّ ، لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إسمه .
 وقرا عبد الله « قَوْلُ الْحَقِّ » . وقرا الحسن « قَوْلُ الْحَقِّ » . بنم القلق ، وكذلك في « الأماجد »
 « قَوْلُ الْحَقِّ » . والقَوْلُ والقَالَ والقَوْلُ معنى واحد ، كالتعب والترقب والترقب (التي)
 من نعت مريم . (فِيهِ يَمْتَرُونَ) أى يشكون أى ذلك مريم بن مريم الذى فيه يمترون
 القَوْلُ الحق . وقيل : « يمترون » يمتنون . ذكر عبد الرزاق قال لمعا مريم من قاتلة
 في قوله تعالى : « ذلك مريم بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » قال : أجمع
 بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في مريم حين وضع
 فقال أحدهم : هو الله حبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ، ثم صعد إلى
 السماء وهم يعقوبية . فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم الثالث : قل فيه ، قال :
 هو آية الله وهم النسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ،
 فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله لله وهو لله ، وأمه لله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى .
 قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل
 رجل منهم أتباع - على ما قال - فاقبلوا فظهر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى :
 « وَهَيَّئُوا لَهُمْ آيَاتِهِمْ مِنْ آيَاتِهِ » . وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم :
 « فَأَخْلَفَ الْآخِرَابُ مِنْ فِيهِمْ » اختفوا فيه فصاروا أحرابا فهذا معنى قوله : « الذى فيه
 تمرون » بالله المجبة من فوق وهى قراءة أبى عبد الرحمن الشافعى وغيره . قال ابن عباس :
 فوجرم ابن عمها ومعا ابنها إلى مصر فكاتبوا فيها أثنى عشرة سنة حتى مات الملك الذى كانوا
 يخافونه ، ذكره الماوردى .

قلت : ووقع في تاريخ مصر فيا رأيت وجاء في الإنجيل ، الظاهر أن السيد المسيح لما ولد
 في بيت لحم كان يهودس في ذلك الوقت ملكا ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

في السلم وقال له : لم تخذ الصبي وأمه وانصب إلى مصر وكن حاك حتى أقول لك ، فإن
 هم هبوا منع أن يطلب عيسى ليلكه ، فقام من نومه : واستل أسرويه ، وأخذ السيد
 للشيخ ومريم أمه وجده إلى مصر ، وفي حال مجيئه إلى مصر نزل بيتر البتسان التي بظلم
 القاهرة ، وضلت ثيابه على ذلك البتر ، فأبلسه لا يطلع ولا ينبت إلا في تلك الأرض ،
 ومنه يخرج اللبن الذي يتناول الزيت الذي تصد به الصلوى ولا يملك كانت قاهرة واحدة
 في أيام المصريين لما مقدار عظيم ، وتقع في قوس ملوك الصلوى مثل ملك القسطنطينية
 وملك حقلية وملك الحفنة وملك القوية وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يأتهم به ملوك
 مصر موقفا جليلا جدا ، وتكون أحب إليهم من كل حبة لما قدر . وفي تلك الفترة وصل
 السيد المسيح إلى مدينة الأنثونيين وقسم المرونة الآن بخرقة ، فلذلك سظمها الصاري إلى
 الآن ، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان ، لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ،
 وسنها عاد إلى الشام . والله أعلم .

قوله تعالى : (مَا كَانَ اللَّهُ) أي ما ينبغي له ولا يجوز (أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ) « من » صلة
 للكلام ، أي أن يتخذ ولدا . و « أن » في موضع رفع اسم « كان » أي ما كان لله أن يتخذ
 ولدا ، أي ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم تزه نفسه تعالى عن مخالفتهم فقال : (سُبْحَانَهُ) أن
 يكون له ولد . (إِنَّا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ^(١) خدم في « البقرة » مستوف . (وَإِنْ
 فَدَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » وأهل الكوفة « وإن »
 بكسر الهمزة على أنه مستأنف . تدل عليه قراءة أبي « كُنْ فَيَكُونُ » . إن الله « بغير واد على
 العطف على « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » . وفي الفتح أقوال : فغضب الخليل وسيو به أن للمنى ؛
 ولأن الله ربي وربكم ، وكنا « وَأَنْتَ الْمَاجِدُ » ف « أن » في موضع نصب عندهما .
 وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضا في موضع

(١) الأنثونيين : إحدى قرى مركز طوى . (٢) قسم : هي القوصية الآن إحدى قرى مركز مغلوط .

(٣) الخرقه : وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز مغلوط . (٤) راجع ٢ ص ٨٧ وما بعدها
 طبعه ٢٠٢٤

خضض بمعنى : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبأن الله وبي وديكم . وهاجر الكفاي
أن يكون في موضع رضع بمعنى : والأمر أن الله وبي وديكم . وفيها قول خامس : حتى أرويه
أن أبا عمرو بن السلا قاله ، وهو أن يكون للمنى : وقضى أن الله وبي وديكم ؛ فهو سطوة
على قوله : « أمراء » من قوله : « إنا قضى أمراً » وللمنى إذا قضى أمراً وقضى أن الله .
ولا يتبادر به أن : كل هذا الطدير ، ولا على التقدير الثالث . ويجوز الإبتداء بها على الأوجه
الباقية . (فَأَعْبَدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أى دين قويم لا أعوجاج فيه .

قوله تعالى : (فَأَخْلَقَ الْآرْضَ مِنَ يَمِينِهِ) « من » زائدة ؛ أى الخلق للأحزاب
بينهم . وقال قتادة : أى ما بينهم . فاختلقت الفرق من أهل الكلب في أمر موسى عليه
السلام فاليهود بالتمدح والسحر . والنصارى قالت النسطورية منهم : هو ابن الله . والمملىكية
قالت علامة . وقالت البغوية : هو الله ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصصته
وقد تخدم هذا في « النساء » . وقال ابن عباس : المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبي
صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ شَهِيدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى
من شهود يوم القيامة ، والشهد بمعنى المصدر ، والشهود الحضور . ويجوز أن يكون للخطوب
لهم ، ويضاف إلى الطرف لوقوعه فيه ، كما يقال : ويل فلان من قتال يوم كذا ؛ أى من
حضوره ذلك اليوم . وقيل : الشهيد بمعنى الموضع الذى يشهده الخلاق ، كالخشر للموضع الذى
يحشر إليه الخلق . وقيل : فويل للذين كفروا من حضورهم الشهيد العظيم الذى اجتمعوا
فيه للتناور ، فأجمعوا على الكفر بالله ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : (أَسْمِعْ يَسْمِعُ وَأُصِرَّ يَوْمَ يُنْفَخُ) قال أبو الباس : العرب تقول هنا
في موضع التجنب ، تقول : أسمع يزيد وأصر يزيد أى ما اسمه وأصره . قال : فسماء أنه
عجب بيه منهم . قال الكلبي : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أصر ، حين يقول الله تبارك
وقعالى ليسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَقْبِلُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ يَوْمَ تَنْفَخُ النَّفْثَةُ » . وقيل : « أسمع »

بمضى الطاعة ؛ أى ما أطوعهم فيه فى ذلك اليوم . (لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ) أى فى الدنيا .
 (فَيَضَلُّوا مِنْهُ) أى ضلال أين من أن يتخذ المرء فى شخص مثله حلفه الأرحام ،
 وأكل وشرب ، وأحدث واحتاج أنه ! ومن هذا وصفه فهو أسمى وأعمى ولكنه سيصر
 ويسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك ؛ قال عنه قتادة وغيره .

قوله تعالى : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) روى عن عبد الله بن مسعود أنه
 قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيحصر طيه . وقيل : تقع الحسرة إذا
 أعطى كتابه بشأله . « إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ » أى قُرِئَ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة
 وأهل النار النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جاء بالموت يوم القيامة
 كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال لأهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرطيون^(١)
 وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — ثم يقال لأهل النار هل تعرفون هذا فيشرطيون
 وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — فيؤمر به فيذبح ثم يقال لأهل الجنة خلود
 قلا موت وأهل النار خلود فلا موت — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « وأنذرهم
 يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » « نخرجه البخارى بمعناه عن أبى عمر ،
 وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، والترمذى عن أبى سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن
 صحيح . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وبيننا هالك أن الكفار غفلون بهذه الأحاديث
 والآى ردا على من قال : إن صفة الغضب تنقطع ، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون
 وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة .

قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا) أى نيت سكانها فترثها . (وَإِلَيْنَا
 رُجُوعٌ) يوم القيامة فتجازى كلًّا بعمله ، وقد تقدم هذا فى « الجبر » وغيرها .

(١) الأملح : الذى يامته أكثر من سواده ؛ وقيل الذى يلبس .

(٢) راجع ج ١٠ ص ١٨ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية .

قوله تعالى : **وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** (١٦)
 إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ يَتَّبِعِ لِرَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ
 شَيْئًا (١٧) يَتَّبِعِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ بِأَنْتَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ
 صِرَاطًا سَوِيًّا (١٨) يَتَّبِعِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
 عَصِيًّا (١٩) يَتَّبِعِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ عَذَابَ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
 لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٢٠) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَلْهَلِيِّ يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَرَنَتَهُ
 لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْرَأَنِي مَلِيًّا (٢١) قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي
 إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٢٢) وَأَعْتَزِلُكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي
 عَصِيًّا أَلَا أَكُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا (٢٣) فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ- وَابْتَحَى وَيَعْقُوبَ وَكَلا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٢٤) وَوَهَبْنَا
 لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٢٥)

قوله تعالى : **(وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)** المعنى : وإذ كُنَّا فِي الْكِتَابِ الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخيره . وقد تهنم معنى الصديق في « النساء » واشتقاق الصديق في « البقرة » فلا معنى للإعادة . ومعنى الآية : أقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم قد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يفتخ بالأنداد ، فهو لا لم يفتخون الأنداد ؟ ! وهو كما قال : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : **(إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ)** وهو آزر وقد تهنم . **(يَا أَبَتِ)** قد تهنم القول فيه في « يوسف » **(لِمَ تَعْبُدُ)** أي لأى شئ تعبد : **(مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ)**

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٢ طبع ١٤٢٤ .

(٢) راجع ج ٥ ص ٢٧٢ طبع أول أو ثانية .

(٣) راجع ج ٩ ص ١٢١ طبع أول أو ثانية .

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٢ وجاهدا طبع أول أو ثانية .

شَيْتًا) يريد الأصنام. (يَا أَبَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) أى من اليقين والمعرفة
 بغيره وما يكون بعد الموت، وأن من عبد غيره غلب (فَأَتَيْنِي) إلى ما أعموك إليه .
 (أَتَيْكَ مَرَامًا سَوِيًّا) أى أرسلك إلى دين مستقيم فيه النجاة . (يَا أَبَتِ لَا تَقْبَلِ الشَّيْطَانَ)
 أى لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيطاناً في معصية فقد عبده . (إِنَّ الشَّيْطَانَ
 كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) « كان » صلة زائدة . وقيل : بمعنى صار . وقيل : بمعنى الخلال ؛ أى هو
 للرحمن . وعصياً وطمس بمعنى واحد ؛ قاله الكسائي . (يَا أَبَتِ إِيَّيْ أَخَفُّ أَنْ يَمْسَكَ عِقَابٌ مِنْ
 الرَّحْمَنِ) أى إن مت على ما أنت عليه . ويكون « أخاف » بمعنى أطم . ويجوز أن يكون
 « أخاف » على بابها فيكون المعنى : إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب .
 (تَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) أى قريناً في النار . (قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ الْهَيْمَى بِإِبْرَاهِيمَ) أى أترغب
 عنها إلى غيرها . (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُحَنَّكَ) قال الحسن : يعنى بالجحارة . الضمك ؛
 أى لأشتمتك . ابن عباس : لأضربك . وقيل : لأظهرن أمرك . (وَأَهْمَرْنِي مِلًّا) . قال
 ابن عباس : أى اعترقنى سالم المرض لا بصيكت منى معزة ؛ وأختره الطبرى ، قوله : « مليا »
 على هذا حال من إبراهيم . وقال الحسن وبجاءد : « مليا » دهرًا طويلاً ؛ ومنه قول المهمل :
 قَصَدَتْ صُمُّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ • وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرْمَلَاتُ مِلًّا

قال الكسائي : يقال هجرته ملياً ومَلَوَ ومَلَوَهُ ومَلَاوَةً ومَلَاوَةً ، فهو على هذا القول ظرف ، وهو
 بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ) لم يمارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد ؛ لأنه لم
 يؤمر بقتاله على كفره . والجمهور على أن المراد بسلامه المسألة التى هى المتاركة لا التحية ؛
 قال الطبرى : معناه أمانة منى لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال الغاشي : سلم
 خاطب صفها ؛ كما قال : « وَإِنَّا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . وقال بعضهم فى معنى
 تسليمه : هو تحية مفارقة ؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها . قيل لابن عينة : هل يجوز
 السلام على الكافر ؟ قال : نعم ؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُجَاهِدُوا فِي الدِّينِ

ولم يخرجكم من دياركم أن تدعوه وتقسطوا إليهم إن الله يحب المتقين . . وقال :
« قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الآية ، وقال إبراهيم لأبيه : « سلام عليك » .

قلت : الأظهر من الآية ما قاله صفيان بن عينة ، وفي الباب حديثان صحيحان : روى
أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدعوا اليهود والنصارى بالسلام فإننا لنقيم
أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أخيه » خرجه البخاري ومسلم . وفي الصحيحين عن أسامة
أبن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حملا عليه إكاف تحته قطعة فذكية ، وأردف
وراءه أسامة بن زيد ، وهو يهود سمى بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج ، وفلك قبل وقفة
بدر ، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم
عبد الله بن أبي بن سلوة ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الغابة ،
نهر عبد الله بن أبي أنه بردته ، ثم قال : لا تُعبّروا عليا ، فلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ،
الحديث . فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء ، لأن ذلك إكراه ، والكافر ليس أهله .
والحديث الثاني يحوز ذلك . قال الطبري : ولا يارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة ،
فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر ، وفلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم ، وخبر أسامة
يبين أن مناه الخصوص . وقال المحقق : إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابذاه
بالسلام ، فإن بهذا أن حديث أبي هريرة « لا تدعوه بالسلام » إذا كان لغير سبب يدعوكم
إلى أن تدعوه بالسلام ، من قضاء نمام أو حاجة ترض لكم قبلهم ، أو حق محبة أو جواز
أو سفر . قال الطبري : وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب . وفضله
أبن مسعود بدعقان محبة في طريقه ، قال علقمة : قتلت له يا أبا عبد الرحمن اليس يكره أن
يبدعوا بالسلام ؟ ! قل : نعم ؛ ولكن حق الصحة . وكان أبو أسامة إذا أتصرف إلى بيته
لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه ؛ فقبل له في ذلك فقال : أمرنا أن
تضنى السلام . وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه ، فقال : إن سلمت فقد سلم
الصالحون قبلك ، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . وروى عن الحسن البصري أنه
قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد أحجج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذى مئاه التحية إنما خص به هذه الأمة ؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى أعطى أمي ثلاثاً لم تعط أحداً قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة » الحديث ؛ ذكره الترمذى الحكيم ؛ وقد مضى فى القامحة بسنده . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّى » .
وارتفع السلام بالإبتداء ، وبما ذك مع توكيده لأنه نكرة خصصة تفهمت المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ : الحفى المبالغ فى البر والإطاف ؛ يقال : حفى به وتعفى إذا بره . وقال الكسانى يقال : حفى بى خفاوة وخفوة . وقال الفراء : « إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا » أى طابا لطيفا يعينى إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرَضْكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدم فى « الكهف » بيانها . وقوله : ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوى بهم حتى لا يسترحش بالأعترال عن قومه . ولهذا قال : ﴿ قَلْبًا أَعْرَضَ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى آتينا وحشته بولد ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « عسى » يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا فى المستقبل . وقيل : دعا لأبيه بالمداية . « عسى » شك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِسَانَ صِدِّيقٍ عَلِيًّا ﴾ أى آتينا عليهم ثناء حسناً ؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم . واللسان يذكر ويؤنث ؛ وقد تقدم .^(١)

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَوَدَّعَيْنَاهُ مِنَ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ وَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝ ﴾

(١) راجع ج ١ ص ١٣٠ طبع ثانية أمانة . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٦٧ طبع أول مرة ثانية

(٣) راجع ج ٤ ص ١٢١ طبع أول مرة ثانية

قوله تعالى : (وَأَذْكُرِي الْكِتَابَ مُوسَى) أى وأقرأ عليهم من القرآن قصة موسى .
 (إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) في عبادته غير مرانى . وقرا أهل الكوفة بفتح اللام ، أى أخلصناه بخلصناه
 مختارا . (وَأَذْيَنَاهُ) أى كلمناه ليللة الجمعة . (مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) أى يمين موسى ،
 وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر ؛ قاله الطبرى
 وغيره ؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) نصب على الحال ؛ أى كلمناه من
 غير وسي . وقيل : أذنيناه لتقريب المترلة حتى كلمناه . وذكر وكيع وقبيصة عن صفيان عن
 حطاه بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله عز وجل : « وقربناه نجيا »
 أى أذنى حتى سمع صرير الأقدام . (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) وذلك حين
 ماله فقال : « وأجعل لي وزيراً من أهلي هارون أيس » .

قوله تعالى : وَأَذْكُرِي الْكِتَابَ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ
 وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿١٠﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ
 عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿١١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَأَذْكُرِي الْكِتَابَ إِسْمَاعِيلَ) اختف فيه ؛ قيل : هو إسميل
 ابن حزقيل ، بنه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فغيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم ،
 فاستغفاه ورضى بشوابه ، وفوض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته . والجمهور أنه إسميل النبيح
 أبو العرب بن إبراهيم . وقد قيل : إن النبيح إسحق ؛ والأول أظهر على ما تقدم وياتى
 في «والصافات» (١) إن شاء الله تعالى . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا في غيره
 من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، كالنقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ؛ ولأنه المشهور
 بالتواصف من خصاله .

(١) بكر الام قراءة «فانح» . (٢) في نسخة قوله تعالى : « فطابق به لى ... الخ » آية ١٠٢

الثانية - صدق الوعد بمحمد وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضقه وهو الخلق
 مذموم ، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدم بيانه في « برائة » . وقد أتى
 الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد . وأختلط في ذلك ؛ ف قيل : إنه وعد من
 نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى قُدى . وهذا في قول من يرى أنه الذبيح . وقيل : وعد رجلا
 أن يلقاه في موضع فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء ؛
 فقال له : ما زلت هاهنا في انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد ضل مثله
 نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بئنه ؛ ذكره النقاش وغيره الترمذى وغيره عن عبد الله بن
 أبي الحمساء قال : بايست النبي صلى الله عليه وسلم بيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعده
 أن آتية بها في مكانه فسيئت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، بجئت فإذا هو في مكانه ؛ فقال :
 « يا فتى لقد شغقت على » إنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك » لفظ أبي داود . وقال يزيد الرقاشي :
 انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوما ؛ ذكره المصنوع . وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره
 سنة . وذكره الزعشم عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينظره في مكان فانتظره سنة .
 وذكره القشيري قال : فلم يرح من مكانه سنة حتى آتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن
 الساجر الذي سألك أن تقعد له حتى يسود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهذا بعيد
 ولا يصح . وقد قيل : إن إسماعيل لم يبد شيئا إلا وفى به ، وهذا قول صحيح ، وهو الذي
 يقتضيه ظاهر الآية ؛ والله أعلم .

الثالثة - من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : « العدة دين » . وفي الخبر « وأتى
 المؤمن واجب » أى في أخلاق المؤمنين . وإنما قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضا لإجماع
 العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء ؛ فذلك قلنا
 بإيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به . والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف
 والتندر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :

مَنْ مَاقَلَّ حُرًّا لِمُصَاحِبٍ حَاجِيَةً • تَقَسُّمٌ يَقِضُهَا وَالْحَرُّ لِلْوَأْيِ ضَامِنٌ

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٢ وما بعدها طبعه أول مرة . (٢) القرائ : القوط .

ولا خلاف أن الرقة يسحق صلحه الحمد والشكر، وكل الخلق القم . ولد أبي الله
تبارك وتعالى على من صدق وعده، وفي يثوره، وكفى بهذا طعنا وشكاً . وبما حاله فنام
الرابعة - قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يحب له الخبة ليعوله له ثم علم يعرف
له ألا يصل لها أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله لن يقضيه عنه
تلك ثم ، وتم رجال يشهدون عليه في أحواله أن يلزمه إذا شهد عليه كتمان . وقال أبو حنيفة
وأصحابه والأوزاعي والثوري وسائر الفقهاء : إن العدة لا يلزم منها شيء لأنها مانعة لم يقضها
في العارية لأنها طارئة ، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم يقبض قسماً
الرجوع فيها . وفي البخاري : وأذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وقضى لمن
أشوع بالوعد وذكر ذلك من ثمرة بن جندب . قال البخاري : ورويت إسحق بن إبراهيم يخرج
يخبر من أشوع .

الخامسة - (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) قيل : أرسل إسماعيل إلى جرهم . وكل الأنبياء
كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسماعيل بالذكر تشرافاً له . والله أعلم .

السادسة - (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ) قال الحسن : يعني أمه . وفي حرف ابن مسعود
« وكان يأمر أهله جرهم وولده بالصلاة والزكاة » . (وَكَانَ يَدْعُوهُ مَرْضِيًّا) أي مرضياً زائجاً
صالحاً . قال الكسائي والقرطبي : من قال مرضى بناء على مرضيت ، قالوا . وأهل الجحار
يقولون : مرضؤ . وقال الكسائي والقرطبي : من العرب من يقول رَضَوَانٍ وَرَضِيَانٍ فِرْضَوَانٍ
على مرضؤ ، ورضيان على مرضى ولا يجوز البصريون أن يقولوا إلا رَضَوَانٍ وَرِوَانٍ . قال
أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحق الزجاج يقول : يخطئون في الخط فيكتبون رباً بالياء ثم
يخطئون فيما هو أشد من هذا فيقولون رِيَانٍ ولا يجوز إلا رِوَانٍ وَرَضَوَانٍ ، قال الله تعالى :
« وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رِبَا يَرْيَوْنَ آمَوَالِ النَّاسِ » .

(١) قاله في «الدرر الأربعة» كاف «تهذيب التهذيب» . (٢) أي في نية الرضا .

قوله تعالى : **وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** (٥٦)
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

قوله تعالى : **(وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)** إدريس عليه السلام
 أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب وليس الخيط ، وأول من نظر في علم النجوم
 والحساب وسيرها . وسمى إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى . وأزل الله تعالى عليه
 ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر . الزمخشري : وقيل سمي إدريس لإدريس لكثرة درسه كتاب
 الله تعالى ، وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان إصليلا من الدوس لم يكن فيه
 إلا سبب واحد وهو العلية وكان مصرفا ، فامتناعه من الصرف دليل على الجملة ؛ وكذلك
 ليس أعجمي وليس من الإللاس كما يزعمون ؛ ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرائيل
 كما زعم ابن السكيت ، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه المثلث ؛
 يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوي مشتقا من
 الدرس . قال التلمبي والفريزوي وغيرهما : وهو جذ فوح وهو خطأ ؛ وقد تقدم في «الأعراف»
 بيانه . وكذا وقع في السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس
 النبي فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم . وكان أول من أعطى النبوة من بني آدم ، وخط بالقلم .
 ابن مرد بن مهلائيل بن قيثان بن يانش بن شيث بن آدم صل الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)** قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وغيرهما :
 يعني السماء الزاوية . وروى ذلك عن النبي صل الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار . وقال
 ابن عباس والضحاك : يعني السماء السادسة ؛ ذكره المهدوي .

قلت : ووقع في البخاري عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال سمعت أنس بن مالك
 يقول : ليلة أسرى برسول الله صل الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث ، وفيه : كل
 سما فيا أنباء — قد سمعهم — منهم إدريس في الثانية . وهو وهم ، والصحيح أنه في السماء

الزامة؛ كذلك رواه ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذكره مسلم في الصحيح. وروى مالك بن معصمة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لما عرج بي إلى السماء أتيت علي إدريس في السماء الزامة». أخرجه مسلم أيضا. وكان سبب رفضه علي ما قال ابن عباس وكب وغيرهما: أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وجم الشمس، فقال: يا رب أنا مشيت يوما فكيف بمن يجعلها عساة تام في يوم واحد! اللهم خفف عنه من ثقلها. يعني الملك الموكل بملك الشمس؛ يقول إدريس: اللهم خفف عنه من ثقلها وأحمل عنه من حرها. فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف، فقال: يا رب خففتي لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: «أما إن عبدى إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته». فقال: يا رب أجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلة. فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أخبرتك أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي، فأزاد شكرا وعبادة. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها؛ فقال لذلك: قد علمت ذلك ولكنه أطلب لنفسى. قال نعم. ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لي صديق من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله. فقال: ليس ذلك لي ولكن إن أحببت عليه أعلمته متى يموت. قال: «نعم». ثم نظر في ديوانه، فقال: إنك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبدا. قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك؛ قال: أطلقني فأراك تجده إلا وقد مات فوافقه ما بقي من أجل إدريس شيء. ففرج الملك فوجده ميتا. وقال السدي: إنه نام ذات يوم، وأشتد عليه حر الشمس، فقام وهو منها في كرب؛ فقال: اللهم خفف عن ملك الشمس حرها، وأعنه على ثقلها، فإنه يمارس نارا حامية. فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسي من نور، عنده سبعون ألف ملك عزيمته، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويقولون أمره وعمله من تحت حكمه؛ فقال ملك الشمس: يا رب من أين لي هذا؟ قال: «دعا لك رجل من بني آدم يقال له إدريس» ثم ذكر نحو حديث كعب. قال فقال له ملك الشمس: أتريد حاجة؟ قال: نعم وددت أني لو رأيت الجنة.

قال : فرفضه على جناحه ، ثم طار به ، فيبنا هو في السماء الرابعة التي بملك الموت ينظر في السماء ،
 ينظريتها وشمالا ، فلم عليه ملك الشمس ، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه ؛
 فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأى مسمى رفضت هنا ؟ قال : رفضته لأريه الجنة . قال :
 فإن الله تعالى أمرني أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة . قلت : يا رب وأين إدريس
 من السماء الرابعة ، فقلت فإذا هو ملك ، فقبض روحه فرفضها إلى الجنة ، ودفت الملائكة
 جثته في السماء الرابعة ، فذلك قوله تعالى : « ورفضناه مكانا عليا » . قال وهب بن منبه : كان
 يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض في زماه ، صعب منه الملائكة
 وكشفت إلى ملك الموت ، فاستأذن به في زيارته فأذن له ، فأناه في صورة آدمي ، وكان
 إدريس عليه السلام يصوم النهار ، فلما كان وقت إغطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل .
 ففصل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس ، وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت .
 استأذنت ربي أن أحضرك فأذن لي ، فقال : إن لي إليك حاجة . قال : وما هي ؟ قال :
 أن تقبض روحي . فأوحى الله تعالى إليه أن أقبض روحه ، فقبضه وردته إليه بعد ساعة ،
 وقال له ملك الموت : ما التسائلة في قبض روحي ؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له
 أشد استمدا . ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لي إليك حاجة أخرى . قال : وما هي ؟
 قال : أن ترفضي إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ، فأذن الله تعالى له في رفعه إلى السموات ،
 فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال أرى الجنة فأدخله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : أخرج
 لتعود إلى مقرك . فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى بينهما ملكا حكما ،
 فقال : مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وأنا ذوقته ،
 وقال : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقد وردتها ، وقال : « وَمَا مِنْهَا مَخْرَجِينَ » فكيف أخرج ؟
 قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : « ماذا دخل الجنة وبأمرى يخرج » . فهو حي هناك
 فذلك قوله تعالى : « ورفضناه مكانا عليا » قال النحاس : قول إدريس « وَمَا مِنْهَا مَخْرَجِينَ »
 يحوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس ، ثم نزل القرآن به . قال وهب ابن منبه : فإدريس طرقة
 يرتع في الجنة ، وثارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ
 آدَمَ وَيَمْنُ جَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
 وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ) يريد
 لإدريس وحده ، (وَيَمْنُ جَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) يريد إبراهيم وحده ، (وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ) يريد
 إسماعيل وإسحق ويعقوب ، (وَمِن ذُرِّيَةِ إِسْرَءِيلَ) موسى وهرون وذكرا ويحيى وعيسى .
 فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، وإبراهيم شرف القرب من نوح وإسماعيل
 وإسحق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم ، (وَيَمْنُ هَدَيْنَا) أى إلى الإسلام : (وَاجْتَبَيْنَا)
 بالإيمان . (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ) . وقرا شبل بن جاد المكي « يتل » بالتذكير لأن التائت
 غير حقيق مع وجود الفاصل . (خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) وصفهم بالخشوع لله والبكاء . وقد مضى
 في « سبحان » . يقال بكى بكاء وبكى وبكى ، إلا أن الخليل قال : إذا فصررت البكاء
 فهو مثل الحزن ؛ أى ليس منه صوت كما قال الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاءها • وما ينني البكاء ولا القويل

وهجاء تصب على الحال « وبكاء » عطف عليه .

الثانية - في هذه الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأتيها في القلوب . قال الحسن
 « إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكاء » في الصلاة . وقال الأعمى : المراد آيات
 الرحمن الكسب المتضمنة لتوحيده وحجبه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، ويكون عند
 ذكرها . والمراد من ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون ويكون

(١) وأصح ١٠ ص ٢٤١ وما يسطط طبة أول أو ثمانية .

(٢) حرمه الله بن هاشم بن حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله وأتت به أبو زيد لكعب بن مالك في آيات .

عند تلاوته، قال النجاشي: وفي هذا دلالة من قوله على أن القرآن هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام خصا بإتزاله إليه.

الثالثة - احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على السمع والقلبي. قال النجاشي: وهذا بعيد، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى. وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تطهيرهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند أية مخصوصة.

الرابعة - قال العلماء: ينبغي لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة: ألم تر كيف قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدي، واحذ بك أن أكون من المستكبرين من أمرك. وإن قرأ سجدة: سبحان، قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من مبادك للسم عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

قوله تعالى: نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَا ① إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ② جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ ③ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ④ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ⑤

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ) أي أولاد سوء. قال أبو حنيفة: حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: ذلك عند قيام الساعة، ونعذاب ما يلي علم الساعة.

أمة محمد صلى الله عليه وسلم يترو بعضهم على بعض في الأمانة زنى. وقد تقدم القول في معنى
في «الأحرف» فلا معنى للإعادة.

الثانية - قوله تعالى: (أَضَاعُوا الصَّلَاةَ) يقرأ عبد الله والحسن وأضاعوا الصلوات
على الجمع. وهو ذم ونقص في أن إضاعة الصلاة من الكبار التي يوجب بها صاحبها ولا خلاف
في ذلك. وقد قال عمر: ومن ضيعها فهو لمساوها أضيع. واختصوا فيمن المراد بهذه الآية
قال مجاهد: النصارى خلفوا بعد اليهود. وقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد أيضا وطاهر
م قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان؛ أي يكون في هذه الأمة من هذه صفة
لا أنهم المراد بهذه الآية. واختصوا أيضا في معنى إضاعتها؛ فقال القرظي: هي إضاعة
كفر وبجدها. وقال القاسم بن غيمرة، وعبد الله بن مسعود: هي إضاعة أوقاتها، وعدم
القيام بحقوقها وهو الصحيح، وأنها إذا صليت على بها لا تصح ولا تجزئ؛ لقوله صلى الله
عليه وسلم للرجل الذي صلى وجاء فسلم عليه: «أرجع فصل فإني لم تصل» ثلاث مرات
خرجه مسلم، وقال حذيفة لرجل يصل فطففت: منذ كم تصل هذه الصلاة؟ قال منذ أربعين
عاما. قال: ما صليت، ولومت وأنت تصل هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد صلى الله
عليه وسلم. ثم قال: إن الرجل ليخفف الصلاة ويمت ويمسن. خرجه البخاري واللفظ
للناسي، وفي الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل» يعني صلبه في الركوع والسجود؛ قال: حديث حسن
صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم؛
يروون أن يقيم الرجل صلبه في الركوع والسجود؛ قال الشافعي وأحمد وإسحق: من لم يقيم
صلبه في الركوع والسجود فصلاته فاسدة؛ قال صلى الله عليه وسلم: «تلك الصلاة صلاة
المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فقرعها أربعا لا يذكر
الله فيها إلا قليلا». وهذا ذم لمن يفعل ذلك. وقال فروة بن خالد بن سنان: استبطأ

(١) تابع ج ٧ ص ٣١٠ وما بعدها طبعه أدل أو ثانية.

(٢) أي قص، والتخفيف يكون بمعنى الزيادة والنقص.

أصحاب الضحالك مرة أميا في صلاة العصر حتى كادت الشمس ترتب ؛ فقرأ الضحالك هذه الآية ؛ ثم قال : والله لأن أدعها أحب إلي من أن أضيعها . وجملة القول في هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس يحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه ، ولا دين كن لاصلاة له . وقال الحسن : عطلوا المساجد ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب . « وَيَتَّبِعُوا الشَّيَاطِينَ » أي اللذات والمعاصي .

الثالثة - روى الترمذي وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبي أنه أتى المدينة فلقى أبا هريرة فقال له : يأتي إلا أحدثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى . قال : « إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى ملائكتي وهو أعلم انظروا في صلاة عبدي أتمها أم قصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدي من تطوع فإن كان له تطوع قال أكلوا لعبدي فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك » . قال يونس : وأحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لفظ أبي داود . وقال : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا داود بن أبي هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الباري عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى . قال : « ثم الزكاة مثل ذلك » ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك . وأخرجه النسائي عن همام عن الحسن بن حريث بن قيس عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر » قال همام : لا أدري هذا من كلام قتادة أو من الرواية - فإن انتقص من فريضته شيء قال انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل به ما قص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك . خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيء قال انظروا هل تجمدون له من

تطوع بكل ماخرج من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلك . قال
 النسائي : أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال حدثنا الضرب بن شميل قال أنبأنا محمد بن مسلمة عن
 الأوزق بن قيس عن يحيى بن بصير عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 " أول ما يعاسب به البدن يوم القيامة صلاته فإن كان أكلها وإلا قال الله عز وجل أنظروا
 لعبدي من تطوع فإن وجد له تطوع قال أكلوا به الفريضة " . قال أبو عمر بن عبد البر
 في كتاب « التمهيد » : أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون - والله أعلم - فمن
 سها عن فريضة فلم يأت بها ، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدرك قدر ذلك ؛ وأما من
 تركها ، أو نسي ثم ذكرها ، فلم يأت بها عامدا ، وأشتغل بالتطوع عن أداء فرضها وهوذا ذكر
 له ، فلا تجل له فريضة من تطوعه ، والله أعلم . وقد روى من حديث الثاميين في هذا
 الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السكوني عن عبد الله بن قُرط عن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من صل صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من
 تسويحاته حتى تم " . قال أبو عمر : وهذا لا يحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هنا
 الوجه ، وليس بالقوي ؛ وإن كان صحيحا كان معناه أنه يخرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه
 وليست في الحكم بشامة .

قلت : فينبغي للإنسان أن يحسن فرضه وتمهله حتى يكون له ثقل يحده زائدا على فرضه
 يتزبه من ربه ، كما قال سبحانه وتعالى : « وما يزال عبدي يتزعب إلى بالنوافل حتى أحبه »
 الحديث . فاما إذا كان قل يكمل به الفرض لحكمة في المعنى حكم الفرض . ومن لا يحسن أن
 يصل الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن الفضل ؛ لا يرم تفل الناس في أشد ما يكون من
 التقصص والتخل خلفته عندهم ، وتهاونهم به ، حتى كأنه غير معتد به . ولعمرك الله لقد يشاهد
 في الوجود من يشار إليه ، ويظن به العلم تنفله كذلك ؛ بل فرضه إذ يشره قمر الديك لسم
 صرفته بالحسنة ؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون . وقد قال العلماء : ولا يميز ركون
 ولا سجود ، ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدين ، حتى يتبدل راكما وواقفا

وساجدا وجالسا . وهذا هو الصحيح في الأكثر؛ وعليه جمهور العلماء وأهل النظر . وهذه رواية ابن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » . وإذا كان هذا فكيف بكل ذلك التفضل ما قص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟ ! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول؛ لأنه وقع على غير المطلوب . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ) وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى : « وَأَتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ » هو من بني [المشيد^(١)] وركب المنظور، وليس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافي الإنسان ويشتيه ويلامعه ولا يتقبه . وفي الصحيح : « حُفَّت الجنة بالمكروه وحُفَّت النار بالشهوات » . وما ذكر من علي رضي الله عنه جزء من هذا .

قوله تعالى : (فَسَوْفَ يَقْوُونَ غَيًّا) قال ابن زيد : شرا أو ضللا أو خيبة ، قال :

فمن يلقى خيرا يحمده الناس أمره . ومن يتولا يندم على التي لا تمأ

وقال عبد الله بن مسعود : هو واد في جهنم . والتقدير عند أهل اللغة فسوف يقعون هذا التي ؛ كما قال جل ذكره : « وَمَنْ يَقْبَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأظهر أن التي اسم للوادي سمى به لأن الغادين يصيرون إليه . قال كعب : يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سباط كأذناب البقر، ثم قرأ « فَسَوْفَ يَقْوُونَ غَيًّا » أي هلاكا وضللا في جهنم . وعنه : غي واد في جهنم أبدا قفرا؛ وأشدّها حرا، فيه بئريسى البيم، كلما خبث جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسمر بها جهنم . وقال ابن عباس : غي واد في جهنم ، وإن أودية جهنم تستعبد من حره، أعده الله تعالى فلك الوادي للزاني المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولا كل الربا الذي لا يترع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولما ليس منه .

(١) راجع ج ١ ص ١٧٠ وما بعدها طبع ثانية أمانة . (٢) في الأصل : « من بني المشيد » .

(٣) البيت لرشيد كافي السان .

قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ تَابَ) أى من تضييع الصلاة وإتباع الشهوات ، فرجع إلى طاعة
 ربه : (وَلَكِنْ) به (وَجَعَلْ صَالِحًا قَوْلَ لَكِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) . قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير
 وابن محصن وأبو عمرو وسقوط وأبو بكر « يَدْخُلُونَ » بفتح الخاء . وفتح الياء بالفتح .
 (وَلَا يَدْخُلُونَ شَيْئًا) أى لا يتقص من أعمالهم الصالحة شيء ، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة
 عشر إلى سبعمائة . (جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِهَا) من الجنة فانتصت . قال أبو إسحق الزجاج : ويموز
 « جَنَّاتٌ مِّنْ » على الابتداء . قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان « جَنَّةٌ مِّنْ » لأن قبله
 « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . (أَلَمْ يَرْحَمِ اللَّهُ النَّبِيَّ) أى من عبده وحفظ عهده بالنبي .
 وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها . (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) « مأتيا » مفعول من الإتيان . وكل
 ما وصل إليك فقد وصلت إليه ، تقول : أنت على ستون سنة وأتيت على ستين سنة . ووصل
 إلى من فلان خير ووصلت منه إلى خير . وقال القتيبي : « مأتيا » بمعنى أتت فهو مفعول بمعنى
 فاعل . و « مأتيا » مهورز لأنه من أتى يأتى . ومن خفف الميمزة جعلها ألفا . وقال الطبري :
 الموعود هلما الموعود وهو الجنة ، أى يأتيا أولياؤه . (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا) أى فى الجنة .
 واللغو منه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا يتفق به . ومنه الحديث :
 « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أتيت والإمام يخطب فقد لغوت » ويروى « لبيت »
 وهى لغة أبى هريرة ، كما قال الشاعر :
 وَرَبِّ أَسْرَلَيْ حَجِيجٍ كُفِّمُ . عن القفا ورويت التَّكْمُ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى ، أى كلامهم فى الجنة حمد الله
 ونسيجه . (إِلَّا سَلَامًا) أى لكن يسمعون سلاما فهو من الاكتفاء المنقطع ، يعنى سلام
 بعضهم على بعض ، وسلام الملك عليهم ، قاله مقاتل وغيره . والسلام أسم جامع كبير ، والمضى
 أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يسمعون . قوله تعالى : (وَلَهُمْ فِيهَا بُرُكٌ وَنَعِيمٌ) أى لم
 يباشيتون من اللطام والمشارب بركة ونعيم ، أى فى قدر هذين الوقيين ، إذا بركة ثم ولا عشايا

كقوله تعالى : «مُذْهِبًا شَرًّا وَمُؤَدِّيًا لِلْإِيمَانِ» أي قدر شهره ، قال عنه ابن عباس وابن جرير وغيرهما . وقيل : عزهم لاعتدال أحوال أهل الجنة ، وكان أهل الجنة عند العرب التمكن من الخطم والشرب بكرة وعشيا . قال يحيى بن أبي كثير وقاعة : كانت السرب في زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم ؛ فقلت . وقيل : أي رزقهم فيها غير مقطوع ، كما قال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » وهو كما تقول : إذا أصبح وأمسى في ذكرك . أي ذكرى لك دائم . ويحتمل أن تكون البكرة قبل تساعدهم بقاتهم ، والشيء بعد فراغهم من ليلتهم ؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع إلى القول الأول . وروى الزبير ابن بكار عن اسمعيل بن أبي أويس قال قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين في اليوم مرتان ، وتلا قول الله عز وجل : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعِشَاءً » ثم قال : وعرض الله عز وجل المؤمنين في الصيام السحور بدلا من الفداء ليقووا به على عبادة ربهم . وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الفداء هيئة [تختلف^(١)] عن صفة المشاء وهيئة ، وهذا لا يعرفه إلا الملوك . وكذلك يكون في الجنة رزق الفداء غير رزق المشاء تلون عليهم النعم ليزدادوا تنميا وغبطة . وخرج الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قال قال رجل : يا رسول الله هل في الجنة من ليل ؟ قال : « وما هي بك على هذا » قال سمعت الله تعالى يذكر في الكتاب : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعِشَاءً » فقلت : الليل بين البكرة والعشاء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يراد القدوع الروح والروح على الندوة وتأتيهم طُرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة » وهذا في غاية البيان لمنى الآية ، وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » . وقال العلماء : ليس في الجنة ليل ولا نهار ، وإنما هم في نور أبدا ؛ إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما .

قوله تعالى : (يٰٓكَافِرَةٌ اَنّٰى) اى هذه الجنة التى وصفنا احوال أهلها (نُورُثُ) بالتخفيف . وقرأ يعقوب « نُورُثُ » بفتح الواو وتشديد الراء . والاختيار التخفيف لقوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكَلْبَ » . (مِنْ عِبَادَتَا مَنْ كَانَ تَحْتَا) قال ابن عباس : اى من آلهاتى وعمل بطاعتى . وقيل : هو على التقديم والتأخير ، تقديره : نُورُثُ من كان تَحْتَا من عبادة .

قوله تعالى : وَمَا تَسْتَرْزُلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٧﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ما منك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : قُرئت هذه الآية « وَمَا تَسْتَرْزُلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » إلى آخر الآية . قال هذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى : حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا عمر بن قز قال سمعت أبى بصير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « ما يمتصك أن تزورنا أكثر مما تزورنا قُرئت » وما تسترزل إلا بأمر ربك » الآية ؛ قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أجاب الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه ، فقال : « ما الذى أبطالك » قال : كيف تأتكم وأتم لا تصون أطفالكم ، ولا تأخذون من شواربكم ، ولا تَتَّقُونَ رَوَاجِبَكُمْ ، ولا تَسْتَأْذِنُونَ ، قال مجاهد : قُرئت الآية فى هذا . وقال مجاهد أيضا وقادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي : أحسن جبريل عن النبى صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب العكف وفى القرنين والروح ولم يدر ما يحبسهم ، وربما أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه ؛ قال عكرمة : فأجابه أربعين يوما . وقال مجاهد : أثنى عشرة ليلة . وقيل : خمسة عشر يوما ؛ وقيل : ثلاثة عشر . وقيل : ثلاثة أيام . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أجابت على حتى

سأه علي وأنتعت إليك" فقال جبريل عليه السلام : (إني كنت أشوق، ولكنني جدد ما مورد
 إنا بنت نزلت، وإنا حُبت أحبت، فقلت الآية : «وَمَا سَتَرْتُ إِلَّا أَمْرًا رَبِّكَ» وأقول
 «وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِنَّا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . » ذكره الصليبي والواحدى والتشيمى
 وغيرهم . وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما ستترى هذه الجنة
 إلا بأمر ربك . وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل . وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل : تكون
 غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تستعمل على جمل، وقد تفصل جملة عن جملة .
 «وَمَا سَتَرْتُ» أى قال الله تعالى : قل يا جبريل «وَمَا سَتَرْتُ إِلَّا أَمْرًا رَبِّكَ» . وهذا يحتمل
 وجهين : أحدهما — إنا إذا أمرنا تزلنا عليك . الثانى — إذا أمرك ربك تزلنا عليك ،
 فيكون الأمر على الأول متوجها إلى التزل، وعلى الوجه الثانى متوجها إلى التزليل .

وقوله تعالى : (لَهُ) أى لله . (مَا يَنْ أَيْدِيًا) أى علم ما بين أيدينا (وَمَا خَلَقْنَا
 وَمَا يَنْ ذَلِكَ) قال ابن عباس وابن جرير : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدها
 من أمرها وأمر الآخرة «وَمَا يَنْ ذَلِكَ» من البرزخ . وقال قتادة ومقاتل : «له ما بين
 أيدينا» من أمر الآخرة «وما خلقنا» ما مضى من الدنيا «وما بين ذلك» ما بين الضميتين
 وبينهما أربعون سنة . الأخفش : «ما بين أيدينا» ما كان قبل أن نحلق «وما خلقنا»
 ما يكون بعد أن نموت «وما بين ذلك» ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت . وقيل : «ما بين
 أيدينا» من التواب والمقاب وأمر الآخرة . «وما خلقنا» ما مضى من أعمالنا في الدنيا
 «وما بين ذلك» أى ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة . ويحتمل خامسا : «ما بين
 أيدينا» الساء «وما خلقنا» الأرض «وما بين ذلك» أى ما بين الساء والأرض . وقال
 ابن عباس فى رواية : «له ما بين أيدينا» يريد الدنيا إلى الأرض «وما خلقنا» يريد
 السموات — وهذا على عكس ما قبله — «وما بين ذلك» يريد الهواء ذكر الأول الماوردى
 والثانى التشيمى . الزمخشري : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غير منها، والحال التى نحن فيها .
 ولم يقل : ما بين ذلك لأن المراد ما بين ما ذكرنا، كما قال : «لَا فَايَئُشُّ وَلَا يَكْرَهُونَ بَيْنَ ذَلِكَ»

فهمين ما ذكرنا . (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَبِيًّا) أى نبياً إنا نعلم انك لم يزل اليك الوحي . وقيل :
للمنى لم يزلك وإن أخر عنك الوحي . وقيل : للمنى أنه علم بجميع الألفاظ متطعها ومتكفها ،
ولا ينس خطا منها .

قوله تعالى : (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أى وهما وحدهما وعلى ما بينهما
ومالكهما وماك ما بينهما ، فكا إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان . (فَأَنذَرْتُ)
أى وحده لنك . وفى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى ، كما يحرق أهل
الخلق ، وهو القول الحق ، لأن قرب فى هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من سببه إلا على
المالك ، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض . دخل فى ذلك اكتساب الخلق ،
ووجبت جادته ، لما ثبت أنه المالك على الإطلاق ، وحقبة العبادات الطاعة بناية الخسوع ،
ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود . (وَأَصْطَرِيبَ آيَاتِهِ) أى طاعته ولا تحزن لتخبر
الوحي منك ، بل اشتغل بما أمرت به . وأصل أصطرب استبر ، فمثل الجمع بين الله والعباد
لاختلافهما ، فأبدل من الله طاء ، كما تقول من الصوم : أصطام . (هل تعلم له نبيا)
قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولما أى نظيرا ، أو مثلا ، أو شيئا يستحق مثل اسمه القى
هو الرحمن . وقاله مجاهد . مأخوذ من المسامة . وروى إسرائيل عن سماك عن مكرمة عن
ابن عباس قال : هل تعلم له أحدا سمى الرحمن . قال النحاس : وهذا أجل إسناده روى
فى هذا الحرف ، وهو قول صحيح ، لا يقال الرحمن إلا لله .

قلت : وقد مضى هذا ميثا فى البسملة . والحمد لله . روى ابن أبي نجيح عن مجاهد
« هل تعلم له نبيا » قال : مثلا . ابن المسيب : عدلا . قتادة والكبي : هل تعلم أحدا
يسمى الله تعالى غير الله ، أو يقال له الله إلا الله . وهل معنى لا ، أى لا تعلم . والله
تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ لِمَ أَتُوفَّيْتُ هَذَا ؟ (١٥)
 أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (١٦) قَوْلُكَ
 لَنَحْضُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينُ ثُمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا (١٧) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
 مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّةً أَشَدَّ عَلَى الْأَخْرَجِينَ جِثِيًا (١٨) ثُمَّ لَنَنْحُنَّ أَعْنَاقَهُمْ بِالْقَدِيرِ
 ثُمَّ أُولَئِكَ يَكُونُ لَهَا صِلًا (١٩) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا
 مَقْضِيًّا (٢٠) ثُمَّ نَقَى الَّذِينَ آتَنُوا وَتَلَّى الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا (٢١)

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ لِمَ أَتُوفَّيْتُ هَذَا) الإنسان هنا أي
 ابن خلف ، وجد عظاما بالية ففتتها بيده ، وقال : زعم عهد أنا نبئت بعد الموت ، قاله الكلبي ،
 ذكره الواحدي والتلمبي والقسيري . وقال المهدي : نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه ،
 وهو قول ابن عباس . واللام في « لسوف أخرج حيا » للتأكيد . كأنه قيل له : إذا ماتت
 لسوف تبث حيا فقال : « أننا ماتت لسوف أخرج حيا » ! قال ذلك منكرا بخاصة
 اللام في الجواب كما كانت في القول الأول ، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام ، لأنها للتأكيد
 والإيجاب وهو منكر للبث . وقرأ ابن ذكوان « إذا مات » على الخبر . والباقر بالاستفهام
 على أصولهم بالهمز . وقرأ الحسن وأبو حنيفة « لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » ، قاله استنزاء لأنهم
 لا يصلحون بالبث . والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى : (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ) أي أولا يذكر هذا القائل (أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ)
 أي من قبل سؤاله وقوله هذا القول (وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) فالإعادة مثل الابتداء فلم ينقض . وقرأ
 أهل الكوفة إلا صاحبا ، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر « أَوَلَا يَذْكُرُ » . وقرأ شيبه ونافع وعاصم
 « أَوَلَا يَذْكُرُ » بالتحفيف . والاختيار التشديد وأصله يذكرك ، لقوله تعالى : « إِنَّمَا يَذْكُرُ
 أُولُو الْأَلْبَابِ » وأخواتها . وفي حرف أبي : « أَوَلَا يَذْكُرُ » وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة
 لخط المصحف . ومعنى « يَذْكُرُ » يتفكر ، ومعنى « يَذْكُرُ » يتنبه ويعلم ، قاله النحاس .

قوله تعالى : (قَدْ رَبَّكَ تُنْكِرْتُمْ) أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قعودهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين . (وَالشَّيَاطِينَ) أي ولعشرون الشياطين قرأه لم . قيل : يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ، كما قال : « أَحْشَرُوا الْمَيِّتَ ظَلَمُوا وَأَزَلُّوا بِهِمْ » .
 الزمخشري : والروا في « وَالشَّيَاطِينَ » يجوز أن تكون لطف وبمعنى مع ، ومعنى مع أوقع . والمعنى أنهم يحشرون مع قرأتهم من الشياطين الذين أغوهم ، يقرنون كل كافر مع شيطان في سلسلة . فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد بالأناس على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين ؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا ونهيم الكفرة مفروطين بالشياطين ، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة .
 فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم في الحشر ، وأحضرنا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي ينالونها منها وخلصهم ، فيزدادوا تلك خبطة ، وسرورا إلى سرورهم ويستمتوا بأعلاء الله تعالى وأعدائهم ، فتزداد مسامتهم وحسرتهم ، وما ينظفهم من سعادة أولياء الله وشحاتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحصائهم جثا ؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يتلون من الحشر إلى شاطئ جهنم حثلا على حثلم التي كانوا عليها في الموقف ، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم . وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجنس ، قال الله تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » على الحالة الممهودة في مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب . لما في ذلك من الاستغفار والتلق ، وإطلاق الحثا خلاف الطمانينة ، أولا يدعهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا . وإن فسر بالسوم فالمعنى أنهم يجاثون عند موافاة شاطئ جهنم .
 هل أن « جثا » حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين ، لأنه من تواج التوافق للحساب ، قبل التواصل إلى التواب واللقاب . ويقال : إن معنى (لَتُعْصِرْنَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً)
 (١) قيل : المص والإرطاق بالسوق النيف . (٢) الاستغفار : هم الماطنات ، قال الجرمي ، قد مسخرنا أي غير طمئنا .

أى جيا على ركبهم، عن جماعة وقادة؛ أى أنهم لثقة مأم فيه لا يقدرون على القيام.
 « وحول جهنم » يجوز أن يكون داخلها؛ كما تقول: جلس القوم حول البيت أى داخله
 مطفين به؛ بقوله: « حول جهنم » على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول. ومحمّد
 أن يكون قبل الدخول. و« جيا » جمع جاث. يقال: جاث على ركبته يتنوّ ويتنّى جثوا
 وجثيا على فحول فيهما. وأجتهه فيه. وقوم جثي أيضا؛ مثل جلس جلوسا وقوم جلوس؛
 ويجثي أيضا بكسر الهميم لما بعدها من الكسر. وقال ابن عباس: « جيا » جماعات. وقال
 مقاتل: جمعا جمعا؛ وهو على هذا التأويل جمع جثوة وجثوة وجثوة ثلاث لغات، وهى الجارة
 المضمومة والفتحة والجمع؛ فأهل النحر على حدة، وأهل الزنى على حدة، وهكنا؛ قال طرفة:
 ترى جثوتين من زنايب عليهما * صفائح صم من صفائح سفيد

وقال الحسن والضحاك: جاثية على الركب. وهو على هذا التأويل جمع جاث على ما تقدم.
 وذلك لضيق المكان؛ أى لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما. وقيل: جيا على ركبهم
 التخاصم؛ كقوله تعالى: « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ». وقال الكيت:
 هم تركوا سرائرهم جيا. وهم دون السراة مقرّبين

قوله تعالى: « ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ » أى لنستخرجن من كل أمة وأهل دين
 (أيهم أشد على الرحمن عيا) النحاس: وهذه آية مشككة فى الإعراب؛ لأن القراء كلهم
 يقرءون « أيهم » بالرفع إلا هرون القارئ الأعور فإن سيويه حكى عنه: « ثم لنزيعن من كل
 شيعة أيهم » بالنصب أوقع على أيهم لنزيعن. قال أبو إسحق فى رفع « أيهم » ثلاثة أقوال؛
 قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيويه: أنه مرفوع على الحكاية؛ والمنى: ثم لنزيعن من كل
 شيعة التى يقال من أجل عتوه أيهم أشد على الرحمن عيا؛ وأشد الخليل، قال:

ولقد أبيت من الفتاة بمثل • فأبيت لا حرج ولا محروم

أى فأبيت بمثلة التى يقال له لا هو حرج ولا محروم. وقال أبو جعفر النحاس: ورايت
 أبا إسحق يختار هذا القول ويستحسنه؛ قال: لأنه معنى قول أهل التفسير. وزعم أن معنى

« ثم لتزمن من كل شيعة » ثم لتزمن من كل فرقة الاخرى فالأخرى . كأنه جدنا بالخليصه
 بأشتم حيا ثم الذي يليه ، وهذا نص كلام أبي إسحق في معنى الآية . وقال يونس : « لتزمن »
 بمترلة الأصل التي تلي وترفع « أيم » على الابتداء . المهدوي : والقول الذي هو « لتزمن »
 عند يونس ملحق ، قال أبو علي : معنى ذلك أنه يعمل في موضع « أيم أشد » لأنه ملحق .
 ولا يلقى عند التليل وسيويه مثل « لتزمن » ، إنما يلقى بأصل الشك وشبهها ما لم يحقق
 وقوعه . وقال سيويه : « أيم » معنى على الضم لأنها خالفت أخواتها في الحذف ، لأنك
 لو قلت : رأيت الذي أفضل ومن أفضل كان قبيحا ، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف
 في « أيم » جائز . قال أبو جعفر : وما ملئت أحدا من النحويين إلا وقد خطأ سيويه
 في هذا ، وسكنت أبا إسحق يقول : ما بين لي أن سيويه غلط في كتابه إلا في موضعين هذا
 أحدهما ، قال : وقد علمنا أن سيويه أعرب أيا وهي مفردة لأنها تضاف ، فكيف يليها وهي
 مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال . أبو علي : إنما وجب
 البناء على منزه سيويه ، لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع انتقار إليه ، كما حذف
 في « من قبل ومن بعد » ما يتعرفان به مع انتقار المضاف إلى المضاف إليه ، لأن الصلة بين
 الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه بين المضاف ويخصه . قال أبو جعفر : وفيه أربعة
 أقوال سوى هذه الثلاثة التي ذكرها أبو إسحق ، قال الكسائي : « لتزمن » واقعة على المعنى ،
 كما تقول : لست من الثياب ، وأكلت من الطعام ، ولم يقع « لتزمن » على « أيم »
 فينبها . زاد المهدوي : وإنما الفعل عنده واقع على موضع « من كل شيعة » وقوله :
 « أيم أشد » جملة مستأنفة مرسومة بالابتداء ، ولا يرى سيويه زيادة « من » في الواجب .
 وقال القراء : المعنى ثم لتزمن بالبناء ، ومعنى « لتزمن » لتدبين . المهدوي : وتؤدي فعل
 يلقى إنما كان بعده جملة ، كطفت فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ . قال أبو جعفر :
 وحكي أن بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول في « أيم » معنى الشرط والمجازاة ، فلذلك
 لم يعمل فيها ما قبلها ، والمعنى : ثم لتزمن من كل فرقة إن تناسوا أو لم يتناسوا ، كما تقول :
 ضربت القوم أيم غضب ، والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا . قال أبو جعفر : فهذه ستة

فهرال، وصحت على بن سليمان يحكى عن محمد بن زيد قال : « أقيم » متعلق « بشيعة » فهو
مخرج بالاستعانة والمضى : ثم لترى من الذين تنابوا أقيم ، أى من الذين تناولوا فطروا
أقيم أشد على الرحمن حياء ، وهذا قول حسن . وقد حكى الكشاف أن الشراح التاون .
و « حياء » نصب على البيان . (ثُمَّ لَتَنُ أَكْثَرُ النَّاسِ ثُمَّ أُولَئِكَ بِأَعْيُنِنَا) أى احنى بدخول
الظرف . يقال : صُلَّ صَلًّا ، نحو مضى النسي ، مضى مضيا إذا ذهب ، وهوى وهوى هوى .
وقال الجوهري : ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلحها ، فإن ألقته
فيها القتل كأنك تريد الإحراق قلت : أصلته بالآكل وصلته تلبية . وتقرى « ويصل »
سعيًا . ومن خفف فهو من قولهم : صلي فلان النار (بالكسر) يصل صليا أحترق ،
قال الله تعالى : « ثُمَّ أُولَئِكَ بِأَعْيُنِنَا » . قال الساج :

« والله لولا النار أن يصلحها »

ويقال أيضا : صلي بالأسر إذا قسى حره وشدته . قال الطهوى :

وَلَا تَسْلُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَإِنْ هُمْ صَلُّوا بِالْهَرْبِ حَيْثُ بَدَّ حِينَ

وَأَصْطَلَبَتِ النَّارُ وَصَلَّتْ بِهَا . قال أبو زيد :

وَقَدْ صَلَّتْ حَرَّ حَرِيْهِمْ . كما تصل المقرور من قرين

وقلان لا يصطل بناره إذا كان شجاعا لا يطاق .

قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا) فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ » هذا قسم ، والواو تنضمته . ويفسره حديث
النبي صلى الله عليه وسلم « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد قمه النار إلا نجلته »

(١) « صليا » بضم الصاد قراءة « نافع » وعليها الضمة .

(٢) « وتب » في اللسان مادة « قبه » إلى الزيفان ، وأوردته في آيات هي :

ما بال من شوقها أكنى كاهها . في وهم دار لبيت بلاها

تأله لولا النار أن يصلحها . أو يحو الياس عليها الله

« لما سمعنا لأمر قاه »

القسم^(١) قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: «وإن منكم إلا وادعاه» ذكره أبو داود الطيالسي، فقله: «إلا تحلة القسم» يخرج في التفسير المستدل لأن القسم المذكور في حقا الحديث سواء عند أهل العلم قوله تعالى: «وإن منكم إلا وادعاه» . وقد قيل: إن المراد بالقسم قوله تعالى: «والقداريات ذروا» إلى قوله: «إِنَّمَا تُوْعَدُونَ تَصْلَافًا» . وَإِنَّ الْعَيْنَ لَوَاقِعٌ «والأول أشهر، والمعنى مضروب» .

الثانية - وأختلف الناس في الورد؛ فقيل: الورد الدخول؛ وروى عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الورد الدخول لا يبقى بر» ولا تاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين ردا وسلاما كما كانت على إبراهيم «ثم تُنْحَى الْقَيْنَ آخَوًا وَتَقْدَرُ الطَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا» «أسنده أبو عمر في تلخيص» . وهو قول ابن عباس وسالده بن معدان وابن جرير وغيرهم . وروى عن يونس أنه كان يقرأ «وإن منكم إلا وادعاه» الورد الدخول؛ على التفسير للورد؛ فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن . وفي مسند العرام عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يرد الناس النار ثم يصعدون منها أعمالهم فمنهم كلح البصر ثم كالج ثم كحصر القرس ثم كالراكب المحيد في رحله ثم كشد الرجل في مشيته» . وروى عن ابن عباس أنه قال في هذه المسئلة لنافع بن الأزرق الخارجي: أما أنا وأنت فلا بد أن نزدها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك . وقد أشفق حكيم من العلماء من تحقق الورد والجمل بالصدر؛ وقد بيناه في «التذكرة» . وقالت فرقة: الورد انجر على الصراط . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدي، ورواه السدي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله الحسن أيضا؛ قال: ليس الورد الدخول، إنما يقول: وردت البصرة ولم أدخلها . قال: فالورد أن يمزوا على الصراط . قال أبو بكر الأنباري: وقد بنى على منذهب الحسن قوم من أهل القصة، واحتجوا بقول الله تعالى: «إِنَّ الْقَيْنَ سَبَقَتْ لَمْ يَأْخُذْ الْحَسَنُ أَوْلَيْكَ عَنْهَا» (١) «إلا عمة القسم»: أي لا يدخل النار ليعاقبه بها، ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقصد

«يراد به» . (٢) الحصر (بالضم): الضم؛ وشدة الرجل: ضربه أيضا .

مُجِدُونَ» قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها . وكان هؤلاء يقرءون « ثم »
 يفتح الله » ثَمَّي الْقَيْنَ أَتَوْا » . واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله :
 « أولئك عنها مبعدون » من العذاب فيها ، والإحراق بها . قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر
 بها ، ولا يحس منها وجعا ولا ألما ، فهو مبعد عنها في الحقيقة . ويستدلون بقوله تعالى :
 « ثم ثَمَّي الْقَيْنَ أَتَوْا » بضم التاء ، ذ « ثم » تدل على نجاة بعد الدخول .

قلت : وفي صحيح مسلم « ثم يُضْرَبُ الحِسرُ على جهنم وَيُقَالُ الشَّفَاعَةُ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ
 سَلِّمْ سَلِّمْ » قيل : يا رسول الله وما الحِسرُ ؟ قال : « دَحْضُ مِرَّةٍ فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَابُ
 وَحَسَكٌ تَكُونُ بَجْدِهَا شُوبَكَةٌ يُقَالُ لَهَا السُّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَلْبُفَ السَّيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالْبَرْجِ
 وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِدِ اللَّيْلِ وَالزَّكَاكِ فَتُجَاعُ سَلْمٌ وَمُخْدَشٌ مُرْمَلٌ وَمَكْمُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ »
 الحديث . وبه أحجج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورد الذي تضمنته هذه الآية
 لا الدخول فيها . وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف وأطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون
 موضع الحساب وهو يقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله
 الذين أتوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة . (وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ) أي يؤمر بهم إلى النار
 قال الله تعالى : « وَلَمَّا وَرَدَّ مَاءَ مَتْنٍ » أي أشرف عليه لا أنه دخله . وقال زهير :

قَدْ لَمَّا وَرَدَّ الْمَاءَ زَرْقًا حِمَامَةً . وَضَعَنِي عَيْصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخِمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد من أهل بدر
 والحديبية » قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَهَ » ثم ثَمَّي الْقَيْنَ أَتَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءً .
 أخرجه مسلم من حديث أم مُمَثَّرٍ قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة .
 الحديث . وروى الزجاج هذا القول بقوله تعالى : « إِنَّ الْقَيْنَ سَبَقَتْ لَهُمُ مِنَ الْحَسَنَى أُولَئِكَ
 عَنْهَا مُجِدُونَ » . وقال مجاهد :

(١) دَحْضُ مِرَّةٍ : مما يعني ، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر . (٢) يقال : ماء أزرق إذا كان
 صافيا . وجام جمع مِرَّةٍ ، وهو الماء المجمع . والحاضر : النازل على الماء . والمتخم : القيم ، وأصلهم من تخم إذا نصب
 الخيمة . يصف زهير الظن بأنهم في أمن ومنعة ، فإذا نزل نزل آمانات كثيره من فوق أهدوك . وأليت من صفته .

ورود المؤمنين النار هو الحى التى تصيب المؤمنين فى دار الدنيا، وهى حظ المؤمنين من النار فلا يردحها . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً من وطء به ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول : « من تولى أسلماً على عبدي المؤمنين لتكون حظته من النار » أسنده أبو عمر قال : حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا محمد بن إسماعيل الصائغ قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسماعيل بن عبيد الله [عن أبي صالح] الأشعري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً فذكره . وفى الحديث « الحصى حظ المؤمنين من النار » . وقالت فرقة : الورد النظر إليها فى القبر، فينجى منها الفائز، ويصلاها من قدر طيه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاة أو غيرها من رحمة الله تعالى . واحتجوا بحديث ابن عمر : « إذا مات أحدكم مرض طيه مقعده بالجنة والنسي » الحديث . وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعالى : « وإن منكم إلا وإردحها » قال : هذا خطاب للكفار . وروى عنه أنه كان يقرأ « وإن منكم » رداً على الآيات التى قبلها فى الكفار : قوله « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً . ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَئاً شَدِيداً عَلَى الرَّحْمَنِ جِثَاً . ثُمَّ لَنَعْلَمَنَّ الَّذِينَ هُمُ أَوَّلَىٰ بِمَآئِيلِهِمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقَةً قَرَّتْ بِرَأْسِهِمْ وَجَمَاعَةٌ وَعَلِيهَا فَلَا شُعَبَ فِي هَذِهِ الْقِرَامَةِ . وقالت فرقة : المراد به « حنك » الكفرة ، والمعنى : قل لم يا محمد . وهذا التأويل أيضاً سهل التناول ، والكاف فى « منكم » واجبة إلى الماء فى « لنحشرنهم والشياطين » . ثم لنحضرهم حول جهنم جثا ، فلا ينكر رجوع الكاف إلى الماء ؛ فقد عرف ذلك فى قوله عن وجل : « وَسَقَامُكُمْ شِرَاباً ظُهُوراً . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً » معناه كان لهم ، فرجعت الكاف إلى الماء . وقال الأكثر : المخاطب العالم كله ، ولا بد من ورود الجميع ، وعليه نسا الخلاف فى الورد . وقد بينا أقوال العلماء فيه . وظاهر الورد الدخول ، لقوله عليه الصلاة

والسلام : " خمسة النار " لأن المسيس حقيقته في اللغة الحاسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، ويخون منها سالمين . قال خالد بن سندان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فقال : لقد وردتوها فألقوها وما دأ .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ؛ فإن من وردتها ولم تؤده بلهبها وحرما فقد أبعد عنها ونجى منها . فجاء الله تعالى منها بفضلها وكرمها ، وجعلنا ممن وردتها فدخلها سالمين ، ونخرج منها عاتماً . فإن قيل : فهل يدخل الأتقياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ؛ ولكن نقول : إن الخلق جميعاً يردونها كما دل عليه حديث جابر أول الباب ؛ فالله صفة يدخلونها بجرأتهم ، والأولياء والسعداء لشفاقتهم فيمن الدخوليين يؤن . وقال ابن الأنباري محتجاً لمصنفه من وقراءة العامة : جاز في اللغة أن يرجع من خطاب النية إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال : « وَمَسَاقِمُ رَبِّهِمْ شَرَّاباً طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » فأبدل الكاف من الماء . وقد تهم هذا المعنى في « يونس » .

الثالثة - الاستثناء في قوله عليه السلام : " إِلَّا نَحْلَةَ الْقَسَمِ " يحتمل أن يكون استثناء مقطوعاً ؛ لكن نحلة القسم ؛ وهذا معروف في كلام العرب ؛ والمعنى ألا نحمه النار أصلاً ؛ وتم الكلام هنا ثم ابتدأ " إِلَّا نَحْلَةَ الْقَسَمِ " أي لكن نحلة القسم لا بد منها في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون في ذلك شيء من سيس ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيجتنبهم إلا كانوا له جنة من النار " والجنة الوقاية والستر ؛ ومن وقى النار ومقرها فلا غن تهمه أصلاً ، ولو سته لما كان فوق .

الرابعة - هذا الحديث يفسر الأول لأن فيه ذكر الجنة ؛ ولذلك جعله مالك بآخرة مصراً له . ويقتد هذا الحديث الثاني أيضاً ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " من مات له ثلاثة من الولد لم يلنوا الجنة كان له حجاباً من النار - أبو -

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ وما بعدها طبعه أدل أو ثانية . (٢) " كان " : بالإفراد وأسمها ضمير يرد على الموت المقهور مما سبق ؛ أي كان موته له حجاب . ولأنه يؤمن الكسبي كان له حجاباً . " مسهل " .

دخل الجنة " قوله عليه السلام : " لم يلقوا الخبث " - ومعه عند أهل العلم لم يلقوا الخبث ولم يلقوا أن يذمهم خبث - دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة - والله أعلم - لأن الرحمة إذا نزلت بأبائهم استحال أن يذموا من أجل [من] ليس بمرحوم . وهذا إجماع من العلماء أن أطفال المسلمين في الجنة ، ولم يخالف في ذلك إلا فرقة شلت من الجهمية بجلبيتهم في المشقة ، وهو قول مهجود مردود بإجماع المجبة الذين لا تجوز مخالفتهم ولا يجوز على منظم المنطق ، إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الإحسان الطلقات المندولة ، وأن قوله عليه الصلاة والسلام : " شقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه وإن الملك يترل فيكتب أجله وعمله ورزقه " الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو من سعد في بطن أمه ولم يشق بدليل الأحاديث والإجماع . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لما شق الله تعالى عنها : " يا عاتكة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم " ساقط ضعيف مردود بالإجماع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذي يرويه ضعيف لا يصح به . وهذا الحديث مما انفرد به فلا يترج عليه . وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة ابن إياس المزني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً من الأنصار مات له ابن صغير فوجد عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما يسرك ألا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدتَه يفتح لك " فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للجميع عامة ؟ قال : " بل للجميع عامة " قال أبو عمر : هذا حديث ثابت صحيح ؛ يعني ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ، وهو يارض حديث يحيى ويدفعه . قال أبو عمر : والوجه عندي في هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، وأجنب الجواز ، وصبر واحتسب في مصيئته ، فإن الخطاب لم يوجه في ذلك الصبر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا ، وهم الصابرة رضي الله تعالى عنهم أجمعين . وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعالى : " وَإِنَّ مِنْكُمْ لَأَآرِدَعًا " قوله : " إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَئِكَ مَنَّا " زيادة بعضها السابق .

مُطَوَّنٌ . وهذا ضعيف ، وهذا ليس موضع نسخ . وقد بينا أنه إذا لم تحسه النار قد أبدعها . وفي الخبر : « تقول النار للذين يوم القيامة جزأ مؤمن قد أطلقا نورك لمي » .

الخلاصة - قوله تعالى : « كَانَ عَلَى رَأْسِكَ حَتًّا مَقْضِيًّا » الحتم بإحساب القضاء . أى كان ذلك حتما . « مقضيا » أى قضاء الله تعالى عليكم . وقالها بن مسعود : أى قضا واجبا . قوله تعالى : (« ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ») أى غلظهم (« وَنَزَّلْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ») وهذا مما يدل على أن الورد الدخول ؛ لأنه لم يقل : وتدخل الظالمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . والمنعجب أن صاحب الكثرة وإن دخلها فإنه يصاب بقدر ذنبه ثم يغفر . وقالت المرجئة : لا يدخل . وقالت الوعيدية : يدخل . وقد مضى بيان هذا في غير موضع . وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قره « ثُمَّ نَجَّيْنَا » غفقة من انجى . وهى قراءة حميد وسقوب والكسائي . وتقول الباقون . وقرأ ابن أبى ليل « ثُمَّ » فتح التاء أى هناك . و « ثُمَّ » ظرف إلا أنه مبنى لأنه غير محصل فبنى كما بنى ذاء ، والماء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتصنف في الوصل ، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتنت في الوصل تاء .

قوله تعالى : « وَإِذَا تَنَادَّ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » (٧٦) « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا » (٧٧) « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَعُفُ جُنْدًا » (٧٨)

قوله تعالى : (« وَإِذَا تَنَادَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ») أى على الكفار الذين سبق ذكركم في قوله تعالى : « إِنَّا مَا يَأْتِيهِمْ لَسَوْفَ نُخْرِجُ حَيًّا » . وقال فهم : « ونذر الظالمين فيها جحشا » أى هؤلاء . إذا قرئ عليهم القرآن قرئوا بالهنا ، وقالوا : لا بالنا - إن كما لم يطل - أكثر لعمري وأهين قرا . وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإلحاحهم أن من كثرة ما له ظهرك من أنه

الحق في دينه، وكأنهم لم يروا في الكفار قديرا ولا في المسلمين غيا، ولم يعلموا أن الله تعالى
تحت أولياءه عن الاعتزاز بالدنيا، وقرط الليل إليها . و « بينات » معناه مراتب الألقاظ،
ملخصة المعاني، مبيات المقاصد؛ إما بحكمت، أو مناسبات قد تبعا اليان بالحكمت،
لوتين الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا . أو ظاهرات الإعجاز تحصى بها ظم
يقدر على معارضتها . أو حجابا وبرايعين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة؛ كقولها تعالى :
« وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحجبا . (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)
يريد مشرك قريش النضرين الحرث وأصحابه . (الَّذِينَ آمَنُوا) بنى قراء اصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم، وكانت فيهم ثقافة، وفي عيشهم خشوة، وفي نياهم رثاة؛ وكان المشركون
يرسلون شعورهم، ويدهنون رؤوسهم، ويلبسون خير ثيابهم، فقالوا للؤمنين : (أَيُّ الْقَرِيبَيْنِ
خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) . قرأ ابن كثير وابن محيصن وحيد وشبل بن عبد « مَقَامًا » بضم
الميم وهو موضع الإقامة . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة . الباقون « مَقَامًا » بالفتح؛
أى منزلا ومساكا . وقيل : المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمر الجليطة؛ أى أى القرابين
أكثر جاهها وأنصارا . « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجلسا؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا للنظر وهو
المجلس في اللغة وهو الذى . ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم .
وناداه حاليه في السدى . قال : « أنادى به آل الوليد وجعفرًا » .

والندى على فصيل مجلس القوم ومعتدثهم، وكذلك الندوة والنادى [والمُتَدَيُّ] ^(١) والمُتَدَيُّ، فإن
يعرق القوم فليس بندى؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : (وَلَمْ أَهْلِكْكُمْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) أى من أمة وجماعة . (هُمْ أَحْسَنُ أَتَانًا)
أى مطا كثيرا؛ قال :

وَفَرَحَ جَزَنُ الْقَتَنِ أَسْوَدَ رَاحِمٍ . أَيْبِتْ كَيْفَ النَّظَرِ الْمُتَشَكِّلِ

(١) الزيادة من « السراج » لمحمد . (٢) هو أمرد القيس . والفرع : الشراة . والتمن مان
بين القلب والوجه من السب والهم . والهاشم القديرة السوء . وأيت : كثير أمل الناة . والفتو : الفتق .
السراج : السراج الذى يمتلئ به في بعض الكثرة . وقيل : المتل .

والأثاث متاع البيت . وقيل : هو ما جاز من القرش والخرق ما أنس منها ، وأنشد الحسن
لبن علي الطوسي فقال :

تأدم العهد من أم الوليد بنا • دهرنا وصلرا أثاث البيت نثرنا

وقال ابن عباس : هيئة . مقال : ثيابا . « وريثا » أى متكلرا حسنا . وفيه خمس قراءات :
قرأ أهل المدينة « وريثا » بنيرهمز . وقرأ أهل الكوفة « وريثا » بالهمز . وحكى يعقوب
أن طلحة قرأ « وريثا » بياء واحدة مخففة . وروى سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن
ابن عباس : « هم أحسن أثاثا وريثا » بالزاي ، فهذه أربع قراءات . قال أبو إسحق :
ويحوز « هم أحسن أثاثا وريثا » بياء بدلها همزة . النحاس : وقراءة أهل المدينة في هذا
حسنة وفيها تهريز : أحدها — أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء ،
وأدغمت الياء في الياء . وكان هذا حسنة لتتفق رءوس الآيات لأنها غير مهموزات . وعلى
هذا قال ابن عباس : الرئي المنظر ، فالمعنى : هم أحسن أثاثا ولياسا . والوجه الثانى — أن
جلودهم مرتوية من الصمة ، فلا يحوز الهمز على هذا . وفي رواية ورش عن نافع وابن ذكوان
عن ابن ماسر « وريثا » بالهمز تكون على الوجه الأول . وهى قراءة أهل الكوفة وأبى عمرو
من رأيت على الأصل . وقراءة طلحة بن مصرف « وريثا » بياء واحدة مخففة أحسبها ظلا .
وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء ، ثم حذفت إحدى اليائين .
المهدوى : ويحوز أن يكون « ريثا » فقلبت ياء فصارت رياء ثم قلت حركة الهمزة على الياء
وحذفت . وقد قرأ بعضهم « وريثا » على القلب وهى القراءة الخامسة . وحكى سيويه
رأه بمعنى رأى . الجوهري : من همزة جملة من المنظر من رأيت ، وهو ما رآه العين من
حال حسنة وكسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نير التقي فقال :

أشاقك الظلمات يوم بانوا • ينى الرئي الجميل من الأثاث

ومن لم همز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رويت ألوانهم وجلودهم ريثا ،
أى أمشاط وحسنت . وأما قراءة ابن عباس وأبى ابن كعب وسعيد بن جبيرة والأصم للمكي

ويزيد البربري « وزيا » بالزاي فهو الهيشة والحسن . ويعسوز أن يكون من زَوَيْت أي جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلت الواو ياء . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نُفِرَتْ لِي الْأَرْضُ » أي جمعت ، أي فلم يكن ذلك عندهم شيئا من عذاب الله تعالى ، فليش هؤلاء ما شاءوا فصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عَمَّروا ، أو العذاب العاجل ياخذهم الله تعالى به . قوله تعالى : (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ) أي في الكفر (فَلْيَحْذَرِهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) أي فليدعه في طغيان جهله وكفره ، فقله لفظ الأمر وسماه التحريم أي من كان في الضلالة منه الرحمن مدا حتى يطول اعتقاره فيكون ذلك أشد لعقابه . نظيره : « إنما نمل لهم لينذروا » وقوله : « ونذرهم في طغيانهم يسمهون » ومثله كثير ، أي فليش ما شاء ، وليوسع لنفسه في العمر ، فصيره إلى الموت والعقاب . وهذا غاية في التهديد والوعيد . وقيل : هذا دعاء أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، تقول : من سرق مالي فليقطع الله تعالى يده ، فهو دعاء على السارق . وهو جواب الشرط . وعلى هذا فليس قوله : « فليمد » خيرا .

قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ) قال « رأوا » لأن لفظ « من » يصلح للواحد والجمع . و « إذا » مع الماضي بمعنى المستقبل ، أي حتى يروا ما يوعدون . والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر ، وإما أن تقوم الساعة فيصرون إلى النار . (فَسَيَمْلِكُونَ مِنْهُ شَرًّا مَكَانًا وَاضْحَفُ جُنْدًا) أي تكشف حينئذ الحقائق . وهذا رد لقولهم : « أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديا » .

قوله تعالى : وَيزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (وَيزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) أي ويثبت الله المؤمنين على الهدى ، ويزيدهم في النصرة ، ويترل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين بمجازاة لهم . وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذي كفر به غيرهم ، قال معناه الكلبي ومقاتل .

ويحتمل ثالثا - أى « ويزيد الله الذين آمنوا » إلى الطاعة « هدى » إلى الجنة ، والمغنى متقارب . وقد تقدم القول فى معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والمغنى فى « آل عمران »^(١) وغيرهما . (وَلَقَائَاتِ الصَّالِحَاتِ) تقدم فى « الكهف » القول فيها . (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) أى جزاء : (وخير مردا) أى فى الآخرة عما اخبر به الكفار فى الدنيا . و « للمرد » مصدر كارد ، أى وخير دنا على ما ملأه بالتواب ، يقال : هذا أرد عليك ، أى أضع لك . وقيل : « خير مردا » أى مرجعا فكل أحد يرد إلى عمله الذى عمله .

قوله تعالى : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَتُوبَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٦﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَعْتَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٧﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٨﴾ وَرَوِّعْهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا) روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن خباب قال كان لى على العاص بن وائل دين فآتيه أخاضاه فقال لى : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد . قال : فقلت له لن أكفر به حتى تموت ثم تمت . قال : وانى لمبعوث من بعد الموت ؟ ! فسوف أقضيك إن رجعت إلى مال وولد . قال وكيع : كذا قال الأعمش ، فزلت هذه الآية « أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأتوبن مالا وولدا » إلى قوله : « ويأتينا فردا » . فى رواية قال : كنت قينا فى الجاهلية فسمعت للعاص بن وائل عملا ، فآتيه أخاضاه . خريه البخارى أيضا . وقال الكلبى ومقاتل : كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تخاضاه أجريه ؛ فقال العاص : ما عندى اليوم ما أقضيك . فقال خباب : لست بمبارك حتى تقضىنى ؛ فقال العاص يا خباب ما لك ؟ ! ما كنت هكذا ، وأن كنت لحسن الطلب . فقال خباب : انى صكت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لديك . قال : أولستم تزعمون أن فى الجنة نهبا وفضة وحريرا ؟ قال خباب : بلى . قال : فأخرنى حتى أقضيك

(١) راجع ٤٠ ص ٢٨٠ وما بعدها أول آياتها . (٢) راجع ١٠٠ ص ٤١٤ وما بعدها طبة أول آياتها . (٣) تقييد : الخلد والناصح .

في الجنة - استهزاء - فوافقه أين كان ما تحول حقا إلى لأفنيك فيها، فوافقه لا تكون كنت يا خباب وأصحابك أولى بها مني، فأنزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا » بني العاص ابن وائل، الآيات . (« أطلع النبي ») قال ابن عباس : أنظر في الوحي المفوظ ؟ ١٩ . وقال مجاهد : أعلم النبي حتى يعلم في الجنة هو أم لا ؟ ١٩ (« أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ») قال قتادة والثوري : أي عملا صالحا . وقيل : هو التوحيد . وقيل : هو من الوعد . وقال الكلبي : ماعد الله تعالى أن يدخله الجنة . (« كَلَّا ») رد عليه ، أي لم يكن ذلك ، لم يطلع النبي ، ولم يخذ عند الرحمن عهدا ، وتم الكلام عند قوله : « كَلَّا » . وقال الحسن : إن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة . والأول أصح لأنه مدقن في الصلاح . وقرأ حزة والكساوي « وَوَلَدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها . وأخطف في الضم والفتح على وجهين : أحدهما - لئهما لئتان معاهما واحد، يقال ولده وولده كما يقال عَدَمٌ وعُدَمٌ . وقال الحرث بن حِزْرَةَ :

ولقد رأيتُ معاشرًا • قد تَمَرُّوا مَالًا وَوُلَدًا

وقال آخر :

فَلَيْتَ فَلَانًا كَانَ فِي بطنِ أُمِّهِ • وَلَيْتَ فَلَانًا كَانَتْ وَلَدُهُ حِمَارِي

والثاني - أن قيسا يجعل الولد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا . قال الماوردي : وفي قوله تعالى : « لَأَوْتِينَ مَالًا وَوَلَدًا » وجهان : أحدهما - أنه أراد في الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته ، قاله الكلبي . الثاني - أنه أراد في الدنيا ، وهو قول الجمهور ، وفيه وجهان محتملان : أحدهما - إن أقت على دين آبائي وعبادة أكني لأوتين مالا وولدا . الثاني - ولو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدا .

قلت : قول الكلبي أشبه بظاهر الأحاديث ، بل نصها يدل على ذلك ؛ قال مسروق : سمعت خباب بن الأرت يقول : جئت العاصي بن وائل السهمي أقتضاه حقا لي عنده . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بحمد . فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث . قال : وإن لميت ثم مبعوث ؟ ١٩ . فقلت : نعم . فقال : إن لي هناك مالا وولدا فأفنيك ، فزلت هذه الآية ، قال القرطبي : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : « أَطْلَعَ الْقَيْبَ » أفه ألف استفهام بمعنى « أم » بعدها ومعناه التوبيخ ،
وأصله أطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . فإن قيل : فهلا أتوا بمدة بعد
الألف فقالوا : أطلع كما قالوا : « الله خير » « الَّذِينَ حَرَّمَ » قيل له : كان الأصل في هذا
« الله » « الَّذِينَ » فابدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الاستفهام والتعجب ، وذلك
أنهم لو قالوا : الله خير بلا مد لالتبس الاستفهام بالتعجب ، ولم يحتاجوا إلى هذه المدة في قوله :
« أطلع » لأن ألف الاستفهام مفتوحة وألف التعجب مكسورة ، وذلك أنك تقول في الاستفهام :
أطلع ؟ أقرى ؟ أصطفى ؟ استغفرت ؟ ففتح الألف ، وتقول في التعجب : أطلع ، أقرى ،
أصطفى ، استغفرت لم بالكسر ، فعملوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .
قوله تعالى : « كَلَّا » ليس في النصف الأول ذكر « كَلَّا » وإنما جاء ذكره في النصف
الثاني . وهو يكون بمعنىين : أحدهما بمعنى حقا . والثاني بمعنى لا . فإذا كانت بمعنى حقا
جاز الوقف على ما قبله ، ثم تجدد « كَلَّا » أى حقا . وإذا كانت بمعنى لا ، كان الوقف
على « كَلَّا » جائزا ، كما في هذه الآية : « لَأَنْ الْمُنَى : لا ليس الأمر كذا . ويجوز أن تقف
على قوله : « عَهْدًا » وتجدد « كَلَّا » أى حقا « سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » . وكذا قوله تعالى :
« لَمَّا أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا » يجوز الوقف على « كَلَّا » وعلى « تَرَكْتُ » . وقوله :
« وَلَمْ عَلَى ذَنْبٍ فَخَافَ أَنْ يَقْتُلُوهُ » قَالَ كَلَّا « الوقف على « كَلَّا » لأن المنى : لا - وليس
الأمر كما تظن « فاذنبا » . فليس الحق في هذا المعنى موضع . وقال الفراء : « كَلَّا » بمثلة
سوف لأنها صلة ، وهى حرف رد فكأنها « نعم » و « لا » في الأكفاء . قال : وإن جعلتها صلة
لما بعدها لم تقف عليها ، كقولك : كَلَّا وَرَبِّ الكعبة ؛ لا تقف على كَلَّا ؛ لأنه بمثلة أى ورب
الكعبة . قال الله تعالى : « كَلَّا وَاقْصِرْ » فالوقف على « كَلَّا » قبيح لأنه صلة لليعين .
وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول في « كَلَّا » مثل قول الفراء . وقال الأخفش : معنى

(١) أى من القرآن ، قال الأوسى : « وهذا أول موضع وقع فيه من القرآن ، وقد تكررت النصف الأخير فوقع

في ثلاثة وثلاثين موضعا » .

كلا الرفع والجر. وقال أبو بكر بن الأباري : وسعت آياتها ما لا يحصى . لا يوافق على
« كلا » في جميع القرآن ؛ لأنها جواب والفتاة تقع فيها مصدقا . والله أعلم بالصواب .
أصل التفسير .

قوله تعالى : (سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) أي سنكتب طيبة قوله بحسب قوله في الآخرة .
(وَنُحَدِّثُكَ مِنْ الْقَضَايَا) أي سقيدنا هذا فوق طلب . (وَنُزَيِّلُ مَا يُخْفَى) أي
نخفيه ما أعليناه في الدنيا من حال وولد . وقال ابن عباس وغيره : أي نه السك والخلق بعد
إحلالنا إياه . وقيل : نخرجه ما خفي في الآخرة من حال وولد ، ونجعل فيه من السك .
(وَإِنَّا قَدِ افْتَدَيْنَاكَ) أي مغردا لا مال له ولا ولد ولا شئنة تنصره .

قوله تعالى : (وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا)
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

قوله تعالى : (وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا) أي شرک قريش .
و « عِزًّا » معناه أعوانا ومعة ؛ بني أولادنا . واليز المطر الجود أيضا ؛ قاله المروى .
وظاهر الكلام أن « عِزًّا » راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دُونِ اللَّهِ . ووجد لأنه بمعنى
المصدر ؛ أي لئلا بها لنز وبتتمون بها من عذاب الله ؛ فقال الله تعالى : (كَلَّا) أي ليس
للأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أي يتكون أنهم عبدوا الأصنام ، أو تعبد الآلهة
عبادة المشركين لها ؛ كما قال : « وَبَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » . موفك أن الأصنام جادات
لا تعلم العبادة . (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أي أعوانا في خصومتهم وتكذيبهم . عن مجاهد
والضحاك : يكونون لهم أعداء . ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلتهم ، وتركب لهم
حقول فتتلقى ، وتقول : يارب عَذِّب هؤلاء الذين عبدونا من دُونِكَ . و « كلا » هنا يحتمل
أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًا ؛ أي حقا « سيكفرون بعبادتهم » . وفرا

لغيرك : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ » بالتثنية . وروى عنه مع ذلك ضم الكاف ونصبها . قال
 للهدى : « كَلَّا » ودع وزجر وتثنية ورد لكلام مقدم ، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتثنية
 عليه كقوله : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ » فلا يوقف عليها على هذا ، ويوقف عليها في المعنى
 الأول ؛ فإن صلح فيها للثنيان جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بها . فني تون « كَلَّا » من
 قوله : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ » مع فتح الكاف فهو مصدر مطلق ونصبه بفعل مضمر ،
 والمعنى كل هذا الرأي والاعتقاد كَلَّا ، يعني اتقادهم الآلهة « لِيَكُونُوا لِمِ عِزِّهَا » فيوقف على
 هذا على « عِزِّهَا » وعلى « كَلَّا » . وكذلك في قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لما قبلها ،
 والتحقيق لما بعدها . ومن روى ضم الكاف مع التثنية ، فهو منصوب أيضا بفعل مضمر ،
 كأنه قال : سَيَكْفُرُونَ « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ » بمعنى الآلهة .

قلت : فتحصل في « كَلَّا » أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا ، والثني ،
 والتثنية ، وصلة للقسم ، ولا يوقف منها إلا على الأول . وقال الكسائي : « لا تنى لغضب ،
 و « كَلَّا » تنى شيئا وتثبت شيئا ، فإذا قيل : أَكَلْتُ تَمْرًا ، قلت : كَلَّا إِنِّي أَكَلْتُ صِلًا لَا تَمْرًا ،
 ففي هذه الكلمة تنى ما قبلها ، وتحقق ما بعدها . والضد يكون واحدا ويكون جمعا ، كالصدق
 والرسول . وقيل : وقع الضد موقع المصدر ؛ أي ويكونون عليهم عونا ؛ فلهذا لم يجمع ، وهذا
 في مقابلة قوله : « لِيَكُونُوا لِمِ عِزِّهَا » والعز مصدر ، فكذلك ما وقع في مقابله . ثم قيل :
 الآية في جلة الأصنام ، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل ؛ جريا على نون الكفرة . وقيل :
 فيمن عبد المسج أو الملائكة أو الجن أم الشياطين ؛ فافقه تعالى أطل .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ
 أَزًّا ﴿١٨٨﴾ فَلَا تَعْبَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿١٨٩﴾ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ
 إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ﴿١٩٠﴾ وَتُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًّا ﴿١٩١﴾
 لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿١٩٢﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى سلطانهم عليهم بالإغواء ،
 وذلك حين قال لإبليس : « وَاسْتَفِزْ مَنِ اسْتَشِطَّتْ مِنْهُمْ بِصُورِكَ » . وقيل : « أَرْسَلْنَا
 أى خليئا ، يقال : أرسلت البعير أى خليئا ، أى خليئا للشياطين وإلهم ولم نخصصهم من القول
 منهم . الزجاج : قبضنا . (تَوَزَّمُوا لَنَا) قال ابن عباس : ترجمهم إزمجا من الطاعة إلى
 للمصيبة . وعنه : تخرجهم إغراء بالشر : أمض أمض في هذا الأمر ، حتى توفهم في الدار .
 حكى الأول التلطي ، والثاني المسوردي ، والمعنى واحد . الضحاك : تخرجهم إغواء . مجاهد :
 تسليم لإشلاء ، وأصله الحركة والثنيان ، وعنه أنظر المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « قام
 إلى الصلاة ولحونه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » . واهترت الصدر انما اذا اشتد ظيانها .
 والأز التبيج والإغراء ، قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزَّمُوا لَنَا
 أى تخرجهم على المعاصي . والأز الاختلاط . وقد أوزت الشيء أوززه لئلا أى ضمنت بعضه
 إلى بعض . قاله الجوهري .

قوله تعالى : (فَلَا تَجْعَلْ عَلَيْهِمْ) أى تطلب المذاب لهم . (إِنَّمَا نَذَرْنَا لَهُمْ عَذَابًا) قال
 الكلبي : آجالهم ؛ بنى الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أجل المذاب . وقال الضحاك :
 الأوقاس . ابن عباس : أى نذر أفسادهم في الدنيا كما نذر سنهم . وقيل : الخطوات . وقيل :
 اللذات . وقيل : النظرات . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نذر أعمالهم مآ . وقيل :
 لا تسجل عليهم وإنما تؤخرهم ليزدادوا إثمًا . روى : أن المأمون قرأ هذه السورة ، فتر هذه
 الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السكك أن يسطه ، فقال : إذا كانت
 الأوقاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ . وقيل في هذا المعنى :

حَيَاتُكَ أَهْلًا تُسَدُّ فَكَلْبًا . مَعَى قَسْرُكَ مَتَكَ اسْتَقْصَمْتَ بِهِ جَزَاءَ

بَيْتِكَ مَا يَمِيزُكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ . وَيَحْدُوكَ حَادٍ مَا يُرِيدُ بِهِ الْمُرْزَا

ويقال : إن أوقاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : اثنا عشر ألف
 نفس في اليوم ، واثنا عشر ألفا في الليلة . والله أعلم . ففى نذر ونعمى إحصاءه ، ولما مدد
 عليهم ، وليس لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ .

قوله تعالى : (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَنَا) في الكلام حذف ، أي إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته . كقوله : « يَأْتِي قَلْبُكَ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ » وكذا في الخبر « من كانت حجرة إلى الله ورسوله نهجته إلى الله رسوله » . والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْمٌ وَفْدٌ وَفْدَةٌ ، فهو جمع الوفدة ، مثل ركب وراكب وعتب وصاحب ، وهو من وفد يَفْدُ وفْدًا ووفودًا ووفدة ، إذا خرج إلى مكان في فتح أو أمر خطير . الجوهري : يقال وفد فلان على الأمير ، أي ورد ومولا فهو وفدة ، والجمع وفد مثل صاحب وعتب ، وجمع الوفد يفد ووفود ، والاسم الوفدة وأوفده أنا إلى الأمير ، أي أرسلته . وفي التفسير : « وفدا » أي وكنا على نجائب طاعتهم . وهذا لأن الوفد في الطلب يكون ما يكامل الوفد الزكائن ووحده لأنه مصدر . ابن جرير : وفدا على التلبس . وقال محمد بن قيس اللخاني : إن اللزوم إذا خرج من فيه استقبله عمله في أحسن صورة والطيب ريح ، فيقول : هل تترقني ؟ فيقول : لا - إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورك . فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عمك الصالح ، طالما ركبك في الدنيا أركبني اليوم ، ولا « يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَنَا » وإن الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأتبع ريح ، فيقول : هل تترقني ؟ فيقول : لا - إلا إن الله قد قبح صورك وأتبع ريحك . فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عمك السيئ طالما ركبتي في الدنيا وأنا اليوم أركبك . وتلا « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْثَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . ولا يصح من قبل إسناده . قاله ابن العربي في « سراج المريدين » . وذكر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي ، من لبن عباس بقطع موصلة . وقال أيضا عن ابن عباس : من كان يحب الخيل وفد إلى الله تعالى هل خيل لا تروث ولا تبول ، بلهما من اليساوت الأحمر ، ومن الزبرجد الأخضر ، ومن الدر الأبيض ، ومروجا من السدس والإسبيق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعل نجائب لا تبهر ولا تبول ، لزمها من اليساوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعل سفن من ياتقوت ، قد ألهها التيق ، وألهها لأحوال . وقال أيضا عن علي رضي الله عنه : ولما نزلت الآية قال علي رضي الله عنه ، يا رسول الله !

إلى قد رأيت الملك وولودهم، ثم لم يبق إلا ركبنا لها وقد الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أتهم لا يحشرون على أنفسهم ولا يسألون سؤالا ولكم من أدركهم يؤتونه بحرف من قوله الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رجلا الذهب وزمناها الزرير فيكونها حتى يرموا بها الجنة". ولفظ الصلوة في هذا الخبر من علي بن أبين. وقال علي: لما قلت هذه الآية قلت: يا رسول الله! إن رأيت الملك وولودهم ثم لم يبق إلا ركبنا. قال: "يا علي! إننا كنا انصرف من بين يدي الله تعالى ففتت اللاتكة المؤمن بنوق بيض رجلاها وزمناها الذهب على كل مركب حلة لا تسويها الدنيا فليس كل مؤمن حلة ثم تسيرهم مراكبهم قهوى جم التوفيق حتى تقوى بهم إلى الجنة فتقام اللاتكة "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ".

قلت: وهذا الخبر ينص على أنهم لا يكونون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأما إذا نزعوا من القيد فثمة حلة غرلا إلى الموقف، بدليل حديث ابن عباس قال: قلت: فبما رسول الله صلى الله عليه وسلم بموصلة فقال: "يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله - تعالى - حلة غرلا غرلا الحديث خرج البخاري ومسلم، ومباين بكافة في سورة والمؤمنين، إن شاء الله تعالى. وتقدم في ذلك عمران من حديث عبد الله بن أبيس بعنه والحمد لله تعالى. ولا يبعد أن تحصل الملائكة السملات فيكون حديث ابن عباس غرضه، والله أعلم. وقال أبو هريرة: "وقدنا على الإبل. ابن عباس: ركبنا يؤتون بنوق من الجنة عليها وحامل من الذهب وسروجها وزمناها من الزرير فيحشرون عليها. وقال علي: "فيحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رجلاها من ذهب، ونجب سروجها يواقيت، إن هموا بها سالت وإن حركوها طارت. وقيل: يغدون على ما يجيئون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنما قاله وقدنا، لأن من سلك الزرير عند العرب الله يدها بالشارت، ويخطون الجوار، فلفظهم يخطون السطه والشراب. (وأنشأه للتجريب إلى جهنم يومئذ) السوق الحقة على البحر. و قدنا: عطلنا؛ قاله ابن عباس

وأبو هريرة رضى الله عنهما والحسن . والأخفش والقراء وابن الأعرابي : حافة مشاة .
وقيل : أفرجا . وقال الأزهري : أى مشاة حطاشا ، كالإبل ترد الماء ، فيقال : جامورده
بقي ثلاث . القشيري : وقوله « وردا » يدل على العطش ، لأن الماء إنما يورده في الثلب
للعطش . وفي « التفسير » : مشاة حطاشا تنقطع أعناقهم من العطش ، وإنما كان سوق
المجرمين إلى النار فخر للطين إلى الجنة . وقيل : « وردا » أى ألورود ، كقولك : جئت
إكراما لك أى لإكرامك ، أى نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون حطاشا حافة مشاة أفرجا . قال
ابن حرفة : الورد القوم يردون الماء ، فسمى العطاش وردا لطبيعتهم ورود الماء ، كما يقول :
قوم صوم أى صيام ، وقوم زور أى زقار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد والورد
أيضا الجماعة التى ترد الماء من طير وإبل . والورد الماء الذى يورده . وهذا من باب الإيحاء
بالشيء إلى الشيء . والورد الجزء [من القرآن] يقال : قرأت وردى . والورد يوم الحى إذا
أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك . وقال الشاعر يصف قتيبا^(١) .
يظنونا الورد طيه^(٢) .

أبى الورد الذين يردون الله .

قوله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ) أى هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد
(إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) وهم المسلمون يملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشيء من
غيره جله ، أى لكن « من اتخذ عند الرحمن عهدا » يشفع ، فـ « من » فى موضع نصب
على عهدا . وقيل : هو فى موضع رفع على البذل من الولوف « يملكون » ، أى لا يملك أحد
عند الله الشفاعة « إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » فإنه يملك ، وعلى هذا يكون الاستثناء

(١) التميمي « السيل » . (٢) القليب : القبر . (٣) صدى .

• صبح من رضى قيا سا •

ورضى : اسم بر . والله : الشفاعة . وكذلك قوله : أكرم رضى بهن هذا . وملت فخر طاهر طاهر
طها : الصلاة .

متصلا . « والمجرمين » في قوله : « وَتَسْأَلُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا » . يوم الكفرة والعصاة ، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنين ، فإنهم يملكونها بأن ينفع فيهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال أشنع حتى أقول يا رب شفني فيمن قال لا إله إلا الله بعد رسول الله فيقول يا عبد إنما ليست لك ولكنها لي » أخرجه مسلم بمعناه ، وقد تقدم . وتظهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفعون ، وعلى القول الأول يكون الكلام متصلا بقوله : « وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » . فلا قبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم ، أى لا تنفعهم شفاعة ، كما قال : « مَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » . وقيل : أى نحشر المؤمنين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة . إلا من آخذ عند الرحمن عهدا . أى إذا أذن له الله في الشفاعة . كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وهذا العهد هو الذى قال : « أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التى يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع . وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وقال مقاتل وابن عباس أيضا : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوة [إلا] الله ، ولا يرجو إلا الله تعالى . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « أيسجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا » قيل : يا رسول الله وما ذلك ؟ قال : « يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة بأنني أنشد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن عباد عبدك ورسولك [فلا تكلفني إلى نفسي] فإنك إن تكلفني إلى نفسي تباعدني من الخير وترقى من الشر وإنى لا أبقى إلا برحمتك فأجمل لي عندك عهدا توفيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعا ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة » .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَسْكَاذُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَجشُّ الْأَرْضُ وَتَجِرُ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بَعَثًا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَردًا ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) بنى اليهود والنصارى ، ومن زعم أن
 للامانة بنت الله . وقرا يحيى والأعمش وحزرة والكساى وطاسم وخلف : « ولدا » بضم
 الواو وإسكان اللام ، في الرواية موضح ، من هذه السورة قوله تعالى : « لَاؤْتَيْنَ مَالًا وَلَوْلَا »
 وقد هتلم ، وقوله : « أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » وما ينبغي للرحمن أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . وفي سورة
 نوح : « مَا لَهُ وَلَدٌ » . ورواهم في « نوح » خاصة ابن كثير وعلاء وحيد وأبو عمرو
 ويعقوب . والباقيون في الكل بالفتح في الواو واللام ، وما لنتان مثل القرب والقرب
 والسهم والسهم . قال :

ولقد رأيت سائرنا . قد تفرأوا مالا ولدا

والله اعلم

وَلَيْتَ فَلَاكُلٍّ فِي بَطْنِ آيَةٍ . ولبت فلا كان ولدت حمار

وقال في معنى ذلك الثانية :

مَهْلًا مَهْلًا لَيْتَ لَوَلَدُكُمْ كُلُّهُمْ . وما أتم من ماله ومن ولده

الفتح . وليس يصلون الولد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا . قال الجوهري : والولد قد
 يكون واحدا وجمعا ، وكذلك الولد بالضم . ومن أمثال بني لشد : وَلَدُكَ مِنْ دَنَى عَيْنِكَ .
 وقد يكون الولد جمع الولد مثل لشد ولد : والولد بالكسر لغة في الولد . الحسن : ورفق

(١) لَوَلَدُكُمْ بِمَعْنَى وَلَدِكُمْ كُلُّهُمْ .

أبو حنيفة بينها ، ثم إن الولد يكون للأهل والولد جيبا . قال أبو جعفر : وهذا قيل
محدود لا يبره أحد من أهل اللغة ، ولا يكون الولد والولد إلا ولد الرجل ، وولد ولده ، إلا
أن قلنا أكثر في كلام العرب ، كما قال :

مَهْلًا فَهَلًا قَفَ الْإِنْعَامُ كُلُّهُمْ • وما أُنْجَرِيْنَ مَالِي وَمِنْ وَلَدِي

قال أبو جعفر وصحت محمد بن الوليد يقول : يجوز أن يكون ولد جمع ولد ، كما يقال وثني
ووثني وأسد وأسد ، ويجوز أن يكون ولد وولد بمعنى واحد ، كما يقال عجم وعجم وعجم وعجم
وعجم كما تقدم .

قوله تعالى : (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا) أي منكرا عظيما ، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .
قال الجوهري : الإذ والإنة الداهية والأمر القطيع ، ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا
إِذَا » وكذلك الأذ مثل قاعل . وجمع الإذة إند . وأذت فلانا داهية تؤده أذا (بالفتح) .
والإذ أيضا الشقة . [والأذ النقلة والقوة] قال الزجاج :

نَقَضُونَ عَنِّي شِدَّةً وَأَذًا • مِنْ بَيْدٍ مَا كُنْتُ مَحْمَلًا جَلِيًّا^(١)

انتهى كلامه . وقرأ أبو عبيدة ، وأبو عبد الرحمن السلمي « أذا » بفتح المزة . النحاس :
يقال أد يؤد أذا فهو آذ والآم الإذ ، إذا جاء بني عظيم منك . وقال الزجاج :
قد لقي الأقران مئى نكرا • داهية دعياه إذا إمرأ

عن غير النحاس ، التلي : وفيه ثلاث لغات « إذا » بالكسروى قراءة العامة ، « وأذا »
بالفتح وهى قراءة السلمي ، و « آذ » مثل ماذ ، وهى لغة لبعض العرب ، ورويت عن
ابن عباس وأبي المالية ، وكأنها مأخوذة من التحل [يقال] : آذ الحبل يشوده أودا أهله .
قوله تعالى : (نَكَادُ السَّمَوَاتِ) قراءة العامة هنا وفى « الشورى » بالياء . وقراءة
نافع ويحيى والكسائى « يكاد » بالياء لتقدم الفصل . (يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ) أى ينشققن . وقرأ
نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بياء بعد الياء وشذ الطاء من النضر هنا وفى « الشورى » .

(١) فى الأصل : الأذ القوة والشقة ، وصوابه كما فى اللسان : الإذ بالكسر الشقة والأذ بالفتح النقلة والقوة .

(٢) الفصل الشديد الصلب . وردت فى كتب اللغة : « صلبنا » ولقد : اقوى الشديد .

ويطلقهم حنة طين ماس في « الشورى » . وقرأنا هنا « ينظرون » من الانظار . وكذلك
 قرأنا أبو عمرو والجو بكر والفضل في السورين . ومن اختيار أبي عبيد قوله تعالى :
 « إِنَّ السَّمَاءَ انْفَطَرَتْ » وقوله : « السَّمَاءُ مَطِيرَةٌ » . وقوله : « وَتَشَقُّ الْأَرْضُ » أي
 تشدح . « وَتَجْرُ الْجِبَالُ سَعًا » قال ابن عباس : هذا أي ينشط بصوت شديد .
 وفي الحديث « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن » قال شمر قال أحد بن غيث المروزي :
 الهم الحزن والهمزة الخسوف . وقال الليث : هو الهمد الشديد ؛ كما نط هذه بكرة ؛ يقال :
 هذنى الأمر وهذا ركنى أى كسرنى ويخ منى ؛ قاله المروى . الجوهرى : وهذا البناء يهتبه هذا
 كسره وضعضمه . وهذه المصيبة أى أوهنت ركنه ، وأنه الجبل انكسر . الأشمى : والهمد
 الرجل الضعيف ؛ يقول الرجل للرجل إذا أوهده : إني لأفتر هذا أى غير ضعیف . وقال ابن
 الأعرابي : الهمد من الرجل الجواد الكريم ، وأما الجبان الضعيف فهو الهمد بالكسر ؛ وأشد :
 لیسوا بهتین فی الحرؤب إذا . تنقذ فوق الحرافق للفق

والهمزة صوت وقع الحائط ونحوه ، تقول منه : همد يهد (بالكسر) هديداً . والهمد صوت
 يسمعه أهل الساحل ، يأنيهم من قبل البحر له دوى في الأرض ، وربما كانت منه الزلزلة ؛
 ودويها هديده . النحاس : « همداً » مصدر ؛ لأن معنى « تجر » تهد . وقال غيره : حال
 أى مهدونة : « أَنْ دَعَا الرَّحْمَنُ وَلَدًا » « إن » في موضع نصب عند لقراء بنى لأن دعوا
 ومن أن دعوا ، فوضع « أن » نصب بسقوط الناقض . وزعم القراء أنه الكسفى قال :
 هي في موضع خفض بتقدير الناقض . وذكر ابن الجليلك ، حدثنا شعره من وأصله
 من عون بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل يقول لجبل يا فلان هل مر بك
 اليوم ذاك كره ؟ فإن قال نعم سره . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا » الآية ؛ قال :
 لئن لم يكن يسمن الزبور ولا يسمن الثلج ؟ ! . قال : وحدثني عوف عن غالب بن عمرو قال :

(١) حيث لم يمس به عبد الله بن مسعود . والحرافق (جمع حرفة) : جمع رأس الخط . والحلق
 (جمع لقل) : لقله . الأحماد . (٢) امرؤ الله كان « المرفق » منه .

(٣) كان في الأمر : منه . طلب به حرة . من هنا خرجت .

حقن وجن من أهل النعم في مسجد نبي ، قال : إن الله تعالى لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر ، لم تكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها مضغاً ، وكان لهم منها مضغ ، فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم بفرع بن آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : آخذ الرحمن ولداً ، فلما قالوها أفسحت الأرض وشاك الشجر . وقال ابن عباس : أفسحت الجبال وما فيها من الأشجار ، والبحار وما فيها من الحيتان ، فصار من تلك الشوك في الحيتان ، وفي الأشجار الشوك . وقال ابن عباس أيضاً وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميع المخلوقات إلا الثقلين ، وكادت أن تزول ، و غضبت الملائكة فاستمرت جهنم ، وشاك الشجر ، وأكفهرت الأرض وجذبت حين قالوا : آخذ الله ولداً . وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا طينا السامة ، لقوله تعالى : « تَكَادُ السَّمُوتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْرُ الْجِبَالُ هَلَاءُ » . أن دعواً للرحمن ولداً ، قال ابن العربي : وصلى فإنه قول عظيم سبق به الفضاء والقدر ، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر ، ولا يرفضه إيمان المؤمن ، ولا يزيد هذا في ملكه ، كما لا ينقص ذلك من ملكه ، لما جرى شيء من هذا على الألسنة ، ولكنه القدوس الحكيم الخليم ، لم يبال بعد ذلك بما يقول المبطلون .

قوله تعالى : (وَمَا يَنْبِئِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَمَا يَنْبِئِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) هي عن نفسه سبحانه وتعالى الولد ؛ لأن الولد يقتضي الجنسية والخلوة كل ما يناه في « البقرة » أي لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز في حقه ؛ لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل واده سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس . قال :

في رأس خلقه من عهده شريفة • ما ينبئ دونها سهل ولا جليل

(١) رابع ج ٢ ص ٨٥ طبع ١٣٢٤ هـ . (٢) رواه ابن جرير الطبري صفح ٦٦٤ . واللفظ :

الصخرة ليس فيها وهم ولا كبرياء الماء - واللفظ : آفة جهل مشرف .

(إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا) « إن » تخفية بمعنى ما ؛ أي ما كل من في السموات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مقرا له بالعبودية ، خاضعا ذليلا كما قال : « وَكُلُّ لُتُوهُ طَغِيرِينَ » أي صاغرين أذلاء ؛ أي الخلق كلهم صيدهم فكيف يكون واحد منهم ولدا له من وجه ؛ تعالى عما يقول الظالمون وليلاحدون علوا كبيرا . و « آتَى » بالياء في التثنية ، والأصل التثنية لخلف استغنافا وأضيف .

التثنية - في هذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد ، خلافا لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يبقى عليه إلا إذا أعتقه . وقد أجاز الله تعالى للمنافقة بين الأولاد والملاك ، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه . ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبودية في طرفي قابل ؛ فبني أحدهما وأثبت الآخر ، ولو اجتمعا لما كان لهذا القول قائمة بفتح الاحتجاج بها . وفي الحديث الصحيح " لا يترى ولد والدا إلا أن يهدى مملوكا فيشتريه فيعتقه " نرجحه مسلم . فإذا لم يملك الأب أبنته مع مرتبة عليه ، فلا يترى بدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

الثالثة - ذهب إسحق بن راهويه في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : " من أعتق شركا له في عبد " أن المراد به ذكور السيد دون إناثهم فلا يملك على من أعتق شركا في أنثى ، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم ، فأنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى ؛ لأن لفظ السيد يراد به الجنس ، كما قال تعالى : « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعا . وتمسك إسحق بأنه حكى جديده في المأثور .

الرابعة - روى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشقني ولم يكن له ذلك فاما تكتبيه إياي قوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لي كفوا أحد " وقد تضمن في « البقرة » وغيرها وإلحاده في مثل هذا للوضع حسن جدا .

(١) تقدم الحديث في : ص ٤١٩٨ فقط كنز .

قوله تعالى : (لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ) أى علم مددكم (وَصَعَّمْنَا) تأكيد ، أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى ، أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة ، حرجه الترمذى ، واشتقاق هذا الفصل يدل عليه . وقال الأستاذ أبو إسحق الإفراخى : ومنها المحصى ويغنى عنه لأنه لا تشغله الكثرة عن العلم ، مثل ضوء النور ، واشتد الريح ، وقسا قسط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الله يخلق ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى « لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَصَعَّمْنَا » يريد أفرأوا له بالمبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

قوله تعالى : (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرًا) أى واحدا لا فاصله ولا مال معه ينفعه ، كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فلا ينفعه إلا ما قدم من عمل ، وقال : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ » على لفظ كل وعلى المعنى آتوه . وقال القشيري : وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعداد أولادكم والكل عبيد ، فكيف رضى له ما لا ترضون لأنفسكم . وقد رد عليهم فى مثل هذا ، فى أنهم لا يرضون لأنفسهم بالنساء ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، وقولهم : الأصنام بنات الله . وقال : « مَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوا إِلَهُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَى شُرَكَائِهِمْ » .

قوله تعالى : إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صنفوا . (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) سيجعل لهم الرحمن وداً أى حبا فى قلوب عباده . كما رواه الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَدَى بِهِ جِبْرِيلُ إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ خَلْقًا فَاحِبَهُ » قال - فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله تعالى « سَيَجْعَلُ لَهُمُ »

الرَّحْمَنُ وَدَا» وَإِذَا أَبْضَى اللَّهُ عِبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ إِلَى أَبْضَيْتَ فَلَا تَيْدِي فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَرَدُّ
 لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» قَالَ هَذَا حُلَيْثُ حَسَنٍ صَحِيحٌ . وَخَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِمَعْنَاهُ ،
 وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطِاءِ وَفِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ . وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ
 الْجَنْجَنِيُّ عَنْ جُوَيْرٍ عَنْ الضَّمَكِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ
 اللَّهُ أَصْلَى الْمُؤْمِنِ الْإِثْمَةُ وَالْمَلَأَةُ وَالْحَبِيَّةُ فِي صُدُورِ الصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبِينَ — ثُمَّ تَلَا —
 « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَتِمَّ إِلَهُهُمُ الصَّالِحِينَ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَدَا » . وَاسْتَخْلَفَ فِيمَنْ تَزَلَتْ
 قَبِيلُ فِي حُلٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ؛ رَوَى الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 لِمَنْ بَيْنَ أَبِي طَالِبٍ : « قُلْ يَا عَلِيُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ لِي عِنْدَكَ عَهْدًا وَاجِبًا لِي فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
 مَوْدَةً » فَتَزَلَتْ آيَةٌ ؛ ذَكَرَهُ التَّعَلُّبِيُّ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَزَلَتْ فِي عَهْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ؛
 جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ مَوْدَةً ، لَا يَفْقَاهُ مُؤْمِنٌ إِلَّا وَقَرَهُ ، وَلَا مُشْرِكٌ وَلَا مُتَافِقٌ إِلَّا
 عَظَّمَهُ . وَكَانَ هَرَمٌ بَنِي حَيَّانٍ يَقُولُ : مَا أَقْبَلَ أَحَدٌ بَقْلَهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ تَعَالَى
 بِقُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوْتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ . وَقِيلَ : يَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مَوْدَةً
 فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قُلْتُ : إِذَا كَانَ مَحْبُوبًا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجِبُ إِلَّا مُؤْمِنًا
 حَيًّا ، وَلَا يَرْضَى إِلَّا خَالصًا حَيًّا ؛ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بَهْتَةً وَكَرِهَةً . رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
 قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ فَقَالَ إِنِّي أَحَبُّ فَلَا تَأْجِبْهُ فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يَنْدِي فِي السَّمَاءِ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ فَلَا
 تَأْجِبُوهُ فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ — قَالَ — ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ وَإِذَا أَبْضَى عِبْدًا دَعَا
 جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ إِنِّي أَبْضَيْتَ فَلَا تَبْغِضْهُ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يَنْدِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ
 اللَّهَ يَبْغِضُ فَلَا تَبْغِضُوهُ — قَالَ — فَيَبْغِضُوهُ ثُمَّ تَوَضَّعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلَمَّا بَسَرْنَاهُ وِلْسَانَكَ لَتُبَشِّرَكَ الْمُنَافِقِينَ وَنُسْخَرَهُ
 قَوْمًا لَدَا ⑤

قوله تعالى : (فَأَمَّا يَسِرَّاهُ بِلسَانِكَ) أى القرآن؛ يعنى ينادى بلسانك العربى ويحمله
سهلا مل من تدبره وتأمله . وقيل : أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه . (لِيُنشِرَهُ
الْمُتَّقِينَ وَيُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّغًا) اللد جمع اللف وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى :
« اللد الخصام » وقال الشاعر :

أَيْتُ نَحِيْبًا لِلْهُومِ كَأَنِّي • أَخَاصِمُ أَقْوَامًا ذَوِي جَلَدٍ لَنَا

وقال أبو عبيدة : اللد الذى لا يقبل الحق ويدعى الباطل . الحسن : اللد القوم عن
الحق . قال الربيع : صم أذان القلوب . مجاهد : بخارا . الضحاك : مجادلين فى الباطل .
ابن عباس : شدادا فى الخصومة . وقيل : الظالم الذى لا يستقيم ، والمعنى واحد . وخصوصا
بالإنذار؛ لأن الذى لا عناد عنده يسهل اقتياده .

قوله تعالى : وَكَرَّ أَهْلُكَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ
أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَكَرَّ أَهْلُكَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) أى من أمة وجماعة من الناس ؛ يخوف أهل
مكة . (هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) فى موضع نصب ؛ أى هل ترى منهم
أحدًا ونجد . « أو تسمع لهم ركا » أى صوتا ؛ عن ابن عباس وغيره ؛ أى قد ماتوا وحصلوا
أعماهم . وقيل : حيا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : الركا مالا يفهم من صوت أو حركة ؛
قاله البريدى وأبو عبيدة ؛ كركا الكنية ؛ وأشد أبو عبيدة بيت ليد :

وَتَوَجَّسَتْ رِكْزُ الْأَيْمِسِ فَرَاغَهَا • عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ وَالْأَيْمِسِ سَقَامَهَا ^(١)

وقيل : الصوت الخفى . ومنه رَكَزَ الرَّجُلُ إِذَا غَيَّبَ طَرَفَهُ فِي الْأَرْضِ . وقال طرفة
وصادقا سمع التَّوَجُّيسَ لِلشَّرَى • (لِكَيْ خَفِيَ أَوْ لَصَوْتٍ مُتَّسِدٍ ^(٢)

(١) توجست : سمعت البقرة صوت الناس فأفرجها ولم تر قائما . والأيمس مقامها ساءه . والأيمس ملائكتها :

أى يبيدها . (٢) يصف طرفة فى هذا البيت أنفاته ؛ يعنى أذنيه لا تكتفى الحياة . والمتد صفة لصوت ؛
والصوت المتد المبالغ فى النداء . ويبدى : « لصوت متد » بالإشاعة وكسر الهمزة ، والألم من الرواية الجيدة .

وقال هو الزمة يعنف نورا تسمع إلى صوت صائده وكلاب :

إذا توجس ركزا مقيس نَدَسْ . بِنَاءُ الصَوْتِ ما في سمعه كذب

أى ما في آسماعه كذب ؛ أى هو صادق الاستماع . والنَدَسُ الحاذق ؛ يقال : نَدَسَ

ونَدَسَ ؛ كما يقال : حَذَرُوحَذَرٌ، وَيَقْطُ وَيَقْطُ . وبِنَاءُ الصَوْتِ الخفى ؛ وكذلك التزكُّرُ،

والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة طه عليه السلام

سورة طه عليه السلام مكية في قول الجميع . نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه .
 روى الطبراني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرج عمر متظلماً بسيفه
 قيل له : إن شئت قد صبروا فأنها عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ؑ^(١)
 وكانوا يفرحون وطئه . قال : أعطوني الكتاب الذي عندكم فأنقذوه - وكان عمر رضي
 الله عنه يقرأ الكلب - فقالت له أخته : إنك رجس ولا يسه إلا المطهرون ، قم فاقض
 أو توضأ فقام عمر رضي الله عنه وتوضأ وأخذ الكلب فقرأ طه . وذكره ابن إسحق
 حلولا : فإن عمر خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله ، فقبه نعم
 ابن عبد الله ، قال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد عناء هذا الصابي الذي فرق أمر
 قريش ، وسفه أهلها ، وعطب دينها ، وسب آلها فأنقله . فقال له نعم : والله قد غررك
 قسك من قسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف يتركك تمشي على الأرض وقد قلت عنها ١٩
 أفلا ترجع إلى أمك فطم أمهم ١٩ . قال : وأي أهل بقي ؟ قال : حنك وابن عمك
 معبد بن زيد ، ولحنك فاطمة بنت الخطاب ، قد واه أسلماً وتاباً عناء على دينك فطرك
 بها . قال : فخرج عمر عائلاً إلى أخته وحنك ، وعندهما خباب بن الأرت مع صحيفه فيها

(١) صا القيل : خرج من بين يدي الله عز وجل .

« طه » يقرئها إلهما، فلما سمعوا حسن عمر تيب بخاب في غدر لم أوفى بنض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت ثمنها، وقد سمع عمر حين ذلك إلى البيت قراءة خباب عليهما؛ فلما دخل قال: ما هذه الهيئة التي سمعت؟ قال له: ما سمعت شيئا. قال: بل والله لقد أخبرتك أنكما تأبعا عدا على دينه. ويطش بجنبته سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفنه عن زوجها فضرها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته: نعم قد أسلنا وأما باق ورسوله فاصنع ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فأرصى، وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها أظن ما هذا الذي جاء به عدي. وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك قالت له أخته: إذا تخشاك طمها. قال لها: لا تخاف وحلف لما يألمته ليردتها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أباي إنك نجس على شركك، وأنه لا يسبها إلا الظاهر. فقام عمر وأقبل، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب تخرج إليه، فقال له: يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أسس وهو يقول: « اللهم أيد الإسلام يا أبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فلقه الله يا عمر. فقال له عند ذلك: فلتني يا خباب على عدي حتى آتيه فأسلم؛ وذكر الحديث.

مسألة - أسند البخاري أبو محمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و « يس » قبل أن يخلق السموات والأرض بألfi عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة يقرأها طمها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا » قال ابن قورك معنى قوله: « إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و « يس » » أي أظهر وأسمع وأنهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة في ذلك الوقت؛ والعرب تقول: قرأت الشيء إذا تبعته، وتقول: ما قرأت هذه

الباقة في رحمتها سلا قط، أي ما ظهر فيها ولد؛ فكل هذا يكون الكلام سائنا، وقراءه اسماءه
 وأنهماء بملوات يخلقها وتكتبه بمعناها . وهي معنى قولنا : قرأنا كلام الله ، ومعنى قوله :
 «مَا أَقْرَبُوا مَا يُتَسَرَّبُ مِنْ أَفْرَاقِهِ» ، «مَا أَقْرَبُوا مَا يُتَسَرَّبُ مِنْهُ» . ومن أحصلنا من قال معنى قوله :
 «فَرَأَى» أي تكلم به ، وذلك مجاز كقولهم : ذقت هذا القول ذوقا بمعنى أخبرته . ومعنى قوله :
 «وَلَقَدْ أَقْبَاهُ اللَّهُ لِأَنَّهُ جَوَّجَ وَالْخَوَفُ يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أي ابتلاه الله تعالى به ، فسمى ذلك
 ذوقا ، والخوف لا يذوق على الحقيقة ، لأن القوف في الحقيقة بالهم دون غيره من الجوارح .
 قال ابن فورك : وما قلناه أولا أصح في تأويل هذا الخبر ؛ لأن كلام الله تعالى أزل قديم سابق
 بلجة الحوادث ، وإنما أسمع وأفهم من أراد من خلقه على ما أراد في الأوقات والأزمنة ؛
 لا أن عين كلامه يتعلق بوجوده بمدة وزمان .

قوله تعالى : طه ① مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ②
 إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ③ تَزِيلًا لِّمَن خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ
 الْعُلَى ④ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ⑤ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ⑥ وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ
 فَلَنُفَصِّلَهُ بِالْأَسْرِ ⑦ وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ⑧

قوله تعالى : (طه) أختلف العلماء في معناه ؛ فقال الصديق رضي الله تعالى عنه :
 هو من الأسرار ؛ ذكره الفريزي . ابن عباس : معناه يا رجل ؛ ذكره البيهقي . وقيل : إنها
 لغة معروفة في عسكل . وقيل : في عاك ؛ قال الكلبي : لو قلت في عاك لرجل يا رجل لم يجب
 حتى تقول طه . وأشد الطبعي في ذلك فقال :

دعوت بطله في القتال فلم يجب . تخفت عليه أن يكون مؤائلا

وروى : مُزَيْلَا . وَقَالَ جُبَايَه بن عمرو : يَاسِي . يَلَّة حَكْ : ذَكَرَ الْفَزَنِي . وَقَالَ طَرِب :
هَوَ يَلَّة طَلِي : وَأَتَد لِيَزِيد بن الْهَلُول :

إِنَّ السَّامِعَةَ طَلَه مِنْ شَمَائِكُمْ . لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَن : مَعْنَى « طَلَه » يَارِجِل . وَقَالَ عِكْرِمَةُ ، وَقَالَ : هُوَ بِالسَّرْيَانِيَةِ كَذَلِكَ ؛
ذَكَرَهُ الْمَهْدِيُّ ، وَحَكَاهُ السَّوْدِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَجَاهِد . وَحَكَى الطَّبْرِيُّ : أَنَّهُ
بِالنَّبِطِيَّةِ يَارِجِل . وَهَذَا قَوْلُ السُّدِّي وَسَعِيد بن جَبْرِ وَابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا ؛ قَالَ :
إِنَّ السَّامِعَةَ طَلَه مِنْ خَلَائِكُمْ . لَا قُدْسَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمَلَائِكِينَ

وَقَالَ عِكْرِمَةُ أَيْضًا : هُوَ كَقَوْلِكَ يَارِجِلُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ ؛ ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ . وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ وَإِنْ
وَجَدْتَ فِي لُغَةٍ أُخْرَى قَوْلًا مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ كَمَا ذَكَرْنَا ، وَأَنَّهُ لُغَةٌ يَمِينَةٌ فِي عِلَّة طَلِي ، وَمُكَلِّ
أَيْضًا . وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَسَمْتُ أَقْسَمَ بِهِ . وَهَذَا أَيْضًا مَرْسُومٌ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ كَمَا سَمَّاهُ
نَحْنًا . وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لِي عِنْدَ رَبِّي عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ يَتَذَكَّرُ
أَنِّي فِيهَا طَلَه وَبِس ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ لِلسُّورَةِ ، وَمِفْتَاحُهَا . وَقِيلَ : إِنَّهُ اخْتِصَارٌ مِنْ كَلَامِ
اللَّهِ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِهَلِهِ . وَقِيلَ : إِنَّهَا حُرُوفٌ مُقَطَّعَةٌ ، يَدُلُّ كُلُّ حَرْفٍ مِنْهَا عَلَى مَعْنَى ؛
وَاخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ : الطَّاءُ شَجَرَةٌ طَوْبَى ، وَالْمَاءُ النَّارُ الْهَامِيَّةُ ، وَالْعَرَبُ تَسْبِرُ عَنِ الشَّيْءِ كُلِّهِ
بَعْضُهُ ؛ كَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِالْحَنَةِ وَالنَّارِ . وَقَالَ سَعِيد بن جَبْرِ : الطَّاءُ أَفْتَاتِحُ اسْمِهِ طَاهِرٌ وَطَيْبٌ ، وَالْمَاءُ
افْتَاتِحُ اسْمِهِ هَادِي . وَقِيلَ : « طَاهٍ » يَاطَاعُ الشَّفَاعَةَ لِلْأَمَةِ ، وَهَاءُ » يَاهْدِي الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ .
وَقِيلَ : الطَّاءُ مِنَ الطَّهَارَةِ ، وَالْمَاءُ مِنَ الْمَدْيَةِ ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ طَبِهُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ : يَاطَاهِرَا
مِنَ الْقَنُوبِ ، يَاهْدِي الْخَلْقَ إِلَى طَلَامِ الْغُيُوبِ . وَقِيلَ : الطَّاءُ طُبُولُ التَّزَاةِ ، وَالْمَاءُ هَيْتَمٌ
فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ . بَيَّانُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّهْبَ » وَقَوْلُهُ :
« وَقَدْ نَفَثَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّهْبَ » . وَقِيلَ : الطَّاءُ طَرِبَ أَهْلُ الْحَنَةِ فِي الْحَنَةِ ، وَالْمَاءُ هَوَانُ أَهْلِ النَّارِ
فِي النَّارِ . وَقَوْلُ سَادِسَ : إِنْ مَعْنَى « طَلَه » طَوْبَى لِمَنْ أَحْتَدَى ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْدُ بنِ الْحَفْصَةِ .

وقوله « ما » : أي معنى « طه » طار الأرض ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحصل مشقة الصلاة حتى كادت تفصله ثوروم ، ويحتاج إلى الترويح بين قنبيه ، قيل له : طار الأرض ، أي لا تنصب حتى تحتاج إلى الترويح ، حكاه ابن الأثير . وذكر القاضي عياض في « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل وروى الأخرى ، فأرسل الله تعالى « طه » ، بنى طار الأرض يا محمد « مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَتَشْتَقِيَ » . الزمخشري : ومن الحسن « طه » وفتر بانه أمر بالوطء ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تجمده على إحدى رجليه ، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا ، وأن الأصل طأ فقلت همزة هاء كما قلت [ألقا] في « طه » فيمن قال :

• — لا هناك المرتفع^(١) .

ثم بنى عليه هذا الأمر ، والماء السكت . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الجبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ، ثم نسخ ذلك بالقرض ، فزلت هذه الآية . وقال الكلبي : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد في العبادة ، واشتدت جادته ، فجعل يصل الليل كله زمنا حتى نزلت هذه الآية ، فأمره الله تعالى أن يخفف عن نفسه فيصل وينام ، فنسخت هذه الآية قيام الليل ، فكان بعد هذه الآية يصل وينام . وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا ، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على عبد إلا يشقى ، فأرسل الله تعالى « طه » يقول : يا رجب « مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَتَشْتَقِيَ » أي لتصب ، على ما يأتي . وعلى هذا القول : إن « طه » [طاعا أي] طار الأرض ، فتكون الماء والألف ضمير الأرض ، أي طار الأرض برطيك في صلواتك ، وخففت همزة فصارت ألقا ساكنة . وقرأت طامحة « طه » وأصله طأ بمعنى

(١) الزيادة من ضمير الزمخشري . (٢) الشعر القرظي وقام البيت :

واست بمسلة الجبال حنية • فارى خواره لا هناك المرتفع

قال حماد بن عمار سئل بن عبد الملك عن الرقاق ، ووليا عمر بن حيرة القرظي ، نهجهم القرظي ، وهذا قوله الأعرابي التمس يولاي . وأراد به قال الورد التي قدمت بمسلة عن مزله . « شواهد سوية » .

(٢) الزيادة من كتب التفسير .

فلما الأرض خسفت المعزة وأدخلت ماء السكت . وقال زكريا بن حنبل : قسراً رجل من عبد الله بن مسعود . « مَا أَتَاكَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لَيْشَقَ » فقال له عبد الله . « يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرْنَا بِمَا الْأَرْضُ رِيحُهُ أَوْ بَعْدِيهِ . فقال . « يَا كَلَّا لَقُرْآنِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وأمال أبو عمرو وأبو إسحق الماء وقدما الله . وأمالها جميعاً أبو بكر وعزة والكسائي والأعمش . وقرأها أبو جعفر وشيبة وثابت بن العنقطين . وفتحناه أبو سعيد . الباقون بالتفخيم . قال الصلي : وهي كلها لغات صحيحة فصيحة . التاميم لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لظنين : أحدهما أنه ليس ما هنا ياء ولا كسرة فتكون للإمالة ؛ والعلّة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة ، فهاتان لغتان يبتذلان .

قوله تعالى : (« مَا أَتَاكَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لَيْشَقَ ») وقرأ : « مَا تَزَلَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لَيْشَقَ » . قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفي ، وبعضهم يقول لام الجود . وقال أبو جعفر : وسكنت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أُنزلنا عليك القرآن للشقاء . والشقاء يمد ويقصر . وهو من ذوات الواو . وأصل الشقاء في اللغة العناء والتعب ، أي ما أُنزلنا عليك القرآن لتعب . قال الشاعر :

فوالعقل يشق في النجم بعقله . وأخو الجهالة في الشقاوة يتسم

فمعنى ليشق «للتعب» بفرض تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا؛ كقوله تعالى، «فَلَمَّا كَبُرَ الْبَغْءُ تَقَالَيْتُمْ عَلَى آثَارِهِمْ» أي ما عليك إلا أن تبلغ وتذكرهم لم يكتبك عليك أن يؤمنوا لا علة بعد أن لم تغزط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة . ويروي أن أبا جهم - فإنه الله تعالى - والنضر بن الحوث قالاً للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك شقي لأنك تركت دين كيانك؛ فلو رد ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب في ذلك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بينها . وعلى الأقوال المنقضة لله عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى توارت قدماء؛ فقال له جبريل : أين حل نفسك فإن لها عليك حقاً، أي ما أُنزلنا عليك القرآن لنهلك نفسك في العبادات، ونفيها للشقاوة للقاعدة، وما يشت للالحنيفية السمعة .

قوله تعالى : (**إِلَّا تَذَكَّرُ لَنْ يَغْنَى**) قال أبو إسحق الزجاج : هو بدل من «تذكر» أي ما أنزلنا إلا تذكرة . القياس : وهذا وجه جيد ، وأذكر أبو علي من أجل أن التذكرة ليست بشقاء ، وإنما هو منصوب على المصدر ، أي أنزلناه لتذكرك به ، أو على المفعول من أجله ، أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتق به ، ما أنزلناه إلا لتذكرك . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يغنى ، ولئلا تنسى . (**تَرِيلاً**) مصدر ، أي تزيلاً ، تزيلاً . وقيل : بدل من قوله : « تذكرة » . وقرا أبو حيوة النشائي « **تزيلاً** » بالرفع على معنى هذا تزيلاً . (**عَمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ اللَّاتِلَا**) أي العالبة الزميمة ، وهي جمع اللاتيا ، كقولهم : كُفْرِي وَصُفْرِي وَكَبْرُوصُفْرِي ، أخبر عن عظمتهم وجبروتهم وعلوهم . ثم قال : (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْفَرْشِ اسْتَوَى**) ويجوز النصب على للمح . قال أبو إسحق : انخفض على البذل . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن . القياس : يجوز الرفع بالاستئناء ، والخبر « **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** » فلا يوقف على « استوى » وعلى البذل من المنضم في « **خلق** » فيجوز الوقف على « **استوى** » . وكذلك إذا كان خبر استئناء محذوف ، ولا يوقف على « **اللَّاتِلَا** » . وقد تقدم القول في معنى الاستئناء في الأعراف ^(١) . والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوفى على حرفه بغير حد ولا كيف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة . (**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**) يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى . وقال محمد بن كعب : يعني الأرض السابعة . ابن عباس ^(٢) : الأرض على نون ، والنون على البحر ، وأن طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش ، والبحر على حفرة حفرة خضراء خضراء السياه منها ، وهي التي قال الله تعالى فيها « **تَكُونُ فِي حِفْرَةٍ** » **لَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ** ، والصخرة على قرن ثور ، والثور على الثرى ، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى . وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر ، والأرضون سبع ،

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ وما بعدها طبع أول مرة ثانية .

(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواية غير تثبت وقد تكلم العلماء في هذه الرواية ولم يوافقوها .

عن كل أرضين بحر ، فليحرق لأهل مطبق على شفير جهنم ، ولولا عطشه وكثرة ما به ويزده
لأحرق جهنم كل من عليها . قال : وجهنم على متن الریح ، ومتن الریح على عجايب من الظلمة
لا يعلم عطشه إلا الله تعالى ، وذلك العجايب على الترى ، وإلى الترى انتهى علم الخلاق .

قوله تعالى : (وَإِنْ يَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى) قال ابن عباس : السر ما حدثت
به الإنسان غيره في خفاء ، وأخفى منه ما أخفى في نفسه عما لم يحدث به لغيره . وعنه أيضا ،
السر حديث نفسك ، وأخفى من السر ما استحدثت به نفسك مما لم يكن وهو كائن ، أنت تعلم
ما تيسر به نفسك اليوم ، ولا تعلم ما تيسر به غدا ، والله يعلم ما أسررت اليوم وما أسرته غدا ،
والله أعلم السر وأخفى من السر . وقال ابن عباس أيضا : « السر » ما أسر ابن آدم
في نفسه ، « وأخفى » ما خفى على ابن آدم مما هو قائله وهو لا يعلمه ، فانه تعالى يعلم ذلك كله
وعليه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد ، وجميع الخلاق في علمه كقفس واحدة .
وقال قتادة وغيره : « السر » ما أخفاه الإنسان في نفسه ، « وأخفى » منه ما لم يكن ولا أخفاه
أحد . وقال ابن زيد : « السر » من الخلاق ، « وأخفى » منه سره عن ربه ، وأنكر ذلك
الطبري ، وقال : إن الذي « أخفى » ما ليس في سر الإنسان وسيكون في نفسه كما قال
ابن عباس . (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) « الله » رفع بالإبتداء ، أو على
إختصار مبتدأ ، أو على البدل من الضمير في « يعلم » . وحده نفسه سبحانه ، وذلك أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم دعا للمشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فكبر ذلك
عليهم ، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال الوليد بن المغيرة : عدينا أن نتموم مع الله
إلهنا أمر وهو يدع الله والرحمن ، فأنزل الله تعالى : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ
أَيَّ مَا تَدْعُوا إِنَّهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . وهو واحد واسمائه كثيرة ، ثم قال : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » وقد قدم التيسر عليها في سورة « الأعراف » .

قوله تعالى : **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ١٠** إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَعُودٍ عَلَى السَّارِ ١١ هُدًى ١٢ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ١٣ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ١٤ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٥ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٦ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٧ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ١٨ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ١٩

قوله تعالى : **(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)** قال أهل اللغات : هو استفهام وإيجاب معناه : أليس قد أتاك؟ وقيل : معناه وقد أتاك؛ قاله ابن عباس . وقاله الكلبي : لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره . **(إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَعُودٍ عَلَى السَّارِ هُدًى)** قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا ، يصحب الناس بالليل ويغارقهم بالنهار غيرة منه ، فلا يروا أمراته ، فأخطأ الزفة — لما سبق في علم الله تعالى — وكانت ليلة مظلمة . وقال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة في الشتاء . وهب بن منبه : استأذن موسى شيئا في الرجوع إلى والده فآذن له فخرج بأهله بنفسه ، وولاه في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مطية ، وقد حاد عن الطريق وتعرفت ماشيته ، ففدح موسى النار فلم تور القدحة شيئا ، إذ بهر بنار من بعيد على يسار الطريق **(فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا)** أي أقيموا بمكانكم **(إِنِّي آنَسْتُ نَارًا)** أي أبصرت . قال ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عتيق ، فوقف متجسبا من حسن ذلك الضوء ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة ولا كثرة

ماء الشجرة ولا نعمة الخضره تغيران حسن ضوء النار . وذكر المهدوي : فرأى النار - فبارى - وهي في شجرة من اللبني ، قد صعدا فأنارت عنه ، فرجع وأوجس في نفسه خيفة ، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة . الماوردي : كانت عند موسى نارا ، وكانت عند الله تعالى نورا . وقرأ حمزة « لِأَهْلِهِ أَمْكُتُوا » بضم الميم ، وكذا في « القصص » . قال النحاس وهذا على لغة من قال : مررت به بإرجل ، بقاء به على الأصل ، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة . وقال : « أَمْكُتُوا » ولم يقل أقيموا ، لأن الإقامة تقتضي الدوام ، والمكث ليس كذلك . « وَأَنْتَ » أبصرت ، قاله ابن الأعرابي . ومنه قوله : « فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أي طمأن . وَأَنْتَ الصوت سمعته ، والقبس شعبة من نار ، وكذلك الحقبس . يقال : قبست منه نارا أنيس قبسا فأنيس أي أعطاني منه قبسا ، وكذلك اقتبست منه نارا ، واقتبست منه علما أيضا أي استفدت ، قال الزبيدي : أقبست الرجل علما وقبسته نارا ، فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته . وقال الكاسي : أقبسته نارا أو علما سواء . وقال : وقبسته أيضا فيهما . « هُنَّ » أي هاديا .

قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنَاثَا) يعني النار (نُودِيَ) أي من الشجرة كما في سورة « القصص » أي من جهتها وتاحتبها على ما يأتي (يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) .

قوله تعالى : (فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى) فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ) روى الترمذي من عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وكعة صوف وسراويل صوف وكانت نعله من جلد حمار ميت » قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد الأرمج [حميد - هو ابن علي الكوفي] - [منكر الحديث ، وحميد ابن قيس الأرمج المكي صاحب مجاهد همة ، ولكة القلسوة الصغيرة . وقرأ العامة « إِنِّي » بالكسر ، أي نودى فقيل له يا موسى إني ، وأخطره أبو عبيد . وقرأ أبو عمرو وابن كثير

وابن مريم وحيد وآتى ، ففتح الآف باب أعمال الطهارة . واحتيف الطهارة في السبب التي
من أجله أمر بخلع الثقلين . وخلع الزرع . والعلل ما جعلته وقاية لتسليك من الأرض .
ف قيل : أمر بطرح الثقلين ؛ لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مُدَكَّنْ ؛ قاله كعب وعكرمة
وقائدة . وقيل : أمر بذلك ليثاب بركة الوادى المقدس ، وتمس قدامه تربة الوادى ؛ قاله
علي بن أبى طالب رضى الله عنه والحسن وابن جريح . وقيل : أمر بخلع الثقلين لتشروع
التواضع عند مناجاة الله تعالى . وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت . وقيل : إعظاما
لذلك الموضع كما أن الحرم لا يُدْخَلْ بئلين إعظاما له . قال سعيد بن جبير : قيل له طمأ
الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا . والعرف عند الملوك أن تلحى النعال ويبلغ الإنسان
إلى غاية التواضع ، فكان موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه ؛ ولا تنال كانت نعلاه
من ميتة أو غيرها . وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على
الأعظم الشريعة ، والجنة الكريمة . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن
الحصباية وهو يمشى بين القبور بنعله : "إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك" قال :
نخلتُهما . وقول خامس : إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد
يعبر عن الأهل بالنعل . وكذلك هو في التعبير : من رأى أنه لا يس ثقلين فإنه يترّج . وقيل :
لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغي أن يلا بساط رب السالمين بنعله .
وقد يحتمل أن يكون موسى أمر بخلع نعليه ، وكان ذلك أول فرض عليه ؛ كما كان أول ما قيل
لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثَابِرْ فَكَبِّرْ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَانْهَرْ » والله أعلم
بالمراد من ذلك .

الثانية - في التجربة موسى عليه السلام خلق نعليه وأقامهما من وراء الوادى . وقال
أبو الأحوص : وزار عبده الله أبا موسى في داره ، فاقبضت الصلاة فأقام أبو موسى ؛ فقال
أبو موسى لبيد الله : هضم . فقال عبده الله : هضم ؛ أنت في دارك . فقدم وخلع نعليه ؛
فقال عبده الله : ألب الوادى للقدس أنت ؟ ! وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال : قلت

لأنس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل في ثمانين؟ قال: نعم. ورواه النسائي عن عبد الله ابن السائب؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل بإصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: "ما حلكم على إلقاءكم نعالكم؟" قالوا: رأيناك ألقيت نعلك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً" وقال: "إذا جاء أحدكم المسجد فلي نظر فإن رأى في نعليه قدراً أراؤني فليمسحه وليصل فيهما". صحه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله، ويرفع بينهما التمازض. ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرة من ذكرى، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: "وَحُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ" على ما فهم. وقال إبراهيم النخعي في الذين يخلعون نعالهم: لو دعت أن محتاجاً جاء فأخذها.

الثالثة - فإن خلعتهما فخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه". وقال أبو هريرة للقبري: آخلعهما بين رجليك ولا تؤذ بهما سلباً. وما رواه عبد الله بن السائب رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماماً، فإن كنت إماماً أو وحده فافصل ذلك إن أحبيت، وإن كنت مأموماً في الصف فلا تؤذ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلك، ولكن قدام قدميك. وروى عن جبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدمه.

الرابعة - فإن تحقق فيهما نجاسة فجمع على تحييسها كالدم والصدرة من بول بني آدم لم يطهرها إلا النسل بالماء، عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفاً فيها كبول اللغوب وأرواثها الرطبة فهل يطهرها للمسح بالتراب من النعل والخلف أم لا؟ قولان عندنا. وأطلق الإجزاء مسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعى وأبو نور. وقال

أبو حنيفة : يزل إنايس لكفواضك ، ولا يزل رطله لا اتصل لمحا البهل ، فلا يميز فيه عنه إلا اتصل . وقال القاسي : لا يظهر شيئا من ذلك كله إلا الله . والصحيح قول من قال : إن السح يطهره من الخلف والاتصل ؛ لحديث أبي سعيد . فلما لو كانت الاتصال والخلف من جهة مئة فإن كان غير مطبوخ فهو نجس بجهتي ، ما حاط ما ذهب إليه الجمهور طائفة ، على ما تقدم بيانه في سورة « النحل » . ومضى في سورة « طه » القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامسة - قوله تعالى : (إِنَّكَ يَا وَادٍ الْقُدْسِ طَوًى) المقدس : المظهر . والقدس : الطاهرة ، والأرض المقدسة أي المطهرة ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين . وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض ، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض ، فبعض الحيوان كذلك . والله أن يفضل ما شاء . وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدسا بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين ، فقد شاركه في ذلك غيره . و « طوى » اسم الوادي عن ابن عباس ويحاهد غيرها . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى . وقرأ عكرمة « طوى » . الباقون « طوى » . قال الجوهري : « طوى » اسم موضع بالشام ، تكسر طاءه وتضم ، ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة . وقال بعضهم : « طوى » مثل « طوى » وهو الشيء الذي عوقلوا في قوله طلق قدس طوى : طوى مرتين أي قدس . وقال الحسن : ثبتت فيه البركة والتقدير مرتين . وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل إذ مر به فارتفع إلى أهل اللواتي ؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه ، فكأنه قال : « إنك يا واد المقدس » الذي طوت طوى ؛ أي تجلوازه فطوته بسبك . الحسن : معناه أنه قدس مرتين ؛ فهو مصدر من طوت طوى أيضا .

(١) وبلغ ١٠٧ ص ١٥٦ ما بعد طه إلى آخره .

(٢) وبلغ ٨٧ ص ١٦٦ ما بعد طه إلى آخره .

قوله تعالى : (وَأَنَا آخَرْتَكُمْ) أى أصطفيتك للرسالة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكاسي « وَأَنَا آخَرْتَكُمْ » . وقرأ حمزة « وَأَنَا آخَرْتَاكَ » . والمعنى واحد؛ إلا أن « وَأَنَا آخَرْتَكُمْ » هاهنا أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عز وجل : « يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَمْ نَجِيكَ » وهى هذا النسق جرت المخاطبة؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) فيه مسألة واحدة - قال ابن عطية : وحدثنى أبى - رحمه الله - قال سمعت أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : « اسْمِعْ لِمَا يُوحَى » وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوا .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : « الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُ اللَّهُ » ودم على خلاف هذا الوصف فقال : « تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْمَعُونَ » الآية . فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، فقال : « وَإِنَّا قَرِئْنَا الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » وقال هاهنا : « فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى . روى عن وهب بن منبه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح ونقض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والمزمز على العمل، وذلك هو الاستماع كما يجب الله تعالى؛ وهو أن يكف البد جوارحه، ولا يشغلها . فيشتغل قلبه عما يسمع، وينض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشئ سوى ما يستمع إليه، ويحزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسعه فيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يجب الله أنفهمه كما يجب، وجعل له في قلبه نهياً .

قوله تعالى : (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) فيه سبع مسائل ،
الأولى - اختلف في تأويل قوله : « لِذِكْرِي » قيل : يحتمل أن يريد لذكرك في أداء
أو يريد لأذكرك بالمدح في طين بها ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى التماس إلى
المفعول . وقيل : المعنى ، أى حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة
إذ هي تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ، وعلى هذا فالصلاة هي الذكر . وقد سمي الله
تعالى الصلاة ذكرا في قوله : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » . وقيل : المراد إذا نسيت فقد ذكرت
فصل كما في الخبر " فليصلها إذا ذكرها " . أى لا تسقط الصلاة بالنسيان .

الثانية - روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة
أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » " . وروى
أبو محمد عبد الله بن سبيد من حديث ججاج بن ججاج - وهو ججاج الأول الذي روى عنه
يزيد بن زريع - قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال : " كفارتها أن يصلها إذا ذكرها " تابعه
إبراهيم بن طهمان عن ججاج ، وكذا يروى همام بن يحيى عن قتادة . وروى الطبراني عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نسي صلاة فوقها إذا ذكرها " فقوله :
" فليصلها إذا ذكرها " دليل على وجوب القضاء على النائم والنافل ، كثرت الصلاة أو قلت ،
وهو منذهب عامة العلماء . وقد حكى خلاف شاذ لا يستد به ، لأنه يخالف لنص الحديث عن
بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعالى بإقامة الصلاة ، ونص على أوقات معينة ، فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ
لِذِكْرِي » الآية وغيرها من الآي . ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار ، أو بالعكس
لم يكن فعله مطابقا لما أمر به ، ولا ثواب له على فعله وهو عاين ، وعلى هذا الحد كان
لا يجب عليه قضاء ما فات وقته . ولولا قوله عليه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة
أو نسيها فليصلها إذا ذكرها " لم يقع أحد بصلاة وقعت في نسيها ، وهذا الاضطرار كان
قضاء لا أداء ، لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول .

الثالثة - فأما من ترك الصلاة متعمدا ، فالجهور أيضا على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصيا إلا داود . ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي ، حكاه عنه ابن القصار . والفرق بين التعمد والخطأ ، والثالث ، حط التائب ، فالتعمد مأثوم وجميعهم قاضون . والجمعة بالجهور قوله تعالى : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها . وهو أمر يقتضي الوجوب . وأيضا قد ثبت الأمر بقضاء التائب والناسي ، مع أنهما غير مأثومين ، فالعلماء أولى . وأيضا قوله : « من نام من صلاة أو نسيها » والنسيان الترك ، قال الله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » و « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » سواء كان مع دخول أو لم يكن ، لأن الله تعالى لا ينسى وإنما معناه تركهم و « مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّاها » أي تركها . وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره . قال الله تعالى : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » وهو تعالى لا ينسى وإنما معناه غلبت . فكذلك يكون معنى قوله : « إذا ذكرها » أي علمها . وأيضا فإن للديون التي للأعميين إذا كانت متعلقة بوقت ، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ، وهي مما يسقطها الإبراء كان في ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه . وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بنسي من ترك قضاءه فكذلك الصلاة . فإن قيل فقد روى عن مالك : من ترك الصلاة متعمدا لا يقضى أبدا . فالإشارة إلى أن ماضى لا يعود ، أو يكون كلاما نخرج على التخليط ، كما روى من ابن مسعود وعلى : أن من أفطر في رمضان علمنا لم يكفره صيام الدهر وإن صامه . ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء ، ولو إتيانه بالتوبة ، ويضلل الله بعد ذلك ما يشاء . وقد روى أبو المظفر عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجره صيام الدهر وإن صامه » وهذا يحصل أن لو صح كان معناه التخليط ، وهو حديث ضعيف يرجعه أبو داود . وقد جاءت الكثرة بأصالة صحيح ، وفي بعضها قضاء اليوم ، والحمد لله تعالى .

الرابعة - قوله عليه الصلاة والسلام : « من نام من صلاة أو نسيها » الحديث ، يخص عموم قوله عليه الصلاة والسلام : « رفع القلم عن ثلاثة من التائب حتى يستيقظ » والمراد بالرفع

هنا رفع اللام لا رفع الفرض عنه ، وليس هذا من باب قوله : " وعن الصبي حتى يحتمل " وإن كان ذلك جده في أثر واحد ؛ تقف على هذا الأصل .

الخلاصة - اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة قائمة وهو في آخر وقت صلاة ، أو ذكر صلاة وهو في صلاة ، بفعلته منعب مالك : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى ، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى ، وإن فات وقت هذه . وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها ، وصل نحو هذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث ؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا : الترتيب عندنا واجب في اليوم واليلة إذا كان في الوقت سنة للقائمة ولصلاة الوقت . فإن خشي فوات الوقت بدأ بها ، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم . وقد روى عن الثوري وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير . وهو تحصيل مذهب الشافعي . قال الشافعي : الاختيار أن يبدأ بالقائمة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزاء . وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر . وقال : لا ينبغي لأحد أن يصل صلاة وهو ذا كرماً قبلها لأنها تحسد عليه . وروى القارظي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام : " إذا ذكر أحدكم صلاة في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي " وعمر بن أبي عمر مجهول^(١) .

قلت : وهذا لو صح كانت حجة للشافعي في البداية بصلاة الوقت . والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله : أن عمر يوم الخندق جل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصبل مصر حتى كادت الشمس تقرب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فراقه ^(٢) إن صليتُها " فزالا البطمان ^(٣) فوضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوضاً فصل رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها

(١) عمر بن أبي عمر : هو أحد رواة هذا الحديث من مكحول عن ابن عباس . ولفظ الحديث في القارظي هكذا : " إذا نسي أحدكم الصلاة فذكرها وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي " .
(٢) إن ثانية ؛ أي ما حلفتها . (٣) بطمان (بالفتح أو الموحدة بالفتح وكره العلماء) : موضع بالبحرين .

المغرب . وهذا نص في البدأة بالفائسة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيق غير متدد في أشهر عتدا ، وعند الشافعي كما تقدم . وروى الترمذي عن أبي عبيدة بن عبد الله كبن صمود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الكنديق ، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى ، فأمر بالأذان بلالا فقام فاذن ، ثم أقام فصل الظهر ، ثم أقام فصل العصر ، ثم أقام فصل المغرب ، ثم أقام فصل العشاء . وبهذا استدلل العلماء على أن من فاتته صلاة ، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها في وقت واحد . واختلفوا إذا ذكر فاتسة في مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبدأ بالفائسة وإن خرج وقت الحاضرة ، وبه قال مالك والليث والزهري وغيرهم كما تقدمناه . الثاني — يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعي وفقهاء أصحاب الحديث والحاسبي وابن وهب من أصحابنا . الثالث — يتخير فيقدم أيتهما شاء ، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة ؛ قاله القاضي عياض . واختلفوا في مقدار اليسير ؛ فمن مالك : الخمس فدون ، وقد قيل : الأربع فدون لحديث جابر ، ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادسة — وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به ، يتخادى مع الإمام حتى يكمل صلاته . والأصل في هذا ما رواه مالك والدارقطني عن ابن عمر قال : ^{٢٠} " إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصل الصلاة التي نسي ثم ليعد صلاته التي صلى مع الإمام " لفظ الدارقطني ؛ وقال موسى بن هرون : وحديثه ثبو إبراهيم التيمياني ، قال : حدثنا سعيد ^(١) [به] ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهم في رفته ، فإن كان قد رجح عن رفته فقد وفق الصواب . ثم اختلفوا ؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصل إلى ذكر ، ثم يصل إلى صل مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما تقدمنا ذكره عن الكوفيين . وهو مطعوب جماعة من أصحاب مالك المدنيين . وذكر التيسري ^(٢) عن

(١) الزيادة من الدارقطني . (٢) مناقشة للراجح لفرقة الثنايا .

أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتجها ويقضى المذكورة ، وأما التي كان فيها إذا كان الوقت واسعا ، فإن غشي خروج الوقت وهو فيها اعتقد ألا يبطلها ، وقد أجزأه ويقضى التي عليه . وقال مالك : من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صل منها ركعتين سلم من ركعتيه ، فإن كان إماما أنهت عليه وعلى من خلفه وبطلت . هذا هو الظاهر من مذهب مالك ، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك ؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلم . ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلم ، وصارت نافلة غير فاسدة ولو أنهت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى ، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضيف إليها أخرى .

السابعة - روى مسلم عن أبي قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث الميضة بطوله ، وقال فيه ثم قال : " أما لكم في أسوة " ثم قال : " أما إنه ليس في النوم قريط إنما القريط من لم يصل الصلاة حتى يحى وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين يتب لها فإذا كان الفد فليصلها عند وقتها " وأخرجه البارقي هكنا بلفظ مسلم سواء ، فظاهره يقتضي إعادة القضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتي ، ويضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين ، وذكر القصة وقال في آخرها : " فمن أدرك منكم صلاة الفداة من غد صالحا فليقض معها مثلها " .

قلت : وهذا ليس على ظاهره ، ولا تمام غير مرة واحدة ؛ لما رواه البارقي عن عمران بن حصين قال : مررتا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة - أو قال في سرية - فلما كان وقت الحر صرنا ، فما استيقظنا حتى أيقظنا حر الشمس ، فجعل الرجل منا يثب قريبا فبعثا ، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا ، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس ، قضى الصوم حوائجهم ، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا وركعتين ، ثم أمره فأقام فصلينا الفداة قلنا : يا نبي الله ألا قضينا لوقتنا من الفد ؟ فقال لم رسول الله صلى الله عليه وسلم " أينما كنتم الله من الزمان وقبلة منكم " . وقال الخطابي : لا أعلم أحدا قال هذا وجوبا ، ورشبه

أن يكون الأمر به استحباباً لِحِرْزِ فضيلة الوقت في القضاء، والصحيح ترك العمل بقوله عليه السلام : "أينما كنتم الله عن الربا وبقبله منكم" ولأن الطرق الصالح من حديث عمران بن حصين ليس فيها من تلك الزيادة شيء، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو محتمل كما بيناه .

قلت : ذكر الكيا الطبري في «أحكام القرآن» أنه أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام : "من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك" فقال : يصبر إلى مثل وقته فليصل ، فإذا فات الصبح فليصل من الند . وهذا قول بعيد شاذ .

قوله تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى) آية مشككة ؛ فروى عن سعيد بن جبير أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيهَا » بفتح القمزة ؛ قال : أظهرها . « لَتُجْزَى » أي الإظهار للجزاء ؛ ورواه أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن يونس بن إياس عن سعيد ابن جبير . وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنباري في كتاب الرد ؛ حدثني أبي حدثنا محمد بن المههم حدثنا القراء حدثنا الكسائي ؛ ح - وحدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الخفاف حدثنا محمد بن سهل . قال النحاس ؛ وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير : أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيهَا » بضم الميمزة .

قلت : وأما قراءة ابن جبير « أُخْفِيهَا » بفتح الميمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفبه إذا أظهرته . واتفق للفراء لأمرئ القيس :

فَإِنْ تَدْفِنُوا اللَّهَ لَا تُخْفِيهِ • وَإِنْ تَبْعُوا الْحَرْبَ لَا تَعُدُّ

أراد لا تظهره ؛ وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون « أُخْفِيهَا » بضم الميمزة معناه أظهرها لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته إذا أظهرته ؛ فأخفيتها من حروف الأضداد يقع على السبق والإظهار . وقال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد . النحاس ؛ وهذا حسن ؛ وقد

مكاه من أبي الخطاب وهو رئيس من رؤساء الكفة لا يسكن في صلبه ؛ وقد روى عنه
سيويه وأتد :

• وَإِنْ تَكْتُمُوا الْقَوْلَ لَا تُخْفِيهِ • وَإِنْ تَبْغُوا الْحَرْبَ لَا قُعْدَ

كذا رواه أبو حنيفة عن أبي الخطاب بضم النون . وقال أمرؤ القيس أيضا :

خَفَاهُ مِنْ أَفَاقِهِمْ كَأَنَّا • خَفَاهُ وَدَقَّ مِنْ صَوْتِي مَجْلِبٌ^(٢)

أبي أظهر من . وروى : « من سحاب مركب » بدل « من عشي جلب » . وقال أبو بكر

الأنباري : وتفسير الآية آخر : « إن الساعة آتية أكاد » انقطع الكلام على « أكاد » وبعبارة

مضمر أكاد آتية بها ، والابتداء « أخفيها ليجزي كل نفس » . قال ضابي البرجمي^(٣) :

هَمَسْتُ وَلَمْ أَفْلُ وَكِدْتُ وَلَيْتِي • تَرَكْتُ عَلَى عِثَانٍ تَبْسِكِي حَلَالِي

أراد وكدت أفعل ، فاضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه في القرآن .

قلت : هذا الذي اختاره النحاس ؛ وزيف القول الذي قبله فقال يقال : خفى الشيء

يخفيه إذا أظهره ، وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضا إذا أظهره ، وليس بالمعروف ؛ قال :

وقد رأيت على بن سليمان لما أشكل عليه معنى « أخفيها » مدل إلى هذا القول ، وقال :

معناه كخفي « أخفيها » . قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سمي « أخفيها » قراءة

شاذة ، فكيف تزد القراءة الصحيحة الشاذة إلى الشاذة ، ومعنى المضمر أولى ؛ ويكون

التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتية بها ؛ ودل « آتية » على آتية بها ؛ ثم قال : « أخفيها » على

الابتداء . وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التي هي القيامة ، والساعة

التي يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد الحميد . (٢) خفاه : أظهر من . والإفاق (جمع فاق) :

وهو البحر . والرفق : الممر . والمجب : الذي له جلبة . وقيل :

ترى القار في سقيع القاع لاجيا = على جدد الصمد من شد مله

يقول : وقع حوافر القوس على الأرض أخرج القار من جحرها لأنه طه طرا .

(٣) قاله وهو محروس ؛ حبة سيدنا كان بن عفان رضي الله عنه حليته يضي برجله بن نيشل ؛ ولم يزل

في حبه إلى أن مات .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام في « ليجزى » متعلقة بـ « أخفيا » . وقال أبو علي :
 هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد ، ومعنى « أخفيا » أزيل عنها خفاها ، وهو
 سترها تكفاه الأخفية [وهي الأكسية] والواحد خفاء بكسر الخاء [ما قلب به ^(١)] القرية ، وإذا
 زال عنها سترها ظهرت . ومن هذا قولهم : أشكيت ، أى أزلت شكواه ، وأعديته أى قبلت
 استعداءه ولم أحويه إلى إعادته . وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن « كاده » زائدة مؤكدة .
 قال : ومثله « إذا أخرج يده لم يكد يراها » لأن الظلمات التى ذكرها الله تعالى بعضها يحول
 بين الناظر والمنظور إليه . وروى معناه عن ابن خنيز ، والتقدير : إن الساعة آتية أخفيا
 ليجزى كل نفس بما تسعى . وقال الشاعر ^(٢) :

سرَّجُ إلى المِجَاجِ شَكَّ يَلَاغُهُ • فَإِنْ يَكَادُ قِسْرُهُ يَنْقَسُ
 أراد لما يَنْقَسُ . وقال آخر :

وَالْأَلَمُ النَّفْسَ فِيمَا أَصَابَنِي • وَالْأَكَادُ بِالْقَى يَنْتُ أَنْجَحُ

معناه : والآن أنجح بالقى قلت ، فأكد توكيد للكلام . وقيل : المعنى « أَكَادُ أَخْفِيَا » أى
 أقارب ذلك ، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقسوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم .
 ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب . قال النونيون : كدت أفضل معناه
 عند العرب : قاربت الفعل ولم أفضل ، وما كدت أفضل معناه : فعلت بعد إبطاء . وشاهده قول
 الله عزت عظمته « فَذَبِّحْهَا وَمَا كَادُوا يَقْمَلُونَ » معناه : وقضوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة
 طعيم . وقد يكون ما كدت أفضل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكد . وقيل :
 معنى « أَكَادُ أَخْفِيَا » أريد أخفيا . قال الأتباري : وشاهد هذا قول الفصح من الشعر :

كَادَتْ وَكَدْتُ وَتَكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ • لَوْ عَادَ مِنْ مَلَوِ الصَّبَايَةِ مَا مَضَى

معناه : أرادت وأردت . وقال ابن عباس وأكثر المفسرين فيها ذكر التلبي : إن المعنى
 أكاد أخفيا من نفسى ، وكذلك هو فى مصحف أبي . وفى مصحف ابن مسعود : أكاد

أخفيا من نفس فكيف يظهرها مخلوق . وفي بعض القراءات : فكيف أظهرها لكم . وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة السرب في كلامها ، من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء قال : كتمت أخفيه من نفسي . والله تعالى لا يخفى عليه شيء ؛ قال معناه قطرب وغيره . وقال الشاعر :

إِذَا مَ تَصَحَّبَنِي هَسَدًا وَأَخْبَرُهَا • مَا أَكْتَمُ النَّفْسَ مِنْ حَالِي وَأَسْرَارِي
فَكَيْفَ يَخْبَرُهَا بِمَا نَكْتُمُ نَفْسَهُ • وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَرَجُلٌ تَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تَفَقَّ بِمِيتَةِ » الرَّحْمَنِيِّ وَقِيلَ مَعْنَاهُ : أَكَادَ أَخْفِيَا مِنْ نَفْسِي ، وَلَا دَلِيلَ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْمَحْذُوفِ ؛ وَعَذُوفٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مُطْرَحٌ ، وَالَّذِي غَرِمَ مِنْهُ أَنْ فِي مَصْحَفِ أَبِي : أَكَادَ أَخْفِيَا مِنْ نَفْسِي ؛ وَفِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ : أَكَادَ أَخْفِيَا مِنْ نَفْسِي فَكَيْفَ أَظْهَرَكُمْ طَلِبًا .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيا من نفسي ؛ أي إن إخفائها كان من قبل ومن عندي لا من قبل غيره . وروى عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيا من نفسي ؛ ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء . وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا . وروى عن سعيد بن جبير قال : قد أخفاه . وهذا على أن كاد زائدة . أي إن الساعة آتية أخفيا ، والقائنة في إخفائها التخويف والتحويل . وقيل : تعلق « لتجزى » بقوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ » فيكون في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي أقم الصلاة لتذكرني « لتجزى كل نفس بما تسعى » أي يسعها « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيَا » . والله أعلم . وقيل : هي متعلقة بقوله : « آتية » أي إن الساعة آتية لتجزى . (فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا) أي لا يصرفك عن الإيمان بها والتصدق لها (مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَآتَتْهُ هَوَاهُ) . (فَتَرَى) أي تبهلك . وهو في موضع نصب يحوالب انتهى .

قوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِبَيْمِينِكَ يَتُومِئِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَمُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿٧٨﴾

فيه محسوسات :

الطبعة - قوله تعالى : (وَمَا يَلِكُ يَسْمِئِكَ) قيل : كان هذا المطلب من الله تعالى لموسى عليه السلام لأنه قال : « فَاسْمَعْ لِي يَا يُوحَى » ولابد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوة نفسه ، فلزم في المعصاة وفي نفسه ما أراه لذلك . ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة كناية كناية له في نفسه ، ثم تكوّن اليد والمعصاة زيادة تؤكد ، وبرهاناً يلحق به قوله . واختلف في معناه في قوله : « وَمَا يَلِكُ » فقال الزجاج والقراء : هي أسم ناقص وصلت به « يسميك » أي ما التي يسميك؟ وقال أيضاً : « تلك » بمعنى هذه ؛ ولو قال : ما ذلك بلزم ؛ أي ما ذلك الشيء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هي عصاى ؛ لينتج الحجة عليه بعد ما انتفى ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأصل . وقال ابن الجوهري : وفي بعض الآثار أن الله تعالى سئل عن موسى إضافة المعصاة إلى نفسه في ذلك الموضع ؛ فقيل له : ألقها ترى منها العجب فتعلم أنه لا يملك لك عليها ولا تنضاف إليك . وقرأ ابن أبي إسحق « عَصَى » على لغة هذيل . ومثله « يَابُشْرَى » و « نَحْيَى » وقد تقدم . وقرأ الحسن « عَصَايَ » بكسر الهمزة لانتفاء الساكنين . ومثل هذا قراءة حمزة « وَمَا لَكُمْ بِمُفْرِنِي » . وعن ابن أبي إسحق سكن الياء .

الطبعة - في هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ؛ لأنه لما قال : « وَمَا يَلِكُ يَسْمِئِكَ يَا مُوسَى » ذكر معاني أربعة : وهي : إضافة المعصاة إليه ، وكان حقه أن يقول عصاى ، والتركؤ ، والحش ، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه عظمها وجمهورها وأجل سائر ذلك . وفي الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحلو ميتة » . وسأله امرأة عن الصغير حين رفضته إليه فقالت : الهنا ج ؟ قال « نعم ولك أبر » . ومثله في الحديث كثير .

الثالثة - قوله تعالى : (أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا) أي اتعامل عليها في المشي والوقوف ؛ ومنه الإكساء . (وَأَهْشَى بِهَا) « وَأَهْشَى » أيضاً ؛ ذكره النحاس . وهي قراءة النخعي ، أي أخطب بها

(١١) معنى من انتهى أيضاً أنه قرأ « وأهش » بضم الهزة والفتح من « أهش » وبأما .

الزوق، أى أضرب أخصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنى تناولها فأكله .

قَالَ الرَّابِعُ :

أَهْشُ بِالْمَعَا عَلَى أَغْنَى • مِنْ تَائِمِ الْأَرَاكِ وَالْبَنَامِ

يَقَالُ : هَشَّ عَلَى غَنَمِهِ يَهْشُ بَعْضُ الْمَاءِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ • وَهَشَّ إِلَى الرَّجُلِ يَهْشُ بِالْفَتْحِ •

وَكَلَّكَ هَشًّا لِلْعُرُوفِ يَهْشُ وَهَشْتُ أَنَا : وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ : هَشْتُ يَوْمًا قَبِلْتُ وَأَنَا صَائِمٌ .

قَالَ شَمْرٌ : أَيْ فَرَحْتِ وَأَشْتَيْتِ • قَالَ : وَيُجُوزُ هَاشٌ بِمَعْنَى هَشَّ • قَالَ الرَّاعِي :

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَاشَ فَوَادُهُ • وَبَشَّرَ نَفْسًا كَانَ قَبْلَ يَوْمِهَا

أَيْ طَرَبَ • وَالْأَصْلُ فِي الْكَلِمَةِ الرَّخَاوَةُ • يَقَالُ : رَجُلٌ هَشٌّ وَزَوْجٌ هَشٌّ • وَقُرَأَ

عِكْرَةً «وَأَهْشُ» بِالسِّينِ فِيرِ مِجْمَعَةٍ؛ قِيلَ : هُمَا لَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُمَا مُخْتَلَفٌ؛

فَالْهَشُّ بِالْإِجْمَاعِ خِطُّ الشَّجَرِ، وَالْهَسُّ بِنِيرِ إِيْجَامٍ زَبْرُ الْغَنَمِ؛ ذَكَرَهُ الْمَاصِرِيُّ؛ وَكَذَلِكَ ذَكَرَ

الزَّعْزَعِيُّ • وَمِنْ عِكْرَةٍ : «وَأَهْشُ» بِالسِّينِ أَيْ أُنْعِيَ عَلَيْهَا زَاكِراً لَهَا وَالْهَسُّ زَبْرُ الْغَنَمِ •

الرَّابِعَةُ — قَوْلُهُ تَالِي : (وَلِيَّ فِيهَا مَارِبٌ أُتْرَى) أَيْ حَوَاجٍ . وَاحِدُهَا مَارِبَةٌ وَمَارِبَةٌ

وَمَارِبَةٌ • وَقَالَ : «وَأُتْرَى» عَلَى صِيغَةِ الْوَاحِدِ؛ لِأَنَّ مَارِبَ فِي مَعْنَى الْجَمَاعَةِ، لَكِنْ الْمُنْجَعُ فِي تَوَاجِعِ

جَمْعٍ مَا لَا يَقْدِرُ الْإِتْرَادُ وَالْكَلَامَةُ عَنْهُ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْرِي بِجَرَى الْوَاحِدَةِ لِلْمُؤَنَةِ؛ كَقَوْلِهِ

تَالِي : «وَلِلَّهِ الْإِسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» وَكَقَوْلِهِ : «يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ» وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا

فِي «الْأَصْرَافِ» .

لِلْخَامِسَةِ — تَعْرِضُ قَوْمٌ لِعَدِيدِ مَنَاقِعِ الْمَعَا مِنْهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ : إِذَا اتَّيْتِ

إِلَى رَأْسِ بَرْقَعِ الرِّثَا وَصَلْتِ بِالْمَعَا، وَإِذَا أَصَابَتْ حَرَّ الشَّمْسِ غَرَزَتْهَا فِي الْأَرْضِ

وَأَلْبَيْتِ طَلِبًا مَا يَظَلُّنِي، وَإِذَا خَفْتُ شَيْئًا مِنْ هَوَامِ الْأَرْضِ قَتَلْتِهَا، وَإِذَا مَشَيْتِ إِلَيْتِيهَا

حُلَّ عَانَتِي وَطَقْتُ عَلَيْهَا الْقُومَ وَالْكُثَاةَ وَالْمُخَلَّةَ، وَأَقَاتَلِ بِهَا السِّبَاعَ عَنِ الْغَنَمِ .

(١) الْمُهْج : الطَّرِيقُ الرَّاحِ الْوَاسِعُ الْبَيْنُ • (٢) ٧٠ ص ٢٢٧ رَمَا بَعْدَهَا طَبْعَةُ أَمْلَاءُ لُغَوِيَّةٌ •

حدثني عن سمعان بن مهران قال : إمسك العصا سنة للاتياء ، وعلاوة لزمن موافق للحسن البصري : فيها ست خصال ؛ سنة للاتياء ، وزينة الصلحاء ، وسلاح على الأعداء ، وعون الضعفاء ، ونغم المنافقين ، وزيادة في الطاعات . ويقال : إنا كان مع المؤمن العصا يربب منه الشيطان ، ويمنع منه المنافق والفاجر ، وتكون قبله إذا صلب ، وقوة إذا أميا . ولقي الجحاجُ لمرأيا فقال : من أين أنفيلت يا أصرابي ؟ قال : من البادية . قال : وما في يدك ؟ قال : عصاى أتركها لصلاتي ، وأعتد لها لذي ، وأسوق بها داجي ، وأقوى بها على سفرى ، وأحمدها في شتى لتتسع خطوق ، وأتب بها النهر ، وتؤمنى من العثر ، وألتي عليها كسفى فيقنى للخر ، ويُدغنى من التز ، وتدفى إلى ما بعد منى ، وهى تخيل سُفوق ، وعلاوة إذا وقى ؛ أعصى بها عند الضراب ، وأفرح بها الأبواب ، وأتقى بها حقور الكلاب ، وتتوب عن الرخ في الطمان ، ومن السيف عند منزلة الأقران ؛ ورتها عن أبى ، وأودتها بصدى أبى ، وأهتتى بها على غنى ، ولى فيها مأرب أخرى ، كثيرة لا تحصى .

قلت : منافع العصا كثيرة ، ولما مدخل في مواضع من الشريعة : منها أنها تنفذ قبله في الصلوة ، وقد كان لى عليه الصلاة والسلام ^(١) تركه له فيصل إلى الله ، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالسرية فوضع بين يديه فيصل إلى الله ؛ وذلك ثابت في الصحيح . والحريّة والعترّة والتزيك والآلة اسم لمسى واحد . وكان له يحجن وهو عصا معوجة الطرف يشربه إلى الجمر إذا لم يستطع أن يقبله ؛ ثابت في الصحيح أيضا . وفي الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبى بن كعب وتبعا القارى أن يقوموا للناس بإحدى عشرة ركعة ، وكان القارى يقرأ بالمئين حتى كما تعتمد على الصوى من طول القيام ، وما كما تنصرف إلا في بزوغ الفجر . وفي الصحيحين : أنه عليه الصلاة والسلام كان له ^(٢) محضرة . والإجماع متفق على أن الخطيب يخطب متوكئا على سيف أو عصا ، فالعصا مأخوذة من أصل كريم ، ومعبد شريف ، ولا ينكرها إلا جاهل . وقد جمع الله لموسى

(١) العترّة : مثل نصف الرمح أو أكبره ، ونها سان مثل سان الرمح . (٢) القصبة : قطعة الخشب والصلب للهبة : ما ينعصر الإنسان منه فمسكه من عصا أو مكنة أو قربة أو قنبر وقد يتكن عليه . قتيبة .

في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام، ما آمن به السحرة للماندون . واتخذها سليمان تلطبه وموظفه وطول صلاته . وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وقته ؛ وكان يخطب بالفضيب - وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا - وعلى ذلك الخلقاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب الرباء، الفصحاء اللسن البلقاء أخذ المخصرة والعصا والاعتدال عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب . وأنكرت الشعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعاني . والشعوبية تفيض العرب وغضل الحجم . قال مالك : كان عطاء بن السائب يمسك المخصرة يستعين بها . قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن ينزل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفي مشيئة كما قال بعضهم :

قد كنت أمتي على رجلين متمسكا * فصرت أمتي على أخرى من الخشب
قال مالك رحمه الله ورضي عنه : وقد كان الناس إذا جامع المطر خرجوا بالمعصى يتوكلون عليها، حتى لقد كان الشباب يجهسون عصيم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يحلس إليه حتى يقوم . ومن منافع العصا ضرب الرجل فساء بها فيأ يصلحهم، ويصلح حاله وحالم معه . ومنه قوله عليه السلام : "وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه" في إحدى الروايات . وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه : "لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم في الله" ورواة عبادة بن الصامت ؛ خرجته النسائي . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : "علق سوطك حيث يراه أهلك" وقد تقدم هنا في «الفاء»^(١) . ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من هذه البارة كما قيل لبعض الزهاد : مالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : لئني أعلم أني مسافر، وأنها دار قلة، وأن العصا من آلة السفر؛ فأخذ بعض الشعراء فقال :

حملت العصا الضعف أو جب حملها * على ولا أتى تخيت من كبر
ولكنني أزممت قضى حملها * لأعلمها أن المقيم على سفر

(١) هذا من حديث قاطعة بنت قيس، حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة وسامرية بن أبي سفيان عطاها فقال : "أما أبو جهم فربما لا يرفع عصاه من النساء وأما سامية فضطوك لا مال له" (٢) راجع ج ٥ ص ١٧٤ طبعة أول أو ثانية .

قوله تعالى : **قَالَ أَلْقَهَا يَمُومِينَ** (١٧) **فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْمَى** (١٨)
قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (١٩) **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ**
وَخُزْ بِبَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٠) **لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى** (٢١)
قوله تعالى : **(قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى)** لما أراد الله تعالى أن يهديه في تلقى النبوة
وتكليفها أمره بإلقاء العصا **(فَأَلْقَاهَا)** موسى قلب الله أوصافها وأعراضها . وكانت عصا
ذات شعبين فصارت الشَّعْبَانِ لها فَا ، وصارت حبة تسمى أَى تنقل ، وتمشى وتنظم
الجمارة ؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عجة فـ **« حَوْلَى مُذِرًا وَلَمْ يُعْقَب »** فقال الله له :
« خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ » وذلك أنه **« أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً »** أى لحقه ما يلحق البشر . وروى
أن موسى تناولها بكى جبته فنهى عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة
وهى سيرتها الأولى ، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفرغ منها إذا ألقاها عند فرعون . ويقال :
إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتعادته ويعلق عليها أحماله ، ونفى له الشَّعْبَانِ بالليل
كالتنعيم ؛ وإذا أراد الاستقاء اقبلت الشَّعْبَانِ كاللدلو ، وإذا اشتبه ثمره ركذا في الأرض
فاتمرت تلك الثمرة . وقيل : إنها كانت من آس الجنة . وقيل : أنه جبريل بها . وقيل :
ملك . وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوضعت بيده تلك العصا ، وكانت
عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة . وافه أعلم .

قوله تعالى : **(فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْمَى)** التماسي : ويعوز «حبة» ؛ يقال : خرجت فلانا زيدا
جالسا وجالسا . والوقف «حبه» بالهاء . والسى للمشى بصرمة وخفة . وعن ابن عباس :
أقبلت ثبانا ذكرا يتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يتلع كل شيء خافه وفقرته . وعن بعضهم :
إنما خاف منه لأنه عرف ما لى آدم منها . وقيل لما قال له ربه : **« لَا تَحْزَنْ »** بلغ من
ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلعبيها . **(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)**
سمعت علي بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها ، مثل **« وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ »** قل : ويعوز
أن يكون مصلوا لأن معنى سَنُعِيدُهَا سَنِيرُهَا .

قوله تعالى : (وَاسْتَمِمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) يجوز في غير القرآن مُمَّ بفتح الميم وكسرهما
لاظهار الساكنين ، وفتح أجود خلفه ، والكسر على الأصل . ويجوز ضم على الإجماع .
ويُدَّ أصلها يَدِي على قسمل ، يدل على ذلك أيـد . وتصغيرها يَدِيَّة . والجناح الضد ؛ قاله
جمهد . وقال : « لى » بمعنى تحت . قطرب : « إِلَى جَنَاحِكَ » إلى جيك ، ومنه قول الرازي :
• أَشْمُهُ لِلصَّدْرِ وَالْجَنَاحِ •

وقيل : إلى جنبك فبر عن الجنب بالجناح لأنه ماثل في محل الجناح . وقيل : إلى عنك .
وقال مقاتل : « لى » بمعنى مع أى مع جناحك . و (تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) من غير
برص نورا ساطعا ، بضى بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوئا . عن ابن عباس
وغيره : نخرجت نورا عاكفة للونه . و « بَيْضَاءَ » نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها
ألفى التانيث لا يزايلها فكان لزومها علة ثانية ، فلم ينصرف في النكرة ، وفاقنا الماء لأن الماء
تخارق الاسم . و « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » « من » صلة « بَيْضَاءَ » كما تقول : ابيضت من غير سوء .
(آيَةٌ أُخْرَى) سوى العصا . فخرج يده من مِدرعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس
يسمى البصر . و « آيَةٌ » منصوبة على البذل من يبيضه ؛ قاله الأخفش . النحاس : وهو
قول حسن . وقال الزجاج : المعنى آيتناك آية أخرى أو تؤتيك ؛ لأنه لما قال : « تَخْرُجُ
بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » دل على أنه قد آتاه آية أخرى . (لَتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) يريد
العظمى . وكان حقه أن يقول الكبيرة ، وإنما قال « الكبرى » لوافق رموس الآى . وقيل :
فيه إضمار ، معناه لتريك من آياتنا الآية الكبرى ؛ دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته .

قوله تعالى : أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي
صَدْرِي ﴿٢٦﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٧﴾ وَأَخْلَلْ عُقَدَةَ مِنَ لَسَانِي ﴿٢٨﴾ يَقْقُوهَا
قَوْلِي ﴿٢٩﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٣٠﴾ هَازِلُونَ أُمِّي ﴿٣١﴾ أَشَدُّ
يَدِي أَزْدِي ﴿٣٢﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٣﴾ كَى نُسَيْحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾
وَنَذَرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٥﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (**أَنعَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ**) لما آتاه بالصبا واليد ، ولما ما يدل على أنه رسول ، أمره بالذهاب إلى فرعون ، وأن يدعو . و « طغى » صله صهي وتكبر وكفر وتجبر وباوز الحد . (**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَأَحْلِلْ خُفَّةً مِنِّي لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي**) طلب الإنانة لتبليغ الرسالة . ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ، فقال موسى : يا رب فكيف تأمرني أن آتية وقد ربطت على قلبه ؟ فأماه ملك من خزائن الرب فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به . فقال موسى عند ذلك : « **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** » أي وسِّعه وتوره بالإيمان والنبوة . « **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** » أي سهِّل على ما أمرني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . « **وَأَحْلِلْ خُفَّةً مِنِّي لِسَانِي** » يعني العجمة التي كانت فيه من جرة النار التي ألقاها في فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت في لسانه رُتة . وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فطمسه لطمه ، وأخذ بلعته فعضها فقال فرعون لأسية : هذا مدققي فهات اللبابين . فقلت لأسية : على رسلك فإنه صبي لا يفرق بين الأشياء . ثم أنت بطنين فغفلت في أحدهما حجرا وفي الآخر جوهرا ، فأخذ جبريل بيده موسى فوضعهما على النار حتى رفع جرة ووضعهما في فيه على لسانه ، فكانت تلك الزتة . وروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم يبرأ . ولما دعاه قال : إلى أي رب تدعوني ؟ قل : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها . وعن بعضهم : إنما لم يبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتعقد بينهما حرمة المواكلة . ثم اختلف هل زالت تلك الزتة ؟ قيل : زالت بدليل قوله : « **قَدْ أُوتِيتُ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** » . وقيل : لم تزل كلها ، بدليل قوله حكاية عن فرعون : « **وَلَا يَكَادُ بَيْنُ** » . ولأنه لم يقل : أحلل كل لساني ، فدل على أنه بقي في لسانه شيء من الاستسماك . وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : « **أُوتِيتُ سُؤْلَكَ** » وإنما قال فرعون : « **وَلَا يَكَادُ بَيْنُ** » لأنه عرف منه تلك القعدة في التربية ، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : « وَلَا يَكْدِبِينَ » حين كلمه موسى بلسان ذئلي فصيح . والله أعلم . وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه . (يَفْقَهُوا قَوْلِي) أى يعلموا ما أقوله لم يفهموه . والفقه في كلام العرب الفهم . قال أعرابي لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه . تقول منه : قَبِه الرجل بالكسر . وفلان لا يَقْه ولا يَقْه . وأقْبَهتُك الشيء . ثم خُصَّ به علم الشريعة ، والعالم به فقيه . وقد قَهَّ بالضم فْقَاهَة وقَهَّه الله وقَهَّه إذا تاملى ذلك . وقَاهته إذا باحثه في العلم ؛ قاله الجوهري . والوزير المُوَازر كالأكل لئلا يكل ؛ لأنه يعمل من السلطان وزره أى قله . في كتاب النسائي عن القاسم بن محمد : سمعت عمتي تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^١ « من ولي منكم عملاً فإراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكركه وإن ذكره أعانه » . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : ^٢ « ما يست الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله » . رواه البخاري . فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيراً ، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى لا يكون شريكاً له في النبوة ، ولولا ذلك لماز أن يستوزره من غير مسئلة . وعين فقال : « هَرُونَ » . وأتعب على البذل من قوله : « وَزِيْرًا » . ويكون منصوباً بـ « أجعل » على التقديم والتأخير ، والتقدير : واجعل لي هرون أئني وزيراً . وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث . (أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي) أى ظهري . والأزْر الظهر من موضع الحقوين ، ومعناه تقوى به نفسي ؛ والأزْر القوة ، وأزره قواه . ومنه قوله تعالى : « فَأَزْرَهُ فَأَسْتَفْظَ » . وقال أبو طالب : أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَهُ . وأوصى بنيه بالطمان وبالضرب

وقيل : الأزْر اللون . أى يكون عوناً يستقيم به أمرى . قال الشاعر :

شَدَدْتُ بِهِ أَزْرِي وَأَخْنْتُ أَنَّهُ • أَخُو الْفَقْرِ مِنْ ضَاغَتْ عَلَيْهِ مَنَاهُ

(١) معناه لا يعلم ولا يفهم . وقته الحديث أتمه إذا فهمه .

(٢) هذا البيت في نسخة له قالوا في أمر النجب والصبيحة .

وكان هرون أكثر لحماً من موسى، وأتم طولاً، وأبيض جساماً، وأصبح لساناً . ومات قبل موسى بثلاث سنين . وكان في جهة هرون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة ، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده ، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التي في لسانه . والله أعلم . (وأشركه في أمري) أي في النبوة وتبليغ الرسالة . قال المفسرون : كان هرون يومئذ بمصر ، فأمر الله موسى أن يأتي هو وهرون ، وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى ، فلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه ، فقال له موسى : إن الله أمرني أن آتي فروعون فسألت ربي أن يعطك معي رسولا . وقرأ العامة « أئسي أشد » بوصل الألف « وأشركه » بفتح الحمة على الداء ، أي أشدد يارب أزرى ، وأشركه معي في أمري . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حيوة والحسن وعبد الله بن أبي إسحق « أشد » بقطع الألف « وأشركه » أي أنا يارب « في أمري » . قال النحاس : جعلوا القطعين في موضع جزم جواباً لقوله : « أجعل لي وزيراً » وهذه القراءة شاذة بعيدة ؛ لأن جواب مثل هذا إنما يخرج بمعنى الشرط والمجازاة ، فيكون المعنى : إن تجعل لي وزيراً من أهل أشدد به أزرى ، وأشركه في أمري . وأمره النبوة والرسالة ، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ، إنما حال الله عز وجل أن يشركه معه في النبوة . وفتح الباء من « أئسي » ابن كثير وأبو عمرو . (كَيْ تُسَبِّحَ كَثِيراً) قيل : معنى « نسبحك » نصل لك . ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان . أي تترجك عما لا يليق بحملك . « وكثيراً » نعت لمصدر غذوف . ويجوز أن يكون متا لوقت . والإدغام حسن ، وكذا (وَتَذْكُرَكَ كَثِيراً) . (إِنَّكَ كُنْتَ بَشَراً صَبِيراً) قال الخطابي : البصير المبصر ، والبصير العالم بغميات الأمور ، فالعنى : أي عالمنا ، ومدركنا في صغرتنا فأجنت إلينا ، فأحسن إلينا كلناك يارب .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْبِلْ بِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْصِبْ فِي آلِيهِ فَلْيُلْقِ آلِيمَ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي

وَعَدُوَّهُمْ وَالْأَقْبِتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿١٥﴾ إِذْ تَمْشِي
 أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
 كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكُنْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ
 فُتُونًا فَلَمِيتَ مِسِينٌ ۚ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَلْبٍ يَنمُوسِي ﴿١٦﴾
 وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿١٧﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِأَيْتِنِي وَلَا تَنِبَا
 فِي ذِكْرِي ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ لما سأله شرح الصدر، ونيسر الأمر
 إلى ما ذكر، أجاب سؤاله، وأناه يلطفه ومرغوبه . والسؤل الطلبة، فُسل بمعنى مفعول،
 كقولك خُبز بمعنى محبوب وأكل بمعنى ما كُول . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً
 أُخْرَى ﴾ أى قبل هذه، وهى حفظه سبحانه له من شر الأعداء فى الابتداء، وذلك حين الذبح .
 والله أعلم . والمَنَّ الإحسان والإفضال . وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ قيل :
 « أوحينا » ألهما . وقيل : أوحى إليها فى النوم . وقال ابن عباس : أوحى إليها كما أوحى
 إلى النبيين . ﴿ إِنِ أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع
 التابوت وتجره وكان اسمه جِرْقِيل . وكان التابوت من جُمَيْر . ﴿ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أى أطرحه
 فى البحر : نهر النيل . ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : « فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ » أمر فيه معنى المجازاة .
 أى أفذيه بلفه اليم . وكذا قوله : « أَنْتُمْ سِيلًا وَلَتَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ » . ﴿ بِأَخْذِهِ عِلْوَىٰ
 وَعَدُوَّهُ ﴾ أى فرعون ، فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطما، ووضعت فيه موسى، وقبرت
 رأسه وخصاصه - يعنى شقوقه - ثم ألقتة فى النيل، وكان يترع منه نهر كبير فى دار فرعون،
 فساقه الله فى ذلك النهر إلى دار فرعون . وروى أنها جعلت فى التابوت قطنا ملحوبا، فوضعت
 فيه وقبرته وجصصته ، ثم ألقتة فى اليم . وكان يترع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فيها
 هو جالس على رأس بركة مع أسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فلذا صبي أصبح

الناس، فأحبه عقرافه حباً شديداً لا يملك أن يصبر عنه . وظاهر القرآن يدل على أن البحر
أقامه بساحله وهو شاطئه، فرأى فرعون التايوت بالساحل فأمر بأخذه . ويحتمل أن يكون
إقامه الميم بموضع من الساحل، فيه قوَّة نهر فرعون، ثم أضاف النهر إلى حيث البركة . والله أعلم .
وقيل : وجدته ابنة فرعون وكان بها برص، فلما فحنت التايوت شفيت . وروى أنهم حين
التفتلوا التايوت عالجوا فتحة فلم يقدروا عليه، وعلجوا كسرة فأعيام، فأنبت آسية فرأت
في جوف التايوت نورا فمالجته ففتحته، فإذا صبي نوره بين عينيها، وهو يحس إلهامه لبناً
فأحبه . وكانت لفرعون بنت برصاء، وقال له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر، يوجد
فيه شبه إنسان دواؤها ريقه، فططخت البرصاء برصها بريقه فبرئت . وقيل : لما نظرت
إلى وجهه برئت . والله أعلم . وقيل : وجدته جواراً لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون
فرأى صيلاً من أصبح الناس وجهها، فأحبه فرعون، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ
عَحْبَةً مِّنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه منحة
من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتادة : كانت في عيني موسى ملاحه ما رآه أحد
إلا أحبه وعشقه . وقال عكرمة : المعنى جعلت فيك حسنا وملاحه فلا يراك أحد إلا أحبك .
وقال الطبري : المعنى وألقيت عليك رحمتي . وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبك حتى
أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبك آسية بنت مزام فبكتك . ﴿ وَلْيُصَنِّعْ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾
قال ابن عباس : يريد إن ذلك بسني حيث جعلت في التايوت، وحيث ألقى التايوت في البحر،
وحيث التقطك جوارى امرأة فرعون، فأردن أن يفتحن التايوت لينظرن ما فيه، فقالت منهن
واحدة : لا تفتحنه حتى تأبين به سيدتكن فهو أحظى لكتن عندنا، وأجدر بالآ تهمة كن بأنكن
وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأفئسكن . وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقىته
أولئك الجوارى . فذهبن بالتايوت إليها متلفا، فلما فتحة رأت صيلاً لم ير مثله قط، وألقى
عليها عيته فأخذته فدخلت به على فرعون، فقالت له : « قُرَّةٌ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » قال لما فرعون :
أما لك فتم، وأما لي فلا . فليتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن فرعون قال

لهم هو قوة حين لي ولك لامن وصلني **قالت** : **قوله** لي ولا خطه ، **قوله** لها . **وقيل** :
« ولتصنع علي عيني » أي **تربي وتكدي علي مرأى مني** ، **قوله** قاتلة . **قال** النحاس : **وذلك**
معروف في اللغة ، **يقال** : صنعت القوس وأصنعت إنا أحسنت القيام عليه . **والمعنى** : **ولتصنع**
علي عيني **« فلت ذاك »** . **وقيل** : **اللام** ههنا بما بعدها من **قوله** **« لا تمشي لفتك »** . **علي**
التقديم والتأخير **« إذ »** ظرف **« لتصنع »** . **وقيل** : **الواو** في **« ولتصنع »** **« لا تفتك »** . **وقيل**
ابن القمقاع **« ولتصنع »** . **يأسكن اللام** **علي الأمر** ، **وظاهره** **الخطاب** **والقلمود عتب** . **وقيل**
أبو نيك **« ولتصنع »** **« بفتح التاء »** . **والمعنى** **ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئي وعلي حين مني** .
ذكره المهدوي . **(إذ تمشي لفتك)** **العامل في « إذ تمشي »** **« ألقيت »** أو **« تصنع »** .
ويعوز أن يكون بدلا من « إذ ألويت » ، **وأخته اسمها مريم** . **(فتقول هل أدلكم علي من**
يكفله) **وذلك أنها خرجت متعرفة بخبره** ، **وكان موسى لها وجهه** **فرعون من أمراته** **طلبت**
له المراضع ، **وكان لا يأخذ من أحد حتى أفلت أخته** ، **فاخذته ووضعت في حجرها** **وتأوله**
نديا فصه وفرح به . **قالوا لها** : **تخمين عندنا** ، **فصالت** : **إنه لا لبن لي ولكن أدلكم**
علي من يكفله وهم له ناصحون . **قالوا** : **ومن هي ؟** . **قالت** : **أبي** . **قالوا** : **لها لبن ؟** **قالت** :
لين أنسى هرون . **وكان هرون أكبر من موسى بسنة** . **وقيل** : **بثلاث** . **وقيل** : **بأربع** ،
وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل فرقع عنهم القتل أربع سنين ، **فولد هرون فيها** ، **قاله ابن**
عباس . **بجاءت الأم فقبل نديا** . **فذلك قوله تعالى** : **(فَرَجَعْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّكَ)** **وفي مصحف**
أبي « فردداك » . **(كَيَّ تَقَرَّعْنَاهَا وَلَا تَحْزَنَ)** **وروى عبد الحميد عن ابن عباس** **« كَيَّ تَقَرَّ**
عَيْنَهَا » **بكسر القاف** . **قال الجوهري** : **وَقَرَّرْتُ بِهِ عَيْنَا وَقَرَّرْتُ بِهِ قُسْرَةً وَقُرُورَا فِيهِمَا** .
ورجل قري العين ، **وقد قررت عينه تَقَرَّرَ وَتَقَرَّرَ قَيْضُ سَخْتٍ** . **وأقرقه عينه أي أعطاه حتى**
تَقَرَّرَ فلا تطمح إلى من هو فوقه ، **ويقال** : **حتى تبرد ولا تسخن** . **والسرور دعة باردة** ،
والحزن دعة حارة . **وقد تقدم هذا المعنى في « مريم »** . **« وَلَا تَحْزَنَ »** أي **علي فقدك** .
(وَظَلَّتْ نَفْسًا) **قال ابن عباس** : **قتل قبطيا كافرا** . **قال كعب** : **وكان إذ ذاك ابن اتقي**

عشرة سنة . في صحيح مسلم : وكان قتله خطأ ، بل ما يأتي . (فَتَجَبَّكَ مِنَ الْقَتْلِ) أى آمنتك من الخوف والقتل والحبس . (وَتَنَّاكَ قُوَّةً) أى اختبرتك اختباراً حتى صلحت للرسالة . وقال قتادة : بلونك بلاء . مجاهد : أخلصتك إخلاصاً . وقال ابن عباس : اختبرتك بأشيلة قبل الرسالة ، أولها حملته أمه في السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إنقاذه في اليوم ، ثم منه من الرضاع إلا من ندى أمه ، ثم جره بلحية فرعون ، ثم تناوله الجيزة بدل العزة ، فدرأ ذلك منه قتل فرعون ، ثم قتله القبطى ونزوجه خاتماً يترقب ، ثم رمايته النغم ليتدرب بها على رماية الخلق . فيقال : إنه نذله من النغم جندى فاتبعه أكثر النهار ، وأتبعه ، ثم أخذه قبله وضمه إلى صدره ، وقال له : أتعبتى وأتعبت نفسك ، ولم ينضب عليه . قال وهب ابن منبه : ولهذا أخذته الله كلياً ، وقد مضى في « النساء » .

قوله تعالى : (فَلَقِيتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) يريد عشر سنين أتم الأجلين . وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانى وعشرين سنة ، منها عشر مهر أمراءه صفورا ابنة شعيب ، وفانى عشرة أقامها عنده حتى ولد له عنده . وقوله : (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقاً للنبوة والرسالة ، لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة . وقال مجاهد ومقاتل : « على قدر » على وعد . وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذى قدرت لك أنك تحيى فيه . والمعنى واحد . أى جئت في الوقت الذى أرفقنا لإرسالك فيه . وقال الشاعر :

قال الخلافة أو كانت له قدراً • كما أتى ربّه موسى على قدر

قوله تعالى : (وَأَصْلَحْتَنكَ لِقَاسِي) قال ابن عباس : أى اصطفيتك لوحى ورسالتى . وقيل : « اصْلَحْتَنكَ » خلقتك ، مأخوذ من الصنعة . وقيل : قويتك وعلتك لتبلغ عبادى أمرى ونهى . (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي) قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التى أنزلت عليه . (وَلَا تَبَيَّا فِي كَرْبَى) قال ابن عباس : تضجفا أى في أمر الرسالة ، وقوله قتادة . وقيل : تفقرا . قال الشاعر :

فما ولى محمد مذلول غفر • له الإله ما مضى وما غفر

وَالْوَيْلُ الضَّعْفُ وَالْفَتْوَرُ، وَالْكَلالُ وَالْإِمْيَاءُ . وقال امرؤ القيس :
 يَسَّحُ إِذَا مَا السَّاحَاتُ عَلَى الْوَيْلِ . أَثَرَتْ غُبَارًا بِالْكَفِيدِ الْمَرْكَلِ^(١)
 وبغال: ونيت في الأمر أي ونيًا أي ضَعُفَتْ، فأما وإن وثاقه وآية وأويتها إذا اضطجعا
 وأتعبها . وغلان لا يني كذا، أي لا يزال، وبه فسر ابن معنى الآية واستشهد بقول طرفة :
 كَانَ الْقُدُورُ الرِّايَاتِ أَمَامَهُمْ . فَبَابُ بَنُوها لَا يَنِي أَبَدًا تَقِيلُ
 وعن ابن عباس أيضا : لا تبطلنا . وفي قراءة ابن مسعود : وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . ومجيدى
 ومجيدى وتبلغ رسالتى .

قوله تعالى : أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا
 لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١٨﴾
 فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَذْهَبَ) قال في أول الآية : « أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي »
 وقال هنا : « أَذْهَبَا » قيل : أمر الله تعالى موسى وهرون في هذه الآية بالفوز إلى دعوة
 فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تضرعا له ؛ ثم كرر للتأكيد . وقيل : بين بهذا أنه
 لا يكتفى بذهاب أحدهما . وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس ، والثاني بالذهاب
 إلى فرعون .

الثانية - في قوله تعالى : (قَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا) دليل على جواز الأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له المصحة، ألا تراه
 قال : « قَوْلَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا » . وقال : « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى » فكيف بنا فعن
 أولي بذلك . وحينئذ يحصل الأمر والناهي على مرغوبه، ويظهر بطلوبه؛ وهذا واضح .

(١) مسح مائة يصب الجرى ميا . والساحات اللزج عدود من سباحة ؛ والسباحة في الجرى بطن الأيدي .
 والكفيد : الموضع الضيق . والمركل : الذي يركل بالأرجل . ومعنى البيت : أن الخيل السريعة إذا تهرت فأثارت الفبار
 بأرجلها من التعب، جرى هذا القوم حريا سهلا .

الثالثة - واختف الناس في معنى قوله «لَيْتَا» فقالت فرقة منهم الكلبي وعكرمة : معناه تنبؤهما ، وقاله ابن عباس ومجاهد والسدي : ثم قيل : وكنيته أبو اليسار . وقيل : أبو الوليد . وقيل : أبو مرة ، فعل هذا القول تكتية للكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطمع بإسلامه . وقد يجوز ذلك وإن لم يطمع بإسلامه ، لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا . وقد قال صلى الله عليه وسلم «إنا أنكم كريم قوم فأكرموه» ولم يقل وإنا طمعت في إسلامه ، ومن الإكرام دعاؤه بالكنية . وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية : «اتزل أبا وهب» فكانه . وقال لعد : «ألم تسمع ما يقول أبو حبيب» يعني عبد الله بن أبي . وروى في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة ، لا يجد رسولا يبلغ كلاما حتى خرج . فخرى له ما قص الله علينا من ذلك ، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم مع الظالمين ، وربك أعلم بالمهتين . وقيل قال له موسى : قومن بما جئت به ، وتعبد رب العالمين ؛ على أن لك شيئا لا يهزم إلى الموت ، وملكا لا يرتع منك إلى الموت ، ونسأ في أجلك أربعمئة سنة ، فإذا مت دخلت الجنة . فهذا القول اللين . وقال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : «فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتُخْشَى» . وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يا فرعون إنا رسولا ربك رب العالمين . فسياء بهذا الاسم لأنه أحب إليه مما سواه مما قيل له ، كما يسمى عندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللين هو القول الذي لاختشونه فيه ؛ يقال : لان الشيء يلين لينا ، وشيء لين ولين مخفف منه ؛ والجمع ألياء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولنا لينا ، فمن دونه أخرى بأن يقتدى بذلك في خطابه ، وأمره بالمعروف في كلامه . وقد قال تعالى : «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا» . على ما تقدم في «البقرة» بيانه والمحمد لله .

الرابعة - قوله تعالى : «لَمَّا يَنْزَغُ الْوَيْحَى» معناه : على رجائكما وطمعكما ، فالوقوف فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر ؛ قاله كبراء النحويين : سيويه وغيره . وقد تقدم في أول «البقرة» . قال الزجاج : «لعل» لفظة طمع وترج تخاطبهم بما يقولون . وقيل : «لعل» هاهنا بمعنى (١) راجع ٢٣ ص ١٦ ، وما بعد طية ثانية . (٢) راجع ١٦ ص ٢٢٧ طية ثانية أرتاة .

الاستغناء، والمعنى فانظر هل يتذكر . وقيل : هو بمعنى كى . وقيل : هو اخبار من الله تعالى عن قول هرون لموسى لعله يتذكر أو يخشى ؛ قاله الحسن . وقيل : إن لعل وصى في جميع القرآن لما قد وقع . وقد تذكر فرعون حين أدركه الفرق وخشى فقال : « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ولكن لم ينفعه ذلك ؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره . وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية : هذا رفك بن يقول أنا الإله فكيف رفك بن يقول أنت الإله ١٩ . وقد قيل : إن فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه ، وشاور أمراءه فأمنت وأشارت عليه بالإيمان ، فشاور هامان فقال : لا تفعل ؛ بعد أن كنت مالكاً تصير مملوكاً ، وبعد أن كنت رباً تصير مروباً . وقال له : أنا أردك شاباً ، تخضب لحيتك بالنواد فهو أول من خضب .

قوله تعالى : **قَالَ رَبِّ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ٢٠**
قوله تعالى : **(قَالَ رَبِّ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)** قال الضحاك : « يُقْرِطُ » يتجمل . قال : و « يَطْغَى » يتدنى . النحاس : التقدير نخاف أن يقشط علينا منه أمر ، قال الفراء : قشط منه أمر أى بدرى قال : وأقشط أسرف . قال : وقشط ترك . وقراءة الجمهور « يُقْرِطُ » بفتح الياء وضم الزاء ، ومعناه يتجمل ويبادر بمقومتنا . يقال : قشط منى أمر أى بدرى ومنه القارط فى الماء الذى يتقدم القسوم إلى الماء . أى يذهبنا مذاب القارط فى الثوب وهو المتقدم فيه ؛ قاله المبرد . وقرأت فرقة منهم ابن عيصن « يُقْرِطُ » بفتح الياء والراء ؛ قال المهدي . ولعلنا لغة . وعنه أيضاً بضم الياء وفتح الزاء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا . وقرأت طائفة « يُقْرِطُ » بضم الياء وكسر الزاء ؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن عيصن أيضاً . ومعناه يشطط فى أديتنا ؛ قال الزجاج :

« قَدْ أَقْرِطَ الْمُنْجُ عَلَيْنَا وَغَجَلُ »

قوله تعالى : **قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرِئِي ٢١**

فيه مسائل :

الأولى - قال العلماء : لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهم حزنها الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه . وهذه الآية ترد على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وقهتهم . ولقد أحسن البصري رحمه الله حين قال للخبر عن عامر بن عبد الله - أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فقال الأسد بينهم وبين الماء ، بقاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته ، فقيل له : قد خاطرت بنفسك . فقال : لأن تختلف الأنسة في جوف أحب إلى من أن يسلم الله أني أخاف شيئا سواه - قد خاف من كان خيرا من عامر ، موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له : **إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ يَقْتُلُوكَ فَأَخْرُجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاسِ** . **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** . وقال : **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** . وقال حين أتى السحرة جالهم وعصيتهم : **« فَأَوْجَسَ فِي فِئَةٍ خِيفَةَ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى »** .

قلت : ومنه حذر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يحمله أحد من نحوهم عن منازلهم ، مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة ؛ مخوفا على أنفسهم من مشركي مكة ؛ وهربا بدينهم أن يفتنهم عنه بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عُميس لعمر لما قال لها سيقناكم بالمهجرة ، فجنح أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبت يا عمر ؛ كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطعم جائعكم ، ويعط جاهلكم ، وكنا في دار - أو أرض - البُداء البُضاء في الحبشة ؛ وذلك في الله ورسوله ؛ وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا قُودَى ونُخَافَ . الحديث بطوله أخرجه مسلم . قال العلماء : فالخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم

(١) البداء : أى في النسب . البيضاء : أى في الدين وقول أسماء : كذبت يا عمر أى أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

[طه] كاذب؛ وقد طبعهم على الحرب مما يضرمها ويذلها أو يبقها. قالوا: ولا ضار آخر من سبع عاد في قلاة من الأرض على من لا آله معه يدفعها عن نفسه، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

التائبة - قوله تعالى : (إِنِّي مَعَكُمْ) يريد بالنصر والمعوذة والنفرة على فرعون . وهذا كما تقول : الأمير مع فلان إذا أردت أنه يحبه . وقوله : (أَتَمَّ وَأَمَّ) عطية من الإدراك الذي لا تخفى معه خافية ، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتَّبِعِ الْهُدَى ① إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ② قَالَ قَمِنْ رَبِّكُمْ يَسْمُومِي ③ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ④

قوله تعالى : (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) في الكلام حذف ، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ) أي خلّ عنهم . (وَلَا تَعْذِيبُهُمْ) أي بالسخرة والتعب في العمل ، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد ؛ يذبح أبنائهم ، ويستحي نساءهم ، ويكفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المسدات ما لا يطيقونه . (قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ) قال ابن عباس : يريد العصا واليد . وقيل : إن فرعون قال له : وما هي ؟ فأدخل يده في جيب قميصه ، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع مثل شعاع الشمس ، غلب نورها على نور الشمس فحجب منها . ولم يره العصا إلا يوم الزينة . (وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتَّبِعِ الْهُدَى) قال الزجاج : أي من أتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه . قال : وليس بحجة ، والدليل على ذلك أنه ليس باستدعاء لقائه ولا خطاب .

الغراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى موله . (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ)
 بين الملاك والعمار في الدنيا والخلود في جهنم في الآخرة (عَلَى مَنْ كَذَّبَ) أي الله (وَقَوْلُ)
 أمرض عن الإيمان . وقال ابن عباس : هذه آية الوحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا .
 قوله فصل ، (قَالَ لَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى) ذكر فرعون موسى دونه هرون لرموس
 الآي . وقيل : خصمه بالكر لانه صاحب الرسالة والكلام والآية . وقيل : إنها جيا
 بلنا الرسالة وإن كانا ساكنا ، لأنه في وقت الكلام إنما يتكلم واحد ، فإذا أقطع وأزده الآخر
 وآيده . فصار لنا في هذا البناء فائدة علم ، أن الاثنين إنما قلنا أمرا مقام به أحدهما ، والآخر
 شخصه هناك موجود مستغنى عنه في وقت دون وقت أنهما أديا الأمر الذي قلنا وقاما به
 واستوجبا الثواب ، لأن الله تعالى قال ، « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » وقال ، « أَذْهَبَ أَنْتَ
 وَأَخُوكَ » وقال ، « قَوْلَا لَهُ » فأمرهما بجيا بالذهاب وبالقول ، ثم أعلمنا في وقت الخطاب
 بقوله : « قَنْ رَبُّكَ » أنه كان حاضرا مع موسى . (قَالَ) موسى : (رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ
 شَيْءٍ خَلْقَهُ) أي أنه يُعرف بصفاته ، وليس له اسم علم حتى يقال فلان ، بل هو خالق العالم ،
 وهو الذي خص كل مخلوق بيئة وصورة ، ولو كان الخطاب معهما لقالا ، قالا ربنا .
 « وَخَلَقَهُ » أول مفعول أعطى ، أي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتقدين به ،
 أو ثانيهما أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به ، حل قبول
 الضمك على ما يأتي . (ثُمَّ هَدَى) قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي : أعطى كل شيء
 زوجه من جنسه . ثم هداه إلى منكمه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وعن ابن عباس : ثم
 هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكة . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه ، وهدايه
 لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورة ، لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم ،
 ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرا . وقال الشاعر :
 وله في كل شيء خلقه . وكذلك الله ما شاء فصل

يعني بالخلق الصورة، وهو قول طلبة ومقاتل . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلقه من المضة المنوطة به المطابقة له . يعني اليد البطش ، والرجل النسي ، واللسان التلق ، والعين النظر ، والأذن السمع . وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة . وقال القرطبي : خلق الرجل المرأة ، ولكل ذكر ما يوافق من الإناث ، ثم هدى الذكر الأنثى . فالتقدير مل هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن جابر . والآية بجموعها تناول جميع الأكوال . وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ » بفتح الهمزة ، وهي قراءة ابن أبي إسحق . ورواهما نصير عن الكسائي وغيره ، أي أعطى بنى آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه . فالقراءتان متفقتان في المعنى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (قَالَ فَمَا بَالُ) البال الحال ؛ أي ما حالها وما شأنها ، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه ، وهو مما استتر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد متلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله في اللوح المحفوظ . وقيل : المعنى فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى لم يقرؤا بذلك . أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك . وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى ، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى ، ومحفوظة عنده في كتاب . أي هي مكتوبة فيسجلهم عنها بها وعليها . وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . وقيل : هو كتاب مع بعض الملائكة .
الثانية - هذه الآية ونظائرها مما تخدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكتبتها لثلاث تنس . فإن الحفظ قد تفرقه الآفات من النطق والنسيان . وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيد لئلا ينسب عنه . وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع

منك ؟ قال : وما يملك أن يكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ؛ فقال : « علمها عند ربّي في كتاب لا يضلّ ربّي ولا يَنْسَى » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي » . وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال : كان رجل من الأنصار يطلع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث ويسجده ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إني أسمع منك الحديث يسجني ولا أحفظه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استعن بيمينك » وأومأ إلى الخنط . وهذا نص . وعمل جواز كُتِبَ العلم وتلويته جمهور الصحابة والتابعين ؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم بكتِّب الخطبة التي خطب بها في الحج لأبي شاه — رجل من اليمن — لما سأله كتبتها . أخرجه مسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قِيلُوا لِمَنْ بِالْكِتَابَةِ » . وقال معاوية بن قُزَّة : من لم يكتب العلم لم يعلم علمه علما . وقد ذهب قوم إلى المنع من الكُتْب ؛ فروى أبو نصره قال قيل لأبي سعيد : أنكتب حديثكم هذا ؟ قال : لم يعملونه قرآنا ؟ ولكن أحفظوا كما حفظنا . ومن كان لا يكتب الشعبي ويونس بن هيد وخالد الحذاء — قال خالد : ما كتبت شيئا قط إلا حديثا واحدا ، فلما حفظته محوته — وآبن عون والزهرى . وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضَمْرَةَ . وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثا قط إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذاء مثل هذا . وحديث الأعماق أخرجه مسلم في آخر الكتاب : « لا تقوم الساعة حتى يترل الروم بالأعماق^(١) — أو — بدانيق » الحديث ذكره في كتاب الفتن . وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن أديس وهشام وغيرهم . وهذا احتياط على الحفظ . والكُتْب أدنى على الجملة ، وبه وردت الآي والأحاديث ؛ وهو مروى عن عمرو وعلي وجابر وأنس رضي الله عنهم ، ومن يلهم من كبار التابعين كالحسن

(١) الأعماق : موضع من أطراف المدينة ؛ بدانيق : اسم موضع سوق بيا . والله من الراوى .

وعطاء وطاوس وحرورية بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم، قال الله تعالى: «وكتبناه في الألواح من كل شيء». وقال تعالى: «وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون». وقال تعالى: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة الآية». وقال تعالى: «وكل شيء قلوه في الزبر. وكل صغير وكبير مستطر». وقال: «يطها عتري في ثياب» إلى غير هذا من الآي. وأيضاً فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمداينة والعهود والتحفظ والمذاكرة والسؤال والتقصص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، وإتباع الكتب من كره من الصدر الأول لقرب المهد، وتقارب الإسناد لثلا بتمتد الكتب فهمه، أو يرغب عن حفظه والعمل به؛ فأما الوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والثقة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون؛ فإن تهديد العلم بالكتاب أولى وأشد، والدليل على وجوبه أقوى؛ فإن أحجج حجج بحيث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليحرقه» نحرجه مسلم؛ فالجواب أن ذلك كان متقدماً؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحته لأبي شاذ وغيره. وأيضاً كان ذلك لثلا يغلط بالقرآن ما ليس منه. وكذا ما روى عن أبي سعيد أيضاً - حرصنا أن ياذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فأبى - إن كان محفوظاً فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن.

الثالثة - قال أبو بكر الخطيب: ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد؛ ثم الخبر خاصة دون المداد لأن السواد أصبح الألوان، والخبر أبقاها على مر الدهور. وهو آلة ذوى العلم، وعتة أهل المعرفة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حديث أبي قال: رأي الشافعي وأنا في مجلسه وعلى يميني جبر وأنا أخضيه؛ فقال: لم تخفيه وتستره؟ إن الخبر على التوب من المروءة لأن صورته في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض. وقال خالد بن يزيد: الخبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخلق في ثوب العروس. وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البلي قال:

مِدادُ الْحَبَائِرِ طِيبُ الرِّجَالِ • وَطِيبُ النِّسَاءِ مِنَ الزَّعْفَرَانِ

فَهَذَا يَلِيقُ بِأَثْوَابِ نَا • وَهَذَا يَلِيقُ بِثَوْبِ الْحَصَانِ

(١) لا فرق في الله بين المداد والخبر؛ ولعل المراد الكتابة بالخبر الأسود خاصة؛ فالفرقة بحسب اللون على ما يبدو.

(٢) الخلق: طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره.

وذكر الماوردي أن عبد الله بن سليمان فيا حكى رأى على بعض ثيابه أثر صفرة؛ فأخذ من مداد البعلة وطلاء به؛ ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران؛ وأنتد :

إِنَّمَا الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ الْمَنَارَى • وَمِدادُ الدَّوَى عِطْرُ الرِّجَالِ

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ اختلفت في معناه على أقوال خمسة؛ الأول : إنه ابتداء كلام ، تزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد كان الكلام تم في قوله : « في كتاب » . وكذا قال الزجاج ، وأن معنى « لا يضل » لا يهلك من قوله : « إِنَّمَا ضَلَّانَا فِي الْأَرْضِ » . « وَلَا يَنسَى » شيئاً؛ تزهه عن الهلاك والنسيان . القول الثاني : « لَا يَضِلُّ » لا يخطئ ؛ قاله ابن عباس ؛ أى لا يخطئ في التدبير ؛ فمن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله . القول الثالث : « لا يضل » لا يغيب . قال ابن الأعرابي : أصل الضلال النسيب ؛ يقال : ضلّ الناسى إذا غلب عنه حفظ الشيء . قال : ومعنى « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » أى لا يغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء . القول الرابع : قاله الزجاج أيضاً وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى - : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ؛ والمعنى ؛ لا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما عليه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابي . وقول خامس : إن « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » في موضع الصفة لـ « كتاب » أى الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أى غير ضال عنه . « وَلَا يَنسَى » أى غير ناسٍ له فهما نعتان لـ « كتاب » . وعمل هذا يكون الكلام متصلاً ، ولا يوقف على « كتاب » . تقول العرب : ضلّى الشيء إذا لم أجده ، وأضلته أنا إذا تركته في موضع فلم تجده فيه . وقرأ الحسن وقادة وعيسى بن عمرو ابن عيسى وطاسم المجندى وابن كثير فيا روى شبل عنه « لَا يَضِلُّ » بضم الاء على معنى لا يضيئه ربّي ولا ينساه . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد ؛ يقال : ضلّ عن الطريق ، وأضل الشيء إذا أضاعه . ومنه قرأ من قرأ « لَا يَضِلُّ رَبِّي » أى لا يضيغ ؛ هذا مذهب العرب .

قوله تعالى : **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَرَجَعَهَا إِلَى سَبِيلِهَا**
وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۝١٠
كُلُوا وَارْزُقُوا أَنتُمْ لَهَا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١١
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝١٢

قوله تعالى : (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا**) « الذي » في موضع نعت « لري »
 أي لا يضل ربي الذي جعل . ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمرة أي هو « الذي » .
 ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أفعلى . وقرأ الكوفيون « مهذا » هنا وفي « الزخرف » بفتح
 الميم واسكان الميم . الباقيون « مهذا » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأخافتهم على قراءة
 « ألم نجعل الأرض مهذا » . النحاس : وأجمع أولى لأن « مهذا » مصدر وليس هذا موضع
 مصدر إلا على حذف ، أي ذات مهد . المهدوي : ومن قرأ « مهذا » جاز أن يكون مصدرا
 كالقرش أي مهد لكم الأرض مهذا ؛ وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف ؛ أي ذات
 مهد . ومن قرأ « مهذا » جاز أن يكون مفعلا كالقراش . وجاز أن يكون جمع « مهده » استعمل
 استعمال الأسماء فكسر . ومعنى « مهذا » أي فراشا وقرارا تستقرون عليها . (**وَسَلَكُوكُمُ فِيهَا**
سُبُلًا) أي طرقا . نظيره « **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سَبِيلًا** » . لتسلطوا منها سبلا فباجا » .
 وقال تعالى : **وَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** . (**وَأَنزَلَ**
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) تقدم مائه . وهذا آخر كلام موسى ، ثم قال الله تعالى : (**فَأَنبَجْنَا بِهِ**) .
 وقيل : كله من كلام موسى ؛ والمعنى « فأخرجنا به » أي بالحرث والمطالبة ؛ لأن الماء المنزل
 سبب خروج النبات . ومعنى (**أَزْوَاجًا**) زوجا وأشياها ، أي إساقا من النبات المختلفة
 الأزواج والألوان . وقال الأخفش : التقدير أزواجا شتى من نبات . قال : وقد يكون
 النبات شتى ؛ ف« شتى » يجوز أن يكون نعتا لأزواج ، ويجوز أن يكون نعتا للنبات . و« شتى »

ما عوذ من شئ النوى، أى غرق . يقال : أمر شئ أى مضوق . وشئ الأمر شئاً وشئاً
تغرق ؛ وأستشئ منه . وكذلك التشت . وشئته تشيئته فقه . وأشت بى قومى أى ترقوا
إمرى . والتشت المضروق . قال رؤبة يصف إبلا :

جاءت مما وأطرفت شيتاً . وهى شير الساطع الشيتاً

وقتر شيت أى مفلج . وقوم شئ ، وأشياء شئ ، وتقول : جاءوا أشئاً ؛ أى مغرقين ؛
واحدم شئ ، قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَارْعُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أمر بإباحة . «وارعوا» من رعت الماشية الكلاء ،
فردعها صاحبها رعية ؛ أى أسامها وسرحها ؛ لازم ومنع . «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّبِيِّ»
أى العقول . الواحدة نية . قال لم ذلك ؛ لأنهم الذين ينهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم
ينبون النفس عن القبايح . وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون فى إتيان الصباح جواباً
لقوله : « قَنْ رَبُّكَ يَا مُوسَى » . وبين أنه إنما يستدل على الصباح اليوم بأفعاله .

قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض ؛ قاله أبو إسحق
الزجاج وغيره . وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن . وروى
أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا وقد دُر عليه من تراب
حُفْرَةٍ » أخرجه أبو نعيم الحافظ فى باب ابن مبرين ، وقال : هذا حديث غريب من حديث
عون لم نكتبه إلا من حديث أبى عاصم النبيل ، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة .
وقد مضى هذا المعنى مبيناً فى سورة «الأنعام» عن ابن مسعود . وقال عطاء الخراسانى : إذا
وقعت النطفة فى الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فينزه
على النطفة ، فيخلق الله النطفة من النطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُعْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » . وفى حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرّون بها على ملا من الملائكة

(١) الشيت : دقاق التراب ؛ وهو الخبار الشديد الارتفاع . ويزرى : « الشيتا » بالسين المعجمة ١٠

(٢) راجع ٦٥ ص ٢٨٧ وما بعدها طبعه أدل أوتانية .

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون قلان بن قلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونها بها في الدنيا فيستغفرون لها فيفتح فيشبعه من كل سماء يقربها إلى السماء التي عليها حتى يترى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل « اكسبوا العبدى كتابا في طين وأمدهم إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى » فصلد روجه في جسده « وذكر الحديث . وقد ذكرناه بتمامه في كتاب طه المذكور » وروى من حديث علي رضي الله عنه ؛ ذكره الثعلبي . ومعنى (وفيها تُبَدِّلُكُمْ) أى بعد الموت (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ) أى للبعث والحساب . (تَارَةً أُخْرَى) يرجع هذا إلى قوله : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ » إلى « تُبَدِّلُكُمْ » . وهو كقولك : اشتريت ثافة ودارا وثافة أخرى ؛ فاللهنى : من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۖ ٥١ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ۖ ٥٢ فَلَنَأَيُّبَنَّكَ بِسِحْرِ قَبْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا مَوْىً ۖ ٥٣ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ خَشْيَ ۖ ٥٤ فَتَنُوَكَّرُ فِرْعَوْنُ بِجَمْعٍ كَغَيْدِهِمْ ۖ ثُمَّ إِنَّكَ ۖ ٥٥ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَئى ۖ ٥٦

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا) أى المعجزات الدالة على نبوة موسى . وقيل : جمع الله الدالة على توحيده . (فَكَذَّبَ وَأَبَى) أى لم يؤمن . وهذا يدل على أنه كفر عتادا ؛ لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا . فظنهم « وَبَعَثُوا بِهَا وَاسْتَفْتَاهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا » .

قوله تعالى : (قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى) لما رأى الآيات التي آتاه بها موسى قال : إنها سحر ؛ والمعنى : جئت لئولم الناس أنك جئت بآية توجب لظلمتك والإيمان بك ، حتى تطلب على أرضنا وطينا . (فَلَنَأَيُّبَنَّكَ بِسِحْرِ قَبْلِهِ) أى لنعارضك

بجمل ما جئت به ليتين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله. (فاجعل بيننا وبينك موعداً) هو مصدره أى وعدنا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد؛ كما قال تعالى: «وإن جهنم لموعدهم أجمعين» فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد اسم لزمان الوعد؛ كقوله تعالى: «إن مواعيدهم الصبح» فالمنى؛ أجعل لنا يوماً معلوماً أو مكاناً معروفاً. قال القشيري؛ والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: (لأنه لا يخفى) أى لا يخفى ذلك الموعد، والإخلاف أنموذج شيئاً ولا يجهز. وقال الجوهري؛ والميعاد للمواعدة والوقت والموضع وكذلك الموعد. وقرأ أبو جعفر ابن القساق وشيبة والأمرج «لأنه لا يخفى» بالجزم جواباً لقوله «أجعل». ومن رفع فهو نصت له موعده. والتقدير: موعداً غير عتق. (مكناً سوى) قرأ ابن مامر وعاصم وحزرة «سوى» بضم السين. الباقيون بكسرها؛ وهما لفتان مثل عداً وعدنا وطوى وطوى. واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين لأنها اللفظة العالية الفصيحة. وقال النحاس؛ والكسر أحرف وأشهر. وكلهم يؤنوا الواو، وقد روى عن الحسن؛ واختلف عنه ضم السين بغير تنوين. واختلف في معناه فقيل: سوى هذا المكان؛ قاله الكلبي. وقيل: مكاناً مستويًا يبين للناس ما بيننا فيه؛ قاله ابن زيد. ابن عباس: نصفاً. مجاهد: منصفاً؛ وعنه أيضاً وقتادة عدلاً بيننا وبينك. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى «سوى» نصف وعدل وهو قول حسن؛ قال سيويه يقال: سوى وسوى أى عدل؛ بنى مكاناً عدلاً بين المكانين فيه النصفة؛ وأصله من فو لك: جلس في سواء النار بالمد أى في وسطها؛ ووسط كل شيء؛ أعدله؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «وَكذلك جعلناكم أئمةً وسطاً» أى عدلاً، وقال زهير:

أرؤنا خطبة لا ضم فيها • يسوى بيننا فيها السواء

وقال أبو عبيدة والفتي: وسطا بين الفريقين؛ وأتشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي؛

وإن أبانا مكان حل ببلدة • يسوى بين قيس قيس عيلان والفيزر

والفيزر: سعد بن زيد مائة بن تميم. وقال الأخفش: «يسوى» إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل يكون فيه ثلاث لغات: إن ضمنت السين أو كسرت قصرت فهما جيبا. وإن فتحت مددت، تقول: مكان يسوى وسوى وسواء؛ أى عدل ووسط فهما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

• وجدنا إنا كان حل يلهية •

اليت . وقيل : « مكانا سوى » أى قصدا ، وأند صاحب هذا القول :

لو تَمَنَّتْ حَيْثُ مَا هَدَيْتُ . أو تَمَنَّتْ مَا هَدَوْتُ يَوْمَها

وتقول : مررت برجل سواك وسواك أى فريك . وهما فى هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان . وهم سواء للجمع وهم أسواء ؛ وهم سواية مثل ثمانية على غير قياس . واتعصب « مكانا » على المفعول الثانى لـ « جعل » . ولا يحسن اتصافه بالموعد على أنه مفعول أو ظرف له ؛ لأن الموعد قد وصف ، والأسماء التى تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغرت لم يسغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل ، ولم يحسن حله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثانى ؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجزه العرب بحسبى المصادر مع الظرف ، لكنهم يتسمون فيه كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » و « مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ » . واشتق فى يوم الزينة ، فليل هو يوم عيد كان لهم يقرئون ويمتحنون فيه ؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : كان يوم عاشوراء . وقال سعيد بن المسيب : يوم سوق كان لهم يقرئون فيها ؛ وقاله قتادة أيضا . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيل : يوم اليومز ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : يوم يكسر فيه الخليج ؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرون ويستريحون ؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قبل الليل . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسلى وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزَّيْنَةِ » بالنصب . ورويت عن أبى عمرو ؛ أى فى يوم الزينة إنجاز موعدها . الباقر بالرفع على أنه خبر الابتداء . (وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ مَحَا) أى وجمع الناس ؛ فـ « أَنْ » فى موضع رفع على قراءة من قرأ « يَوْمَ » بالرفع . وعطف « وَأَنْ يُخَشِّرَ » بقوى قراءة الرفع ؛ لأن « أَنْ » لا تكون ظرفا . وإن كان المصدر المخرج يكون ظرفا تقدم الحاج ؛ لأن من قال : أتيتك مقدم الحاج لم يقل أتيتك أن يقدم الحاج . التماس : وأولى من هذا أن يكون فى موضع خفض عطفا على الزينة . والضم مؤنثة تصغيرها العرب بغير هاء فلا يشبه تصغيرها تصغير نخوة ؛ قاله التماس . وقال الجوهري :

صورة النهار بعد طلوع الشمس، ثم يله الضماء وهي حين تشرق الشمس؛ مقصورة توتنا
وتدعى في لغة نخب إلى أنها جمع ضومة؛ ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على قُل مثل صُرَد
وتُمر وهو على غير ممكن مثل صمر؛ تقول: لفته ضحاً؛ وضحاً إذا أردت به ضحاً يومك
لم تنوّه؛ ثم يله الضمضاء ممدود مذكّر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى. وخص الضملاء لأنه
لحق النهار فلهذا الأمر فيا بينهم كان في النهار متّح. وروى عن أبي مسعود والجحدري
وغيرهما: **وَلَا يَحْشُرُ النَّاسُ ضَحّاً** على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه. وعن بعض القراء
«وَأَنَّ عَشَرَ النَّاسِ» والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس. وعن الجحدري أيضاً
«وَأَنَّ عَشَرَ» بالنون. وإنما واعدكم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت
الكفر، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الفاسّ لتقوى رغبة من رغب
في الحق، ويكلّ حدّ المبطّلين وأشياعهم، ويكثر الحديث بذلك الأمر العلم في كل يدو وحضر.
ويشيع في جمع أهل الدير والمدن.

قوله تعالى: **(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ جَمْعَ كَيْدِهِ)** أي حيله ومحصره؛ والمراد بجمع السحرة.
قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحر منهم حبال ومعنى. وقيل: كانوا
أربعائة. وقيل: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: أربعة عشر ألفاً. وقال ابن المنكدر: كانوا
ثمانين ألفاً. وقيل: كانوا جميعين على رئيس يقال له شمون. وقيل: كان اسمه يوحنا معه
أثنا عشر ألفاً، مع كل قبيب عشرون ألفاً، مع كل عريف ألف ساحر. وقيل: كانوا
ثلاثة آلاف ساحر من القديم، وثلاثة آلاف ساحر من الصديد، وثلاثة آلاف ساحر من الريف،
فصاروا تسعة آلاف، وكان رئيسهم أعمى. **(ثُمَّ أَنَّى)** أي أتى الميعاد. **(قَالَ لَهُمْ مُوسَى)**
أي قال لفرعون والسحرة **(وَلْيَكُنْ)** دعاء عليهم بالويل. وهو بمعنى المصدر. وقال أبو إسحق
الزجاج: هو منصوب بمعنى ألزهم الله ويلاً. قال: ويجوز أن يكون نداه كقوله تعالى:
«يَا وَيْلًا مِّنْ بَنَاتٍ». **(لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)** أي لا تخلقوا عليه الكذب، ولا تتركوا به،
ولا تقولوا العجرات إنها صحر. **(فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حَبَاطٍ)** من عنده أي يستاصلكم بالإملاك.

يقال فيه : تمت وأتممت بمعنى . وأصله من استعماه لشجرة وقرا الكوفون ^(١) فَيَسْتَحْكَمُ
من أتممت ، الباقون «فَيَسْتَحْكَمُ» من تمت وهذه لغة أهل المجاز ^(٢) [الأولى لغة] بن نعيم .
واتصب على جواب التهي . وقال القرطبي :

وعن زيان بن مرون لم يدع . ^(٣) من الليل إلا سحبا أو مجلف ^(٤)

الزحشري : وهذا بيت لا تزال الركب تصطك في نسوة إمرائه . (وقد غاب من آخرى)
أي خسر وهلك ، وغاب من الرحمة والثواب من أدى على الله ما لم يأنذ به .

قوله تعالى : فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ مِنْهُمْ وَأَسْرُوا النِّجْوَى ^(٥) قَالُوا
إِنْ هَٰذَانِ لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِمَا وَيَذْهَبَا
بِعَظْمَيْتِكُمُ الْمَثَلِ ^(٦) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَقْلَحَ الْيَوْمَ
مِنْ أَسْطَلَى ^(٧)

قوله تعالى : (فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ مِنْهُمْ) أي تنازعوا ، يريد النجوة . (وَأَسْرُوا
النِّجْوَى) قال قتادة (قَالُوا) : إن كان ما جاء به محمداً فستلبه ، وإن كان من عند الله
فسيكون له أمر ، وهذا الذي أسروه . وقيل الذي أسروا قولهم : « إِنْ هَٰذَانِ لَسِحْرَانِ »
الآية ، قاله السدي ومقاتل . وقيل الذي أسروا قولهم : « إِنْ عَلَيْنَا آيَاتُهُ » قاله الكلبي ؛
دليله ما ظهر من عاقبة أمرهم . وقيل : كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى « وَلَكُمْ
لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كِتَابًا » : ما هذا بقول ساحر . و « النجوى » المناجاة يكون أسما ومصدرا ؛
وقد تقدم في « النساء » ^(٨) بيانه .

(١) الزيادة من كتب الضمير . (٢) ويرى : « إلا سحت » ومن رواه كذلك جعل سحتي « لم يدع »
لم يتنازع ومن رواه « إلا سحتا » جعل « لم يدع » بمعنى لم يترك . وروى « مجلف » بإضمار : كأنه قال : أوهر مجلف .
« اللسان » ، (٣) المجلف : الذي جفت معه قية . (٤) راجع - ص ٣٨٢ وما بعدها
لمعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : (إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) قرأ أبو عمرو : إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ . ورويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة ؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم من التابعين ؛ ومن القراء عيسى بن عمرو وعاصم الجهمدي ؛ فها ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصنف . وقرأ الزمري والتحليل بن أحد والمفضل وأبان وابن عيص بن كثير وعاصم في رواية حفص عنه : « إِنَّ هَذَانِ » بتثنية . « إِنْ » لساحران . وابن كثير يشددون « هَذَا » . وهذه القراءة سلبت من مخالفة المصنف ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران . وقرأ المدنيون والكوفيون : « إِنَّ هَذَيْنِ » بتشديد « إِنْ » « لساحران » فوافقوا المصنف وخالفوا الإعراب . قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : « إِنَّ هَذَيْنِ إِلَّا سَاحِرَانِ » وقال الكسائي في قراءة عبد الله : « إِنَّ هَذَيْنِ سَاحِرَانِ » بغير لام ، وقال القراء في حرف أبي : « إِنَّ ذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ » فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها مخالفتها المصنف .

قلت : وللماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب الرد له ، والنحاس في إعرابه ، والمهدوي في تفسيره ، وغيرهم أدخل كلام بعضهم في بعض . وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو : إني لأستحي من الله أن أقرأ : « إِنَّ هَذَانِ » : وروى حمزة عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى : « لَيْكِنِ الرَّاحِطُونَ فِي الْعِلْمِ » ثم قال : « والمقيمين » وفي « المائدة » « إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ » و « إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ » فقالت : يا بن أخي ! هذا خطأ من الكتاب . وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : في المصنف لمن يستقيمه العرب بالستم . وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبي عثمان بن عفان ، فقال : لمن خطأ ؛ فقال له قائل : ألا تسموه ؟ فقال : دَعُوهُ فإنه لا يحزم حلالا ولا يحل حراما . القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بني الحارث بن كعب وزيد وخثعم وكانه بن زيد يعملون رفع الإثنين ونصبه وخفضه بالالف ؛

يقولون : جاء الزبدان ورأيت الزبدان وصدرت بلزبدان ، ومع قوله تعالى : **هَؤُلَاءِ أَقْرَبُكُمْ بِهِ**
عَلَى مَا تَقُولُمْ . واتشد القول لرجل من بني أسد ^(١) . قال : وما رأيت أنصح به :
فَأُطْرُقُ إِطْرَاقَ الشَّجَاعِ . ولو يرى . **تَسَاقًا لِنَابَهُ الشَّجَاعُ لَصَمًا**^(٢)
ويقولون : كسرت يده وركبت ملاء ، بمعنى يديه وعليه ، قال شاعرهم :
تَرَوْدُ مَيَاتَيْنِ أَذْنَاهُ ضَرْبَةً . دعه إلى هبابي التراب غيسم
وقال آخر ^(٣) : **طَارُوا عَلَاهُنْ قَطَرٌ مَلَاهَا** .
أى طين وعليها .

وقال آخر : **إِنِّ أَبَاها وَأَبَا إِبَاهَا** . قد بلغنا في الحميد غايتها
أى إن أبا أيها وغايتها . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ؛
إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاهما من يرتضى بعلمه وأمانته ؛ منهم أبو زيد الأنصاري ،
وهو الذى يقول : إذا قال سيويه حدثني من أتق به فإنا يعنى ، وأبو الخطاب الأخصس
وهو رئيس من رؤساء اللغة ، والكسائي والقراء كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب .
وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب أن هذه لغة بني كنانة . المهدوي : وحكى غيره أنها لغة
تلخيم . قال النحاس ومن أين ما في هذا قول سيويه : وأعلم أنك إذا ثبت الواحد زدت
عليه زائدين ، الأولى منهما حرف مد ولين وهو حرف الإعراب ؛ قال أبو جعفر فقول
سيويه : وهو حرف الإعراب ، يوجب أن الأصل ألا يتغير ، فيكون « **إِنَّ هَذَانِ** » جاء

(١) راجع - ص ٨ - ٣٢٠ وما بعدها طيبة . أول أو ثانية . (٢) هو التمس كافي « الكذ » .
(٣) سم الشجاع في عنقه : أى عنى زين ظر يرسل ما عنى . (٤) هو هو ير الحارثي . والمهني
من القرب ما ارتفع ودق . (٥) قيل : هو ليس أهل اليمن ، وإن قبله :
أى قتلوس واصلب زاهما . طاروا علاهن فطر علاهما
وأشدد بيني حلق خواها . واجبة وساجبها إياه
والخمر : الخامرة . وقابجة : الرصة . (٦) فب الموهري لأبي التميم ، وإن قبله :
واها لسلبي تم واها واها . هي المني لو أنسا قلهاها
يا ليت عياها شا وقهاها . بتمن رضى به أهاها
إن إياهما ... الخ . وتبه بضمهم لزجة . وقيل : ليس أهل اليمن ؛ وأن قبله :
أى قتلوس واصلب زاهما . طاروا علاهن ... الخ .

على أصله يعلم فك ، وقد قال تعالى : « أَسْتَحْذِرُ لَكُمْ الشَّيْطَانَ » ولم يقل أستاذ ، بقاء
 هذا يدل على الأصل ، وكذلك « إِنَّ هَٰذَا » ولا يصح أن ينكر من أنكر هذه اللفظة إذا كان
 الأئمة قد رويها . القول الثاني : أن يكون « إِنْ » بمعنى نعم ، كما حكى الكسائي عن ماصم
 قال : العرب تأتي بـ « إِنْ » بمعنى نعم ، وحكى سيويه أن « إِنْ » تأتي بمعنى أجل ، وإلى
 هذا القول كان محمد بن يزيد ، وإسماعيل بن إسحق القاسمي يذهبان ؛ قال النحاس : ورايت
 أبا إسحق المزجاج وعلي بن سليمان يذهبان إليه . الرغشري : وقد أعجب به أبو إسحق .
 النحاس : وحدثنا علي بن سليمان ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النساوري ،
 ثم لقيت عبد الله بن أحمد [هذا] فحدثني ، قال حدثني عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد بن
 موسى التوفلي من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمرو بن جريح الكوفي عن جعفر بن
 محمد عن أبيه عن علي - وهو ابن الحسين - عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضوان الله
 عليهم أجمعين ، قال : لا أحصى كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره :
 « إِنَّ الْحَمْدَ لله حمده ونسبته » ثم يقول : « أَنَا أَفْصَحُ قَرِيشَ كُلِّهَا وَأَفْصَحُهَا بَعْدِي أَبَانُ بْنُ
 سَعِيدِ بْنِ الْمَاصِ » قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو « إِنْ
 الْحَمْدُ لله » بالنصب إلا أن العرب تجعل « إِنْ » في معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم
 نعم الحمد لله ، وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتح خطبها بنعم . وقال الشاعر في معنى نعم :
 قَالُوا غَدَرْتُ قَتَلْتُ إِنْ وَرَبِّيَا • نَالَ السُّلَا وَشَفَى الْقَلِيلَ الْفَادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

بَكَرَ الْوَأْدُ فِي الصَّبَا • جَ يَلْتَنِي وَالْوُؤْهَنَةُ

وَقَلَنْ شَيْبٌ قَدْ عَلَا • لَكَ وَقَدْ كَبِرَتْ قَتْلُ إِنْهُ

فصل هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : « إِنَّ هَٰذَا لَشَايِرَانِ » بمعنى نعم ولا تنصب .

قال النحاس : أنشدني داود بن المهيم ، قال أنشدني ثعلب

لَيْتَ شَعْرِي هَلِ الْحَبُّ شَفَاءُ • مِنْ جَوَى حَبْنِ إِنْ الْقَاءُ

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئا لأنه إنما يقال : نعم زيد خارج ، ولا تكاد تقع
اللام هاء ، وإن كان النحويون قد تكلموا في ذلك فقالوا : اللام بنوى بها التقديم ، كما قال :

خَالِي لَأَنْتَ وَمَنْ جَرِيرٌ خَالُهُ • يَنْبُلُ الْقَلَاءَ وَيُكْرِمُ الْأَخْوَالَ

أخسر :

أَمْ الْخُلَيْسَ لَجُورٌ شَهْرِيَّةٌ • تَرْضَى مِنَ الشَّاةِ بَطْنُ الرِّقْبَةِ

أى لخلى ولأم الخليس ، وقال الزجاج : والمعنى في الآية إن هذان لما سارحان ثم حذف
المبتدأ . المهدوى : وأكره أبو علي وأبو الفتح بن جني . قال أبو الفتح : « هما » المحذوف
لم يحذف إلا بعد أن عُرِفَ ، وإذا كان معروفا فقد استغنى بمرثته عن تأكيد باللام ، ويصح
أن تحذف المؤكد وتترك المؤكَّد . القول الثالث قاله الفراء أيضا : وجدت الألف دعامة ليست
بلام الفعل ، فزدت عليها نونا ولم أغيرها ، كما قلت : « الذى » ثم زدت عليه نونا فقلت :
جاءنى الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، وصردت بالذين عندك . القول الرابع قاله بعض
الكوفيين ، قال : الألف في « هذان » مشبهة بالألف في بعلان ، فلم تغير . القول الخامس :
قال أبو إسحق : النحويون القدماء يقولون الهاء هاءتا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان
لسارحان ، قال ابن الأثير : فاضمورت الهاء التى هى منصوب « إن » و « هذان » خبر
« إن » و « سارحان » يرضها « هما » المضمر [والتقدير] إنه هذان لما سارحان . والأشبه
عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم « إن » و « هذان » رفع بالابتداء وما بعده خبر
الابتداء . القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ،
فقال : إن شئت أجبتك بحواب النحويين ، وإن شئت أجبتك بقولى ، فقلت : بقولك ،
فقال : سألتى إسماعيل بن إسحق عنها فقلت : القول عندى أنه لما كان يقال « هذان » في موضع
الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت الثانية يجب ألا يضرها الواحد ، أجرت
الثنية بجرى الواحدة ، فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ، قال
ابن كيسان : قلت له : فيقول القاضى به حتى يؤنس به ، فيبسم .

قوله تعالى : (رُبَّانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِإِغْرِهِمَا وَيُقَيِّبَا طَرِيقَكَ الْمَثَلِ)
 هذا من قول فرعون للسحرة ؛ أى غرضهما إفساد دينكم الذى أتم عليه ؛ كما قال فرعون :
 « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ لَوْ أَنْ يَطَّهِّرُنِي الْأَرْضُ الْقَسَادَ » . وقال : فلان حسن الطريقة
 أى حسن المذهب . وقيل : طريقة القوم أفضل القول ؛ وهذا الذى ينبغي أن يسلكوا
 طريقته ويقتدوا به ؛ قاله ؛ وينبغي إبادتكم ورؤسائكم ؛ أسئلة لهم . أو ينبغي بنى
 إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأبناء .
 أو ينبغي بأهل طريقكم تحذف المضاف . وه المثل . تأنيث الأماثل ؛ كما يقال الأفضل
 والفضل . وانت الطريقة على القطف ، وإن كان يراد بها الرجال . ويجوز أن يكون التأنيث
 على الجملة . وقال الكسائي : « بطريقكم » بستمكم وسمتكم . وه المثل . نعم كقوك
 امرأة كبرى . تقول العرب : فلان على الطريقة المثل يستون على الهدى المستقيم .

قوله تعالى : (فَاجْتَمِعُوا كَيْدَكُمْ) الإجماع الإحكام والعزم على الشيء . تقول : أجمعت
 الخروج وعلى الخروج أى عزمت . وقراءة كل الأمصار « فَاجْتَمِعُوا » إلا أبو عمرو فإنه قرأ
 « فَاجْتَمِعُوا » بالوصل وفتح الميم . واحتج بقوله : « بَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » . قال النحاس
 وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف فراءته هذه ،
 وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . قال : لأنه احتج بـ « جمع » وقوله عز وجل :
 « بَجَمَعَ كَيْدَهُ » قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده « فَاجْتَمِعُوا » ويقرب أن يكون بعده « فَاجْتَمِعُوا »
 أى أعزموا ووجدوا ؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال : أمر بجمع
 ويجمع عليه . قال النحاس : ويصح قراءة أبى عمرو « فَاجْتَمِعُوا » أى أجمعوا كل كيد لكم
 وكل حيلة ففضموا مع أخيه . وقاله أبو إسحق . التلوي : القراءة بقطع الالف وكسر الميم
 لها وجهان : أحدهما - بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشيء وجمسته بمعنى واحد ،
 وفى الصحاح : وأجمعت الشيء جعلته جيماء ؛ قال أبو ذؤيب يصف حماراً :

فكانتها بالخرز بين تبايع^(١) . وأوليات ذى العرجاء تهب بجمع

(١) تبايع : اسم مكان أو جبل أو راد في بلاد هذيل ، ويجمع على « تبايات » .

أى مجموع . والثاني - أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر :

بأيت شعري والمضى لا تنفع . هل أغنوني يوماً وأمري مجتفع

أى تحكم . (ثُمَّ أَتُوا صَفَا) قال مقاتل والكلبي : جعيا . وقيل : صفوا ليكون أشد لهيكم . وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبى صيدة؛ قال يقال : أتيت الصف ببنى المصل؛ فالمنى عنده أتوا الموضع الذى يجتمعون فيه يوم العيد . وحكى من بعض فصحاء العرب : ما قدرت أن أتى الصف؛ بنى المصل . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المنى ثم أتوا والناس مصطفون؛ فيكون على هذا مصدرا في موضع الحال . وقلنا لم يجمع . وقرأ « ثُمَّ أَتُوا » بكسر الميم وياء . ومن ترك المزأ بدل من المزة البقا . (وَقَدْ أَقْلَعَ الْيَوْمَ مَنَ اسْتَقَلَ) أى من غلب . وهذا كله من قول النخرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

قوله تعالى : قَالُوا يَسْمُوْنَ إِمَّا أَنْ تُنْفِىَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ نَلِىَ ٥٦ قَالَ بَلْ أَقْتُوا فَأَذَا جَاهُهُمْ وَعِصِيَهُمْ يُجَلُّ إِلَيْهِ مِنْ حَيْرِهِمْ أَنَهَا تَسْعَى ٥٧ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٥٨ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ٥٩ وَالَّذِى مَافِ يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِمَّا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ٦٠ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ تَجَدَّاهُ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ٦١ قَالَ ءَاَمْتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَّا لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكَ السَّحَرَ فَلَا تُقِطْعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمَنَّ آيَاتُ أَشَدَّ عَذَابًا وَابَقَ ٦٢

قوله تعالى : (قَالُوا يَا مُوسَى ارْمِ السَّحَرَةَ) . (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْجِي) . فقال من يدك
 (وَإِنَّمَا أَنْتَ تُكُونُ لِقَوْمٍ لَّا يَلْقَوْنَكَ) . نادى مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم . (فَلَمَّا بَلَغُوا
 قَارُونَ جَاهِلُهُمْ) في الكلام حذف ، أى فالتقوا ، دل عليه المعنى . وقرأ الحسن (وَصِصْهُمْ)
 بضم السين . قال هرون القلبي : لفظة بنى تميم « وَصِصْهُمْ » وبها يأخذ الحسن . الباقون
 بالكسر إبتاء لكثرة الصاد . ونحوه دُلِّيَ ودُلِّيَ وقُصِيَ وقُصِيَ . (يُخِيلُ إِلَهُهُ مِنْ يَحْيِيهِمْ)
 تُسَيِّئُ . وقرأ ابن عباس وأبو حنيفة وابن ذكوان وروح عن يعقوب « تُخِيلُ » بالياء ،
 ورواه إلى المعنى . والحبال إذ هي مؤنثة . وذلك أنهم أطعوا المعنى بالزنى ، فلما أصابها
 حر الشمس كثرته وكمته . قال الكلبي : خِيلَ إلى موسى أن الأرض حيات وإنها
 تسى على بطنها . وقرئ « تُخِيلُ » بمعنى تخيل وطريقه طريق « تُخِيلُ » ومن قرأ « يُخِيلُ »
 بالياء رده إلى الكيد . وقرئ « تُخِيلُ » بالنون على أن الله هو الخيل للجنة والأبلاء . وقيل :
 الفاعل « أَنَّهَا تُسَيِّئُ » . ف « أَنَّ » في موضع رفع ، أى يخيل إليه سعيها ، قاله الزجاج .
 وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب ، أى بأنها ثم حذف الباء . والمعنى في الوجه الأول :
 تسببه إليه من محرم وكيدهم حتى ظن أنها تسى . وقال الزجاج : ومن قرأ بالياء جعل « أَنَّ »
 في موضع نصب أى تخيل إليه ذات سعى . قال : ويجوز أن تكون في موضع رفع بدلا من الضمير
 في « تُخِيلُ » وهو عائد على الحبال والمعنى ، والبدل فيه بدل اشتغال . و « تسى » معناه تمسى .

قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) أى اضمر . وقيل : وجد . وقيل :
 احس . أى من الخيات وذلك على ما يمرض من طباع البشر على ما تقدم . وقيل : خاف
 أن يفتن الناس قبل أن يلقي عصاه . وقيل : خاف حين أبطا عليه الوحى بإلقاء العصا أن يفرق
 الناس قبل ذلك فيقتتوا . وقال بعض أهل الحقائق : إنما كان السبب أن موسى عليه السلام
 لما أتى بالسحرة وقال لهم : « وَلَكُمْ لَا تَنْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَظَكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » . التفت فإذا
 جبريل على يمينه فقال له يا موسى ترقق بأولياء الله . فقال موسى : يا جبريل هؤلاء سحرة
 جاءوا يسحر عظمي ليطلوا المسجرة ، وينصروا دين فرعون ، ويطردوا دين الله ، تقول : ترقق

بأوليه الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك ، وبعد صلاة العصر في الجنة . فلما قال له ذلك ، أوجس في نفس موسى ، وخطر أن يأيدوه ما علم الله في ، فغسل أكرن الآن في حالة ، ويعلم الله في على خلاها كما كان هؤلاء . فلما علم الله ما في قلبه لوس الله إليه (لَا تَحْقُبَنَّ الْإِنْسَانُ أَنْتَ الْأَعْلَى) أى الغالب لم في الدنيا ، وفي الدرجات السلا في الجنة ، النبوة والمصطفاه الذي آتاك الله به . وأصل « خيفة » خوفه فأغلقت الروايات لا تكسار الحاء .

قوله تعالى : (وَأَتَى مَائِي يَمِيكَ تَلَقَّفَ مَاصْتَوَا) ولم يقل وأتى صاك ، بخلاف أن يكون تصغيرا لها ، أى لا تبال بكتة جالم ومصيم ، وأتى التويد القرد الصغير الحرم الذي في يمينك ، فإنه بحدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجاز أن يكون تطليا لها أى لا تعفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها ، وهذه كل كثرتها أقل شيء وأثره عندنا ، فأنه يتلقفها بأذن الله ويعقها . و « تَلَقَّفَ » بالجزم جواب الأمر ، كأنه قال : إن تلقه تلتقف ، أى تأخذ وتبلغ . وقرأ السلي وحفص « تَلَقَّفَ » ساكنة اللام من قَيْف يَلْقَفُ لَقْفًا . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوه الناصي ويحيى بن الحرث « تَلَقَّفَ » بحذف التاء ورفع الفاء ، على معنى فإنها تلتقف . والمحطاب لموسى . وقيل : المعصا . والتلقف الأخذ بسرمة . يقال : لَقِفْتُ الشيء (بالكسر) القفه لَقْفًا ، وتلقفته أيضا أى تناولته بسرمة . عن يعقوب : يقال رجل لَقِيفٌ يَقِفُ أى خفيف حاذق . والتلقف (بالتحريك) سقوط الحائط . ولقد لَقِفَ الحوضُ لَقْفًا أى تَوَرَمَ أسفلهُ وأنع . وتلقف وتلقم وتلقم بمعنى . وقد مضى في « الأعراف » . قيمت الأكمة (بالكسر) لَقَا ، وتلقمتها إذا ابتلعها في مهلة . وكذلك لِمَمَه (بالكسر) إذا ابتلمه . (مَاصْتَوَا) أى الذى صنوه وكفا (إِنَّمَا صَوَّأ) أى إن الذى صنوه . (كَيْدٌ) بالرفع (يحير) بكسر السين وإسكان الحاء ، وهى قراءة الكوفيين إلا عاصما . وفيه وجهان : أحدهما — أن يكون الكيد مضافا إلى السحر

(١) «تلقف» بالتشديد قراءة «تلقف» : (٢) راجع ٧٠ ص ٢٥٩ وما بعدها طبعه أولى أو ثانية .

على الإتيان من غير تقدير حذف . والثاني - أن يكون في الكلام حذف أى كيد ذى سحر .
 وقرأ الباقون « كيد » بالتصغير بفتح السين طيه ، و « ماء » كافة ولا تضمر هذه « سحر »
 بالإضافة . ولكيد في الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر . ويجوز فتح « الله »
 على سنى لأن ملصقوا كيد سحر . (وَلَا يُقْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) أى لا يفوز ولا يجبر
 حيث أتى من الأرض . وقيل ، حيث احتال . وقد مضى في « البقرة » حكم السحر ومعنى
 السحر فانه هناك .

قوله تعالى : (فَلَمَّا السَّحَرَةُ سَجَدًا) لما رأوا من عظم الأمر ونزق العدة في السماء
 لأنها أبطلت جميع ما احتلوا به من الجبال والمعصى ؛ وكانت حل ثلثة بيوتهم صبا
 لا يعلم أحد أين ذهبت الجبال والمعصى إلا الله تعالى . وقد مضى في « الأعراف » هذا المعنى
 وأمر العصا مسوق . (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنَتْ لَهُ) أى به ؛ يقال :
 آمن له وآمن به ؛ ومنه « قَاتِنٌ لَهُ لُوطٌ » وفي الأعراف « قَالَ آمَنَتْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آتَنَّاكُمْ » .
 إنكار منه عليهم ؛ أى تدينهم وفعلهم ما لم آمركم به . (إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ الَّذِي عَلَّمَكَ السَّحَرَ) .
 أى رئيسكم في التحليم ، وإنما غلبكم لأنه أحق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه
 حل الناس حتى لا يتبعوه فيؤمنوا كل ما يأنهم ، وإلا قد علم فرعون أنهم لم يتطوعوا من موسى ،
 بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته . (فَلَا تَقْطَعْنَ أَيِّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ
 وَلَا صَلْبِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) أى على جذوع النخل . قال سويد بن أبي كاهل :
 ثُمَّ صَلَّبُوا الْعَبْدَى فِي جُذُعِ نَخْلَةٍ . فَلَا تَقْطَعْنَ شَيْئًا إِلَّا بِأُجْدَا

فقطع وصلب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى . وقرأ ابن محيصن هنا وفي الأعراف « فَلَا تَقْطَعْنَ » ،
 « وَلَا صَلْبِكُمْ » بفتح الألف والتخفيف من قطع وصلب . (وَلَتَقْنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَنَّى)
 يبنى أنا أم رب موسى .

(١) العبارة هنا على إطلاقها قيد أن هذه قراءة الجمهور ، والجمهور قرأ « كيد سحر » بفتح « كيد » كما في « البحر »
 وغيره ، قال في البحر : وقرأ الجمهور « كيد » بالرفع . (٢) راجع ٢٠٢ ص ٤٢٢ وما بعدها طية ثانية أو ثالثة .
 (٣) راجع ٧ ص ٢٥٩ طية أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي
 فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٦﴾
 إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ
 وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْتِئَنَّا ﴿٦٧﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ نَجْزِيًا فَإِنْ لَهُمْ جَهَنَّمُ لَا بُدَّ لَهُمْ
 فِيهَا وَلَا يَخْشَوْنَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ
 لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٦٩﴾ جَنَّاتٌ عَنْدَ تَاجِرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : (قَالُوا) بنى السحرة (لَنْ نُؤْثِرَكَ) أى لن نخسارك (عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
 الْبَيِّنَاتِ) قال ابن عباس : يريد من البقين والعلم . وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أوام
 الله في سجودهم منازلهم في الجنة ؛ فلهذا قالوا هـ لن نُؤْثِرَكَ . وكانت امرأة فرعون تسال من
 غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهرون ؛ فقالت : أنت برب موسى وهرون . فأرسل
 إليهما فرعون فقال : أنظروا أعظم سحرة فإن مضت على قولها فاقولوها عليها ؛ فلما أتوها
 رفضت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلا في الجنة ، فرفضت على قولها فاتزع روحها ، وألقيت
 السحرة على جسدها وليس في جسدها روح . وقيل : قال مفسر السحرة لمن يثق به
 لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوف فتكون جينا أو لم تخوف
 فهي من صنعة الصانع الذى لا يعزب عليه مصنوع ؛ قال : ما تخوف ؛ فقال : أنت
 برب هرون وموسى . (وَالَّذِي فَطَرَنَا) قيل : هو معطوف على « مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ »
 أى لن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَلَا عَلَى الَّذِي فَطَرَنَا أى خلقنا . وقيل : هو قسم
 أى والله لن نُؤْثِرَكَ . (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ) التقدير ما أنت قاضيه . وليس هـ ما هـا هنا
 التى تكون مع الفعل بمنزلة المصدر ؛ لأن تلك توصل بالأفعال ، وهذه موصولة بابتداء وغيره .

(١) في نسخة « دحيمت » — أول تخوف — يا نعيم — يا نعيم .

قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع . وقيل : فاحكم ما أنت حاكم ، أى من القطع والصلب .
وحذفت الياء من قاض في الوصل لسكونها وسكون التنوين . واختار سيويه إثباتها في الوقف
لأنه قد زالت بلة الساكنين . (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى إنما يتخذ أمرك فيها .
وهى منصوبة على الظرف ، والمعنى : إنما تقضى في متاع هذه الحياة الدنيا . أو وقت هذه
الحياة الدنيا ، فتقدر حذف المفعول . ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضى أمور هذه الحياة
الدنيا ، فتتصبب انتصاب المفعول و « ما » كافة لأن . وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل « ما »
بمعنى الذى وتحذف الماء من تقضى وروعت « هذه الحياة الدنيا » . (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا)
أى صدقنا بآله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى (لِيَقُولَ لَنَا خَطَايَانَا) يريدون الشرك
الذى كانوا عليه . (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ) « ما » فى موضع نصب معلقة على الخطايا .
وقيل : لاموضع لما وهى نافية ، أى ليفر لنا خطايانا من السحر وما أكرهتنا عليه . الناس :
والأول أولى . المهمل : وفيه بعد ، لقولهم : « إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » وليس
هنا بقول مكرهين ، ولأن الإكراه ليس بذنوب ، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه
صغاراً . قال الحسن : كانوا يعلمون السحر أطفالاً ثم عملوه مختارين بعد . ويجوز أن يكون
« ما » فى موضع رفع بالابتداء ويضمر الظير ، والتقدير : وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع
عنا . و « من السحر » على هذا القول والقول الأول يتلاقى ب « ما أكرهتنا » . وعلى أنه
« ما » نافية يتلاقى ب « خطايانا » . (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) أى توابه خير وأبقى لحذف المضاف ؛
قاله ابن عباس . وقيل : الله خير لك منك وأبقى عذاباً لك من عذابك لنا . وهو جواب قوله :
« وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » وقيل : الله خير لنا إن أظمتنا ، وأبقى عذاباً منك إن عصيتنا .
قوله تعالى : (إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يُجْرِمُوا) قيل : هو من قول السحرة لما آمنوا . وقيل :
ابتداء كلام من الله عز وجل . والكتابة فى « إنه » ترجع إلى الأمر والثانى . ويجوز إن
من يأت ، ومنه قول الشاعر :

إِنَّ مِنْ يَدْخُلُ الْكَيْسَةَ يَوْمًا . يَلْقَى فِيهَا جَانِدًا وَنَلْبًا .

(١) البيت للأخطل وهو نصراني .

أراد أنه من يدخل؛ أى إن الأمر هذا؛ وهو أن الجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة .
والجرم الكافر . وقيل : الذى يتصرف الماصى ويكتسبها . والأول أشبه؛ لقوله : ﴿ قُلْ لَهُ
جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ وهذه صفة الكافر المكتئب الماحد - هل ما تقدم بيانه
في سورة « النساء » وضربها - فلا ينعش بجناحه ولا يستريح بموته . قال الشاعر :
ألا من لئس لا يموت فيغضى . شقاه ولا يحيا حيلة لها علم

وقيل : نفس الكافر معلقة في حجرته ؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفرافقها، ولا يحيا
باستقرارها . ومعنى « مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا » من يأت موعده . ومعنى ﴿ وَمَنْ يَأْتِهُ مُؤْمِنًا ﴾
أى يمت عليه ويوافيه مصداقه . ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ أى وقد عمل ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الطاعات
وما أمر به ونهى عنه ، ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ أى الرفعة التى نصرت دونها
الصفات . ودل قوله : « وَمَنْ يَأْتِهُ مُؤْمِنًا » على أن المراد بالجرم المشرك .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات وبدل منها، والتدنى الإقامة؛ وقد تقدم^(١)
بيانه . ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غرفها وسرورها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ من النهر والصل
واللين والماء، وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ما كين دائمين . ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾
أى من تطهر من الكفر والمعاصى . ومن قال هذا من قول السحرة قال : لعل السحرة سمعه
من موسى، أو من بنى إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون .
قلت : ويحتمل أن يكون ذلك إلها من الله لم أنطقهم بذلك لما آمنوا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
يُجْنَدُهُ فَعَسِيَمْ مِنْ آلِهِمْ مَا عَسَيْهِمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ تقدم الكلام في هذا مستوى .
﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أى يسا لا طين فيه ولا ماء؛ وقد مضى في « البقرة »

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٩٦ طبعه أول مرة - (٢) ج ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعه ثانية أمانة .

ضرب موسى البحر وكنت له ، وإخراق فرعون لاسن للامعة . (لا تخلف دركا)
 أي خلطاً من فرعون وجهه . (ولا تخشى) قال ابن جريح قال أصحاب موسى : هذا فرعون
 قد أمرك ، وهذا البحر قد خشيت ، فأنزل الله تعالى : لا تخلف دركا ولا تخشى . أي لا تخلف
 دركا من فرعون ولا تخشى طرعا من البحر أن يمسك إن خشيت . وقرا حمزة : لا تخف .
 حل أنه جواب للأمر . التقدير إن ضرب لم طريقا في البحر لا تخف . و لا تخشى .
 مستأنف حل تقدير . ولا أنت تخشى . أو يكون مجزوما والألف مشبهة من قصة ، كقوله :
 « قلنا لآلِهَيْهِمْ » أو يكون على حد قول الشاعر :

كأن لم ترى قبل أسيا يمينا .

حل تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح . وهذا منقوب القراء . وقال آخر :

قيوت زيان ثم جئت مندرا . من هيزيان لم تهجو ولم تدع

وقال آخر :^(١) ألم بأنيك والأنباء تنبي . بما لآقت لبشون بج زياد

قال النحاس : وهذا من أفتح الخط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر ،
 وأيضاً فإن الذي جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا ، لأن الياء والواو غائبتان للألف ،
 لأنهما تحركان والألف لا تحرك ، والشاعر إذا اضطر أن يقدمهما متحركين ثم تحذف
 الحركة للجزم ، وهذا حال في الألف ، والقراءة الأولى أين لأن بعده « ولا تخشى » جمع
 عليه بلا جزم ، وفيها ثلاث تحديات : الأول — أن يكون « لا تخاف » في موضع الحال
 من الخاطب ، التقدير فاضرب لهم طريقا في البحر يسا غير خائف ولا خاشي . الثاني
 — أن يكون في موضع التمت الطريق ، لأنه مطوف على يس الذي هو صفة ، ويكون
 التقدير لا تخلف فيه ، لخلف الرابع من الصفة . والثالث — أن يكون مقطعا خبر ابتداء
 محذوف تقديره وأنت لا تخاف .

(١) حرمه يوث بن وقاص من شعراء الجاهلية . ومعد البيت :

• ونضك من شجرة جنية •

(٢) البيت من أبيات القيس بن زهير بن جذيمة بن ذرارة البلي ، وكان قد كانت فيه وبين الريح بن زباد

هذه في شأن مدح قاتل للريح وبها يكلم من عبد الله بن جهمان القرشي .

قوله تعالى : (فَاتَّبِعْهُمْ فَرْعُونُ يُنَادِي) أى اتبعهم معه جنوده ، وقري « فَاتَّبِعْهُمْ »
 بالتشديد فتكون الياء في « ينجوده » مفتحة الفصل إلى الضول الثاني ، لأن أتبع يتعدى إلى
 مفعول واحد . أى تتبعهم ليطعمهم ينجوده أى مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسبيله أى مع
 سيفه . ومن قطع « فاتبع » يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الهاء زائدة ، وهو أن
 يكون اقتصر على مفعول واحد . يقال : تبعه وأتبعه ويلحقه والحقه بمعنى واحد . وقوله :
 « ينجوده » في موضع الحال ، كأنه قال : فاتبعهم سابقا جنوده . (فَاتَّبِعْهُمْ مِنْ أَلَمٍ مَا تَبْتَغِي)
 أى أصابهم من البحر ما غرقهم ، وكرر على معنى الضم والمرتبة بالامر . (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ
 قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ) أى أضلهم عن الرشاد وما هداهم إلى خير ولا نجات ، لأنه كفر أن موسى
 عليه السلام ومن معه لا يفتونوه ، لأن بين أيديهم البحر . فلما ضرب موسى البحر بضاه
 أخلق منه أشأ عشر طريقا ، وبين الطرق الماء قائما كالجبال . وفي سورة الشعراء « فكان
 كلُّ فرق كالطود العظيم » أى الجبل الكبير ، فأخذ كل سبط طريقا . ولوحى الله إلى أطواد
 الماء أن تسبكي فصارت شبكات يرى بعضهم بضاه ، ويسبح بعضهم كلام بعض ، وكان
 هذا من أعظم المعجزات ، وأكبر الآيات ، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق في البحر والماء
 قائما أومهم أن البحر فعل هذا لمينته ، فدخل هو وأصحابه فاطبق البحر عليهم . وقيل إن
 قوله : « وَمَا هَدَىٰ » تأكيد لإضلاله إياهم . وقيل : هو جواب قول فرعون « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا
 مَا لَأُورَىٰ وَمَا أَقْدِرُكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فكذبه الله تعالى . وقال ابن عباس : « وَمَا هَدَىٰ »
 أى ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه .

قوله تعالى : يَنْبَنِيَّ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَتَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمُنَّ وَالْقُلُوبِ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
 مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ
 غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
 ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ) لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا فاشكروا . (وَوَعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) « جانب » نصب على المفعول الثاني « لواعدا » ولا يحسن أن يكسب على الطرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم . وإنما تستدعي الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة . قال مكي : هذا أصل لا خلاف فيه ؛ وتقدير الآية : ووعدناكم إتيان جانب الطور ؛ ثم حذف المضاف ؛ قال النحاس : أي أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكله بحضرتكم قسموا الكلام . وقبل : وعد موسى جد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ؛ فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم . وقرا أبو عمرو « وَوَعَدْنَاكُمْ » بغير ألف وأخضره أبو عبيد ؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواصلة لا تكون إلا من اثنين ؛ وقد مضى في « البقرة » هذا للمعنى . و « الْأَيْمَنِ » نصب ؛ لأنه نعت لجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ؛ فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمناه خذ على يمينك من الجبل ؛ وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه . (وَرَزَقْنَاكُم مِّنَ السَّمَاءِ) أي في آتية وقد تقدم القول فيه . (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) أي من لذيذ الرزق . وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمي فتدخله شبهة . (وَلَا تَطْفُوا فِيهِ) أي لا تحملنكم السعة والعافية أن تصموا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى ؛ أي لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم . وقيل : أي ولا تستبدلوا بها شيئا آخر كما قال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . وقيل : لا تنذروا منه لأكثر من يوم وليلة ؛ قال ابن عباس : فيندود عليهم ما أدنوه ؛ ولولا ذلك ما تندود طعام أبدا . (فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضْيِي) أي يجب ويترك ، وهو منصوب بالغناء في جواب النهي من قوله : « وَلَا تَطْفُوا » . (فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضْيِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضْيِي فَقَدْ هَوَى) قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكشاف « فَيَحِلَّ » بضم الحاء « وَمَنْ يَحِلَّ » بضم اللام الأولى . والباقون بالكسر وهما لفتان . وحكى

(١) راجع ج ١ ص ٢٩٤ طبة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ١ ص ٤٠٦ وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة .

أبو حنيفة وغيره : أنه يقال حَلَّ يَحِلُّ إِذَا وَجِبَ وَحَلَّ يَحِلُّ إِذَا نَزَلَ . وكذا قال الفراء : اللضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب . والمعنيين متعارفين إلا أن الكسر أولى لأنهم قد أجمعوا على قوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّيقٌ » . وغضب الله عقابه وحمته وعذابه . (قَدْ هَوَى) قال الزجاج : فقد هلك ؛ أى صار إلى الهواية وهى قمر النار ، من هوى يهوى هوى أى سقط من علو إلى سفلى ، وهوى فلان أى مات . وذكر ابن المبارك : أخبرنا إسماعيل بن عياش قال حدثنا ثلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شُعْبَةَ الْأَصْبَحِيِّ ^(١) قَالَ : إِنَّ فِي جَهَنَّمَ جَبَلًا يَدْعَى صَوْدَاً يَطْلُعُ فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرَفًا قَبْلَ أَنْ يَرْقَاهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « سَأَرْهَقُهُ صَوْدَاً » وَإِنْ فِي جَهَنَّمَ قَصْرًا يُقَالُ لَهُ هَوَى يُرَى الْكَافِرُ مِنْ أَعْلَاهُ فَيَهْوَى أَرْبَعِينَ خَرَفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أَصْلَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَى فَقَدْ هَوَى » وذكر الحديث ؛ وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : (وَإِنِّي لَتَنفَّارٍ لِّنَّابٍ) أى من الشرك . (وَأَمَّنْ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) أى أقام على إيمانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثوري وقادة وغيرهما . وقال ابن عباس : أى لم يشك في إيمانه ؛ ذكره المساوردي والمهدوي . وقال سهل بن عبد الله التستري وأبو عباس أيضا : أقام على السنة والجماعة ؛ ذكره التلمبي . وقال أنس : أخذ بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكر المهدوي ، وحكاه المساوردي عن الربيع بن أنس . وقول سانس : أصاب العمل ؛ قاله ابن زيد ؛ وعنه أيضا تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل ؛ ذكر الأئمة المهدوي ، والثاني التلمبي . وقال الشعبي ومقاتل والكلبي : علم أن لذلك ثوابا وعليه عقابا ؛ وقاله الفراء . وقول ثامن : « ثم اهتدى » في ولاية أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ثابت البناني . والقول الأول أحسن هذه الأقوال - إن شاء الله - وإليه يرجع سائرنا . قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع في قوله عز وجل : « وَإِنِّي لَتَنفَّارٍ لِّنَّابٍ » أى من الشرك « وأمن ، أى بعد الشرك » وَعَمِلَ صَالِحًا » حتى وصام « ثم اهتدى » مات على ذلك .

(١) بالصبغ بن ماتح (بالله المنة الهرة) الأصم .

قوله تعالى : « وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوتُونَ » ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا كُنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَا يَبْعَثْ رَبُّكَ وَعدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ مُوسَى ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكٍ وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) أى ما حلك على أن تنبئهم . قيل : عني بالقوم جميع بنى إسرائيل ، فعل هذا قيل : استخلف هرون على بنى إسرائيل ، وخرج معه بسبعين رجلا للبقات . فقوله : (هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي) ليس يريد أنهم يسعون خلفه متوجهين إليه ، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان امر هرون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويتحققوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لما وفد إلى طور سيناء بالوعد أشتاق إلى ربه ، وطالت عليه المسافة من شدة الشوق إلى الله تعالى ، فضاقت به الأمر حتى شق قيصره ، ثم لم يصبر حتى خلقهم ومضى وحده ، فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى » فبقي صلى الله عليه وسلم متحيرا عن الجواب وكفى عته بقوله : « هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي » وإنما سأل عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) فكفى من

ذكر الشوق وصله إلى ابتداء الرضا . ذكر عبد الرزاق عن سمر عن قتادة في قوله « وَحِيلَتْ
إِلَيْكَ رَبِّ قِرْنَى » قال : شوقا . وكانت حاشة رضى الله عنها إذا كانت إلى فراقها تقول :
هاتوا الميحد . فتؤى بالمصنف فأخذه في صليها وتنام معه تسلى بذلك هرواه سليمان
عن سمر عن حاشة رضى الله عنها . وكان طيه الصلاة والسلام إذا أسطرت السياه طع ثيابه
وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : « إله حبيت عهد بهي » فهذا من الرسول صلى الله عليه
وسلم ومن بعده من قيل الشوق ؛ ولقد قال الله تبارك اسمه لها هوى مه : « طل شوق
الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقاءهم أشوق » . قال ابن عباس : كان الله طاهيا ولكن قال
« وَمَا أَجَلْتُكَ عَنْ قَوْمِكَ » . رحمة لموسى ، وإكراما له بهذا القول ، وتسكينا لقلبه ، ودقة طيه ؛
فقال جبار له : « ثُمَّ لَوْلَا عَلَى أَتْرَى » . قال أبو سالم قال موسى : بنو تميم يقولون :
« ثُمَّ أَوْلَى » مقصورة حسنة ، وأصل الجوز يقولون « أولاد » ممدودة . وحكى القراء
« ثُمَّ لَوْلَا عَلَى أَتْرَى » وزعم أبو إسحق الزجاج : أن هذا لا وجه له . قال النحاس :
وهو كما قال ؛ لأن هذا ليس بما يضاف فيكون مثل مئاني . ولا يخلو من إحدى جهتين :
إما أن يكون اسما مبهما فإضافته محال ؛ وإما أن يكون بمعنى القين فلا يضاف أيضا ؛ لأن
ما يسمه من نحماسه وهو معرفة . وقرا ابن أبي إسحق ونصر ورويس عن يعقوب « على
أَتْرَى » بكسر الهمزة وإسكان التاء وهو بمعنى أثر ؛ فتنان . « وَحِيلَتْ إِلَيْكَ رَبِّ قِرْنَى »
أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عني . يقال : رَجُلٌ عَجِلٌ وَعَجَلٌ وَعَجَلٌ
وَعَجَلَانٌ بين السَّيَةِ والسَّيَةِ خلاف البطء .

قوله تعالى : (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَيْنِكَ) أى اختبرناهم وأمتحنهم بأن يستدلوا على
الله عز وجل . (وَأَتْلَوْهُمُ السَّامِرَى) أى دعاهم إلى الضلالة أو هو سبها . وقيل : فتلهم
القبيلهم في الفتنة ؛ أى زينا لهم عبادة السجل ؛ ولهذا قال موسى : « إِنِّي جِيءَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » .
قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان السامرى من قوم يبدون البقر ، فوقع بأرض مصر
فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره ، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر . وقيل : كان رجلا

من العبد، وكان جارا لموسى آمن به ونرج معه . وقيل : كان ظلياً من حظه بنى إسرائيل ، من قبيلة عوف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن جبير : كان من أهل كرمان . قوله تعالى : (فَرَجَّ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ قَضْبَانِ آسَافًا) حال وقد مضى في « الأعراف »^(١) بيانه مستوف . (قَالَ يَقْرَأُ أَلَمْ يَجِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَمَتَّاعًا حَسَنًا) وعدم عز وجل الجنة إذا اتَّاموا على طاعته ، وعدم أنه يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ؛ ليعملوا بها فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدم النصر والظفر . وقيل : وعدمه قوله : وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَبَّ وآمن « الآية » . (أَطَاعَ عَلَيْكَ الْعَهْدُ) أى أفنستيم ، كما قيل ، والثنى ، قد ينسب لطول العهد . (أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَمِيلَ عَلَيْكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ) ويميل ، أى يحب ويقتل . والغضب العقوبة والعقبة . والمعنى : أم أردتم أن تعملوا فلا يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحدا لا يطلب غضب الله ، بل قد يرتكب ما يكون سببا للغضب . (فَأَخَذْتُمْ مَوْعِدًا) لأنهم وعدوه أن يطيعوا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدمه على أثره ليقام تفرقوا . (قَالُوا مَا أَخَذْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِكَ) بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وطامم وعيسى بن عمر . قال مجاهد والسدى : ومعناه بظاقتنا . ابن زيد : لم نملك أنفسنا أى كنا مضطرين . وقرا ابن كثير وابن عمرو وابن عامر « بِمَلِكِكَ » بكسر الميم . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها اللفظة العالية . وهو مصدر ملكت الشيء . أملكه ملكا . والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول عنوف ؛ كأنه قال : بملكنا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ . وقرا حمزة والكسائي « بِمَلِكِكَ » بضم الميم والمعنى بسلطاننا . أى لم يكن لنا ملك فنختلف موعده . ثم قيل قوله : « قَالُوا » عام يراد به الخاص ؛ أى قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور : « مَا أَخَذْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِكَ » وكانوا اثني عشر ألفا ، وكان جمع بنى إسرائيل ستمائة ألف . (وَلَكِنَّا خَلَقْنَا) بضم الخاء وتشديد الميم مكسورة ؛ قراء نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس . بالفتح بفتح الحرفين خفيفة . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنهم حملوا على القدم

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعه أول مرة .

معه وما حملوه كرها . (لَوْزَلُوا) أي أهلا (بِنِزَانِ الْقَوْمِ) أي من حليم، وكانوا
كسلاهم حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام، وأوهومهم أنهم يمتصون في جدد لم
لو ولجة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون، لما قذفهم البحر إلى الساحل . وسيت
لوزلوا بسبب أنها كانت آتيا . أي لم يزل لهم أخذها ولم تحمل لهم القنم، وأيضا فلا يزال
في الأقال في القفة . (تَقْدَقَهَا) أي تحمل طينا حل ما كان سنا من الحل - تَقْدَقَهَا في النار
ليذوب، أي طرخته فيها . وقيل : طرحه إلى السارى - ليرج قري فيها وأبى . قال قتادة :
إن السارى قال لم حين أتيته القوم موسى : إنما أحتس طيكم من أجل ما عندكم من
الحل، بجمعه ودفوه إلى السارى - فري به في النار، وصاغ لهم منه عجلا، ثم أتى طيه
قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام . وقال سمر : القرس الذي كان طيه
جبريل هو الحياة، فلما أتى طيه القبضة صلو عجلا جسدا له خوار . وتلوه صوت القهر .
وقال ابن عباس : لما أنسكت الحل في النار، جاء السارى - وقال لهرون : يا بني الله لئن
ما في يدي - وهو يظن أنه كبض ما جاء به غيره من الحل - - قذف القرب فيه، وقال :
كن عجلا جسدا له خوار، فكان كما قال، والبلاء والقصة، فخر خوة واحدة لم يُبها منها .
وقيل : خواره وصوته كان بالرجح، لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الرجح في جوفه خاو
ولم تكن فيه حياة . وهذا قول مجاهد . وعلى القول الأول كان عجلا من لحم ودم، وهو قول
الحسن وقتادة والسدي . وروى حماد عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :
مر هرون بالسارى - وهو يصنع العجل، فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر، فقال :
اللهم أعطه ما سألك على ما في شه، فقال : اللهم إني أسألك أن ينور . وكان إذا خار
جسدا، وكلت الخول من أجل دعوة هرون . قال ابن عباس : خار كما ينور الحى من
الجبول . وروى أن موسى قال : يا رب هذا السارى - أخرج لم عجلا جسدا له خوار من
حليم، فمن جبل الجسد وانلوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا . قال موسى صل الله طيه
وسلم - وعزته وجلاله وأمره ملك وطوك وسلطانك ما أخذهم فترك . قال : صلت بأحكم

الحكمة . وقد تخدم هذا كله في سورة الأعراف^(١) . (قَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى)
 أى قال السامري ومن تبعه وكانوا مباليين إلى التشديد؛ إذ قالوا : « أَجِبْ لَنَا إِنْ كُنَّا لَكُمْ
 آيَةً » . (قُلْ) أى فضّل موسى [ونحب]^(٢) يطلبه فلم يعلم مكانه ، وأخطأ الطريق
 إلى ربه . وقيل ساء : فتركه موسى هنا ونرج طلبه . أى ترك موسى إلهه هنا . وروى
 إسرائيل من سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أى ففسى موسى أن يذكر لكم إلهه .
 وقيل : المطلب خبر عن السامري . أى ترك السامري ما أمره به موسى من الإيمان بفضل
 الله ابن الأعراف . فقال الله تعالى عتبا عليهم : (أَفَلَا يَرَوْنَ) أى يعتبرون ويتفكرون
 في (أَرْ) . (لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا) أى لا يكلهم . وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت .
 (وَلَا يَكُنْ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا فِتْنًا) فكيف يكون هذا ؟! والذي عبده موسى صلى الله عليه وسلم
 يضرب ويضغ ويثيب ويضط ويضغ . « أَنْ لَا يَرْجِعُ » تحذيره أنه لا يرجع فلذلك أخرج الفعل
 تخففت « أَنْ » وحذف الضمير . وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن . قال :
 في فية من سيوف الهند قد ملوا . أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَفْنَى وَيَنْتَبِلُ
 وقد يحذف مع التشديد؛ قال :

فَلَوْ كُنْتُ ضَرًّا عَرَفْتُ قَرَابِي . وَلَكِنْ زَيْحِي عَظِيمُ الْمَشَاقِرِ
 أى ولكلك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُومُ إِنَّمَا قُتِنْتُمْ بِهِ^٣
 وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي^(٤) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ
 عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى^(٥) قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
 ضَلُّوا^(٦) أَلَا تَتَّبِعُنَا أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي^(٧)

قوله تعالى : (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ) أى من قبل أن يأتى موسى ويرجع
 إليهم (يَا قَوْمِ إِنَّمَا قُتِنْتُمْ بِهِ) أى أبليت وأخلفتم به ؛ أى بالعجل (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ)

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٤ وما بعدها طبعه أميل لرافعة . (٢) زيادة بنصها السياق .

لا السبل (فَأَتَيْنُوا) وعبادته (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) لا أمر السامري. أو فأتينوني في مسيرى
 الى موسى ودعوا السبل ؛ فقصوه و (قَالُوا أَنْ تَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ) أى لن نزال مقببين
 على عبادة السبل (حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) فينظر نعل بيده كما عبدها ؛ فوجهوا أن موسى
 يعبد السبل ، فاعتزلهم هرون في آتئ عشر ألفا من الذين لم يعبدوا السبل ، فلما رجع موسى
 وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول السبل قال للسمعين منه : هذا صوت الفتنة ؛
 فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيته ولبسته بشاله غضبا و (قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
 ضَلُّوا) أى أخطئوا الطريق وكفروا . (أَلَا تَتَذَكَّرُ) ولا زائدة أى أن تبع أمرى ووصيتى .
 وقيل : ما منعك عن اتباعى في الإنكار عليهم . وقيل : معناه هلأ فالتهم إذ قد علمت أنى
 لو كنت بينهم لفاتتهم على كفرهم . وقيل : ما منعك من الوقوف لما فعلوا . (أَفَصَبَتْ
 أَمْرِي) يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا فیر الله تعالى عصيانك لى ، قاله ابن عباس .
 وقيل : معناه هلأ فارقهم فتكون مفارقتك إياهم تقربا لهم وزجرا . ومعنى أَفَصَبَتْ
 أَمْرِي « قيل : إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه » وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي
 وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » فلما أقام معهم ، ولم يبالع في منهم ، والإنكار عليهم .
 فنه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

مسئلة - وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله ،
 وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا بحكمه حكمهم . وقد معنى هذا المعنى و آل عمران
 والنساء والمائدة والأمام والأعراف والأفعال . وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله :
 ما يقول سيدنا الفقيه في منذهب الصوفية ؟ وأعلم - حرس الله مدته - أنه أجمع جماعة
 من رجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يرقصون
 بالتضبيب على شيء من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مضطبا عليه ،
 ويحضرون شيئا ياكلونه . هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفنونا مأجورين ، وهذا القول
 الذى يذكرونه :

يُشَيِّعُ كُفَّ عَنْ الذُّنُوبِ • قَبْلَ التَّصَرُّقِ وَالزَّلَالِ
وَأَعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا • مَا دَامَ يَنْفَعُكَ الْعَمَلُ
أَنَا الشَّابُّ قَدْ مَضَى • وَمَشَيْبُ رَأْسِكَ قَدْ تَرَلَّى

وفى مثل هذا ونحوه . الجواب : — يرحمك الله — مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري ، لما اتخذ لهم عجلًا جسدا له خوار قاموا يرقصون حوالبه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما القنصيب فأول من اتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ، وإنما كان يمس على الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ؛ فيلبى السلطان ونوابه أن يمتهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والثاقلاني وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١١﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَعِي ﴿١٢﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَيْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٣﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٤﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) ابن عباس : اخذ شعره بيده ولحيته بيساره ؛ لأن النسيئة في الله ملكته ؛ أي لا تفعل هذا فيتوهوا أنه منك استخفاف

أو عقوبة . وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا من غير استخفاف ولا حقبة كما يأخذ الإنسان بلعية نفسه . وقد مضى هذا في « الأعراف » مستوفى . والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام . (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَحُولَ فَرَقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ) أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم ، فلو خرجت لأجبن قوم ويختلف مع العجل قوم ، وربما أتى الأمر إلى سفك الدماء ، وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتولوني على ذلك . وهذا جواب هرون لموسى عليه السلام عن قوله : « أَتَعْصِي أَمْرِي » وفي الأعراف « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْجَعُونِي وَكَادُوا يَكْتُلُونِي فَلَا تَكُنْ مِنَ الْإِثْمَاءِ » لأنك أمرتني أن أكون معهم . وقد تقدم . ومعنى (وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) لم تسلم بوصيتي في حفظه ، قاله مقاتل . وقال أبو عبيدة : لم تنتظر عهدى وقدمى . فتركه موسى ثم أقبل على السامرية ف (قَالَ قَدْ خَلَيْتُكَ يَا سَامِرِيُّ) أي ، ما لمرك وشائك ، وما الذي حلك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامري عظيمًا في بني إسرائيل من قبيلة بني منسى ، ولكن عدوا له تافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مر به بنو إسرائيل بالهافة بهم يكتفون على أصنام لهم « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ فَأَتَتْهَا السَامِرِيُّ فَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَلْعَنُونَ بِلَا عِلَّةٍ الْعِجْلَ فَاتَّخَذَ الْعِجْلَ . (قَالَ) السامري عجباً لموسى ، (بِصُورَةٍ مِثْلِ تَصَوُّرِهِ) يعني : رأيت ما لم يروا ، رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فالتفت في نفسي أن أفرض من أثره قبضة ، فما ألقته على شيء إلا صار له روح ولم يدم ، فلما سئلوا لم يفعل لم إلها زينت لي نفسي ذلك . وقال علي بن أبي حمزة : لما رأى جبريل يصعد موسى عليه السلام إلى السماء ، أبصره السامري من بين الناس قبضة من أثر القوس . وقيل قال السامري : رأيت جبريل على القوس وهي تلقى خطوطها من البصر ، فالتفت في نفسي أن أفرض من أثرها فما ألقته على شيء إلا صار له روح ودم . وقيل : رأى جبريل يوم نزل على دمكة ودفن ، فقدم خيل فرعون في ورود البحر . ويقال : إن أم السامري جعلت حين وضعت في غاري خروفا

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٩ وما بعدها من التفسير .

(٢) الزمكة : القوس والبرذوخ التي تصدق على العرب . وهي ما تصدق على بني قريظة .

من أن يقتله فرعون؛ فغاه جبريل عليه السلام، فجعل كف السامري في قم السامري،
فرض السمل والبن فاختلف إليه ضرعه من حيثئذ. وقد تقدم هذا المعنى في «الأعراف»^(١).
ويقال: إن السامري سمع كلام موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شعاع أحدهما ثور
والآخر فرس فالتفهما في الليل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر في الليل،
فأتى به الثور على قبره، فحكّم السامري بذلك الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى القبضة
في جوف العجل فغار. وقرأ حزة والكسائي والأعمش وخلف: «يَا لَمْ يَبْصُرُوا» بإثاء على
الخطاب. الباقون بإياء على الخبر. وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود والحسن وقادة وقبضت
قبضة بصاد غير مجمعة. وروى عن الحسن ضم القاف من «قبضة» والصاد غير
مجمعة. الباقون: «قَبِضْتُ قَبْضَةً» بالصاد المجمعة. والفرق بينهما أن القبض بجميع
الكف، والقبض بأطراف الأصابع، ونحوهما الخضم والقضم، والقبضة بضم القاف القدر
المقبوض، ذكره المهدي. ولم يذكر الجوهرى «قبضة» بضم القاف والصاد غير مجمعة،
وإنما ذكر «القبضة» بضم القاف والصاد المجمعة وهو ما قبضت عليه من شيء؛ يقال:
أعطاه قبضة من سويق أو تمر أي كفا منه، وربما جاء بانفتح. قل: والقبض بكسر القاف
والصاد غير المجمعة الممدد للكثير من الناس؛ قال الكيت:

لَكُمْ مَسْجِدًا اللَّهُ الْمَرْوَرَانِ وَالْحَقَّى • لَكُمْ قَبْضُهُ مِنْ بَيْنِ أَرَى وَأَقْتَرَى^(٢)

(قَبِضْتُهَا) أي طرحتها في العجل.

(وَقَفَّكَ سَوَّلَتْ لِي غَيْبِي) أي زينت به قلة الأخفش. وقال ابن زيد: حدثني

نسي. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: (قَالَ فَأَنْهَبْ) أي قال له موسى فأذهب أي من بيننا (فَإِنَّكَ فِي الْحَيَاةِ
أَنْ تَقُولَ لَا مَيَّاسَ) أي لا أمس ولا أسس طول الحياة. فغاه موسى عن قومه وأمر بني
إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكتبوه عقوبة له. قال الشاعر:

تَمِيمٌ كَرِهَ السَّامِرِيَّ وَقَوْلُهُ • أَلَا لَا يَرِيدُ السَّامِرِيَّ مَيَّاسًا

(١) راجع ٧٠ ص ٢٨٤ طبعه أدل أدلانية. (٢) أي من جهة شرمقل.

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يمس الناس ولا يمسهم عقوبة له ولن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكان الله عز وجل شديد عليه العقوبة ، بأن جعله لا يمس أحدا ولا يمكن من أن يمس أحد ، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا . ويقال : أبطل بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : يقالهم إلى اليوم يقولون ذلك - لا مساس - وإن مَسَّ واحد من غيرهم أحدا منهم حُمَّ كلامهما في الوقت . ويقال : إن موسى مِمَّ يقتل السامري ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه محيى . ويقال لما قال له موسى : (فَأَذْنَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ) خاف فهرب فجعل بهم في البرية مع السباع والوحش ، لا يبعد أحدا من الناس يمس حتى صار كالقاتل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ؛ كما قال الشاعر :

حَمَلُ رَايَاتِهَا قَتَايَا • حَتَّى تَقُولَ الْأَزْدُ لَا مَسَايَا

مسألة : هذه الآية أصل في حق أهل البدع والمأصبي وغيرهم والألوياطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلقوا . ومن اتجا إلى الحرم وعليه قتل لأجل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يباع ولا يشارى ، وهو إرهاب إلى الخروج . ومن هذا القليل التفرير في حد الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله في موضعه ، فلا معنى لإعادته . واخمد الله وحده . وقال هرون القارى : ولغة العرب لا مَسَاسَ بكسر السين وفتح الميم . وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيوبه : هو منى على الكسر كما يقال أضرب الرجل . وقال أبو إسحق : لا مَسَاسَ حتى وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : ضَلَّتْ يَا أَمْرَأَةً . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : إذا أعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا أعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء ؛ فإس ودراك أعتل من ثلاث جهات : منها أنه معنول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لانتهاء الساكنين ؛ كما تقول : أضرب الرجل . ورأيت أبا إسحق

ينحسب إليه لأن هذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سمي امرأة فزعون ينيده ، وهذا لا يقوله أحد . وقال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب لا مأساى مثال قطام فإنما بنى على الكسر لأنه معلول من المصدر وهو المأس . وقرأ أبو حيدة « لا مأساى » . (وَإِنْ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَحْقُقْهُ) يعنى يوم القيامة . والموعود مصدر ، أى إن لك وعدا لعذابك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تَحْقُقْهُ » بكسر اللام وله معنيان : أحدهما — ستأتيه ولعل تجده علقا ؛ كما تقول : أحذرت أى وجدته محوذا . والثانى — على التهديد أى لا بد لك من أن تصير إليه . الباقون بفتح اللام ، بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : (وَأَنْتَظِرُ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ) أى دمت واقفت عليه . (عَاكِفًا) أى ملازما ؛ وأصله ظلت ؛ قَالَ :

ظَلَّ أَقَ الْبِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا . أَحْسَنَ بِهِ فَهَنَ إِلَيْهِ شَوْسُ

أى أحسن . وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود « ظَلْتَ » بكسر الظاء . يقال : ظَلْتَ أفضل كلما إذا فعلته نهارا وظَلْتَ وظَلْتَ ؛ فمن قال : ظَلْتَ حذف اللام الأولى تخفيفا ؛ ومن قال : ظَلْتَ ألقى حركة اللام على الظاء . و (لَتَحْرِقَنَّ) قراءة العامة بضم التون وشدة الراء من حرق يحرق . وقرأ الحسن وغيره بضم التون وسكون الحاء وتخفيف الراء ، من أحرقه يحرقه . وقرأ على وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصة وأشب العليل « لَتَحْرِقَنَّ » بفتح التون وضم الراء خفيفة ، من حرقت الشيء . أحرقه حرقا بَدَنَهُ وحككت بعضه ببعض ، ومنه قولهم : حرق نابه يحرقه ويحرقه أى يحرقه حتى سُمِعَ له صريف ؛ فعنى هذه القراءة لتبرده بالمبارد ، ويقال ليلد يئرق . وللقراءتان الأولىان معناهما الحرق بالنار . وقد يمكن جمع ذلك فيه ؛ قال السدى : ذبح العجل فسال منه كما يسأل من العجل إذا ذبح ، ثم بَدَ عظامه باليلد وحرقه . وفى حرف ابن مسعود « لَتَذْبَحَنَّ » ثم لتحرقه . والعلم والهم إذا أحرقا

(١) عزائم زينة ؛ والتون (يئرق) قال ابن سفيان : أنه يئرق يئرقه منه ، ويمل وجهه فى من العين

أى يتربها ؛ ويكون ذلك خفة ، ويكون من الكرم والى والغضب .

صارا رمادا فيمكن تخرينه في الميم ، فاما الذهب فلا يصير رمادا . وقيل : عرف موسى ما صيربه
الذهب رمادا ، وكان ذلك من آياته . ومعنى (لَنَسِفَهُ) لنطليه . وقرأ أبو رباح : **لَنَسِفَهُ** ،
بضم السين لنتان ، والنسف غرض الشيء لينهب به الريح وهو التذرية ، والنسف ما يسف
به الطعام ، وهو شيء منصوب الصدر أملاه مرتفع ، والنسافة ما يسقط منه ؛ يقال :
أعزل النسافة وكل من الخالص . ويقال : أنا فلان كأن لحية يسف ؛ حكاه أبو نصر
أحمد بن حاتم . والنسفة آلة يلع بها البناء ، ونسفت البناء نسفا قلته ، ونسف البحر الكلا
يسفه بالكسر انا قلته بأصله ، وأنسفت الشيء أقلتته ؛ عن أبي زيد .

قوله تعالى : **(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا)** لا العجل ، أى وسع
كل شيء علمه ، يفعل الفعل عن العلم ، ونصب على التفسير . وقرأ مجاهد وقطادة « وَسِعَ كُلُّ
شَيْءٍ عِلْمًا » .

قوله تعالى : **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ**
ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠٠﴾ **مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَجْمَلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ**
وِزْرًا ﴿١٠١﴾ **خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا** ﴿١٠٢﴾ **يَوْمَ يُنْفَخُ**
فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٣﴾ **يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ**
إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٤﴾ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً**
إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : **(كَذَلِكَ)** الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف . أى كما قصصنا
عليك خبر موسى **(كَذَلِكَ قُصِّ عَلَيْكَ)** قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تلبية
لك ، وليلد على صديقك . **(وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)** ببنى القرآن . ومعنى القرآن ذكرًا ؛
لما فيه من الذكر كما سمي الرسول ذكرًا ؛ لأن الذكر كان يقرط طيه . وقيل : **ءَاتَيْنَاكَ مِنْ**
لَدُنَّا ذِكْرًا ، أى شرفا ، كما قال تعالى : **« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ »** أى شرف وتوحيه بأهلك .

قوله تعالى : (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ) أى القرآن فلم يؤمن به ، ولم يصل بما فيه (فَآتَاهُ بِحُلٍّ)
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزِيًّا) أى إما عليا وحلا هبلا . (خَالِدِينَ فِيهِ) يريد مقيمين فيه ؛ أى فى جزائه
وجزائه جهنم . (وَسَاسَلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُلَا) يريد بنس الجمل حملوه يوم القيامة . وقرأ داود
ابن ربيع : فَآتَاهُ بِحُلٍّ .

قوله تعالى : (يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ) قراءة العامة « يَنْفُخُ » بضم الياء على الفعل المجهول .
وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق بنون مسمى الفاعل . واستدل أبو عمرو بقوله تعالى : « وَنَحْشُرُ^١ »
بنون . وعن ابن هُرَيْرٍ « يَنْفُخُ » بفتح الياء أى ينفخ إسرائيل . أبو عياض : « فى الصُّورِ » .
الباقون : « فى الصُّورِ » وقد قدم هنا فى « الأعلام » مستوفى وفى كتاب « التذكرة » . وقرأ
طلحة بن مُصَرِّفٍ « وَنَحْشُرُ » بضم الياء « الْمَجْرُومُونَ » رفعا بخلاف المصحف . والباقون
(وَنَحْشُرُ الْمَجْرُومِينَ) أى المشركين . (زُرْقًا) حال من المجرمين ، والزرَق خلاف الكَمَل .
والعرب تشام بزُرْقِ اليون وتذقه ؛ أى تسوء خلقهم بزُرقة هيونهم وسواد وجوههم .
وقال الكلبي والفراء : « زُرْقًا » أى عَمِيَا . وقال الأزهري : عطاشا قد أزرقت أعينهم من
شدة العطش ؛ وقاله الزجاج ؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويَزُرْقُ من العطش . وقيل :
إنه الطمع الكاذب إذا تعبه الحلية ؛ يقال : أبيضت عيني لطول انتظاري لكنا . وقول
خامس : إن المراد بالزرقة شخص البصر من شدة الخوف ؛ قال الشاعر :

لقد زُرِقت عينك يا ابن مُكَمَّرٍ • كما كُلُّ ضَيٍّ من اللؤم أَزُرُّ

يقال : رجل أزرَق العين ، والمرأة زرقاء بينة الزُرْق ؛ والأسم الزُرْقَة . وقد زُرِقت عينه بالكسر
وأزُرقت عينه أزرَقًا ، وأزراقت عينه أزرِقًا . وقال سعيد بن جبير : قبل لابن عباس
فى قوله « وَنَحْشُرُ الْمَجْرُومِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال فى موضع آخر : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى
وُجُوهِهِمْ عَمِيًّا وَبُكَاءً وَصَاحًا » فقال : إن ليوم القيامة حالات ؛ حالة يكونون فيه زُرْقًا ، وحالة
عَمِيًّا . (يَنْفُخَتُونَ فِيهِمْ) أصل الخفت فى اللغة السكون ، ثم قيل لمن خفض صوته خفته .

يتسارون؛ قاله مجاهد؛ أى يقول بعضهم لبعض فى الموقف سرا (إِنْ لَيْتُمْ) أى ما لَيْتُمْ بى فى الدنيا، وقيل: فى القبور (إِلَّا عَشْرًا) يريد عشر ليال. وقيل: أراد ما بين الضحيتين وهو أربعون سنة؛ يرفع المذاب فى تلك المدة عن الكفار — فى قول ابن عباس — فيستصرون تلك المدة. أو مدة مقلهم فى الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة؛ ويحيل إلى أنظهم أى أعد لهم قولا وأعمالهم وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوما واحداً بى لَيْتُمْ فى الدنيا؛ عن قتادة؛ فالقدير: إلا مثل يوم. وقيل: إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه من نعم الدنيا حتى رأوه كيوم. وقيل: أراد بيوم لَيْتُمْ ما بين الضحيتين، أو لَيْتُمْ فى القبور على ما تقدم. «وعشرا» و«يوما» منصوبان بـ «لَيْتُمْ».

قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِندَ ۙ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) أى عن حال الجبال يوم القيامة. (فَقُلْ) جاء هذا بقاء وكل سؤال فى القرآن «قل» بغير قاء، إلا هذا، لأن المعنى إن سألك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط. وقد علم الله أنهم يسألونه عنها، فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوها عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقاء الجبال عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير قاء. وهذا سؤال لم يسأله عنه بعد؛ فتنبههم. (يَنْسِفُهَا) طيهرها. (نَسْفًا) قال ابن الأعرابي وغيره: بقلها قلما من أصولها؛ ثم يصيرها رملا يسيل سيلًا، ثم يصيرها كالصوف للغوش طيهرها الرياح هكنا وهكنا. قال: ولا يكون المهن من الصوف إلا المصبوغ، ثم كالمياه المشور. (يَذَرُهَا) أى يذر مواضعها (قَاعًا صَفْصَفًا) القاع الأرض المساء

بلايت ولا بناء، قال ابن الأعرابي . وقال الجوهري : والقاع للمستوى من الأرض والبحر
أفروع وأقواع ويقعان صارت القلوباء لكسر ما قبلها . وقال الفراء : القاع مستنقع الماء
والصفصف القرطاء . الكلبي : هو القاع لا نبات فيه . وقيل : للمستوى من الأرض كأنه
على صف واحد أو أسوائه، قاله جاهد . والمضى واحد في القاع والصفصف، والقاع
الموضع المنكشف، والصفصف للمستوى الأملس . وأنته سيويه : ^(١)

وَكَمْ دُونَ يَتَكَ مِنْ صَفْصِفٍ . وَكَذَلِكَ رَسَلٍ وَأَعْتَدِيحًا

ووقاما، نصب على الحال والصفصف، و(لَا تَرَى) في موضع الصفة . (فِيهَا جَوْيَا) قال
ابن الأعرابي : العوج القوج في الصباج . والأمت القَبَك . وقال أبو عمرو : الأمت
القَبَك وهي التلال الصغار واحدا قَبَك، أي هي أرض مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع .
يقول : أمثلا لما به أمت، وملائت القهرة مثلا لا امت فيه، أي لا استرخاء فيه . والأمت
في اللغة للكان المرتفع . وقال ابن عباس : «جويًا» ميلا . قال : والأمت الأرض مثل الشراك . وعنه
أيضا «جويًا» واديا «وَلَا أَمْتًا» رابية . وعنه أيضا : العوج [الانخفاض] والأمت الارتفاع .
وقال قتادة : «جويًا» صعدا «وَلَا أَمْتًا» أي أكلة . وقيل : يان، الأمت الشقوق في الأرض .
وقيل : الأمت أن يظن مكان في القعدة أو الجبل ويدق في مكان، حكاه الصولي .

قلت : وهذه الآية تدخل في باب الرقي، ترق بها التاكيل وهي التي تسمى عندنا (بالبراق)
وأسرها (بروفة)، تطلع في الجسد وخاصة في اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من بين الشبر، يكون
في طرف كل عود حفدة، تُركل حفدة على التاكيل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد
في مكان ندى، تنق وتنق التاكيل، فلا يبقى لها أثر، جربت ذلك في نفسي وفي غيره
فوجدته دائما إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَقُولُ الْمَغِيبُ) يريد إسرائيل عليه السلام إذا فتح في الصور
(لَا يَرْجِعُ) أي لا يسئل لمعه، أي من دعوته لا يرضون ولا يخفون بل يسرعون إليه ولا يعيدون

(١) العهد الأخير : العهد الجديد . ومن العجيب أن الله بعد أن أرسله ليعزى به ملكه بأنه سار الكافة
الذين آمنوا به . (الأنجيل) : حكاه عن الله من قبل التراب . (٢) زيادة عليها قوله :

منه . ومن هذا أكثر العلماء . وقيل : « لا يَوحى له » أى لعنه . وقيل : يَجْهَرُ الهامى
 أتباعا لا يوحى له ، فالمصدر مضمر ، والمعنى : يَجْهَرُ صوت الهامى العشر ؛ طلبه ؛
 « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادَى لِلْعَلِيِّ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » الآية . وسأى . (وَخَفَّتِ الْأَمْوَالُ)
 أى تَلَّتْ وسكنت ؛ من ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير فوافقت سور المدينة والجبال
 انفتح ، فكل لسان ساكت هناك الهية . (الرَّحْمَنُ) أى من أجله . (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)
 همس الصوت الخفى ؛ قاله مجاهد . من ابن عباس : الحسن الخفى . الحسن وابن جريح ؛
 هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى العشر ؛ ومنه قول الراجز ؛
 • وَهْنٌ يَمْشِيْنَ بِهَا هَيْبَا •

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها . ويقال للأسد المموس ؛ لأنه يَمْسُ فى الظلمة ؛
 أى بطأ وطأ خفياً . قال رؤبة يصف نفسه بالشدة ؛
 لَبْتُ بِدَقِّ الْأَسَدِ الْمُمُوسَا • وَالْأَقْبَيْنِ الْقَبِيلِ وَالْجَامُوسَا
 وهمس الطعام ؛ أى مضغه وقوره مضغ ؛ قال الراجز ؛
 لقد رأيتُ عَجَا مَذْأَسَا • عَجَارًا مَثَلُ السَّعَالِ نَحْمَا
 • بِأَكَلِنَ مَا اصْعَ هَمَّ هَمَّا •

وقيل : همس غمرك الشفة واللسان . وفرا أبى بن كعب « قَلَّا يَنْطَفُونَ إِلَّا هَمَّا » .
 والمعنى متقارب ؛ أى لا يسمع لم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام . وبناء (همس) أصله
 الخفاء كيفما تصرف ؛ ومنه الحروف المهدوسة ، وهى عشرة يعجمها فرك : (حَـ هـ خـ حـ طـ ظـ)
 فسكت) وإنما سمي الحرف مهموساً لأنه ضَعُفُ الاعتدال من موضعه حتى جرى معه النفس .
 قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ) ومن ؛ فى موضع نصب
 على الاستثناء الخارج من الأول ؛ أى لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شفاعته من أذن له الرحمن .
 (وَرِضَى لَهُ قَوْلًا) أى رضى قوله فى الشفاعة . وقيل : المعنى ، أى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن
 له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول رضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

(١) سمى قبل والجاموس أخيين لونهما وهو البقرة .

قوله تعالى : (يَلْمِزُ مَا يَنْزِلُ مِنْ أَيْدِيهِمْ) أي من أمر الساعة . (وَمَا خَلَقَهُمْ) من أمر الدنيا
قوله قتادة . وقيل : يلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب وما خلقهم ما خلقوه وراحم
في الدنيا . ثم قيل : الآية عامة في جميع الخلق . وقيل : المراد الذين يتهمون الناس .
والحمد لله .

قوله تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْهُ) الملاء في « به » . قد تعالى إلى أحد لا يحيط به
علما ، إذ الإحاطة مشتملة بالحد ويتعالى الله عن التحديد . وقيل : تعود على العلم ، أي أحد
لا يحيط علما بما يملكه الله . وقال الطبري : الضمير في « أيديهم » و « خلقهم » و « يحيطون »
يعود على الملائكة ، أعلم الله من يبعثها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها .

قوله تعالى : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ
ظُلْمًا ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ۖ

قوله تعالى : (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ) أي ذلت وخضعت ، قال ابن الأعرابي وفيه . ومنه
قيل للاسبرطين . قال أمية بن أبي الصلت :
ملكك على عرش السيد مؤمن . لئلا تنو الوجوه وتسجد
وقال أيضا :

وَسَلَّمَ وَبَنَى وَخَلَّى سَكَنَهُ . في السبلين لوجه مشكورا

قال الجوهري : عا ينو خضع وذل وأعان فيه ، ومنه قوله تعالى : (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ
الْقَيُّومِ) . وقال أيضا : عا فهم فلان لسياء أي أعلم فهم على إسماره وأحسن . وعناه
فيه تسمية به . والثاني الأسير . وقوم عدا ونسوة حران . وعنت به أمور ترك . وقال
ابن عباس : « عنت » ذلت . وقال مجاهد : خضعت . الماورده : وانفرد بين القتل
والشرع . — وإن تاربه سلطانا — أن القتل أن يكون قليل الضرر ، والشرع أن يتلوا
أمر طاعة . وقال الكوفي : « عنت » أي طعت . حيلة العرف : استسلمت . وقال كنان

ابن حبيب : إنه وضع الجبهة والأُفَى على الأرض في السجود . النعاس : «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ»
في معناه قولان : أحدهما — أن هذا في الآخرة . وروى عكرمة عن ابن عباس «وَعَنَتِ
الْوُجُوهُ لِغَيِّ الْقِيُومِ» قال : الركوع والسجود ، ومعنى «عنت» في اللغة التهر والغلبة ، ومنه
فصحت البلاد عَنوة أى غلبة ؛ قال الشاعر^(١) :

فأأخذوها عَنوةً عن مَوْتَةٍ ولكنَّ ضربَ المشرقِ استغلاماً

وقيل : هو من العناء بمعنى التعب ؛ وكفى عن الناس بالوجوه ؛ لأن آثار النذل إنما تبيين
في الوجه . (لَغَيِّ الْقِيُومِ) وفي القيوم ثلاث تأويلات ؛ أحدها — أنه القائم بتدبير الخلق .
الثاني — أنه القائم على كل نفس بما كسبت . الثالث — أنه الدائم الذي لا يزول ولا يبدد .
وقد مضى في «البقرة» هذا . (وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) أى خسر من حمل شركاً .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لأن العمل لا يقبل من غير إيمان .
و«من» في قوله : «مَنِ الصَّالِحَاتِ» للتبويض ؛ أى شيئاً من الصالحات . وقيل : للجنس ؛
(فَلَا يَخَافُ) قرأ ابن كثير وبجاهد وابن محيصن «يَخَفُ» بالجرم جواباً لقوله : «وَمَنْ
يَمَلَّ» . الباقون «يَخَافُ» رخصاً على الخبر ؛ أى فهو لا يَخَافُ ؛ أو فإنه لا يخاف . (ظُلْمًا)
أى نقصاً لتواب طاعته ، ولا زيادة عليه في سيئاته . (وَلَا هُمْ بِأَلْتَنَاقَصِ) من حقه .
والهضم النقص والكسر ؛ يقال : هَضَمْتُ ذلك من حق أى حططته وتركته . وهذا يهضم
الطعام أى ينقص ثقله . وأمرأة هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن . الماوردي : والفرق بين
النظم والهضم أن النظم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه ، والهضم ظلم وإن اترقا
من وجه ؛ قال الموكل اللبي :

إِنَّ الْأَنَلَةَ وَاللَّسَامَ لَعَسُرُ . مَوْلَاهُمُ الْمُتَهَمُ الْمَظْلُومُ

قال الجوهري : ورجل هَضِيمٌ ومُهْتَمٌّ أى مظلوم . وَتَهَضَّمَهُ أى ظلمه وأحتضمه إذا ظلمه
وَكَسَّرَ عَلَيْهِ حَقَّهُ .

(١) أنشدوه لغيره . كثير كان «السال» . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٧١ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية .

قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَا قُرُونًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ** ﴿١١١﴾

قوله تعالى : **(وَكَذَلِكَ)** أى كما يتناك فى هذه السورة من البيان فكذلك جعلناه **(قُرُونًا عَرَبِيًّا)** أى بلسة العرب . **(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ)** أى بينا ما فيه من التخويف والتهديد والتواب والعقاب . **(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)** أى يخافون الله فيجتنبون معاصيه ، ويعبدون عقابه . **(أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)** أى موعظة . وقال قتادة : حذرا وورعا . وقيل : شرفا ، فالذكر ما هنا بمعنى الشرف ، كقوله : **«وَأَنَّهُ لَدِكُّكَ وَلِقَوْمِكَ»** . وقيل : أى لينذكروا العذاب الذى توقعوا به . وقرأ الحسن **«أَوْ يُحْدِثُ»** بالنون ، وروى عنه رفع اللام وحزنها .
قوله تعالى : **(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)** لما عرف العباد عظيم نعمه ، وإزال القرآن نزه نفسه عن الأولاد والأبناء فقال : **«فَتَعَالَى اللَّهُ»** أى جل الله الملك الحق ، أى ذو الحق . **(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ)** علم نبيه كيف يتلقى القرآن . قال ابن عباس : كان عليه السلام يادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك وأمره **«وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ»** . وهذا كقوله : **«لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»** على ما يأتى . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : لا تسله قبل أن تنتهيه . وقيل : **«وَلَا تَعْجَلْ»** أى لا تسل إزاله **«مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ»** أى يأتى **«وَحْيُهُ»** . وقيل : المعنى لا تقه إلى الناس قبل أن يأتى بيان تأويله . وقال الحسن : نزلت فى رجل لطم وجه أمرأته ، فبلغت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب القصص ، فبغل النبي صلى الله عليه وسلم لما القصص ، فقل **«الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ»** ولما قال : **«وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا»** أى فهما ، لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك . وقرأ ابن مسعود وغيره **«مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ»** بالنون وكسر الضاد **«وَحْيُهُ»** بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥)

قوله تعالى : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ) قرأ الأعمش باختلاف عنه «فَنَسَى» بإسكان الياء وله معنيان : أحدهما — تركه ؛ أى ترك الأمر والعهد ؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» . [وثانيهما] ^(١) قال ابن عباس : «نسى» هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان منه لأنه عهد إليه فنسى . قال ابن زيد : نسي ما عهد الله إليه في ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس . وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذاً بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعاً . ومعنى «مِن قَبْلُ» أى من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهى عنها . والمراد تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى طاعة بنى آدم الشيطان أمر قديم ؛ أى إن قَصُرَ هؤلاء العهد فإن آدم أيضاً عهدنا إليه فنسى ؛ حكاية التشبیه وكذلك الطبرى . أى وإن يمرض يا عهد هؤلاء الكفرة عن آياتي ، ويخالفوا رسلي ، ويطيعوا إبليس ، قدسماً فعل ذلك أبوه آدم . قال ابن عطية : وهذا التأويل ضعيف ، وذلك كون آدم مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بنبي ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففى هذا غشاضة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما الظاهر في الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا يتعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى عهد صلى الله عليه وسلم ألا يسجل بالقرآن ، مثل له بنى قبله عهد إليه فنسى فموجب ؛ ليكون أشد في التحذير ، وأبلغ في العهد إلى عهد صلى الله عليه وسلم ؛ والعهد هاهنا في معنى الوصية ؛ «ونسى» معناه ترك ؛ ونسيان الذمور لا يمكن هنا ؛ لأنه لا يتعلق بالناسى عقاب . والعزم المضى على المعتقد في أى شئ كان ؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة لكن لما وسوس إليه إبليس لم يزم على معتقده . والشئ الذى عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة ، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدوله . واختلف في معنى قوله : (وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً) فقال ابن عباس وقناة : لم يجد له صبرا عن أكل الشجرة ، ومواظبة على التزام الأمر . قال

الناس : وكذلك هو في الجنة ، يقال : لقان عزم أي صبر وثبات على التحفظ من المأثم حتى يعلم منها ، ومنه « قَامِرٌ كَمَا صَبَرُوا لَوَلُو الْعَزَمِ مِنَ الرُّسُلِ » . ومن ابن عباس أيضا وحشية السوف ، حفظا لما أمر به ، أي لم يحفظ مما نهته حتى نسي ، وذهب عن طم ذلك بترك الاستدلال ، وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خلّدت في الجنة ، يعني حين تلك الشجرة ، فلم يعلم فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل في عموم النهي وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل ، وعلم أنها لم تدخل في النهي فأكلها تاو بلا . ولا يكون تأييدا للشيء من يعلم أنه ممصية . وقال ابن زيد : « عزما » محافظة على أمر الله . وقال الضحاك : عزمة أمر . ابن كيسان : إصرارا ولا إسمارا للعود إلى الذنب . قال القشيري : والأول أقرب إلى تاويل الكلام ، ولهذا قال قوم : آدم لم يكن من أول العزم من الرسل ، لأن الله تعالى قال : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال المعظم : كل الرسل أولو العزم ، وفي الخبر : « ما من نبي إلا ولد أخطأ أو هم بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا » . فخرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولي العزم نخرج جميع الأنبياء سوى يحيى . وقد قال أبو أمامة : لو أن أحلام بن آدم جمعت منذ خلق الله المخلوق إلى يوم القيامة ، ووضعت في كفة ميزان ، ووضع يعلم آدم في كفة أخرى لرجمهم ، وقد قال الله تبارك وتعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ
 ابْنِ ١١٦ فَقُلْنَا يَنْتَهِدُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ
 مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٨ وَأَنَّكَ
 لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ١١٩

قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ ابْنِ ١١٦)
 في البقرة مستوفى . (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ) نهي ، وبجازه :

لا تَهْلِكُ مِنْهُ لَمَّا تَكُنْ مِنْهَا سَيِّئًا خَرُوجُكَ (مِنْ الْجَنَّةِ) . (تَشْتَقِي) بِنَى أَنْتَ وَزَكَ لَا تَهْمَا
 فِي أَسْوَءِ السَّلَاحِ وَاحِدٌ ، وَلَمْ يَقُلْ : تَشْتَقِي ، لِأَنَّ الْمَعْنَى مَعْرُوفٌ ، وَكُنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ
 الْخَاطِبُ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ . وَأَيْضًا لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا وَالْكَسْبُ لَهَا كَانَ بِالشَّيْءِ أَخْصَرَ .
 وَقِيلَ : الْإِحْرَاجُ وَاقِعٌ عَلَيْهِمَا وَالشَّقَاوَةُ عَلَى آدَمَ وَحْدَهُ ، وَهُوَ شَقَاوَةُ الْبَدَنِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَقِبَهُ
 بِقَوْلِهِ : « إِنْ لَكَ إِلَّا تَجَمُّوعٌ فِيهَا وَلَا تَمَرٌّ » أَيْ فِي الْجَنَّةِ « وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى »
 فَأَعْلَمَهُ أَنَّ لَهُ فِي الْجَنَّةِ هَذَا كُلَّهُ : الْكِسْوَةُ وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْمَسْكَنُ ، وَأَنْتَ إِنْ ضَيَّعْتَ
 الرُّوسِيَّةَ ، وَأَطَعْتَ الْمَدْرَأَ خَرَجَكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَضَيَّعْتَ تَعْبًا وَنَعْبًا ، أَيْ جُمُوعًا وَهَرَمًا وَظِلْمًا
 وَأَصَابَكَ الشَّمْسُ ، لِأَنَّكَ تَرُدُّ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنَ الْجَنَّةِ . وَإِنَّمَا حَصَّهُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ
 وَلَمْ يَقُلْ تَشْتَقِيَانِ : يَسْلُمَانِ أَنْ تَفْقَةَ الزَّوْجَةَ عَلَى الزَّوْجِ ، فَمِنْ يَوْمَئِذٍ جَرَتْ نَفَقَةُ النِّسَاءِ عَلَى
 الْأَزْوَاجِ ، فَلَمَّا كَانَتْ تَفْقَةُ حَوَاءَ عَلَى آدَمَ كَذَلِكَ تَفَقَّاتِ بَنَاتِهَا عَلَى بَنِي آدَمَ بِحَقِّ الزَّوْجِيَّةِ . وَأَعْلَمْنَا
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ التَّفَقُّعَ الَّذِي تَجِبُ لِلرَّأَةِ عَلَى زَوْجِهَا هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ : الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْكِسْوَةُ
 وَالْمَسْكَنُ ، فَإِذَا أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ فَقَدْ خَرَجَ إِلَيْهَا مِنْ تَفَقُّعِهَا ، فَإِنْ تَفَضَّلَ بِسَدِّ ذَلِكَ فَهُوَ
 مَاجُورٌ ، فَأَمَّا هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ فَلَا يَدُلُّهَا مِنْهَا ، لِأَنَّهَا إِقَامَةُ الْمَهْجَةِ . قَالَ الْحَسَنُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ :
 « تَشْتَقِي » شَقَاؤُ الدُّنْيَا لَا يُرَى لِبَنِي آدَمَ إِلَّا نَاصِبًا . وَقَالَ الْفَرَاءُ : هُوَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَدِّ يَدَيْهِ .
 وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : أَهْطَ إِلَى آدَمَ ثَوْرٌ أَحْمَرُ فَكَانَ يَحْرَثُ عَلَيْهِ ، وَيَسْحُ الْعَرَقَ عَنْ جَنْبَيْهِ ،
 فَهُوَ شَقَاؤُهُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَقِيلَ : لَمَّا أَهْطَ مِنَ الْجَنَّةِ كَانَ مِنْ أَوَّلِ شَقَاؤِهِ
 أَنَّ جَبْرِيلَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ حَبَاتٍ مِنَ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : يَا آدَمُ أَزْرِعْ هَذَا ، فَحَرَفَهُ وَزَرَعَ ، ثُمَّ حَصَدَ
 ثُمَّ دَرَسَ ثُمَّ نَقَى ثُمَّ طَحَنَ ثُمَّ عَجَنَ ثُمَّ خَبَزَ ، ثُمَّ جَلَسَ لِأَكْلِ بَدَنِ النَّبِ ، فَتَدَحَّرَجَ وَغِيغَهُ مِنْ
 يَدِهِ حَتَّى صَارَ أَسْفَلَ الْجَبَلِ ، وَجَرَى وَرَاءَهُ آدَمُ حَتَّى تَعَبَ وَقَدْ عَرِقَ جَنْبُهُ ، قَالَ : يَا آدَمُ
 فَكُنْكَ رِزْقًا بِالنَّبِ وَالشَّيْءِ ، وَرِزْقِي وَلَدُكَ مِنْ بَدَنِكَ مَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا .

قوله تعالى : (إِنْ لَكَ إِلَّا تَجَمُّوعٌ فِيهَا وَلَا تَمَرٌّ . وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

فيه معاني :

الأولى : قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا » أى فى الجنة « وَلَا تَمُوتُ » .
« وَأَنْتَ لَا تَطْمَأْنِنُ فِيهَا » أى لا تطمئن . « وَنَظْمَا الشَّمْسِ » أى تجزى الشمس
تجعد جزءا . إذ ليس فى الجنة شمس ، إنما هو ظل ممدود ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع
الشمس . قال أبو العباس : نهار الجنة هكذا ، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر .
قال أبو زيد : « نَحْمَا الطَّرِيقُ يَضْحُو نَحْوُوا إِنْ بَدَأَ لَكَ وَظَهَرَ » وَنَحَيْتُ (نَحَيْتُ) (بالكسر)
نَحَا مَرِرت . وَنَحَيْتُ أَيْضَا لِلشَّمْسِ نَحَاءَ مَدُودِ بَرَزْتُ وَنَحَيْتُ (بالفتح) مثله ، والمستقبل
أُحْيَى فى القبرين جميعا ، قال عمر بن أبى ربيعة :

رَأَيْتُ رَجُلًا إِيمًا إِنْ الشَّمْسُ عَارَضَتْ • فَيَضْحَى وَأَمَّا الْبَنَى فَيَنْخَسِرُ

وفى الحديث أن ابن عمر رأى رجلا عرما قد استظل ، قال : أضح لمن أحمرت له . هكذا
يرويه المحدثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت . وقال الأصبغى : إنما هو أضح لمن
أحمرت له ؛ بكسر الألف وفتح الحاء ، من نَحَيْتُ أُحْيَى ؛ لأنه أمره بالبروز للشمس ؛
ومنه قوله تعالى : « وَأَنْتَ لَا تَطْمَأْنِنُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » . وانشد :

نَحَيْتُ لَهُ كَيْ اسْتَظَلَ زَيْلَهُ • إِنْ الظِّلُّ أُحْيَى فى القيامة قَالِصَا

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما فى رواية . بكسر عنه « وَأَنْتَ » بفتح الحزنة عطفا على
« أَلَّا تَجُوعَ » . ويجوز أن يكون فى موضع رفع عطفا على للوضع ، والمعنى : ولك أنك
لا تظما فيها . الباقون بالكسر على الاستئناف ، أو على السطو على « إِنَّ لَكَ » .

قوله تعالى : فَوَسَّوْا لِلَّهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادِمُ هَلْ أَهْلَكَ عَلَى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٢﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءُهُمَا
وَوَلَفَقَا يَحْصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٣﴾
ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : (فَنُوحِىْٓ اِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) ختم في « الأعراف » . (قَالَ) من الشيطان (يَا آدَمُ هَـٰٓؤُلَآءُ اَعْمَاقُ الشَّجَرِ الَّتِي عَلَيْهَا لَآئِلٌ) وهذا يدل على لشقته، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما ختم في « البقرة » بيانه، وختم هناك تمين الشجرة، وما للملء فيها فلا معنى للإعادة . (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِمَانِ يَظَاهَرَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ) ختم في « الأعراف » مستوفى . وقال القراء : « وَطَفِقَا » في الرمية أقبلًا، قال وقيل : جملًا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَعَصَى » ختم في « البقرة » القول في ذنوب الأنبياء . وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن قوسهم، وتصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل حملها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنة، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم، إذ قد يؤخذ الوزير بما يتلب عليه السانس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قل : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيدي حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، وأجبتهم وهداهم، ومدهم وزكاهم وأخترهم واصطفاهم؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانية — قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يجوز لأحد من اليوم أن ينجر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عه، أو قول نبيه، فاما أن يتدنى ذلك من قبل

(١) راجع ج ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعه الأولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٥ طبعه ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع ج ٧ ص ١٨٠ وما بعدها طبعه الأولى أو ثانية . (٤) راجع ج ١ ص ٨٠٨ وما بعدها طبعه ثانية أو ثالثة .

نفسه فليس يحار لنا في آيات الأذنين البنا، المخاطين لنا، فكيف في آيات الأقدام الأعظم الأكرم
التي المقدم، الذي ملأه الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت : وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل
والإصبع والجنب والتبول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك
إلا في أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه : من
وصف شيئا من ذات الله عز وجل مثل قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَلُولَةٌ » فأشار يده
إلى عنقه قطعت يده ، وكذلك في السمع والبصر يقطع ذلك منه ، لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثة - روى الأئمة واللفظ [مسلم^(١)] عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « أخرج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم
يا موسى أصطفاك الله عز وجل بكلامه وخط لك بيده يا موسى : أتلومني على أمر ففكره الله
عليّ قبل أن يخلفني بأربعين سنة فخرج آدم موسى ثلاثا^(٢) قال الموهل قوله : « فخرج آدم
موسى » أي غلبه بالجنة . قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم حل موسى
عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن
يميره بخطيئته قد غفرها الله تعالى له ؛ ولتلك قال آدم : أنت موسى الذي آتاك الله التوراة ،
وفها علم كل شيء ، فوجدت فيها أن الله قد قدر عليّ المعصية ، وقدر عليّ التوبة منها ، وأسقط
بذلك اللوم عني أتلومني أنت والله لا يلومني ؛ وبمثل هذا أخرج ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم
أن عثمان بن عفان أحد ؛ فقال ابن عمر : ما عليّ عثمان ذنب ؛ لأن الله تعالى قد غفاه عنه بقوله :
« وَقَدْ غَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعيره من ير أن لو كان
كما يسميه غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول في الأبرار الكافرين : « وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا » ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَكْفُرَنَّ بِكَ
وَأَكْفُرَنَّ بِلَا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ » فكيف باب هو نبي قد أجابه ربه وتاب عليه وهدي .

(١) في الأصول : الله تعالى . والتصويب من صحيح مسلم .

(٢) ثلاثا : أي قال النبي صلى الله عليه وسلم « فخرج آدم موسى » ثلاث مرات .

الرابعة - وأما من عمل الخطايا ولم يأتها للتقوى، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يخرج مثل حبة آدم، فيقول طوبى لي أن قلت لو زيت أو سرت وقد قدر الله لي ذلك، والأمة بحمة على جوارح الحسن على إحسانه، ولوم المصيبة على إساءته، وتعميد ذنوبه عليه.

الخامسة - قوله تعالى : (فتوى) أى فسد عليه عيشه ، حكاه الفلاس واختاره القشيري . وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول : « فتوى » فسد عيشه بقرينه إلى الدنيا ، والفتى الفساد ، وهو تأويل حسن ، وهو أولى من تأويل من يقول : « فتوى » معناه ضل ، من الفتى الذى هو ضد الرشاد . وقيل : معناه جهل موضع وشدة ، أى جهل أن تلك الشجرة هى التى نهى عنها ، والفتى الجهل . وعن بعضهم « فتوى » فيتم من كثرة الأكل ، والزخرفة : وهذا وإن صح على لغة من قلب الياء للكسور ما قبلها ألفاء ، فيقول في قى وقى ، فتى وقى وهم بنو طي تخسروا خيبت .

السادسة - قال القشيري أبو نصر قال قوم قال : معى آدم وغوى ولا يقال له ماص ولا غوى ، كما أن من خاط مية يقال له : خاط ، ولا يقال له خياط ما لم يترك منه الخياطة . وقيل : يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه ، وهذا تكلف ، وما أضيف من هذا إلى الأنياء إما أن تكون صفات ، أو ترك الأولى ، أو قبل النبوة .

قلت : هذا حسن ، قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى : كان هذا من آدم قبل النبوة ، ودليل ذلك قوله تعالى : « ثُمَّ أَتْبَاهُ رَبُّهُ قَاتَبَ عَلَيْهِ وَهَدَى » فذكر أن الأجتهاد والمداية كانا بعد المصيان ، وإذا كان هذا قبل النبوة بفائز عليهم الذنوب وجها واحداً ، لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم ، فإذا بهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب . وهذا قيس والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ أَهَبْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمِنَ آتِبَعِ هُدًى فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَ ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُو يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿١٢٣﴾

قَالَ رَبِّ لِرَحْمَتِي أَغْنَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ
 آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ
 وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْوَقُ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : (قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا) خاطب آدم وإبليس . ومنها : أى من الجنة .
 وقد قال لأبليس : « أخرج منها مذمومًا مدحورًا » فقله أخرج من الجنة إلى موضع من
 السماء ، ثم أهبط إلى الأرض . (بِمَضْمُونٍ مَدُونٍ) هدم في « البقرة » أى أنت مدق
 حية ولأبليس وهما مدعان لك . وهذا يدل على أن قوله : « أهبطا » ليس خطابا لآدم
 وحواء ؛ لأنهما ما كانا متعادين ، وتضمن هبوط آدم هبوط حواء . (فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى)
 أى رشدًا وقولًا حقًا . وقد هدم في « البقرة » . (فَمَن آتَيْتِ هُدًى) مبنى الرسل والكتب .
 (فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل
 في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، وتلا الآية . وعنه : من قرأ القرآن وآتبع ما فيه هداه الله من
 الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، ثم تلا الآية . (وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي) أى
 ديني ، وتلاوة كتابي ، والعمل بما فيه . وقيل : عما أنزلت من الدلائل . ويحتمل أن يعمل
 الذكر على الرسول ؛ لأنه كان منه الذكر . (فَإِنَّ لَهُ مَبِيتَةً مِّمَّنَّا) أى عيشًا ضيقًا ، يقال :
 منزل ضحك وعيش ضحك يستوى فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع ؛ قال عنترة :
 إِنِّي لِحَقْوَا أَكْرَزُوا وَإِنْ يَسْتَلْعَمُوا . أَشَدُّ وَإِنْ يَلْقُوا بِضِيكَ أَزِلُ .

وقال أيضا :

إِنِّ لِلنِّبَةِ لِسُومَتْلٍ مَّتْلٌ • مِثْلُ إِنَّا تَزَلُّوا بِضِيكَ الْمَسْمُوتِلِ

وقرى « ضحكى » على وزن قتل ؛ ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والفتنة
 والتوكل عليه وعلى قسمته ، فصاحبه ينقضي مما رزقه الله - عز وجل - بسباح وسهولة

(١) راجع ج ١ ص ٢١٩ وما بعدها طبع ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٢٨ طبع ثانية أو ثالثة .

ويعيش منها وإلخاء كما قال الله تعالى : « قَسِيحٌ بَشِيرٌ تَلِيَّةٌ » . ما تعرض عن الذين
 مستول عليه الحرص القوي لا يزال يطرح به إلى الأبد من العناء سلسط عليه الشغ الذي
 يقبض يده من الإخفاق، فيبته ضحك، وحله مظلمة، كما قال بعضهم : لا يمرض أحد من
 ذكره إلا أنظم عليه وقته، وتشتوش عليه رزقه، وكان في بيته ضحك . وقال مكرمة :
 « ضحكنا » كبا حراما . الحسن : طعام الفريج والزقوم . وقول راج وهو الصحيح أنه
 مذهب القبر ؛ قاله أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن
 النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » ؛ قال أبو هريرة : يضيق على
 الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلعه ، وهو المبيشة الضك . (وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)
 قيل : أعمى في حال وبصيرا في حال ؛ وقد تحلسم في آخر « سبحان » . وقيل : أعمى عن
 الحجة ؛ قاله مجاهد . وقيل : أعمى من جهات الخير ، لا يتبدى لشيء منها . وقيل : عن
 الحيلة في دفع العذاب عن نفسه ، كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا يراه . (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي
 أَعْمَى) أي بآي ذنب حاقبتني بالعمى . (وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) أي في الدنيا ، وكأنه بظن أنه
 لا ذنب له . وقال ابن عباس ومجاهد : أي « لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى » عن حمزة « وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا »
 أي طالما بمحبتني ؛ القشيري : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة في الدنيا . (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ
 آيَاتُنَا) أي قال الله تعالى له : « كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا » أي دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا .
 (فَتَبَيَّنَا) أي تركتها ولم تنظر فيها ، وأعرضت عنها . (وَكَذَلِكَ أَلْقَيْنَا نَفْسَكَ) أي ترك
 في العذاب ؛ يريد جهنم . (وَكَذَلِكَ يُجْزَى مَنْ أَسْرَفَ) أي وكما جزينا من أعرض عن
 القرآن ، وعن النظر في المصنوعات ، والتفكر فيها ، وجاوز الحد في المعصية . (وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ
 رَبِّهِ) أي لم يصدق بها . (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ) أي أنقطع من المبيشة الضك ، وعذاب
 القبر . (وَأَنَّى) أي أდوم وأثبت ؛ لأنه لا يتقطع ولا يتقضى .

(١) جيش أرفع ورائع ورفيع ؛ شبيب واسع طيب .

(٢) رابع جـ ١٠ ص ٢٢٢ طية أوله أو ثالثة .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا لَهْمَ كَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿١٣٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا لَهْمَ) يريد أهل مكة ؛ أى أفلم يتبين لهم خبر من أهلكتنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة ، فيرون بلاد الأمم الماضية ، والقرون الخالية خاوية ؛ أى أفلم يخافون أن يعمل بهم مثل ما عمل بالكفار قبلهم . وقرأ ابن عباس والسلمى وغيرهما « يَدَّبَّرُوا لَهْمَ » بالنون وهى عين . و « يد » بالياء مشكل لأجل الفاعل ، فقال الكوفيون : (كَمْ) للفاعل ؛ النحاس ؛ وهذا خطأ ؛ لأن « كَمْ » استغناء فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى أولم يدبّر لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكتنا . وحقيقة « يد » يدل على الهدى ؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يد الهدى لهم . قال الزجاج : « كَمْ » في موضع نصب بـ (أهلكتنا) .

قوله تعالى : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا) فيه تقديم وتأخير ؛ أى ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ؛ قاله قتادة . والزام الملازمة ؛ أى لكان العذاب لازما لهم . وأضمر اسم كان . قال الزجاج : (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) عطف على « كلمة » . قتادة ؛ والمراد القيامة ؛ وقاله القتيبي . وقيل : تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى : (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) أمره تعالى بالصبر على أقوالهم ؛ إنه سار ؛ إنه كاهن ؛ إنه كذاب ؛ إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ؛ فإن لسانهم وقتا مضربا لا يتقنم ولا يثامر . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ إذ لم يتصل الكفار بعد آية القتال بل بقي المعظم منهم .

قوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) قال أكثر التأولين : هذا إشارة إلى الصلوات الخمس « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » صلاة الصبح (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) صلاة العصر (وَمِنْ آتَاءِ الْقَبِيلِ) التمتع (وَأَطْرَافِ النَّهَارِ) المغرب والظهر ؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ؛ فهي في طرفين منه ؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب . وقيل : النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال ، ولكل قسم طرفان ، فبعد الزوال طرفان ؛ الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر ؛ قال عن الطرفين أطرافا على نحو « قَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل . وقيل : النهار الجنس فكل يوم طرف ، وهو إلى جمع لأنه يعود في كل نهار . « وَأَتَاءِ الْقَبِيلِ » معاته وواحد الآتاء إني وإني وأنى . وقالت فرقة : المراد بالآية صلاة التطوع ؛ قاله الحسن .
قوله تعالى : (لَعَلَّكَ تَرْضَى) يفتح اللام ؛ أى لعلك تاتى على هذه الأعمال بما ترضى به . وقرا الكاسي وأبو بكر عن عاصم « تُرَضَى » بضم اللام ؛ أى لعلك تسلى ما يرضيك .

قوله تعالى : (وَلَا تَحْذَرُنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ زُجْرًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُوكُم مِّنْهُ خَيْرًا وَأَبْقَى ۖ وَأَمْرًا أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ۚ)
قوله تعالى : (وَلَا تَحْذَرُنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ) وقد تقدم معناه في « الحجر » .
(زُجْرًا) مفعول به « حذرتنا » . و (زَهْرَةَ) نصب على الحال . وقال الزجاج : « زهرة » منصوبة بمعنى « متنا » لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ؛ أو جعل مضمروا وهو « جعلنا » أى جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ؛ عن الزجاج أيضا . وقيل : هو يدل من الماء في « به » على الموضع ، كما تقول : مررت به أخاك . وأشار القرطبي إلى نصبه على الحال ؛ والعامل فيه « متنا » قال : كما تقول مررت به المسكين ؛ وقدره « متنا » به زهرة الحياة في الدنيا وزينة فيها . ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل « صُنِعَ اللَّهُ » و « وَعَدَ اللَّهُ » وفيه

نظر . والأحسن أن ينصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرئ « وَلَا الْبَلَّ سَابِقُ النَّهَارِ » بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون « الحياة » مخفوضة على البدل من « ما » في قوله : « إِلَى مَا مَتَّعْتَنَا بِهِ » فيكون التقدير : ولا تحدة عينك إلى الحياة الدنيا زهرة أي في حال زهرتها . ولا يحسن أن يكون « زهرة » بدلا من « ما » على الموضع في قوله : « إِلَى مَا مَتَّعْتَنَا بِهِ » لأن « لَتَنَتَّيْمُ » متعلق بـ « مَتَّعْتَنَا » و « زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » بمعنى زيتها بالنبات . والزهرة ، بالفتح في الزاى والماء تَوْر النبات . والزهرة بضم الزاى وضع الماء النجم . وبنو زهرة يسكون الماء ؛ قاله ابن عزيز . وقرأ عيسى بن عمر « زَهْرَةُ » بفتح الماء مثل تَهْر وتهر . ويقال : سراج زاهر أي له بريق . وزهر الأشجار ما يروى من ألوانها . وفي الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ؛ أي يرا اللون ؛ يقال لكل شيء مستنير : زاهر ، وهو أحسن الألوان . (لَتَنَتَّيْمُ فِيهِ) أي لتبتليم . وقيل . لتجمل ذلك فتنة لم وضللا . ومعنى الآية : لا تجمل يا محمد زهرة الدنيا وزنا ، فإنه لا بقاء لها . « وَلَا تَمُدَّنَّ » المنع من لا تنظر ، لأن الذي يمد بصره ، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن ، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه .

مسئلة - قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلني عليه السلام إلى رجل من اليهود ، وقال قل له يقول لك عهد : نزل بنا ضيف ولم يلقَ عدنا بعض الذي يصلحه ؛ بمعنى كذا وكذا من البقي ، أو أسلفني إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا يرهن . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : « والله إنى لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو لجنى لأديت إليه اذهب يدعى إليه » ونزلت الآية ترمية له عن الدنيا . قال ابن عطية : وهذا مقترض أن يكون سببا ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ويدرعه صرهوة عند يهود بهذه القصة التي ذكرت ؛ وإنا الظاهر أن الآية متأسفة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى

لأنهم على ترك الاعتبار بالأنف السالفة ثم توصلهم بالسلب الموجل ، ثم أمر نوح بالاحتضار
لشأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك
مصرم عنهم صائر إلى خزي .

قلت : وكذلك ما روى عنه عليه السلام أنه مرّ بإبل بن المصطلق وقد قصبت^(١)
في أبرها [وأبارها] من السن فتقع بثوبه ثم مضى ؛ لقوله عز وجل : « وَلَا تَمْلِكْ مِنْكَ^(٢)
إِلَى مَا مَتَّعَتْهُ زَوَاجًا مِنْهُمْ » الآية . ثم سلّاه فقال : (وَيَرْزُقُ رَبُّكَ خَيْرًا وَأَيُّ) أي ثواب
الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفتى . وقيل : معنى بهذا الرزق
ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والنفام .

قوله تعالى : (وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ) أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم ،
ويصطبر عليها ويلزمها . وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع
أمنه ، وأهل بيته على التخصيص . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح
إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول : « الصلاة » . و يروى أن عروة بن الزبير
رضي الله عنه كان إذا رأى شيئا من أخبار السلاطين وأحوالهم يادر إلى منزله فدخله ،
وهو يقرأ « وَلَا تَمْلِكْ مِنْكَ » الآية — إلى قوله : « وَأَيُّ » ثم ينادى بالصلاة :
الصلاة يرحمك الله ؛ ويصلي . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره للصلاة
الليل ويصلي وهو يمتثل بالآية .

قوله تعالى : (لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا) أي لا تسلك أن ترزق نفسك وإيهم ، وتشتغل عن
الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك وإيهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهله
ضيق أمرهم بالصلاة . وقد قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .
مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » .

قوله تعالى : (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) أي الجنة لأهل التقوى ؛ معنى العاقبة المحمودة .
وقد تكون لغیر التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهي كالمعدومة .

(١) قصبت في أبرها ؛ هو أن تحف أبرها وأبارها على أخذها وذلك إما بكود من التمس .

(٢) الزائدة من « النجاة » لابن الأثير .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَرَأَيْنَاهُمْ بَيِّنَةً
 مَا فِي السُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
 لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزَلَ
 وَنُخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَتَعْلَمُونَ مَنْ أَهْبَبُ الصِّرَاطِ
 السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) يريد كفار مكة ؛ أي لولا يأتينا به
 آية توجب العلم الضروري . أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا . أو هلا يأتينا بالآيات التي
 تقرحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : (أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي السُّحُفِ الْأُولَى) يريد التوراة والإنجيل
 والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بها فيها . وقرئ « السُّحُفِ » بالتخفيف .
 وقيل : أولم تأتاهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة . وقيل :
 أولم تأتاهم إهلاك الأمم الذين كفروا وأقرحوا الآيات ، فإيؤنهم إن اتهم الآيات أن يكون
 حليم حال أولئك . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحق وحفص
 « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ » بالنساء ثانياً البيت . الباقرن بإلهاء لتقدم الفعل ؛ ولأن البيت هي البيان
 والبرهان فرددوه إلى المعنى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الكسائي « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ
 مَا فِي السُّحُفِ الْأُولَى » قال : ويموز على هذا « بَيِّنَةٌ مَا فِي السُّحُفِ الْأُولَى » . قال
 للنحاس : إذا نوت « بَيِّنَةٌ » ورفعت جعلت « ما » بدلا منها ، وإذا نصبها فعل الحال ؛
 والمعنى : أولم تأتاهم ما في الصحف الأولى مبينا .

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ) أي من قبل بعثه محمد صلى الله عليه
 وسلم وتزول القرآن (لَقَالُوا) أي يوم القيامة (رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا) أي هلا
 أرسلت إلينا رسولا . (فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزَلَ وَنُخْزَى) وقرئ « نُنْزَلَ وَنُخْزَى » مل

ما لم يسم فاعله . وروى أبو سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملائك
 في الفترة والمعتوه والمولود قال : " يقول الملائك في الفترة لم يأتني كتاب ولا رسول - ثم تلا -
 « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ جَدَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا » - الآية -
 ويقول المعتوه رب لم تجعل لي محفلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود رب لم أدرك العمل
 مَرُوع لم تار فيقول لم ردوها وأدخلوها - قال - مَرُدُّهَا أَوْ يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي ظِلِّهِ
 سعيدا لو أدرك العمل وبسك عما من كان في ظِلِّهِ علم الله شفا لو أدرك العمل فيقول الله تبارك
 وتعالى إياي عصيت فكيف رسل لو أنتم " وروى موقوف عن أبي سعيد قوله : وفيه طبر
 وقد بيانه في كتاب « التذكرة » وه آتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يتحنون في الآخرة .
 « قَتَبَ » نصب بحجرات التخصيص . « آيَاتِكَ » يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .
 « مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ » أي في العذاب « وَتَحْزَى » في جهنم ، قاله ابن عباس . وقيل :
 « مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ » في الدنيا بالعذاب « وَتَحْزَى » في الآخرة بعداها . (قُلْ كُلُّ مَرِيضٍ)
 أي قل لهم : بعد كل مريض ، أي كل المؤمنين والكافرين منظر دوائر الزمان ولن يكون
 النصر . (مَرِيضُوا أَسْتَأْذِنُونَ مِّنْ أَهْلِهَا الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) يريد الذين المستقيم
 واضدى . والمضى . فسلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق . وقيل : فسلمون
 يوم القيامة من اهتدى إلى طريق الجنة . وفي هذا صرب من الوعيد والتخويف
 والتهديد ختم به السورة . وفرى « قَتَبُوا قَتْلُونَ » . قال أبو رافع : حطفت من رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ، ذكره الزمخشري . وه من « في موضع رمع عند الرماح . وقال الفراء :
 يجوز أن يكون في موضع نصب مثل « وَاللَّهُ يَتْلُمُ الْمُفْسِدِينَ الْمُصْلِحِ » . قال أبو إسحق :
 هذا خطأ ، لأن الاستعظام لا يعمل فيه ما فعله ، وه من « هنا استعظام في موضع رمع
 بالإبتداء والمضى . فسلمون أصحاب الصراط السوي نحن أم أنتم » . قال الحاس . والفراء
 يذهب إلى أن معنى « مَنِ اهْتَدَى الصَّرَاطِ السَّوِيِّ » من لم يضل ، وإلى أن معنى « وَمَنِ
 اهْتَدَى » من صل ثم اهتدى . وقرأ يحيى بن جمر وعاصم الجهمري « فَيَسْلَمُونَ مَنِ اهْتَدَى »

الصَّراطِ السَّوْيِ ، يستدعي الواو بعدها ألف تأتي على فتل بشير حمزة ؛ وتأتي الصراط شاذ قليل ؛ قال الله تعالى : « أَهْدِنَا الصَّراطَ الْمُسْتَقِيمَ » بقاء ، مذ كذا في هذا وق غيره ، وقد رد هذا إبراهيم قال ؛ إن كان من السواء وجب أن يقال السَّوْيِ وإن كان من السَّوَاءِ وجب أن يقال : السَّيِّء بِكسر السين والأصل السَّوْيَا . قال الزمخشري : وفريق السَّوَاءِ بمعنى الوسط والمعدل ؛ أو المستوي . النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والمجدي أن يكون الأصل « السَّوْيِ » والسكن ليس بجائز حصين ، فكأنه قلب الحمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا افتتح ما قبلها . تمت والحمد لله وحده .

سورة الانبياء

مكية في قول الجميع ، وهي مائة وأثنا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : « أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » ①
 « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » ②
 « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ » ③

قوله تعالى : (« أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ») قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم وطه والأنبياء من التلق الأول ، وعن من تلاه ؛ يريد من قديم ما كتب وحفظ من القرآن كاللغات الثلاث . وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبنى جدارا ، فبينما هو آخر في يوم تزل هذه السورة ، فقال الذي كان يبنى الجدار : ماذا تزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : تزل « أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » ففرض يده من البيان هو قال : والله لا ينبت أبدا وقد أقرب الحساب . « أَقْرَبَ » أي قريب الوقت

الذى يحاسبون فيه على اعمالهم . . الناس . قال لمن عيسى : انزلوا بالانس حنا للشركون
 بدليل قوله تعالى : **« اِنَّا نَحْكُمُهُمْ هَمًّا مَّيْمُونًا »** الى قوله : **« اَنَّا نَخْتَارُ لَكَ السَّحَرَاءُ نَحْمَرُهُنَّ »** .
 وقيل : الناس عموم وان كانا **« السَّحَرَاءُ »** في ذلك الوقت كفار فريش ، يدل على ذلك ما وجد
 من الآيات ، ومن علم اقتطاع الساعة فصر أمه ، وطابت نفسه بالثوبة ، ولم يركن الى الدنيا ،
 فكان ما كان لم يكن انما لمحب . وكل آية قريبة والموت لا محالة آت ، وموت كل انسان
 قيام ساعته ، والقبالة ايضا قريبة بالإضافة الى ما مضى من الزمان ، فما بقي من الدنيا اقل
 مما مضى . وقال الضحالك : سئى . **« اقرب لانس حسابهم »** اى حسابهم مبنى اهل مكة ،
 لانهم استبطوا ما وعدوا به من العلب تكدياء ، وكان قلوبهم يوم يدر . الحاس . ولا يجوز
 في الكلام اقرب حسابهم لانس ، لئلا يتقدم مضمحل على مظهر لا يجوز أن ينوى به التأخير .
« وهم في غفلة شمرضون » ابتداء وغير . ويجوز الصب في غير القرآن على الحال . وفيه
 وجهان : أحدهما . . وهم في غفلة شمرضون . بنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى . عن
 القاهب الحساب وعما جاء به عدل الله عليه وسلم . وهذه الواو عد سبويه بمعنى « إذ »
 وهى التى رسمها الحويون واو لالحال ، كما قال الله تبارك وتعالى : **« يَعْنَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ »**
« وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَفْئِسْمَهُمْ » .

قوله تعالى : **« مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ »** . مُحَدَّثٌ . تمت له ذكره . وأجاز
 الكسائى والعراء : مُحَدَّثًا . بمعنى ما ياتهم عديمًا ، صب على الحال . وأجاز الفراء ايضا رفع
« مُحَدَّثٍ » على التثنية للذكر ، لانه لو حذف « مِنْ » رفعت ذكرا ، اى ما ياتهم ذكر من ربهم
 مُحَدَّثٌ ، يمدح في الزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، لانه كان ينزل سورة بعد
 سورة ، وآية بعد آية ، كما كان ينزل الله تعالى عليه في وقت بعد وقت ، لان القرآن مخلوق .
 وقيل : **« الذِّكْرُ »** ما يذكر به الى صلى الله عليه وسلم ويصنعهم به . وقال : **« مِنْ رَبِّهِمْ »**
 لان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحى ، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره
 ذكره ، وهو مُحَدَّثٌ ، قال الله تعالى : **« قَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِيَأْتِيَ بُدْعًا »** . ويقال : فلان في مجلس

الذكر: وقيل: الله ذكر الرسول نفسه؛ الله الحسين بن الفضل دليل ما في سياق الآية: هل هذا إلا بشر مثكم، ولو أراد بالذكر القرآن لقال: هل هذا إلا أساطير الأولين؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى: «وَقُولُوا لَهُمْ لِمَجُتُونَ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» بنى عبد الله عليه وسلم. وقال: «قَدْ أَرْزَلَهُ إِلَهُكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا». (إِلَّا اسْمُهُ) بنى عبد الله عليه وسلم، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته. (وَهُمْ يَقْبَهُونَ) الواو وإلحاق يدل عليه «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» ومعنى «يَقْبَهُونَ» أي يلهون. وقيل: يستغلون؛ فإن حيل تأويله على الله هو احتمال ما يلهون به وجهين: أحدهما - بلذاتهم. الثاني - بصاع ما يتل عليهم. وإن حل تأويله على الشغل احتمال ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما - بالهنا لأنها لعب؛ كما قال الله تعالى: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ». الثاني - يتشاغلون بالفتح فيه، والاعتراض عليه. قال الحسن: كلما جدد لم يذكر استمروا على الجهل. وقيل: يستمعون القرآن مستهزئين.

قوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي ساهية قلوبهم، ممرضة عن ذكر الله، مشتغلة عن التأمل والتفهم؛ من قول العرب: لميتت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه أمي. لميتا ولميتا. و«لا إلهة» نعت تهم الأسم، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت في جميع الإعراب، فإذا نعت النعت الأسم انتصب كقوله: «خَاشِعَةٌ أَبْصَارُهُمْ» و«وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلْمًا» و«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» قال الشاعر:

لِسِرَّةٍ مُوحِشًا طَلَّلَ • يَسْلُوحُ كَأَنَّهُ يَنْطَلُ

أراد: طلل موحش. وأجاز الكسائي والقراء «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية. وأجاز غيرها الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إخمات مبتدا. وقال الكسائي: ويجوز أن يكون المعنى: إلا استمعه لاهية قلوبهم. (وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي تناجوا فيما بينهم بالكتيب، ثم من هم قال: «الَّذِينَ ظَلَمُوا» أي الذين أشركوا؛ ف«الذين ظلموا» بدل من الرلوف «أسروا» وهو طائفة من الناس المتفهم ذكرهم، ولا يوقف على هذا (١) هر كنية حرة؛ أنه خرج أمه وتبين نين الرلوف في خلق كسوف، وهي اغنية الأملاد، واحتباة.

القول على التجوى . قال الميرد وهو كقولك : إن الذين في الدار أطلقوا بنو عبيد الله
 قبح يدل من الواو في أطلقوا . وقيل : هو رقع على القدم، أى هم الذين ظلموا . وقيل :
 على حذف القول ، القدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ، مثل : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» . وأختار هذا القول حماس ، قال : والدليل على صحة
 هذا الجواب أن جمده «هل هذا إلا بشر مثلكم» . وقول راح : يكون منصوبا بمعنى ألقى
 الذين ظلموا . وأجاز القراء أن يكون خفضا بمعنى أقرب للناس الذين ظلموا حاجهم ؛
 ولا يوقف على هذا الوجه على التجوى . ويوقف على الوجه المتقدم الثلاثة قبله ؛ فهذه
 خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرقع على لغة من قال : أكلت اليراعيت ؛ وهو حسن ؛ قال
 الله تعالى : «ثُمَّ غَمُوا وَخَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ» . وقال الشاعر :

بك نال النضال دون الماعى . فأهدين البذل للأغراض
 وقال آخر : ولكن دبابي أبوه وأمه . يحوران يتصرفن السيط أقاريه

وقال الكاشي : فيه تقديم وتأخير ؛ مجازه : والذين ظلموا أسروا الهوى . أبو عبيدة :
 «أسروا» هنا من الأضداد ؛ فيحتج أن يكونوا أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكونوا
 أظهره وأطنوه .

قوله تعالى : (هل هذا إلا بشر مثلكم) أى تاجروا بهم وقالوا : هل هذا الذكر
 الذى هو الرسول ، أو هل هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم ، لا يتميز عنكم بشئ ، يأكل
 الطعام ، ويمشى في الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بين أنه لا يجوز أن
 يرسل إليهم إلا بشرا ليفهموا ويسلمهم . (أَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ) أى إن الذى جاء به محمد صلى
 الله عليه وسلم محمر ، فكيف تجيئون إليه وتقيمونه ؟ فأطلع الله بيه عليه السلام على ما تاجروا
 به . «وه السحرة في اللغة كل ممّوه لا حقيقة له ولا صحة» . (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) أنه إنسان مثلكم
 مثل : «وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ» لأن العقل البصر بالأشياء . وقيل : المعنى ؛ أفقبلون السحر وأنتم تعلمون
 أنه محمر . وقيل : المعنى ؛ أتمدّون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق ؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

(١) هو المراد من جبر محمد بن حراء . ودأب : موضع بالجزيرة ، وهم نبط الشام . والبط : الزيت .

قوله تعالى : قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ① بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَهْلَامُ بِلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ② مَا ءَامَنْتُ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ③

قوله تعالى : (قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أى لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض . وفي مصابح أهل الكوفة « قَالَ رَبِّي » أى قال عبد ربى يعلم القول ؛ أى هو عالم بما نتاجيم به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقول لم هذا ؛ قال النحاس : والقرآن من صحيحان وهما بمتلة الآيتين ، وفيهما من القائلة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره وأمره أن يقول لم هذا ؛ قال النحاس : وأمره أن يقول لم هذا .

وقوله تعالى : (بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَهْلَامُ) قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضلت أعلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلط كالأعلام المخلطة ؛ أى أحويل وأما في المنام ؛ قال منه مجاهد وقتادة ؛ ومنه قول الشاعر :

كَيْفَ ضَلَّ حُلْمُ غُرْمَةٍ حَالِهِ .

وقال التميمي : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أَحْلَبْتُ طَمِيمٌ أَوْ سَرَابٌ جَدِيدٌ . تَرَقَّرَقَ السَّارَى وَأَضَلَّتْ حَالُ

وقال الليثي : الأضلت ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا في « يوسف » . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا أخذوا عن ذلك فقالوا : « بَلْ أَقْرَاهُ » ثم أخذوا عن ذلك فقالوا : « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى هم متحيرون لا يستترون على شيء ؛ قالوا مرة صحر ، ومرة أضلت أعلام ، ومرة أقراه ، ومرة شاعر . وقيل : أى قال لفرق إله ساحر ، وفرق إله أضلت أعلام ؛ طريق إله أقراه ، وفرق إله شاعر . والإقراه الإخلاق ؛ وقد هتتم .

(١) حمله على الأمر عامة . (٢) طبع ٩٩ ص ٢٠٠ ما بعد طبعه لهذا الآية .

(فَلْيَبَيِّنَا آيَةَ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ) أى كما أرسل موسى بالحق وضميرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا حالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغي أن يأتى آية قهرها ، ولم يكن لهم الاقتراح بسد ما رأوا آية واحدة . وأيضا لما لم يؤمنوا آية من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أراها إلا أنه والأبرص فقالوا : هذا من باب الطب ، وليس ذلك من صناعتنا ، وإنما كان سؤالهم تنصا إذ كانت الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سأله لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ بِهَيْمُ خَيْرًا لَّاسْتَعْمَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : (مَا آتَيْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْآنٍ) قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . (أهلكناهم) يريد كان في علينا هلاكها . (أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ) يريد يصدقون ، أى فما آمنوا بالآيات فاستأصلوا ، فلورأى هؤلاء ما أقهرحوا لما آمنوا ، لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا ، وإنما تأخر عقابهم لعلنا بأن في إصلاحهم من يؤمن . و « من » زائدة في قوله : « من قرآن » كقوله : « فَمَا يَكُنْ مِنْ أَعْيُنِهِ حَاجِرِينَ » .

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ۝

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ) هذا رد عليهم في قولهم : « هل هذا إلا بشر مثلكم » وتأسيس لنبه صلى الله عليه وسلم ، أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

﴿ قَاسَطُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، قاله سفیان . وسلم أهل الذکر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء بما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر عبد الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذکر القران؛ أي قاسطوا المؤمنين المالمين من أهل القران؛ قال جابر الجعفي : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه نحن أهل الذکر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالنبي لا يتبعوا بالإنكار ويقولكم ينبغي أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظرُوا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والمالك لا يسمى رجلا، لأن الرجل يقع على ماله ضد من لفظة؛ تقول : رجل وأمرأة، ورجل وصبي؛ فقوله : **إِلَّا رَجُلًا** ، من بني آدم . وقرا حفص وحزمة والكسائي **« تَوْحِيحًا لَيْتِيمًا »** .

مسئلة — لم يختلف العلماء أن العامة عليها تخليد طاعتها، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : ﴿ قَاسَطُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ واجمعوا على أن الأعمى لا يذله من تخليد غيره ممن يشق بيمزه بالقبلة إذا أشكلت عليه؛ فكلك من لا علم له ولا بصير يعني ما يبين به لا يذله من تخليد طاعه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها اقتفاء؛ بل جعلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير في « جعلناهم » للأنبياء؛ أي لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . « وَجَسَدًا » اسم جنس؛ ولهذا لم يقل أجسادا . وقيل : لم يقل أجسادا؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن؛ تقولون منه : تجسدت كما تقول من الجسم تجسم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصبغ، وهو الهم لرضا؛ قال النابغة :
 (١) **وَمَا هَرَقَ عَلَى الْأَصْلَابِ مِنْ جَسَدٍ** .

• فلا تسمى له جسدا كعبه •

أسم بالله أروا له بالهاء التي كانت تصب في ليلاطة على الأصابع •

وقال الكلبى : والجسد هو المجد الذى فيه الروح يا كل ويشرب ؛ فعل مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب ؛ فعل مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب غسما ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) بنى الأنبياء ؛ أى بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبهم . (وَمَنْ نَسَاهُ) أى الذين صدقوا الأنبياء . (وَأَهْلَكَ السَّافِرِينَ) أى المشركين . قوله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا) بنى القرآن . (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) رفع بالابتداء والجملة فى موضع نصب لأنها نعت للكتاب ؛ والمراد بالذكر هنا الشرف ؛ أى فيه شرفكم ، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمُكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوقيف فقال عز وجل : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر أمر دينكم ؛ وأحكام شرعكم ، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ، أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟ ! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل : مكارم أخلاقكم ، وعلمكم أعمالكم . وقال سهل بن عبد الله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنى والأول بعينها ؛ إذ هى شرف كلها ، والكتاب شرف لئينا طيه السلام ؛ لأنه مجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ، دليله قوله طيه السلام : « القرآن حجة لك أو عليك » .

قوله تعالى : وَكَرَّ قَصْمَنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِبَأْسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا وَإِنَّا لَكَا ظُلُمِينَ ﴿١٤﴾ قَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً) يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حضور وكان يست إلىهم بنى اسمه شبيب بن ذى مهتم ، وقبر شبيب هذا باليمن يقال له ضنّ كثير الطبع ، وليس بشبيب صاحب مدائن ، لأن قصة حضور قبل مدة ميسر عليه السلام ، وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام ، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرّس في ذلك التاريخ نيا لم اسمه حنظلة بن صفوان ، وكانت حضور بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت يختصر فأعلمه أنى قد سلطه على أرض العرب ، وأنى مستقيم بك منهم ، وأوحى الله إلى أرميا أن أحمل معه بن مدائن على البراق إلى أرض الرّاق ، كي لا تصيبه النّعمة والبلاء منهم ، فأنى مستخرج من صلبه نيا في آخر الزمان اسمه جد ، فحمل معه وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة اسمها معانة ، ثم إنى يختصر نهض بالجيش ، وكان للعرب في مكان - وهو أول من أخذ للمكانين فيما ذكروا - ثم شنّ النار على حضور فقتل وسبي ونزب العامر ، ولم يترك بحضور أثرا ، ثم أنصرف راجعا إلى السواد . و « كم » في موضع نصب بـ « قصمنا » . والقسم الكسر ، يقال : قصمت ظهر فلان واقصمت سنة إذا أنكسرت ، والمعنى به ها هنا الإهلاك . وأما القسم (بالقاء) فهو الصدع في الشئ من غير يقوّة ، قال الشاعر :^(١)

كَانَهُ مُتَلْعٍ مِنْ فِضَّةٍ نَبْهٌ • فِي مَلَبٍ مِنْ عَذَارَى الْحَيِّ مَقْصُومٌ

ومنه الحديث « فيقيم عنه وإن جيته ليغصد عرقا » . وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً أَى كافرة ، بنى أهلها . والظلم وضع الشئ في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان . (وَأَنشَأَا) أَى أوجدا وأحدثا بعد إهلاكهم (قَوْمًا آخَرِينَ) . (فَلَمَّا أَحْسَا) أَى رأوا ضلالتا ، يقال : أحسنت منه ضمنا . وقال الأخفش : « أَحْسَا » خافوا وتوقصوا . (إِنَّا نَمُ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) أَى يهربون ويفترون . والركض العدو بنسبة الوطء . والركض

(١) وترى حضورا . (بالفتحة المعجمة) . (٢) كذا في الأصل . (٣) هو ذوالقعدة ، يذكر في الآية وهو قتي ملحضة كطرح ضى . وفيه : أَى منى نية الملوك في الحرب .

تَحْرِيكَ الرَّجُلِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وَكَفَضْتَ الْقَرْصَ بِرِجْلِ كَسْتَحْتَهُ لِيَعْلَمُوا كَثْرَتِي قَبْلَ دَفْعِ الْقَرْصِ لِذَا عَدَا وَلَيْسَ بِالْأَصْلِ ، وَالصَّوَابُ رُكُضَ الْقَرْصِ عَلَى مَا لَمْ يَسْمَعْ قَاعُهُ فَهُوَ مَرْكُوضٌ . (لَا تَرْكُضُوا) أَيْ لَا تَغْزُوا . وَقِيلَ : إِنْ الْمَلَائِكَةُ نَادَتْهُمْ لَمَّا أَتَوْا أَسْتَهْزَأَ بِهِمْ وَقَالَتْ : « لَا تَرْكُضُوا » . (وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُرْقُمُ فِيهِ) أَيْ إِلَى نَعْمِكُمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ جُلُوكُمْ ، وَالْثَرْفُ الْمُنْتَمِ ، يُقَالُ : أَرْقَمْتُ عَلَى فُلَانٍ أَيْ وَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي مَعَايِهِ . وَإِنَّمَا أَرْفَعَهُمُ اللَّهُ عَنِ جُلُوكِهِمْ كَمَا قَالَ : « وَأَرْقَمْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . (لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) أَيْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ شَيْئًا مِنْ دُنْيَاكُمْ ؛ أَسْتَهْزَأَ بِهِمْ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى « لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ » عَمَّا نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ فَتَنْهَوْنَ بِهِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى « لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ » أَنْ تَوَسَّوْا كَمَا كُنْتُمْ تُسْأَلُونَ ذَلِكَ قَبْلَ نَزُولِ الْبَاسِ بِكُمْ ؛ فَبِمَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ أَسْتَهْزَأَ وَتَهَرَّجًا وَتَوَيْجًا . (قَالُوا يَا وَيْلَنَا) لَمَّا قَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ : « لَا تَرْكُضُوا » وَنَادَتْ بِالنَّارَاتِ الْأَنْبِيَاءُ ! وَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا يَكْفِيهِمْ عَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي سَلَطَ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ فَتَحْتَمُّوا النَّبِيَّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا . (يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا حِينَ لَا يَنْفَعُ الْإِعْتِرَافُ . (قَا زَالَتْ يَلُكَ دَعْوَاهُمْ) أَيْ لَمْ يَزَالُوا يَقُولُونَ : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . (حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) أَيْ بِالسُّيُوفِ كَمَا يَحْصِدُ الزَّرْعَ بِالْمَنْجَلِ ؛ قَالَهُ جَاهِدٌ . وَقَالَ الْحَسَنُ : أَيْ بِالْمَنْزَابِ . (خَامِدِينَ) أَيْ مَبْتِينَ . وَالْمُحْمَدُ الْمُحْمَدُ تَعْمُودُ النَّارِ إِذَا طُفِئَتْ فَشَبَّ نَعُودُ الْحَيَاةِ بِنَعُودِ النَّارِ ، كَمَا يُقَالُ لِمَنْ مَاتَ قَدْ طُفِئَ نَسَبُهُ بِاتِّفَاعِ النَّارِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ⑪
لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَنَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ⑫
بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَلْمُفُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ⑬

قوله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآئِمِينَ) أى عبثا وباطلا ؛ بل لتنبيه على أن لما خالقا قادرا يجب استئصال أمره ، وأنه يمازى المسمى والحسن ؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به كم يموتوا ولا يمازوا ، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهذا اللب المعنى من الحكم ضد الحكمة .

قوله تعالى : (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) لما أعتد قسم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » والله والمرأة لفنة العين ؛ قاله قتادة . وقال عتبة بن أبى جسر - وجاء طاوس وعطاء ويجاهد يسألونه من قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » - قال : اللهو الزوجية ؛ وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد ؛ وقاله الحسن أيضا . قال الجوهري : وقد يكتنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول امرئ القيس :

أَلَا زَعَمْتُ بِسَبَابَةِ الْيَوْمِ أَتَيْتُ • كَثُرْتُ وَالْأَيْمِينَ اللَّهُ أَمْنَانِي

وإنما سمي الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب ، كما قال :

• وَفِيَيْنَ مَلْهُىٍّ لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرُ •

الجوهري : وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » قالوا أمراء ، ويقال : ولدا . (لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ لَدُنَّا) أى من عبثنا لا من عندكم . قال ابن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض . قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله ؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى . (إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير . « وإن » بمعنى ابجد وتم الكلام عند قوله : « لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ لَدُنَّا » . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا فاعلين ذلك ولكن لنا فاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زمير بن أبى سلمى ، ولدت من سبطه وقفا :

• أَيْتُ لَيْلِي الْعَطِشَ الْحَرَمُ •

نارا ولا موتا ولا بقاء ولا حساب . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التثنية لاختطفناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ، لأن الإرادة قد تتعلق بالتثنية فاما اتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل ، ذكره القشيري .

قوله تعالى : (بَلْ تَقْتَفِى بِالْحَقِّ مَلَأَ الْبَاطِلُ) القذف الرى ، أى نوى بالحق على الباطل . (قَدَمَهُ) أى يقهره ويهلكه . وأصل القمع فتح الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه القمامة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان فى قول مجاهد ، قال : وكل ما فى القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحق ، وبالباطل شبههم . وقيل : الحق المواقف ، والباطل المعاصي ، والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحق والموعدة . (فَإِنَّا مُوَرِّضُونَ) أى هناك ، وألف ، قاله قتادة . (وَلَكُمْ الْوَيْلُ) أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقيل ابن عباس : الويل واد فى جهنم ، وقد تقدم . (إِنَّمَا يَصِفُونَ) أى بما تكذبون ، من قتادة ومجاهد ، نظيره : يَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أى يكذبهم . وقيل : بما تصفون الله به من المحال وهو اتخاذ سبحانه الولد .

قوله تعالى : وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٢٥﴾ يَسْجُدُونَ آيِلًا وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى ملكا خلقا فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه . (وَمَنْ عِنْدَهُ) يعنى الملائكة الذين ذكروا أنهم نبات الله . (لَا يَسْتَكْبِرُونَ) أى لا يأتون (عَنْ عِبَادَتِهِ) والتذلل له . (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) أى يميون ، قاله قتادة . مأخوذ من الحسبر وهو البعير المتقطع بالإعياء والتعب ، [يقال : حسر البعير يحسره حسورا أعبا وكل ، واستحسر وتحسر مثله ، وحسره إذا حسرا يتعدى ولا يتعدى ،

وأحمره أيضا فهو حبر . وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستكفون . وقال
ابو زيد : لا يكون . وقيل : لا يثقلون ؛ ذكره ابن الأثير ؛ والمعنى واحد . (يَسْبَحُونَ
الْقِيلَ وَالْقَبِيلَ) أى يصلون ويذكرون الله ويتزعمونه دائما . (لَا يَقْتَرُونَ) أى لا يطمعون ولا
يسامون ، يهيمون المسيح والتقيديس كما يهيمون النفس . قال عبد الله بن الحرث سألت كبا
فقلت : أما لم شغل عن المسيح ؟ أما يشغلهم عنه شيء ؟ فقال : من لهذا ؟ قلت : من بنى
عبد المطلب ؛ فخصنى إليه وقال : يا بن أبى هل يشاك شيئا عن النفس ؟ إن المسيح لم يمتلة
النفس . وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد هتتم والحمد لله .
قوله تعالى : (أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ يُبَشِّرُونَ) قال المفضل : مقصود هذا
الاستفهام الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تهدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل »
أى هل لكخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل ؛
لأن ذلك يوجب لم إنشاء الموتى إلا أن تهدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المقطعة
فيصح المعنى ؛ قاله اللبر . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أنطقا السماء والأرض
لبا ، لم هذا الذى أضافه إلينا من عندنا فيكون لم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من
الآلهة فى الأرض يحيى الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ
ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعانية ؛ وحل هذين التأويلين تكون « أم » متصلة .
وقرأ الجمهور « يُبَشِّرُونَ » بضم الباء وكسر الشين من أنشأ الله الميت فيبشر أى يحييه .
وقرأ الحسن بفتح الباء ، أى يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ
رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٦﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٧﴾
أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ
وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) أى لو كان في السموات والأرضين
آلهة غير الله لميؤدون لفسدتا . قال الكسائي وسيويه : « لا » بمعنى غير فلما جعلت إلا
في موضع غير أعرب الاسم الذى بعدهما بإعراب غير ، كما قال :
وكلُّ إخ مفارقة أخوه . تسمر أهلك إلا الفرقان

وحكى سيويه : لو كان معنا رجل إلا زيد لملكنا . وقال القراء : « لا » هنا في موضع سوى ،
والمنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لو كان فيهما إلهان لفسد
التدبير ؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا »
أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع النزاع بالاختلاف الواقع بين الشركاء . (فَتَجَنَّاهُ اللَّهُ رَبَّ
الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) تَزَه قسه وأمر البعاد أن يترهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) فاسحة لقدرية وغيرم . قال ابن جرير :
المعنى لا يسأله الخلق من قضائه في خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم ؛ لأنهم عبيد . بين بهذا
أن من يسأل غدا عن أعماله كالسج والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله
وهم يؤاخذون . وروى عن علي رضي عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيجب ربنا أن
يعصى ؟ قال : أئيمضى ربنا فقها ؟ قال : أرايت إني منى الهدى ومنعى الردى الأحسن
إلى أم أساء ؟ قال : إن منك حقل فقد أساء ، وإن منك فضله فهو فضله يؤتبه من
بشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لما بعث
الله عز وجل موسى وكله ، وأزل عليه الثوراة ، قال : اللهم إني رب عظيم ، لو شئت أن طاع
لأطعت ، ولو شئت ألا تمضى ما عصيت ، وأنت عجب أن طاع وأنت في ذلك تمضى فكيف
هنا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إني لا أسأل عما أنزل وهم يسألون .

قوله تعالى : (أَمْ أَعْتَدُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) أعد العتجب في اتخاذ الآلهة من دون الله
مبالغة في التوبيخ ، أى صفتهم كما تخدم في الإنشاء والإحياء ، فكون « أم » بمعنى هل هل
ما تخدم ، فلما اتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المقول ؛ لأنه قال :
« هُمْ يُشْتَرُونَ » ويحيون الموتى ؛ هيات ! والثاني احتجاج بالمقول ، أى طاتوا برطانكم من

هذه الجهة، قى أى كتاب تلى هذا ؟ فى القرآن، أم فى الكتب المتلاة على سائر الأنبياء ؟
(هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ) بإخلاص التوحيد فى القرآن **(وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي)** فى التوراة والإنجيل،
وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل فى كتاب من هذه الكتب أن الله أمر بالتخاذل معه
سواه ؟ فالشرايع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت فى الأوامر والنواهي . وقال
قادة : الإشارة إلى القرآن، المعنى : « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ » بما يلزمهم من الحلال والحرام
« وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم من نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ »
بالم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما
يفعل بهم فى الدنيا، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام التوبيخ والتوبيخ، أى
انسلخوا ما شتم من قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن عيسى وطلحة بن
مُصَرِّف قرا « هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي » بالتثنية وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه
لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى؛ هذا ذكر كما أنزل إلى وما هو معنى
وذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي . وقيل : ذِكْرٌ كَانِ مِنْ قَبْلِي ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبل .
(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ) وقرأ ابن عُيَيْنٍ والحسن « الْحَقُّ » بالغ بمعنى هو الحق
وهذا هو الحق . وكل هذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب .
(فَهُمْ مُّسْرِضُونَ) أى من الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ)** . وقرأ حفص وحزرة
والكاسى « نوحى إليه » بالتون؛ لقوله : « أَرْسَلْنَا » . **(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)** أى
قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فائدة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والثلث من جميع الأنبياء
موجود ، والدليل إما معقول وإما منقول . وقال قادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرايع
مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْتَفِئُوهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ) نزلت في خراة حيث قالوا : اللاتكة بنت الله ، وكانوا يبدونهم طمعا في شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود - قال معمر في روايته - أو طوائف من الناس : خَافَنَ إِلَى الْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ مِنَ الْجِنِّ ، قال الله عز وجل : « سبحانه » ترجمه له . (بَلْ عِبَادٌ) أى بل هم عباد (مُّكْرَمُونَ) أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويموز النصب عند الزواج على معنى بل اتخذ عبادا مكربين . واجازه القراء على أن يرده على ولد ، أى بل لم تقنهم ولها ، بل اتخذناهم عبادا مكربين . والولد هاهنا الجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولها . ويموز أن يكون لفظ الولد الجنس ، كما يقال لفلان مال . (لَا يَسْتَفِئُوهُ بِالْقَوْلِ) أى لا يقولون حتى يقول ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) أى بطاعته وأوامره . (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى يعلم ما عملوا ويعلم عاملون ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » الدنيا ؛ ذكر الأول الثعلبي ، والثاني القشيري . (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ) قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره ، وفي الدنيا أيضا ؛ فإنهم يستفرون المؤمنين ولهم في الأرض ، كما نص عليه التبريل على ما يأتى . (وَهُمْ) بنى الملائكة (مَنْ خَشِيَ) بنى من خوفه (مُّشْفِقُونَ) أى خائفون لا يأمون مكره .

قوله تعالى : (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ) قال قتادة والضحاك وغيرهما : عن هذه الآية إلياس حيث أدعى الشرك ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إنى له غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل (تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) . وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالصمة فهم متبطلون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد استدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم في « البقرة » . (كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ) أى كما جزينا هذا بالتار فكذلك تجزى الظالمين الواضحين الألوهم والعبادة في غير موضعها .

قوله تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْنًا أَنْ يَمْلِكَهُمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ مَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) قراءة العامة « أولم » بالواو . وقرا ابن كثير وابن عيصن وحيد وشبل بن عباد « ألم ير » بنير واو ، وكذلك هو في مصحف مكة . « أولم ير » بمعنى يعلم . (الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) قال الأخفش : « كانتا » لأنهما صفان ، كما تقول العرب : هما لقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كانتا » لأنه يبر عن السموات بقسط الواحد بسواء ، ولأن السموات كانت سما واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : « رَتْقًا »

الواحد عشرين والآخر الفئان، فأما عشرين فهو مفتوح وإليه ينتهي كتاب الكفار، وعليه يمرض أصحاب المائدة وقوم موعون، وأما الفئان فهو مفتوح لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى في «البقرة» أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة تسعمائة عام، وسبأني له في آخره «الطلاق» زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهلدي : إن السموات كانت رطحا لا تمطر، والأرض كانت رطحا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضَ ذَاتِ الْمُصْدِرِ » . واختار هذا القول الطبري؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الأخبار مشاهدة ومطابقة؛ فإليك أخبر بذلك في غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يَهْوُونَ طَيْسَهُمْ إِذَا يَفْضَبُونَ . نَ سَخَطَ الْعَادَةَ وَإِرْغَامَهَا
وَرَفَقَ الْفُتُوقَ وَتَقَى الرُّؤْيَا . ق وَتَقَضَّى الْأُمُورَ وَإِبْرَامَهَا

وفي قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا) ثلاث تأويلات : أحدها - أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة . الثاني - حفظ حياة كل شيء بالماء . الثالث - وجعلنا من ماء الصلب كل شيء؛ قاله قطرب . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستي في المستند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسي، وقوت عيني؛ أنبتني من كل شيء؛ قال : « كل شيء خلق من الماء » الحديث ؛ قال أبو حاتم قول أبي هريرة : « أنبتني عن كل شيء » أراد به عن كل شيء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : « كل شيء خلق من الماء » وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتياج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رطحا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأَوْثَقْتُ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ » .

(١) راجع ج ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طية آية أرواحه .

(٢) قد سمع قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ » الخ آية ١٢

وقوله : « تَسْمُرُ كُلُّ نَفْسٍ » والصحيح المصوم؛ لقوله عليه السلام : « كل شيء خلق من الماء » والله أعلم . (أَفَلَا يَوْمُونَ) أى أفلا يعدون بما يشاهدون ، وإن ذلك لم يكن بنفسه ، بل لمكون كونه ، ومدير أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكون عمداً .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ) أى جبالاً ثوابت . (أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) أى لتلاطمهم ، ولا تتحرك ليم التراب عليها ؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه أى دار . وقد مضى في « التعليل » مستوفى . (وَجَعَلْنَا فِيهَا بَحَارًا) بئى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس : « وَجَعَلْنَا الْمَسَاكِ » والفج الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض بجانبا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبري ؛ لقوله : (لَعَلَّهُمْ يَحْتَنُونَ) أى يحتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقاً نافعاً سلوكاً وقد لا يكون . وقيل : ليعتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) أى محفوظاً من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَبَيْنَكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظاً بالنجوم من الشياطين ؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظاً من المدم والتقص ، وعن أن يلبته أحد بحيلة . وقيل : محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : مرغوباً . وقيل : محفوظاً من الشرك والمعاصى . (وَهُمْ) بئى الكفار (عَنْ آيَاتِنَا مُّعْرِضُونَ) قال مجاهد بئى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجسوة فيها ، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن للمشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورأيها ومجربها ، وما فيها من قدرة الله تعالى ، إذ لو نظروا واحترقوا لعلوا ؛ لما صاننا قادراً واحداً فيستحيل أن يكون له شريك

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) ذَكَّرَهُمْ نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليتمكنوا فيه ، والنهار ليصرفوا فيه لما يشتهون . (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) أى وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ؛ لعلم الشهور والسنون والحساب ، كما تقدم فى « سيجان » بيانه . (كُلُّ) يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أى يحركون ويسيرون بسرعة كالسباح فى الماء . قال الله تعالى وهو أهدى القاطنين : « وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا » ويقال للمرسى الذى يمد يده فى الجرى سباح . وفيه من التحوانه لم يقل : يسبحن ولا تسبح ؛ فذهب سيويه : أنه لما أخبر عنهن بفعل من يقل وجعلهن فى الطاعة بمنزلة من يقل ، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يوسف » . وقال الكشاف : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « تَحْنُ بِجَمِيعٍ مُّتَّصِرٍ » ولم يقل متصرفون . وقيل : الجرى لفلك فنسب إليها . والأصح أن السيارة تجرى فى الفلك ، وهى سبعة أفلak دون السموات المطبقة ، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر فى الفلك الأدنى ، ثم عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشتري ، ثم زحل ، والثامن فلك البروج ، والتاسع فلك الأعظم . والفلك واحد أفلak النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على قُلُوبٍ مثل أُسْدٍ وأُسْدٍ وخُشْبٍ وخُشْبٍ . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلكة المنزل ؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فلكٌ تدنى المرأة ففليكا ، وفلكٌ استدار . وفى حديث ابن مسعود : تركت قوسى كأنه يدور فى فلك . كأنه لدورانه شبه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلak مجرى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك استدارة فى السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيفة حديد الرعى وهو قطبا . وقال الضمك : فلكها مجراها وسرعة سيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ويعمرى الشمس والقمر فيه ؛ والله أعلم .

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعه أدب أركانية .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٢٢ طبعه أدب أركانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ قَبْلَكَ أَلْفًا مِثْقَالًا مِمَّا هُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٦٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْإِيسْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ قَبْلَكَ أَلْفًا) أى دوام البقاء فى الدنيا تركت حين قالوا : قريص بمحمد ريب للموت . وذلك أن المشركين كانوا يدفنون نبؤهم ويقولون : شاعر قريص به ريب الموت ، ولله يموت كما مات شاعر بنى فلان ؛ فقال الله تعالى : قد مات الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكنا نحفظ دينك بشرطك . (أَفَأَنْتُمْ مِثْقَالُ الْخَالِدِينَ) أى أنهم ؛ مثل قول الشاعر :

رَقُونِ وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تَرْعَ • فقلتُ وانكرتُ الوجوهُ هُمُ هُمُ

أى أم ! فهو استهزام لإنكار . وقال الفراء : جاء بالقاء ليدل على الشرط ؛ لأنه جواب قولهم تميموت . ويحوز أن يكون جـ بهاء ؛ لأن التقدير فيها : أنهم الخالدون إن مت ! قال الفراء : ويحوز حذف القاء وإضمارها ؛ لأن « هم » لا يبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون أيضا ، فلا شماتة فى الإمامة . وقرئ « ميت » و « مت » بكسر الميم وضمة لتان .

قوله تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) تقدم فى « آل عمران » (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْإِيسْرِ فِتْنَةً) • فِتْنَةً • مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدة والرخاء والحلال والحرام ، فننظر كيف شكرتم وصبركم . (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) أى الجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّيَحُّوْكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ الْهِنَكَ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمُ كَافِرُونَ ﴿٦٨﴾

(١) هو أبو نوح المفلح - وقرأه سكه من الرعب ؛ يقول : سكونى . أعبر بمشاهدة الوجوه ، ورجعها دليلا على ما فى القفوس . (٢) راجع = ٤ ص ٢٩٧ وما يطحا طبعة أدل أو ثانية !

قوله تعالى : (وَإِنَّا رَأَيْنَاكَ الْيَتِيمَ كَفَرُوا إِنِّي يَتْلُو فَوْقَ إِبْرَاهِيمَ) أى ما يفتخرونك :
والغزاة الصغرى ، وقد هتلم . وهم المستهزون المقصود الذكر فى آخر سورة « البقرة »
فى قوله : « إِنَّا كُنَّا بِكَ الْمُسْتَضِيعِينَ » . كانوا يسيرون من يحد ليلية أصنامهم وهم جاحلون
للإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل . (أَعْمَأُ الْقِي) أى يقولون : أهدأ الذى ؟ فاضمر القول
وهو جواب « إنا » وقوله : « إِنِّي يَتْلُو فَوْقَ إِبْرَاهِيمَ » كلام معترض بين « إنا » وجوابه .
(يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) أى بالسوء والغيب . ومنه قول عنترة :

لَا تَذْكُرْنِي مَهْرَى وَمَا أَطْعَمْتُهُ • فَيَكُونُ جَلْدُكَ مِثْلَ جَلْدِ الْأَجْرِيَّةِ^(١)

أى لا تنسبى مهري . (وَمَنْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ) أى بالقرآن . (مُمْ كَافِرُونَ) هم « الثانية »
توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالغة فى وصفهم بالكفر :

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ سَآوِرِيكَ ؕ اِيْتَنِي فَلَا
تَسْتَعْجِلُونِ^(٢) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٣)
لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ^(٤) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ^(٥)

قوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ) أى ركب على العجلة خلق عجلولا ، كما قال
الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان
من الشرأى شربا إذا بالغت فى وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب وبجي . أى ذاهب
جائى . أى طبع الإنسان العجلة ، فيستعمل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل :
المراد بالإنسان آدم طيه السلام . قال سعيد بن جبيرة والسدى : لما دخل الروح فى صني

(١) راجع ج ١٠ ص ٦٢ طبع أول مرة .

(٢) قاله لامرأة من بيلة كانت تلوذ فى فرس كان يؤذيه على خيله ويطلبه البان إليه .

آدم عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه أشتى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه مجلان إلى ثمار الجنة. فذلك قوله: « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ». وقيل: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تكم فح الروح فيه قبل غروب الشمس، قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما. وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني: السَّجَلُ الطَّيْنُ بِلُفَّةِ حَمِيرٍ. وأنشدوا:

• وَالنَّخْلُ يَنْهَثُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالسَّجَلِ ^(١) •

وقيل: المراد بالإنسان الناس كلهم. وقيل المراد: النضرين الحرث بن عثمة بن كلفة بن عبد العار في تفسير ابن عباس؛ أي لا ينبغي لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسوله. وقيل: إنه من المقلوب؛ أي خلق السجل من الإنسان. وهو مذهب أبي عبيدة. الناس. وهذا القول لا ينبغي أن يعاب به في كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع في الشر اضطرابا كما قال: « كَانَ الزُّنُومُ قَرِيشَةَ الرَّحِمِ ».

وتظهر هذه الآية: « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا » وقد مضى في « سبحان » (سَائِرُكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العجلة، وأنه خلق خلقا لا يتأكل، كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم في « سبحان ». والمراد بالآيات ما دل على صدق عهد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طوبه من العذاب فأرادوا الاستعجال وقالوا: « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ »؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروباً. نزلت في النضرين الحرث. وقوله: « إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ ». وقال الأخفش سعيد: معنى « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » أي قبل له كن فكان، فمضى « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون، لا يسجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أي الموعود، كما يقال: الله رجأنا أي مرجؤنا. وقيل: معنى « الوعد » هنا الوعد، أي الذي يعدنا من العذاب. وقيل: القيامة. (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) يا معشر المؤمنين.

(١) صدر البيت: • والتج في الصفرة الصبا منه •

(٢) البيت الجدي ومدره: • كانت فريضة ما تقول كما •

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٢٦ طبعة لورثانية •

قوله تعالى : (تَوَيْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) العلم هنا بمعنى المرة فلا يخطئ مفعولا ثانياً
 مثل « لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . وجواب « لو » محذوف ، أى لو طمئنا الوقت الذى
 (لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) وهو قوله لما استجابوا
 الوحيد . وقال الزجاج : أى لعلوا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو طمئنا لما أقاموا على
 الكفر ولا آمنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو طمئنا لم يقين
 لعلوا أن الساعة آتية . ودل عليه (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَئْتَةٌ) أى بغاة معنى القيامة . وقيل : العقوبة .
 وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة (فَتَنِّيهِمْ) . قال الجوهري : بئته بئتا أشده بئته ، قال
 الله تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَئْتَةٌ فَتَنِّيهِمْ » . وقال الفراء : « فتنيهم » أى تخبرهم ، يقال : بئته
 بئته إذا واجهه بشئ يخبره . وقيل : فتنبأهم . (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعًا) أى صرفها عن
 ظهورهم . (وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) أى لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واحذر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ لَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا
 مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ) هذا تسلية للنبي صل الله عليه وسلم
 وتهزية له . يقول : إن أستهزا بك هؤلاء ، فقد أستهزى برسل من قبلك ، فاصبر كما صبروا .
 ثم وعده النصر فقال : (لَخَاقَ) أى أحاط ودار (بِالَّذِينَ) كفروا و (سَخِرُوا مِنْهُمْ) وهنوا
 بهم (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى جزاء أستهزائهم .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُم
 عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا
 لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿١٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ
 وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
 مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَكْفُرْ) أى يحركم ويحفظكم . والكَلَامَةُ الحراسة والحفظ ؛
كَلَامَ الله كَلَامَهُ (بالكسر) أى حفظه وحرسه . يقال : أَذْهَبَ فى كَلَامَةِ الله ؛ وأَكَلَّتْ
منهم أى أحرست ، قال الشاعر هو ابن هريرة :

إِن سَلِسَى وَأَفَّهُ يَكْلُؤُهَا • ضَمَّتْ بَنَى مَا كَانَ يَرْزُؤُهَا
وقال آخر :^(١)
• أَتَمَّتْ بِعِيرَى وَأَكَلَّتْ بِعِيرِهِ •

وحكى الكسائى والقراء : قُلْ مَنْ يَكْفُرْ • فتح اللام وإسكان الواو . وحكى • مَنْ يَكْلَامُ •
على تخفيف المعزة فى الوجهين ، والمعروف تحقيق المعزة وهى قراءة العامة . فلما • يَكْلَامُ •
تخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما - أن بدل المعزة إنما يكون فى الشعر . والثانى -
أنهما يقولان فى الماضى كَلَّمْتَهُ ، فيقلب المعنى ؛ لأن كَلَّمْتَهُ أوجبست كَلَمْتَهُ ، ومن قال لرجل •
كَلَامَكَ الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كَلَمْتِهِ •

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به التثنية . وتقدم : قيل لاحظ لفظ لكم
(بِاللَّيْلِ) إذا نمت (و) بد (بِالنَّهَارِ) إذا قمتم ونصرتكم فى أموركم . (مِنْ الرِّمَى) أى من
مذابحه وبأسه ؛ كقوله تعالى : « قُلْ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى من عذاب الله . والمطاب لمن
أعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقررت بأنه الخالق ، فهو القادر على إحلال العذاب الذى
تستقبلونه . (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ) أى عن القرآن . وقيل : عن مواضع ربهم . وقيل :
عن معرفته . (مُرِضُونَ) لاهون غافلون •

قوله تعالى : (أَمْ لَمْ يَلْمُوهَا) المعنى : ألم والميم صلة . (تَعْتَمِدُهُمْ مِنْ دُونِنَا) أى من
مذابنا . (لَا يَسْتَطِيعُونَ) ينى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم ولا يستطيعون (نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ) فكيف ينصرون عابديهم . (وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَهُمْ) قال ابن عباس : يُعْتَمَدُونَ •
وعنه : يُجَارُونَ ؛ وهو اختيار الطبرى . تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أى مجير
منه ؛ قال الشاعر :

يُنَادِى بِأَعْلَى صَوْتِهِ مَتَوَقِّئًا • لِيَصْحَبَ مِنْهَا وَالرِّمَاحُ دَوَانِي

(١) هو كعب بن زهير ، وعجزه • وأمرت قس أى أمرى أضل •

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « يُصَرُّونَ » أى يحفظون . فائدة :
أى لا يصحهم الله بخير ، ولا يصل رحمة صاحبها لهم .

قوله تعالى : (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ) قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطة
لهم ولا ياتهم في نعيمها و (طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) فى العمة فظنوا أنها لا تزول عنهم ، فافترقوا
وأعرضوا عن تدبر جميع الله عز وجل . (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ تِلْكَ الْأَرْضَ تَنْفَعُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)
أى بالظهور طيفا لك يا محمد أرضا بعد أرض ، وقصفا بلدا بعد بلد مما حول مكة ،
قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبي ، حكاه الكلبي . والمعنى واحد . وقد مضى
فى « الرد » الكلام فى هذا مستوفى . (أَنَّهُمُ الْقَاتِلُونَ) يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا
من أطرافهم ؛ بل أنت تعلمهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ
إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْعَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُؤْتِنَا
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن . (وَلَا يَسْمَعُ
الصُّمُّ الدُّعَاءَ) أى من أصم الله قلبه ، وختم على سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، من فهم
الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السميع « وَلَا يَسْمَعُ » بينه
مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله « الصُّمُّ » رعا أى إن الله لا يسمعهم . وقرأ ابن طاهر
والسلمي أيضا ، وأبو حنيفة ويحيى بن الحرث « وَلَا تَسْمَعُ » بناء مضمومة وكسر الميم « والصُّمُّ »
نصبا ؛ أى إنك يا محمد « لَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ » ؛ فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . وروى
هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ماتنهم . قال الضحى :
وفذك جائز لأنه قد عرف المعنى .

قوله تعالى : (وَلَيْتُمْ مَتَّعْتُكُمْ مِنْ طَلَبِ رَبِّكُمْ) قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأذن شيء ، مأخوذة من فتح المسك . قال : وعمرته من سرورات النساء . تنفتح بالمسك أوتلتها ابن جريج : نصيب ، كما يقال : فتح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال . قال الشاعر (١) :

لَمَّا أَتَيْتُكَ أَرْجُو فَضْلَ تَأْيِيدِكَ • فَضَحْنِي نَفْسَةً طَابَتْ لَهَا الْقَرَبُ

أى طابت لها النفس . والنفس في اللغة اللغة البسيرة ، فالنفس وتين سسم أقل شئ من العذاب . (لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أى متعددين فيعتزون حين لا يتعظم الاعتراف .

قوله تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَجْدٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٢٧)

قوله تعالى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) الموازين جمع ميزان . قيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فوضع الحسنة في كفة ، والسيئات في كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ، كما قال :

مَلِكٌ هَوُمُ الْحَادِثَاتُ لَمَسْدِهِ • فَكُلُّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . ونخرج الألائكي الحافظ أبو القاسم في سننه عن أنس يرفعه : " إن ملكا موثقا بالميزان فيؤتى بآدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن رجع نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف نادى الملك شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا " . ونرجع عن حذيفة رضى الله عنه قال : " صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام " وقيل : اليزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ، فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مثل وليس ثم

(١) هوحس بن اطلح الأمازي - (٢) مولد رماح بن زيادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

مِيزَانٌ وَإِنَّمَا هُوَ الْعَدْلُ . وَالَّذِي وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ وَطَبِيعَةُ السَّوَادِ الْأَعْظَمُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ . وَقَدْ
 مَعْنَى فِي « الْأَمْرَانِ » بَيَانٌ هَذَا ، وَفِي « الْكَهْفِ » أَيْضًا . وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ « التَّذَكُّرَةِ »
 مُسْتَوْفٍ وَالْحَدِيثُ . وَ« الْقِسْطُ » الْعَدْلُ أَيْ لَيْسَ فِيهَا بَحْسٌ وَلَا ظُلْمٌ كَمَا يَكُونُ فِي وَزْنِ الدُّنْيَا .
 وَ« الْقِسْطُ » صِفَةُ الْمَوَازِينِ وَوَحْدُ لَهَا مُصَدَّرٌ ، يُقَالُ : مِيزَانٌ قِسْطٌ ، وَمِيزَانَانِ قِسْطٌ ،
 وَمَوَازِينُ قِسْطٌ . مِثْلُ رِجَالٍ عَدْلٍ وَرِضًا . وَقُرَأَتْ فِرْقَةٌ « الْقِسْطُ » بِالضَّادِ . (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)
 أَيْ لِأَهْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ . (فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أَيْ لَا يَنْقُصُ
 مِنْ إِحْسَانِ عَمَلٍ وَلَا يَزَادُ فِي إِسَاءَةِ مَعْنَى . (وَإِنْ كَانَ يَمْتَلِكُ حَيَّةٌ مِنْ تَرْدَلٍ) قَرَأَ نَافِعٌ
 وَشَيْعَةُ وَأَبُو جَعْفَرٍ « يَمْتَلِكُ حَيَّةٌ » بِالضَّمِّ هُنَا ، وَفِي « لَهْفَانِ » عَلَى مَعْنَى إِنْ وَقَعَ أَوْ حَضَرَ ،
 فَتَكُونُ كَانُ تَامَةً وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ . الْبَاقُونَ « يَمْتَلِكُ » بِالنَّصْبِ عَلَى مَعْنَى وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ
 أَوْ ذَلِكَ الشَّيْءُ مِمَّا تَلِكُ . وَمِمَّا تَلِكُ الشَّيْءُ مِيزَانُهُ مِنْ مِثْلِهِ . (أَتَيْنَاهَا) مَقْصُورَةٌ الْآلِفُ قِرَاءَةُ
 الْجُمْهُورِ أَيْ أَحْضَرْنَا هَا وَجِئْنَا بِهَا لِلجَّازَةِ عَلَيْهَا وَلَهَا . بِمَاءِهَا أَيْ بِالْحَبَةِ وَلَوْ قَالَ بِهِ أَيْ بِالْمِثْقَالِ
 بِلَازٍ . وَقِيلَ : مِمَّا تَلِكُ لَيْسَ شَيْئًا خَيْرَ الْحَبَةِ فَلِهَذَا قَالَ « أَتَيْنَاهَا » . وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ وَعُكْرَةُ
 « أَتَيْنَا » بِالْمَدِّ عَلَى مَعْنَى جَازَيْنَاهَا . يُقَالُ : أَتَى يَأْتِي مَوَاتَةً . (وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)
 أَيْ عَاسِبِينَ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَفُضِّرَ . وَقِيلَ : « حَاسِبِينَ » إِذْ لَا أَحَدَ أَسْرَعَ حِسَابًا مِنْهُ .
 وَالْحِسَابُ الْعَدْلُ . رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ طَائِفَةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ عَلَى يَدِي النَّبِيِّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ لِي مَمْلُوكَيْنِ يَكْذِبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَني
 وَأَسْتَهْمُ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ ؟ قَالَ : « يُحْسَبُ مَا خَاوَكُ وَعَصَوْكَ وَكَذَبَوْكَ وَعَقَابَكَ
 لِأَيِّهِمْ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ لِأَيِّهِمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَقَفَاكَ لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ لِأَيِّهِمْ
 دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَتَمَّصَ لِمَنْ مِمَّنْكَ الْفَضْلُ » قَالَ :
 فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَلَّ يَدَيْهِ وَجَنَفَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا تَهْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى
 « وَنَفَعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا » . فَقَالَ الرَّجُلُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ
 مَا أَجِدُ لِي وَلِوَلَدِي شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مَفَارِقَتِهِمْ ، أَشْهَكَ أَنْهُمْ أَحْرَارُ كُلِّهِمْ . قَالَ حَلِيتُ غَرِيبَ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُخْفًوْنَ ﴿٥١﴾
وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً) وحكى عن ابن عباس
وعكرمة « الفرقان ضياء » بنبرواو على الحال . وزعم الفراء أن حذف الواو والهمزة معا واحد ،
كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ زِينَةً لِّلْكَوَاكِبِ » . وحفظنا « أى حفظا » .
ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو نجمة لمنى فلا تزداد . قال : وتفسير « الفرقان »
التوراة ، لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءً » مثل « فِيهِ هَدًى وَنُورٌ »
وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ، دليله قوله تعالى : « وَمَا أَنزَلْنَا
حَتَّىٰ عَيْنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » . يعنى يوم بدر . قال النبطي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، ليعمل
للواو في الضياء ، فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التي هي الضياء
والذكر . (لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) أى غائبين ، لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل
عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه في سراهم ،
وخلواتهم التي يبيتون فيها عن الناس . (وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ) أى من قيامها قبل العوبة .
(مُخْفًوْنَ) أى خائفون وجلون . (وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ) يعنى القرآن (أَفَأَنْتُمْ لَهُ)
يا مشرك العرب (مُنْكَرُونَ) وهو سحز لا يقدرون على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء « وَهَذَا
ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ » بمعنى أنزلناه مباركا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
عَالِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا
عَبِيدُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَآجَاءُكُمْ بِرُشْدٍ) قال القرطبي : أي أحياهم به . (مِنْ قَبْلُ)
أي من قبل النبوة ، أي وقضاء النظر والاستدلال ، لما جئ به ليل فرأى النعم والنعيم
والفقر . وقيل : « مِنْ قَبْلُ » أي من قبل موسى وهرون . ورشد على هذا النبوة . وعلى
الأول أكثر لعل التفسير ، كما قال يحيى : « وَآجَاءُكُمْ بِالْحَقِّ صَيًّا » . وقال القرطبي : رُشْدُهُ
صلاحه . (وَكُنَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينَةٍ) أي أنه أهل لإتياء الرشد وصلاح النبوة .

قوله تعالى : (إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا) قيل : المعنى أي كذا كحين قال لأبيه ، فيكون الكلام
قد تم عند قوله : « وَكُنَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينَةٍ » . وقيل : المعنى : « وَكُنَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينَةٍ » فيكون الكلام
متصلا ولا يوقف على قوله : « ضَلَالٍ مُبِينَةٍ » وهو كقولهم (وَتَوْبِهِ) (وَتَوْبِهِ) (وَتَوْبِهِ)
(مَا هِيَ التَّائِبَةُ) أي الأصنام . والتمثال اسم موضوع للنبي المصنوع شيئا بخلق من خلق
الله تعالى . يقال : مثلت الشيء بالشيء أي شبهته به . واسم ذلك المثل تعالى . (أَلَمْ أَتُمْ لَهَا
مَعَاكِبُونَ) أي مقيمون على عبادتها . (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا فَوَاقِينَ) أي نعبدوا عليها
لأسلافنا . (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي في خسران عبادتها ، إذ هي جادات
لا تسفع ولا تنفع ولا تعلم . (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ) أي أجاء أنت بحق فيما تقول ؟ (أَمْ أَنْتَ مِنْ
الظَّالِمِينَ) أي لأحاب مازح . (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي لست لأحاب ،
بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . (الَّذِي فَطَرَهُنَّ) أي خلقهن وأبدعهن .
(وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) أي على أنه رب السموات والأرض . والشاهد بين الحكم ،
ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » بين الله ، فالمعنى : وأنا آيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَكِيدَنَّ أَصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) أخبرنا أنه لم يكف بالحاجة بالسان بل كسر أصنامهم فعمل واتق بالله تعالى ، موطن نفسه على مقاطعة للكروه في الذب عن الدين . واثاء في « تالله » تختص في القسم بأسم الله وحده ، والولو تختص بكل مظهر ، والياء بكل مضمحل ومظهر . قال الشاعر :

تالله يبقى على الأيام ذو جند • بمشيمر به الطيان والآس

وقال ابن عباس : أى وحمة الله لا أكيدن أصنامكم ، أى لا مكن بها . والتكيد المكر . كاده يكيده كيدا ومكيده ، وكذلك المكيدة ، وربما سى الحرب كيدا ، يقال : غزا فلان ظم يلقى كيدا ، وكل شيء تعالجه فانت تكيده . (بعد أن تولوا مذبذبين) أى متطالعين زاهمين . وكان لهم في كل سنة عيد يجمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت منا إلى عيدنا أعجبك ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه في « الصافات » — فقال إبراهيم في نفسه : « تالله لأكيدن أصنامكم » . قال مجاهد وقناة : إنما قال ذلك إبراهيم في سر من قومه ، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أنشاه عليه . والواحد يخبر عنه بخبر الجميع إذا كان ما أخبره مما يرضى به غيره . ومثله « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الآخر منها الآن » . وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه . وكان إبراهيم آحتال في التخلف عنهم بقوله : « إني سقيم » أى ضعيف من الحركة .

قوله تعالى : (فجعلهم جنداً) أى نصا . والجند الكسر والقطع ، جذبت الشيء كسره وقطعته . والجنداء والجنداء ما كسره ، والضم أنصح من كسره . قال الجوهري : الكساي : ويقال لمجارة الذهب جنداء لأنها تكسر . وقرأ الكساي والأعشى وابن عباس « جنداء » بكسر الجيم ، أى كسرا وقطعا جمع جندى وهو المشيم ، مثل خفيف وخفاف وظرف وظراف . قال الشاعر :

جند الأصنام في غيرها • ذاك في الله العلى المقدير

(١) هو مالك بن خاتم التميمي المذلل . وحيد هنا (كعب) : كل تنوف الجبل والشجر : الجبل العالي . والقيان : يا حسين البر . والمعنى : لا يبق . (٢) في تفسير قوله تعالى : « فراغ إلى آلتهم .. الخ » . الأيت : ٩١ و ٩٢ و ٩٣

الباقون بالضم، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل] الحطام والزفات الواحدة جُذْذَة . وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعله بها . وقال : « بلعلهم » ، لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية . وقرا ابن عباس وأبو نعيم « جُذْذًا » بفتح الجيم ، والفتح والكسر لتجانس الحطام والحصاد . أبو حاتم : الفتح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاية قطرب . (إِلَّا كَيْبَرًا لَّمْ) أى عظيم الآلة في الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدي وبجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ؛ ليحتج به عليهم . (لَتَلَهُمْ إِلَهِه) أى إلى إبراهيم ودينه (يَرْجُونَ) إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَتَلَهُمْ إِلَهِه » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجُونَ » في تكبيرها .

قوله تعالى : قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٢﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) المعنى لما رجعوا من عبيدكم وراوا ما أحدثت بآلهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس استغهاما ، بل هو ابتداء وخبره « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ) وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هَذَا » . والضمير في « قَالُوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقرر . ومعنى « يَذْكُرُهُمْ » يبينهم قسطه الذي صنع هذا . واختطف الناس في وجه رفع إبراهيم ، فقال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدأ] محذوف ، والجملة بحكية . قال : ويجوز أن يكون رضا على النداء وضحه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رضه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يحمل إبراهيم خبر قال على الشخص ، بل يحمل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول (١) في الأصل : « فاعى » وهو محرف ؛ (٢) في الأصل : « فاعى » وهو محرف ، وهو محرف .

زيد وزن قبل، أو زيد علامة أحرف، ثم تدل بوجه على الشخص، بل ذلك ينطقك على نفس التظنة. وعلى هذه الطريقة تقول: قلت إبراهيم، ويكون مفعولا صحيحا تركه مترلة قول وكلام، فلا يتعذر بعد ذلك أن يعنى الفعل فيه القول. هذا اختيار ابن عطية في رده. وقال الأستاذ أبو الجراح الأشعيل الأحم: هو رفع على الإجمال. قال ابن عطية: لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذى قصدوه، ذهب إلى رده بغير شيء، كما قد يرفع التجرد والبرر عن العوامل الابتداء. والفتى الشاب والفتاة الشابة. وقال ابن عباس: ما أرسل الله نبيا إلا شابا. ثم قرأ «يَمَعًا قَتَى يَدُ كُرْمٍ».

قوله تعالى: (قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَمِينِ النَّاسِ) فيه منطلة واحدة، وهى:

أنه لما بلغ الخبر بنمود وأشرف قومه، كرهوا أن يأخذوه بغير رتبة، فقالوا: استوا به ظاهرا برأى من الناس حتى يروه (لَطْلُهُمْ يَشْهَدُونَ) عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه. وقيل: «للهم يشهدون» عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه. أو لعل قوما «يشهدون» بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو «للهم يشهدون» طعنه على كذبهم، ليعلموا أنه يستحق العقاب.

قلت: وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤخذ أحد بدعوى أحد فيها تحتم؛ لقوله تعالى: «قَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَمِينِ النَّاسِ لَطْلُهُمْ يَشْهَدُونَ» وهكذا الأمر فى شرعنا ولا خلاف فيه.

قوله تعالى: (قَالُوا أَأَتَتْكَ هَٰذِهِ بَنَاتُنَا يُكْفِّرُهُمْ) ٣٣ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ٣٤

قوله تعالى: (قَالُوا أَأَتَتْكَ هَٰذِهِ بَنَاتُنَا يُكْفِّرُهُمْ) فيه أربع مسائل:

الأولى - لما لم يكن السماع عاما ولا ثبت الشهادة، استفهموه هل فصل أم لا؟ وفى الكلام حنف بقاء إبراهيم حين أتى به فقالوا: أأتت ههنا بالآلة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة التصحيح عليهم: (بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) أى إنه ظرو غضب من أن يبعد هو

ويهدى الصغار منه قتل هذا يا قاتل ، إن كانوا ينطقون قائلون . ضاع فصل الكبير
ينطق الآخرون ، تنبها لم على فساد أعضائهم . كأنه قال : بل هو القاتل إن نطق هؤلاء .
وفي الكلام تقديم على هذا القاتل في قوله : (قَاتِلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) . وقيل : أراد
بل قتل كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان
قوله من الماریض ، وفي الماریض مندوحة عن الكلاب . أى سلوهم إلى نطقوا فانهم
يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو القاتل . وفي ضمن هذا الكلام أقراف بأنه هو
القاتل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك
أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » - الآية - فقال إبراهيم : « بَلْ قَوْلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » يقولوا
إنهم لا ينطقون ولا ينفسون ولا يضررون ، فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحججة
منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع النظم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ،
فإنه أقرب في الحججة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّي » وهذه أختي و« إِنِّي سَمِيعٌ »
و« بَلْ قَوْلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » وقرأ ابن السميع « بَلْ قَوْلَهُ » بتشديد اللام بمعنى فعل القاتل
كبيرهم . وقال الكسائي : الوقف عند قوله « بَلْ قَوْلَهُ » أى فصله من فصله ، ثم يندئ
« كَبِيرُهُمْ هَذَا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون قتل كبيرهم ؟ فهذا إلزام بقض الخبر . أى
من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلا ، والمعنى : بل قتل كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانية - روى البخاري ، ومسلم ، والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « لَمْ يَكُذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا فِي ثَلَاثِ قَوْلِهِ « إِنِّي سَمِيعٌ » وقوله لسارة أختي
وقوله « بَلْ قَوْلَهُ كَبِيرُهُمْ » . لفظ الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع في الإسراء
في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة إبراهيم قال : وذكر قوله
في الكوكب « هَذَا رَبِّي » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعة إلا أن الرسول عليه السلام قد
قضى تلك بقوله : « لَمْ يَكُذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ قَطُّ إِلَّا فِي ثَلَاثِ كَذِبَاتٍ تَحْتِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ

« إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيره » واحدة في شان سارة « الحديث لفظ مسلم . وإيما لم يحد عليه قوله في الكوكب : « هذا ربي » كناية وهي داخلية في الكتب ؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك في حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه مستغما لم على جهة التوبيخ والإنتكار ، وحذفت همزة الاستغمام . أو على طريق الاحتجاج على قومه ؛ تبهيا على أن ما يتبرأ لا يصلح للربوبية . وقد قدمت هذه الوجوه كلها في « الأنعام » مودة والمعدة .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : في هذا الحديث نكتة عظيمة تضمن الظهور ، وهي أنه عليه السلام قال : « لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات تكمن مآل بها عن دين الله وهما قوله « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيره » « ولم يحد [قوله] هذه أخفى في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يحصلها في ذات الله ؛ وذلك لأنه لا يصلح في جنب الله وفاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعارض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه ، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبره عليه السلام كان من المعارض ، وإن كانت معارض وحسنات وجبا في الخلق ودلالات ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن مجد المقتلة ، واستحيا منها قائما ، على ما ورد في حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله ؛ فإن الذي كان يليق بمرتبة في النبوة والخلقة ، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيف كان ، ولكنه رخص له قبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة « إنما أخذت خيلا من وراء وراء » ينصب وراء فهما على البناء تكسة عشر ، وكما قالوا

(١) ما ج ٧ ص ٢٥ ، بخط طيبة أملا أو فاته .

(٢) لقراءة من « أسكنهم الفردان » لابن العربي .

جاء في بيت بيت . ووقع في بعض نسخ مسلم " من وراءه من وراءه " بإعادة من ، وحيث لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الفتح ، لأنه قطع عن الإنشاء ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أحرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن الله تعالى : لأنهم قالوا في تصغيرها وروية : قال الجوهري : وهي شاذة . فل هذا يصح الفتح فيها مع وجود " من " فيها . والمعنى إلى كثرة خلاف متاعها من غيري . ويستفاد من هذا أن الله لم تصح بكلام إلا لمن مع له في ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم . وهو نبي محمد صل الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٨﴾ أَفِ لَكُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ) أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المقطع من جهة ، المتضمن لصحة حجة خصمه . (قَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) أى عبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس . قوله تعالى : (ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) ذ (قَالَ) قاطعاً لما به يهذون ، ومضجاً لهم فيما يقولون (أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفِ لَكُمْ) أى التفت لكم (وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) . وقيل : « نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى طأطأوا رؤوسهم نجيلاً من إبراهيم ، وفيه نظر ، لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم ، بفتح الكاف بل قال « نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى ردوا على ما كانوا عليه في أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْنَا يَتَّخِذُونَكَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (قَالُوا حَرِّقُوهُ) لما أقطعوا بالحجة أخذتهم حنة يائمه وأنصرفوا إلى طريق
القتل والقتلة وقالوا حرقوه . روى أن قاتل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب
قارس ، أى من باديتها ، قاله ابن عمر ومجاهد وابن جرير . ويقال : اسمه هيزر نجف الله
به الأرض ، فهو يجلبل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمrod . (وَأَنْصُرُوا
آلِهَتَكُمْ) يهريق إبراهيم لأنه يسبها ويسبها . وجاء في الخبر : أن نمrod بن صرعا طوله ثمانون
ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن أبي عمير : وجعوا الخطب شهرًا ثم أوقدوها ، وأشتكت
وأشتكت ، حتى أن كان الطائر يمر بجانبها فيسرق من شدة وجعها . ثم قيدوا إبراهيم ووضوه
في المنجنيق مقلولا . ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ . فضجت السموات
والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا اثنين نبية واحدة : ربنا إبراهيم ليس
في الأرض أحد يملك فيه يُحرق نيك فأذن لنا في نصرته . فقال الله تعالى : « إن أشتات
بشيء منكم أو دعاه فليصبره قد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيره فأعلم به وأنا وليه »
فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أناه نهران الماء — وهو في الهواء — فقالوا : يا إبراهيم إن أردت
أخذنا النار الماء . فقال : لا حاجة لي إليكم . وأناه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت
النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم أنت الواحد في السماء وأنا
الواحد في الأرض ليس أحد يملك غيري حسي الله ونعم الوكيل » . وروى ابن أبي عمير
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حين قيدوه ليقوه في النار قال
لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك » قال : ثم رموا به
في المنجنيق من مضرب شامع ، فأستقبله جبريل ؛ فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أنا
إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسي من سؤالي علمه بحالي » . فقال

(١) دليل : اسمه « هيزر » كافي في تاريخ القديس وقسيم . وقيل : « هيزر » .

الله تعالى وهو اصدق القائلين : (يَا تَارُكُونِي بَرًّا وَسَلَامًا عَلَىٰ اِبْرَاهِيمَ) قال بعض العلماء :
 جبل الله فيها بها يرفع حرها ، وحرار يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو
 لم يقل « بَرًّا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « عَلَىٰ اِبْرَاهِيمَ » لكان
 بردها بقايا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زبيبة^(١) من الجنة فيسقطها
 في الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملاك البرد وملاك السلامة ، وقال علي وابن
 عباس : لو لم يقع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفت ظنت
 فيها نقي . قال السدي : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمره . وقال
 كعب وقناة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن
 يقرب من النار ، لم جاءوا فإنما هو قائم يصل . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت
 أيا ما قط ألم مني في الأيام التي كنت فيها في النار » . وقال كعب وقناة والزهري : ولم
 تبق يومئذ دابة إلا أطاعت عه النار إلا الوزغ فأتها كانت تنفخ عليه ، فذلك أمر رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يقتلها وسماها فويسقة . وقال شعيب الجاني : أتى إبراهيم في النار وهو
 ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : أتى إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة .
 ذكر الأول التلبي ، والثاني الماوردي ، فانه أعلم . وقال الكلبي : بردت نيران الأرض
 جميعا فما أنضجت كراما ، فراه نمود من الصرح وهو جالس على السرير يؤمنه ملك الظل .
 فقال : نعم الرب ربك ! لأمرين له أربعة آلاف بقرة وكف عه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ وَوَعَدْنَا لَدُنْكَ إِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ
 بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا
 لَنَا عَابِدِينَ ﴿٦٨﴾

(١) الزبيبة : اللبنة ، وقيل : البساط ذو الخلل ، وماذا معة ح

قوله تعالى : (وَأَرْسَلْنَا بِهِ نَبِيَّنا) أى أراد غرود وأصحابه أن يذكروا به (بِمَقْلَقِهِمُ
 الْأَخْسَرِينَ) في أعمالهم ، وردنا مكرم عليهم بتبليط أضف خلقنا . قال ابن عباس : سخط الله
 عليهم أضف خلقه البعوض ، فإبراهيم غرود حتى رأى عظام أصحابه ونيله تلوح ، أكلت
 لحومهم وشربت دماهم ، ووقعت واحدة في منفره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ،
 وكان أكرم الناس على الله يضرب رأسه بمزقة من حديد . تألم بهذا نحو من أربعمائة سنة .
 قوله تعالى : (وَنَجَّيْنَاهُ وَلَوْلَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُلُوبُنا) يريد نجينا إبراهيم
 ولولا إلى أرض الشام وكانا بالراق ، وكان [إبراهيم] عليه السلام معه ، قاله ابن عباس . وقيل :
 لما مباركة لكثرة خصبها ونارها وأثمارها ، ولأنها مدائن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير ، ومع
 بركة البعير إذا لم يملكه فلم يرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة بمكة . وقيل : بيت
 المقدس ، لأن منها بستانه أكثر الأنبياء ، وهي أيضا كثيرة للصب والتمتع ، عذبة للماء ، ومنها
 يتفرق في الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا حيط من السماء إلى الصخرة التي بيت
 المقدس ، ثم يتفرق في الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .
 قوله تعالى : (وَوَعَدْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) أى زيادة ، لأنه دعا في إسحق وزيد
 في يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ، أى زيادة على ما سأل ، إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي
 مِنْ الصَّالِحِينَ » . ويقال لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . (وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ)
 أى وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله . وجعلهم صالحين إنما يتحقق
 بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .
 قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَتَّبِعُونَ بِأَمْرِنَا) أى رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال
 الطاعات . ومعنى « بِأَمْرِنَا » أى بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي ، فكانه قال
 يهدون بكتابنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا بإمام بإرشاد الخلق ، ودعائهم
 إلى التوحيد . (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) أى أن يفعلوا الطاعات . (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
 وَآتَى الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا مَابِدِينَ) أى مطيعين .

(١) سبق أنفينا على أن ابن عباس يكتب طه بعض الرواة . (٢) في الأصل : « لوط » وهو محريف .

قوله تعالى : وَلَوْ لَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَاسِيقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ لَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) «لوطا» منصوب بعمل مضمهر دل عليه الثاني ؛ أى وآتيناه لوطا آتيناه . وقيل : أى وأدكر لوطا . والحكم النبوة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «علما» فهما ؛ والمضى واحد . (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ) يريد سدوم . ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبني واحدة لوط وعياله ، وهى زَغَرَ التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السمرة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الخمار . وفى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما - القواط على ما تقدم . والثانى - الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى نادهم وبغالهم . وقيل : الضراط وحذف المعى وساقى . (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَاسِيقِينَ) أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدم . (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) فى النبوة . وقيل : فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : غنى بالرحمة إنجاءه من قومه (إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ) أى وأدكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا » وقال لما كذبه : « أَنَّى مَطْلُوبٌ فَاتَّصِرْ » . (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلًا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) أى من الفرق . والكرب الهم الشديد « وأهله » أى المؤمنين منهم . (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا) قال أبو عبيدة : « مِنْ » بمعنى على . وقيل : للمضى فاستجبت له « مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » . (فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ
فِتْنَةُ الْقَوْمِ وَكَانَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٢٨﴾ فَهَمَمْنَاهَا بِسُلَيْمَانَ وَكَلَّاهُمَا
حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَحَرْنَاهُ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يَسْعَى وَالطَّيْرُ وَكَانَ قَبِيلِينَ ﴿٢٩﴾
فيه ست وعشرون مسألة :

الأول - قوله تعالى : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ) أى وأذ كرهما إذ يحكمان ، ولم
يرد بقوله : إِذْ يَحْكُمَانِ ، الاجتماع في الحكم وإن جمعا في القول ، فإن حكيم على حكم واحد
لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على آخره ، وكان سليمان القائم لما بتهم لله تعالى
إياه . (فِي الْحَرْثِ) اختلف فيه على قولين : قيل : كان زرعاً ، قاله قتادة . وقيل :
كرما ثبتت حاقبه ، قاله ابن مسعود وشرح . و « الحرث » يقال فيها ، وهو في الزرع
أبعد من الأصارة .

الثانية - قوله تعالى : (إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ فِتْنَةُ الْقَوْمِ) أى رمت فيه ليلاً ، والفتن
الرمي بالليل . يقال : نفثت بالليل ، ومثمت بالنهار ، إذا رمت بلا راع . وأفتنها صاحبها
وليل قماش . وفي حديث عبد الله بن عمرو : الحبة في الجنة مثل كرش البعيريت نافثاً
أى راعياً ، حكاه المروى . وقال ابن سيده : لا يقال المحمل في النعم ، وإنما هو في الإبل .
الثالثة - قوله تعالى : (وَكَانَ لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) دليل على أن أهل الجحش آثان .
وقيل : المراد الحاكم والحكوم عليه ، فذلك قال « ليحكم » .

الرابعة - قوله تعالى : (فَهَمَمْنَاهَا بِسُلَيْمَانَ) أى همتاه القضية والحكومة ، فكفى ضماً
لذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه في أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على
مناحه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ، وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع النعم إلى صاحب
الحرث . وقالت فرقة : بل دفع النعم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب النعم .
قال ابن عطية : فيذهب على القول الواحد أنه رأى النعم تخاوم النعمة التي أنست . وعلى القول

الثاني وأما حارم الحرث واقعة؛ فلما خرج الصليان من سليمان وكان يطرس على الباب الذي يخرج منه النصوص، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما بنى الله داود؟ فقال: قضى بالنعم لصاحب الحرث. فقال لعل الحكم غير هذا أنصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا بني الله إني حكمت بكمنا وكما وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تمنع النعم إلى صاحب الحرث فيمنع ألبانها وسمونها وأصوافها، وتضع الحرث إلى صاحب النعم ليقوم عليه، فإذا طرد الزرع إلى حاله أتى أصابته النعم في السنة المقبلة، وكل واحد منهما مال إلى صاحبه. فقال داود: وقتت يا بني لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال سناء ابن مسعود وعجاء وغيرهما. قال الكلبي: قوم داود النعم والكرم قضى أنفسهم النعم فكانت القيمينان سواء، فضع النعم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالنعم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من النعم وقيمة ما أنسلت النعم سواء أيضا.

لنظامه - قوله تعالى: (وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) فأول قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أوقى الحكم والعلم. وحلوا قوله: «فَقَهَّمَتَاهَا سُلَيْمَانُ» على أنه فضيلة له على داود وفضيلة راجعة إلى داود، والوالد أسر زليخة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلمًا يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأما في هذه فإصاب سليمان وأخطأ داود طيعما الصلاة والسلام، ولا يمنع وجود النطق والخطأ من الاتيأ كوجوده من غيرهم، لكن لا يقرون عليه، وإن أقر عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك همت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت؛ فاجابه الوليد: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانُ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ قَشَّتْ فِيهِ قَمَّ الْقَوْمِ وَكَأَنَّ الْحُكْمَ شَاهِدِينَ. فَقَهَّمَتَاهَا سُلَيْمَانُ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا». وقال قوم: كان داود وسليمان - طيعما السلام - تعيين قضيان بما يرضى إليهما، فحكم داود يرضى،

كنشطاً ، وقالت فرقة : الحق في طرف واحد عند الله ، وقد نصب كل ذلك أدلة ، وجل
 المجتهدين على البحث فيها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة في المسئلة فهو المصيب
 على الإطلاق ، وله أجران أجر في الاجتهاد وأجر في الإجابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب
 في اجتهاده مخطئ في أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور . وهذا سليمان قد صادف
 العين المطلوبة ، وهي التي فهم . ودلت فرقة أن العالم المخطئ لا يتم عليه في خطئه وإن كان
 غير معذور . وقالت فرقة : الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل [بل] وكل
 الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور ، ولم يتجد بإصابته
 العين بل تسبداً بالاجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه
 رضي الله عنهم : إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، والطلوب
 إنما هو الأفضل في ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه ، والدليل على هذه
 المقالة أن الصعابة فمن يصدح بقرء بعضهم خلاف بعض ، ولم ير أحد منهم أن يقع الأبحال
 على قوله دون قول مخالفه . ومنه رد مالك رحمه الله للتصور أبي جعفر عن حمل الناس على
 « الموطن » ، فإذا قال عالم في أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى
 وبكل من أخذ بقوله ، وكذا في العكس . قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية
 المثلث والتي هي أريح فالأولى ليست بخطأ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : « إذا اجتهد
 العالم فأخطأ أي فأخطأ الأفضل .

الثامنة — روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله
 أجر » هكذا لفظ الحديث في كتاب مسلم « إذا حكم فاجتهد » فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد ،
 والأمر بالعكس ، فإن الاجتهاد مقدم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع .
 وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ » فمعد

ذلك أراد أن يجتهد في النازلة . ويغيد هنا صحة ما قاله الأصوليون : إن الاجتهاد يجب عليه أن يحسد نظرا عند وقوع النازلة ، ولا يستمد على اجتهاده المتقدم لإمكان أن يظهر له ثانياً خلاف ما ظهر له أولاً ، اللهم إلا أن يكون ذا كراً لأركان اجتهاده ، ما لا إليه ، فلا يحتاج إلى استئناف نظر في أمانة أخرى .

الثامنة — إنما يكون الأجر لما حكم المخطئ إذا كان مالماً بالاجتهاد والسنن والفتن ، وقضاء من مضى ، لأن اجتهاده جادة ولا يؤثر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم قطعاً ، فاما من لم يكن عملاً للاجتهاد فهو متكلف لا يسذر بالخطأ في الحكم ، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الآخر ، رواه أبو داود : " القضاء ثلاثة " الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤثر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ ، وبما يؤيد هذا قوله تعالى : « قَهْمَتَاهَا سُلَيَّان » الآية . قال الحسن : أتى على سليمان ولم ينم داود .

الماشرة — ذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقوال المجتهدين ، وليس ذلك في أقوال المختلفين ، وبه قال أكثر الفقهاء . قال : وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة ، فقال : غلط ومصيب ، وليس الحق في جميع أقوالهم . وهذا القول قبل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو ، قالوا : وهو نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين غلطاً ومصيبياً ، قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدي إلى كون الشيء حلالاً حراماً ، وواجباً نذياً . واحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب " ألا لا يصلين أحدُ المصرا إلا في بني قُرَيْظَةَ " فتخوف ناس فوث الوقت فصلوا دون بني قُرَيْظَةَ ، وقال الآخرون : لا تصل إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فاعنف واحداً من الفريقين ، قالوا : فلو كان أحد الفريقين مخطئاً لبيته النبي صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور .

قامتني من ميتته . والله أعلم . وسيلة الاجتهاد طويلة منتعبة ، وهذه التبعة التي ذكرناها كناية في معنى الآية ، والله للوقت الهدي .

الحادية عشرة - ويتعلق الآية بفصل آخر ، وهو رجوع الحاكم بعد قضاءه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر يرجع من الأول ، فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف في ذلك على ما رواه عنهم الله تعالى ، فقال عبد الملك ومطروق في «الواضحة» : ذلك له ما دام في ولايته ، فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك ، وهو بمثابة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في «المقدمة» . وقال محمّد بن رجوة من اجتهاد فيه قول إلى غيره بما رآه أصوب ليس له ذلك ، وقاله ابن عبد الحكم . قال : ويستأنف الحكم بما قوى عنده . قال محمّد بن : إلا أن يكون نسي الأتقى عنده في ذلك الوقت ، أو وهم حكم غيره فله قضاة ، وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده في ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا ميل إلى نقض الأول ، فله محمّد بن في كتاب أبنه . وقال أنسب في كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب في مال فله نقض الأول ، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق ليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضي عما حكم به إثنين له أن الحق في غيره ما دام في ولايته أولى . وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما ، رواها البارقي ، وقد ذكرناها في «الأعراف» ولم يفصل ؛ وهي الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضي إذا قضى تجوزاً وبخلاف أهل العلم فهو مردود ، وإن كان على وجه الاجتهاد ، فأما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له ؛ لأن فيه مضرة عظيمة من جهة نقض الأحكام ، وتبديل الحلال بالحرام ، وعدم ضبط قوانين الإسلام ، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر ، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة - قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكماً وإنما كانت فتياً

قلت : وهكذا قول نيارواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : إنما أسراخل منها
 كباها جده القنب فذهب بمن أسامها ، قالت هذه لصاحبا ، إنما ذهب بأبنتك أنت .
 وقالت الأخرى : إنما ذهب بأبنتك ، فماتوا إلى داود ، قضى به الكبرى ، فخرجتا على
 سليمان بن داود عليهما السلام فأخبراهما ، فقال : آتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى :
 لا - يرحمك الله - هو أبنا ، قضى به للصغرى ، قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين
 قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المذبة ، أخرجه مسلم . فاما القول بأن ذلك من داود فإيه
 ضيف ، لأنه كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتاه حكم . واما القول الآخر فليس
 لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمُ فِي الْحَرْثِ » فين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا
 قوله في الحديث : قضى به الكبرى ، يدل على إتمام القضاء وإتمامه . ولقد أبعد من قال :
 إنه كان من شرع داود أن يحكم به الكبرى من حيث هي كبرى ، لأن الكبر والصغر طرد
 محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتنازعين
 حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو ما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والحق
 ينبغي أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به الكبرى لسبب أكفئ عنده ترجيح قولها
 ولم يذكر في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، ولم يجر الأخرى
 من إقامة البينة ، فقضى به لها إلقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا
 الحديث . وهو الذي تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها . لا يقال :
 فإن كان داود قضى بسبب شرعي فكيف ساء سليمان قضى حكمه ؟ فالجواب : أن سليمان عليه
 السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، وإنما أحتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق
 الصغرى ، وهي أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ، فظهر له من
 قرينة الشفقة في الصغرى ، وعلم ذلك في الكبرى ، مع ما عساه أنضاف إلى ذلك من التراتن
 ما حصل له العلم بصدقها حكم لها . ولعله كان ممن مؤخ له أن يحكم بصله . وقد ترجم
 الناس على هذا الحديث « حكم الحاكم بصله » . وترجم له أيضا « السنة لما كان أن يقول

لشيء الذي لا يملكه أَقْبَلُ لِثَمَنَيْنِ الْحَقِّ . . . وَتَزِمُ لَهُ أَهْلُهُ قَضَى الْحَاكِمُ لَا يَحْكُمُ بِهِ غَيْرُهُ
مِنْ عَرَضِهِ أَوْ أَجَلٍ مَعَهُ . . . وَلِلَّ كُتُبِي كُتِبَتْ بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَصْرِفْ عِنْدَ مَا دَلَّتْ مِنْ
سَلِيلِ الْخِزْمِ وَالْبَدَلِ فِي ذَلِكَ، قَضَى بِالْوَلَدِ الصَّغِيرِ، وَيَكُونُ هَذَا كَمَا إِذَا حَكَّمَ الْحَاكِمُ بِالْبَيْنِ،
فَمَا مَضَى لِيُطْلَقَ حَضْرَ مِنْ مَسْتَفْرَجٍ مِنَ الْمَكْرَمَةِ لَوْ جَبَّ لِقَوْلِهِ، فَإِنَّ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْإِفْرَارِ
قَبْلَ الْبَيْنِ وَبِطَعَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ قَضَى الْحَكْمَ الْأَوَّلِ، لَكِنْ مِنْ بَابِ تَبَدُّلِ
الْأَحْكَامِ بِحَسَبِ تَبَدُّلِ الْأَسْبَابِ . وَلَهُ أَظُنُّ . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ تَفَقُّهِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ سَوَّغَ
لَهُمُ الْحَكْمَ بِالْإِجْتِهَادِ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ . وَفِيهِ مِنْ تَفَقُّهِ أَسْتَعْمَلَ الْحَاكِمُ الْمِثْلَ لِقَى تَسْتَفْرِجُ بِمَا
الْخَفُوقُ، وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْ قُوَّةِ الذِّكَاةِ وَالْقَطْعَةِ، وَمَعَارِضَةِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ؛ وَقَدْ يَكُونُ فِي أَهْلِ
التَّحْقِيقِ فِرَاسَةٌ دَقِيقَةٌ، وَتَوْصِيحَاتٌ نَوَدِيَّةٌ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ فِيهِ مِنْ إِشَاءِهِ . وَفِيهِ الْجَمْعُ لِمَنْ
يَقُولُ : لَيْتَ الْأُمُّ تُسْتَلْقَى؛ وَلَيْسَ مَشْهُورٌ مَذْهَبُ مَا لَكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ . وَعَلَى
الْجَمْعِ قَضَاءُ سَلِيلَانَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَضَمُّنًا مَدْحَهُ تَمَالَى لَهُ بِقَوْلِهِ : « قَهَّهْمَا سَلِيلَانِ » .

الثالثة عشرة -- قد تقدم القول في الحرث والحكم في هذه الواقعة في شرعنا : أَنَّ
حُلَّ أَصْحَابِ الْحَوَائِطِ حِفْظَ حَيَاتِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ بِالْهَيْلِ، ثُمَّ الضَّيَّانُ فِي الْمَثَلِ بِالْمَثَلَاتِ،
وَبِالْقِيَمَةِ فِي فَوَائِدِ الْقِيَمِ . وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْمَسْئَلَةِ فِي شَرْعِنَا مَا حَكَّمَ بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فِي نَاقَةِ الْبَرَاءِ بْنِ هَازِبٍ . رَوَاهُ مَا لَكَ عَنْ أَبِي شَهَابٍ عَنْ حَرَامِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عُيَيْنَةَ : أَنَّ
نَاقَةَ الْبَرَاءِ دَخَلَتْ حَائِطَ وَجَلٍ فَأَفْسَدَتْ فِيهِ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ حُلَّ
أَهْلِ الْحَوَائِطِ حِفْظُهَا بِاللَّيْلِ، وَأَنَّ مَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَلَمْنُ حُلَّ أَهْلِهَا . هَكَذَا رَوَاهُ
بِجَمِّعِ الرِّوَاةِ مَرْسُلاً . وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَصْحَابُ أَبِي شَهَابٍ عَنْ أَبِي شَهَابٍ، إِلَّا ابْنَ حَبِيبَةَ فَإِنَّهُ
رَوَاهُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ وَحَرَامِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عُيَيْنَةَ : أَنَّ نَاقَةَ؛ فَذَكَرَ مِنْهُ بِمَنَاءِهِ . وَرَوَاهُ
أَبْنُ أَبِي ذَنْبٍ عَنْ أَبِي شَهَابٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ نَاقَةَ الْبَرَاءِ دَخَلَتْ حَائِطَ قَوْمٍ، مَثَلُ حَلِيتِ مَا لَكَ
سِوَاهُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ حَرَامَ بْنَ سَعْدٍ عَنْ عُيَيْنَةَ وَلَا غَيْرِهِ . قَالَ أَبُو عَمْرٍو : لَمْ يَصْنَعْ أَبِي ذَنْبٍ

شيئا؛ إلا أنه أنشد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن مسعر عن الزهري عن حرام بن عبيدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك ولتكرار عليه قوله من أبيه . ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال : حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ثاقبة دخلت في حائط قوم فأقصت؛ فجعل الحديث لأبن شهاب عن أبي أمامة، ولم يذكر أن ثاقبة كانت البراءة . وجاز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن عبيدة، وعن سعيد بن المسيب، وعن أبي أمامة - والله أعلم - فحلت به عن ثناء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحديث به الثقات، وأستعمله فقهاء المجاز وتقوه بالقبول، وجرى في المدينة للعمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل المجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة - ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أنشدت زورا في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء، وأدخل فسادها في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : "جرح العجاء جبار" فقام جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول، ولا حجة له ولا لمن أتبعه في حديث العجاء، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضًا له؛ فإن النسخ شروطه معدومة، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بنفي الآخر، وحديث "العجاء جرحها جبار" عموم متفق عليه، ثم خص منه الزرع والحوادث بحديث البراء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد : العجاء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفي الزرع والحوادث والحرق، لم يكن هذا مستحيلا من القول؛ فكيف يجوز أن يقال في هذا متعارض؟ وإنا هنا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور في الأصول .

الخامسة عشرة - إن قيل : ما الحكمة في تخريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أقصدت، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح، وذلك أن أهل المواشي لم ضرورة إلى إرسال

مواشيم تربي بالتهار، ولا تطلب منهم أن من عنده زرع يتعاهده بالتهار ويحفظه عن أراحمه
 ويحفل حفظ ذلك بالتهار على أهل الزروع، لأنه وقت التصرف في الماش، كما قال الله سبحانه
 وتعالى: «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَنَاسًا» فإنما جاء الليل قد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه
 ومكانه، كما قال الله تعالى: «مَنْ لَّهُ خَيْرٌ لِّأَيِّكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ» وقال: «وَجَعَلَ
 اللَّيْلَ سَكَنًا» ويرد أهل الموائش ومواشيمهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإنما يضطر صاحب
 الماشية في ردها إلى مقله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أضحت
 شيطا عليه ضمان ذلك، بل جرى الحكم على الأوفى الأصح، وكان ذلك أرفق بالفرقيين، وأسهل
 على الطائفتين، وأحفظ للباين، وقد وضع الصبح لدى عيين، ولكن لسلم الحاسين، وأما قول
 الليث: لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم من أين قال هذا
 لليث بن سعد، إلا أن يحمله قياسا على العبد الجاني لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده
 في جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضيف الوجه؛ كما قال في «التمهيد» وفي «الاستدكار»
 تخالف الحديث في «السيح» جرحها جبار، وخالف ناقة البراء، وقد تفتت إلى ذلك طائفة من
 العلماء منهم عطاء. قال ابن جريح قلت لعطاء: الحارث تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال:
 يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه خطرا أو لم يكن؟ قال: نعم! يغرم. قلت:
 ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته. وقال معمر بن أبين شبرمة: يقوم
 الزرع على حاله التي أصيب عليها فدراهم. وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز
 رضى الله عنهما: يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تصح.

السادسة عشرة - قال مالك: ويقوم الزرع الذي أضلعت للموائش بالليل على الرعاة
 والحرف. قال: والحواشي التي تحرس والتي لا تحرس، والمحطوط عليها وغير المحطوط، يغرم
 أهلها ما أصابت بالليل بالناما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها. قال: وإنما أهلت دابة
 بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرف،
 ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أضلعت الماشية بالليل فهو في مال ربا،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الحنيفة من قبله إذ لم يرطها، وليست الماشية كالصيد؛ حكم
بمحنون وأصبح وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة - ولا يستأنى بالزرع إن نبت أو لا ينبت كما يفعل في سن الصغير .
وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمته لو حل يمه . وقال أشهب وابن قانع في المجموعة مع: وإن
لم يبد صلاحه . ابن العربي : والأول أقوى لأنها صفة فقوم كما يحوم كل متقف على صفته .
الثامنة عشرة - لو لم يقض لفسده شيء حتى نبت وأنجز فإن كان فيه قبل ذلك
منفعة رعى أو شيء ضمن تلك المنفعة . وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصح
يضمن ؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يند له به .

التاسعة عشرة - وقع في كلب ابن محنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي
هي حيطان مدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة، وبما بين ذلك، فيضمن
أرباب التَّم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تبييت الحيوان في مثل
هذه البلاد تعد؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الوفية عشرين - قال أصح في المدينة : ليس لأهل المواشي أن يخرجوا مواشيهم
إلى قرى الزرع غير ذواته؛ فركب العلماء على هذا أن البقرة لا تخلو أن تكون بقعة زرع،
أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها،
وما أفسدت فصاحبها ضامن ليل أو نهاراً؛ وإن كانت بقعة سرح فعل صاحب الذي حرَّبه
فيها حفظه، ولا شيء على أرباب المواشي .

الحادية والعشرون - المواشي على قسمين : ضواري وحرسية وطليهما قسمها مالك .
فالضواري هي المتادة للزرع والثمار، فقال مالك : تُقَرَّب وتباع في بلد لا زرع فيه ؛ ورواه
ابن القاسم في الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربهما ؛ وكذلك قال مالك
في الباب التي ضرت في إفساد الزرع : تنزب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراز منه فلا
يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانية والعشرون - قال أصح : النمل والحمام والإوز والبعاج كالباشية ، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضربت] ، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربي : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما يتفخ به مما لا يضر غيره مكن منه ، وأما انتفاعه بما يتخذ بإضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليه السلام : " لا ضرر ولا ضرار " وهذه الضواري عن ابن القاسم في المدينة لاضمان على أربابها إلا بعد التتبع ، ابن العربي : وأرى الضيان عليهم قبل التتبع إذا كانت ضواري .

الثالثة والعشرون - ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شريح ، فقال الشعبي : أنظروه فإنه سيسلم ليلًا وقعت فيه أو نهارًا ، فقبل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن ، وإن كان بالنهار لم يضمن ، ثم قرأ شريح : « إِذْ قَعَسَتْ فِيهِ عَمَّ الْقَوْمِ » قال : والنَّعْسُ بالليل والمحمل بالنهار .

قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " العجاء جرحها جبار " الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار المدر ، والعجاء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : " العجاء جرحها جبار " أن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء ، وهذا يجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فجعلها أحدهم على شيء فالتفتته لزمه حكم المتفخ ، فإن كانت جنسية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدًا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه ، لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة . وفي الأموال الغرامة في مال الحاني .

الرابعة والعشرون - واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها ، فلم يضمن مالك والليث والأوزاعي صاحبها ، وضمنه الشافعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة . واختلفوا في الضارية فجمهورهم أنها كغيرها ، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسة والعشرون - روى سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرجل جبار " قال العارضي : لم يروه

خير منان بن حسين ولم يتاج عليه، وحقه الحفاظ عن الزهري منهم مالك وابن حبة وروى
ومعمر وابن جريح والزيدي وقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم روى عن الزهري قالوا:
"السياء جبار والبئر جبار والمعدن جبار" ولم يذكر الرجل وهو الصولب . وكذلك روى
أبو صالح السمان ، وعبد الرحمن الأصبغ ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن زياد وغيرهم عن
أبي هريرة ، ولم يذكر فيه "والرجل جبار" وهو المحفوظ عن أبي هريرة .

السادة والمثرون - قوله : " والبئر جبار " قد روى موضعه " والنار " قال المارغلاني :
حدثنا حمزة بن القاسم الهاشمي حدثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل
يقول في حديث عبد الرزاق : حديث أبي هريرة " والنار جبار " ليس بشيء لم يكن في الكتاب
باطل ليس هو بصحيح . حدثنا محمد بن علفه حدثنا إسحق بن إبراهيم بن هاني قال سمعت
أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البئر ، يعني مثل ذلك . وإنما
لقن عبد الرزاق " النار جبار " . وقال الرمادي : قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وهما .
قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جبار " وقال يحيى بن معين : أصله
البئر ولكن معمرًا صحفه . قال أبو عمر : لم يأت ابن معين على قوله هذا ببديل ، وليس هكذا
تروى أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى النساني قال :
أحرق جبل سافق قراح له فخرجت شررة من نار حتى أحرقت شيتا بلاره . قال : فكتب فيه
إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن حمين فكتب إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : " السياء جبار " وأرى أن النار جبار . وقد روى " والسائمة جبار " بدل السياء فهذا
ما ورد في ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور في شرح الحديث وكتب الفقه .
قوله تعالى : (وَتَخْرُجُ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالُ يُسَبِّحْنَ) قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبحًا
والجبال تجلو به بالتسبيح ، وكذلك الطير . وقيل : كان داود إذا وجد قرة أمر الجبال فسبحت

حتى ينطق، ولهذا قال : « وَتَحَرَّأَ » أى جفطها بحيث عليه إنا أمرها بالصبح . وقيل :
 إن سرها منه تسويها ، والصبح مأخوذ من السباحة ، دليله قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي
 سَهْ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحْنَ » يصلين منه إنا صل ، والصبح الصلاة . وكل مختل .
 وذلك قيل الله تعالى بها ، فك لأن الجبال لا تسفل كتسويها صلاة على تزيه الله تعالى من
 صفات الجازين والمحدثين .

قوله تعالى : وَطَعْنَهُ صَنْعَةً لِّئَلَّا تُصْنَعُ لَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ
 أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٥٠﴾

فه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ) بنى أخذ العروق بولاية الحديد
 ، واللبوس عند العرب السلاح كله ؛ درعا كان أو جرسا أو سيفا أو رمحا . قال المفضل^(١)
 يصف رمحا :

وَمِى لَبُوسٌ لِّبَيْسٍ كَأَنَّهُ • رَوْقٌ يَجِبُهُ ذِي نَاجٍ يَجِينُ
 واللبوس كل ما يلبس ، وأشد ابن السكيت^(٢) :

الْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسًا • إِنَّمَا تَمِيمًا وَإِنَّمَا مَأْوِسًا

وأراد الله تعالى هنا الدرع ، وهو بمعنى اللبوس نحو الزكوب والحلوب . قال قتادة : أول من
 صنع العروق دلود . وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحققها .

الثانية - قوله تعالى : (لِيُصْنَعُ لَكُمْ) ليحرزكم . (مِنْ بَأْسِكُمْ) أى من حربكم .
 وقيل : من السيف والسم والرمح ، أى من آلة بأسكم غنفت المضاعف . ابن عباس :
 « مِنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمضى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو بكر المفضل ، وأمه مامر بن الحليس من قصيدة أولها :

أزهر حل من شية من سطل • أم لا سئل إلى الشيايب الأول

والبيس : السباع . والروق : القرن . وفرد نجاج : مقي ثورا ، والنجاج : القرن من الوحش .

(٢) البيت ليس القزاي . (٢) « ليصنعكم » بالياء قراءة ناص .

وأبو جعفر وابن طاهر وحسن وروح : « لِيُخَيِّمَنَّكُمْ » بالهاء ودا حل الصفة . وقيل : حل
اللبوس والمثمة التي هي الدروع . وقرا شعبة وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق
« لِيُخَيِّمَنَّكُمْ » بالنون لقوله : « وَعَلَّمَائِهِ » . وقرا الباقون بالياء جعلوا القتل لبوساً ، أو يكون
المعنى ليخيمكم الله . (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) أي على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل :
« هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولاً .

الثالثة - هذه الآية أصل في أخذة الصالح والأسباب ، وهو قول أهل القول
والآلآباب ، لا قول الجهلة الأخياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب من الله
في خلقه لمن طعن في ذلك فقد طعن في التكلم والمنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف
وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن فيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع ، وكان
أيضاً يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثاً ، ونوح نجاراً ، ولقيان خياطاً ،
وطالوت دباغاً . وقيل : سقاء ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن
نفسه الضرر والبأس . وفي الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف وينض
السائل الملح » . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة « الفرقان » . وقد تقدم في غير ما آيه ،
وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ
يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ۝٨٢ »

قوله تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً) أي وجعراً لسليان الريح عاصفة ، أي جديدة
المحبوب . يقال منه : عاصفت الريح أي أشدلت فهي ريح عاصف ومصوف . وفي نسخة
بنى أسد : أعاصفت الريح فهي مصيف ومصيفة . والنصف الثين فسمى به شدة الريح ،

(٨١) راجع المسئلة الثالثة من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلناك من المرسلين » الخ ، آية ٢٠
من سورة المائدة .

لأننا نحصفه بشدة تطهيرها . وقرأ عبد الرحمن الأرمج والسنى وأبو بكر « وَلِسْلَيَانَ الرَّيْحُ »
 برقم الحاء على القطع مما قبله ، والمعنى ولسليان تستمر الريح ؛ ابتداء وخبر . (تجزى
 بأمره إلى الأرض التي بكركتها نيباً) معنى الشام . يروى أنها كانت تجزى به وبأصحابه إلى
 حيث أراد ، ثم ترقه إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى جلسته
 حكمت عليه الطير ، وقلم له الجن والإنس حتى يجلس على سريره : وكان أمراً غزاه لا يقدر
 من النزول ، فإذا أراد أن ينزل أمر بجشبت فلدت ووضع عليها الناس والدواب وآلة الحرب ،
 ثم أمر العاصف فأظلت ذلك ، ثم أمر الرضاء فمرت به شهراً في دواحه وشهراً في غلغله ، وهو
 معنى قوله تعالى : « تجزى بأمره رضاء حيث أصاب » . والراءاء اللينة . (وكنا بكل شجر
 حالمين) أى بكل شئ مما طلع بتدبيره .

قوله تعالى : (وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَشُوعُونَ لَهُ) أى ومختراته له من يفوضون ؛ يريد
 تحت الماء أى يستخرجون له الجواهر من البحر . والفوض التزول تحت الماء ، وقد غاص
 في الماء ، والمأجم على الشئ فأنص . والفواض التى يفوض فى البحر على القؤلؤ ، وفعله الفياضة .
 (وَهُمْ لَمَّا دُونُ ذَلِكَ) أى سوى ذلك من الفواض ؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك
 الحارث والمناجيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه . (وَكُنَّا لَهُمْ جَافِظِينَ) أى لأعمالهم . وقال
 الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يجزوا أحداً من بنى آدم في زمان سليمان .
 وقيل : « حافظين » من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . وقد
 قيل : إن الحمام والنورة والعلواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَيُؤَيِّبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَنْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضِرٍّ وَأَتَيْنَتْهُ أَهْلُهُ
 وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِزِّنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ) أي واذكر أيوب إذ نادى ربه. (أَيُّ مَسْنَى الضَّرِّ) أي تأتي في بدني ضرر وفي مالي وأهل. قال ابن عباس: سمى أيوب لأنه أب إلى الله تعالى في كل حال. وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم، وكان برأ حياً رحياً بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، شاكراً لأنهم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم غطاطوه في أمر، بفصل أيوب بين له في القول من أجل زوج كان له فانتحه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضرر في جسمه حتى تناثر لحمه وتنفذ جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تحمسه. قال الحسن: مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر. فلما أراد الله أن يفزع عنه قال الله تعالى له: «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا غُصْلٌ بِكَوْدٍ وَتَرْكُضٌ» فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ومالك ووليك مثلهم معهم. وساقى في «ص» ما للفسرين في قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه، والرد عليهم إن شاء الله تعالى. واختلف في قول أيوب: «مَسْنَى الضَّرِّ» على خمسة عشر قولاً: الأول — أنه وثب ليصل فلم يقدر على النهوض فقال: «مَسْنَى الضَّرِّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنس مرفوعاً. الثاني — أنه إقرار بالعجز فلم يكن متافياً للصبر. الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء ينده في الإنصاح بما يترتب بهم. الرابع — أنه أجراه على لسانه لإلزامه في صفة الآدمي في الضعف عن تحمل البلاء. الخامس — أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً غاف هجران ربه فقال: «مَسْنَى الضَّرِّ». وهذا قول جعفر بن محمد. السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أنضت حاله إلى ما آتته إليه محوا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قدر؛ فاشتكى الضرر فذهاب الوحي والذين من أيدي الناس. وهذا مما لم يصح سنده. واقه أعلم؛ قاله ابن العربي. السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردّها في موضعها فمقرته فصاح «مَسْنَى الضَّرِّ» فقيل: أطينا تصبر. قال ابن العربي: وهذا بعيد جداً

مع أنه يغتر إلى قل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن - أن النود كان يتناول يده
فصبر حتى تلوذت دودة قلبه وأخرى لسانه ، قال : « مَسْنَى الضَّرَّ » لاشتغاله عن ذكر
الله . قال ابن العربي : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عرضة .
التاسع - أنه أهتم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ،
أو تحجيص ، أو كُفْر أو طهر ، قال : « مَسْنَى الضَّرَّ » أي ضَرَّ الإشكال في جهة أخذ
البلاء . قال ابن العربي : وهذا فلو لا يحتاج إليه . العاشر - أنه قيل له سل الله العافية
فقال : ألت في التسع سبعين سنة وأقيم في البلاء سبع سنين وحيث أخذ أسأله فقال : « مَسْنَى
الضَّرَّ » . قال ابن العربي : وهذا ممكن ولكنه لم يصح في إقامته مدة خبر ولا في هذه
القصة . الحادي عشر - أن ضره قول إيليس لزوجيه أسجدى لي تخاف ذهب الإيمان منها
قتهلك ويبقى بنير كافل . الثاني عشر - لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا
وقدره فليخرج عنا ، فأخرجته أمراءه إلى ظاهر البلد ؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطهروا به
وتساموا برؤيته ، فقالوا : ليمد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعد من القرية ، فكانت أمراءه تقوم
عليه ويحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتأوله وتحالطنا فيعود بسببه ضره إلينا . فأرادوا قطعها
عنه ؛ فقال : « مَسْنَى الضَّرَّ » . الثالث عشر - قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب
أخوان فأنبياء فقاما من بعد لا يقدرا أن يدنوا منه من تن ربحه ، فقال أحدهما : لو علم
الله في أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا البلاء ؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة ؛ فعند ذلك
قال : « مَسْنَى الضَّرَّ » ثم قال : « اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت شعبان قط وأنا أعلم مكان
جائع فصدقتي » فنادى مناد من السماء « أن صدق عبيد » وهما يسمعان نفرا ساجدين .
الراجح عشر - أن معنى « مَسْنَى الضَّرَّ » من شامة الأعداء ؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك
في بلائك ؟ قال شامة الأعداء . قال ابن العربي : وهذا ممكن فإن الكلام قد سأله أخوه العافية
من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمَّقُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشَمِّتْ بِي الْأَعْدَاءُ » .
الخامس عشر - أن أمراءه كانت ذات ذنائب فعرفت حين منعت أن تصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها من يصلها قوتها وجاءت به إليه، وكان يصنع
بذوائبها في تصرفه وتنقله، فلما مدها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر قال: «سَيِّئُ الضَّرِّ»
وقيل: إنما لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس في صفة رجل وقال له: إن أمك بنت
فأخذت وحلق شعرها. خلف أيوب أن يملأها، فكانت الحنة مل قلب المرأة أشد من
الحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر - ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد عن خبيل عن
ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه
من البلاء، الحديث. وفيه أن بعض إخوانه من صابره ولازمه قال: يا نبي الله لقد أعجبتني
أمرك وذكره إلى أخيك وصاحبك، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسده،
منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغت ما ترى، ألا يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبت ذنبا ما أظن
أحدنا بلغه! فقال أيوب عليه السلام: «ما أدري ما يقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أني
كنت أمر على الرجلين يترامعان وكل يحلف بالله - لو عل الضريترامعون - فأقلب إلى أهل
فأكفر عن إيمانهم إرادة ألا يأتهم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق» فتأذى به (آي
سَيِّئُ الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وإنا كان دعاؤه عرضا عرضه على الله تبارك وتعالى ينجمه
بالذي بلغه، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث. وقول سابع عشر -

سمعت ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردها إلى موضعها فلم يجدها فقال:
«سَيِّئُ الضَّرِّ» لما قد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يسقى له الأجر موقرا إلى
وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند. قال العلماء: ولم يكن قوله «سَيِّئُ الضَّرِّ»
جزءا، لأن الله تعالى قال: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا» بل كان ذلك دعاؤه، والجزع في الشكوى
إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال التلمي سمعت أستاذنا أبا القاسم بن
حبيب يقول: حضرت جلوسا غاصا بالفقه والأدباء في دار السلطان، فسلت عن هذه الآية
بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا»

قلت : ليس هذا شكية وإنما كان دماء بيانه (فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ) والإجابة تنعقب النساء لا الاشتكاه . فَأَسْتَحْضَوْهُ وَارْتَضَوْهُ . وسئل الجنيذ عن هذه الآية فقال : عرته فافقه السؤال فيمن طبه بكم القول .

قوله تعالى : (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) قال مجاهد وعكرمة قيل لأبيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركهم لك في الجنة وإن شئت آتيناهم في الدنيا . قال مجاهد : تركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس : والإستاد ضمها بذلك صحيح .

قلت : وحكاها المهدي عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا أمرأته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحمري والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي نشروا له ، وولدت أمراؤه سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه في سورة « البقرة »^(١) في قصة « الَّذِينَ تَرَجَّوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلَوْفٌ حَذَرِ الْمَوْتِ » . وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصبغة فماتوا ثم أحيوا ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » في الآخرة « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » في الدنيا . وفي الخبر : إن الله يمت إلى جبريل طيه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده وقضه فضاقت عنه الديدان ، وغاص في الماء غوصة فبغت لجه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، وتشتت صحابة على قدر قواعد داره فامطرت ثلاثة أيام بلياليها جرانا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع ج ٣ ص ٢٣٠ طبة أول وثانية .

(٢) راجع ج ١ ص ٤٠٤ ثانية أروالة ر ٧ ص ٢٩٥ طبة أول أروانة .

يسبح من الله! فضل. فأوحى الله إليه: قد أنبت عليك بالصبر قبل وقومك في البلاد وبعده،
ولولا أنى وضعت تحت كل شجرة منك صبا ما صبرت. (رَحْمَةً مِنْ عِنْدَ) أى فلما
ذلك به رحمة من عندنا. وقيل: ابتلياه ليحطم نوابه لنا. (وَلَذِكْرَى لِقَائِهِمْ) أى
أتذكركم للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومهته له وهو أفضل أهل زمانه
وطنا أنصهم على الصبر على شدة الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم على إقامة
العبادة، واحتفال الضرر. واختطف في مدة إقامته في البلاد، قتال ابن عباس؛ كانت مدة
البلاد سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليل. وهب: ثلاثين سنة. الحسن سبع
سنين وستة أشهر. قلت: وأصح من هذا والله أعلم ثلاث عشرة سنة؛ ورواه ابن شهاب عن
النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدم.

قوله تعالى: وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ) وهو أخنوخ وقد تقدم (وَذَا الْكِفْلِ) أى
وآذ كرم. وخرج الترمذى الحكيم في «نوادير الأصول» وغيره من حديث ابن عمر عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال: «كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب
عمله فأتبع امرأة فأعطاها ستين دينارا [على أن يطأها] فلما قدم منها مقعد الرجل من أمراءه
لوتعدت وبكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك
قالت لا ولكن حلتى عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم مات
من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذي الكفل» وخرجه أبو عيسى
الترمذى أيضا. ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرات - [لم أحدث به] ^(١)
ولكني سمعته أكثر من ذلك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كان

فَوَالْكَفَلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَدَّعُ مِنْ فَنَبِّ عَمَلِهِ فَاتَمَّ أَمْرُهُ فَأَصْلَحُوا سِينَ دِينَارًا عَلَى
 أَنْ يَطْلُقَ قَلْبًا تَعَدُّ مِنْهَا مَقْعِدَ الرَّجُلِ مِنْ أَمْرِهِ أَوْ تَعَدُّتْ وَبَكَتْ قَالُ مَا يَكُنْكَ الْكَرْهَ
 قَالَتْ لَا وَلَكِنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمَلُهُ قَطُّ وَمَا حَلَّتْ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَالِيَةُ قَالَتْ نَحْنُ أَنْتَ هَذَا وَمَا
 فَكُنْتُ أَذْهَبِي نَهَى لَكَ وَقَالَ وَلَئِنْ لَا أَصْنَى اللَّهُ بَعْدَهَا أَبَدًا لَأَتَّ مِنْ لَيْلَةٍ فَاصْبِرْ مَكْرُوبًا
 عَلَى بَابِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ خَفَرَ لَكَ الْكَفَلُ قَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَقِيلَ إِنْ الْبَيْعُ لِمَا كَبُرَ قَالَ :
 لَوْ اسْتَظَنَنْتُ وَجَلًا عَلَى النَّاسِ حَتَّى أَنْظُرَ كَيْفَ يَسْمَلُ . فَقَالَ : مَنْ يَتَكْفَلُ لِي بِثَلَاثَ : بِصِيَامِ
 النَّهَارِ وَبِقِيَامِ اللَّيْلِ وَالْأَيْضِ وَهُوَ يَفْعَلُ ؟ قَالَ وَجَلَّ مِنْ ذُرِّيَةِ الْبَيْسِ : أَنَا ؛ فَرَدَّهُ ثُمَّ
 قَالَ مِثْلَهَا مِنْ الْقَدِّ ؛ قَالَ الرَّجُلُ : أَنَا ؛ فَاسْتَفْهَمَهُ فَوْقَ فَأَتَى اللَّهُ عَلَيْهِ فَسَمِيَ ذَا الْكَفَلِ ؛ لِأَنَّهُ
 تَكْفَلُ بِأَمْرِ ؛ قَالَ أَبُو مُوسَى وَجَعَادٌ وَتَالِدَةُ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَرِثِ وَقَالَ
 أَبُو مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ ذَا الْكَفَلِ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عِيدًا صَالِحًا
 فَتَكْفَلُ بِعَمَلِ رَجُلٍ صَالِحٍ حَتَّى مَوْتِهِ ، وَكَانَ يَصِلُ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ مِائَةُ صَلَاةٍ فَحَسَنَ اللَّهُ الشَّاءَ عَلَيْهِ .
 وَقَالَ كُتُبٌ : كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَلِكٌ كَافِرٌ لَوْ بِلَاغِهِ وَجَلَّ صَالِحٌ قَالُ : وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ
 مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ حَتَّى أَمْرُضَ عَلَى هَذَا الْمَلِكِ الْإِسْلَامَ . فَفَرَضَ عَلَيْهِ قَالُ : مَا جَزَاءُ ؟ قَالَ :
 الْجَنَّةُ - وَوَصَفَهَا لَهُ - قَالَ : مَنْ يَتَكْفَلُ لِي بِذَلِكَ ؟ قَالَ : أَنَا ؛ فَاسْلَمَ الْمَلِكُ وَتَحَلَّى
 عَنْ الْمُلْكَ وَأَتَّبَعَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ حَتَّى مَاتَ ، فَلَقْنَاهُ فَاصْبَحُوا فَوَجَدُوا يَدَهُ خَارِجَةً مِنَ الْقَبْرِ
 وَفِيهَا رَقْعَةٌ خَضْرَاءُ مَكْتُوبٌ فِيهَا بَنُو أَيْبُضَ : إِنْ اللَّهُ قَدْ خَفَرَ لِي وَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ وَوَقَّى عَنْ كِفَالَةِ
 فَلَانِ ؛ فَاسْرِعْ النَّاسُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ بَانَ يَأْخُذُ طَعِيمَ الْإِيمَانِ ، وَيَتَكْفَلُ لَمْ يَسْمَعْ تَكْفُلَ بِهِ
 لَكَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ فَأَمَّنُوا كُلَّهُمْ فَسَمِيَ ذَا الْكَفَلِ . وَقِيلَ : كَانَ رَجُلًا عَفِيفًا يَتَكْفَلُ بِشَأْنِ
 كُلِّ إِنْسَانٍ وَقَعَ فِي بَلَاءٍ أَوْ تَهْمَةٍ أَوْ مَطَالِبَةٍ فَيَجِيبُهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ . وَقِيلَ : سَمِيَ ذَا الْكَفَلِ لِأَنَّهُ
 اللَّهُ تَعَالَى تَكْفَلُ لَهُ فِي سَمِيهِ وَعَمَلِهِ بِضَمِّفِ عَمَلٍ فِيهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِهِ .
 وَابْتِهَاجُورُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيٍّ . وَقَالَ الْحَسَنُ : هُوَ نَبِيٌّ قَبْلَ الْإِبْلِيسِ . وَقِيلَ : هُوَ زَكْرِيَّا بِكَفَالَةِ
 مَرْيَمَ . (كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) أَيْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ . (وَأَدْخَلْنَاهُمْ
 فِي رَحْمَتِنَا) أَيْ فِي الْجَنَّةِ (إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ) .

قوله تعالى : وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُتَغِيبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : (وَذَا النُّونِ) أى وأذكر ذنوب النون ، وهو لقب ليونس بن متى لا بلعام
النون إياه . والنون الحوت . وفي حديث قتال رضى الله عنه أنه رأى صيوا مليحا فقال : دثموا
نوتة كى لاتصيه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابي : النوة القبة التى تكون فى ذنق الصي
الصغير ، ومعنى دثموا سودوا . (إِذْ ذُهِبَ مُتَغِيبًا) قال الحسن والشبي وسعيد بن جبير :
مغاضبا لربه عز وجل . واختاره الطبري والفتي واستحسنه المهدوى ، وروى عن ابن مسعود .
وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل
ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إنا صمى .
وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثة : " أشترطى لهم الولاء " -
من هذا . وبالفتح انتهى فى نصرة هذا القول . وفى التلخيص وصف يونس : إنه كان ضيق
الصدر فلما حل أعباء النبوة تنحس تحتها تنحس الرجح تحت الحمل الثقيل ، فغضى على وجهه
مضى الآبى الناذ . وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع
العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبى من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالسود إليهم
بعد رفع العذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بترول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من
مدينتهم فى ذلك الوقت ، فأظلمهم العذاب فضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ؛ فذلك
ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد . وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير
إلى قومه فقال أن ينظر ليأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلًا ليلبسها فلم يُنظر ، وقيل
له : الأمر أعجل من ذلك - وكان فى خلقه ضيق - فخرج مغاضبا لربه ، فهذا قول وقول

النعاس أحسن ما قيل في تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه ، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعتهم فذهب فازا بنفسه ، ولم يصبر على أن لهم وقد كان الله أمره ببلادتهم والدعاء ، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله . روى عنه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أهله للتبوء ، ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه ، لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغضبهم ، وعلى كل أحد أن يغضب من عصى الله عز وجل . وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للآل الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك الذى كان في وقته اسمه حزقيا أن يعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان حزقيا بن إسرائيل وسي الكثير منهم ليكله حتى يرسل معه بنى إسرائيل ، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوسى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وصى ذلك النبي ، وكان أوصى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نيا قويا أميننا من بنى إسرائيل فيعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتغذية عن بنى إسرائيل فإني ملق في قلوب ملوكهم وجبارتهم التغذية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا . قال : فهل سماني للهي ؟ قال : لا . قال فهاتنا أنبياء أمناه أقوياء . فالحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه ، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان ؛ فابتلى بطن الحوت وتركه أمر شعيا ؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَاتَّقِمِ الْخُوتَ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نيا في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتي نينوى ؛ ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للآل ؛ فلما نجى من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وأمروا به . وقال القشيري : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلمهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في « والمصافات » إن شاء الله تعالى .
 وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فغشي أن يقتل غضب ،
 ويخرج قاتلا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر . فقال أهلها : أنبكم آبي ؟
 فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وأبشلي بطن الموت فحبسا من الضيقة كما قال
 في لعل أحد : « حَتَّى إِنَّمَا نَشْتَمُ » إل قوله : « وَيَتَحَسَّسُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » فلعلى الأنبياء
 مضطرون ، ولكن قد يجري تحيص ويتضمن ذلك زجرا عن العودة . وقول رابع : إنه لم
 ينضب ربه ، ولا قومه ، ولا الملك ، وأنه من قولم غضب إذا آت . وقيل قد يكون من
 واحد ، فالمنى أنه لما وعد قومه بالسذاب ونرج عنهم تابوا وكشف عنهم السذاب ، فلما رجع
 ولم أنهم لم يهلكوا آتف من ذلك فخرج آتفا . ويشد هذا البيت :
 • والغضب إن نجى عيم يهلم •

أي آتف . وهذا فيه نظر ، فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك الغضبية وإن
 كانت من الأفعى ، فلا أفة لابد أن يخالطها الغضب وفك الغضب وإن دق على من كان ؟
 وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه !

قوله تعالى : (فَظَنُّوا أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ) قيل : معناه أستره إبليس
 ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بما قبله . وهذا قول مردود مرغوب عنه ، لأنه كفر .
 روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي ، والثعلبي عن الحسن . وذكر الثعلبي وقال عطاء
 وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : ظنن أن لن نضيق عليه . قال الحسن : هو من قوله
 تعالى : « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أي يضيق . وقوله : « وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .
 قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقدر وقدر وقدر بمعنى ، أي ضيق وهو
 قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي . وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ؛
 أي ظنن أن لن نقضى عليه بالقوية ، قاله قتادة وعجايد والقراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم

قوله القدرة والاستطاعة . وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيى تطلب ، أنه قال في قول الله عز وجل : « قُلْنَا إِنَّ لَكَ قَدْرًا طَيِّبًا » هو من التقدير ليس من القدرة ، يقال منه : قَدَّرَ الله لك الخير قدره قدرًا ، بمعنى قدر الله لك الخير . وأشد تطلب :

قلت حيايت القوى بواجب . لنا أبقا ما أوردك السلم النضر

ولا عائد ذلك الزمان الذي مضى . تباركت ما تديره بك الشكر

بمعنى ما تديره وتخصي به يقع . وعلى هذين التأويلين الملساء . وقرا عمر بن عبد العزيز والزهرى : « قُلْنَا إِنَّ لَكَ قَدْرًا طَيِّبًا » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة المسعودى عن ابن عباس . وقرا عبيد بن عمير وقائدة والأمرج : « إِنَّ لَكَ قَدْرًا طَيِّبًا » بضم اللام مشددا على الفعل المجهول . وقرا يعقوب وعبد الله بن أبي إسحق والحسن وابن عباس أيضا « قَدَّرَ طَيِّبًا » بياء مضمومة وقح الدال مخففا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا : « قُلْنَا إِنَّ لَكَ قَدْرًا طَيِّبًا » . الباقون « قَدَّرَ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير . قلت : وهذان التأويلان تأويل العلماء في قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه " فوالله لئن قدر الله على " الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على وبالغ في محاسنتى وجرأى على ذنوبى ليكون ذلك ، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه . وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يندب كل ذى جرم على جرمه ليعذب الله على إجرامى وذنوبى عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه نخرجه الأئمة في الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء في بعض طرقه " لم يعمل خيرا إلا التوحيد " وقد قال حين قال الله تعالى : لم قلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا للمؤمن مصدق ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وقد قيل : إن معنى « قُلْنَا إِنَّ لَكَ قَدْرًا طَيِّبًا » الاستفهام وتقديره : أظن ؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازا ؛ وهو قول سليمان [أبو] المعتز . وحكى القاضى منذر بن سعيد : أن بعضهم قرا « أظن » بالألف .

(١) في الأصل « سليمان بن المعتز » وهو معروف والتصويب من « تليج القليب » .

ليس في جهة . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
 سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيها خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم .
 وقيل : في الخروج من غير أن يؤذنه . ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز
 أن يعاقبوا ، وإنما كان ذلك تحميصا . وقد يؤذّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره
 الماوردي . وقيل : من الظالمين في دعائهم على قومي بالعذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم
 يؤخذ . وقال اللواسطي في مناه : تزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعتزا
 واستحقاقا . ومثل هذا قول آدم وحواء : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب في وضعهما
 أنفسهما في غير الموضع الذي أوتيا فيه .

الثانية - روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 « دماء ذى النون في بطن الحوت » لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع
 به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له . وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . ورواه سعد
 عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي الخبر : في هذه الآية شرط الله لمن دماه أن يعبه كما أجابه
 ويعبه كما أنجاه ، وهو قوله : « وَكَذَلِكَ نَجِيّ الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دماء وإنما هو
 مضمون قوله : « إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نَجِيّ الْمُؤْمِنِينَ) أى نخلصهم من مهمهم بما سبق من عملهم .
 وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من
 الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق عبده ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال
 الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فلما لى يوم القيامة يقال له ذو النون ، فما
 ظلك بعد مدهممين ستة يطل هذا معه ! لا يظن بذلك . « من أقم » أى من بطن الحوت .
 قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نَجِيّ الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجي ينجى . وقرأ
 ابن مامر « نجي » بنون واحدة وجم شذوذة وتسكين لياء على الفعل الماضي وإظهار المصدر
 أى وكذلك نجي النجاة للمؤمنين ؛ كما تقول : ضُرب زيداً بمعنى ضُرب الضرب زيداً وأُشدد :

وَلَوْ كُنْتَ فَتِيرَةً بِرُكْبٍ • لَسَبَّ بِذَلِكَ الْجَرِيرُ الْكَلْبَ

أراد لَسَبَّ السَّبَّ بِذَلِكَ الْجَرِيرُ • وسكنت ياقه على لثة من يقول نبي ورَضَى فلا يحرك الياء.

وقرأ الحسن « وَذَرُّوا مَا بَيْنَ مِنَ الرَّأْيِ » استقلاً لتحريك ياء قبلها كسرة • وأشد :

تَحْشُرُ الشَّيْبُ لِنَبِيِّ تَحْمِيماً • وَحَدَّثَنَا بِي إِلَى الْقُبُورِ الْبَعِيدِ

لَيْتَ شَعْرِي إِذَا الْقِيَامَةُ قَامَتْ • وَدُعِيَ بِالْحَسَابِ ابْنِ الْمَصِيرِ

سكن الياء في دعى استقلاً لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل هذا المشيب ؛ أي وحدا المشيب

البعير ؛ ليت شعري المصير أين هو • هذا تأويل الفراء وأبي عبيد وتطبع في تصويب هذه

القرأة • وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن ؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ؛ وإنما

يقال : نَجَّى الْمُؤْمِنُونَ • كما يقال : كَرَّمَ الصَّالِحُونَ • ولا يجوز ضَرْبُ زَيْدًا بمعنى ضَرْبِ الضَّرْبِ

زَيْدًا ؛ لأنه لا فاعلة [فيه] ^(١) إذ كان ضَرْبٌ يَدُلُّ عَلَى الضَّرْبِ • ولا يجوز أن يحتج بمثل ذلك

البيت على كتاب الله تعالى • ولأبي عبيد قول آخر • وقاله القتيبي • وهو أنه أَدغمَ التَّوْنُ في الجيم •

التَّعْصَمُ : وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعد خُرُجِ التَّوْنِ من مخرج الجيم

فلا تدغم فيها ، ولا يجوز في « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « نَجَاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم أسمع

في هذا أحسن من شيء سمعته من علي بن سليمان • قال : الأصل نَجَّى فحذف إحدى التونين ؛

لأجتماعهما كما تحذف إحدى التامين ؛ لأجتماعهما نحو قوله عز وجل : « وَلَا تَقْرَأُوا » والأصل

تَقْرَأُوا • وقرأ محمد بن السَّمِيعِ وَأَبُو الْعَالِيَةِ « وَكَذَلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ » أي نَجَّى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ ؛

وهي حسنة •

قوله تعالى : وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْوَارِثِينَ ﴿٢٨﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ

كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٢٩﴾

(١) قهرة (بكسرة) : أم القزفة • واليت لجرير من تصديدها نحو ما القزفة •

(٢) القزاة من « إضراب القرآن » النحاس •

قوله تعالى : (وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ) أى وأذكر ذكرى . وقد تقدم فى آل عمران ذكره . (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا) أى متفردا لا ولد لى وقد تقدم . (وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) أى خير من يبق بعد كل من يموت ، وإنما قال « وأنت خير الوارثين » لما تقدم من قوله : « يَرِثُنِي » أى أعلم أنك لا تصيب دينك ، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن حقى . كما تقدم فى « مريم » بيانه .

قوله تعالى : (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) أى أجبنا دعاه : (وَوَهَبْنَا لَهُ نَحْسًا) . تقدم ذكره مستوفى : (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) قال قتادة وسعيد بن جبيرة أكثر المفسرين : إنها كانت قاترا بلغت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المئين بعلت حسنة الخلق ولودا . (إِنَّهُمْ) يبنى الأضياء المسمين فى هذه السورة (كَأَوَّلَ يُسَارِعُونَ فِي الْفَعَالِ) . وقيل : الكناية راجعة إلى ذكرى وأسرته ويحيى .

قوله تعالى : (وَيَذْعُرُونَ زَوْجًا وَرَجَبًا) فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : (وَيَذْعُرُونَ زَوْجًا وَرَجَبًا) أى يذرعون الزنا يذرعون فى حال الرضاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يذرعون وقت تعبدكم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف ، لأن الرغبة والرهبة متلازمان . وقيل : الرغب رفع بطون الألف إلى السماء ، والرهب رفع ظهورها ، قاله خفيف ، وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل دافع من البشر أن يستعين يديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه ، إذ هو موضع إعطائه أو بها يتملك ، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح فكك ، والإشارة إلى نفعه وتوقيه بنقض اليد ونحوه .

الثانية - روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الخطبة لم يحطهما حتى يمسح بهما ويوجه وقد مضى فى « الأعراف »^(١)
(١) جامع ٤ ص ٧٤٤ بخط طبة أم الدار الثانية . (٢) جامع ٧ ص ٢٢٤ بخط طبة أم الدار الثانية .

الاختلاف في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك : وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته وإلى أين ؟ فكان بعضهم يختار أن يسط كفيه رافعهما حذو صدره ويطونهما إلى وجهه ؛ روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان علي يدعويهما كفيه ؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذي . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا سألتم الله فاسألوه بطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها واسحوا بها وجوهكم » . وروى عن ابن عمر وابن الزبير رافعهما إلى وجهه ، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري ؛ قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم برفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ، ورفعهما فوق نديه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يجاذى بهما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه . قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير غفلة المعاني، وجاز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء ، وإذا رافعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الاتيال . قال الطبري وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر ، أى يرغبون رغبًا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله ؛ أى للرغب والرهب . أو على الحال . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وَيَدْعُوًا » بنون واحدة . وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان النين والمساء مثل السَّمِّ والبُخْلِ ، والعَدَمِ والفُرْلَتَانِ . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغَبًا وَرَهَبًا » بالفتح في الراء والتخفيف في النين والمساء ، وهما لسان مثل تَهَرَّوْته وتَهَرَّوْته ومُتَهَرَّوْته . ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو . (وَكَانُوا ثَلَاثِينَ) أى مواضع خاضعين .

قوله تعالى : وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ قَرَجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَمَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا) أى واذا ذكر مريم التى أحصت فرجها . وإنا
 ذكرها وليست من الأنبياء ليم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : (وَجَلَّتْهَا وَابْنَهَا
 آيَةً لِلْعَالَمِينَ) ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين .
 وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدت من غير خل ؛ وعلى مذهب سيويه التفسير :
 وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية
 للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : «وَأَنَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» . وقيل : إن من آياتها
 أنها أول امرأة قبلت في النذر في التعب . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده
 لم يحرم على يد عبد من صيده . وقيل : إنها لم تقم ثديا قط . «وَأَحْصَتْ» بمعنى عقت
 فاستمتعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أى لم تعلق بنوها رية ؛
 أى إنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكنان والأعلى والأسفل . قال السبيل :
 فلا يذهب وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظا ،
 وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل ، لاسيما والتفخ من روح
 القدس بأمر القدوس ، فأصف القدس إلى القدوس ، وتره المقدسة المطهرة عن الفتن الكاذب
 والحسد . (فَتَقَبَّحْنَاهَا مِنْ رُوحِنَا) معنى امرنا جبريل حتى نفسخ في درعها ، فأحسنا
 بذلك التفخ المسخ في بطنها . وقد مضى هذا في «النساء» و «مريم» فلا معنى للإعادة .
 (آيَةً) أى علامة وأعجوبة للخلق ؛ ولما نبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ١٦

قوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون
 على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما .
 فاما المشركون فقد خالفوا الكل . (وَأَنَا رَبُّكُمْ) أى إلهكم وحدى . (فَاعْبُدُونِي) أى
 افردوني بالعبادة . وقرا عيسى بن عمر وابن أبى إسحق : «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» ورواها

حسين عن أبي عمرو . الباقون «أمة واحدة» بالنصب على القطع بحسب التكرار بعد تمام الكلام ؛
 قاله الفراء . الزجاج : انتصب «أمة» على الحال ؛ أى فى حال اجتماعها على الحق ؛ أى هذه
 أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد ؛ فإنما تحرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق
 من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديق عفيفا أى ما دام عفيفا فإنما خالف
 العفة لم يكن صديق . وأما الرغ فيجوز أن يكون على البذل من «أمتكم» أو على إسماعيل مبتدأ ؛
 أى إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت «أمتكم» على
 البذل من «هذه» بلazar ويكون «أمة واحدة» خبر «إن» .

قوله تعالى : وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٧﴾ فَمَنْ
 يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُبُونَ ﴿١٨﴾
 قوله تعالى : (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) أى تفرقوا فى الدين ؛ قاله الكلبى . الأخفش :
 اختلغوا فيه . والمراد المشركون ؛ ذمهم لمخالفة الحق ، وأما ذم أمة من دون الله . قال
 الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ؛ فنصب «أمرهم» بحذف «فى» . فالتقطع على هذا
 لازم وعلى الأول متعذر . والمراد جميع الخلق ؛ أى جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا وتقسموه
 بينهم ، فمن موحد ، ومن يهودى ، ومن نصرانى ، ومن عابد ملك أو صنم . (كُلُّ إِلَيْنَا
 رَاجِعُونَ) أى إلى حكمتنا فنجازيهم .

قوله تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) «من» للتبيين لا للجنس إذ
 لا قدرة للكلف أن يأتى بجميع الطاعات فرضها ونفلها ؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات
 فرضا أو نفلا وهو موحد مسلم . وقال ابن عباس : مصدقا بمحمد صلى الله عليه وسلم .
 (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) أى لا يجود لعمله ؛ أى لا يضيع جزاءه ولا ينفى . والكفر ضد
 الإيمان . والكفر أيضا جود النعمة ، وهو ضد الشكر . وقد كفره كفورا وكفرانا . وفى حرف
 ابن مسعود «فَلَا كُفْرَ لِسَعْيِهِ» . (وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) لعمله حافظون . نظيره «أنى لا أنسي»
 عمل ما يلى منكم من ذكر أو أنسى . أى كل نك عفو لا يجازى به .

قوله تعالى : وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾
 حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٦﴾
 وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثِيَابًا
 قَدْ كَانَتْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) قراءة زيد بن ثابت
 وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحَرْمٌ » ورويت
 عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل حِلَّ وحَلَل . وقد روى
 عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرِمٌ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس
 أيضا وعكرمة وأبى العالية « وَحَرَمٌ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا
 « وَحَرَمٌ » وعنه أيضا « وَحَرَمٌ » ، « وَحَرَمٌ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرِمٌ » . وعن قتادة
 ومطر الوراق « وَحَرَمٌ » تسع قراءات . وقرأ السلمي « عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا » . واختلف فى « لا »
 فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة ؛ روى ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد؛
 أى وحرام على قرية أهلكتها أن يرجعوا بعد الملاك . وقيل : ليست بصفة ، وإنما هى
 ثابتة ، ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أى وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَأَنْ حَرَامًا لَا أَرَى الْقَهْرَ بَأْيَا • عَلَى تَجَنُّوهِ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَى حَفَرٍ

تريد أخاها ؛ ف « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن
 ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عينة وابن علية وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن
 حيان ومعلى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « وَحَرَامٌ
 عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر :
 واشتقاق هذا بين فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حَرَمَ الشيء حُظِرَ ومنع منه ، كما أن معنى أحل
 أُمِحَ ولم يمنع منه ، فكأن « حَرَامٌ » و « حَرِمٌ » بمعنى واجب لفظا لله قد ضيق الخروج

منه ومنع قد دخل في باب المحذور بهذا؛ فأما قول أبي حنيفة : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزداد في مثل هذا الموضع ، ولا فيما يقع فيه إشكال ، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا ؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه ، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُعزَم . وقيل : في الكلام إسماعيل أي وحرام على قرية حكمتا باستئصالها ، أو بالتحمل على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ؛ قاله الزجاج وأبو علي ؛ و « ولا » غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِنَّا كُنُوزَهُمْ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ) فسلم القول فيهم . وفي الكلام حذف ؛ أي حتى إذا فتح سد ياجوج ومأجوج ، مثل « وأسأل القرية » . (وَمِمَّنْ كُلِّ صُلَيبٍ يُسَلُّونَ) قال ابن عباس : من كل شرف يُغلبون ؛ أي لكفرتهم يسلمون من كل ناحية . والحلب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحذاب ؛ مأخوذ من حلبة الظهر ؛ قال عترة : فإرعت يداي ولا أزدعاني . تواترتم إلى من الحذاب

وقيل : « يُسَلُّونَ » يخرجون ؛ ومنه قول امرئ القيس :

• قَلْبِي نِيَابِي مِنْ نِيَابِكَ قَتَلِ^(١) •

وقيل : يسرعون ؛ ومنه قول النابغة :

عَلَّانَ الذَّنْبِ أَمْسَى قَارِبًا • بَرَدَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ فَتَنَلِ

يقال : عسل الذنب يسيل سلا وسلا إذا أعنى وأسرع . وفي الحديث : « كَذَبَ عَلَيْكَ الْمَسَلَّ » أي عليك بسرمة المشي . وقال الزجاج : والفسلان مشية الذنب إذا أسرع ؛ يقال : نسل فلان في العدو يُسَلُّ بالكسر والضم نسلًا ونُسُلًا ونَسَلًا ؛ أي أسرع . ثم قيل في الذين يسلمون من كل حذب : إنهم ياجوج ومأجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يحشرون إلى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من صفة ومصدره : • وإن لك سامع من خلقه •

(٢) وقيل : هو اليد ، كما « النان » مادة « نعل » . (٣) القارب : الساريل .

صوب . وقرئ في الشواذ « وَمِنْ كُلِّ جَلَدٍ يَسْلُونَ » أخذنا من قوله : « فَإِنَّا مِنْ الْأَجَلَاتِ إِلَى رَبِّهِمْ يَسْلُونَ » . وحكى هذه القراءة المهدوي عن ابن مسعود والشطي عن مجاهد وأبي الصبيان .

قوله تعالى : (وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) يعني القيلة . وقال القرطبي والكسائي وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ؛ والمعنى : حتى إذا فصحت يأنجوج ، وأجوج أقرب الوعد الحق « فَأَقْرَبَ » جواب « إذا » . وأشد القرءاء :

• فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَقِّ وَأَتَمَّيْ .

أى أتمى ، والواو زائدة ، ومنه قوله تعالى : « وَلَهُ الْيَمِينِ » وناديتاه « أى يمين ناديتاه » . وأجاز الكسائي أن يكون جواب « إذا » « فَإِنَّا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفا على الفعل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَنْصِبُهُمْ إِلَّا لِيُفَرِّجُوا إِلَى اللَّهِ رِزْقِي » المعنى : قالوا ما نصيبهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : (فَإِنَّا هِيَ شَاخِصَةٌ) « هى » ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بملحها تفسر لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند عجيء الوعد . وقال الشاعر :

تَسْمُرُ أَيُّهَا لَا تَسْوَلُ ظَلِمَتِي • أَلَا فَرَحْتُ مَا لَكَ بِنِ ابْنِ كَمْبِ

فكنى عن الظلمة فى أيها ثم أظهرها . وقال القرطبي : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّا لَا تَمُوتُ الْأَبْصَارُ » . وفيل : إن الكلام تم عند قوله : « هى » التقدير : فإذا هى ؛ بمعنى القيلة بارزة واقعة ؛ أى من قربها كأنها آتية حاضرة ، ثم أبدأ فقال : (شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أى من هواء لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إذا كنا ظالمين بمصيبتنا ، ووضعنا العبادة فى غير موضعها .

(ب) فيه لامر الله عز وجل ، وقوله ،

• يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ

قوله تعالى : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ** ﴿٦٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأول — قوله تعالى : **(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ)** قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها ! لا أدري أحرفوها فلم يسألوا عنها ، أو جهلوا فلا يسألون عنها ، قليل وما هي ؟ قال : **« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ »** لما أزلت شق على كفار قريش ، وقالوا : شتم ألهتنا ، وأتوا ابن الزبير وأخبروه ، فقال : لو حضرته لردت عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبد النصارى واليهود تعبد عزيراً أفهما من حصص جهنم ؟ فسجبت قريش من مقالته ، ورواها ابن عباس قد خُصم ، فأنزل الله تعالى : **« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحِسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا يُبْعَدُونَ »** وفيه نزل **« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا »** يعني ابن الزبير **« إِنَّا قَوْمُكَ مِنْهُ يُصَدِّقُونَ »** بكسر الصاد ، أي يصدقون ، وسألي^(١) .

الثانية — هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صيغة مخصوصة ، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه ، وهو باطل بما دللت عليه هذه الآية وغيرها ، فهذا عبد الله بن الزبير قد فهم « ما » في حاملته جميع من عبد ، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب النقصاء ، واللبن البلاء ، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها ، وقد وجد ذلك فهي للعموم وهذا واضح .

الثالثة — قراءة العامة بالصاد المهملة ، أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها . وقرأه ابن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما **« حَطَبُ جَهَنَّمَ »** بالطاء . وقرأ ابن عباس **« حَصَبُ »** بالضاد المعجمة ، قال القراء : يريد الحصب . قال : وذكر لنا أن الحصب في لغة أهل

(١) في تفسير آية ٧٢ من سورة « الزمر » .

الذين الحطب ، وكل ما حبت به النار وأوقشتها به فهو حطب ، ذكره الجوهري .
 والموقد يحطب . وقال أبو حنيفة في قوله تعالى : « حَصَبُ جَهَنَّمَ » كل ما ألقته في النار
 فقد حصبتها به . ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يبدون من الأصنام حطب
 لهم . وتظهر هذه الآية قوله تعالى : « فَأَتَوْهُا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . وقيل :
 إن المراد بالحجارة الحجارة الكبريت ، كل ما يحترق في « البقرة » وأن النار لا تكون على الأصنام
 صوابا ولا عقوبة ، لأنها لم تنب ، ولكن تكون صوابا على من صلبها : أول شيء بالحسرة ،
 ثم يجمع على النار فتكون نارا أشد من كل نار ، ثم يعدون بها . وقيل : تحمى فتلصق بهم
 زيادة في تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت في النار تذكيرا لعبادتهم .

الرابعة - قوله تعالى : (أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) أى فيها داخلون . والخطاب للشركين
 عبدة الأصنام ، أى أنتم واردوها مع الأصنام . ويجوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعبتها ،
 لأن الأصنام وإن كانت جهانات فقد يغير عنها بكلمات الآدميين . وقال العلماء : لا بدخل
 في هذا معنى ولا عزير ولا الملائكة صلوات الله عليهم ، لأن « ما » ليسر الآدميين . فلو أراد
 ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُّوهُا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٦﴾

لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُّوهُا) أى لو كانت الأصنام آله لما ورد
 عابدها النار . وقيل : ما وردعها العابدون والمعبودون ، ولهذا قال : (وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) .
 قوله تعالى : (لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ) أى هؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين ،
 فاما الأصنام فلي الخلاف فيها ، هل يحيا الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟
 قولان : والزفير صوت قوس المنصوم يخرج من القلب . وقد يحتمل في « هود » . (وَهُمْ فِيهَا)

(١) داجج ١ ص ٢٣٥ وما بعدها طبع الآية ٢٤٥ .

(٢) داجج ٩ ص ٧٨ وما بعدها طبع أول الآية .

لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٩﴾ قِيلَ : فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ ، وَالْمَعْنَى وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا ، لِأَنَّهُمْ يَحْشَرُونَ
صَمَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ عَمِيًّا وَبُكَيًا وَشَمًّا » . وَفِي سَمَاعِ
الْأَشْيَاءِ رُوحٌ وَأَنْسٌ ، لَفَعِ اللَّهُ الْكَفَّارَ ذَلِكَ فِي النَّارِ . وَقِيلَ : لَا يَسْمَعُونَ مَا يَسْمَعُونَ ،
بَلْ يَسْمَعُونَ صَوْتَ مَنْ يَتَوَلَّى تَذْيِيبَهُمْ مِنَ الزَّيَانَةِ . وَقِيلَ : إِذَا قِيلَ لَهُمْ « اخْشَوْا فِيهَا »
وَلَا تُكَلِّمُونِ » يَصِيرُونَ حِينَئِذٍ صَمَا بَكَ ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسُودٍ : إِذَا بَقِيَ مِنْ يَخْلُدِ فِي النَّارِ فِي جَهَنَّمَ
جَصَلُوا فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ ، ثُمَّ جَلَّتِ التَّوَابِتُ فِي تَوَابِتٍ أُخْرَى فِيهَا مَسَامِيرُ مِنْ نَارٍ ،
فَلَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّ فِي النَّارِ مِنْ يَجْذِبُ غَيْرَهُ .

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا كُنْتُمْ أَنتُمْ خَلِّدُونَ ﴿١١١﴾)
لَا يَحْزَنُهُمْ أَنْفَرُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿١١٢﴾)

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى) أى الجنة (أُولَٰئِكَ عَنْهَا) أى من
النار (مُبْعَدُونَ) فمعنى الكلام الاستثناء ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : « إِنْ » هَاهُنَا بِمَعْنَى
« إِلَّا » . وَبِلسَانِ الْقُرْآنِ غَيْرُهُ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِبٍ : سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ يَقْرَأُ هَذِهِ آيَةَ عَلَى الْمَنْبَرِ « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنْ عَثَانُ مِنْهُمْ » .

قوله تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً) أى حَسَّ النَّارِ وَحَرَكَهَ لَهَا . وَالْحَسِيسُ
وَالْحَسَّ الْحَرَكَةُ . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ قَالَ أَبُو رَاشِدٍ الْحَرَوِيُّ لابْنَ عَبَّاسٍ :
« لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً » فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَيْجُنُونَ أَنْتَ ؟ فَأَبَى قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِنْ مِنْكُمْ
إِلَّا وَارِدُهَا » وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » وَقَوْلُهُ : « إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدْنَا » . وَلَقَدْ كَانَ مِنْ
دَعَاءِ مَنْ مَضَى : اللَّهُمَّ أَخْرِجْنِي مِنَ النَّارِ سَالِمًا ، وَأَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَائِزًا . وَقَالَ أَبُو مِثْلَانَ الْهَدْيِيُّ :

على الصراط حيات تلح أهل النار فيقولون : حَسَّ حَسَّ . وقيل : إنا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حَسَّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون ، فله أعلم . (وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) أي دافعون وهم فيها تشبه الأفعى وتلد الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَوْنَ » .

قوله تعالى : (لَا يُعْزِمُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) وقرا أبو جعفر وابن الجييم « لَا يُعْزِمُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاي . الباقون بفتح الياء وضم الزاي . قال الزبيدي : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبث ؛ عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا طبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصري : هو القطيعة والفراق . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يوم القيامة في كتيب من المسك الأنكر ولا يعزيمهم الفزع الأكبر رجل أم قوما محسبا وهم له راضون ودجل أذن لقوم محسبا ورجل ابتلى برق في الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلى الغلام ، فكلت مولاه حتى عفا عنه ، فقلت أبا سعيد الخدري فأخبرته ، فقال : يا بن أخي ! من أثلث مكروبا أعظمه الله من النار يوم الفزع الأكبر سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . (وَتَلْقَاهُمْ لِلْمَلَائِكَةِ) أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة حيثونهم ويقولون لهم : (هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَذَا يَوْمُكُمْ » أي ويقولون لهم ؛ غفغف . « الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَاهُ أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَلَىٰ عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ) قرا أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والأعرج والزهري « نَطْوِي » بياء مضمومة « السَّمَاءُ » بفتح الهمزة وضم السين فاعله « مجاهد » بفتح الميم

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « تطوى » بنون العظمة . واتصاب « يوم » على الليل من النساء المنفوفة في الصلاة ؛ التصدير : الذي كنتم توعده يوم تطوى السماء . أو يكون منصوباً بـ « عبيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يمحزنهم » أى لا يمحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذى تطوى فيه السماء . أو على إسماعيل وأذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . (كَفَى السَّجِّلُ لِلْكِتَابِ) قال ابن عباس ومجاهد : أى كفى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى « على » . وعن ابن عباس أيضاً اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه من اسمه السَّجِّل . وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسدى : « السَّجِّل » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرقها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس وأثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السَّجْل وهو الدلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا زعت دلوها وزرع دلوها ، ثم استعيرت فسميت المكتوبة والمرابطة مساجلة . وقد سجَّل الحاكَمُ تسجيلاً . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لمب :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جَدْنَا • يَمْلَأُ الدَّاءُ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(١)

ثم بنى هذا الاسم على فيل مثل جيز ويطير ويلي . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَفَى السَّجِّلُ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعشى وطلحة « كَفَى السَّجِّلُ » ففتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . واتهام عند قوله : « فَلِكِتَابٍ » . والعلل فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما — الدَّرج الذى هو ضد النسر ، قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يحو وطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإنفراد قراءة فصحى : (٢) الكرب : حبل يشد على عراقى الهوى ثم يمشى يكون هو الذى على الماء فلا يغرق الجبل الكبير .

قال الله تعالى : « إِنَّا السَّمْسُ كُورَتْ . وَإِنَّا الْجُومُ أَنْكَدَتْ » . وَإِنَّا السَّمَاءُ كَيْشَطَتْ . . « لِيَكْتَلِبَ » وتم الكلام . وقراءة الأعمش وخفس وحسرة والكسائي ويحيى وخلف : « لِيَكْتَبَ » . جماعهم استألف الكلام فقال : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) أى نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بدؤوا فى البطون . وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام - ثم قرأ - « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » « أنزله مسلم أيضا عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون لى الله حفاة عراة غرلا » كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا فَلَبِثْنَا إِيَّاهُ كَافِلِينَ » ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام » وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن أبي الزمراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كفى الرجال فتبت منه ثمنهم وجسمانهم كما تبت الأرض بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شئ وتقنيه كما كان أول مرة^(١) . وعلى هذا فالكلام متصل بجموله : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى نطويها فنعيدها إلى المسلك والقاء فلا تكون شيئا . وقيل : قفى السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، كقوله : « يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ بِأَرْضٍ أُخْرَى » والقول الأول أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَحَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . (وَعَدْنَا) نصب على المصدر ؛ أى وعدنا وعدنا (عَلَيْنَا) إنجازه والوفاء به أى من البعث والإمادة ، قفى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل شأؤه : (إِنَّا كُنَّا قَائِلِينَ) قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا قَائِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا قَائِلِينَ » أى ما وعدناكم وهو كما قال : « كَانَتْ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كَانَتْ » للإخبار بما سبق من فضائه . وقيل : صلة .

(١) هذا القول يحتاج إلى تكبر كقول الأوسى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جازان يقال
التوراة والإنجيل زبور . ذُكرت أى كتبت وجمعه زُبر . وقال سعيد بن جبير : « الزبور »
التوراة والإنجيل والقرآن . (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) الذى فى السماء (أَنَّ الْأَرْضَ) أرض الجنة
(يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعمى : « الزبور »
زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزبور » كتب
الأنبياء عليهم السلام ، و « الذكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس :
« الزبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة للمثلة على
موسى . وقرا حمزة « فِي الزُّبُورِ » بضم الزاى جمع زُبر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »
أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ، لأن الأرض فى الدنيا
قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية :
ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ »
وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد
صلى الله عليه وسلم بالفتح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ، بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا
الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين
على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرا حمزة « عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ »
بتسكين الياء . (إِنَّ فِي هَذَا) أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعد والتنبيه . وقيل :
إن فى القرآن (لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ) قال أبو هريرة وسفيان الثوري : هم أهل الصلوات
الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « عابدين » مطيعين . والعابد المتدلل الخاضع . قال
القشيري : ولا يبعد أن يدخل فيه كل مائل ، لأنه من حيث الفطرة متدلل لمخالق ، وهو بحيث
لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله
عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بعبته .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ قَدْ تَسَكَّرْتُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عهد صل الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فن آمن به وصلى به سعد ، ومن لم يؤمن به صلى مما لحق الأنهم من الخسف والفرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة . قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فلا يحوز الإشراك به . (قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أى متقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فاسلموا ؛ كقوله تعالى : « قَهْلَ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ » أى اتبوا .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْا) أى إن أعرضوا عن الإسلام (قُلْ أَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ) أى أهلككم على بيان أنا وإياكم حرب لاصح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا نَتَّقُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً » فَأَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ أى أهلكهم أذك قضت العهد قضا ، أى أسويت أنت وهم فليس لفرق عهد مقدم فى حق الفريق الآخر . وقال الزجاج : المعنى أهلككم يا يوحى إلى على استواء العلم به ، ولم يظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . (وَإِنْ أُدْرِيَ) « وإن » نافية بمعنى « وما » أى وما أدري . (أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ) معنى أجل يوم القيامة لا يدرى أحد لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ، قاله ابن عباس . وقيل : أذنتكم بالحرب ولكنى لا أدري متى يؤذن لى فى محاربكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَّعُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٣١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) أى من الشريك وهو الجاهل به . (وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةٌ لَّكُمْ) أى لعل الإهمال (فَتَنَةٌ لَّكُمْ) أى اختبار ليرى كيف صليكم

وهو أمله . (وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) قيل : إلى آفضائه للجنة . ودعى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية في منامه يلون الناس ، تخرج الحكم من عنده فأخبر بنى أمية بذلك ، فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى : « وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ يَبْدَأُ مَا تُلْقُونَ » « وَإِنْ أَدْرَىٰ لَمَلَّةٌ قَتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ » يقول لتيه عليه السلام قل لم ذلك .

قوله تعالى : (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ) ختم السورة بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقيع الفرج من عنده ، أى أحكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرفني عليهم . روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا أَفْرِجْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أى أفض به . وقال أبو حنيفة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب أحكم بحكك الحق . وذهب في موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف . وقرأ أبو جعفرين القعقاع وابن محيصن « قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » بضم الباء . وقال النحاس : وهذا لحن عند النحويين ؛ لا يجوز عندهم رجلاً أقبل ، حتى تقول يارجل أقبل أو ما أشبهه . وقرأ الضحاك وطلمة ويقوب « قَالَ رَبِّي أَحْكُم بِالْحَقِّ » بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال عبد ربي أحكم بالحق من كل حاكم . وقرأ المجدري « قُلْ رَبِّي أَحْكُم » على معنى أحكم الأمور بالحق . (وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ) أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسبي « عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ » بالياء على الخبر . الباقر بالله على الخطاب .

(١) « قل » على معة الأمر قراءة نفع .



بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحج

وهي مكية، يوسى ثلاث آيات : قوله تعالى « هَذَا خُطَبَانِ » إلى ثمان ثلاث آيات ؛
قاله ابن عباس ويحيى . ومن ابن عباس أيضاً ثمن أربع آيات ، إلى قوله « مَذَابُ الْحَرِيقِ » .
وقال الضحاك وابن عباس أيضاً : هي مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : « وَمَا أَرْسَلْنَا^(١) مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — إلى — مَذَابُ بَوْمٍ عَقِيمٍ » فهن مكيات . ومذ النخاش
ما نزل بالمدينة عشر آيات . وقال الجمهور : السورة مختلطة ، منها مكي ومنها مدني . وهذا
هو الأصح ؛ لأن الآيات تختص ذلك ، لأن « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » مكي ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »
مدني . التزيوي : وهي من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، سَفَرًا وَحَضْرًا ، مَكِّيًّا وَمَدِينِيًّا ،
سَلِيًّا وَحَرِيًّا ، نَحْنًا وَمُسَوِّخًا ، مُحْكَمًا وَمُنْشَأً ، غُخِفَ الْعِدَدُ .

قلت : وجاء في فضلها ما رواه الترمذي وأبو داود والبارقني من عقبه بن طاهر قال
قلت : يا رسول الله ، فُضِّلَتْ سورة الحج بأن فيها مجديتين ؟ قال : « نعم ، ومن لم يسجد لها
ثلاثاً يقرأها » . لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي .

واختلف أهل العلم في هذا ، فروى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وابن عمر
إثباتاً قالوا : فُضِّلَتْ سورة الحج بأن فيها مجديتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد
وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها جملة واحدة ؛ وهو قول سفیان الثوري . روى البارقني
عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب مجدي في الحج مجديتين ؛ قلت في الصبح ؟
قال في الصبح .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَتَّخِذُ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ رِبًّا ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①

وروى الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد » قال : أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : «أتدرون أي يوم ذلك ؟» فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : «ذاك يوم يقول الله لأدم أبست بئس النار قال يا رب وما بئس النار قال تسعائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» . فأنشأ المسلمون ييكون ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تأربوا وسعدوا فإنه لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» - قال - فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كتلت من المنافقين وما مثلكم والأثم إلا كتلت الرقة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير - ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا رج أهل الجنة - فكبروا ؛ ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة - فكبروا ؛ ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا . قال : لا أدري قال الثلثين أم لا . قال : هذا حديث حسن صحيح ، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين . وفيه : فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده إنكم لمع خليفتين ما كانتا مع شيء إلا كثرناه بأجوج وما جوج ومن مات من بني آدم وبني إيليس» قال : فُسر عن القوم بعض الذي يحدثون ؛ فقال : «اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقة في ذراع الدابة» قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الله تعالى يا أدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك» - قال - يقول أخرج بئس النار قال وما بئس النار قال من كل ألف تسعائة وتسعة وتسعين قال فذاك

(١) الرقة : الحمة الناعمة في ذراع الدابة . (٢) الشامة : علامة تختلف البدن القوي من غيره .

(٣) في بعض النسخ : « تسعائة وتسعة وتسعون » قال نصب على القسرية ، والرجح على التبرية .

حين يسيب الصخر وتقع كل ذات حل حملها وترى الناس سكرى وما هم بمسكرين ولكن
 مذاب الله شديد». قال : فاشتد ذلك عليهم ؛ قالوا : يا رسول الله ، أيتنا ذاك القيل ؟ فقال :
 « ائشروا فإن من ياجوج وماجوج أئنا ومنكم رجل ». وذكر الحديث بخبر ما تقدم في حديث
 عمران بن حصين . وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدثنا أحمد بن محمد بن قانع قال حدثنا
 سلمة قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال
 « يأبى الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم — إلى — ولكن مذاب الله شديد »
 قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسيره ، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه
 فقال : « أتدرون أى يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم
 فأبى بئس أهل النار من كل ألف تسامى وتسمة وتقسون إلى النار واحد إلى الجنة » .
 فكبر ذلك على المسلمين ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وقاربوا وابشروا فوالله
 نفسى بيده ما أتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الحمار وإن معكم
 خليفتين ما كانتا مع شيء إلا كثرناه ياجوج وماجوج ومن هلك من كفره الجن والإنس » .
 قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ) المراد بهذا النداء المكفون ؛ أى أخشوه
 في أوامره أن تركوها ، وتواهبه أن تقدموا عليها . والآقاء : الاحتراس من المكروه ؛ وقد
 تقدم في أول « البقرة » القول فيه مستوفى ، فلا معنى لإعادته . والمعنى : احسروا بطاعته
 عن عقوبته .

قوله تعالى : (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) الزلزلة شدة الحركة ؛ ومنه « وَزَلَّزَلُوا حَتَّى
 يَقُولَ الرَّسُولُ ^(٢٢) » . وأصل الكلمة من زل عن الموضع ، أى زال عنه وتمزك . وزلزل الله نفسه ،
 أى حركها ، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء . وقيل : هى الزلزلة المعروفة التى هى إحدى
 شرائط الساعة ، التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة ؛ هذا قول الجمهور . وقد قيل : إن هذه
 الزلزلة تكون فى النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها ، فانه أعلم .

قوله تعالى : **يَوْمَ تَرَوُنَّا تَنَحَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ①

قوله تعالى : (**يَوْمَ تَرَوُنَّا**) الماء في « **تَرَوُنَّا** » مائدة عنده الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوى هذا قوله عز وجل « **تَنَحَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا** ». والإرضاع والحمل إنما هو في الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة ؛ واحتجوا بحديث عمران بن حصين الذي ذكرناه ، وفيه : « **أتدرون أى يوم ذلك ...** » الحديث . وهو الذي يقتضيه سياق مسلم في حديث أبي سعيد الخدري .

قوله : (**تَنَحَّلُ**) أى تستل ؛ قاله قطرب . وأشد :

صَرَّأَ يُزِيلُ الْمَاءَ عَنْ مَقِيلِهِ • وَيُنْزِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وقيل نسي . وقيل فهو . وقيل تساو ؛ والمعنى متقارب . (**عَمَّا أَرْضَعَتْ**) قال المبرد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أى تنحل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حمل وإرضاع . إلا أن يقال : من ماتت حاملا ثبتت حاملا فضع حملها للهول . ومن ماتت مُرْضِعَةً بُعثت كذلك . ويقال : هذا كما قال الله عز وجل : « **يَوْمًا يَحْسُلُ الْوَلَدَانِ شَيْئًا** » . وقيل : تكون مع القفحة الأولى . وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يحرك الناس من قبورهم في القفحة الثانية . ويعمل أن تكون الزلزلة في الآية جارة عن أحوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : « **مَسْمُومٌ بِالْمَاءِ وَالْقُرْءِ وَذُرِّيُّوهُ** » . وكما قال عليه السلام : « **آلهم أهنهم وذرلهم** » . وقائدة ذكر هول ذلك اليوم للحريص على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة بـ « **شيء** » إما لأنها

(١) في الأصول : « **بضرب** » والمضروب من مرة إلى حشام . وفيه :

نَحْنُ قَطَاكُمُ عَلَى تَارِيهِ • كَا قَطَاكُمُ عَلَى تَرْهِ

والجزءية الله بن دواحة ، لم يجره . وهو يفرقة بيننا وبين الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة في مرة القضاء . (راجع سورة ابن حنبل) . (٢) آية ١٧ سورة الزلزل . (٣) آية ٢١٤ سورة البقرة .

حَصَّةً مَبْنُوعَةً وَفُوحًا ، فَيَسْمَلُ لَكَ أَنْ تَمُوتَ شَيْئًا وَهِيَ حَلُومَةٌ ، إِذَ الْيَقِينِ يَنْسِبُهُ
 الْمَوْجُودَاتِ . وَإِلَّا مَعْلُومًا ، أَيْ هِيَ إِذَا وَقَعَتْ شَيْءٌ عَظِيمٌ . وَكَأَنَّهُ لَمْ يَطْلُقِ الْأَسْمَ
 الْآخَرَ ، بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ هِيَ إِذَا شَيْءٌ عَظِيمٌ ، وَلَقَدْ تَعَمَّلَ لِلْمُرَاضِعِ وَتَسْكُرُ
 النَّاسَ ؛ كَمَا قَالَ : (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى) أَيْ مِنْ هَوْلِهَا وَمَا يَدْرِكُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ .
 (وَمَا تُمْ سُكَارَى) مِنْ الْخَمْرِ . وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي : وَتَرَى النَّاسَ كَأَنَّهُمْ سُكَارَى . يَدُلُّ عَلَيْهِ
 قَوْلُهُ أَبِي زُرْعَةَ هَرَمُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَرَى النَّاسَ ، بَعْضُ النَّاسِ ؛ أَيْ تَقْنُنُ
 وَيَجْعَلُ إِلَيْكَ . وَفَرَأَ حِزَّةً وَالْكَسَائِيُّ « سُكْرَى » بِضَاءِ الْفَاءِ ، الْبَاقُونَ « سُكَارَى » وَهِيَ لَتَانِ
 بِلِجَمِ سَكَانٍ ، مِثْلُ كَسَلٍ وَكَسَالٍ . وَالزُّوْلَةُ : التَّحْرِيكُ الْعَنِيفُ . وَالنَّهْوَلُ : التَّفْصِيلُ عَنْ
 الشَّيْءِ بِطَرَوْهُ ، مَا يَشْتَلُّ عَنْهُ مِنْ هَمْ أَوْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ . قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمَعْنَى تَرَكْ وَلَدَهُ
 لِكَرْبِ الَّذِي نَزَلَ بِهَا .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ
 كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ① كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلُهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ
 إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ②

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) قِيلَ : الْمُرَادُ الضَّرْبُ مِنَ الْحَارِثِ ،
 قَالَ : إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِلٍّ غَيْرِ قَادِرٍ عَلَى إِجْلَاءِ مَنْ قَدْ بَلَغَ وَعَادَ تَرَابًا . (وَيَتَّبِعُ) أَيْ فِي قَوْلِهِ
 ذَلِكَ . (كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ) مُتَزَوِّدٌ . (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن قَوْلُهُ) قَالَ قَتَادَةُ وَبِجَاهِدٍ :
 أَيْ مِنْ تَوَلَّى الشَّيْطَانَ . (فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ)

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا
 خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ
 وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّسَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَسَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى

ثُمَّ نَحْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَكَّلْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَدُدُّ
إِلَى الْأَرْضِ الْغَيْرِ لِنَكْبَلَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ ظُورِ شَيْءٍ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً
فَإِنَّا أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهِمَ أَمْوَءَ الْعَتَرَةِ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١٠﴾
قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّكُمْ فَعَلَيْكُمْ) (إلى قوله - مَسْمُوعٌ)

فيه اثنا عشرة مسألة :

الأول - قوله تعالى : (إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّكُمْ) هذا احتجاج على العالم
بالبنية الأولى . وقوله : « إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّكُمْ » متضمنة التوقيف . وقرأ الحسن بن
أبي الحسن « البت » بفتح الباء وهي لغة في « البتة » عند البصريين . وهي عند الكوفيين
بتخفيف « بت » . والمعنى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ إِيمَانِكُمْ . (وَأَنَا نَفَقَاتُكُمْ)
أى خلقنا إياكم الذى هو أصل البشر ، يعنى آدم عليه السلام (مِنْ تُرَابٍ) . (ثُمَّ) خلقنا
ذريته (مِنْ نَفَقَةٍ) وهو التى تسمى نفقة الخنزير ، وهو القليل من الملبسة وقد يقع على الكمين
منه ، ومنه الحديث « حتى يسير الراكب بين النطفين لا يمشى جوراً » . أراد بحر المشرق
وبحر المغرب . والنطف : النطف . نطف يتنطف ويتنطف . ولبسة نفقة لغة النطف .
(ثُمَّ مِنْ طَفَّةٍ) وهو القم الجماد . والقاق القم البيط ، أى القيرى . وقيل : والشديد
الحرارة . (ثُمَّ مِنْ مِصْقَةٍ) وهى لغة قليلة قدر ما يعضغ ، ومنه الحديث « ألا وإن فى الجسد
مِصْقَةً » . وهذه الأطول أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفى الشهر من الأشهر الأربعة
يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، فذلك ممتلئون بها زوجها ، أربعة أشهر وعشر .

الثانية - وهو يحى بهذا ذكر يمين أيتها نطفة حلتها دود عن مامر عن قطعة من
ابن مسعود ومن كبر عمر بن الخطاب ^(١) أن الله عز وجل خلق آدم لخلق طائفة بكنهه فقال « يا رب
ذكر أم أنثى » شق لهم حيله ما الأجل والأثر ، أى أرض الموت ؟ فيقال له أنطلق إلى أم

الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها في أم الكلب ، فتخلق
تأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت في المكان الذي فُقد لها ، ثم قرأ
عامر « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ الَّذِي خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ » . وفي الصحيح
عن أنس بن مالك - وروى الحديث - قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ
أَيُّ رَبِّ نَظْفَةٌ . أَيُّ رَبِّ عِلْقَةٌ . أَيُّ رَبِّ مُضْغَةٌ . فإذا أراد الله أن يخلق خلقا قال قال
الملك أَيُّ رَبِّ ذَكَرَ أَوْ أَثَى شَقِيَ أَوْ سَعِدَ . فإِذَا رَزَقَ فِي الْأَجْلِ . فيكتب كذلك في بطن
أمه » . وفي الصحيح أيضا عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : « إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثَنَانٌ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً يَبْتَثُّ إِلَيْهَا مَلَكًا فَيُصَوِّرُهَا
وَيَخْلُقُ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا ثُمَّ يَقُولُ أَيُّ رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أَثَى ... » وذكر
الحديث . وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو الصادق المصدوق « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ
عِلْقَةً مِّثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِّثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسِلُ الْمَلَكُ فَيَنْفِخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ
بِتَكْنِبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ... » الحديث . فهذا الحديث مفسر للأحاديث
الأول ، فإن فيه : « يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عِلْقَةً
ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُضْغَةً ثُمَّ يَبْتَثُّ الْمَلَكُ فَيَنْفِخُ فِيهِ الرُّوحَ » فهذه أربعة أشهر وفي الشهر ينفخ
الملك الروح ، وهذه عدة التوقُّ [عنها زوجها] كما قال ابن عباس . وقوله « إِنَّ أَحَدَكُمْ
يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ » قد فسره ابن مسعود ، مثل الأعمش ، ما يجمع في بطن أمه ؟ فقال :
حدثنا يحيى بن عيسى قال قال عبد الله : إذا وقعت النطفة في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرا
طارقت في بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يوما ثم تصير دما في الرحم ،
فذلك جمعا ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثة - نسبة الخلق والتصوير لآلِكَ نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صدر عنه
فعل ما في المضغة كان منصف للتصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقته واختراعه ؛ ألا تراه جليله

قد أضف إلى الخلقة الحقيعية ، وقطع عنها نسب جميع الخلقة فقال : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ^(١) » . وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ^(٢) » . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ^(٣) » . وقال : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا بخلقناكم من تراب ثم من نطفة ^(٤) » . وقال تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ^(٥) » . ثم قال : « وصوركم فأحسن صوركم ^(٦) » . وقال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ^(٧) » . وقال : « خلق الإنسان من علق ^(٨) » . إلى غير ذلك من الآيات ، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين . وهكذا القول في قوله : « ثم يرسل الملك فينضج فيه الروح » أي أن النضج سبب خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول في سائر الأسباب المعانة ، فإنه بإحداث الله تعالى لا يتغيره . فتأمل هذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبعين وغيرهم ^(٩) .

الرابعة - لم يختلف العلماء أن نضج الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ، كما يتناهى بالأحاديث . وعليه يؤول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستحلال عند التنازع ، وفي وجوب الصفقات على حمل المطلقات ، وذلك لثبته بحركة الجنين في الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة في عتة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشرة ، وهذا المخول في الخامس يحقق براءة الرحم يلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

الخامسة - النطفة ليست بشيء حيّ ، ولا يتعلق بها حكم إنفاقتها المرأة إذا لم تجتمع في الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ، فإنما طرحه طقة فقد تحققت أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد . وصل هذا فيكون وضع الطقة لما فوقها من المشقة وضع حمل ، تجأ به الرحم ، وتنفض به العتة ، ويثبت به للحاكم أم الولد . وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه . وقال الشافعي رضي الله عنه :

- | | | |
|---------------------------|----------------------------|------------------------|
| (١) آية ١١ سورة الأعراف . | (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . | (٣) آية ٢ سورة التين . |
| (٤) آية ١٤ سورة غافر . | (٥) آية ١ سورة التين . | (٦) آية ٢ سورة لقاح . |
| (٧) في القدر ، والقدر . | | |

لا احبار بإسقاط الخلق ، وإنما الاخبار يظهر الصورة والتخطيط ؛ فإن خفي التخطيط
وكان لحما قولان بالغل والتخرج ، والمتصوص أنه تنقضي به السنة ولا تكون أم ولد .
قالوا : لأن السنة تنقضي بالتم الحار ، فغيره أولى .

السادسة - قوله تعالى : (عُلِقَتْ وَضِرَّ عُلْقَةً) قال القرطبي : « عُلِقَتْ » تامة الخلق ،
« وَضِرَّ عُلْقَةً » السقط . وقال ابن الأعرابي : « عُلِقَتْ » قد بدأ خلقها ، « وَضِرَّ عُلْقَةً »
لم تصور بعد . ابن زيد : الخلقه التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وضِرَّ عُلْقَةً التي
لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربي : إذا رجعت إلى أصل الاشتقاق فإن السقطه والخلق
والمضغة عُلْقَةٌ ؛ لأن الكل خلق الله تعالى ، وإن رجعت إلى التصوير التي هو منتهى الخلقه
كما قال الله تعالى : « ثُمَّ أَنْشَأَهُ خَلْقًا آخَرَ » فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما نتاج عليه الأطوار قد خلق خلقا بعد
خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : « ثُمَّ أَنْشَأَهُ خَلْقًا آخَرَ » والله أعلم .
وقد قيل : إن قوله « عُلِقَتْ وَضِرَّ عُلْقَةً » يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أي منهم من
يتم الرب سبحانه مضغه فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خديجا ناقصا غير تمام .
وقيل : الخلقه أن تلد المرأة تمام الوقت . ابن عباس : الخلقه ما كان حيا ، وغير الخلقه
السقط . قال :

أف غير الخلقه البكاء . فإن الحزم ويحك والحياه

السابعة - أجمع العلماء على أن الأمه تكون أم ولد بما تسقطه من ولده تام الخلق .
وعند مالك والأوزاعي وغيرهما بالمضغة كانت عُلْقَةً أو ضِرَّ عُلْقَةً . قال مالك : إذا علم أنها
مضغة . وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن كان قد تبين له شيء من خلق بني آدم أصبح أو عين
أو غير ذلك فهي له أم ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا استهل صارخا يصل عليه ؛ فإن
لم يستهل صارخا لم يصل عليه عند مالك وإبي حنيفة والشافعي وغيرهم . وروى عن ابن عمر
أنه يصل عليه ؛ وقوله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن النخعي بن شعبة أنه

كان يأمر بالصلاة على السقط ، ويقول سمعوا وأطيعوا وكفتموه وحملوه ، فإن الله
 أكبر بالإسلام كبيركم وصغيركم ، ويتلو هذه الآية : **وَإِذَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرْبٍ - إِلَى - وَشَيْءٍ**
عَلَقَةٍ . قال ابن العربي : لعل الليرة بن شعبة أراد بالسقط ما تنبت خلقه فهو الذي
 يسمى ، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له . وقال بعض السلف : يصل عليه متى فتح فيه الروح
 وتمت له أربعة أشهر . وروى أبو داود عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال : **" إِنْ أَسْتَهَلَ الْمَوْلُودَ وَرِثَ .** الاستهلال : رفع الصوت ؛ فكل مولود
 كان ذلك منه أو حركة أو عطاس أو تنفس فإنه يورث لوجود ما فيه من دلالة الحياة .
 وإلى هذا ذهب سفيان الثوري والأوزاعي والثاقلاني . قال الخطابي : وأحسنه قول أصحاب
 الرأي . وقال مالك : لا ميراث له وإن تحرك أو عطس ما لم يستهل . وروى عن محمد بن
 سيرين والشعبي والزهري وقتادة .

الثامنة - قال مالك رضى الله عنه : ما طرحت المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم
 أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الفزة^(١) . وقال الثاقلاني : لا شيء فيه حتى يتبين من خلقه .
 قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهل صارخا ففيه الفزة . وسواء تحرك أو عطس فيه الفزة
 أبدا ، حتى يستهل صارخا ففيه الدية كاملة . وقال الثاقلاني رضى الله عنه وسائر فقهاء الأمصار :
 إذا ماتت حياته بحركة أو عطاس أو باستهلال أو بنز ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاسعة - ذكر القاضي إسماعيل أن مدة المرأة تنقضي بالسقط الموضوع ، واحتج
 عليه بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : **وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** . قال
 القاضي إسماعيل : والبديل على ذلك أنه يرث أباه ، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحللا .
 قال ابن العربي : ولا يربط به شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون علقا .

قلت : ما ذكرناه من الاشتقاق وقوله عليه الصلاة والسلام : **" إِنْ أَحْدَكُمْ مَجِعَ خَلْقُهُ**
فِي بطنِ أمه " يدل على صحة ما قلناه ، ولأن سقطه العلقة والمضغة يصدق على المرأة إذا
 (١) هي مضغته : ما يجع عند حركته من فيه كالزبد . (٢) آفة : من العلق .

أفنت لها كانت حللا وضعت ما استغرق رحما، فيحملها قوله تعالى « وَأُولَئِكَ الْأَهْلُ
الَّذِينَ لَا يَتَمَنَّوْنَ حُلَّتَهُمْ » . ولأنها وضعت مبدأ الولد من خلفه متجسدا كالنقط ،
وهذا بين .

للمائة - روى ابن ماجه حدثا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا خلف بن عبد حدثنا
يزيد بن عبد الملك الترمذي عن يزيد بن رومان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « لَسَقَطَ أَقْلُهُ بَيْنَ يَدَيَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَارِسٍ أَخْفَقَهُ ^(١) [خَفَى] » . وأخرجه
للمالك في معرفة علوم الحديث له عن سويل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة فقال :
« أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ قَارِسٍ أَخْفَقَهُ وَرَأَى » .

الحادية عشرة - (لَيْتَنِي لَمْ) يريد : كمال قدوتنا بتصرفنا أطوار خلقكم . (وَيَقْرَأُ
فِي الْأَرْحَامِ) قرئ ينصب « قمر » و« نخرج » ، رواه أبو حاتم عن أبي زيد عن الفضل عن
عاصم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : « قمر » بالرفع لا غير ، لأنه
ليس للمنى : فلما ذك لقرف الأرحام ما نشاء ، وإنما خلقهم من وجل ليطلع على الرشد
والصلاح . وقيل : المعنى ليتني لم أمر البعث ، فهو اعتراض بين الكلامين . وقرأت هذه
للقرعة بالرفع « وقمر » ، والمعنى : ونحن قمر . وهي قراءة الجمهور . وقرئ : « ويقرء » و« يخرجكم »
بالياء ، والرفع على هذا سائق . وقرأ ابن وثاب « ما نشاء » بكسر النون . والأجل للمنى
يختلف بحسب جتين جتين ، ثم من يسقط وتم من يكمل أمره ويخرج حيا . وقال « ما نشاء »
ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل ، أي يقرئ الأرحام ما نشاء من الحمل ومن اللطفة
وهي جملة فكنتي عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة - قوله تعالى : (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) أي أطفالا ، فهو اسم جنس
وأيضا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد ، قال الشاعر :
يلحيتي في حبها ويثنيني • إن السوائل ليس في يميني

ولم يقل أمراء . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والسند ، فيقع على الواحد والجمع ، قال الله تعالى : « أَوِ الْطِفْلَ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا مِنْ حَوَائِثِ النِّسَاءِ » . وقال الطبري : وهو نصب على التمييز ، كقوله تعالى : « فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » . وقيل : للثني ثم تخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت اتصال الولد بالبلوغ . ولقد كلَّ وَحْشِيَّةٍ أيضا طفل . ويقال : جارية طفل ، وجارية طفل ، وجارية طفل ، وعلام طفل ، وعلان طفل . ويقال أيضا : طفل وطفلة وطفلان وطفلات وأطفال . ولا يقال : طفلات . وأطفال المرأة صارت ذات طفل . والمطفلة : الغلية معها طفلها ، وهي قريبة عهد بالتاج . وكذلك الناقة ، [والجمع] مَطَائِلُ ومطائيل . والطفل (الفتح في الغاء) الثام ؛ يقال : جارية طفلة أى ناعمة ، وبنان طفل . وقد طفل الليل إذا أقبل ظلامه . والطفل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طَلَّتْ الشمس الغروب . والطفل (أيضا) : مطر ، قال :
لَوْ هَدَيْتُ جَادَهُ طَفْلُ الشَّرِّ

(ثُمَّ تَبَيَّنُوا أَشَدُّكُمْ) قيل : إن « ثم » زائدة كالواو في قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » ؛ لأن ثم من حروف التثنية كالواو . « أَشَدُّكُمْ » كمال قولكم ونهاية قواكم . وقد مضى في « الأعمام » بيانه . (وَمِنْكُمْ مَنْ يَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الضُّمِيِّ) أى أخس وأدونه ، وهو المهرم والخرف حتى لا يعقل ؛ ولهذا قال : (لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عَلِيمٍ عَيْنًا) . كما قال في سورة يس : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَرُدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ » . أنكره النسائي عن سعد ، وقال : وكان يطهرن فيه كما يعلم المكتيب الغلمان . وقد مضى في الفصل هذا المعنى .

(١) آية ٣١ سورة الفجر . (٢) آية ٤ سورة الفجر . (٣) قوله ولطفة : الفتن من الجوارح بلطفة للفتن كأنه خوف . (٤) بكاء من الجوارح . (٥) طبع ١٤٠٠ . (٦) طبع ١٤٠٠ . (٧) طبع ١٤٠٠ . (٨) طبع ١٤٠٠ .

قوله تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) ذكر دلالة أقوى على البحث فقال في الأول : « فإنا خلقناكم من تراب » ، فغالب جما . وقال في الثاني : « وَتَرَى الْأَرْضَ » ، فغالب واحدا ، فافصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتياج على منكرى البحث . (هَامِدَةً) يابسة لا تنبت شيئا ، قاله ابن جريج . وقيل : دارسة . والهمود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُبَيْلَةٌ ما بلسمك شاحِبًا • وأرى ثيابك باليات مُهْمَدًا

المهمود : « هامة » أى جافة ذات تراب . وقال سيمر : يقال : همد شجر الأرض إذا بلى وقعب . وهمدت أصواتهم إذا سكنت . وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصيبها مطر . وفي الحديث : « حتى كاد يهمد من الجوع » أى يهلك . يقال : همد الثوب يهمد إذا بلى . وهمدت النار تهمد .

قوله تعالى : (فَإِنَّا أَنزَلْنَاهَا فَيَسِيلُ الْغُلَامُ مَاءَ الْهَيْهَاتِ) أى تحركت . والاعتزاز : شدة الحركة ؛ يقال : هزرت الشيء فاهتز ، أى حركته فتحرك . وهز الحادي الإبل هززا فاهتزت هى إذا تحركت فى سيرها بجذائه . واهتز الكوكب فى انقضائه . وكوكب هاز . فالأرض تهتز بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزول بعضها من بعض إزالة خفية ؛ فعليه اعتزازا مجازا . وقيل : اهترنبتها ، فحلف المضاعف ؛ قاله المبرد . واهترازه شدة حركته ، كما قال الشاعر ،

تَدَى إِذَا قَامَتْ وَهْتَرَتْ إِنْ مَثَتْ • كما اهترغن البان فى ورق خُطَر

والاعتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . (وَرَبَّتْ) أى ارضعت وزادت . وقيل : استنضجت ؛ والمعنى واحد ، وأصله الزيادة . ربأ الشيء يربو ربوا أى زاد ؛ ومنه الربا والروبة . وقرأ يزيد بن النعمان وسالمة بن الجهم « وَرَبَّتْ » أى ارضعت حتى صارت بمنزلة الرينة ، وهو الذى يحفظ القوم على شئ مثير فيه ؛ فهو رابى ورينة على المبالغة . قال لفرزدق الغنص :

بَعَثْنَا رَيْحًا قَبْلَ ذَلِكَ مُخَمَّلًا • كَذَّبَ النَّصَابُ بِمَنَى الضَّرَاءِ وَيَتَّقِي^(١)

(وَأَنبَتَ) أى أخرجت • (مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ) أى لَوْنٍ • (يَبِيعُ) أى حسن، من قناعة •
أى يُبِيعُ من يراه • والتهجة الحسن، يقال : رجل ذو بهجة • وقد يبيع (بالضم) بهاجة وبهجة
فهو يبيع • وأبهجنى أبهجنى بحسنة • ولما وصف الأرض بالإنبات دلّ على أن قوله :
« اهترت وربت » يرجع إلى الأرض لا إلى النبات • والله أعلم •

قوله تعالى : ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ الْكَافِرَ وَلَهُ جُنُودٌ مَوْجِيَةٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ
مَنْ فِي الْقُبُورِ ⑦

قوله تعالى : (ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ الْكَافِرَ) لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها
على وفق اقتضائه واختياره في قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ — إلى قوله —
يَبِيعُ » • قال بعد ذلك : « ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ الْكَافِرَ وَلَهُ جُنُودٌ مَوْجِيَةٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ » وأن الساعة آتية لا ريب فيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ • فبه سبحانه وتعالى
بهنا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه لا حقيقة له من نفسه ؛ لأنه مسخر
مصرف • والحق الحقيقي : هو الوجود المطلق النقي المطلق ؛ وأن وجود كل ذى وجود
عن وجوب وجوده ؛ ولهذا قال في آخر السورة : « وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ »^(٢) •
والحق الموجود الثابت الذى لا يتغير ولا يزول ، وهو الله تعالى • وقيل : ذو الحق على
عباده • وقيل : الحق بمعنى فى أمثاله • وقال الزجاج : « ذَلِكَ » فى موضع رفع ؛ أى الأمر
ما وُصف لكم ويؤيد • (ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ أَتَى اللَّهُ الْكَافِرَ) أى لأن الله هو الحق • قال : ويحوز أن يكون

(١) الخمل : الذى يحمل فيه ، أى يترى ويمشى ولا يشعر به السيد • والضمى : الشجر ، ولرب يقول :
أحببت القباب ذئب الضمى ؛ وإنما صار كذلك لأنه لا يباشر الناس إلا إذا أراد أن يخرى • والضراء : (بالفتح والله) :
الشجر الخلف فى الرمال يترى من دخل فيه • وتلان بمعنى الضراء : إذا شئ مستغنيا عما يورث من الشجر •

(٢) أى من ضلع الأمل « على الحق الذى منى كما فى قوله » •

« ذلك » نصبا ، أى فصل الله ذلك بأنه هو الحق . (وَأَنَّهُ يَتَىٰ لِلَّهِ) أى بأنه
 (وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى وبأنه قادر على ما أراد . (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) صفة على
 قوله : « ذلك » بأن الله هو الحق ، من حيث التلقظ وليس صلفا فى المعنى ، إذ لا يملك
 فعل الله ما ذكره بالساعة آتية ، بل لا بد من إظهار فعل يتضمنه ، أى وليحلوا أن الساعة آتية
 (لَا رَيْبَ فِيهَا) أى لا شك . (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) يريد للثواب والعقاب .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
 وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ ① ثَانِي عِظْمِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي النَّاسِ
 خِزْيٌ وَنَذِيرٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيرِ ② ذَلِكَ بِمَا قَسَمْتَ
 يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ③

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ)
 أى يترى الجملة . زلت فى النضرين الحارث . وقيل : فى أبى جهل بن هشام ، قاله ابن عباس .
 والمعظم على أنها زلت فى النضرين الحارث كآية الأولى ، فهما فى فريق واحد ، والآخر
 للبالغة فى العلم ، كما تقول للرجل تلذته وتوبخه : ماتت فقلت هذا ! أنت فقلت هذا ! ويحذر
 أن يكون التكرار لأنه وصفه فى كل آية بزيادة ، فكأنه قال : إن النضرين الحارث يحل فى الله
 بغير علم ويتبع كل شيطان مرید ، والنضرين الحارث يحل فى الله من غير علم ومن غير هدى
 وكلاب منير ؛ ليضل عن سبيل الله . وهو كقولك : زيد يشتغى وزيد يضرب ؛ وهو تكرار
 مفيد ؛ قاله القشيري . وقد قيل : زلت فيه بضع عشرة آية . فالمراد بالآية الأولى
 إنكاره البعث ، والثانية إنكاره النبوة ، وأن القرآن مقل من جهة الله . وقد قيل : وكان
 من قول النضرين الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا جدل فى الله تعالى . « مِنْ »
 فى موضع رفع بالابتداء . والخبر فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ » . (ثَانِي عِظْمِهِ) نصبا على الحارث .
 ورتل على منين : أحسا - روى عن ابن عباس أنه قال : هو الضرب بالقبضة .

لَوَى صَغَةً مَرَّتًا وَتَطَلَّأَ . والمعنى الآخر - وهو قول القراء - أن التقدير، ومن الناس من
يحادل في الله بهجر علم تأتي عطفه، أي مُتَّعِيًا عن الذكر، ذكره للعصا . وقال مجاهد
وقائدة : لا يَأْتِي عَظْمُهُ كُفْرًا . ابن عباس : مُتَّعِيًا مَا يَدْعَى إِلَيْهِ كُفْرًا . والمعنى واحد .
وروى الأوزاعي عن عطاء بن حنين عن هشام بن حسان عن ابن عباس في قوله عز وجل :
« إِنِّي عَظِّفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال : هو صاحب البدعة . للبرد : العطف ما انتفى من
المتى . وقال المفضل : والعطف الجانب، ومع قولهم : فلان ينظر في أعطائه، أي في جوانبه .
وعطفًا الرجل من لُذَّ رأسه إلى وَرِكَه . وكذلك عطفًا كل شيء جانباه . ويقال : نَتَّى
فلان مني عطفه إذا أمرض منك . فالمعنى : أي هو معرض عن الحق في جداله ومُؤَلَّ
عن النظر في كلامه، وهو كقوله تعالى : « وَلَوْ مُسَكَّرًا لَمْ تَسْمَعُوا » . وقوله تعالى :
« تَوَلَّوْا رُءُوسَكُمْ » . وقوله : « أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ » . وقوله : « ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُتِلَى » .
(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي عن طاعة الله تعالى . وقرئ : لِيُضِلَّ « فَنَحَ الْيَاءُ . واللام
لام العاقبة ، أي يحادل فيضل، كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا » أي فكان لهم
كذلك . وظهير « إِنَّا فَرَقْنَاهُ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا » . (لَهُ فِي الدُّنْيَا نِزْرَى) أي هوان
وذلك بما يجري له من الذكر القبيح على السنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال : « وَلَا تُطِيعُ
كُلَّ سَلَاةٍ مَهِينٍ » الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقيل : الخزي
ها هنا القتل، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبرًا، كما تقدم
في آخر الأفعال . (وَيَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) أي نار جهنم . (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ
يَدَاكَ) أي يقال له في الآخرة إذا دخل النار : فذاك العذاب بما قدمت يداك من المعاصي
والكفر . وعبر باليد من الجملة، لأن اليد التي فعل وتبشيط الجملة . و « ذَلِكَ » بمعنى هذا،
كما تقدم في أول البقرة .

- | | | |
|-------------------------|--|---------------------------|
| (١) آية ٧ سورة قمان = | (٢) آية ٥ سورة المائدة . | (٣) آية ٨٢ سورة الإسراء . |
| (٤) آية ٢٢ سورة القباة | (٥) آية ٨ سورة القصص . | (٦) آية ٥ سورة النسا |
| (٧) آية ١٠ سورة القلم . | (٨) راجع ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو الثالثة . | |

قوله تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ خَيْرَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدِّينِ وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ لَطْمَاسُ أَلْمِينِ ۝**

قوله تعالى : (**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**) « من » في موضع رفع بالابتداء ، وانحتم ما قبله من وجبه « على قرأته اليهود خيره » . وهذه الآية خبر عن المنافقين قال ابن عباس : يريد شيعة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أوحى إليه أن يذهب شيعة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخدري : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله ، فقتلهم بالإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : **أَقْبَلِي** . قال : **إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُقَالُ** . فقال له : **أَنْتِي** لم أصب في ديني هذا خيرا ! ذهب بصرى ومالى وولدى ! فقال : **يَا يَهُودِي** . إن الإسلام يقبلك الرجل كما يقبل النار تحت الحديد والفضة والذهب » . فأنزل الله تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ** . . . وروى إسرائيل عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ** » قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولعت كمراته غلاما ونجحت خيله قال هذا دين صالح ، فإن لم تده كمراته ولم تنج خيله قال هذا دين سوء . وقال للمفسرون : **وَلَتَ فِي أَهْرَابِ كَاتِبٍ يَتَقَدَّمُونَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسْأَلُونَ** ، فإن تألوا وعلم أكلوا ، وإن تألمهم شقة أوتلوا . وقيل **وَلَتَ فِي النَّصْرِ مِنَ الْخَلْقِ** . وقال ابن زيد وغيره : **وَلَتَ فِي الْمُنَافِقِينَ** . ومعنى (**عَلَى حَرْفٍ**) على شك ، قال جلعده وغيره : وحقيقته أنه على ضعف في عبادته ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . وحرف كل شيء طرفة وشيفه وحده ، ومنه حرف الجبل ، وهو أعلاه المقعد . وقيل : « **عَلَى حَرْفٍ** أى على وجه واحد ، وهو أن يعبد على السراء دون الضراء ، ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والعسر على الضراء لما عبدوا الله على حرف » . وقيل : « **عَلَى حَرْفٍ** » على شرط ، وذلك لأن شيعة بن ربيعة قال النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر اسمه : **لَأُدْعَى عَلَى يَدَيْكَ اللَّهُ بِمُخَالَفَتِي هَذَا وَلَا**

وخلا وولنا حتى لو من يك وليلك؛ فعدا له فوزه لله من وجل ما تنهى، ثم لم يرد
 اقصه من وجل فخصوا اختياره وهو أعلم به فآخذ منه ما كان رزقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام
 فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « ومن التائب من يبد الله على حرف » يريد شرط . وقال
 الحسن : هو المتائب يبد الله بسأته دون قلبه . وبالجملة فهذا الذي يبد الله على حرف ليس
 داخلا بكتبه ، وبين هذا بقوله : (فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ) محبة جسم ورضاء مبيشة رضى وأقام
 على دينه . (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ) أى خلاف ذلك مما يجنبه (أَقْلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) أى أردت
 فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر . (خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ)
 قرأ مجاهد وحيد بن قيس والأعرج والزهرى وآبن أبى إسحاق - وروى عن يعقوب -
 « خاسر الدنيا » بالتاء ، نصبا على الحال ، وعليه فلا يوقف على « وجهه » . وخسرانه الدنيا
 بأن لا حظ له فى خيمة ولا ثناء ، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ
 هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١٧

قوله تعالى : (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى هذا الذى يرجع إلى الكفر يبد الصم الذى
 لا يسمع ولا يضر . (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) قال الفراء : الطويل .

قوله تعالى : يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمُبْرِكُ
 وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ١٨

قوله تعالى : (يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) أى هذا الذى اقلب على وجهه يدعو
 من ضره ليدفع من نفعه ؛ أى فى الآخرة لأنه بعبادته دخل النار ، ولم ير منه قسا أصلا ، ولكنه
 قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعا للكلام ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا لَأُرَايَكُمْ لَعْنَةً لِيُؤْذِيَ
 أَرْبُوحَ خَمَلِكُمْ مِنْهُمْ » وقيل : يبدونهم قوم أنهم ينصون لهم فدعاكم ، قال الله تعالى :
 (١٨) آية ١٨ سورة مائدة .

« وَيَسْأَلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ »
 وقال تعالى : « مَا تَعْلَمُونَ إِلَّا بِالْغُرُوثِ ^(١) إِلَى اللَّهِ رُفُوعُ ^(٢) » . وقال الفراء والكسائي والزجاج : معنى
 الكلام القسم والتأخير ؛ أى يدعو والله لمن ضره أقرب من نفسه . فاللام مقدمة في ضربه
 موضعها . و « من » في موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القسم . و « ضره » مبتدأ
 و « أقرب » خبره . وضعت النحاس تأخير اللام وقال : وليس للام من التصرف ما يوجب
 أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد توتر ؛ قال الشاعر :

خَالِي لَا تِ وَمَنْ جَرِيرٌ خَالُهُ • يَنْبِلُ الْمَلَأَ وَيُكْرِمُ الْأَخْوَالَ

أى نطالى أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا على بن سليمان عن محمد بن يزيد قاله :
 في الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفسه إلهاً . قال النحاس : وأحسب
 هذا القول غلطاً على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ، لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصبه
 إلهاً ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل في الآية
 حدى ، والله أعلم ، قال : « يدعو » بمعنى يقول . و « من » مبتدأ وخبره محذوف ، والمعنى
 يقول لمن ضره أقرب من نفسه إلهاً .

قلت : وذكر هذا القول القشيري رحمه الله عن الزجاج والمهدوي عن الأخفش ، وكل
 إعرابه فقال : « يدعو » بمعنى يقول ، و « من » مبتدأ ، و « ضره » مبتدأ ثان ، و « أقرب »
 خبره ، والجملة صلة « من » ، وخبر « من » محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من
 نفسه إلهاً ، ومثله قول عترة :

يَدْعُونَ عَسْتَرُ وَالرَّاحَ كَانَهَا • أَشْطَلَانُ بَرٌّ فِي كِبَانِ الْأَدْعَمِ ^(٣)

قال القشيري : والكافر الذى يقول الصنم مبدوى لا يقول ضره أقرب من نفسه ؛ ولكن
 المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفسه في قول المسلمين مبدوى وإلى . وهو كقول

(١) آية ١٨ سورة يونس . - (٢) آية ٣ سورة الزمر . - (٣) الأشطان : جمع شطن مخرج
 البئر . والبان (فتح اللام) : همدون . والأدم : القرس . يريدان الراح في صدر هذا القرس بمنزلة جبال القرم
 الدلاء ؛ لأن البئر إذا كانت كثيرة الحفرة اضطربت القلوب فيها فيبطل لما سيلان للا تغطرب . (من شرح المصنف)

تعالى . « يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ » ؛ أى يا أيها الساحر عند أولئك الذين يدعوك ساحرا .
وقال الزجاج : يجوز أن يكون « يدعو » فى موضع الحال ، وفيه هاء مخوفة ؛ أى ذلك هو
الضلال البعيد يدعو ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى « يدعو » هاء مضمرة ، ويوقف على
هذا على « يدعو » . وقوله : « لَمَّا ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْسِهِ » كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ،
وخبره « لَيْسَ الْمَوْلَى » ، وهذا لأن اللام للبعين والتوكيد بغطها أول الكلام . قال الزجاج :
ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى ، ويكون فى محل النصب بوقوع « يدعو » عليه ؛ أى
الذى هو الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال : « وَمَا تَلَكَ بِحَيْثُ يَا مُوسَى » أى ما الذى . ثم قوله
« لَمَّا ضَرَّهُ » كلام مبتدأ ، و « لَيْسَ الْمَوْلَى » خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى
هو الضلال البعيد ؛ فتم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدا يضرب ؛ واستحسنه أبو علي .
وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

مَدَسْ مَا لِبَابِ طَيْبِكَ إِمَارَةٌ • تَجَوَّيْتُ وَهَذَا تَحْمِيلُ طَلِيقٍ ^(١)

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والفراء : يجوز أن يكون « يدعو » مكررة على ما قبلها ،
على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تُعَدُّ إِذْ قَدْ عُدَّتْهُ أَوَّلًا ؛ أى يدعو من دون
الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذفت يدعو الأخرى
إكفاء بالأولى . قال الفراء : ويجوز « لَمَّا ضَرَّهُ » بكسر اللام ؛ أى يدعو لى مَنْ ضَرَّهُ
أقرب من نفسه ، قال الله عز وجل : « بَأْسَ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقال الفراء أيضا
والفقال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضَرَّهُ أقرب من نفسه ؛ أى يبعده . وكذلك هو فى قراءة
عبد الله بن مسعود . (لَيْسَ الْمَوْلَى) أى فى التناصر (وَلَيْسَ الْعَشِيرُ) أى المعاصر والصاحب
والخليل . مجاهد : يعنى الوثن .

(١) آية ٩ : سورة الزمر . (٢) هذا البيت أول آيات ليزيد بن ربيعة بن شريك الحميرى . وهو من
عبد الله بن لیسع . وعباد هو ابن زياد أخو عبد الله بن زياد الذى قاتل الحسين بن علي رضي الله عنهما فى كربلاء .
كما ابن شريك هذا عابدا لعبد علي ورفاء ؛ فأخذ أخوه عبد الله وجبه وطبعه ؛ فلما طال حبه دخل أهل ابن ال
فتأخروا فتشاوروا فيه فأطلق سراجه . (راجع ترجمته فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ونزارة الأدب الهادي فى التأخذ
فالتأخذ بعد الثلاثة والثمان والعشرين بعد الأربعمائة)

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ**
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)
 لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضا . (إِنَّ
 اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) أي يثبت من يشاء وينزع من يشاء ، فلمؤمنين الجنة بحكم وعده
 الصديق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ؛ لا أن فعل الرب معال بفعل العبد .

قوله تعالى : **مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**
فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ
مَا يَغِيظُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
 السَّمَاءِ) قال أبو جعفر الناس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر
 الله عبدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتأمله أن يقطع النصر الذي أوتيه . (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)
 أي يطلب حيلة يصل بها إلى السماء . (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) أي ثم يقطع النصر إن تأمله . (فَلْيَنْظُرْ
 هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ) وحيلته ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم . والفائدة في الكلام
 أنه إذا لم يتأمله الكيد والحيلة بأن يعمل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن
 عباس : إن الكتابة في « ينصره الله » ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يمر
 ذكره بجمع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والاعقاب
 من الذين اقلاب من الذين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي من كان يظن بمن
 يمدى عبدا صلى الله عليه وسلم ومن يعبد الله على حرف أنا لا تنصر عبدا فليقل كذا وكذا .
 وعن ابن عباس أيضا أن للماء تسود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه
 فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير في حياة مخلوق من عون الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

يقول العرب : من ينصرني نصره الله ؛ أى من أعطاني أعطاه الله . ومن ذلك قول العرب :
أرض منصورة ؛ أى مخطورة . قال الفقهاء^(١) :

وانك لا تملأ أسرا فوق حقه . ولا تملك الشئ الذى الفيت ناصره
وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه .
وهو قول أبى عبيدة . وقيل : إن الماء تعود على الدين ؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر
الله دينه . (فَلْيَعْبُدْ رَبَّ) أى يحبل . والسبب ما يتوصل به إلى الشئ . (إلى السماء) إلى
سقف البيت . ابن زيد : هى السماء المرفوعة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام .
قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية ؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والقاف ، لأنها يوقف عليها
وتفرد . وفى قراءة عبد الله « فليقطعه ثم لينظر هل يذهبن كيدُ ما يفيظ » . قيل : « ما »
بمعنى الذى ؛ أى هل يذهبن كيدَه الذى يفيظه ، فحذف الماء ليكون أخف . وقيل : « ما »
بمعنى المصدر ؛ أى هل يذهبن كيدَه غيظه .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يُرِيدُ^(١١)

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ) يعنى القرآن . (وَأَنَّ اللَّهَ) أى وكذلك
أن الله (يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) ، علق وجود الهداية بإرادته ؛ فهو الهادى لا هادى سواه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^(١٢)

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . (وَالَّذِينَ هَادُوا)
اليهود ، وهم المنسوبون إلى ملة موسى عليه السلام . (وَالصَّادِقِينَ) هم قوم يهدون النجوم .

(١) فى الأصول الفقهاء . والمصوب من تحريك الظرف .

(وَالْمَسَارَى) هم المنسبون إلى مكة جوس . (وَالْمَسَارَى) هم عبدة العيلان القاطنين أن السالم
 أصليين ، نور وغللة . قال قتادة : الإلهان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل
 المحوس في الأصل النجوس لندبتهم باستعمال الجباسات ، وللمح والنون يتماثلان كالنجم والنجم ،
 والآيم والأين . وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفى . (وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) هم العرب عبدة
 الأوثان . (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي يفضي ويحكم ، فللكافرين النار ، وللمؤمنين
 الجنة . وقيل : هذا الفصل بأن يوزنهم الحق من المبطل بمعركة ضرورية ، واليوم يتميز الحق
 عن المبطل بالنظر والاستدلال . (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أي من أعمال خلقه وحركاتهم
 وأحوالهم ، فلا يترتب عنه شيء منها ، سبحانه ! وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ » خبر « إِنَّ »
 في قوله « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا » ، كما تقول : إن زيداً إن الخير عنده . وقال الفراء : ولا يجوز
 في الكلام إن زيداً إن أخاه مطلق ، وزم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة ؛
 أي من آمن ومن تهود أو تنصر أو صبا يفصل بينهم ، وصاحبهم على الله عز وجل . ورد
 أبو إسحاق على الفراء هنا القول ، واستصح قوله : لا يجوز إن زيداً إن أخاه مطلق ؛ قال :
 لأنه لا فرق بين زيد وبين الذين ، وإن تدخل على كل مبتدا فتقول إن زيداً هو مطلق ،
 ثم تأتي بإن فتقول : إن زيداً إنه مطلق . وقال الشاعر :

إن الخليفة إن الله مرسله • يرسل مرسلاً به ترجى الخطوات

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ
 فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
 وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَا لَّهُ مِنْ
 مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧﴾

(١) راسح ١ من ٤٣٣ طبة ثانية أو ثالثة . (٢) ويرى : « حرس » بالزاي والهمزة والزيادة
 السوق . والمراتب جمع الخاتم لغة في الخاتم . يريد أن ملاطين الآفاق يرسلون إليه خواتمهم خروفاً من فضات
 ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من نصيحة لجرير يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . (من خواتم الأصب) .

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) هذه رؤية القلب ؛ أي أَلَمْ تَرَ بِطريقك وعقلك . وتقدم معنى السجود في « البقرة » ، وسجد الجناد في « النمل » .
 (وَالشَّمْسُ) معطوفة على « مَنْ » . وكذا (وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّنُوبُ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ) . ثم قال : (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) وهذا مشكل من الإعراب ، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل ؛ مثل « وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » ؟
 فزعم الكسائي والقرطبي أنه لو نصب لكان حسنا ، ولكن أخير الرفع لأن المني وكثير أبي السجود ؛ فيكون ابتداء وخبر ، وتم الكلام عند قوله « وكثير من الناس » . ويجوز أن يكون معطوفا ، على أن يكون السجود التذلل والافتقار لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة ومحنة وسقم وحسن وقبح ، وهذا يدخل فيه كل شيء . ويجوز أن ينصب على تقدير : وأهان كثيرا حتى عليه العذاب ، ونحوه . وقيل : تم الكلام عند قوله « والدُّنُوبُ » ثم ابتداء فقال « وكثير من الناس » في الجنة « وكثير حتى عليه العذاب » . وكذا روى عن ابن عباس أنه قال :
 المني وكثير من الناس في الجنة وكثير حتى عليه العذاب ؛ ذكره ابن الأنباري . وقال أبو العالية : ما في السموات نعيم ولا قر ولا شمس إلا يقع ساجدا لله حين ينيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه . قال القشيري : وورد هذا في خبر مسند في حق الشمس ؛ فهذا سجود حقيقي ، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل في هذا الساجد .

قلت : الحديث المسند الذي أشار إليه خريجه مسلم ، وسأيت في سورة « يس » عند قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرًّا » . وقد تقدم في البقرة معنى السجود لسنة ومعنى .
 قوله تعالى : (وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ كُمْرٍ) أي من أهانه بالشقاء والكفر لا بقدر أحد على دفع الهوان عنه . وقال ابن عباس : إن من تهاون بعبادة الله صار إلى النار .
 (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا يَسَاءُ) يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه . وحكى الأخفش والكسائي والقرطبي : (وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ كُمْرٍ) أي أكرام .

(١) راجع ج ١ ص ٢٩١ طبة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ١ ص ١٠٢

(٤) آية ٢٨ .

(٣) آية ٢١ سورة الإنسان .

قوله تعالى : هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِتَّخَصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ فَالتَّالِيَن كَفَرُوا
 قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٦١﴾ يُصْرَبُ بِهِ
 مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٦٢﴾ وَلَهُمْ مَقْنِعٌ مِّنْ حَديدٍ ﴿٦٣﴾

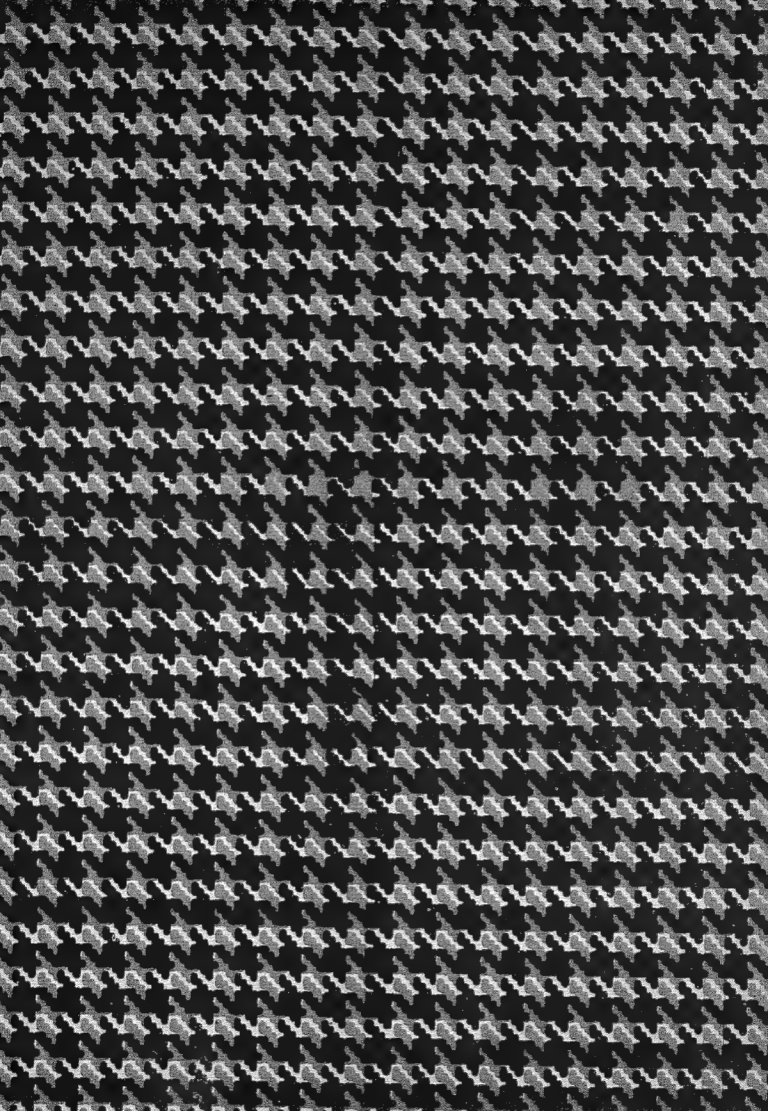
قوله تعالى : (هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِتَّخَصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ) خرج مسلم عن قيس بن عباد قال :
 سمعت أبا ذرٍّ يحم قسيًا إذ « هذان خصمان اختصموا في ريبهم » إنما نزلت في الذين برزوا يوم
 بدر : حمزة ومطى وعبيدة بن الحارث رضى الله عنهم وحبّة وشيبة أبناء ربيعة والوليد بن حبة .
 وبهذا الحديث ختم مسلم رحمه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآيات الثلاث
 على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين ؛ وسمّاهم ،
 كما ذكر أبو ذر . وقال مطى بن أبى طالب رضى الله عنه : إنى لأزول من يحثو لخصومة بين
 يدي الله يوم القيامة ؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحبه ؛ ذكره البخارى . وإلى هنا
 القول ذهب هلال بن يساف وعطاء بن يسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة
 والنار ؛ اختصمتا فقالت النار : خلقتى لعقوبته . وقالت الجنة خلقتى لرحته .

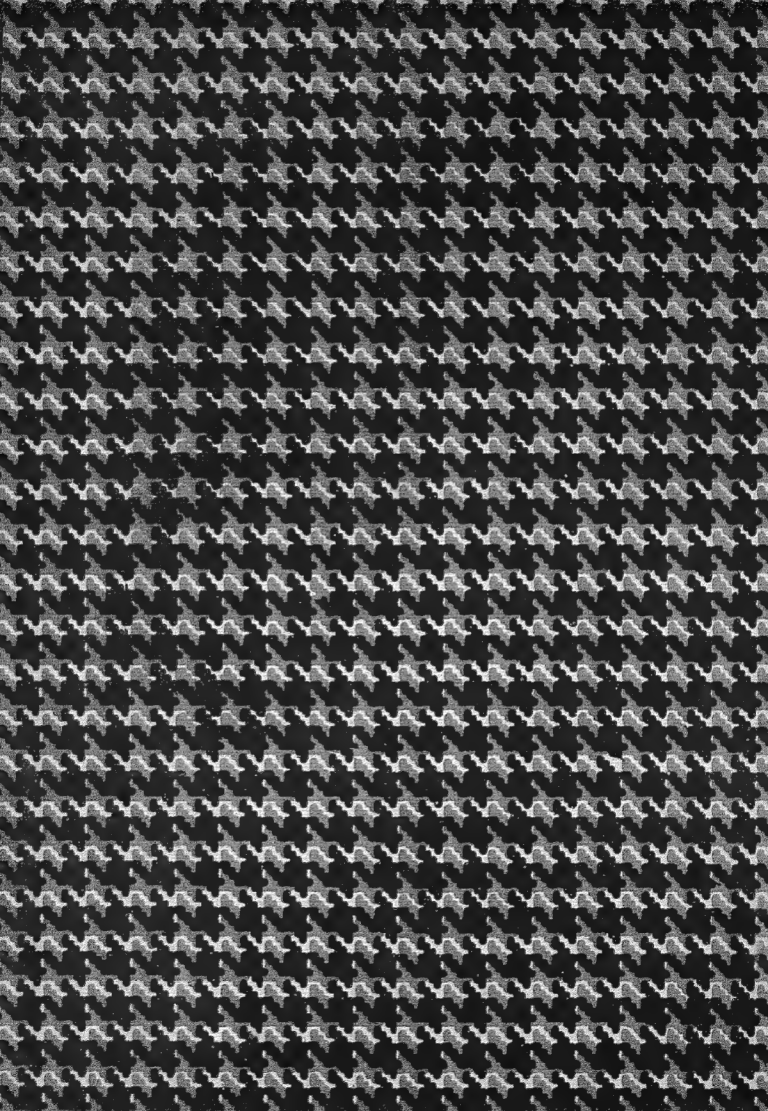
قلت : وقد ورد بتخاضم الجنة والنار حديثٌ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « اِحتجت الجنة والنار فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمكبرون وقالت
 هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابى أعذب بك من أشاء وقال
 لهذه أنت رحمتى أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما مئلاها » . أخرجه البخارى ومسلم
 والترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عباس أيضا : هم أهل الكتاب قالوا
 للمؤمنين نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق
 بالله منكم ، آمنا بمحمد وآمنا بغيركم وبما أنزل إليه من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه
 وكفرتكم به حادا ؛ فكانت هذه خصوصتهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ،
 والقول الأول أصح رواه البخارى عن حجاج بن ينال عن جُهم عن أبى هاشم عن أبى مجاز عن

قيس بن عباد عن أبي ذر ، وسلم عن عمرو بن زُرارة عن هُثيم ، ورواه سليمان التيمي عن أبي جحْز عن قيس بن عباد عن علي قال : فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر « هذان خصمان اختصموا في رهيم - إلى قوله - عذاب الحريق » . وقرأ ابن كثير « هذان خصمان » بتشديد النون من « هذان » . وتأول الفراء الخَصْمَيْن على أنهما فريخان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخرون اليهود والنصارى ، اختصموا في دين رهيم ؛ قال : فقال « اختصموا » لأنهم جمع ، قال : ولو قال « اختصما » لجاز . قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث في هذه الآية مشهور ، ورواه سفيان الثوري وغيره عن أبي هاشم عن أبي جحْز عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذر يُقسم قسماً إن هذه الآية نزلت في حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة أبي ربيعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول راجح أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أي ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رباح وعاصم بن أبي النجود والكلبي . وهذا القول بالعموم يجمع المقتل فيهم وغيرهم . وقيل : نزلت في الحصومة في البيت والحزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم . (فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا) يعني من الفرق الذين تقدم ذكرهم . (قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) أي خيطت وسويت ، وشبَّه النار بالثياب لأنها لباس لم كالثياب . وقوله (قُطِعَتْ) أي تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار ؛ وذكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالمراد منه كالأوضاع المحقق ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آتَتْكَ ثِيَابُ النَّاسِ » أي يقول الله تعالى . ويحتمل أن يقال قد أمتت الآن تلك الثياب لم ليبسوها إذا صاروا إلى النار . وقال سعيد بن جبير : « من نار » من نحاس ؛ تلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي السراويل المذكورة في « قَطِيرَاتٍ » وليس في الآية شيء إذا نسي

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أي في قوله تعالى : « مرايهم من ظلمات » آية ٥٠

سورة إبراهيم . قد قرئ « من ظلمات » و« ظلم » والنحاس والصغير المذهب . والآي التي انتهى إلى حزمه .





Bibliotheca Alexandrina



0615324